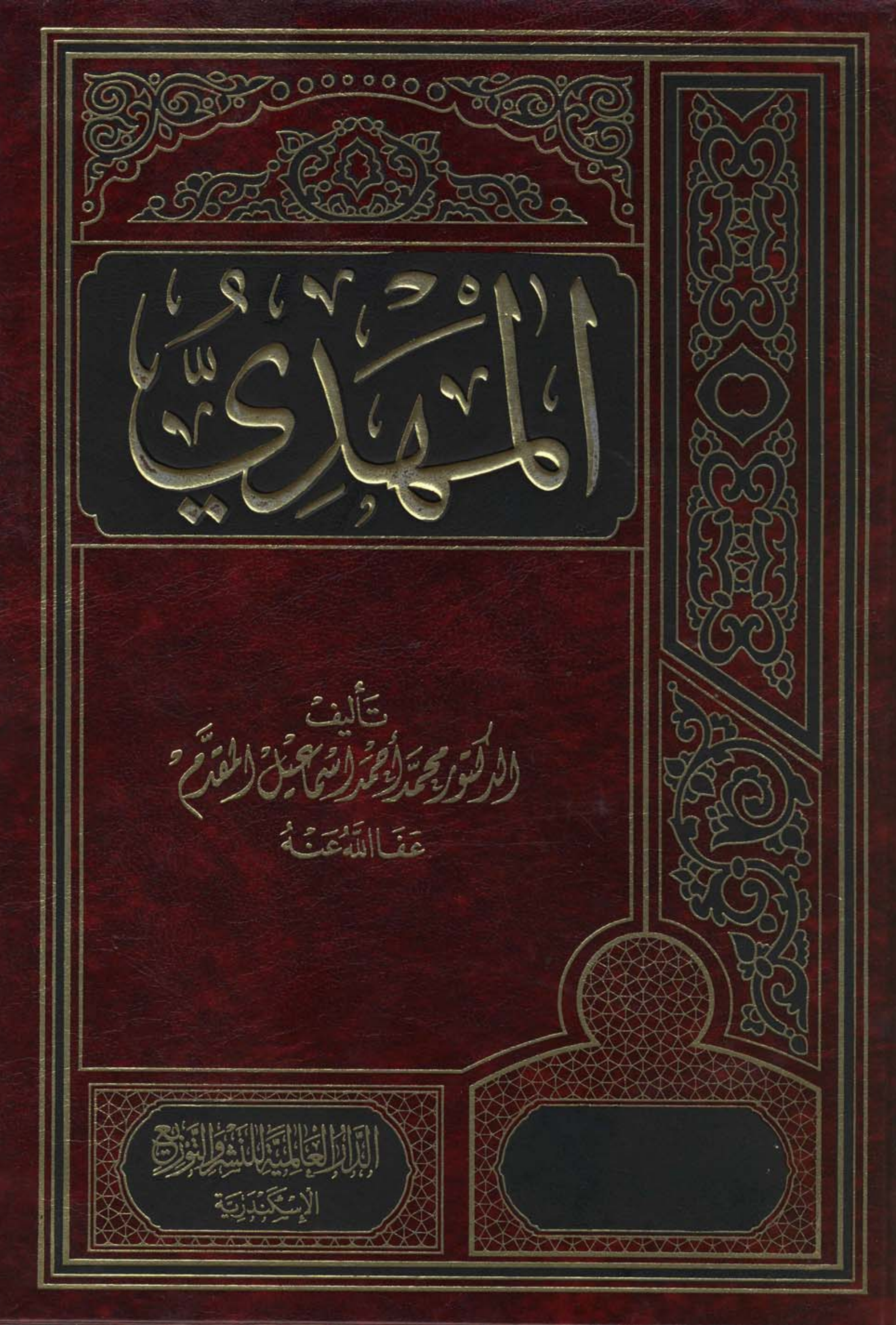
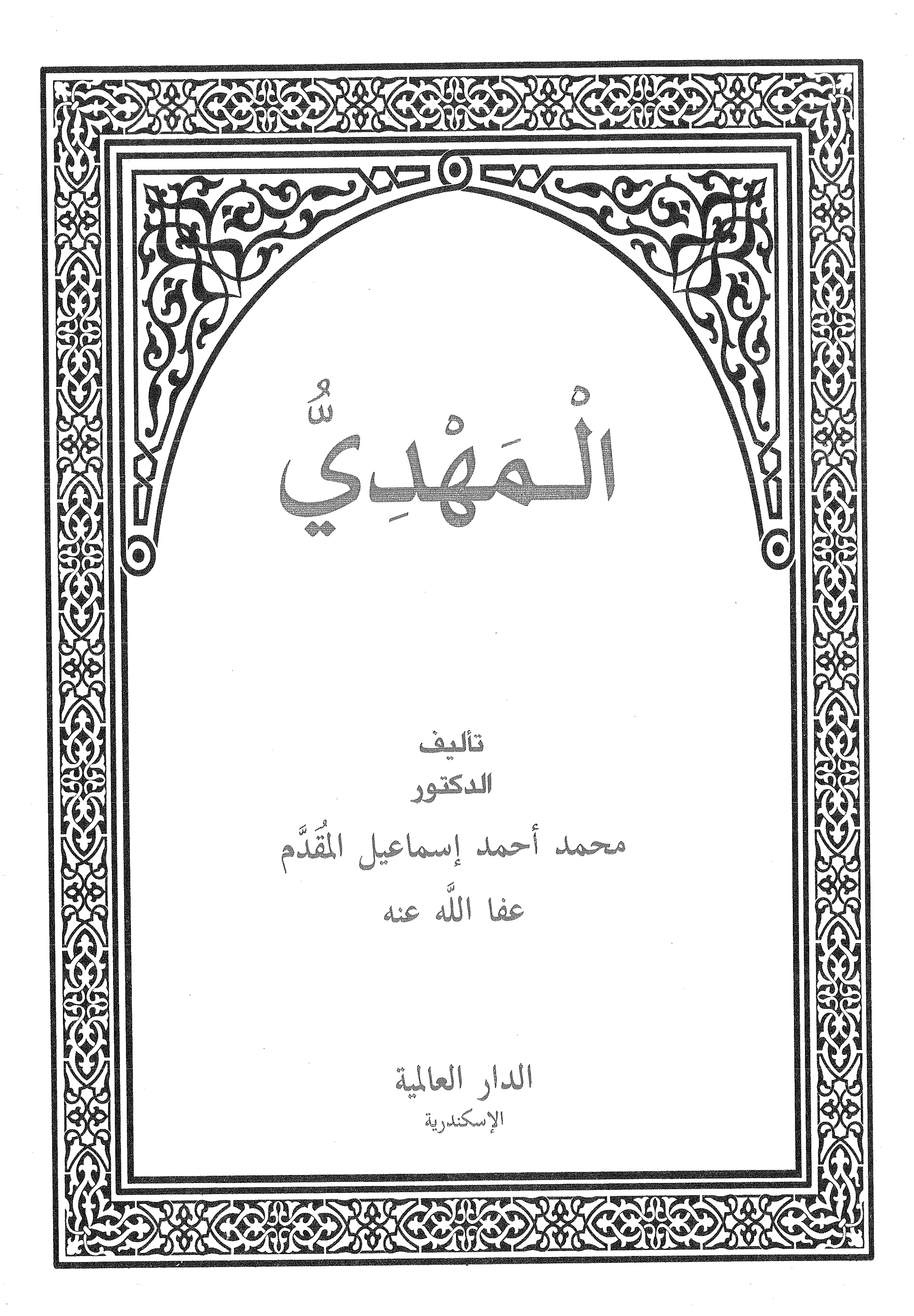

المهدي
تأليف
الدكتور محمد أحمد اسماعيل المقدم
عفا الله عنه
الدار العالمية للنشر والتوزيع
الإسكندرية

المَهْدِيُّ



الْمَهْدِيُّ

تأليف
الدكتور
محمد أحمد إسماعيل المُقَدَّم
عفا اللَّه عنه

الدار العالمية
الإسكندرية

عن حفص بن غياث قال: قلت لسفيان الثوري: «يا أبا عبدالله، إن الناس قد أكثروا في المهديِّ؛ فما تقول فيه؟»، قال: «إِنْ مَرَّ على بابك، فلا تكن منه في شيء، حتى يجتمع الناس عليه». [حلية الأولياء: ٣١/٧].

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الثامنة

الحمد لله أحمده على سُبُوغ نعمته، وأشكره على توفيقه وهدايته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له في ربوبيته، ولا نديد له في ألوهيته، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله إلى جميع بريته، بشيرًا بجنته، ونذيرًا بنقمته، صلى الله ـ تعالى ـ وسلَّم عليه وعلى آله وقرابته، الذين اختصهم الله بتطهيره وكرامته، وأصحابه الذين فضلهم على سائر أمته.

أَمَّا بَعْدُ:ـ

فما أشد حاجتنا إلى دراسة «فقه التاريخ» بعين البصيرة لا بعين التقليد؛ فالتاريخ فيه عبرة لأولي الألباب؛ إذ يكشف لنا كيف تعمل سنن الله ـ تعالى ـ، ومصير الذين يحترمون هذه السنن، ومصير الذين يخدعون أنفسهم بالقفز فوق هذه السنن التي لا تحابي أحدًا، حتى لو كان من الصالحين أصحاب النوايا الحسنة، والعاطفة الجياشة.

*وقضية «**ادِّعاء المهدية**» كانت مجالًا رحبًا لبعض الصالحين ممن يريدون الخير، وتمكين الدين، «وكم مريدٍ للخير لا يبلغه»؛ فقد التبست عليهم الأمور، وانساقوا وراء العواطف التي أَعْمَتْهُمْ عن المعايير العلمية الدقيقة التي لا يرعاها حق رعايتها إلا الراسخون في العلم، قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: «إن هذه الفتنة إذا أقبلت عرفها كل عالم، وإذا أدبرت عرفها كل جاهل» [1].

وعلى الطرف الآخر، كانت دعوى المهدية مجالًا رحبًا صال فيه وجال طُلَّاب

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٧/١٢٠-١٢١).

الدنيا، وأصحاب الهوى، وعشاق الرياسة، الذين يصدق فيهم وفي أتباعهم قول شوقي:

سُخِّر الناسُ - وإن لم يعلموا - لِغَوِيٍّ أو قَوِيٍّ أو مبين[1]
والجماعات مطايا المُرْتَقي للمعالي وجسورُ العابرين

تمتاز هذه الطبعة من «المهدي» ببيان وصفي وتحليلي لأحوال بعض مدعي المهدية، واستنباطِ العبر حتى لا تتكرر أخطاء الماضي، وكي لا نُلْدَغ من نفس الجحر فوق ما لُدِغنا، وكذا تمتاز بدراسة نقدية لظاهرة: «عدوان مدعي المهدية على مصادر التلقي»، وغيرها من الموضوعات المتفرقة التي لا تخلو - ولله الحمد - من فائدة.

اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا، أو أن نُفْتَنَ، اللهم ارزقنا هديًا قاصدًا، وجَنِّبْنَا منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء، إن ربي لسميع الدعاء، ولله الحمد والمنة، على نعمة الإسلام والسنة، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الإسكندرية في .
الاثنين ١٣ ذي القعدة ١٤٢٤هـ
الموافق ٦ يناير ٢٠٠٤م

---

(١) المبين: ذو البيان والفصاحة، الذي يخلب ألباب الناس بزخرف القول.

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ

(المهدي حقيقة لا خرافة)

إن الحمد لله، والاستعانة به، والرهبة منه، والرغبة إليه، لا يُهزم جُنْدُهُ، ولا يُخْلَفُ وَعْدُهُ، ولا ينفع ذا الجَدِّ منه الجَدُّ، سبحانه وبحمده.

وصلاة الله وسلامه وبركاته على عبده ورسوله؛ محمدٍ الذي بَيَّنَ للناس غاية البيان، وحذَّرهم من سبيل الشيطان، أرسله - تَعَالَى - بالهدى ودين الحق، بين يدي الساعة، بشيرًا ونذيرًا، وعلَّمه من علم الغيب ما أثبت به نُبُوَّتَهُ، وقرَّر به رسالته، فقامت له بذلك الحجَّة، وظهرت به للناس المحجة؛ فمن سلكها اهتدى، ومن تنكبها ضل وغوى، والمهتدي لا يضره من ضل، والضالُّ لا ينفعه من اهتدى، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان.

وبعد: فما أحسن ما قال الأصفهاني: (إني رأيت أنه لا يكتب إنسانٌ كتابًا في يوم إلا قال في غدِهِ: «لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زِيدَ كذا لكان يُسْتحْسَن، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل»، وهذا من أعظم العِبَر، وهذا دليل على استيلاء النقص على البشر).

وهذه هي الطبعة الثانية لكتاب «الْمَهْدِيُّ حَقِيقَةٌ لَا خُرَافَةٌ»، مهذبة ومنقحة عما كانت عليه الطبعة الأولى، التي صدرت على عَجَلٍ عقب أحداث الحرم المكي الشريف.

ومنذ ذلك الحين تفجرت قضية «المهدية في الإسلام»، وصارت حديثَ الخاصَّة والعامَّة:

أما الخاصة، فقد خرج كثير منهم عن الاعتدال في هذه المسألة؛ فبالغ طائفة في الإنكار، حتى رَدُّوا جملة من الأحاديث الصحيحة، وقابلهم آخرون؛ فبالغوا في الإثبات، حتى قبلوا الموضوعات، والحكاياتِ المكذوبةَ؛ وأما العامة، فصاروا في حيرة

وتذبذب، ما بين مُصدِّقٍ ومُكَذِّبٍ، ولا يكاد الخلاف ينقضي عبر صفحات الجرائد والكتب التي صُنِّفَتْ، وتحقق بها صِدْقُ قولِ القائل: «لو سكت من لا يعلم قَلَّ الخلاف».

وكما أن من مقتضيات الشهادة بأن محمدًا ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ رسولُ الله ـ طاعته فيما أمر، واجتنابَ ما نهى عنه وزجر، وأن لا يُعْبَدَ اللهُ إلا بما شرع، كذلك من مقتضياتها الأولية تصديقه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ بكل ما أخبر.

وقد أخبر ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ عن رجال من الماضين بقصص كثيرة:

ـ مثل حديث الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار؛ فتوسلوا إلى الله ـ تَعَالَى ـ بصالح أعمالهم، ففرج عنهم.

ـ وحديث الأبرص، والأقرع، والأعمى.

ـ وحديث الرجل الذي اشترى من رجل عقارًا، فوجد في العقار جرة فيها ذهب.

ـ وحديث الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا، ثم سأل: هل له من توبة؟

ـ وحديث الرجل الذي ركب البقرة، فكلمته البقرة، والرجل الذي كلَّمه الذئب.

وهذه الأحاديث كلها في الصحيحين.

ـ وحديث الرجل الذي استسلف من رجل ألف دينار، وهو في صحيح البخاري، ومسند الإمام أحمد.

وكذا أخبر ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ بأمور كثيرة تقع في المستقبل.

وباب الإخبار بالمستقبل باب عظيم من أعلام نُبُوَّةِ الأنبياء ـ عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ، وإذا أخبر الرسول بشيءٍ من الأخبار فلا مجال للشك في وقوعها كما أخبر؛ قال ـ تعالَى ـ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]... الآية. ورسول الله محمد ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ الذي لا ينطق عن الهوى، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٤]، كان له

من أخبار المستقبل الحظُّ الوافر الذي أيّد الله به رسالته[١].

عن عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه قال: «صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ يَوْمًا الْفَجْرَ، وَصَعِدَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَخَطَبَنَا، حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ، فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ، وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ: «فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا»[٢]، وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ مَقَامًا، فَمَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ مِنْ مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَّثَهُ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي هَؤُلَاءِ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ قَدْ نَسِيتُهُ، فَأَرَاهُ؛ فَأَذْكُرُ، كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ، ثُمَّ إِذَا رَآهُ عَرَفَهُ»[٣]. وعن عمر رضي الله عنه قال: «قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ مَقَامًا، فَأَخْبَرَنَا عَنْ بَدْءِ الْخَلْقِ، حَتَّى دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ، وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ، حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ»[٤].

ومن هنا روى الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ عنه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ إخباره بكثير من الأشياء الغيبية التي أظهره الله عليها تأييدًا لنبوته؛ فقد أخبر ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ بخروج الدجّال، وذكر صفته على التفصيل، وأخبر أن عيسى ـ عليه السلام ـ ينزل من السماء، ويقتل الدجال، في أحاديث بلغت حد التواتر.

---

(١) انظرها مفصلة في «الصحيح المسند من دلائل النبوة»، للشيخ مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله، ص(٣٠٩-٤٢٤)، و«أخبار الرسول ﷺ» للشيخ محمد ولي الله النَّدْوي.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٩٢) في الفتن، باب إخبار النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ فيما يكون إلى قيام الساعة.

(٣) رواه البخاري (٦٦٠٤)، (١١/٤٩٤)، «فتح» في القدر، باب: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾؛ ومسلم (٢٨٩١) في «الفتن»، باب إخبار النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ فيما يكون إلى قيام الساعة؛ وأبو داود (٤٢٤٠) في «الفتن»، باب ذكر الفتن ودلائلها.

(٤) رواه البخاري (٦/٢٨٦) في بدء الخلق، باب ما جاء في قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، تعليقًا مجزومًا به، ووصله الطبراني، وأبو نُعَيم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَيَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ، دَعْوَاهُمَا وَاحِدَةٌ»[١].

وعنه رضي الله عنه: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ كَذَّابُونَ دَجَّالُونَ، قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِينَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ»[٢].

وعن أسماء بنت أبي بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أنها قالت للحجاج بن يوسف: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: «إِنَّ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابًا وَمُبِيرًا»، فَأَمَّا الْكَذَّابُ فَقَدْ رَأَيْنَاهُ، وَأَمَّا الْمُبِيرُ فَلَا إِخَالُكَ إِلَّا إِيَّاهُ»[٣].

هذا في جانب الإخبار عن الأشرار، أما الإخبار عن الأخيار:

فقد قال - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»[٤]. وعن يُسَيْر بن جابر «أَنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ وَفَدُوا إِلَى عُمَرَ رضي الله عنه، وَفِيهِمْ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ يَسْخَرُ بِأُوَيْسٍ، فَقَالَ عُمَرُ: «هَلْ هَاهُنَا أَحَدٌ مِنَ الْقَرَنِيِّينَ»؟ فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - قَدْ قَالَ: «إِنَّ رَجُلًا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَنِ، يُقَالُ لَهُ: أُوَيْسٌ، لَا يَدَعُ بِالْيَمَنِ غَيْرَ أُمٍّ لَهُ، قَدْ كَانَ بِهِ بَيَاضٌ، فَدَعَا اللَّهَ، فَأَذْهَبَهُ عَنْهُ، إِلَّا مَوْضِعَ الدِّينَارِ أَوِ الدِّرْهَمِ، فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ

---

(١) رواه البخاري (٦/٦١٦) (٣٦٠٨-٣٦٠٩)، (١٢/٣٠٣) (٦٩٣٥)، (١٣/٨١) (٧١٢١)، ومسلم (٤/٢٢١٤) (٢٨٨٨)، وغيرهما.

(٢) رواه البخاري في «صحيحه»، (٣٦٠٩)، (٧١٢١)، واللفظ له؛ ومسلم في «صحيحه»، (٤/٢٢٤٠)؛ وأبو داود في «سننه»، (٤٣٣٣، ٤٣٣٤)؛ والترمذي في «سننه»، (٢٢١٨)، وقال: «حسن صحيح»، والإمام أحمد في «المسند»، (٢/٢٣٧).

واعلم أنه ليس المراد بالبعث في هذا الحديث الإرسال المقارن للنبوة، بل هو كقوله - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾... الآية. [مريم:٨٣].

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٤٥) في «فضائل الصحابة»، باب ذكر كذَّاب ثقيف ومبيرها.

(٤) رواه أبو داود (٤٢٩١) في الملاحم، باب ما يُذْكَرُ في قرن المئة؛ والحاكم في «المستدرك»، (٤/٥٢٢)، وسكت عليه هو والذهبي، وقوّاه ابن حجر، وقال السيوطي: «اتفق الحُفَّاظ على أنه حديث صحيح»، وصححه الزين العراقي، والسخاوي، والمناوي، وغيرهم.

فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ»، وفي رواية: «إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: أُوَيْسٌ، لَهُ وَالِدَةٌ، وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ، فَمُرُوهُ، فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ»، وفي رواية: «كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه إِذَا أَتَى عَلَيْهِ أَمْدَادُ[1] أَهْلِ الْيَمَنِ سَأَلَهُمْ: «أَفِيكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟» حَتَّى أَتَى عَلَى أُوَيْسٍ، فَقَالَ: «أَنْتَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟» قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: «مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ؟» قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: «فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ، فَبَرَأْتَ مِنْهُ، إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ؟» قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: «لَكَ وَالِدَةٌ؟» قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: «يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ، مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ، وَكَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ، إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ»، فَاسْتَغْفِرْ لِي، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ»[2]... الحديث. فهنا ترى النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ قد أخبر عن رجل صالح يظهر بعد زمانه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وذكر اسمه، ونسبه، وبعض تفاصيل أحواله، وقد وقع كما أخبر الصادق المصدوق ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، لم يتخلف منه شيء، فما الغريب إذن في أن يخبر النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ بخروج رجل صالح من أمته، خليفةٍ عادلٍ من أهل بيته ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ يملأ الأرض قسطًا وعدلًا، كما مُلئت ظلمًا وجَوْرًا؟!

أي شيء يُسَوِّغُ إنكار مثل هذا الخبر، وقد ثبت بالنقل الصحيح، ولم يعارضه عقل صريح؟ ولو توهَّمَ عقل قاصر معارضته، لقُدِّم النقل عليه ولا شك:

فَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا سَلِيمًا ... وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

إنَّ المهديَّ الْمُبَشَّرَ به لا يدعي نُبُوَّةً، بل هو من أتباع النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وما هو إلا خليفة راشد مهدي، من جملة الخلفاء الذين قال فيهم رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ»... الحديث[3]

(١) الأمداد: جمع مدد؛ وهم الأعوان الذين كانوا يجيئون لنصْرِ الإسلام.

(٢) رواه مسلم في «صحيحه»، (٢٥٤٢)، في فضائل الصحابة، باب من فضائل «أويس القرني» رضي الله عنه

(٣) انظر تخريجه ص(٢٦).

وهو عند أهل السنة والجماعة بشر من البشر، ليس بنبي ولا معصوم، وما هو إلا رجل من أهل بيت رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وحاكم عادل يملأ الأرض عدلًا كما ملئت جَوْرًا، يخرج في وقت تكون الأمة أحوج ما تكون إليه، فَيُحْيِي السنة، ويُزِيلُ الجور، ويبسط العدل؛ كيف إذن يورد بعض الناس إشكالًا على أحاديث المهدي، ويزعمون ـ جهلًا منهم وضلالًا ـ أنها تنافي عقيدة إسلامية راسخة؛ ألا وهي: ختم النبوة برسول الله محمدٍ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ[1]؟!

فَيُشَبِّهون على ضَعَفَةِ الأفهام، ويطلقون الكلام جِزافًا بغير خِطامٍ ولا زِمام! وإذا كان نبي الله عيسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ الذي هو أحد أولي العزم من الرسل، إذا نزل في آخر الزمان، إنما يحكم بالكتاب والسنة، ولا يأتي بكتاب جديد، ولا بشرع جديد، فغيره من الناس أولى، وأولى أن لا يأتي بكتاب جديد، ولا بشرع جديد، بعد أن أنزل ـ تعَالَى ـ قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]... الآية.

ألا فليتق اللهَ هؤلاء الذين يَهْرِفُون بما لا يعرفون، وليخلصوا النية لله في البحث عن الحق؛ فإن الحق متاحٌ لمن أراد أن يظفر به، ولن يذهب عن الحق بعيدًا من سعى بصدق نية في طلبه؛ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت:٦٩].

ولا بد أن يأتي اليوم الذي يتحقق فيه ما أخبر به الصادق المصدوق ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ تمامًا كما أخبر؛ ليقول المؤمنون عندئذٍ: ﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب:٢٢]... الآية، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص:٨٨]، والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) انظر: «عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية»، للأستاذ أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، طبع دار طيبة، الرياض، ١٤٠٥هـ.

مُقَدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الأُولَى

(المهدي حقيقة لا خرافة)

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، شهادةً أتخلص بها من عذاب يوم الدين، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩]، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [الدخان: ٤١-٤٢]. ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي بلَّغ البلاغ المبين، وبيَّن للناس ما نُزِّل إليهم، ولعلهم يتفكرون، وترك أمته على محجةٍ بيضاءَ نقيةٍ، ليلُها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك مفتون، صلى الله وسلم وبارك عليه وَعَلَى آلِهِ وصحبه وحزبه، الذين قضَوْا بالحق، وبه كانوا يعدلون.

أما بعد: فإلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - وحده المشتكى من غربة الإسلام، واشتعال نار المُلِمَّاتِ، وعموم الفتن والبليات، وتواتر النوازل والآفات، في كل قطر من أقطار الأرض، وظهور البدع والمنكرات، وغلبة الشهوات والشبهات، واستحلال المحرمات.

لقد عاد الحليم في هذا الزمان حيرانَ، يقلب وجهه في السماء باحثًا عن نجم يضيء له الطريق، ويُعيِّنُ له الهدف، ويُحدِّد له الاتجاه، وقد تلبَّد الجو بغيوم الأوهام، التي أمطرت وابلها على الأرض المجدبة، فأنبتت لفيفًا من الأقوام المتصارعةِ آراؤُهم، المتدابرة قلوبُهم، وقد جعل الله بأسَهم بينهم.

لقد أرخى الليلُ سُدولَه بأنواع المصائب والفتن؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، ونبغ في هذا الزمان أقوام أعرضوا عن المحجة البيضاء، وزاغوا عنهاْ فهلكوا مع الهالكين، وراحوا يخوضون مع الخائضين، «فمنذ مطلع هذا القرن، أو قبله، وُجدت فئة تدعو إلى ما يسمى بـ«التحرر الفكريِّ»، وتتصدر ما يُسَمَّى بـ«حركة الإصلاح الديني»[1]،

---

(١) ينبغي التَّحَفُّظ من مثل هذه الإطلاقات؛ لما قد تنطوي عليه من أفكار خبيثة؛ فالدين كما عرفه العلماء «وضع إلهي سائق لذوي العقول السليمة لما فيه صلاح دنياهم، وسعادة آخرتهم»، وهذا التعريف مأخوذ من قوله ـ تعَالَى ـ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًاۚ﴾، وحيث كان الأمر كذلك، فلا يمكن لبشر أن يتناول الدين بإصلاح أو تهذيب؛ لأن ما وضَّحه الله وأكمله لا يُتصور أن يُتناول بإصلاح، إلا أن يُقْصَدَ بذلك الإصلاح تجديدُ الدين بإحياء السنن والشرائع، وإماتة البدع والحوادث، والاجتهاد الصادر من أهله المحصلين شروطَه، والله ـ تعَالَى ـ أعلم.
يقول الشيخ علي بن بخيت الزهراني في كتابه «الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين»، ما مختصره:
«إن كلمة الإصلاح كلمة مَطَّاطَةٌ اسْتُخْدِمَتْ بكثرة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين من قِبَلِ فئات كثيرة؛ لذا كان لا بُدَّ من تحديد معالم هذا الإصلاح، ولا يكفي أن تكون الغاية هي الإصلاح؛ بمعنى أن كل من نادى بإصلاح الأوضاع يكون مصلحًا؛ فكل فئة، وكل أصحاب فكر وعقيدة ـ يدَّعون الإصلاح، حتى المنافقون: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾، [البقرة: ١١، ١٢].
والتغريبيون؛ من أمثال السلطان «محمود الثاني»، و«محمد علي باشا»، هَدَفُوا من إجراء سياساتهم وتنظيماتهم إلى الإصلاح، ولكن أي إصلاح؟ إصلاح على الطريقة الغربية يرمي في غايته إلى استبدال القوانين الغربية بالشريعة الإسلامية.
و«جمال الدين الأفغاني» و«محمد عبده» هدفا إلى الإصلاح، واعْتُبِرَا مُصْلِحَيْنِ عظِيمَيْنِ، ولكنه إصلاح على حساب المعتقدات الدينية، ولصالح الاستعمار والغرب.
والقوميون العرب، من نصارى وغيرهم، كانوا يسعون إلى الإصلاح حسب منهجهم، وقاوموا الترك، وحاربوهم لأجل ذلك.
فلا بد من تحديد مفهوم الإصلاح الذي هدفت إليه جميع الحركات الإصلاحية، واعتبرته غاية لها.
فالإصلاح مصطلح قرآني؛ قال ـ تعَالَى ـ على لسان نبيه شعيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، [هود: ٨٨]، ومعناه: الإصلاح العام للحياة والمجتمع الذي يعود صلاحه بالخير على كل فرد وكل جماعة فيه، وهو إصلاح على منهج الأنبياء، يُعْرَفُ أن نجاحه متوقف على توفيق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والتوكل عليه، وفوق ذلك الرجوع إلى الله عند السير في خطواته، والعمل من أجل تحقيقه. =

وتعمل لإِحياء المفاهيم الإسلامية في نفوس المسلمين، ولكنهم في سبيل ذلك عمدوا إلى إنكار كثير من المُغَيَّبات التي وردت بها النصوص الصريحة المتواترة، الأمر الذي يجعل ثبوتها ليس محل جدال أو ريبة، ولا سند لهم في هذا الإِنكار سوى الجموح الفكري، والغرور العقلي، وقد راجت بتأثيرهم تلك النزعة الفلسفية الاعتزالية التي تقوم على تحكيم العقل في أخبار الكتاب والسنة، وعمَّت فتنتُها حتى تأثر بها بعضُ الأغرار ممن تستهويهم زخارف القول، وتغرهم لوامع الأسماء والألقاب والمناصب، وَمِن هنا لزم أن يُوضَعَ الحقُّ في نِصابه؛ تنبيهًا لأولئك الشاردين عن منهج الرشد أنَّ تلك الأمور التي يمارون فيها ثابتة ثبوتًا قطعيًا، بأدلةٍ لا تقبل الجدل ولا المكابرة، وأنَّ من يحاولُ ردَّها، أو يُسوِّغ الطعن فيها، فهو مُخَاطر بدينه، وهو - في الوقت نفسه - قد فتح بابًا للطعن فيما هو أقلُّ منها ثبوتًا من قضايا الدين الأخرى، وبذلك نكون أمام مَوْجَةٍ من الإِنكار والتكذيب لا أول لها ولا آخر، وتصبح قضايا العقيدة كلها عرضة لتلاعب الأهواء وتنازع الآراء»[١].

وهذه محاولة لبيان صحة الاعتقاد في ظهور المهدي المنتظر، الذي أخبر بظهوره نبيُّ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، نقدمُها لتكون تبصرة لإخواننا، ومعذرة إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

= فلا بد إذن أن يكون الإصلاح على منهج الأنبياء، وبالتحديد على منهج الرسول ﷺ، الذي قام بأعظم إصلاح عَرَفَتْهُ البشرية في تاريخها الطويل، وجنى ثماره المسلمون ردحًا من الزمن تقدمًا وقوة وحضارة، وما واجب أي حركة إصلاحية، أو مصلح ديني إلا الرجوع إلى ذلك الإصلاح العظيم، ومحاولة إحيائه من جديد..

ومن هنا نقول إن الإصلاح: ما استهدف الرجوع بالأمة إلى ما كان عليه الرسول ﷺ والقرون المفضلة، في العقيدة، والعبادة، والسلوك، والمعاملة بالوسائل المشروعة، وباختصار شديد ما كان على المنهج السلفي، وأي عدول عن ذلك المنهج فلا يؤدي إلى إصلاح حقيقي يرضي الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وتتحقق من خلاله مصالح البلاد والعباد». اهـ. (١/٢٧٣ - ٢٧٤).

(١) انظر: «فصل المقال في رفع عيسى - عليه السلام - حيًّا، وفي نزوله وقتله الدَّجال»، للدكتور محمد خليل هرَّاس - رحمه الله -، ص(٣-٤).

أسأل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن ينفع بها حِزب الحق والإِيمان، وأن يقمع بها أهل الزيغ والبهتان، إنه كريم منَّان، وقد قدَّمتُ بين يديها هذه التنبيهات؛ لمسيس الحاجة إليها في دين المسلم عامة، وفيما نحن بصدده خاصة، والحمد لله رب العالمين.

المؤلف

الإسكندرية في الاثنين

الواحد والعشرين من شهر الله المحرم ١٤٠٠هـ

الموافق العاشر من ديسمبر ١٩٧٩م

تنبيهات عامة

الأول: اعلم ـ رحمك الله ـ أن الملة المحمدية تنقسم إلى اعتقاديات وعمليات.

فالاعتقاديات هي علم التوحيد، والصفات، وأصول الدين، وعمل القلب فيها التصديق، وتُسَمَّى: «أصلية».

أما العمليات فهي ما تعلَّق بكيفية العمل من الشرائع والأحكام، وتُسَمَّى «فرعية».

وعلم التوحيد هو: «العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية»؛ وعليه، فمسائل الاعتقاد هي صلب الإِسلام وأصله الأصيل، وبها يمتاز المؤمن من الكافر، وأصحاب الجنة مِن أصحاب الجحيم؛ إذا علمت هذا، فلا تغتر بقول من خالف أهل السنة والجماعة في عقائدهم، وشذ عن إجماعهم، مدَّعيًا أن هذه مسائل نظرية لا يترتبُ عليها عمل، ولا تهم المسلمَ في قليل أو كثير[١].

الثاني: إن المسائل العلمية الخبرية ممَّا ابتلى الله ـ تبارك وتعالى ـ به عبادَهُ؛ ليمتحن إيمانَهم، ويَميز الخبيث من الطيب، والمصدِّق من المكذِّب، فإن قيل «بل لا تدخلوا هذه المداخل؛ فإن صحابة رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ لم يدخلوا في شيء من هذه الأمور، وقد يسعُكم ما وسعهم».

فالجواب: نعم، كان يسعنا ما وسعهم ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ، ما لم نُبْتَلَ بمن يثير الشبهات، ويُشكِّك العوامَّ في دينهم، ومَثَلُنا معكم كمثلِ رجل في نهر عظيم كثير الماء، كاد أن يغرق من قِبَل جهلِهِ بالمخاضة[٢]، فيقول له آخرُ: «اثبت مكانك، ولا تطلبن المخاضة»، وَيَسَعُنا ما وسعهم ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ لكن ليس بحضرتنا مثل الذي كان بحضرتهم، وقد ابْتُلِينَا بمن يطعن علينا، فلا يسعنا أن لا نعلمَ من المخطئ منا والمصيبُ، مع أن الرجل إذا كفَّ لسانه عن الكلام فيما اختلف الناس فيه ـ وقد سمع

(١) انظر ص(١٦٣)، وانظر «معجم المناهي اللفظية»، ص(٤٩).

(٢) المَخَاضة من النهر الكبير: المَخَاض، وهو الموضع القليل الماء الذي يعبر فيه الناسُ النهر مشاةً ورُكبانًا ـ «المعجم الوسيط» (١/٢٧١).

ذلك ـ لم يُطِقْ أن يكف قلبه؛ لأنه لا بد للقلب من أن يكره أحد الأمرين، أو الأمرين جميعًا، أما أن يحبهما جميعًا ـ وهما مختلفان ـ، فهذا ما لا يكون، وإذا مال القلب إلى الجوْر أحبَّ أهله، وإذا أحبَّ القوم كان منهم؛ وإذا مال القلب إلى الحق وأهله، كان لهم وليًا؛ وذلك لأن تحقيق الأعمال لا يكون إلا من قِبَل القلب[(١)].

الثالث: تنازع السلفُ في كثير من مسائل الأحكام، ولم يتنازعوا ـ بحمد الله ـ في أصول التوحيد؛ بل أثبتوها، وصدَّقوا بها، بغير تأويل ولا تبديل، ولا تكذيب، فسُمُّوا أهل السنة والجماعة؛ خلافًا لأهل البدع والافتراق؛ ذلك أن الخلاف في الفروع دائر بين الخطإ والصواب، وصاحبه المجتهد دائر بين الأجر مع العذر، وبين الأجرين مع الشكر؛ أما الخلاف في أصول الدين فدائر بين الحق والضلال، وصاحبُه دائر بين الكفر والإيمان، وبين الهلاك والنجاة، ولا سبيل إليها إلا باتباع مذهب السلف؛ والمراد بمذهب السلف في العقائد ما كان عليه الصحابة الكرام ـ رضوَان الله عليهم ـ، وأعيان التابعين لهم بإحسان، وأئمة الدين ممن شهدت لهم الأمة الوسط بالإمامة، وعُرف عِظم شأنهم في الدين، وتلقى الناس كلامهم خَلَفٌ عن سلف، دون من رُمِي ببدعة، أو اشْتُهِرَ بقلب غير مَرْضِيٍّ؛ مثل الخوارج، والشيعة، والقدرية، والمرجئة.

الرابع: ومنشأ فساد الأمم والأديان إنما هو تقديم الرأي على الوحي، والهوى على الشرع، والعقل على النقل، وما استحكمت في أمة إلا تم خرابها، وأصل ضلال الفرق أنهم يبتدعون أصولًا توافق أهواءهم، ثم يقدمونها على النصوص الصريحة، فيتحكمون بها في الأدلة النقلية، وقد أُمِرُوا أن يتحاكموا إليها، أما الأحاديث فيكذِّبونها، وأما الآيات فيؤوِّلونها، ويحرفونها عن مواضعها.

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»، في شرحه لحديث حذيفة رضي الله عنه «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»: «ويؤخذ منه ذم من جعل للدين أصلًا خلاف الكتاب والسنة،

---

(١) انظر: «العالم والمتعلم» المنسوب إلى أبي حنيفة النعمان، ص(٣٤-٣٥).

وجعلهما فرعًا لذلك الأصل الذي ابتدعوه، وفيه وجوب رد الباطل، وكُلِّ ما خالف الهدي النبوي، ولو قاله من قاله، مِن رفيع أو وضيع»[١]. اهـ.

الخامس: من لم يُسَلِّمْ للمنقول، وقابله بالرد المعقول، فهو ضالٌّ مخبول، قال الطحاوي ـ رحمه الله ـ: «ما سَلِم في دينه إلا من سَلَّمَ لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ولرسوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، ورَدَّ علم ما اشتبه عليه إلى عالِمِه»، وهذا هو ما سلكه السلف الصالح ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ، ومن لا يسلكْ سبيلهم فإنما يتكلم برأيه، ومن يتكلمْ برأيه، وما يظنُّه دينَ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ولم يتلَقَّ ذلك من الكتاب والسنة، فهو مأثوم، وإن أصاب الحق؛ ومن أخذ من الكتاب والسنة فهو مأجور، وإن أخطأ، لكن إن أصاب يضاعف أجره، وقال الطحاوي ـ أيضًا ـ: «ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حُظِر عنه عِلْمُه، ولم يقنع بالتسليم فهمُه، حجبه مَرامُه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان»[٢]. اهـ.

وقال العلَّامَةُ محمد حبيب الله الشنقيطي ـ رحمه الله ـ:

«هذه السمعيات التي صحت الأحاديث فيها ليس للمسلم السليم العقيدة إلا تصديقها، دون تزلزل في العقيدة؛ إذ لا مجال للعقل، عند أهل السنة، إلا بقدر ما ثبت من النقل، كما أشار إليه ابن عاصم في «مرتقى الوصول إلى علم الأصول» بقوله:

«إِذْ لَيْسَ لِلْعَقْلِ مَجَالٌ فِي النَّظَرْ ... إِلَّا بِقَدْرِ مَا مِنَ النَّقْلِ ظَهَرْ»[٣]. اهـ.

السادس: والفرقة الناجية هي التي تتبعُ مذهب السلف، وهي باقية إلى قيام الساعة؛ لقوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وقد سُئِل عن صفتها، فقال: «هِيَ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»[٤]، وقوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي

---

(١) «فتح الباري»، (٣٧/١٣).

(٢) «شرح الطحاوية»، ص(١٤٠)، (١٥٥).

(٣) «فتح المنعم»، (١٧٤/٢).

(٤) عَجُز حديث رواه الترمذي، (٢٦٤١)، وقال: «حديث مُفَسَّر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه»؛ والحاكم (١٢٨/١-١٢٩)؛ والآجُرِّي في «الشريعة»، ص(١٥)، وفي سنده =

ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»[(١)]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «الْجَمَاعَةُ مَا وَافَقَ الْحَقَّ، وَإِنْ كُنْتَ وَحْدَكَ»، قال نُعَيْمُ بن حَمَّاد: «يعني إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد، وإن كنت وحدك؛ فإنك أنت الجماعة حينئذ»[(٢)]، وعن سفيان الثوري قال: «لو أن فقيهًا على رأس جبل، لكان هو الجماعة»[(٣)].

والفرقة الناجية في هذه الأزمان ليست هي «السواد الأعظم»؛ لأن كثرة العدد لا تأثير لها في ميزان الحق؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام:١١٦]، وقال ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً: اثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ»[(٤)].

ولا تقتصر الفرقة الناجية على الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ، وإن كانوا خير أمة أخرجت للناس، وهم الأسوة لمن بعدهم، وهم أفضل القرون، وهم الفرقة الناجية في عصرهم، أما بعدهم، فهي موجودة في طائفة غيرهم؛ لقوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»[(٥)].

وقد رَجَّحَ كثير من الأئمة تعريف الفرقة الناجية بأنهم «أهل الحديث، وأصحاب

= «عبدالرحمن بن زياد»، وهو ضعيف، انظر: «تهذيب التهذيب»، (٦/١٧٣)؛ وانظر ـ أيضًا ـ: «السلسلة الصحيحة»، (٢٠٣).

(١) حديث صحيح مستفيض عن جماعة من الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ، رواه الإمام أحمد، والشيخان من طريق معاوية، والمغيرة بن شعبة، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، وأحمد، وأبو داود، والحاكم من طريق ثوبان، ومسلم من طريق عقبة بن نافع، وعن أبي أمامة في «المسند»، وفيه وفي أبي داود والحاكم من طريق عمران بن حُصَيْن، وفي المستدرك ـ أيضًا ـ من طريق عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) «الباعث على إنكار البدع والحوادث»، لأبي شامة ص(٢٢)، وعزاه إلى البيهقي في «المدخل»، وانظر: «شرح أصول الاعتقاد»، للالكائي (١/١٠٩).

(٣) «شرح السنة»، (١/٢٧٩).

(٤) رواه بنحوه ابن ماجه (٣٩٩٣)؛ وابن أبي عاصم في «السنة»، (١/٣٢)، وانظر: «السلسلة الصحيحة»، (٢٠٣)، (١٤٩٢).

(٥) تقدم آنفًا.

الأثر»؛ وما ذاك إلا لأنهم أقرب الناس إلى تحقيق ما كان عليه السلف، وأَتْبَعُهُمْ لهم ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ.

«قال عبد الله بن المبارك في حديث: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ»: «هم عندي أصحاب الحديث»، وقال علي بن المديني: «هم أصحاب الحديث»، وقال أحمد بن حنْبل: «إن لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث، فلا أدري من هم»، وقال الإمام محمد بن إسماعيل البخاري في نفس الحديث: «يعني أصحاب الحديث»، وقال أحمد بن سنان: «هم أهل العلم وأصحاب الأثر» »[١].

وقال الإمام أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني ـ رحمه الله ـ:

«لما سُئِلَ النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ عن الفرقة الناجية قال: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»[٢]، فلا بد من تَعَرُّفِ ما كان عليه رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ وأصحابه، وليس طريق معرفته إلا النقل، فيجب الرجوع إلى ذلك، وقد قال النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «لَا تُنَازِعُوا الْأَمْرَ أَهْلَهُ»[٣].

فكما يُرْجَعُ في مذاهب الفقهاء الذين صاروا قدوةً في هذه الأمة إلى أهل الفقه، ويُرْجَعُ في معرفة اللغة إلى أهل اللغة، وفي النحو إلى أهل النحو، وكذا يرجع في معرفة ما كان عليه رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ وأصحابهُ إلى أهل الرواية والنقل؛ لأنهم عُنُوا بهذا الشأن، واشتغلوا بحفظه، والفحص عنه ونقله، ولولاهم لاندرس علم سنة النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، ولم يقف أحد على هديه

---

(١) انظر: «شرف أصحاب الحديث»، للخطيب البغدادي، ص (٢٥/٢٧).

(٢) تقدم ص(١٩).

(٣) أصل الحديث رواه البخاري (١٣/١٦٧)، في الأحكام، باب كيف يُبَايِعُ الإمامَ الناسُ؛ ومسلم، (١٧٠٩) في الإمارة؛ والموطأ (٢/٤٤٥)؛ والنسائي (٧/١٣٧-١٣٨)؛ وابن ماجه، (٢٨٦٦)، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَى أَلَّا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ»... الحديث.

وطريقته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -.

فإن قيل: «فقد كثرت الآثار في أيدي الناس، واختلطت عليهم». فالجواب أن نقول: ما اختلطت إلا على الجاهلين بها، فأما العلماء بها فإنهم ينتقدونها انتقادَ الجهابذةِ الدراهمَ والدنانيرَ، فيميزون زيوفَها، ويأخذون خيارها، ولئن دخل في أغمار الرواة من وُسِم بالغلط في الأحاديث، فلا يروج ذلك على جهابذة أصحاب الحديث، وورثة العلماء، حتى إنهم عدوا أغاليط من غلط في الإسناد والمتون، بل تراهم يعدون على كل واحد منهم في كم حديث غلط؟ وفي كم حرفٍ حَرَّف؟ وماذا صحَّف؟»[١]. اهـ بتصرف يسير.

وقال الإمام الحميدي صاحب «الجمع بين الصحيحين» من قصيدة له وافرة:

وَلَوْلَا رُوَاةُ الدِّينِ ضَاعَتْ وَأَصْبَحَتْ مَعَالِمُهُ فِي الْآخِرِينَ تَبِيدُ
هُمُو حَفِظُوا الْآثَارَ مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ وَغَيْرُهُمُو عَمَّا اقْتَنَوْهُ رُقُودُ
وَهُمْ هَاجَرُوا فِي جَمْعِهَا وَتَبَادَرُوا إِلَى كُلِّ أُفْقٍ وَالْمَرَامُ كَئُودُ
وَقَامُوا بِتَعْدِيلِ الرُّوَاةِ وَجَرْحِهِمْ قِيَامَ صَحِيحِ النَّقْلِ وَهْوَ حَدِيدُ
بِتَبْلِيغِهِمْ صَحَّتْ شَرَائِعُ دِينِنَا حُدُودٌ تَحَرَّوْا حِفْظَهَا وَعُهُودُ
وَصَحَّ لِأَهْلِ النَّقْلِ مِنْهَا احْتِجَاجُهُمْ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا عَانِدٌ وَحَقُودُ[٢]

وقال الإمام أبو بكر الخطيب البغدادي - رحمه الله - في «شرف أصحاب الحديث»:

«وقد جعل الله - تَعَالَى - أهلَهُ - أي الحديث - أركانَ الشريعة، وهَدَمَ بهم كل بدعة شنيعة؛ فهم أمناء الله من خليقته، والواسطة بين النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - وأمته، والمجتهدون في حفظ ملته، أنوارهم زاهرة، وفضائلهم سائرة، وآياتهم باهرة، ومذاهبهم ظاهرة، وحججهم قاهرة، وكل فئة تتحيز إلى هوى ترجع إليه، أو تستحسن

---

(١) نقله عنه الإمام المحقق ابن القيم - رحمه الله -، فانظره في: «مختصر الصواعق المرسلة»، (٢/ ٤١٠).
(٢) نقله القاسمي في «قواعد التحديث»، ص (٤٠٣).

رأيًا تعكُفُ عليه، سوى أصحاب الحديث؛ فإن الكتاب عُدَّتُهم، والسنة حجتهم، والرسول فئتهم، وإليه نسبتهم، لا يُعَرِّجون على الأهواء، ولا يلتفتون إلى الآراء، يُقْبَلُ منهم ما رَوَوْا عن الرسول، وهم المأمونون عليه والعُدول، حَفَظَةُ الدين وخَزَنَتُه، وأوعية العلم وحَمَلَتُه، إذا اخْتُلِفَ في حديث، كان إليهم الرجوع، فما حكموا به، فهو المقبول المسموع، ومنهم كل عالم فقيه، وإمام رفيع نَبِيه، وزاهد في قبيلة، ومخصوص بفضيلة، وقارئ متقن، وخطيب محسن، وهم الجمهور العظيم، وسبيلهم السبيل المستقيم، وكل مبتدع باعتقادهم يتظاهر، وعلى الإفصاح بغير مذاهبهم لا يتجاسر، مَنْ كادهم قصمه الله، ومن عاندهم خذله الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا يفلح من اعتزلهم، المحتاط لدينه إلى إرشادهم فقير، وبصر الناظر إليهم بالسوء حسير، وإن الله على نصرهم لقدير»(١).

وقال ـ أيضًا ـ رحمه الله ـ: «فقد جعل رب العالمين الطائفةَ المنصورة حُرَّاسَ الدين، وصرف عنهم كيد المعاندين؛ لتمسكهم بالشرع المتين، واقتفائهم آثار الصحابة والتابعين، فشأنهم حفظ الآثار، وقطع المفاوز والقفار، وركوب البراريِّ والبحار، في اقتباس ما شرع الرسول المصطفى، لا يُعَرِّجُونَ عنه إلى رأي ولا هوى، قبلوا شريعته قولًا وفعلًا، وحَرَسُوا سنته حفظًا ونقلًا، حتى ثَبَّتُوا بذلك أصلها، وكانوا أَحَقَّ بها وأهلَها، وكم من مُلْحِدٍ يروم أن يَخْلِط بالشريعة ما ليس منها، والله ـ تَعَالَى ـ يَذُبُّ بأصحاب الحديث عنها، فهم الْحُفَّاظُ لأركانها، والقوامون بأمرها، وشأنها، إذا صُدِفَ عن الدفاع عنها، فهم دونها يناضلون، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾»(٢). اهـ.

السابع: كل حديث صح إسناده إلى النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ فالإيمان به واجب على كل مسلم، وذلك من تحقيق الشهادة بأن محمدًا ـ صَلَّى اللَّهُ

---

(١) «شرف أصحاب الحديث» ص(٨ ـ ١٠).

(٢) «السابق».

عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - رسول الله، وقد قال النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»[1].

قال الإمام الشافعي - رحمه الله - تَعَالَى -:

«إذا حدَّث الثقة عن الثقة إلى أن ينتهي إلى رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - فهو ثابت، ولا يُتْرَكُ لرسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - حديثٌ أبدًا، إلا حديثٌ وُجِد عن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - آخَرُ يُخَالِفُهُ»[2]. اهـ.

وقال الإمام أحمد - رحمه الله - تَعَالَى -:

«كل ما جاء عن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - بإسناد جيد أقررنا به، وإذا لم نقر بما جاء به الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، ودفعناه، ورددناه، رددنا على الله أَمْرَهُ، قال الله - تَعَالَى -: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[3] [الحشر: ٧].

وروى القاضي أبو الحسين في «طبقات الحنابلة» من طريق أبي بكر الآدمي المقري: حدثنا الفضل بن زياد القطَّان قال: سمعت أبا عبدالله - يعني أحمد بن حنبل - يقول: «من رَدَّ حديثَ رسولِ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - فهو على شَفَا هَلَكَةٍ»[4].

وذكر القاضي أبو الحسين - أيضًا - في ترجمة الحسن بن علي بن خلف أبي محمد

---

(١) البخاري (٣/٢١١)، في أول الزكاة، (١٢/٢٣٣)، في استتابة المرتدين؛ ومسلم (٢١) في الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله؛ والترمذي (٢٦١٠) في الإيمان، الباب الأول؛ والنسائي (٥/١٤) في الزكاة، باب مانع الزكاة؛ وأبو داود (٢٦٤٠)، في الجهاد، باب عَلَامَ يُقَاتَلُ المشركونَ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) نقله في «الرد القويم على المجرم الأثيم»، ص (٢ - ٣).

(٣)، (٤) نقله في «الرد القويم على المجرم الأثيم»، ص (٢ - ٣).

البربهاري - وهو من أعيان العلماء في آخر القرن الثالث وأول القرن الرابع من الهجرة - أنه قال في كتابه «شرح السنة»: «إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار، ولا يقبلها، أو ينكر شيئًا من أخبار رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - فاتَّهِمْهُ على الإسلام؛ فإنه رجل رديء المذهب والقول، وإنما يطعن على رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، وعلى أصحابه؛ لأنا إنما عَرَفْنَا الله، وعَرَفْنَا رسوله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، وعَرَفْنَا القرآن، وعَرَفْنَا الخير والشر، والدنيا والآخرة بالآثار»[١]. اهـ.

وقال البربهاري - أيضًا -: «وإذا سمعت الرجل يطعن على الآثار، أو يرد الآثار، أو يريد غير الآثار، فاتَّهِمْهُ على الإسلام، ولا تشكَّ أنه صاحب هوًى مُبْتَدِع»[٢]. اهـ.

وذكر القاضي أبو الحسين في ترجمة إبراهيم بن أحمد بن عمر بن حمدان بن شاقلا أنه قال: «من خالف الأخبار التي نقلها العدل عن العدل موصولة بلا قطع في سندها، ولا جرح في ناقليها، وتجرأ على ردها، فقد تهجم على رد الإسلام؛ لأن الإسلام وأحكامه منقولة إلينا بمثل ما ذكرت»[٣]. اهـ.

وقال الموفَّق أبو محمد المقدسي في «لمعة الاعتقاد»:

«ويجب الإيمان بكل ما أخبر به رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، وصح به النقل عنه فيما شهدناه، أو غاب عنا، نعلم أنه حقٌّ وصدقٌ، وسواء في ذلك ما عقلناه، وجهلناه، ولم نطلع على حقيقة معناه؛ مثل حديث الإسراء والمعراج، ومن ذلك أشراط الساعة؛ مثل خروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم - عليه السلام -، فيقتله، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، وأشباه ذلك مما صح به النقل»[٤]. اهـ.

وقال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - رحمه الله - تَعَالَى -:

---

(١) «طبقات الحنابلة»، (٢/٢٥).
(٢) «السابق»، (٢/٣٦).
(٣) نقله عن «السابق» الشيخ محمود التويجري - رحمه الله - في «الرد القويم على المجرم الأثيم»، ص(٤).
(٤) «لمعة الاعتقاد»، ص(٢٠-٢١).

«والتحقيق أن كلام رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ حق، وليس أحد أعلمَ بالله من رسوله، ولا أنصح لأمته منه، ولا أفصح، ولا أحسن بيانًا منه، فإذا كان كذلك كان المتحذلق، والمنكِر عليه، من أضل الناس، وأجهلهم، وأسوئهم أدبًا، بل يجب تأديبه وتعزيره، ويجب أن يُصانَ كلامُ رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ عن الظنون الباطلة، والاعتقادات الفاسدة»[١]. اهـ.

الثامن: حول استعمال وصف «المهدي» بالمعنى اللغوي العام:

المهدي لغة اسم مفعول من «هُدِيَ»، والْهُدَى هو الرشاد، والدلالة كما في «الصِّحَاح»[٢]، وفي «لسان العرب»: «الهدى: ضد الضلال، وهوالرشاد، وفي الحديث: «سُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ»، المهدي: الذي قد هداه الله إلى الحق، قد اسْتُعْمِلَ في الأسماء، حتى صار كالأسماء الغالبة»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «يُوشِكُ مَنْ عَاشَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ إِمَامًا مَهْدِيًّا، وَحَكَمًا عَدْلًا»[٤]... الحديث.

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ»، ... الحديث[٥].

قال ابن الأثير: «المهدي: الذي قد هداه الله إلى الحق، ويريد بـ«الخلفاء المهديين» أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعليًّا ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ، وإن كان عامًّا في كل من سار سيرتهم»[٦]. اهـ.

---

(١) نقله عنه الشيخ زكريا علي يوسف ـ رحمه الله ـ في «مشكلات الأحاديث»، ص(١٥٩-١٦٠).
(٢) «الصِّحَاح»، للجوهري (٢٥٣٣/٦).
(٣) «لسان العرب»، (٣٥٣/١٥-٣٥٤).
(٤) رواه الإمام أحمد (٤١١/٢).
(٥) أخرجه الإمام أحمد (١٢٦/٤)؛ وأبو داود (٢٠٠/٤)، (٤٦٠٧)؛ والترمذي (٤٤/٥)، (٢٦٧٦)؛ وابن ماجه (١٦/١)، (٤٢ ـ ٤٤)؛ والدارمي (٤٥/١)، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وصححه الضياء المقدسي، وغيره.
(٦) «النهاية في غريب الحديث والأثر»، (٢٥٤/٥).

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ، زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»[١].

ودعا ﷺ لمعاوية رضي الله عنه فقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا، وَاهْدِ بِهِ»[٢]، وكذلك دعا ﷺ لجرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه: «اللَّهُمَّ، ثَبِّتْهُ[٣]، وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا»[٤]، ودعا ﷺ لأبي سلمة رضي الله عنه فقال: «اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْغَابِرِينَ»[٥]... الحديث.

وَمِن استعمالاته اللغوية قول حسان بن ثابت رضي الله عنه يرثي رسول الله ﷺ:

مَا بَالُ عَيْنِي لَا تَنَامُ كَأَنَّمَا ... كُحِلَتْ مَآقِيهَا بِكُحْلِ الْأَرْمَدِ

جَزَعًا عَلَى الْمَهْدِيِّ أَصْبَحَ ثَاوِيًا ... يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى لَا تَبْعَدِ[٦]

وقال زهير بن القين يخاطب الحسين بن علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -:

أَقْدِمْ هُدِيتَ هَادِيًا مَهْدِيَّا ... فَالْيَوْمَ تَلْقَى جَدَّكَ النَّبِيَّا[٧]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/٢٦٤)؛ والنسائي (٣/٥٤-٥٥)، وقال الألباني في «تحقيق المشكاة»، (٢/٧٧٠)، (٢٤٩٧): «إسناده جيد».

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/٢١٦)؛ والترمذي (٥/٦٨٧)، وصحح إسناده الألباني في «تحقيق المشكاة»، (٣/٢٨١)، (٦٢٣٥).

(٣) كان جرير رضي الله عنه لا يثبت على الخيل، فضرب رسول الله ﷺ صدره، ودعا له بهذا الدعاء.

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد (٦/١٨٩)؛ والمغازي (٨/٧٠)، وابن ماجه (١/٥٦)، والإمام أحمد (٤/٣٦٢، ٣٦٥).

(٥) أخرجه مسلم (٢/٦٣٤)؛ وأبو داود (٣/١٩١)؛ والإمام أحمد (٦/٢٩٧).

(٦) «السيرة النبوية»، لابن هشام (٢/٦٦٩).

(٧) «البداية والنهاية»، (٨/١٨٤)، وانظر مزيدًا من الشواهد اللغوية ص (١٥١، ٣٧٠، ٣٧١).

التاسع: مجمل عامٌّ لصفات المهدي المنتظر، كما جاءت في الأحاديث:

اسمه محمد بن عبدالله، من أهل بيت النبي ﷺ، من ولد فاطمة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ، أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يُصْلِحُهُ الله في ليلة، تُملأ الأرض قبل خلافته ظُلْمًا وجَوْرًا، فيملؤها بعد خلافته قسطًا وعدلًا، وذلك في آخر الزمان.

يملك سبع سنين، يسقيه الله الغيث، وتُخْرِجُ الأرض نباتها، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، وتنعم في عهده نعمة لم تَنْعَمْهَا قطُّ، يُعْطِي المال صَحاحًا، ويحثيه حثيًا، لا يعده عدًّا.

ينزل عيسى ابن مريم فيصلي وراءه؛ مما يستلزم أن يكون المهديُّ معاصرًا خروجَ الدجَّال؛ لأن عيسى ـ عليه السلام ـ يقتله بعد نزوله من السماء.

* * *

قال العلامة يوسف بن يحيى المقدسي الشافعي السُّلَمِيُّ ـ رحمه الله ـ في مدح «المهدي المنتظر»:

بِـهِ لِمَحَاسِـنِ ٱلْـشَّـرْعِ ٱنْـتِـظَـامُ ... بِـهِ لِمَفَاسِـدِ ٱلْـشِّـرْكِ ٱنْـصِـرَامُ
وَمِـنْـهُ لِمَنْ يُـحَـالِـفُـهُ ٱحْـتِـرَامُ ... وَمِـنْـهُ لِمَنْ يُـخَـالِـفُـهُ ٱخْـتِـرَامُ
تُحَـلَّـى مِـنْ أَيَـادِيـهِ الـنَّـوَادِي ... وَيُجْلَى مِنْ مَحَاسِنِهِ الظَّلَامُ
عَـلَـيْـهِ مُـجَـدَّدًا فِي كُـلِّ يَـوْمٍ ... مِنَ اللَّهِ التَّحِيَّةُ وَٱلسَّلَامُ(*)

* * *

(*) «عِقْدُ الدُّرَر في أخبار المنتظر» ص(٦).

الْبَابُ الْأَوَّلُ

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ: بَعْضُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي شَأْنِ الْمَهْدِيِّ.

الْفَصْلُ الثَّانِي: اهْتِمَامُ الْعُلَمَاءِ بِأَحَادِيثِ الْمَهْدِيِّ.

الْفَصْلُ الثَّالِثُ: نُصُوصُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي إِثْبَاتِ حَقِيقَةِ الْمَهْدِيِّ.

* * * * *

الْفَصْلُ الأَوَّلُ

بَعْضُ الأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي شَأْنِ الْمَهْدِيِّ

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ

جُمْلَةُ أَحَادِيثَ فِيهَا التَّصْرِيحُ بِلَقَبِ الْمَهْدِيِّ

الْحَدِيثُ الْأَوَّلُ:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «يَخْرُجُ فِي آخِرِ أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ، يَسْقِيهِ اللَّهُ الْغَيْثَ، وَتُخْرِجُ الْأَرْضُ نَبَاتَهَا، وَيُعْطِي الْمَالَ صَحَاحًا[1]، وَتَكْثُرُ الْمَاشِيَةُ، وَتَعْظُمُ الْأُمَّةُ، وَيَعِيشُ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا»[2]؛ يعني حججًا.

الْحَدِيثُ الثَّانِي:

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ: حَدَّثَنَا عَوْفٌ عَنْ أَبِي الصِّدِّيقِ النَّاجِي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَمْتَلِئَ الْأَرْضُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، قَالَ: ثُمَّ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي ـ أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ـ، يَمْلَؤُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا، كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا»[3].

---

(١) صَحَاحًا ـ بالفتح ـ: بمعنى الصحيح، ويجوز أن يكون بالضَّم ـ أيضًا ـ؛ كطُوال وطويل، كما في «النهاية»، لابن الأثير (١٢/٣).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، (٥٥٧/٤-٥٥٨)؛ قال:
«أخبرني أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي بمرو: ثنا سعيد بن مسعود ـ والصواب: سعد بن مسعود المروزي ـ: ثنا النضر بن شميل: ثنا سليمان بن عبيد؛ وهو السلمي: ثنا أبو الصِّدِّيق الناجي؛ وهو بكر ابن عمرو عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه به، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي»، وقال الألباني ـ رحمه الله ـ: «وهذا سند صحيح، رجاله ثقات». اهـ. من «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، (٧١١).

(٣) رواه الإمام أحمد (٣٦/٣)؛ وأبو يعلى في «مسنده»، (٦١ب)؛ وابن حبان (١٨٨٠)، «موارد»؛ والحاكم (٥٥٧/٤)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وأبو نُعَيم في «الحلية»، (١٠١/٣)، ومحمد بن جعفر هو المعروف بغُنْدَر، وهو ثقة ثبت، روى له=

«وقوله: «يُصْلِحُهُ اللَّهُ فِي لَيْلَةٍ» يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون المراد بذلك أن الله يصلحه للخلافة؛ أي يهيؤه لها.

والثاني: أن يكون متلبسًا ببعض النقائص، فيصلحه الله، ويتوب عليه»[(١)]. اهـ.

وهذا المعنى هو الذي قرره الحافظ ابن كثير - رحمه الله -؛ حيث قال:

«ومعنى قوله: «يُصْلِحُهُ اللَّهُ فِي لَيْلَةٍ»؛ أي: يتوب عليه، ويُوَفِّقُهُ، ويلهمه رشده، بعد أن لم يكن كذلك»[(٢)]. اهـ.

● وقال القاري في «المرقاة»:

« «يُصْلِحُهُ اللَّهُ فِي لَيْلَةٍ»: أي يصلح أمره، ويرفع قدره، في ليلة واحدة، أو في ساعة واحدة من الليل؛ حيث يتفق على خلافته أهل الحل والعقد فيها»[(٣)]. اهـ.

تَنْبِيهٌ:

قدح بعض العصريين في هذا الحديث؛ لاستبعاد معناه، «وأي غرابة في معناه، والله على كل شيء قدير، وهو الفَعَّال لما يريد، ومن يَهْدِهِ الله فهو المهتدِ، ومن يضلل فلن

= في «مصنفه»؛ ونُعَيْم بن حماد في «الفتن»؛ والبخاري في «التاريخ الكبير»، وقال «وفي إسناده نظر»، وفيه ياسين العجلي، ولم يورده في «الضعفاء الصغير»، انظر «الفيض»، (٦/٢٧٨)، وذكر ابن أبي حاتم عن ابن معين وأبي زرعة أنهما قالا: «ليس به بأس»، وعن ابن معين أنه قال: «صالح»، ووثقه العجلي وابن حبان، وبقية رجاله ثقات، وانظر: «تهذيب التهذيب»، (١١/١٧٢-١٧٣)، وقال في «التقريب»: «لا بأس به»، (٢/٣٤١)؛ وزاد الألباني في تخريجه: العقيلي، وابن عدي، وأبا نُعَيْم، وأحال على «الروض النضير»، (٢/٥٣)، ورمز السيوطي لحسنه «فيض القدير»، (٦/٢٧٨)، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على «المسند» (٦٤٥)؛ وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٦١١)؛ و«السلسلة الصحيحة» (٢٣٧١).

(١) «الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر» ص (٢٦٣)، ط. ثانية.

(٢) «نهاية البداية والنهاية»، (١/٤٣).

(٣) «من مرقاة المفاتيح»، (٥/١٨٠).

تجد له وليًّا مرشدًا؟!

ومن أوضح الأمثلة في ذلك ما حصل لمن هو أفضل من المهدي، ومن سائر الأمة سوى أبي بكر رضي الله عنه؛ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فقد كان من أشد الناس على المسلمين، ثم تحول بقدرة الله وتوفيقه، فصارت شدته على أعداء الإسلام والمسلمين، وأصبح ذلك الرجل العظيم الذي إذا سلك فجًّا سلك الشيطان فجًّا غيره، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ»[١]. اهـ.

الْحَدِيثُ السَّادِسُ:

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ:

«الْمَهْدِيُّ مِنْ عِتْرَتِي[٢]، مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ»[٣] ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ.

---

(١) «الرد على من كَذَّب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي»، لفضيلة الشيخ عبدالمحسن العبَّاد، ص(٧٩).

(٢) قال الخطابي: «العترة: ولد الرجل لصلبه، وقد يكون العترة ـ أيضًا ـ الأقرباء، وبنو العمومة، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه يوم السقيفة: «نَحْنُ عِتْرَةُ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وعلى آله وَسَلَّمَ ـ». اهـ.
وقال في «النهاية»: «عترة الرجل أخص أقاربه، وعترة النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وعلى آله وَسَلَّمَ ـ بنو عبدالمطلب، وقيل: قريش، والمشهور المعروف أنهم الذين حُرِّمت عليهم الزكاة». اهـ، باختصار (١٧٧/٣).

(٣) رواه أبو داود (١٠٧/٤) في كتاب المهدي، (٤٢٨٤)، وسكت عليه، «وفيه زياد بن بيان، قال ابن عدي: «زياد سمع علي بن نُفَيْلٍ جد النفيلي، وفي إسناده نظر، سمعت ابن حماد يذكره، عن البخاري»، وساق الحديث، وقال: «والبخاري إنما أنكر من حديث زياد بن بيان هذا الحديث، وهو معروف به»، وقال غيره: «وهو كلام معروف من كلام سعيد بن المسيب، والظاهر أن زياد بن بيان وهم في رفعه»، كذا في «تخريج السنن»، (١٦٠/٦)» اهـ. من «أعذب الموارد في تخريج جمع الفوائد»، (٧٣٣/٢).
وقال الحافظ في زياد بن بيان: «صدوق عابد». اهـ. من «التقريب»، (٢٦٥/١). والحديث أورده البغوي في «مصابيح السنة»، في فصل الحسان، ورمز له السيوطي في «الجامع الصغير» بالصحة، وقال العزيزي في «السراج المنير شرح الجامع الصغير»، (٥٣٠/٤): «إسناده حسن»، وهو عند ابن ماجه=

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ: «الْمَهْدِيُّ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَهُوَ الَّذِي يَؤُمُّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ»(١).

* * * * *

= عارفًا بالحديث، عالي الإسناد بالمرة، تُكُلِّم فيه بلا حجة، قال الدارقطني: «قد اختُلِفَ فيه، وهو عندي صدوق»، وقال ابن حزم: «ضعيف، وليَّنه بعض البغاددة لكونه يأخذ على الرواية» ». اهـ. (١/٤٢٢)، وترجم له الذهبي - أيضا - في «تذكرة الحفاظ»، وسمى جماعة روى عنهم، وجماعة رووا عنه، ثم قال: «وَثَّقَهُ إبراهيم الحربي مع علمه بأنه يأخذ الدراهم، وأبو حاتم وابن حبان، وقال الدارقطني: «صدوق، وأما أخذ الدراهم على الرواية، فقد كان فقيرًا كثير البنات»، وقال أبو الفتح الأزدي وابن حزم: «ضعيف» ». اهـ.

وقال ابن العماد في «شذرات الذهب»: «وفيها - أي في سنة ٢٨٢هـ - الحافظ أبو محمد الحرث بن محمد بن أبي أسامة التميمي البغدادي صاحب المسند يوم عرفة، وله ست وتسعون سنة، سمع عليَّ ابنَ عاصم، وعبدالوهاب بن عطاء، وطبقتهما، قال الدارقطني: «صدوق»، وقيل: فيه لين، كان لفقره يأخذ على الحديث أجرًا». اهـ. (٢/١٧٨).

(١) عزاه د. عبدالعليم البستوي إلى ابن أبي شيبة في «مصنفه»، ونعيم بن حماد في «الفتن»، وقال: «إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات». اهـ. من «المهدي المنتظر»، ص(٢٢٠).

الْمَطْلَبُ الثَّانِي

ذِكْرُ أَحَادِيثَ فِيهَا صِفَةُ الْمَهْدِيِّ، وَبَعْضُ أَحْوَالِهِ

الْحَدِيثُ الثَّامِنُ:

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ، لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يَبْعَثَ فِيهِ رَجُلًا مِنِّي - أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي - يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي، وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمَ أَبِي»[١]، زاد في حديث فِطْر: «يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا، كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا». وفي رواية للترمذي: «لَا تَذْهَبُ - أَوْ: لَا تَنْقَضِي - الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ الْعَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي»[٢].

---

(١) فيكون اسمه «محمد بن عبدالله»، وفيه رد على الشيعة الذين يقولون: إنه محمد بن الحسن العسكري، ومعنى «يَبعث»: يُظهِر.

(٢) رواه أبو داود (٤٢٨٢) في المهدي؛ والترمذي (٢٢٣١)، ورقم (٢٢٣٢) في الفتن، باب ما جاء في المهدي، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح». والحديث سكت عنه أبو داود، والمنذري، وكذا ابن القيم في «تهذيب السنن»، وأشار إلى صحته في «المنار المنيف»، ص(٨٤)، وصَحَّحَهُ شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة النبوية»، (٨/٢٥٤)؛ وأورده البغوي في «مصابيح السنة» في فصل الحسان، وحَسَّن إسناده الألباني في «تخريج أحاديث المشكاة»، (٣/٢٤)، (٥٤٥٢)، وانظر: «عون المعبود»، (١١/٣٧٢)؛ و«تحفة الأحوذي»، (٦/٤٨٦)، و«فيض القدير»، (٥/٣٣٢).

ومدار الحديث على عاصم بن أبي النجود، وحاصل الكلام فيه أنه ثقة على رأي أحمد، وأبي زرعة، وحَسَنُ الحديث صالح للاحتجاج على رأي غيرهما، ولم يكن فيه إلا سوء الحفظ، وقال الحاكم في «المستدرك»، (٤/٥٥٧): «وطرق عاصم عن زر عن عبدالله كلها صحيحة؛ إذ عاصم من أئمة المسلمين». اهـ، وهو أحد القُرَّاء السبعة، قال فيه الحافظ ابن حجر: «صدوق من السادسة؛ أي ليس له من الحديث إلا القليل، ولم يثبت فيه ما يُتْرَكُ حديثه لأجله». اهـ من «التقريب»، (١/٤)، قال في «عون المعبود»: «فرد الحديث بعاصم ليس من دأب المنصفين، على أن الحديث قد جاء من غير طريق عاصم - أيضًا -، فارتفعت عن عاصم مظنة الوهم، والله أعلم». اهـ، (١١/٣٧٢). وأفاد نحوه العلامة أحمد شاكر - رحمه الله - في تعليقه على «المسند». (٥/١٩٦-١٩٨) ورد على كلام ابن خلدون=



المَطْلَبُ الثَّالِثُ

ذِكْرُ أَحَادِيثَ يُحْتَمَلُ كَوْنُهَا فِي شَأْنِ الْمَهْدِيِّ

الْحَدِيثُ الْحَادِي عَشَرَ:

عَنِ الْجُرَيْرِيِّ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فَقَالَ: «يُوشِكُ أَهْلُ الْعِرَاقِ أَنْ لَا يُجْبَى إِلَيْهِمْ قَفِيزٌ[١] وَلَا دِرْهَمٌ»، قُلْنَا: مِنْ أَيْنَ ذَاكَ؟ قَالَ: «مِنْ قِبَلِ الْعَجَمِ؛ يَمْنَعُونَ ذَلِكَ»، ثُمَّ قَالَ: «يُوشِكُ أَهْلُ الشَّامِ أَنْ لَا يُجْبَى إِلَيْهِمْ دِينَارٌ وَلَا مُدْيٌ»[٢]، قُلْتُ: مِنْ أَيْنَ ذَاكَ؟ قَالَ: «مِنْ قِبَلِ الرُّومِ»، ثُمَّ سَكَتَ هُنَيَّةً، ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي خَلِيفَةٌ[٣] يَحْثِي الْمَالَ حَثْيًا، لَا يَعُدُّهُ عَدًّا»، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي نَضْرَةَ، وَأَبِي الْعَلَاءِ: «أَتَرَيَانِ أَنَّهُ عُمَرُ ابْنُ عَبْدِالْعَزِيزِ[٤]؟ فَقَالَا: لَا»[٥].

وفي لفظ لمسلم من حديث أبي سعيد وجابر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أن النبي - صَلَّى

---

(١) القَفيز: مكيال لأهل العراق ثمانية مكاكيك.

(٢) المُدْي: مكيال لأهل الشام يسع خمسة وأربعين رِطلًا.

(٣) قال صاحب «التاج الجامع للأصول»: «هذا هو المهدي ﷺ بدليل الحديث الآتي - يعني حديث أبي سعيد المتقدم «الرابع» -؛ وذلك لكثرة الغنائم والفتوحات مع سخاء نفسه، وبذله الخير لكل الناس». اهـ من «التاج»، (٥/٣٤٢).

(٤) وصح عن مطر قال: «بلغنا أن المهدي يصنع شيئًا لم يصنعه عمر بن عبدالعزيز، قلنا: ما هو؟ قال: يأتيه رجل فيسأله، فيقول: «ادخل بيت المال فخذ»، فيدخل فيأخذ، فيخرج، فيرى الناس شِبَاعًا، فيندم، فيرجع إليه فيقول: «خذ ما أعطيتني»، فيأبى، ويقول: «إنا نُعْطي ولا نأخذ» »، أخرجه أبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن»، (٥/١٠٦٤)، (٥٨٥)، ومطر من أتباع التابعين.

(٥) أخرجه - من طرق عدة - مسلم في «صحيحه»، (٢٩١٣)، في الفتن: باب لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ، فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء، والإمام أحمد في «المسند»، (٣/٣٨، ٣١٧، ٣٣٣)، وقد حمله الهيثمي على المهدي كما في «المجمع»، (٧/٣١٦)؛ والسيوطي كما في «الحاوي»، (٢/١٣١).

اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - قال: «يَكُونُ خَلِيفَةٌ مِنْ خُلَفَائِكُمْ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، يَحْثُو الْمَالَ، وَلَا يَعُدُّهُ»، وفي رواية: «يُعْطِي النَّاسَ بِغَيْرِ عَدَدٍ»[١].

الْحَدِيثُ الثَّانِيَ عَشَرَ:

عن عائشة أم المؤمنين - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: «عَبِثَ[٢] رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - فِي مَنَامِهِ، فَقُلْنَا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، صَنَعْتَ شَيْئًا فِي مَنَامِكَ لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُهُ»، فَقَالَ: «الْعَجَبُ أَنَّ نَاسًا مِنْ أُمَّتِي يَؤُمُّونَ[٣] الْبَيْتَ لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ، قَدْ لَجَأَ بِالْبَيْتِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْبَيْدَاءِ[٤] خُسِفَ بِهِمْ»، فَقُلْنَا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الطَّرِيقَ قَدْ يَجْمَعُ النَّاسَ»، قَالَ: «نَعَمْ، فِيهِمُ الْمُسْتَبْصِرُ[٥]، وَالْمَجْبُورُ[٦]، وَابْنُ السَّبِيلِ، يَهْلِكُونَ مَهْلِكًا وَاحِدًا، وَيَصْدُرُونَ مَصَادِرَ شَتَّى[٧]، يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ»[٨].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩١٣)، و(٢٩١٤) في السابق، قال صِدِّيق حسن خان بعد ذكر رواية أبي سعيد وجابر: «ولكن لم يقع في هذين الحديثين - أيضًا - ذكر المهدي، ولا دليل يقوم على أنه المراد منهما، والله أعلم». اهـ. من «الإذاعة» ص(١٢٢).

وعلق الألباني على الحديث قائلًا: «وهو المهدي المبشر بخروجه بين يدي نزول عيسى - عليه الصلاة والسلام -، ويصلي عيسى - عليه الصلاة والسلام - خلفه». اهـ. من «صحيح الجامع»، (٥/٢١٧).

(٢) عَبِث: بكسر الباء، أي تحرك جسمه الشريف، أو بعضه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، وقِيلَ: حرَّكَ أطرافه كمن يأخذ شيئًا، أو يدفعه، انظر «شرح النووي»، (١٨/٦-٧).

(٣) يؤم البيت: يقصده.

(٤) البيداء: المفازة، وهي الأرض الواسعة القفر، وفي رواية: «ببيداء المدينة»، وفي رواية أبي يَعْلَى عن أم سلمة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: «بِالْبَيْدَاءِ مِنْ ذِي الْحُلَيْفَةِ»، والبيداء أرض واسعة ملساء بين مكة والمدينة، وهي معروفة بالقرب من ذي الْحُلَيْفَة.

(٥) المستبصر: المستبين للأمر، القاصد له.

(٦) المجبور: المكره المقهور.

(٧) «المصادر: المراجع، ورد ثم صدر؛ أي : جاء ثم رَجَعَ، شتى: متفرقة، والمقصود أن مهلك هذا الجيش مهلك واحد يُخْسَفُ بهم جميعًا، إلا أنهم يَصْدُرون عن الهلكة مصادر متفرقة، فواحد إلى الجنة، وآخر إلى النار، على قدر أعمالهم ونياتهم». اهـ.

من «جامع الأصول»، (٣/٢٧٩). وانظر: «فتح الباري»، (٤/٣٤٠-٣٤١).

(٨) رواه البخاري: (٤/٣٣٨- فتح) في البيوع: باب ما ذُكِرَ في الأسواق، ومسلم، واللفظ له (٤/٢٢١٠)، =

وَأَشْهَدُ عَلَى حَفْصَةَ أَنَّهَا لَمْ تَكْذِبْ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -.

الْحَدِيثُ الْخَامِسَ عَشَرَ:

عَنْ صَفِيَّةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «لَا يَنْتَهِي النَّاسُ عَنْ غَزْوِ هَذَا الْبَيْتِ حَتَّى يَغْزُوَهُ جَيْشٌ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ، خُسِفَ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، وَلَمْ يَنْجُ أَوْسَطُهُمْ»، قَالَتْ: قُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ الْمُكْرَهَ مِنْهُمْ؟»، قَالَ: «يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي أَنْفُسِهِمْ»[(١)]».

الْحَدِيثُ السَّادِسَ عَشَرَ:

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «يُبَايَعُ لِرَجُلٍ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، وَلَنْ يَسْتَحِلَّ الْبَيْتَ إِلَّا أَهْلُهُ، فَإِذَا اسْتَحَلُّوهُ فَلَا يُسْأَلُ عَنْ هَلَكَةِ الْعَرَبِ، ثُمَّ يَأْتِي الْحَبَشَةُ فَيُخَرِّبُونَهُ خَرَابًا لَا يَعْمُرُ بَعْدَهُ أَبَدًا[(٢)]، وَهُمُ الَّذِينَ يَسْتَخْرِجُونَ كَنْزَهُ» »[(٣)].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٦/٣٣٧)؛ والترمذي في الفتن، (٢١٨٤)، وقال: «حسن صحيح»، وابن أبي شيبة في «المصنف»، كتاب الفتن (١٩٠٧١)، (١٥/٤٦)؛ ومن طريق ابن ماجه في «الفتن»، باب جيش البيداء، (٤١٣٠)، (٢/٥٠٤).

(٢) قال الحافظ في «الفتح»: «وللفاكهاني من طريق مجاهد نحوه، وزاد: «قال مجاهد: فلما هدم ابن الزبير الكعبة، جئت أنظر إليه هل أرى الصفة التي قال عبدالله بن عمرو، فلم أرها» ». اهـ من «فتح الباري»، (٣/٤٦١)؛ وجاء في «صحيح البخاري»: باب هدم الكعبة «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة»؛ أي رجل من الحبشة له ساقان دقيقان.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/٢٣٨)؛ وأبو داود الطيالسي (٢٣٧٣)، وابن حبان في «صحيحه» كما في «الإحسان»، (١٥/٢٣٩)، (٦٨٢٧)، والحاكم في «المستدرك»، (٤/٤٥٢)؛ وابن أبي شيبة في «المصنف»، (١٥/٥٢)؛ وقال الهيثمي: «رواه أحمد، ورجاله ثقات». اهـ، من «المجمع»، (٣/ ٢٩٨)، وسكت عليه الحافظ في «الفتح»، (٣/٤٦١)، وقال أحمد شاكر في «تحقيق المسند» : «إسناده صحيح»، (١٥/٢٤٥)، (٨٠٩٩)، وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة»: «وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين، غير سعيد بن سمعان، وهو ثقة». اهـ، (٢/١١٩)، (٥٧٩).

تَنْبِيهَانِ

الأول: قال البستوي: (والحديث ليس صريحًا في ذكر المهدي، ولكن ذكره ابن حبان في «ذكر الموضع الذي يُبَايَعُ فيه المهدي»، وذكره الهيثمي في «باب المهدي»، والساعاتي في «ترتيب الطيالسي»: باب ما جاء في بيعة المهدي، وخراب الكعبة آخرَ الزمان.

قُلْتُ: وفي هذا نظرٌ عندي؛ لأن الحديث لم يُذْكَرْ فيه أي صفة للمهدي، بل فيه ذكرٌ لرجلٍ ما يُبَايَعُ له بين الركن والمقام، ثم يُشِيرُ الحديث إلى استحلال البيت الحرام، وفتنةٍ تقع بين المسلمين بعد ذلك، حتى تجيء الحبشة، فتخرب الكعبة، والمعروف أن عصر المهدي، ثم عصر المسيح، يتميزان بالقسط والعدل والرخاء والأمن، والله أعلم»[(١)]. اهـ.

الثاني: قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»:

«قد يقال: إن هذا الحديث يخالف قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾، ولأن الله حبس عن مكة الفيل، ولم يُمَكِّنْ أصحابه من تخريب الكعبة، ولم تكن إذ ذاك قِبْلَةً؛ فكيف يُسَلطُ عليها الحبشة بعد أن صارت قبلةً للمسلمين؟

أُجِيبَ: بأن ذلك محمول على أنه يقع في آخر الزمان، قرب قيام الساعة؛ حيث لا يبقى في الأرض أحد يقول: «الله، الله»، كما ثبت في صحيح مسلم: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللَّهُ، اللَّهُ»؛ ولهذا وقع في رواية سعيد بن سمعان: «لَا يَعْمُرُ بَعْدَهُ أَبَدًا»، وقد وقع قبل ذلك فيه من القتال، وغزو أهل الشام له في زمن يزيد بن معاوية، ثم من بعده في وقائع كثيرة؛ من أعظمها وقعة القرامطة بعد الثلاث مئة، فقتلوا من المسلمين في المطاف من لا يُحْصَى كثرةً، وقلعوا الحجر الأسود[(٢)]، فحولوه

---

(١) «المهدي المنتظر»، ص(٢٩٦).

(٢) «وقيل: إن الذي اقتلعه صاح: يا حَمِيرُ، أنتم قلتم: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾، [آل عمران: ٩٧]؛ =



إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ[(١)]، وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ؟»[(٢)]. وَفِي رِوَايَةٍ: «وَأَمَّكُمْ»[(٣)].

وفي رواية: «فَأَمَّكُمْ»، وفي أخرى: «فَأَمَّكُمْ مِنْكُمْ»، قال ابن أبي ذئب: تدري ما «أَمَّكُمْ مِنْكُمْ»؟ قلت: تُخْبِرُنِي، قال: فأمَّكم بكتاب ربكم ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وسنة نبيكم ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ»[(٤)].

غير أن هناك رواياتٍ صحيحةً لا تُعَارِضُ تفسير ابن أبي ذئب، لكنها تفيد أن عيسى ـ عليه السلام ـ يصلي أولَ نزوله مأمومًا:

الْحَدِيثُ التَّاسِعَ عَشَرَ:

منها ما رواه جابر بن عبدالله ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ، ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ[(٥)]: «تَعَالَ، صَلِّ لَنَا»، فَيَقُولُ:

---

(١) قال المناوي ـ رحمه الله ـ في «فيض القدير»: «وهذا ـ أي قوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «كَيْفَ أَنْتُمْ»... إلخ، استفهام عن حال من يكونون أحياء عند نزول عيسى: كيف يكون سرورهم بلقاء هذا النبي الكريم؟ وكيف يكون فخر هذه الأمة، وعيسى روح الله يصلي وراء إمامهم؟ وذلك لا يلزم انفصال عيسى من الرسالة؛ لأن جميع الرسل بُعِثُوا بالدعاء إلى التوحيد، والأمر بالعبادة والعدل، والنهي عما خالف ذلك من جزئيات الأحكام بسبب تفاوت الأعصار في المصالح من حيث إن كل واحدة منها حق بالإضافة إلى زمانها، مراعًى فيه صلاح من خوطب به، فإذا نَزَلَ المتقدم في أيام المتأخر نَزَلَ على وفقه؛ ولذلك قال ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا، لَمَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي»؛ تنبيهًا على أن اتباعه لا ينافي الإيمان به، بل يوجبه». اهـ. (٥٨/٥).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، (٤٩١/٦)، فتح؛ ومسلم في «صحيحه» (٢٤٤)، (١٣٦/١)؛ والإمام أحمد في «المسند»، (٢٧٢/٢، ٣٣٦)؛ وابن حبان «الإحسان»، (٢١٣/١٥)، (٦٨٠٢).

(٣) رواه مسلم (٢٤٥)، (١٣٦/١).

(٤) (وقال أبو ذر الهروي: حدثنا الجوزقي عن بعض المتقدمين قال: معنى «وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ»؛ يعني أنه يَحْكُمُ بالقرآن لا بالإنجيل، وقال ابن التين: معنى قوله: «وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ» أن الشريعة المحمدية متصلة إلى يوم القيامة، وأن في كل قرن طائفة من أهل العلم». اهـ. نقلًا من «الاحتجاج بالأثر» للتويجري، ص(٢١).

(٥) قال في «التاج»: «أميرهم هو المهدي حينذاك». اهـ (٣٤٤/٥).

«لَا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ، تَكْرِمَةَ اللَّهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ» »[١].

وعند الإمام أحمد من حديث جابر رضي الله عنه أيضًا ـ:

«... فَإِذَا هُمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَتُقَامُ الصَّلَاةُ، فَيُقَالُ لَهُ: «تَقَدَّمْ يَا رُوحَ اللَّهِ»، فَيَقُولُ: «لِيَتَقَدَّمْ إِمَامُكُمْ، فَلْيُصَلِّ بِكُمْ»[٢].

قال العلامة محمد حبيب الله الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: «لم يُعَين الإمام هنا باسمه، بل أُطْلِقَ، وورد مُقَيَّدًا بأنه المهدي في أحاديث أُخَرَ؛ منها:

ما أخرجه أبو نُعَيْم عن أبي سعيد، والحارث بن أبي أسامة في مسنده، عن جابر، أن النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ قال: «يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمُ الْمَهْدِيُّ: «تَعَالَ، صَلِّ بِنَا»، فَيَقُولُ: «لَا؛ إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أَمِيرٌ، تَكْرِمَةَ اللَّهِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ» »[٣].

قال ابن القَيِّم بعد ذكره لحديث الحارث: «وهذا إسناد جيد»[٤]، ومنها ما أخرجه ابن ماجه، والروياني، وابن خزيمة، وأبو عوانة، والحاكم، وأبو نُعَيْم، واللفظ له، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: «خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وَذَكَرَ الدَّجَّالَ، وَقَالَ: «فَتَنْفِي الْمَدِينَةُ الْخَبَثَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ، وَيُدْعَى ذَلِكَ الْيَوْمُ يَوْمَ الْخَلَاصِ»، قَالَتْ أُمُّ شُرَيْكٍ: «فَأَيْنَ الْعَرَبُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ؟» قَالَ: «هُمْ يَوْمَئِذٍ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/٣٤٥، ٣٨٤)؛ ومسلم في «صحيحه»، (١/١٣٧) (١٥٦)؛ وأخرجه أبو يعلى في «مسنده»، (٤/٥٩)، رقم (٢٠٧٨)، بلفظ «لَا تَزَالُ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، فَيَقُولُ إِمَامُهُمْ: «تَقَدَّمْ»، فَيَقُولُ: «أَنْتَ أَحَقُّ، بَعْضُكُمْ أُمَرَاءُ عَلَى بَعْضٍ، أَمْرٌ أَكْرَمَ اللَّهُ بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ» ».

(٢) «المسند»، (٣/٣٦٨)، وقد أورد الشيخ صِدِّيق حسن خان ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ في «الإذاعة» جملة كبيرة من أحاديث المهدي، جعل آخرها حديث جابر المذكور عند مسلم، ثم قال عقبه: «وليس فيه ذكر المهدي، ولكن لا محمل له ولأمثاله من الأحاديث إلا [على] المهدي المنتظر، كما دلت على ذلك الأخبار المتقدمة، والآثار الكثيرة». اهـ. ص (١٤٤).

(٣) تقدم تحقيقه في الحديث السابع ص(٣٨).

(٤) «نقد المنقول»، ص (١٤٨).

«هو المهدي محمد بن عبدالله ـ عليه السلام ـ، كما تظاهرت بذلك الأحاديث بأسانيد بعضها صحيح، وبعضها حسن». اهـ[(١)].

فائدة: قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ:

«وفي صلاة عيسى خلف رجل من هذه الأمة ـ مع كونه في آخر الزمان، وقرب قيام الساعة ـ دلالة للصحيح من الأقوال أن الأرض لا تخلو عن قائم لله بحجة، والله أعلم»[(٢)]. اهـ.

رَدُّ شُبْهَةٍ، وَدَفْعُ إِشْكَالٍ:

أنكر بعضهم ما ورد من أن عيسى ـ عليه السلام ـ إذا نزل يصلي خلف المهدي صلاة الصبح، وصَنَّف في ذلك كتابًا، وقال في توجيه ذلك:

«إن النبي ـ عليه السلام ـ أَجَلُّ مقامًا من أن يصلي خلف غَيْرِ نَبِيٍّ». وجواب هذا من أوجه:

(الأول): أن صلاة عيسى خلف المهدي ثابتة في عدة أحاديث بإخبار رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾، وقد تقدم ذكرها.

(الثاني): أن الحكمة من ذلك ـ كما نقلنا عن ابن الجوزي آنفًا ـ أن لا يتدنس عيسى ـ عليه السلام ـ بغبار الشبهة؛ إذ لو تقدم عيسى إمامًا لوقع في النفس إشكال، ولقيل: أتراه نائبًا، أو مبتدئًا شرعًا؟

(الثالث): «لا شك أن عيسى أكمل من المهدي؛ لأنه نبي الله»[(٣)]، إلا أن الثابت

---

(١) «مختصر صحيح مسلم للمنذري»، ص(٣٠٩).

(٢) «فتح الباري»، (٦/٤٩٤).

(٣) نقل هذه العبارة في «الإذاعة» ص(١٣٥)، عن الشوكاني في «التوضيح».

شرعًا جواز إمامة المفضول للفاضل؛ وهذا رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وهو من أجل الأنبياء مَقامًا، وأرفعهم درجة ـ قد صلى في غزوة تبوك خلف عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه؛ ففي حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: «فَأَقْبَلْتُ مَعَهُ حَتَّى نَجِدَ النَّاسَ قَدْ قَدَّمُوا عَبْدَالرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ قَدْ صَلَّى لَهُمْ، فَأَدْرَكَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ إِحْدَى الرَّكْعَتَيْنِ مَعَهُ، وَصَلَّى مَعَ النَّاسِ الرَّكْعَةَ الْآخِرَةَ، فَلَمَّا سَلَّمَ عَبْدُالرَّحْمَنِ، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وَأَتَمَّ صَلَاتَهُ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَكْثَرُوا التَّسْبِيحَ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ صَلَاتَهُ، أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ: «أَحْسَنْتُمْ»، أَوْ قَالَ: «أَصَبْتُمْ»، يَغْبِطُهُمْ أَنْ صَلَّوُا الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: «آخِرُ صَلَاةٍ صَلَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ مَعَ الْقَوْمِ، صَلَّى فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ مُتَوَشِّحًا خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ»(٢).

وعن عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالت: «صَلَّى النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ، فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، قَاعِدًا»(٣).

وفي الباب عن جابر، وسهل بن سعد، وأبي موسى ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ.

وجزم بعض العلماء بأن عيسى يقتدي بالمهدي أولًا؛ ليُظْهِرَ أنه نَزَلَ تابعًا لنبينا، حاكمًا بشرعه، ثم بعد ذلك يقتدي المهدي به(٤)، على أصل القاعدة من اقتداء المفضول بالفاضل؛ وممن ذهب إلى ذلك السعد التفتازاني، والمناوي، والكشميري؛

(١) رواه الشافعي في «مسنده»، (٢٨/١، ٢٩، ٣٢)؛ ومسلم (٢٧٤)، (٣١٧/١) في الصلاة: باب تقديم الجماعة من يُصَلِّي بهم إذا تَأَخَّرَ الإمام، ولم يخافوا مفسدةً بالتقديم.

(٢) رواه النسائي (٧٩/٢)، في الإمامة، باب صلاة الإمام خلف رجل من رعيته؛ والترمذي (٣٦٣) في الصلاة، باب «إذا صَلَّى الإمام قاعدًا، فَصَلُّوا قعودًا»، وفي روايته: «صَلَّى في مرضه خلف أبي بكر قاعدًا في ثوب، مُتَوَشِّحًا به»؛ أي ملتحفًا به.

(٣) رواه الترمذي (٣٦٢) في الصلاة، باب ما جاء «إذا صَلَّى الإمام قاعدًا، فصلوا قعودًا».

(٤) ويمكن أن يُسْتَدَلَّ على هذا برواية «وأَمَّكم»؛ أي فيما بعد.

الْفَصْلُ الثَّانِي

اهْتِمَامُ الْعُلَمَاءِ بِأَحَادِيثِ الْمَهْدِيِّ

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: سَرْدُ أَسْمَاءِ الصَّحَابَةِ ﵃ الَّذِينَ رَوَوْا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أَحَادِيثَ الْمَهْدِيِّ

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: أَسْمَاءُ الْأَئِمَّةِ الَّذِينَ خَرَّجُوا الْأَحَادِيثَ وَالْآثَارَ الْوَارِدَةَ فِي الْمَهْدِيِّ فِي كُتُبِهِمْ

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: ذِكْرُ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ احْتَجُّوا بِأَحَادِيثِ الْمَهْدِيِّ

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ: عُلَمَاءُ أَفْرَدُوا أَحَادِيثَ الْمَهْدِيِّ بِالتَّصْنِيفِ

* * * * *

المَطْلَبُ الثَّانِي

أَسْمَاءُ الأَئِمَّةِ الَّذِينَ خَرَّجُوا الأَحَادِيثَ وَالآثَارَ الْوَارِدَةَ فِي الْمَهْدِيِّ فِي كُتُبِهِمْ[١].

١- أبو داود في سننه. ٢- الترمذي في جامعه.
٣- ابن ماجه في سننه. ٤- النسائي[٢].
٥- أحمد في مسنده. ٦- ابن حبان في صحيحه.
٧- الحاكم في المستدرك. ٨- أبو بكر بن أبي شيبة في المصنف.
٩- نعيم بن حماد في «كتاب الفتن»، وكتابه هذا أوسع مرجع قديم في أحاديث المهدي[٣].
١٠- الحافظ أبو نعيم في كتاب المهدي، وفي الحلية.
١١- الطبراني في معاجمه: الكبير، والأوسط، والصغير.
١٢- الدارقطني في الأفراد. ١٣- الباوردي في معرفة الصحابة.
١٤- أبو يعلى الموصلي في مسنده. ١٥- البزَّار في مسنده.
١٦- الحارث بن أبي أسامة في مسنده.
١٧- الخطيب في تلخيص المتشابه، وفي المتفق والمفترق.

---

(١) كما استقرأها الشيخ العباد في «الرد»، ص (١٦٦-١٦٨)، عِلمًا بأن أحاديث البخاري ومسلم ليس فيها التصريح بلفظ «المهدي»، ولكن فيها صفته، وقد نصَّ على أن المرادَ بذلك المهديُّ بعضُ أهل العلم، كما تقدم ص(٤٤-٥٣).

(٢) ذكره السفاريني في «لوامع الأنوار البهية»؛ والمناوي في «فيض القدير»، وقال الشيخ العباد في «ردِّه»: «وما رأيته في الصغرى، ولعله في الكبرى». اهـ. ص(١٦٧).

(٣) قال الدكتور عبدالعليم البَسْتَوي: «ولقد بحثت كثيرًا في مروياته في هذا الباب فوجدت أن أغلب الأحاديث التي تفرد بها ضعيفة بمن هو فوقه، وإنما أفرط نعيم في الجمع بدون تمحيص، قال مسلمة بن قاسم: «كان صدوقًا، وهو كثير الخطإ، له أحاديث منكرة في الملاحم، انفرد بها»، ثم قال: «إلا أن في صحة نسبة الكتاب إليه نظرًا»، ثم بَيَّنَ أن جميع الروايات التي تفرد بها هذا الكتاب لا تصلح لأَنْ يُحْتَجَّ بها، وإنما هي تصلح للاعتبار، كما في «المهدي المُنْتَظَر»، ص(١٢١-١٢٢).

١٨ـ ابن عساكر في تاريخه.
١٩ـ ابن منده في تاريخ أصبهان.
٢٠ـ أبو الحسن الحربي في الحربيات.
٢١ـ تمام الرازي في فوائده.
٢٢ـ ابن جرير في تهذيب الآثار.
٢٣ـ أبو بكر بن المقري في معجمه.
٢٤ـ أبو عمرو الداني في سننه.
٢٥ـ أبو غنم الكوفي في كتاب الفتن.
٢٦ـ الديلمي في مسند الفردوس.
٢٧ـ أبو الحسن بن المنادى في كتاب الملاحم.
٢٨ـ البيهقي في دلائل النبوة.
٢٩ـ ابن الجوزي في تاريخه.
٣٠ـ يحيى بن عبدالحميد الحماني في مسنده.
٣١ـ الروياني في مسنده.
٣٢ـ ابن سعد في الطبقات.
٣٣ـ ابن خزيمة.
٣٤ـ الحسن بن سفيان.
٣٥ـ عمر بن شبة.
٣٦ـ أبو عوانة.
٣٧ـ عبد بن حميد.
٣٨ـ عبدالرزاق بن همام الصنعاني صاحب «المصنف».

* * *

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

ذِكْرُ العُلَمَاءِ الَّذِينَ احْتَجُّوا بِأَحَادِيثِ المَهْدِيِّ(١)

١ـ الإمام سفيان بن سعيد الثوري (ت١٦١هـ).

٢ـ الإمام أبو داود صاحب «السنن» (ت٢٧٥هـ).

٣ـ الإمام أبو عيسى الترمذي صاحب «الجامع» (ت٢٧٩هـ).

٤ـ الحافظ أبو جعفر العقيلي صاحب كتاب «الضعفاء» (ت٣٢٣هـ).

٥ـ الإمام الحسن بن علي بن خلف أبو محمد البربهاري (ت٣٢٩هـ)، صاحب «شرح السنة».

٦ـ الإمام أبو الحسين أحمد بن جعفر بن المنادى (ت٣٣٦).

٧ـ الإمام ابن حبان البستوي صاحب الصحيح (ت٣٥٤هـ).

٨ـ الحافظ أبو الحسن محمد بن الحسين الآبري السجزي صاحب كتاب «مناقب الشافعي» (ت٣٦٣هـ).

٩ـ الإمام أبو سليمان الخطابي صاحب «معالم السنن» وغيره، (ت٣٨٨هـ).

١٠ـ الإمام البيهقي صاحب «السنن الكبرى» وغيره (ت٤٥٨هـ).

١١ـ القاضي أبو بكر بن العربي صاحب «عارضة الأحوذي» (ت٥٤٣هـ).

١٢ـ القاضي عياض صاحب كتاب «الشفا» (ت٥٤٤هـ).

١٣ـ الإمام السهيلي صاحب «الروض الأنف» (ت٥٨١هـ).

١٤ـ الإمام أبو الفرج بن الجوزي صاحب «كشف المشكل» (ت٥٩٦هـ).

١٥ـ الإمام ابن الأثير صاحب «النهاية»، و«جامع الأصول» (ت٦٠٦هـ).

١٦ـ الحافظ زكي الدين عبدالعظيم بن عبد القوي المنذري (ت٦٥٦هـ).

١٧ـ الإمام القرطبي المُفَسِّرُ المشهور صاحب «التذكرة» (ت٦٧١هـ).

١٨ـ العلامة محمد بن أحمد بن علي القَسْطَلَّاني (ت٦٨٦هـ).

---

(١) وَقَدْ قَرَنْتُ اسم العالم باسم مُصَنَّفه الذي يحتوي على تصحيحه أو تحسينه للأحاديث الواردة في المهدي ما أمكن، ولْيُلْتَمَسْ ما لم يُذْكَرْ هنا في مواضعه من الكتاب.

١٩- شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية صاحب «منهاج السنة النبوية» (ت٧٢٨هـ).

٢٠- الإمام أبو الحجاج المزي صاحب «تهذيب الكمال» (ت٧٤٢هـ).

٢١- الإمام الحافظ الذهبي صاحب «المنتقى من منهاج الاعتدال» (ت ٧٤٨هـ).

٢٢- الإمام المحقق ابن قيم الجوزية صاحب «المنار المنيف في الصحيح والضعيف» (ت٧٥١هـ).

٢٣- الحافظ عماد الدين بن كثير القرشي الدمشقي صاحب «نهاية البداية والنهاية» (ت٧٧٤هـ).

٢٤- الإمام أبو إسحق إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي صاحب «الاعتصام» (ت٧٩٠هـ).

٢٥- الحافظ نور الدين الهيثمي صاحب «موارد الظمآن»، و«مجمع الزوائد» (ت٨٠٧هـ).

٢٦- الإمام شهاب الدين أحمد الكناني البوصيري صاحب «مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه» (ت٨٤٠هـ).

٢٧- الحافظ الكبير ابن حجر العسقلاني صاحب «فتح الباري»، و«تهذيب التهذيب»، و«المطالب العالية»، وغيرها (ت٨٥٢هـ).

٢٨- الحافظ السخاوي صاحب «فتح المغيث» (ت٩٠٢هـ).

٢٩- الحافظ السيوطي صاحب المؤلفات العديدة؛ منها: «العرف الوردي في أخبار المهدي»، (ت٩١١هـ).

٣٠- الشيخ أبو الحسن السمهودي (ت٩١١هـ).

٣١- الشيخ ابن حجر الهيتمي صاحب «القول المختصر في علامات المهدي المنتظر» (ت٩٧٤هـ).

٣٢- الشيخ علي المتقي الهندي صاحب «الرد على من حكم وقضى أن المهدي الموعود جاء ومضى» (ت٩٧٥هـ).

٣٣- العلَّامة الملا علي القاري صاحب «مرقاة المفاتيح» وغيرها. (ت١٠١٤هـ).

٣٤- العلَّامة المحدث عبدالرءوف المناوي صاحب «فيض القدير» (ت١٠٣١هـ).

٣٥- العلَّامة الفقيه مرعي بن يوسف الحنبلي (ت١٠٣٣هـ).

٣٦- العلَّامة البرزنجي صاحب «الإشاعة لأشراط الساعة» (ت١١٠٣هـ).

٣٧- العلَّامة محمد بن عبدالباقي الزُّرقاني (ت١١٢٢هـ).

٣٨- العلَّامة أبو الحسن محمد بن عبدالهادي السندي المُحَشي على ابن ماجه (ت١١٣٨هـ).

٣٩ـ العلَّامة المحدث إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، صاحب «كشف الخفاء» (ت١١٦٢هـ).

٤٠ـ العلَّامة الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني (ت١١٨٢هـ).

٤١ـ العلَّامة محمد بن أحمد السفاريني صاحب «لوامع الأنوار البهية» (ت١١٨٨هـ).

٤٢ـ مُجَدِّدُ القرن الثاني عشر، شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، صاحب «الرد على الرافضة» (ت١٢٠٦هـ).

٤٣ـ العلَّامة القاضي محمد بن علي الشوكاني صاحب «التوضيح» (ت١٢٥٠هـ).

٤٤ـ العلَّامة محمد صِدِّيق حسن خان صاحب «الإذاعة» (ت١٣٠٧هـ).

٤٥ـ العلَّامة محمد بشير السهسواني الهندي صاحب «صيانة الإنسان» (ت١٣٢٦هـ).

٤٦ـ العلَّامة شمس الحق آبادي صاحب «عون المعبود» (ت١٣٢٩هـ).

٤٧ـ العلَّامة المُحَدِّثُ محمد بن جعفر الكتَّاني (ت١٣٤٥هـ).

٤٨ـ العلَّامة محمد أنور شاه الكشميري (ت١٣٥٢هـ).

٤٩ـ العلامة المحدث عبدالرحمن المباركفوري (ت١٣٥٣هـ).

ومن المتأخرين الشيوخ:

٥٠ـ أبو السعود إدريس العراقي.

٥١ـ محمد الشهروزي.

٥٢ـ محمد العربي الفاسي.

٥٣ـ أبو زيد عبدالرحمن الفاسي.

٥٤ـ أبو عبدالله محمد جسوس.

٥٥ـ عبدالغافر الفارسي.

٥٦ـ عبدالقادر بن محمد سالم الشنقيطي.

٥٧ـ محمد حبيب الله الشنقيطي.

٥٨ـ منصور علي ناصف.

٥٩ـ محمد الخَضِر حسين.

٦٠ـ محمد الأمين الشنقيطي.

٦١ـ جلال الدين يوسف الدمشقي.

٦٢ـ أحمد محمد شاكر.

٦٣ـ محمد ناصر الدين الألباني.

٦٤ـ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز.

٦٥ـ محمد محمد أبو شهبة.

٦٦ـ حمود بن عبدالله التويجري.

٦٧ـ عبدالمحسن بن حمد العباد.

وغيرهم كثيرون، رحم الله أمواتهم، وأحسن عاقبتنا وعاقبة أحيائهم.

* * *

المَطْلَبُ الرَّابِعُ

عُلَمَاءُ أَفْرَدُوا أَحَادِيثَ المَهْدِيِّ بِالتَّصْنِيفِ

لم يقتصر احتفال الأئمة بأحاديث المهدي على إيرادها في كتبهم، وتصحيحها وتحسينها، أو تضعيف ما لا يثبت منها، بل منهم من أفردها بالتصنيف؛ ليناقشها من جوانبَ متعددةٍ؛ وهاك أسماءَ من صنَّف في ذلك من الأئمة:

١ـ الإمام نُعَيْمُ بن حَمَّاد شيخ البخاري (ت٢٣١هـ)، جَمَعَ منها فأكثر في كتاب «الفتن»[١].

٢ـ أبو داود السجستاني (ت٢٧٥هـ)، عقد «كتاب المهدي» في سننه[٢].

٣ـ أبو بكر بن أبي خيثمة (ت٢٧٩هـ)، قال السهيلي: «والأحاديث الواردة في أمر المهدي كثيرة، وقد جمعها أبو بكر بن أبي خيثمة فأكثر»[٣]. اهـ.

٤ـ الإمام أبو الحسين أحمد بن جعفر بن المنادى (ت٣٣٦هـ)، جمع جزءًا في المهدي[٤].

٥ـ الحافظ أبو نُعَيْم أحمد بن عبدالله الأصبهاني (ت٤٣٠هـ)، له جزء جمع فيه أربعين حديثًا في المهدي باسم «صفة المهدي»[٥].

٦ـ العلَّامة محمد بن يوسف الكَنْجِيُّ الشافعي (ت٦٥٨هـ)، وكتابه «البيان في أخبار صاحب الزمان»[٦].

---

(١) تُوجَدُ نسخة مخطوطة بمعهد المخطوطات العربية، كما في فهرس مراجع تحقيق «عقود الدرر»، ص(٤٦٠).

(٢) «سنن أبي داود»، (٤/١٠٦-١٠٩).

(٣) «الروض الأنف»، (١/٢٨٠).

(٤) «فتح الباري»، (١٣/٢١٣).

(٥) وهي التي لَخَّصَها السيوطي في «العرف الوردي»، وزاد عليها.

(٦) «المهدي المنتظر بين التصور والتصديق»، ص(٣١).

٧ـ الإمام جلال الدين يوسف بن يحيى بن علي المقدسي الشافعي (ت٦٨٥هـ)، وكتابه «عقد الدرر في أخبار المُنْتَظَر»[(١)].

٨ـ الحافظ عماد الدين بن كثير (ت٧٧٤هـ)، قال في كتابه «الفتن والملاحم»: «وقد أفردت في ذكر المهدي جزءًا على حدة»[(٢)].

٩ـ الحافظ ولي الدين أبو زرعة العراقي (ت٨٢٦هـ)، جمع طرق أحاديث المهدي[(٣)].

١٠ـ الحافظ شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي (ت٩٠٢هـ)، وكتابه «ارتقاء الغرف»[(٤)].

١١ـ العلَّامة ابن بريدة، وكتابه «العواصم عن الفتن القواصم»[(٥)].

١٢ـ الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، وكتابه «العَرْف الوردي في أخبار المهدي»[(٦)]، و«الكشف في مجاوزة هذه الأمة الألف»، و«تعريف الفئة بأجوبة الأسئلة المئة».

١٣ـ الفقيه ابن حجر الهيتمي المكي (ت٩٧٤هـ)، وكتابه «القول المُخْتَصَر في علامات

---

(١) وقد طُبِعَ بتحقيق الدكتور عبدالفتاح محمد الحلو، ١٣٩٩هـ، مكتبة عالم الفكر.

(٢) «نهاية البداية والنهاية»، (١/٤٣).

(٣) ذكره في مؤلفاته ابن فهد في «ذيله على تذكرة الحفاظ للذهبي».

(٤) «المقاصد الحسنة»، (٤٣٥)؛ «كشف الخفا»، ص (٢٨٨).

(٥) «فيض القدير»، (١/٣٦٣).

(٦) مطبوع ضمن كتابه «الحاوي للفتاوي»، (٢/٥٧-٨٦)، قال الدكتور عبدالعليم البستوي ـ حفظه الله ـ: (لخَّص فيه كتاب «أخبار المهدي»، لأبي نعيم الأصبهاني، وزاد عليه كثيرًا من مصادر أخرى.
ومن مزايا هذا الكتاب أنه جمع أكبر عدد وارد في هذا الباب، مع بيان مصادرها، ولكنه جمع هذه الأحاديث والآثار محذوفةَ الأسانيد، ولا يبين درجتها من الصحة أو الضعف، إلا في موضع أو موضعين، والحق أن في هذا الكتاب كثيرًا من الروايات الضعيفة والواهية وحتى الموضوعة.
وهذه الطريقة للجمع، وإن كانت حسنة للعلماء والباحثين؛ لأنها تدلهم على المصادر، وبإمكانهم البحث عن أحوالها ـ ولكنها، في الوقت نفسه، تُلْحِقُ ضررًا كبيرًا بالعامَّة؛ لأنهم لا يجدون في أنفسهم ملكة للبحث والتحقيق؛ وهكذا حدث؛ فقد جرت عادة كل الذين أَلَّفوا بعده ـ إلا من رحم الله ـ أن ساقوا كل هذه الروايات، واستدلوا بها؛ وهكذا انتشر كثير من الأخبار والقصص الواهية، فصدقها الناس، وآمنوا بها، وكأنها لا تحتمل أي نقاش أو تردد، والله أعلم». اهـ. من «المهدي المنتظر»، ص(١٢٩-١٣٠).

المهدي المُنْتَظَر»[١].

١٤- الملا علي بن حسام الدين المتقي الهندي صاحب «كنز العمال» (ت٩٧٥هـ)، وكتبه: «البرهان في علامات مهدي آخر الزمان»[٢]، و«تلخيص البيان في علامات مهدي آخر الزمان»[٣]، و«الرد على من حكم وقضى أن المهدي الموعود جاء ومضى».

١٥- الملا علي بن سلطان القاري الهروي (ت١٠١٤هـ)، وكتابه: «المشرب الوردي في مذهب المهدي»[٤]، «وقد ألفه ردًّا على دعوى بعض متعصبة الحنفية أن عيسى والمهدي يقلدان أبا حنيفة، ويكونان على مذهبه[٥]!

١٦- الشيخ مرعى بن يوسف الحنبلي (ت١٠٣٣هـ)، وكتابه: «فوائد الفكر في الإمام المهدي المنتظر»[٦].

١٧- محمد بن عبدالرسول(!) البرزنجي (ت١١٠٣هـ)، وكتابه: «الإشاعة لأشراط الساعة».

١٨- العلاَّمة محمد بن إسماعيل الصنعاني (ت١١٨٢هـ)، جَمَعَ الأحاديث القاضية بخروج المهدي، كما ذكر ذلك الشيخ صِدِّيق حسن خان في «الإذاعة».

---

(١) وقد طُبِعَ حديثًا بتحقيق مصطفى عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة، وأكثر رواياته مردودة.

(٢)، (٣) ذكرها البرزنجي في «الإشاعة»، وقبله ذكرها «ملا علي قاري»، في «المرقاة»، (١٨٢/٥). والأولى مخطوطة بالمكتب الهندي بلندن، والثانية بالمتحف البريطاني، كما في فهرس مراجع تحقيق «عقد الدرر»، ص(٤٥٦)، (٤٥٧).

(٤) «الإذاعة»، ص(١٦٣)، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية (ب٢٣٢٣)، كما في مراجع تحقيق «عقد الدرر»، ص(٤٦٢).

(٥) قال البَرزنجي في «الإشاعة»: «ومن العجائب أنه وقع للقهستاني - مع فضله وجلالته - شيء من ذلك، فقال في شرح خطبة النقابة: «إن عيسى إذا نَزَلَ عمل بمذهب أبي حنيفة، كما ذكره في «الفصول الستة»، وليت شعري ما الفصول الستة؟ وما الدليل على هذا القول؟ فإنا لله وإنا إليه راجعون». اهـ. وانظر «خواطر دينية»، (١٨/٢-٢٢).

(٦) «الإذاعة»، ص(١٤٨)، وهو مخطوط بالمكتب الهندي بلندن كما في مراجع تحقيق «عقد الدرر»، ص(٤٦٠)؛ «لوامع الأنوار البهية»، (٧٣/٢)؛ «الأعلام»، للزركلي، (٣٦٣/١).

١٩- المُحَدِّث أبو العلاء السيد إدريس بن محمد بن إدريس العراقي الحسيني[١] (ت١١٨٣هـ).

٢٠- العلَّامة محمد أحمد السفاريني (ت١١٨٩هـ)، وكتابه: «البحور الزاخرة من علوم الآخرة»[٢].

٢١- القاضي محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠هـ)، وكتابه «التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي الْمُنْتَظَر والدجَّال والمسيح»[٣].

٢٢- العلَّامة محمد صديق حسن خان (ت١٣٠٧هـ)، وكتاباه: «حجج الكرامة في آثار القيامة»[٤]، و«الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة».

٢٣- العلَّامة محمد حبيب الله الشنقيطي (ت١٣٦٣هـ)، وكتابه «الجواب المقنع الْمُحَرَّر في أخبار عيسى والمهدي والْمُنْتَظَر»[٥].

٢٤- الشيخ منصور علي ناصف (توفي بعد١٣٧١هـ)، عقد له في كتابه «التاج» بابًا خاصًا به.

٢٥- أحمد بن محمد بن الصِّدِّيق (ت١٣٨٠هـ)، وكتابه «إبراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون» أو «المرشد المبدي لفساد طعن ابن خلدون في أحاديث المهدي».

٢٦- الشيخ محمد بن عبدالعزيز بن مانع (ت١٣٨٥هـ)، وكتابه «تحديق النظر في أخبار الإمام المنتظر»[٦].

٢٧- الشيخ عبدالمحسن العباد، وكتاباه: «الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي»، و«عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر».

---

(١) «المهدي المنتظر»، للغماري ص(٥).
(٢) «الإذاعة»، ص(١٦٣، ١١٠).
(٣) «السابق»، ص (١١٣).
(٤) «السابق»، ص (١١٤).
(٥) «زاد المسلم»، ص(٢/ ٤١).
(٦) ذكره الشيخ عبدالمحسن العباد في «رده على من كَذَّبَ بأحاديث المهدي»، ص(٣٨)، وذكر أنه تُوجَدُ منها نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

٢٨ـ الشيخ حمود بن عبد الله التويجري، وكتابه: «الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المُنْتَظَر».

٢٩ـ الشيخ عبدالعليم بن عبدالعظيم البستوي، وكتابه «الأحاديث الواردة في شأن المهدي في ميزان الجرح والتعديل»[١]، وهي رسالة ماجستير بإشراف د. محمد أبو شهبة ـ رحمه الله ـ.

٣٠ـ الشيخ أبو الفضل عبدالله بن الصِّدِّيق (ت١٤١٣هـ)، وكتابه «المهدي المنتظر».

٣١ـ الشيخ حامد محمود ليمود، وكتابه «سيد البشر يتحدث عن المهدي المنتظر».

* * *

(١) وقد طَبَعَتْهَا مؤخرًا في مجلدين، بعد حذف وإضافة من المؤلِّف ـ المكتبةُ المكية بمكة المكرمة؛ ودار ابن حزم ببيروت، سنة ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

نُصُوصُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي إِثْبَاتِ حَقِيقَةِ الْمَهْدِيِّ

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

نُصُوصُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي إِثْبَاتِ حَقِيقَةِ الْمَهْدِيِّ

- ذكر أبو داود السجستاني أن سفيان الثوري كان يتكلم في بعض من خرج مع محمد بن عبدالله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية، على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، ثم قال: وسفيان يقول: «وإن مَرَّ بك المهدي وأنت في البيت فلا تخرج إليه حتى يجتمع الناس»[(١)]، ويُفْهَمُ منه أن أمر المهدي كان شائعًا مُسَلَّمًا عندهم.

- وقال الإمام الحافظ أبو جعفر العُقَيْلي (ت٣٢٣هـ) في كتابه: «الضعفاء» في ترجمة علي بن نفيل النهدي: «لا يُتَابَعُ على حديثه في المهدي، ولا يُعْرَفُ إلا به، وفي المهدي أحاديث جِيَادٌ من غير هذا الوجه بخلاف هذا اللفظ»[(٢)]. اهـ.

وقال - أيضًا - في ترجمة زياد بن بيان الرقي:

«وفي المهدي أحاديث صالحة الأسانيد: أن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - قال: «يَخْرُجُ مِنِّي رَجُلٌ - وَيُقَالُ: مِنْ أَهْلِ بَيْتِي - يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي، وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمَ أَبِي»[(٣)]. اهـ.

- وقال الحسن بن علي بن خلف أبو محمد البربهاري شيخ الحنابلة في وقته (ت٣٢٩هـ)، في كتابه «شرح السُّنَّة»:

«والإيمان بنزول عيسى ابن مريم - عليه السلام -، ينزل فيقتل الدجَّال، ويتزوج، ويصلي خلف القائم من آل محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -»[(٤)]. اهـ.

---

(١) انظر: «حلية الأولياء»، (٣١/٧).

(٢) «الضعفاء»، ص(٣٠٠)، ونقله عنه الحافظ في «تهذيب التهذيب»، (٣٩٢-٣٩١/٧).

(٣) «الضعفاء»، ص(١٣٩-١٤٠).

(٤) «شرح السنة» ص(٧٣).

● وقال الإِمام أبو الحسين أحمد بن جعفر بن المنادى (ت٣٣٦هـ) في جزءٍ له جَمَعَهُ في المهدي: «يُحْتَمَلُ في معنى حديث: «يَكُونُ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً» أن يكون هذا بعد المهدي الذي يخرج في آخر الزمان»[١]. اهـ.

● وعَقَدَ الإِمام أبو حاتم بن حِبَّان البستوي (ت٣٥٤هـ) في صحيحه عدة أبواب في ذكر المهدي، واستدل بأحاديث عديدة؛ منها:

ـ ذكر البيان بأن خروج المهدي إنما يكون بعد ظهور الظلم والجور في الدنيا، وغلبهما على الحق والجدِّ[٢].

ـ ذكر الإخبار عن وصف اسم المهدي، واسم أبيه، ضد قول من زعم أن المهدي عيسى ابن مريم[٣].

ـ ذكر الإخبار عن وصف المدة التي تكون للمهدي في آخر الزمان[٤].

ـ ذكر الموضع الذي يبايع فيه المهدي[٥].

ـ ذكر الخبر المُصَرِّح بأن القوم الذين يُخْسَفُ بهم إنما هم القاصدون إلى المهدي في زوال الأمر عنه[٦]. اهـ.

● وقال الإِمام أبو الحسن محمد بن الحسين الآبُرِّي في كتاب «مناقب الشافعي»: «... وقد تواترت الأخبار، واستفاضت عن رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ بذكر المهدي، وأنه من أهل بيته، وأنه يملك سبع سنين، وأنه يملأ الأرض عدلًا، وأن عيسى يخرج فيساعده على قتل الدجَّال، وأنه يؤم هذه الأمة، ويصلي عيسى

---

(١) ذكره ابن حجر نقلًا عن «كشف المُشْكِل»، لأبي الفرج بن الجوزي؛ انظر: «فتح الباري»، (٢١٢/١٣).

(٢)، (٣) «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان»، (٢٣٦/١٥).

(٤) «السابق»، (٢٣٨/١٥).

(٥) «السابق»، (٢٣٩/١٥).

(٦) «السابق»، (١٥٨/١٥).

خلفه»[١]. اهـ.

- وقال الإمام أبو سُلَيْمَان الخَطَّابي (ت٣٨٨هـ) في صدر كلامه على حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَكُونَ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ»... الحديث ـ قال: «ويكون ذلك في زمن المهدي، أو عيسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، أو كليهما»[٢]. اهـ.

- وقال الإمام البيهقي (ت٤٥٨هـ): «والأحاديث في التنصيص على خروج المهـدي أصح البتة إسنادًا، وفيها بيان كونـه من عترة النبي ـ صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ»[٣].

- وذكر القاضي عياض (ت٥٤٤هـ) في كتابه: «الشفا»، في الباب الرابع، الفصل الثالث والعشرين، جملة من الأمور المستقبلة، التي أخبر بها مَنْ لا ينطق عن الهوى ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وذكر من بينها خروج المهدي[٤].

- أما الإمام السُّهَيْلِيُّ، فذكر في باب إسلام خديجة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ، عند كلامه على فضائل فاطمة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قوله: «ومن سؤددها ـ أيضًا ـ أن المهديَّ الْمُبَشَّرَ به في آخر الزمان من ذريتها، والأحاديث الواردة في أمر المهدي كثيرة، وقد جَمَعَها أبو بكر بن أبي خيثمة فأَكْثَرَ»[٥]. اهـ.

---

(١) وقد تناقل الأئمة هذا النص عن الآبُرِّي، وأقروه عليه في مختلف العصور، وممن نقله، في سياق الاحتجاج به، وسكت عليه:
الإمام ابن قَيِّم الجوزية في «المنار المنيف»، والحافظ ابن حجر في «فتح الباري»، و«التهذيب»، والحافظ أبو الحجاج المزي في «تهذيب الكمال»، في ترجمة محمد بن خالد الجندي الصنعاني، والقرطبي في «التذكرة»، والسخاوي في «فتح المغيث»، والسيوطي في «أخبار المهدي»، محمد بن عبدالباقي الزرقاني، ومرعي بن يوسف الحنبلي، وغيرهم، وانظر ص(١٣٠-١٣١).

(٢) نقله عنه المباركفوري في «تحفة الأحوذي»، (٦/٦٢٥).

(٣) ذكره المزي في «تهذيب الكمال»، (٦/٥٩٧)، ألف؛ وابن القيم في «المنار المنيف»، ص(٨٣-٨٤).

(٤) «الشفا»، (١/٢٢٣).

(٥) «الروض الأنف»، (١/٢٨٠).

- وقال الإمام أبو السعادات بن الأثير الجزري في «النهاية»:

«المهدي الذي قد هداه الله إلى الحق، وقد اسْتُعْمِلَ في الأسماء حتى صار كالأسماء الغالبة، وبه سُمِيَّ المهدي الذي بَشَّرَ به رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ أنه يجيء في آخر الزمان»[١]. اهـ، وقد عقد في «جامع الأصول» فصلًا «في المسيح والمهدي ـ عليهما السلام ـ»، أورد فيه جملة من أخبار المهدي[٢].

- وقال الإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي الْمُفَسِّرُ الشهير (ت٦٧١هـ) في كتابه «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة»، أثناء نقده لحديث «وَلَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ»: «منقطع، والأحاديث عن النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ في التنصيص على خروج المهدي من عترته من ولد فاطمة ـ ثابتة، أصح من هذا الحديث؛ فالحكم بها دونه»[٣]. اهـ.

- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في «منهاج السنة النبوية»: «الأحاديث التي يُحْتَجُّ بها على خروج المهدي أحاديث صحيحة[٤]، رواها أبو داود، والترمذي، وأحمد، وغيرهم، من حديث ابن مسعود وغيره»[٥]، ثم ذكر شيخ الإسلام روايات ابن مسعود، وأم سلمة، وأبي سعيد، وعليٍّ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ جميعًا.

ثم قال ـ رحمه الله ـ: «وهذه الأحاديث غَلِطَ فيها طوائف: طائفة أنكروها، واحتجوا بحديث ابن ماجه أن النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ قال: «لَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ»، وهذا الحديث ضعيف، وقد اعتمد أبو محمد بن الوليد البغدادي

(١) «النهاية في غريب الحديث والأثر»، (٢٥٤/٥).
(٢) «جامع الأصول في أحاديث الرسول ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ»، (٣٢٧/١٠-٣٣٢).
(٣) «التذكرة»، (٧٢٣/٢).
(٤) وكذا صححها الحافظ الذهبي في «المنتقى من منهاج الاعتدال»، ص(٥٣٤).
(٥) «منهاج السنة النبوية»، (٢٥٤/٨).

وغيره عليه، وليس مما يُعْتَمَدُ عليه، ورواه ابن ماجه عن يونس عن الشافعي، والشافعي رواه عن رجل من أهل اليمن يقال له محمد بن خالد الجَنَدي، وهو ممن لا يُحْتَجُّ به، وليس هذا في مسند الشافعي، وقد قيل: إن الشافعي لم يسمعه من الجَنَدي، وإن يونس لم يسمعه من الشافعي.

«الثاني»(١): أن الاثني عشرية الذين ادَّعوا أن هذا هو مهديُّهم، مهديهم اسمه محمد بن الحسن، والمهدي المنعوت الذي وصفه النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ إسمه محمد بن عبدالله؛ ولهذا حَذَفَتْ طائفة ذكر الأبِ من لفظ الرسول حتى لا يُنَاقِض ما كذبت، وطائفة حَرَّفَتْهُ، فقالت: «جده الحسين، وكنيته أبو عبدالله»، إلى أن قال شيخ الإسلام ما معناه:

«الثالث»: أن طوائف ادَّعَى كل منهم أن المهدي الْمُبَشَّرَ به مثل مهدي القرامطة الباطنية، وابن التومرت، ومثل عدة آخرين ادَّعَوْا ذلك ـ منهم من قُتِل، ومنهم من ادَّعى ذلك فيه أصحابه، وهؤلاء كثيرون لا يُحْصِي عدَدَهم إلا اللهُ، وربما حصل بأحدهم نفع لقوم، وإن حصل به ضرر لآخرين؛ كما حصل بمهدي المغرب: انتفع به طوائف، وتضرَّر به طوائف، وكان فيه ما يُحْمَدُ، وإن كان فيه ما يُذَمُّ، وبكل حال فهو وأمثاله خير من مهدي الرافضة الذي ليس له عين ولا أثر، ولا يُعرف له حس ولا خبر، لم يَنْتَفِعْ به أحد: لا في الدنيا، ولا في الدين، بل حصل باعتقاد وجوده من الشر والفساد ما لا يُحْصِيهِ إلا ربُّ العباد، وأعرف في زماننا غير واحد من المشايخ الذين فيهم زهد وعبادة يظن كل منهم أنه المهدي، وربما يُخَاطَب أحَدُهم بذلك مرات متعددة، ويكون المخاطِبُ له بذلك الشيطان، وهو يظن أنه خطاب من قِبَلِ الله، ويكون أحدهم اسمه أحمد بن إبراهيم، فيقال له: محمد وأحمد سواء، وإبراهيم الخليل هو جد رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وأبوك إبراهيم، فقد واطأ اسمك اسمه، واسمُ أبيك

(١) أي الوجه الثاني.

اسمَ أبيه، ومع هذا، فهؤلاء مع ما وقع لهم من الجهل والغلط، كانوا خيرًا من مُنْتَظَرِ الرافضة، ويحصل بهم من النفع ما لا يحصل بِمُنْتَظَرِ الرافضة، ولم يحصل بهم من الضرر ما حصل بِمُنْتَظَرِ الرافضة، بل ما حصل بِمُنْتَظَرِ الرافضة من الضرر أكثر منه»[١] . اهـ.

● وقال ابن قَيِّم الجوزية في «المنار» بعد أن ذكر عدة أحاديث في شأن المهدي: «وهذه الأحاديث أربعة أقسام: صِحَاحٌ، وحِسَانٌ، وغرائب، وموضوعة»، وقال ـ أيضًا ـ: «وقد قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي»، وقد ذهب الإمام أحمد في إحدى الروايتين عنه، وغيره، إلى أن عمر بن عبدالعزيز منهم، ولا ريب أنه كان راشدًا مهديًّا، ولكن ليس بالمهدي الذي يخرج آخر الزمان؛ فالمهدي في جانب الخير والرشد كالدجَّال في جانب الشر والضلال، وكما أن بين يدي الدجَّال الأكبر صاحبِ الخوارق دجَّالين كذَّابين، فكذلك بين يدي المهدي الأكبر مهديون راشدون»[٢] . اهـ.
وقال ـ أيضًا ـ رحمه الله ـ في «إغاثة اللهفان»:

«ومن تلاعبه ـ يعني الشيطان ـ بهم ـ يعني اليهود ـ أنهم ينتظرون قائمًا من وَلَدِ داود النبي، إذا حَرَّكَ شفتيه بالدعاء مات جميع الأمم، وأن هذا الْمُنْتَظَرَ ـ بزعمهم ـ هو المسيح الذي وُعِدوا به، وهم في الحقيقة إنما ينتظرون مسيح الضلالة الدجَّال، فهم أكثر أتباعه، وإلا فمسيح الهدى عيسى ابن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقتلهم، ولا يُبقي

(١) «منهاج السنة النبوية» (٨/٢٥٨ ـ ٢٦٠) باختصار.
(٢) وقال ـ رحمه الله ـ في «المنار» ـ أيضًا ـ: «أكثر الأحاديث تدل على أنه من ولد الحسن بن علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ، وفي كونه من ولد الحسن سر لطيف؛ وهو أن الحسن رضي الله عنه ترك الخلافة لله، فجعل الله من ولده من يقوم بالخلافة، الحق المتضمن للعدل الذي يملأ الأرض، وهذه سنة الله في عباده أنه من ترك لأجله شيئًا أعطاه الله، أو أعطى ذريته أفضل منه، وهذا بخلاف الْحُسَيْنِ رضي الله عنه ؛ فإنه حرص عليها، فلم يظفر بها، والله أعلم». اهـ، ص (٨٨)؛ ونقل المناوي في «الفيض»، (٦/٢٧٩) نحوه عن أبي الحسن السمهودي، (ت ٩١١هـ).
وانظر «سيد البشر يتحدث عن المهدي المنتظر»، ص(٦٠-٦٣).

منهم أحدًا». ثم قال: «والمسلمون ينتظرون نزول المسيح عيسى ابن مريم من السماء؛ لكسر الصليب، وقتل الخنزير، وقتل أعدائه من اليهود، وعُبَّاده من النصارى، وينتظرون خروج المهدي من أهل بيت النبوة، يملأ الأرض عدلًا، كما ملئت جَوْرًا»(١). اهـ.

- وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في «نهاية البداية والنهاية»: «فصل في ذكر المهدي الذي يكون في آخر الزمان؛ وهو أحد الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وليس بالْمُنْتَظَرِ الذي تزعم الروافض، وترتجي ظهوره من سرداب في سامرا؛ فإن ذاك ما لا حقيقة له، ولا عين ولا أثر، أما ما سنذكره فقد نطقت به الأحاديث المروية عن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أنه يكون في آخر الدهر، وأظن ظهوره يكون قبل نزول عيسى ابن مريم كما دلت على ذلك الأحاديث»(٢). اهـ.
- وقال الإمام أبو إسحق إبراهيم بن موسى الشاطبي رحمه الله - تَعَالَى -:

«وقد وَضَعَ القتلَ شرعًا معمولًا به على غير سنة الله وسنة رسوله ﷺ المتسمي بالمهدي المغربي، الذي زعم أنه الْمُبَشَّرُ به في الأحاديث»(٣). اهـ.

- وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: «وقد أخرج ابن ماجه عن ثوبان رفعه، قال: «يَقْتَتِلُ عِنْدَ كَنْزِكُمْ ثَلَاثَةٌ، كُلُّهُمْ ابْنُ خَلِيفَةٍ»(٤)، فذكر الحديث في المهدي، فهذا إن كان المراد بالكنز فيه الكنز الذي في حديث الباب دلَّ على أنه إنما يقع عند ظهور المهدي؛ وذلك قبل نزول عيسى، وقبل خروج النار جزمًا، والله أعلم»(٥). اهـ، وقال الحافظ - أيضًا - في «الفتح» أثناء شرحه لحديث «تَصَدَّقُوا فَسَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَمْشِي الرَّجُلُ بِصَدَقَتِهِ فَلَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا»، فذكر الحافظ احتمالات

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»، (٢/٣٣٢).
(٢) «نهاية البداية والنهاية»، (١/٣٧).
(٣) «الاعتصام»، (٢/٢٥٣)، ط. المنار، ١٣٣١هـ.
(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٠٨٤)، والحاكم (٤/٤٦٣)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» رقم (٨٥).
(٥) «فتح الباري»، (١٣/٨١).

تعلق هذا الحديث بالباب الذي قبله؛ وهو «باب خروج النار»، فقال ـ رحمه الله ـ:
«وتعلقه به من جهة الاحتمال الذي تقدم؛ وهو أن ذلك يقع في الزمان الذي يستغني فيه الناس عن المال، إما لاشتغال كل منهم بنفسه عند طُروق الفتنة، فلا يلوي على الأهل فضلًا عن المال، وذلك في زمن الدجَّال، وإما بحصول الأمن المفرط والعدل البالغ؛ بحيث يستغني كل أحد بما عنده عما في يد غيره؛ وذلك في زمن المهدي، وعيسى ابن مريم، وإما عند ظهور النار التي تسوقهم إلى المحشر...»[1]. إلى آخر كلامه رحمه الله ـ تَعَالَى ـ.

- وقال الشيخ الفقيه ابن حجر المكي ـ رحمه الله ـ:

«الذي يتعين اعتقاده ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة من وجود المهدي الْمُنْتَظَر، الذي يخرج الدجَّال وعيسى في زمانه، ويُصَلِّي عيسى خلفه، وأنه المراد حيث أُطْلِقَ المهدي»[2]. اهـ.

- وقال الشيخ علي بن سلطان محمد القاري في مصنف[3] له في المهدي ما نصه:

(وقد ثبتت أحاديث كثيرة، وروايات شهيرة عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، مما هو صريح في عَلِيٍّ مقامه، وجل مرامه)؛ يعني المهدي.

وقال ـ أيضًا ـ في شرح «الفقه الأكبر» المنسوب[4] إلى الإمام أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ:

«... فترتيب القضية أن المهدي ـ عليه السلام ـ يظهر أولًا في أرض الحرمين، ثم يأتي بيت المقدس، فيأتي الدجَّال، ويحصره في ذلك الحال، فينزل عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ على المنارة الشرقية في دمشق الشام، ويجيء إلى قِتَالِ الدجَّال، فيقتله بضربة في الحال»[5]. إلى آخر كلامه ـ رحمه الله ـ.

(١) «السابق»، (١٣/٨٢).
(٢) «القول المختصر في علامات المهدي المنتظر»، ص(٧٤).
(٣) وهو «رسالة في حق المهدي» مخطوط بمكتبة بلدية الإسكندرية.
(٤) انظر ص(١٦٣)، هامش رقم (١).
(٥) «شرح الفقه الأكبر»، ص(١١٢)، وانظر:
«شرح الشفا في شمائل صاحب الاصطفا ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ»، له ـ أيضًا ـ (٣/٢٥٨).

● وقال الشيخ محمد البرزنجي (ت١١٠٣هـ):

«الباب الثالث: في الأشراط العِظَام، والأمارات القريبة التي تَعْقُبُهَا الساعة؛ وهي - أيضًا - كثيرة؛ فمنها: المهدي، وهو أولها، واعلم أن الأحاديث الواردة فيه، على اختلاف رواياتها، لا تكاد تنحصر»، إلى أن قال: «قد علمت أن أحاديث وجود المهدي، وخروجه آخر الزمان، وأنه من عترة رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، من ولد فاطمة - بلغت حد التواتر المعنوي، فلا معنى لإنكارها»(١). اهـ.

● وقال الصبان: «قال في «الصواعق»: وقد تواترت الأخبار عن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - بخروج المهدي، وأنه من أهل بيته... إلخ»(٢). اهـ.

● وقال الشبلنجي بعد ردِّه على أقوال فاسدة في شأن المهدي، مما زعمته الشيعة وغيرهم: «وإنما المهدي الْمُنْتَظَرُ هو محمد بن عبدالله المهدي القائم في آخر الزمان، وقد يُولَدُ بالمدينة المنورة؛ لأنه من أهلها، كما أخبر به، وبعلاماته النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى»(٣). اهـ.

● وقال في «الإذاعة»: «وقد جمع السيد العلَّامة بدر الملة المنير محمد بن إسماعيل الأمير اليماني الأحاديثَ القاضيةَ بخروج المهدي، وأنه من آل محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، وأنه يظهر في آخر الزمان، ثم قال: «ولم يأت تعيين زمنه، إلا أنه يخرج قبل خروج الدجَّال»(٤). انتهى.

● وقال السفاريني في عقيدته المسماة بـ «الدرة المضية في عَقْد الفرقة المرضية»:

وَمَا أَتَى فِي النَّصِّ مِنْ أَشْرَاطِ ... فَكُلُّهُ حَقٌّ بِلَا شَطَاطِ
مِنْهَا الْإِمَامُ الْخَاتَمُ(٥) الْفَصِيحُ ... مُحَمَّدُ الْمَهْدِيُّ وَالْمَسِيحُ(٦)

---

(١) «الإشاعة»، ص(٨٧)، (١١٢).
(٢) «نور الأبصار»، ص(١٤٠).
(٣) «السابق»، ص(١٩٦).
(٤) «الإذاعة»، ص(١١٤).
(٥) ليس على وصفه المهديَّ بالخاتم دليل، ولعله يعني خاتم المهديين من الخلفاء الراشدين.
(٦) انظر: «مختصر لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية»، ص(٣٣٤-٣٤٤).

وقال ـ أيضًا ـ في شرحها: «كَثُرَت الأقوال في المهدي حتى قيل: «لا مهدي إلا عيسى»، والصواب الذي عليه أهل الحق أن المهدي غير عيسى، وأنه يخرج قبل نزول عيسى ـ عليه السلام ـ، وقد كثرت بخروجه الروايات، حتى بلغت حد التواتر المعنوي، وشاع ذلك بين علماء السنة، حتى عُدَّ من معتقداتهم...»، ثم ذكر بعض الأحاديث الواردة فيه من طريق جماعة من الصحابة، ثم قال: «وقد رُوِي عن مَنْ ذُكِرَ من الصحابة، وغَيْرِ مَنْ ذُكِرَ منهم، بروايات متعددة، وعن التابعين مِنْ بعدهم، مما يفيد مجموعه العلم القطعي؛ فالإيمان بخروج المهدي واجبٌ كما هو مقرر عند أهل العلم، ومُدَوَّن في عقائد أهل السنة والجماعة»[1] . اهـ.

● وقال الإمام المجدد محمد بن عبدالوهَّاب ـ رحمه الله ـ:

«وقد ورد ما يدل على أن المهديَّ من ذرية الحسن رضي الله عنه ، كما رواه أبو داود وغيره»[2] . اهـ.

● وقال الشوكاني في تأليف له سماه «التوضيح في تواتر ما جاء في المُنْتَظَرِ والدجَّال والمسيح»، ما نصه: «والأحاديث الواردة في المهدي التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثًا فيها الصحيح، والحسن، والضعيف المنجبر، وهي متواترة بلا شك ولا شبهة، بل يصدق وصف التواتر على ما دونها على جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول، وأما الآثار عن الصحابة المصَرِّحَة بالمهدي، فهي كثيرة ـ أيضًا ـ لها حكم الرفع؛ إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك»[3] . اهـ.

وقال ـ أيضًا ـ في: «الفتح الرباني»:

«الذي أمكن الوقوف عليه من الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر خمسون حديثًا، وثمانية وعشرون أثرًا»، ثم سردها مع الكلام عليها، ثم قال: «وجميع ما سقناه

---

(١) انظر: «مختصر لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية»، ص(٣٣٤-٣٤٤).

(٢) «رسالة في الرد على الرافضة»، ص(٢٩).

(٣) نقله عنه في «الإذاعة»، ص(١١٣-١١٤).

بالغٌ حَدَّ التواتر، كما لا يخفى على من له فضل اطِّلاع»[١]. انتهى.

● وقال المُحَدِّثُ أبو الطيب صِدِّيق بن حسن الحسيني البخاري القنوجي مَلِكُ «بهوبال» ما نصُّه: «وَالأحاديث الواردة في المهدي - على اختلاف رواياتها - كثيرة جدًّا، تبلغ حد التواتر، وهي في السنن وغيرها من دواوين الإسلام من المعاجم والمسانيد»[٢]، وقال - أيضًا - بعد كلام له ما نصه: «وأحاديث المهدي بعضها صحيح، وبعضها حسن، وبعضها ضعيف، وأمره مشهور بين الكافَّة من أهل الإسلام على ممر الأعصار»[٣]. اهـ.

● وقال العلَّامة أبو الطيب شمس الحق العظيم آبادي: «اعلم أن المشهور بين الكافَّة من أهل الإسلام، على ممر الأعصار، أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين، ويُظْهِرُ العدل، ويتبعه المسلمون، ويستولي على الممالك الإسلامية، ويُسَمَّى بالمهدي، ويكون خروج الدجَّال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أثره، وأن عيسى - عليه السلام - ينزل من بعده، فيقتل الدجَّال، أو ينزل معه، فيساعده على قتله، ويأتم بالمهدي في صلاته»[٤]. اهـ.

● وقال الشيخ محمد بن جعفر الكتاني (ت١٣٤٥هـ) - رحمه الله -:

«الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة، وكذا الواردة في الدجَّال، وفي نزول سيدنا عيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام -)[٥]. اهـ.

● وقال المُحَدِّثُ الناقد أبو العلاء السيد إدريس بن محمد بن إدريس العراقي الحسيني في تأليف له في المهدي ما نصه: «أحاديث المهدي متواترة - أو كادت -، وجزم

---

(١) نقله عنه المباركفوري في «تحفة الأحوذي»، (٦/٤٨٤-٤٨٥).
(٢) «الإذاعة»، ص(١١٢).
(٣) «السابق»، ص(١١٣).
(٤) «عون المعبود»، (١١/٣٦١-٣٦٢).
(٥) «نظم المتناثر من الحديث المتواتر»، ص(١٤٧).

بالأول غير واحد من الحُفَّاظ النُّقَّاد»[١].

● «وقال العلَّامة أبو عبدالله محمد جسوس في شرح رسالة ابن أبي زيد ما نصه: «ورد خبر المهدي في أحاديثَ، ذكر السخاوي أنها وصلت إلى حد التواتر»[٢]. اهـ.

● وقال العلَّامة الشيخ محمد العربي الفاسي في «المراصد»:

وَمَا مِنَ الْأَشْرَاطِ قَدْ صَحَّ الْخَبَرْ بِهِ عَنِ النَّبِيِّ حَقٌّ يُنْتَظَرْ

ثم ذكر جملة منها، إلى أن قال:

وَخَبَرُ الْمَهْدِيِّ أَيْضًا وَرَدَا ذَا كَثْرَةٍ فِي نَقْلِهِ فَاعْتَضَدَا

قال شارحه المحقق أبو زيد عبدالرحمن بن عبدالقادر الفاسي في «منهج المقاصد»: «هذا ـ أيضًا ـ مما تكاثرت الأخبار به؛ وهو المهدي المبعوث في آخر الزمان، ورد في أحاديثَ، ذكر السخاوي أنها وصلت إلى حد التواتر»[٣]. اهـ.

● وقال الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: «فأحاديث نزول عيسى ابن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ متواترة، بل تواترت أحاديث المهدي ـ أيضًا ـ كما صَرَّحَ به شيخنا الشيخ عبدالقادر بن محمد سالم الشنقيطي ـ إقليمًا ـ في نظمه «الواضح المبين» بقوله:

تَوَاتَرَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ الصِّحَاحْ فِيمَا رَوَى أَهْلُ الْفَلَاحِ وَالنَّجَاحْ[٤]

● وصَرَّحَ فضيلة العلامة القرآني الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله ـ بأن باب الاجتهاد مفتوح لأهله، وأن ذلك مستمر إلى ظهور المهدي الْمُنْتَظَر، خلافًا لصاحب «مراقي السعود»؛ إذ قال:

وَالْمُجْمَعُ الْيَوْمَ عَلَيْهِ الْأَرْبَعَهْ وَقَفْوُ غَيْرِهَا الْجَمِيعُ مَنَعَهْ

---

(١)، (٢) نقلًا عن «المهدي المنتظر»، للغماري، ص(٥-٦).

(٣) نقلًا عن «المهدي المنتظر» للغماري، ص(٥-٦).

(٤) «فتح المنعم»، (١/٣٣١).

حَتَّى يَجِيءَ الْفَاطِمُ الْمُجَدِّدُ دِينَ الْهُدَى لِأَنَّهُ مُجْتَهِدُ[١]

قال الشنقيطي - رحمه الله -: «ومراده بالفاطمي: «المهديُّ المنتظر؛ لأنه شريف»[٢]. اهـ. والمقصود أن الشيخ عبدالله بن إبراهيم العلوي الشنقيطي، والعلامة محمد الأمين الشنقيطي - رحمهما الله -، من العلماء الذين صححوا أحاديث المهدي المنتظر.

- وقال العلامة محمد الخَضِر بن الحسين بن علي بن عمر بن عمر الحسني التونسي (ت ١٣٧٧هـ)، شيخ الأزهر الأسبق - رحمه الله - تعالى -: «... والخلاصة أن في أحاديث المهدي ما يُعَدُّ في الحديث الصحيح، وليس من الصواب إنكار الحق من أجل ما أُلْصِق به من الباطل»[٣]. اهـ.

- وقال الشيخ العلَّامة عبدالعزيز بن باز - رحمه الله -: «أما إنكار المهدي الْمُنْتَظَرِ بالكلية، كما زعم ذلك بعض المتأخرين، فهو قول باطل؛ لأن أحاديث خروجه في آخر الزمان، وأنه يملأ الأرض عدلًا وقسطًا، كما ملئت جورًا، قد تواترت تواترًا معنويًّا، وكثرت جدًّا، واستفاضت كما صرَّح بذلك جماعة من العلماء، بينهم أبو الحسن الآبُرِّي السجستاني من علماء القرن الرابع، والعلَّامة السفاريني، والعلَّامة الشوكاني، وغيرهم، وهو كالإجماع من أهل العلم، ولكن لا يجوز الجزم بأن فلانًا هو المهدي، إلا بعد توافر العلامات التي بيَّنها النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - في الأحاديث الثابتة، وأعظمها وأوضحها كونه يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما مُلِئَتْ جَوْرًا وظلمًا»[٤]. اهـ.

- وقال الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية سابقًا، وعضو جماعة كبار العلماء بالأزهر - رحمه الله -: «... وننصح المسلمين بأن يتقبلوا الأحاديث

---

(١) «نشر البنود على مراقي السعود»، (٢/٣٤٦-٣٤٧).

(٢) «أضواء البيان»، (٧/٥٨١-٥٨٢).

(٣) في مقال له نُشِر بمجلة «التمدن الإسلامي»، في الجزأين ٣٥، ٣٦ من المجلد السادس عشر، كما في حاشية كتاب «مقالات الألباني»، ص(١٠٥).

(٤) جريدة عكاظ، ١٨ محرم، ١٤٠٠هـ.

الصحيحة بقلوب مطمئنة، ويؤمنوا بظهور المهدي في آخر الزمان إيمانًا صحيحًا، ويتركوا الأقوال التي تهدم هذه الأحاديث؛ لصدورها ممن لا علم لهم بالأحاديث، بل لا تقدير لها، ولا عقيدة عندهم بوجودها»(١). اهـ.

وَبَعْدُ:

فهؤلاء أئمة العلم والهدى، جهابذة السنة، وصيارفة الحديث، كثَّر الله سوادهم، وأعلى رايتهم، قد أطبقوا على صحة الاحتجاج بالأحاديث الواردة في شأن المهدي المُنْتَظَر.

فالواجب المتعيِّن الرجوع في الحكم على الحديث صحة أو ضعفًا إلى أهل الحديث أرباب هذا الشأن، وتقليدهم في ذلك دون غيرهم ممن لم يَشَمَّ رائحة هذا العلم الشريف؛ فالصلاة خير من النوم، واليد العليا خير من اليد السفلى، قال الحافظ العراقي - رحمه الله - مشيرًا إلى علم الحديث:

فَاغْنِ بِهِ، وَلَا تَخُضْ بِالظَّنِّ وَلَا تُقَلِّدْ(٢) غَيْرَ أَهْلِ الْفَنِّ

واعلم - رحمك الله - أن الناس لا يُؤْتَوْنَ قَطُّ من قبل علمائهم الربانيين، ولكن يُؤْتَوْنَ من قبل أدعياء العلم، وفي الحديث عن عبدالله بن عمرو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا، وَأَضَلُّوا»(٣).

---

(١) من تقديمه لكتاب «سيد البشر يتحدث عن المهدي المنتظر»، ص(٣-٤).

(٢) اعلم - وفقني الله وإياك - أن قبول قول الأئمة في تصحيح الأحاديث ليس من التقليد المذموم المعروف في الأصول، بل هو من باب قبول رواية العدل، وقد تقرر وجوب قبول خبر الواحد والعمل به، اللهم إلا أن تظهر علة قادحة في صحة الحديث خَفِيَتْ على من صحَّحه، أو غيرُها من الموانع، انظر: «توضيح الأفكار»، للصنعاني، (١/٥٩، ٦٩، ١١٤-١٢٠).

(٣) رواه البخاري، (١/١٧٤-١٧٥) في العلم، باب كيف يقبض العلم، وفي الاعتصام، باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس؛ ومسلم، (٢٦٧٣)، في العلم، باب رفع العلم وقبضه؛ والترمذي، رقم =

وقال الإمام الطرطوشي - رحمه الله -: (فتدبروا هذا الحديث؛ فإنه يدل على أنه لا يُؤْتَى الناس قَطُّ من قِبَل علمائهم، وإنما يُؤْتَوْن من قِبَل إذا مات علماؤهم أفتى من ليس بعالم، فيؤتى الناس من قِبَلهم.

وقد صَرَّف عمر رضي الله عنه هذا المعنى تصريفًا؛ فقال: «ما خان أمين قط، ولكنه اؤْتُمِنَ غَيْرُ أمين فخان»، ونحن نقول: ما ابتدع عالم قطُّ، ولكنه استُفْتِيَ من ليس بعالم، فَضَلَّ، وأَضَلَّ، وكذلك فعل ربيعة:

قال مالك - رحمه الله - تَعَالَى -: بكى ربيعة يومًا بكاءً شديدًا، فقيل له: «أمصيبةٌ نزلت بك؟» فقال: «لا، ولكن اسْتُفْتِيَ من لا علم عنده، وظهر في الإسلام أمر عظيم»)[1].

وهذا ما حدث في قضية المهدي؛ إذ تجاسرت حفنة من المتأخرين، لا كَمَّ لها، ولا كيف، إذا قُورِنَتْ بأئمة أهل السنة والحديث، في القديم والحديث، وكَذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وسَفِهوا أنفسهم؛ إذ قَدَّموا آراءهم وأهواءهم على أحاديث رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - الثابتة، وتطاولوا على أئمة الحديث، حتى رماهم بعضهم بالغفلة والسذاجة، والبدعة والتخليط، فأحسن الله عزاءهم في علمهم وعقلهم.

وعلى من يرى خلاف ما أطبق عليه هؤلاء أن يضعهم في كِفَّةٍ، ويضع نفسه في كِفَّةٍ، ثم لينظر النتيجة بعين الرضا والتسليم، ورحم الله امْرَءًا عرف قدر نفسه.

أُولَئِكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ ... إِذَا جَمَعَتْنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعُ

* * * * *

= (٢٦٥٤) في العلم، باب ما جاء في ذَهاب العلم.

(١) «إصلاح المساجد»، للقاسمي، ص(١٩-٢٠)، نقلًا عن «الباعث»، لأبي شامة.

الْبَابُ الثَّانِي

شُبَهٌ وَجَوَابُهَا

الْفَصْلُ الأَوَّلُ: شُبَهٌ عِلْمِيَّةٌ مُصْطَنَعَةٌ

الْفَصْلُ الثَّانِي: شُبَهٌ عَقْلِيَّةٌ سَقِيمَةٌ.

الْفَصْلُ الأَوَّلُ

شُبهٌ عِلْمِيَّةٌ مُصْطَنَعَةٌ

الشُّبْهَةُ الأُولَى

● هي شبهة الفرقة الضالة المسماة بالقرآنيين وهم يقولون: «لم يرد في القرآن أية إشارة إلى المهدي، ولا حجـة فيما سوى القرآن».

والجواب

أن هذه الدعوى بأن لا حجة فيما سوى القرآن لا تصدر من مؤمن بالله - تعالى -، ورسوله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، وإنما هي من شَغْب الملاحدة، وكيد الزنادقة الذين يريدون الكيد للإسلام، والعبث بعقول الضعاف من المسلمين.

فحجية السنة مما يعلم من دين الإسلام بالضرورة، فهي معلومة للخاص والعام، والعالم والجاهل، وقد كان هذا يغنينا، ويغني من في قلبه ذرة من إيمان، عن بيان أدلتها لدحض هذه الفرية. إن سنة رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - لم تعدم منذ أزمان أعداءً لها، هم - لو فقهوا - أعداء للقرآن، يُشَكِّكُونَ فيها، ويحاولون فصلها عن القرآن، وقد هيَّأ الله من أهل العلم من يذب عنها، ويدحض شُبَهَ أعدائها؛ ومنهم الحافظ السيوطي - رحمه الله -؛ فقد ألف رسالة لطيفة سمَّاها: «مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة»، افتتحها بعد حمد الله - تعالى - بقوله:

(اعلموا - يرحمكم الله - أن من العلم كهيئة الدواء، ومن الآراء كهيئة الخلاء، لا تذكر إلا عند داعية الضرورة، وإن مما فاح ريحه في هذا الزمان، وكان دارسًا - بحمد الله - منذ أزمان؛ وهو أن قائلًا رافضيًّا زنديقًا أكثر في كلامه أن السنة النبوية، والأحاديث المروية - زادها الله علوًّا وشرفًا - لا يُحتج بها، وأن الحجة في القرآن خاصة).

إلى أن قال - رحمه الله -: (فاعلموا - رحمكم الله - أن من أنكر كون حديث النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - قولًا كان، أو فعلًا، بشرطه المعروف في الأصول -

حجةً كفر، وخرج عن دائرة الإسلام، وحُشِرَ مع اليهود والنصارى، أو مع من شاء الله من فرق الكَفَرَة؛ روى الإمام الشافعي رضي الله عنه يومًا حديثًا، وقال: «إنه صحيح»، فقال له قائل: «أتقول به يا أبا عبدالله؟»، فاضطرب، وقال: «يا هذا، أرأيتني نصرانيًّا؟ أرأيتني خارجًا من كنيسة؟ أرأيت في وسطي زُنَّارًا؟[١] أروي حديثًا عن رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، ولا أقول به؟»[٢]. اهـ.

وهاك أدلة حجية السنة الشريفة[٣]

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: عِصْمَةُ الرَّسُولِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ

فقد انعقد الإجماع على أن رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وسائر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ معصومون عن أي شيء يخل بالتبليغ[٤]؛ ككتمان الرسالة، والكذب في دعواها، والجهل بأي حكم نزل عليهم، أو الشك فيه، والتقصير في تبليغه، وتصور الشيطان لهم في صورة الملك، وتلبيسه عليهم في أول الرسالة، وفيما بعدها، وتسلطه على خواطرهم بالوساوس، وتعمد الكذب في أي خبر أخبروا به عن الله ـ تعالى ـ، وتعمد بيان أي حكم شرعي على خلاف ما أنزل عليهم، سواء أكان ذلك البيان بالقول أم بالفعل.

والمعجزات التي أظهرها الله على أيديهم تقوم مقام قوله ـ تعالى ـ: «صَدَقَ رُسُلِي في

(١) الزُّنَّار: ما على وسط النصارى والمجوس.

(٢) «مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة»، ص (٣).

(٣) لخصتها ـ مع تصرف ـ من «حجية السنة»، رسالة دكتوراة، للعلامة الدكتور عبدالغني عبدالخالق ـ رحمه الله.

(٤) وكذا معصومون من السهو والغلط فيه على الصحيح، ومن جوزوا ذلك أجمعوا على اشتراط التنبيه فورًا من الله ـ سبحانه، وتعالى ـ، وعدم التقرير عليه، وهذا يستلزم أن كل خبر بلاغي ـ بعد تقرير الله له عليه ـ صادق مطابق لما عند الله إجماعًا، فيجب التمسك به.

كُلِّ مَا يُبَلِّغُونَ عَنِّي»، ولو جاز على الأنبياء شيء مما يخل بالتبليغ، لأدى ذلك إلى إبطال دلالة المعجزات، وهذا محال.

لقد أمر الله ـ عز وجل ـ نبيه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ بالبلاغ؛ فقال ـ عز من قائل ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]، ثم شهد ـ سبحانه ـ له بالبلاغ والصدق؛ فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ١ ـ ٤].

وأوحى إليه في خاتمة حياته ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

ورُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: «لَيْسَ مِنْ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَا عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى النَّارِ إِلَّا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ»(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: تركنا رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وما طائر يقلب جناحيه في الهواء، إلا وهو يذكرنا منه علمًا، قال: فقال ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُقَرِّبُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ إِلَّا وَقَدْ بُيِّنَ لَكُمْ»(٢).

بهذا كله يثبت حجية قوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ في القرآن الكريم:

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك»، (٢/٤)؛ وانظر شرح «الرسالة للشافعي»، للشيخ أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ، ص (٨٧)، (٩٣: ١٠٣)؛ وانظر ص(٢٨٧) هامش رقم (٢).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير»، (١٦٤٧)، وقال الألباني ـ عليه الرحمة ـ: (وهذا إسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات). اهـ. من «الصحيحة»، (١٨٠٣).

«هَذَا كَلَامُ اللَّهِ»، وقوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ في الأحاديث القدسية: «قَالَ رَبُّ الْعِزَّةِ كَذَا»، وقوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ في السنة: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»... الحديث[١].

لأن هذه كلها أخبارُ معصومٍ من الكذب، فتكون حججًا دالة على أن الوحي قسمان:

كتاب: وهو المعجز المتعبَّد بتلاوته، وغيره: وهو ما ليس كذلك، وهذا الأخير قسمان: حديث قدسي، وحديث نبوي.

فإذا كان ذلك كله من عند الله كان الكل حُجَجًا قائمة على الخلق إلى يوم الدين، وبعصمته عن الكذب في التبليغ يثبت حجية قوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»[٢]... الحديث، وقوله: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»[٣]... الحديث، وقوله: «وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ»[٤]، وهذا يستلزم حجية جميع أوامره ونواهيه.

ويثبت بذلك ـ أيضًا ـ حجية قوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»[٥]... الحديث، وقوله: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»[٦]... الحديث، وقوله: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي»[٧]... الحديث، وبذا تثبت حجية جميع أنواع السنة؛ من قول، أو فعل، أو تقرير.

وقال ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ، فَلَنْ

---

(١) انظر تخريجه ص (١٢٢).
(٢) رواه البخاري (١/٧، ١٥)، ومسلم (١٩٠٧)، وأبو داود (٢٢٠١)، والترمذي (١٦٤٧)، والنسائي (١/٥٨، ٦٠)، وابن ماجه (٤٢٢٧).
(٣) رواه البخاري (١/٤٧)، ومسلم (١٦).
(٤) انظر تخريجه ص (١٢٢).
(٥) رواه البخاري (٢/١١٨).
(٦) رواه مسلم، (١٢٩٧)؛ وأبو داود، (١٩٧٠)؛ والنسائي (٥/٢٧٠).
(٧) تقدم تخريجه ص (٢٦).

تَضِلُّوا أَبَدًا؛ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي»[١]، وهذا خبر معصوم عن الكذب، يدل على أنه لا ضلالة في التمسك بالسنة، وإنما الضلال في تركها، والعمل بما يخالفها.

الدَّلِيلُ الثَّانِي: تَقْرِيرُ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ تَمَسُّكَ الصَّحَابَةِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ بِالسُّنَّةِ فِي عَصْرِهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ

ثبتت أن النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ كان يحث أمته على التمسك بسنته، ويحذرهم من مخالفتها، وأن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يمتثلون أمره في ذلك، ويقتدون به، ويتبعونه في جميع أقواله، وأفعاله، وتقريراته، ويعتبرون أن كل ما يصدر منه فهو حجة يلزمهم اتباعُها.

وقد كانوا أقدر منا على الاجتهاد، واستنباط الأحكام من الكتاب، ومع ذلك فقد كانوا لا يستقلون بالفَهم منه، فيما ينزل بهم من الحوادث، بل كانوا يرجعون إليه في كل ما يطرأ عليهم، وإذا اجتهدوا في حال الغيبة عنه سألوه إذا لقوه، فإن أقرهم، وإلا رجعوا عن اجتهادهم إذا كان خلاف قوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ.

وهذا كله من النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ ومن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، قد أقرهم الله عليه، ولم يبين لهم أنهم أخطأوا فيه، مع أن الزمان كان زمانَ وحي.

ولو كانوا مخطئين في ذلك لما أقرهم الله عليه؛ لأن تقرير الله ـ عز وجل ـ في زمان الوحي حجة بمنزلة الوحي المنزل نفسه.

وهذا كله فضلًا عن أنه ـ تعالى ـ كان يأمرهم باتباع الرسول ﷺ وطاعته، ويحذرهم من عصيانه ومخالفته.

---

(١) انظر تخريجه ص (١٠٩).

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ

وقد شُحن كتاب الله - تعالى - بآيات كريمات تدل دلالة قاطعة على حجية السنة؛ وهي على أقسام:

- **الْقِسْمُ الْأَوَّلُ:**

آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، وَاتِّبَاعِهِ، وَالرِّضَا بِحُكْمِهِ

١ - قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النور: ٦٢].

قال ابن القيم - رحمه الله -: (فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهبًا - إذا كانوا معه - إلا باستئذانه؛ فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول، ولا مذهب علمي، إلا بعد استئذانه، وإذنُهُ يعرف بدلالة ما جاء به على أنه أذن فيه)(١). اهـ.

٢ - وقال - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

٣ - وقال - عز وجل -: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

عن عروة قال: (خَاصَمَ الزُّبَيْرُ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فِي شِرَاجٍ مِنَ الْحَرَّةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ»، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ؟ فَتَلَوَّنَ وَجْهُهُ، ثُمَّ قَالَ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ احْبِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَدْرِ، ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ»، واستوعى النبي - صَلَّى

---

(١) «إعلام الموقعين»، (٥٨/١).

اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري، وكان أشار عليه بأمرٍ لهما فيه سَعة، قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ .. الآية[١] [النساء: ٦٥].

قال الشافعي - رحمه الله -: (وهذا القضاء سنة من رسول الله لا حكم منصوص في القرآن)[٢].

٤ - وقال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ [الحجرات: ١].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسيرها: «لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة»[٣]، وقال سفيان - رحمه الله -: «دعوا السنة تمضي، لا تعرضوا لها بالرأي»[٤]، وقال ابن القيم - رحمه الله -: (أي: لا تقولوا حتى يقول، ولا تأمروا حتى يأمر، ولا تفتوا حتى يفتي، ولا تقطعوا أمرًا حتى يكون هو الذي يحكم فيه، ويُمضيه)[٥].

● **الْقِسْمُ الثَّانِي:**

آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ السُّنَّةَ تُبيِّنُ الْكِتَابَ، وَتَشْرَحُهُ شَرْحًا مُعْتَبَرًا عِنْدَ اللَّهِ - تَعَالَى -، مُطَابِقًا لِمَا حَكَمَ بِهِ عَلَى الْعِبَادِ

فمن ذلك:

١ - قوله - تعالى -: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

٢ - وقوله - تعالى -: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ

(١) رواه البخاري (٥/٣٠٩) (٢٧٠٨)، ومسلم (٢٣٥٧)؛ وانظر: «شرح السنة»، للبغوي (٨/٢٨٤-٢٨٦).

(٢) «الرسالة»، ص (٨٣).

(٣) رواه ابن جرير في «التفسير»، (٢٦/١١٦).

(٤) «إعلام الموقعين»، (١/٧٨).

(٥) «السابق»، (١/٥٤).

وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

٣ ـ وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١].

٤ ـ وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ... الآية [النساء: ١١٣].

٥ ـ وقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

عطف الله الحكمة على الكتاب، وذلك يقتضي المغايرة، وأنها ليست إياه، ولا يصح أن تكون شيئًا آخر غير الكتاب والسنة؛ لأن الله ـ تعالى ـ امتنَّ علينا بتعليمها، والمن لا يكون إلا بما هو صواب، وحق مطابق لما عنده، فتكون الحكمة واجبة الاتباع كالكتاب، خصوصًا وأن الله قد قرنها به، (وسنة رسول الله ﷺ مُبيِّنَةٌ عن الله معنى ما أراد: دليلًا على خاصِّه وعامِّه، ثم قرن الحكمة بها بكتابه، فأتبعها إياه، ولم يجعل هذا لأحد من خلقه غير رسوله)(١). اهـ.

● **الْقِسْمُ الثَّالِثُ:**

آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ طَاعَتِهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ طَاعَةً مُطْلَقَةً، وَأَنَّ طَاعَتَهُ طَاعَةٌ لِلَّهِ ـ تَعَالَى ـ

فمن ذلك:

١ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران: ١٣٢].

٢ ـ وقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣٢].

٣ ـ وقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال: ٢٠].

---

(١) انظر: «الرسالة»، ص (٧٨ ـ ٧٩).

٤ - وقوله - تعالى -: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة: ٩٢].

٥ - وقوله - جل وعلا -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩].

قال ميمون بن مهران: «الرد إلى الله الرد إلى كتابه، والرد إلى رسوله إن كان حيًّا، فإن قبضه الله إليه فالرد إلى السنة»[(١)].

قال الحافظ في «الفتح»: (فكأن التقدير: أطيعوا الله فيما نص عليكم القرآن، وأطيعوا الرسول فيما بيَّنَ لكم، من القرآن، وما ينصه عليكم من السنة، أو المعنى: أطيعوا الله فيما أمركم به من الوحي المتعبد بتلاوته، وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من الوحي الذي ليس بقرآن)[(٢)]. اهـ.

قال الطيبي: (أعاد الفعل في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾، إشارة إلى استقلال الرسول بالطاعة، ولم يعده في أولى الأمر إشارة إلى أنه يوجد فيهم من لا تجب طاعته)[(٣)] اهـ.

٦ - وقوله - سبحانه -: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

٧ - وقوله - سبحانه -: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠].

٨ - وقوله - سبحانه -: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ ... الآية، [الحشر: ٧].

٩ - وقوله - سبحانه -: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

---

(١) «تفسير الطبري»، (١٥١/٥).
(٢) «فتح الباري»، (١١١/١٣).
(٣) «السابق»، (١١١/١٣-١١٢).

١٠ - وقوله - سبحانه -: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥]

- **الْقِسْمُ الرَّابِعُ:**

آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ اتِّبَاعِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - فِي جَمِيعِ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ؛ وَالتَّأَسِّي فِي ذَلِكَ بِهِ، وَعَلَى أَنَّ اتِّبَاعَهُ لَازِمٌ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ.

فمن ذلك:

١ - قوله - تعالى -: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

٢ - وقوله - تعالى -: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

٣ - وقوله - تعالى -: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

- **الْقِسْمُ الْخَامِسُ:**

آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - كَلَّفَ رَسُولَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - بِاتِّبَاعِ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ مَتْلُوًّا أَوْ غَيْرَ مَتْلُوٍّ، وَتَبْلِيغِ جَمِيعِ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ

فمن ذلك:

١ - قوله - تعالى -: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الأحزاب: ١، ٢].

٢ ـ وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨].

٣ ـ وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الزخرف: ٤٣].

٤ ـ وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل: ٧٩].

٥ ـ وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ [المؤمنون: ٧٣].

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: السُّنَّةُ الشَّرِيفَةُ

قد ورد في السنة ما يفوت الحصر، ويدل بمجموعه دلالة قاطعة على حجية السنة الشريفة؛ فمنها:

ما رواه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: خطبنا رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ فقال: «يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ»، قَالَ: فَقَامَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ فَقَالَ: أَفِي كُلِّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «لَوْ قُلْتُهَا لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهَا، وَلَمْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْمَلُوا بِهَا، الْحَجُّ مَرَّةٌ، فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ»[1].

وعن أبي هريرة ﷺ: قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ»[2].

وعن أبي رافع ﷺ: قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، مَا وَجَدْنَاهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ»[3].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»، (١/٢٥٥)، (١/٢٩١)، (٢٣٠٤)، وأبو داود (٢/٧٠ ـ ٧١)، وابن ماجه (٢/١٠٨)، والنسائي (٢/٢)، والدارقطني (٢/٢٨٠)، وقال العلامة أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ: (إسناده صحيح). اهـ.

(٢) رواه البخاري (٢/٣١١) في الجمعة، باب السواك، ومسلم (٢٥٢)، وأبو داود (٤٦)، والترمذي (٢٢)، والنسائي (١/ ١٢).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٦/٨)؛ وأبو داود، (٤٦٠٥)؛ والترمذي، (٢٦٦٥)؛ وابن ماجه، (١٣)؛ =

وعن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ»(١)... الحديث.

وعن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»(٢).

وعن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ قال: «إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَإِنَّ لِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَمَنْ كَانَتْ شِرَّتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ شِرَّتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، فَقَدْ هَلَكَ»(٣).

ولما تردد عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ في كتابة الأحاديث ليحفظها؛ قال له رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «اكْتُبْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنْهُ ـ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى فَمِهِ ـ إِلَّا حَقٌّ»(٤).

وعن العرباض بن سارية ﷺ مرفوعًا:

«وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»(٥).

= وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، (١٠٨/١، ١٠٩)؛ وصححه الألباني في «صحيح أبي داود»، (٣٨٤٩).

(١) أخرجه البخاري (٨٢/٦)، ومسلم (١٨٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٩/١٣)، (٧٢٨٠)؛ والإمام أحمد (٣٦١/٢)

(٣) أخرجه ـ بهذا اللفظ ـ ابن حبان في «صحيحه»، (١١ـ إحسان)، وقال محققه: «إسناده صحيح على شرطهما»، (١٨٨/١)؛ وأخرجه ـ بنحوه ـ الإمام أحمد (١٨٨/٢، ٢١٠)؛ والطحاوي في «مشكل الآثار»، (٨٨/٢)، والشرة: هي الحرص على الشيء، والرغبة، والنشاط.

(٤) رواه الإمام أحمد (١٦٢/٢، ١٩٢)؛ وأبو داود، (٣٦٤٦)؛ والدارمي (١٢٥/١)؛ والحاكم (١٠٥/١ـ ١٠٦)؛ وصححه الألباني في «الصحيحة»، (١٥٣٢).

(٥) تقدم تخريجه ص(٢٦).

وعنه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - قال:

«تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّةَ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -»[١].

فَعَلَّقَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - العصمة من الضلال على التمسك بالقرآن والسنة معًا، وما عُلِّق على شرطين لا يتم بأحدهما، وقال - تعالى -: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾[النور: ٥٤]، وقال - عز وجل -: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]؛ فمِن ثَمَّ يجب القطع بضلال من جحد حجية السنة، وادَّعى الاقتصار على القرآن الكريم، كما هو شعار المبتدعة في كل عصر ومصر، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم»[٢].

وقال أيوب السختياني: (إذا حدثت الرجل بسنة، فقال: «دعنا من هذا، وأنبئنا عن القرآن»، فاعلم أنه ضال)[٣].

وَكَمْ مِنْ فَقِيهٍ خَابِطٍ فِي ضَلَالَةٍ وَحُجَّتُهُ فِيهَا الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ

وعن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - يقول: «هَلَاكُ أُمَّتِي فِي الْكِتَابِ وَاللَّبَنِ»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْكِتَابُ وَاللَّبَنُ؟ قَالَ: «يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَيُحِبُّونَ اللَّبَنَ، فَيَدَعُونَ الْجَمَاعَاتِ وَالْجُمَعَ وَيُبْدُونَ»[٤]، ومعنى يُبدون: يسكنون البادية.

إن فصل السنة عن القرآن يفتح المجال للمبتدعة كي يفسدوا معاني القرآن الكريم ما شاءوا أن يُفسدوا، دون أن يُجابَهوا بما يبينها من السنة الشريفة، وما أكثر النصوص

(١) رواه الإمام مالك في «موطئه»، بلاغًا في القدر، (٣)، ويشهد له حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - عند الحاكم، (١/٩٣)، وقال: «صحيح الإسناد»، بسند حسن، فيتقوى به.

(٢) قطعة من أثر رواه مسلم، (٢٥٦)، (٦٥٤).

(٣) عزاه في «حجية السنة » ص(٣٣٢) إلى البيهقي في «المدخل».

(٤) أخرجه - بإسناد حسن - الإمام أحمد (٤/١٤٦، ١٥٥، ١٥٦)؛ وأبو يعلى في «مسنده»، (١٧٤٦)؛ والطبراني في «الكبير»، (١٧/ ٨١٥- ٨١٨).

القرآنية العامة، أو المطلقة، التي تكون طيّعة في يد صاحب الغرض الخبيث إذا فُهمت بمعزل عن السنة التي تفسرها، وتبينها بيانًا يتعين المصير إليه(١).

● ذِكْرُ جُمْلَةٍ مِنَ الأَحَادِيثِ فِيهَا أَمْرُهُ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ بِاسْتِمَاعِ حَدِيثِهِ وَحِفْظِهِ، وَتَبْلِيغِهِ إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهُ مِنَ الْمَوْجُودِينَ فِي عَصْرِهِ، وَمِمَّنْ سَيُوجَدُونَ بَعْدَهُ، وَوَعْدُهُ عَلَى ذَلِكَ الأَجْرَ الْعَظِيمَ، وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ حُجِّيَّتَهُ.

عن أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعًا: «لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ؛ فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ»(٢).

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه: قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَحَفِظَهُ، حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ»(٣).

---

(١) مثال بيان السنة لمجمل القرآن قوله ﷺ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»، وقوله: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»، ومثال تخصيص عمومه: البيوع التي نَهَتْ عنها السنة؛ فإنها تخصص قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقوله ﷺ: «لَا نُورَثُ؛ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»، رواه الشيخان، فهو يخصص عموم قوله ـ تعالى ـ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، ومثال تقييد المطلق: تقييده ﷺ الوصية بالثلث، في قوله: «الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ ـ أَوْ كَبِيرٌ»، رواه البخاري، مع مطلق قوله ـ تعالى ـ: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١]. ومثال توضيح المشكل بيانه ﷺ أن الظلم في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾، هو الشرك بالله ـ عز وجل.

وقد تبسط السنة ما أوجز في القرآن؛ كقصة الثلاثة المخلفين، وقصة أصحاب الأخدود.

ويرى بعض العلماء أن السنة قد تنسخ القرآن؛ كما في قوله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ»، وهو حديث متواتر، نسخ قوله ـ تعالى ـ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة: ١٨٠].

وقد أتت السنة بتشريع المئات والمئات من الأحكام الشرعية التي سكت عنها القرآن الكريم.

(٢) رواه البخاري (١/ ١٥٧-١٥٨)؛ ومسلم، (١٦٧٩).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٥/١٨٣)؛ وأبو داود، (٣٦٦٠)؛ والترمذي، (٢٦٥٦)، والدارمي (١/ ١٧٥)؛ وابن حبان، (٦٧)، (١/ ٢٧٠ ـ إحسان)، وهذا الحديث متواتر رواه عن رسول الله ﷺ أربعة =

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»[1].

وقد روى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قول النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ لوفد عبدالقيس، بعد أن أمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع: «احْفَظُوهُ، وَأَخْبِرُوا مَنْ وَرَاءَكُمْ»[2].

وقد غلَّظ الله ـ عز وجل ـ عقوبة من يتعمد الكذب على رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وما ذاك إلا لأنه ـ أي الكذب عليه ـ مستلْزِمٌ لتبديل الأحكام الشرعية، واعتقاد الحرام حلالًا، والحلال حرامًا، وهذا فرع عن حجية السنة.

وعن سلمة رضي الله عنه قال: سمعته ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ يقول: «مَنْ يَقُلْ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[3].

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول ـ:

«إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ؛ فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[4].

قال الإمام البغوي ـ رحمه الله ـ: (اعلم أن الكذب على النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ أعظم أنواع الكذب، بعد كذب الكافر على الله)[5] اهـ.

= وعشرون صحابيًّا، وللعلامة الشيخ عبدالمحسن بن حمد العباد ـ حفظه الله ـ دراسة وافية مستقلة لهذا الحديث، رواية ودراية.

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/٤٣٧)، والترمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجه (٢٣٢)؛ وابن حبان، (٦٦)، (١/ ٢٦٨ ـ إحسان)، وحسَّنه محققه.

(٢) رواه البخاري، (٨٧)؛ ومسلم (١٧)، (٢٤)؛ والإمام أحمد (١/٢٢٨).

(٣) رواه البخاري (١/ ١٨٠).

(٤) رواه البخاري (٣/ ١٦٠)؛ ومسلم، (٤) في المقدمة؛ والترمذي، (٢٦٦٤).

(٥) «شرح السنة»، (١/ ٢٥٥).

وعنه أيضًا رضي الله عنه قال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «مَنْ حَدَّثَ عني بِحَدِيثٍ، يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -:
«يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، يَأْتُونَكُمْ مِنَ الْأَحَادِيثِ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ، لَا يُضِلُّونَكُمْ وَلَا يَفْتِنُونَكُمْ»(٢).

فإن لم يكن الحديث حجة، فعلام هذا التحذير من الأحاديث المكذوبة عنه؟ ولِمَ يحصل بها الضلال والفتنة؟!

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: تَعَذُّرُ الْعَمَلِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَحْدَهُ

١ - قال الله - تعالى -: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، نفهم منه وجوب الصلاة والزكاة، ولكن: ما ماهية تلك الصلاة الواجبة؟ وما كيفيتها؟ وما وقتها؟ وكم عددها؟ وعلى من تجب؟ وكم مرة تجب في العمر؟ وما ماهية الزكاة؟ وعلى من تجب؟ وفي أي مال تجب؟ وما مقدارها؟ وما شرط وجوبها؟

٢ - وقال - تعالى -: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، ففهمنا وجوب قراءة ما تيسر، ولكن ما المراد من القراءة؟ أهي في الصلاة، أم قراءة القرآن؟ وإذا كانت الصلاة ففي أي ركعة؟

٣ - وقال - تعالى -: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ [الحج: ٧٧]، ففهمنا وجوب الركوع والسجود، لكن ما كيفيتهما؟ وكم عددهما؟

٤ - وقال - تعالى -: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]، ففهم منه تحريم الكنز، وعدم الإنفاق، ولكن ما المراد بهذا الإنفاق المقابل للكنز؟ أهو إنفاق جميع المال (كما فهمه الصحابة حين نزول الآية)؟ أو إنفاق بعضه؟ وما مقدار هذا البعض؟

---

(١) رواه مسلم (٩٥/١) بشرح النووي، ط. دار أبي حيان، وانظره ص(٩٩).
(٢) رواه مسلم في المقدمة (٧).

٥ - وقال - تعالى -: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

فما المراد بالظلم الذي جُعِلَ انتفاؤُهُ شرطًا للأمن والاهتداء؟ أجميع أنواعه؛ كما فهم الصحابة؟ أم نوع خاص منه؟

٦ - وقال - عز وجل -: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨].

ففهمنا وجوب قطع يد كل منهما، لكن ما هذه السرقة الموجبة للقطع، وما شروطها؟ وما نصاب المال الذي توجب سرقتُه القطع؟ وما كيفية هذا القطع؟ أتقطع اليد من مفصل الكتف؟ أم من مفصل المرفق؟ أم من مفصل الكوع؟ وهل يتكرر القطع عند تَكَرُّرِ السرقة؟

وفي القرآن كثير من ذلك.

فجرد نفسك وعقلك عما ورد في السنة من بيان ما ذكرنا في هذه الآيات ونحوها، وعما عُلِمَ من الدين بالضرورة بواسطة السنة، وعما استنبطه الفقهاء باجتهاداتهم: بالأقيسة وغيرها، التي استعانوا عليها بالسنة.

جرد نفسك وعقلك عن هذا كله، ثم انظر: هل يستطيع مستطيع أن يجيب عن شيء مما ذكرنا ونحوه؟ وإذا لم يستطع فهل من الممكن أن يكلفنا الله بتكاليف أخفاها عنا، وأعمانا عن مراده منها؟

كل ذلك يدلنا على أن الله لم يكلفنا بهذه التكاليف التي أجملها في كتابه، وهو يعلم حق العلم أن عقولنا تقصر عن إدراك مراده، إلا وقد نصب لها شارحًا مُبَيِّنًا، وأوجد مفسرًا موضحًا، ألا وهو رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - بواسطة وحيه، وتأييده.

قال الإمام أبو محمد بن حزم - رحمه الله -: «في أي قرآن وجد أن الظهر أربع

ركعات، وأن المغرب ثلاث ركعات، وأن الركوع على صفة كذا، والسجود على صفة كذا، وصفة القراءة فيها والسلام، وبيان ما يُجْتَنَبُ في الصوم، وبيان كيفية زكاة الذهب والفضة، والغنم والإبل والبقر، ومقدار الأعداد المأخوذة منها الزكاة، ومقدار الزكاة المأخوذة، وبيان أعمال الحج؛ من الوقوف بعرفة، وصفة الصلاة بها، وبمزدلفة، ورمي الجمار، وصفة الإحرام، وما يجتنب فيه، وقطع السارق، وصفة الرضاع المحرم، وما يحرم من المآكل، وصفتا الذبائح والضحايا، وأحكام الحدود، وصفة وقوع الطلاق، وأحكام البيوع، وبيان الربا، والأقضية، والتداعي، والأيمان، والأحباس، والعمرى، والصدقات، وسائر أنواع الفقه؟

وإنما في القرآن جمل لو تُركنا وإياها لم ندر كيف نعمل بها، وإنما المرجوع إليه في كل ذلك النقلُ عن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، وكذلك الإجماع؛ إنما هو على مسائل يسيرة، فلا بد من الرجوع إلى الحديث ضرورة، ولو أن امرأ قال: لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن لكان كافرًا بإجماع الأمة، ولكان لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل، وأخرى عند الفجر؛ لأن ذلك هو أقل ما يقع عليه اسم صلاة، ولا حَدَّ للأكثر في ذلك، وقائل هذا كافر مشرك، حلال الدم والمال»[(١)] اهـ.

• ذِكْرُ جُمْلَةٍ مِنَ الْآثَارِ السَّلَفِيَّةِ فِي هَذَا الْمَعْنَى

عن صدقة بن أبي عبدالله أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول: «أصحابُ الرأي أعداءُ السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، وتفلتت منهم أن يعوها، واستحيوا حين سُئِلُوا أن يقولوا: لا نعلم، فعارضوا السنن برأيهم، فإياكم وإياهم»[(٢)].

وقال رضي الله عنه: «سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات القرآن، فخذوهم بالسنن، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله»[(٣)].

(١) «المحلي»، (٢/ ٢٠٠).
(٢) «إعلام الموقعين»، (١/ ٥٨).
(٣) «سنن الدارمي»، (١/ ٤٩).

ولما أرسل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ إلى الخوراج قال له: «اذهب إليهم فخاصمهم، ولا تحاجهم بالقرآن؛ فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة»[١].

وأخرج ابن سعد أن ابن عباس رضي الله عنهما قال لعلي رضي الله عنه: (يا أمير المؤمنين، فأنا أعلم بكتاب الله منهم: في بيوتنا نزل، قال: صدقت، ولكن القرآن حَمَّال ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنن؛ فإنهم لن يجدوا عنها محيصًا، فخرج إليهم، فحاجَّهم بالسنن، فلم يُبق بأيديهم حجة)[٢].

وعن عمران بن الحصين رضي الله عنه: (أنهم كانوا يتذاكرون الحديث، فقال رجل: دعونا من هذا وجيئونا بكتاب الله، فقال عمران: إنك أحمق؛ أتجد في كتاب الله الصلاة مفسرة؟ أتجد في كتاب الله الصيام مفسرًا؟ إن القرآن أحكم ذلك، والسنة تفسره)[٣].

وأخرج الدارمي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

(يأيها الناس عليكم بالعلم قبل أن يُرْفَعَ، فإن مِن رفعه قبضَ أصحابه، وإياكم والتبدعَ والتنطع، وعليكم بالعتيق؛ فإنه سيكون في آخر هذه الأمة أقوام يزعمون أنهم يدعون إلى كتاب الله، وقد تركوه وراء ظهورهم)[٤].

وأخرج ابن عبدالبر عن رجاء بن حَيْوَة عن رجل قال: كنا جلوسًا عند معاوية رضي الله عنه فقال: (إن أغوى الضلالة لَرَجل يقرأ القرآن فلا يفقه فيه، فيعلِّمه الصبي، والعبد، والمرأة، والأمة، فيجادلون به أهل العلم)[٥].

وأخرج مالك عن ابن شهاب عن رجل من آل خالد بن أَسِيد: أنه سأل عبدالله بن

---

(١)، (٢) عزاهما في «حجية السنة» ص(٣٢٩) إلى ابن سعد في «الطبقات».
(٣) انظر: «جامع بيان العلم»، (٢/١١٩٢).
(٤) «سنن الدارمي»، (١/ ٥٤).
(٥) «جامع بيان العلم»، (٢/١٢٠٣).

عمر فقال: يا أبا عبدالرحمن، إنا نجد صلاة الخوف وصلاة الحضر في القرآن، ولا نجد صلاة السفر؟ فقال ابن عمر: يا ابن أخي، إن الله عز وجل بعث إلينا محمدًا ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، ولا نعلم شيئًا، فإنما نفعل كما رأيناه يفعل)[(١)].

(وأخرج البيهقي في «المدخل» من طريق شبيب بن أبي فضالة المكي، أن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذكر الشفاعة، فقال رجل من القوم: «يا أبا نجيد، إنكم تحدثونا بأحاديث، لم نجد لها أصلًا في القرآن»، فغضب عمران، وقال للرجل: قرأتَ القرآن؟ قال: نعم، قال: فهل وجدت فيه صلاة العشاء أربعًا، ووجدت المغرب ثلاثًا، والغداةَ ركعتين، والظهر أربعًا، والعصر أربعًا؟ قال: لا.

قال: فعمن أخذتم ذلك؟ ألستم عنا أخذتموه، وأخذناه عن رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ؟

أوجدتم فيه: في كل أربعين شاة شاة، وفي كل كذا بعير كذا، وفي كل كذا درهمًا كذا؟ قال: لا، قال: فعمن أخذتم ذلك؟ ألستم عنا أخذتموه، وأخذناه عن النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ؟

قال: في القرآن ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، أوجدتم فيه: فطوفوا سبعًا، واركعوا ركعتين خلف المقام؟ أوجدتم في القرآن: «لَا جَلَبَ وَلَا جَنَبَ، وَلَا شِغَارَ فِي الْإِسْلَامِ»؟.

أما سمعتم الله قال في كتابه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [الحشر: ٧]، قال عمران: «فقد أخذنا عن رسول الله ﷺ أشياء ليس لكم بها علم»[(٢)].

وأخرج الدارمي عن سعيد بن جبير: أنه حدَّث يومًا بحديث عن النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، فقال له رجل: في كتاب الله ما يخالف هذا، فقال: «ألا أراني

---

(١) «الموطأ»، ص(١٠٩)، باب قصر الصلاة في السفر.

(٢) «حجية السنة» ص (٣٣٠ - ٣٣١).

أحدثك عن رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وتعرِّض فيه بكتاب الله، كان رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ أعلمَ بكتاب الله منك»(١).

وعن أيوب السختياني: أن رجلًا قال لمطرف بن عبدالله بن الشخير: لا تحدثونا إلَّا بما في القرآن، فقال له مطرف: «إنا، والله، ما نريد بالقرآن بدلًا، ولكنا نريد من هو أعلم بالقرآن منا»(٢).

وذكر ابن عبدالبر في كتابه (جامع بيان العلم)، عن عبدالرحمن بن يزيد: أنه رأى محرمًا يحج، وعليه ثيابه، فقال: ائتني بآية من كتاب الله تنزع ثيابي، قال: فقرأ عليه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] ... الآية(٣).

وثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه أن امرأة جاءت إليه، فقالت له: أنت الذي تقول «لَعَنَ اللَّهُ النَّامِصَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْوَاشِمَاتِ»... الحديث؟ قال: نعم، قالت: فإني قرأت كتاب الله من أوَّله إلى آخره، فلم أجد فيه ما تقول، فقال لها: إن كنتِ قرأتِيهِ لقد وجدتِيهِ، أما قرأتِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾؟! قالت: بلى، قال: فقد سمعت رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ يقول: «لَعَنَ اللَّهُ النَّامِصَاتِ» ...(٤)، فكأن القوم قد كذبوا بالقرآن ـ أيضًا ـ؛ لأن القرآن ألزمنا بطاعة رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ مطلقًا.

---

(١) «سنن الدارمي»، (١/ ١٤٥).

(٢) انظر «جامع بيان العلم»، (٢/ ١١٩٣).

(٣) «السابق»، (١١٨٣/٢).

(٤) رواه البخاري (٤٨٨٦)؛ ومسلم، (٢١٢٥)، وغيرهما.

الدَّلِيلُ السَّادِسُ أَنَّهُ ثَبَتَ بِأَدِلَّةِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ أَنَّ السُّنَّةَ وَحْيٌ كَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

● **أما أدلة القرآن العظيم، فمنها:**

١ ـ قوله ـ تعالى ـ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ تعالى ـ: (ولم يقل: «وما ينطق بالهوى»؛ لأن نطقه[1] عن الهوى أبلغ؛ فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به؟ فتضمن نفي الأمرين: نفي الهوى عن مصدر النطق، ونفيه عن نفسه، فنُطقه بالحق، ومصدره الهدى والرشاد، لا الغي والضلال)[2]. اهـ.

وقال في موضع آخر:

(﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾، فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل؛ أي: ما نطقه إِلَّا وحي يوحى، وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائدًا إلى القرآن؛ فإنه يعم نطقه بالقرآن والسنة، وأن كليهما وحي يوحى، وقد احتج الشافعي لذلك بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣]، وحديث «لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ»، وكذا حديث يعلى بن أمية في جملة أحاديث أخرى)[3].

٢ ـ جملة من الآيات اقترن فيها القرآن بالحكمة في سياق الامتنان على الأمة المحمدية؛ مثل قوله ـ تعالى ـ:

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾... الآية [البقرة: ١٥١].

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

(١) لعله: لأن **نفي** نطقه عن الهوى أبلغ.
(٢) «بدائع التفسير»، (٤/٢٧٦).
(٣) «التبيان في أقسام القرآن»، ص (١٨١).

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾... الآية [البقرة: ١٢٩]

﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾... الآية [النساء: ١١٣].

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١].

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، الآية [الجمعة: ٢].

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾... الآية [الأحزاب: ١٣٤].

قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: (سمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله ﷺ)[١]. اهـ.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (والكتاب هو القرآن، والحكمة هي السنة باتفاق السلف، وما أخبر الرسول ﷺ عن الله ـ سبحانه ـ فهو، في وجوب تصديقه والإيمان به، كما أخبر به الرب ـ تعالى ـ على لسان رسوله ﷺ، هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام، لا ينكره إلَّا من ليس منهم)[٢]. اهـ.

وقال الإمام ابن حزم ـ رحمه الله ـ: (قال الله ـ عز وجل ـ عن نبيه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤].

وقال ـ تعالى ـ آمرًا لنبيه ﷺ أن يقول: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

---

(١) «الرسالة»، ص (٧٨).

(٢) «الروح»، ص (١٠٥).

وقال - تعالى -: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾... الآية [النحل: ٤٤].

فصح أن كلام رسول الله ﷺ كله في الدين وحي من عند الله - عز وجل -، لا شك في ذلك، ولا خلاف بين أحد من أهل اللغة والشريعة في أن كل وحي نزل من عند الله فهو ذكر منزل، فالوحي كله محفوظ بحفظ الله - تعالى - له بيقين، وكل ما تكفل الله بحفظه فمضمون ألا يضيع منه، وأن لا يحرفَ منه شيء أبدًا تحريفًا، لا يأتي البيان ببطلانه(١). اهـ.

٣ - قوله - تعالى -: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩].

﴿بَيَانَهُۥ﴾: إظهاره بلسانك، فتقرؤه كما أقرأك جبريل، وعلينا كذلك تبيين ما فيه من الأحكام، وما يتعلق بها من الحلال والحرام، والتفصيل والإجمال، والتقييد والإطلاق، وما إلى ذلك، وهذا التفسير للآية ذهب إليه الحافظ ابن حجر - رحمه الله - تعالى(٢).

٤ - وقال - تعالى -: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥]، وقال - عز وجل -: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾... الآية [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وقال - عز وجل -: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾... الآية [النحل: ٤٤].

وقال - سبحانه -: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

وقد سئل الإمام عبدالله بن المبارك: هذه الأحاديث الموضوعة؟ فقال: «تعيش لها الجهابذة، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾».

---

(١) «الإحكام»، (١/ ١٠٩).

(٢) انظر: «فتح الباري»، (٨/٦٨٣).

وإذا كانت حجة الله على عباده لا تقوم إِلَّا بحفظ رسالته وشرعه، فإن هذا الحفظ لا يتم إِلَّا بحفظ القرآن والسنة التي تبينه وتشرحه للناس، فلزم من ذلك لزومًا حتميًا أن يحفظ الله - سبحانه وتعالى - السنة، ويتعهد ببقائها.

قال الإمام ابن حزم - رحمه الله - تعالى -:

(والقرآن والخبر الصحيح بعضها مضاف إلى بعض، وهما شيء واحد في أنهما من عند الله - تعالى -، وحكمهما حكم واحد في باب وجوب الطاعة لهما، قال - تعالى -: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، وقال - تعالى -: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، فأخبر - تعالى -: أن كلام نبيه ﷺ كله وحي، والوحي بلا خلافٍ ذِكْر، والذكر محفوظ بنص القرآن)[1]. اهـ.

٥ - وقال - جل وعز -: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة: ١٤٢: ١٤٤].

هذه الآيات نزلت عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وهي تدلنا على أن التوجه إلى بيت المقدس كان مشروعًا من قبل، وأن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - مع ميله الشديد إلى التوجه إلى الكعبة؛ لكونها قبلة آبائه، لم يتوجه إليها، بل كان ملتزمًا التوجهَ إلى بيت المقدس هو وأصحابه.

---

(١) «الإحكام»، (١/٩٨).

وتدلنا ـ أَيْضًا ـ على أن التزامهم ذلك كان حقًّا وصوابًا واجبًا عليهم قبل التحويل، وهي مع ذلك لم تشرع التوجه إلى بيت المقدس؛ لأنها إنما نزلت في نهاية العمل به، وهي إنما تشرع التوجه إلى الكعبة.

وليس هناك آية أخرى في القرآن الكريم تبين لنا حكم التوجه إلى بيت المقدس، فدلنا هذا كله على أن النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ وأصحابه كانوا عاملين بحكم لم ينزل به القرآن، وأن عملهم هذا كان حقًّا وواجبًا عليهم.

إذن كان التوجه إلى بيت المقدس بوحي غير القرآن.

● **أما أدلة السنة الشريفة؛ فمنها:**

ما رواه المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ[(١)] يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ، أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمُ الْحِمَارُ الْأَهْلِيُّ، وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ، وَلَا لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ، إِلَّا أَنْ يَسْتَغْنِيَ صَاحِبُهَا، وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ، فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ، فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ»[(٢)].

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه: قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ:

---

(١) وهذه صفة فرقة (القرآنيين) الضالة التي أخبر النبي ﷺ بخروجها، وفي قوله: «شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ» إشارة إلى أنهم عاطلون بطَّالُون مُتْرَفُونَ، لا يتجشمون مشقة في تحصيل العلم، ولا رحلة لطلب الحديث، كما كان شأن أئمة هذا الشأن في القديم والحديث. قال البغوي ـ رحمه الله ـ: (والأريكة: السرير، ويقال: لا يسمَّى أريكة حَتَّى يكون في حَجَلة، وقال الأزهري: كل ما اتُّكِئَ عليه فهو أريكة، وأراد بهذه الصفة أصحاب التَّرفُّهِ والدَّعَةِ، الذين لزموا البيوت، وقعدوا عن طلب العلم.
وفي الحديث دليل على أنه لا حاجة بالحديث إلى أن يُعْرَضَ على الكتاب، وأنه مهما ثبت عن رسول الله ﷺ كان حجة بنفسه ...). اهـ. من «شرح السنة»، (١/٢٠١).

(٢) رواه الإمام أحمد (٤/١٣٠-١٣٢)؛ وأبو داود، (٤٦٠٤)؛ والترمذي، (٢٦٦٦)، وحسَّنه، وابن ماجه، (١٢) في المقدمة، وصححه الألباني ـ رحمة الله عليه.

«أَيَحْسَبُ أَحَدُكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ قَدْ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئًا إِلَّا مَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ؟! أَلَا وَإِنِّي، وَاللَّهِ، قَدْ أَمَرْتُ، وَوَعَظْتُ، وَنَهَيْتُ عَنْ أَشْيَاءَ، إِنَّهَا لَمِثْلُ هَذَا الْقُرْآنِ أَوْ أَكْثَرُ»[١].

وعن أبي رافع أن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - قال: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: مَا أَدْرِي مَا وَجَدْنَاهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ»[٢].

وعن طلحة بن نُضَيلة قال: (قيل لرسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - في عام سَنَة[٣]: سَعِّر لنا يا رسول الله، قال: لَا يَسْأَلُنِي اللَّهُ عَنْ سُنَّةٍ أُحْدِثُهَا فِيكُمْ لَمْ يَأْمُرْنِي بِهَا، وَلَكِنِ اسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ)[٤].

وقد سن - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - سننًا، وبين أحكامًا ليست في القرآن، فدل هذا الحديث على أنها بوحي الله وأمره.

وعن أبي هريرة وزيد بن خالد - رضي الله عنهما - أنهما قالا: (إن رجلًا من الأعراب أتى رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، فقال: يا رسول الله، أنشدك الله إلَّا قضيت لي بكتاب الله، وقال الخصم الآخر - وهو أفقه منه -: نعم، فاقض بيننا بكتاب الله، وائذن لي، فقال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «قُلْ»، قال: إن ابني كان عسيفًا[٥] على هذا، فزنى بامرأته، وإني أُخبرت أن على ابني

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أبو داود، (٣٠٥٠)، وفي سنده أشعث بن شعبة المصيصي، لم يوثقه غير ابن حبان، وبقية رجاله ثقات، وضعفه الألباني في «المشكاة»، (١٦٤).

(٢) تقدم تخريجه ص(١٠٧) هامش رقم (٣).

(٣) سَنَة: جدب، وقحط.

(٤) قال الهيثمي في «المجمع»: (رواه الطبراني في «الكبير»، وفيه بكر بن سهل الدمياطي، ضعَّفَهُ النسائي، ووثَّقه غيره، وبقية رجاله ثقات)اهـ. (٤/١٠٠).

(٥) أي: أجيرًا.

الرجمَ، وافتديت منه بمئة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم، فأخبروني أن على ابني جلد مئة، وتغريبَ عام، وأن على امرأة هذا الرجمَ، فقال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ، الْغَنَمُ وَالْخَادِمُ رَدٌّ عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِئَةٍ، وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ ـ لِرَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ ـ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا»، قال: فغدا عليها، فاعترفت، فأمر بها رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ فرُجِمَتْ)[١].

وعن يعلى بن أمية رضي الله عنه أنه كان يقول لعمر رضي الله عنه:

«ليتني أرى رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ حين ينزل عليه الوحي، فلما كان بالجِعرانة، سأله رجل، فقال: كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جُبَّته، بعد ما تضمخ بالخلوق[٢]؟ فنظر إليه النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ ساعة ثم سكت، فجاء الوحي، فأشار عمر بيده إلى يعلى، فجاء فأدخل رأسه، فإذا النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ محرم يغط، ثم سُرِّيَ عنه، فقال: «أَيْنَ السَّائِلُ آنِفًا؟» فجيء به، فقال: «انْزِعْ عَنْكَ جُبَّتَكَ، وَاغْسِلْ أَثَرَ الطِّيبِ، وَاصْنَعْ فِي عُمْرَتِكَ مَا تَصْنَعُ فِي حَجِّكَ»[٣].

وعن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: (خرجت سَودة بعد ما ضُرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة، تَفْرَعُ[٤] النساءَ جسمًا، لا تخفى على من يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا سودة، أما والله ما تخْفَيْنَ علينا، فانظري

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٢٤)؛ ومسلم (١٦٧٩)؛ وأبو داود (٤٤٤٥)؛ والترمذي بعد الحديث، (١٤٣٣)؛ والنسائي (٨/٢٤٠-٢٤١)؛ والإمام أحمد (٤/١١٥-١١٦).

(٢) أي: لطخ نفسه بالطيب حتى كأنه يقطر.

(٣) رواه البخاري (٣/٣٩٣)، (١٥٣٦)؛ ومسلم، (١١٨٠)، (٢/٨٣٦)، وغيرهما.

(٤) تفرع: تطولهن، فتكون أطول منهن.

كيف تخرجين؟ قالت: فانكفأَتْ راجعةً، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في بيتي، وإنه ليتعشَّى وفي يده عَرْقٌ[١]، فَدَخَلَتْ، فقالت: يا رسول الله، إني خرجتُ، فقال لي عمرُ كذا وكذا، قالت: فأُوحي إليه، ثم رُفع عنه، وإن العَرْقَ في يده ما وضعه، فقال: «إِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ»، قال هشام: يعني البَرَازَ[٢].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ قال: «لَيسَ مِنْ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَا عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى النَّارِ إِلَّا قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، لَا يَسْتَبْطِئَنَّ أَحُدٌ مِنْكُمْ رِزْقَهُ، إِنَّ جِبْرِيلَ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ أَلْقَى فِي رُوْعِي أَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَكْمِلَ رِزْقَهُ؛ فَاتَّقُوا اللَّهَ أَيُّهَا النَّاسُ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنِ اسْتَبْطَأَ أَحَدٌ مِنْكُمْ رِزْقَهُ، فَلَا يَطْلُبْهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُنَالُ فَضْلُهُ بِمَعْصِيَتِهِ»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ قال: «أَسْلَمُ سَالَمَهَا اللَّهُ، وَغِفَارُ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا، أَمَا إِنِّي لَمْ أَقُلْهَا، وَلَكِنْ قَالَهَا اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ»[٤].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (خطبنا رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، فقال: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ مِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا»، فقال له رجل: يا رسول الله، أو يأتي الخير بالشر؟ فسكت عنه رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، فرأينا أنه يُنَزَّلُ عليه، فقيل له: ما شأنك تُكَلِّمُ رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ ولا يكلمك؟ فَسُرِّي عن رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، فجعل يمسح عنه الرُّحَضاءَ، وقال: «أَيْنَ السَّائِلُ»؟ ورأينا أنه حَمِدَه، فقال: «إن الخير لا يأتي بالشر»)[٥]... الحديث.

---

(١) العرق: هو العظم إذا أخذ منه معظم اللحم.

(٢) رواه البخاري (١/٢١٨)، ومسلم (٢١٧٠).

(٣) تقدم تخريجه ص(٩٩).

(٤) رواه البخاري (٦/٥٤٢)؛ ومسلم، (٢٥١٦)، وهذا لفظه.

(٥) رواه البخاري (٩٢١)، (١٤٦٥)؛ ومسلم (١٠٥٢)، (١٢٣)؛ والإمام أحمد (٣/٩١)؛ والنسائي=

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «أمني جبريل عند البيت مرتين، فصلى بي الظهر حين زالت الشمس، والعصر حين كان ظله مثله، والمغرب حين أفطر الصائم، والعشاء حين غاب الشفق، والفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم، فلما كان الغد صلى بي الظهر حين كان ظله مثله، والعصر حين كان ظله مثليه، والمغرب حين أفطر الصائم، والعشاء إلى ثلث الليل، والفجر فأسفر، وقال: الوقت ما بين هذين الوقتين»[١].

(وأخرج البيهقي في «المدخل» عن الأوزاعي قال:

«إِذَا بَلَغَكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ حَدِيثٌ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ بِغَيْرِهِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ كَانَ مُبَلِّغًا عَنِ اللَّهِ ـ تَعَالَى»)[٢].

وعن الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: (كان الوحي ينزل على رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك)[٣].

وأخرجه أبو داود والبيهقي بلفظ: (كان جبريل ـ عليه السلام ـ ينزل على رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ بالسنة، كما ينزل عليه بالقرآن، ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن)[٤].

وأخرج البيهقي في «المدخل» عن طاوس: (أن عنده كتابًا من العقول نزل به الوحي، وما فرض رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ من صدقة وعقول فإنما

= (٥/٩٠)؛ وابن حبان في «صحيحه»، (٨/١٩) (٣٢٢٥).

(١) رواه الإمام أحمد (١/٣٣٣)؛ وأبو داود (٣٩٣)؛ والترمذي (١٤٩)؛ وقال: «حسن صحيح»؛ وصححه الحاكم والذهبي، وابن عبدالبر، وابن العربي، والنووي.

(٢) «حجية السنة» ص(٣٣٧).

(٣) «جامع بيان العلم وفضله»، (٢/١١٩٣).

(٤) «سنن الدارمي» (١/١٤٥).

نزل به الوحي)[١].

الدَّلِيلُ السَّابِعُ الإِجْمَـاعُ

انعقد الإجماع على أنه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ كان يُوحَى إليه غير القرآن، وانعقد إجماع المجتهدين من السلف والخلف على حجية السنة، واتفقت على ذلك كلمتهم، وتواطأت أفئدتهم[٢].

وقال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ: (أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس)[٣].

وقال ابن حزم ـ رحمه الله ـ: (ولو أن امْرَأً قال: «لا نأخذ إِلَّا ما وجدناه في القرآن لكان كافرًا بإجماع الأمة، ولكان لا يلزمه إِلَّا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل، وأخرى عند الفجر؛ لأن ذلك هو أقل ما يقع عليه اسم صلاة، ولا حَدَّ للأكثر في ذلك، وقائل هذا كافر مشرك حلال الدم والمال»[٤]. اهـ.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (والكتاب هو القرآن، والحكمة هي السنة باتفاق السلف، وما أخبر به الرسول عن الله فهو في وجوب تصديقه، والإيمان به، كما أخبر به الرب ـ تعالى ـ على لسان رسوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام لا ينكره إِلَّا من ليس منهم)[٥]. اهـ.

* * *

---

(١) «حجية السنة»، ص(٣٣٧)..
(٢) «حجية السنة»، ص (٣٣٨)، (٣٤٢).
(٣) نقله عنه ابن القيم في «إعلام الموقعين»، (٢/٢٨٣).
(٤) «الإحكام»، (٢/٢٠٠).
(٥) «الروح»، ص (١٠٥).

فَصْلٌ

هَلْ فِي الْقُرْآنِ إِشَارَةٌ إِلَى الْمَهْدِيِّ؟

حكى بعض المفسرين ما يفيد أن هناك إشارةً إلى المهدي ضمن حكايتهم وجوه تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

فقال إمام المفسرين ابن جرير الطبري ـ رَحمه الله ـ: (حدثنا موسى قال: حدثنا عمرو قال: حدثنا أسباط عن السدي قوله: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، أما خزيهم في الدنيا فإنهم إذا قام «المهدي»، وفُتِحت القسطنطينية، قتلهم، فذلك الخزي، وأما العذاب العظيم فإنه عذاب جهنم الذي لا يخفف عن أهله، ولا يُقْضَى عليهم فيها فيموتوا)[١]. اهـ محل الغرض منه.

وحكى القرطبي عن قتادة والسدي: (الخزي لهم في الدنيا قيام المهدي، وفتح عمورية، ورومية، وقسطنطينية، وغير ذلك من مدنهم، على ما ذكرناه في كتاب «التذكرة»)[٢]. اهـ محل الغرض منه.

وحكى ابن كثير عن السدي وعكرمة ووائل بن داود أنهم فسَّروا الخزي في الدنيا بـ(خروج المهدي)، وصحَّح أن الخزي في الدنيا أعم من ذلك كله[٣]، وقال الشوكاني في تفسيره «فتح القدير»: (أما خزيهم في الدنيا، فإنه إذا قام المهدي، وفُتحت القسطنطينية، قتلهم، فذلك الخزي)[٤]. اهـ.

---

(١) «جامع البيان»، (٢/٥٢٥)، بتحقيق الشيخ أحمد شاكر ـ رحمه الله.
(٢) «الجامع لأحكام القرآن»، (٢/٧٩).
(٣) «تفسير القرآن العظيم»، (١/٢٢٦)، ط. الشعب.
(٤) «فتح القدير»، (١/١٣٢).

وقال الشيخ سيد الشبلنجي في «نور الأبصار»: (قال مقاتل بن سليمان، ومن تابعه من المفسرين، في تفسير قوله - تعالى - ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١]، قال: «هو المهدي يكون في آخر الزمان، وبعد خروجه تكون أمارات الساعة وقيامها»). اهـ.

تَنْبِيهٌ: **المقصود بذكر هاتين الإشارتين الاستئناس، وجمع ما ورد في الباب، لا الاستدلال؛ لذا لم نذكرهما في صدر الجواب عن هذه الشبهة.**

* * *

الشُّبْهَةُ الثَّانِيَةُ

● **قولهم: إن أحاديث المهدي - وإن صحت - فهي أحاديث آحاد، وأحاديث الآحاد لا تفيد العلم، ولا يصح الاعتماد عليها في شأن العقائد والمغيبات.**

جَوَابُ هَذِهِ الشُّبْهَةِ

إن قولهم: «إن أحاديث المهدي - وإن صحت - فهي أحاديث آحاد»، دعوى غير صحيحة، فقد صرح كثير من العلماء بأن الأحاديث الواردة في شأن المهدي متواترة تواترًا معنويًّا، منهم الإمام الحافظ أبو الحسن محمد بن الحسين الآبري السجزي (ت: ٣٦٣هـ)، الذي قال في كتابه «مناقب الشافعي»:

(وقد تواترت الأخبار، واستفاضت عن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - بذكر المهدي، وأنه من أهل بيته، وأنه يملك سبع سنين، وأنه يملأ الأرض عدلًا، وأن عيسى - عليه السلام - يخرج فيساعده على قتل الدجال، وأنه يؤم هذه الأمة، ويصلي عيسى خلفه، في طول من قصته وأمره). اهـ.

● **وهذا النص نقله عنه وأقره جمع من الأئمة؛ منهم:**

- الإمام أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي (ت: ٦٧١هـ)[١].
- والإمام جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبدالرحمن المزي (ت: ٦٥٤هـ)[٢].
- والإمام شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)[٣].

---

(١) «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة»، (٢/٧٢٣).
(٢) «تهذيب الكمال»، (٦/٥٩٦).
(٣) «المنار المنيف»، ص (١٤٢).

- والحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني (ت:٨٥٢هـ)[١].
- والحافظ شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي (ت: ٩٠٢هـ)[٢].
- والحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ)[٣].
- والفقيه شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي المكي (ت:٩٧٤هـ)[٤].
- والملا نور الدين علي بن محمد سلطان القاري الهروي المكي (ت: ١٠١٤هـ)[٥].
- والشيخ مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي الحنبلي (ت: ١٠٣٣هـ)[٦].
- والشيخ محمد البرزنجي (ت: ١١٠٣هـ)[٧].
- والشيخ أبو عبدالله محمد بن عبدالباقي بن يوسف الزرقاني المالكي (ت:١١٢٢هـ)[٨].

* * * * *

(١) «فتح الباري»، (٦/٤٩٤)؛ «تهذيب التهذيب»، (٩/١٤٤).
(٢) «فتح المغيث بشرح ألفية الحديث»، (٣/٤١).
(٣) «الحاوي في الفتاوي»، (٢/١٦٥).
(٤) «الصواعق المحرقة»، ص (٩٩).
(٥) «رسالة المهدي من آل الرسول»، (ص٢٥).
(٦) نقله عنه في «الإذاعة لما كان، وما يكون بين يدي الساعة»، ص (١٤٧).
(٧) «الإشاعة في أشراط الساعة»، ص (٨٧).
(٨) نقله عنه الكتاني في «نظم المتناثر»، ص (١٤٥).

فَصْلٌ

ذِكْرُ جُمْلَةٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ الَّذِينَ نَصُّوا عَلَى تَوَاتُرِ أَحَادِيثِ الْمَهْدِيِّ

منهم: الشيخ محمد البرزنجي؛ فقد قال في شأنها: (بلغت حد التواتر المعنوي؛ فلا معنى لإنكارها) (١).

ومنه: الشيخ أبو العون محمد بن أحمد السفاريني (ت:١١٨٨هـ)، فقد قال: (وقد كثرت بخروجه ـ أي المهدي ـ الروايات، حَتَّى بلغت حد التواتر المعنوي، وشاع ذلك بين علماء السنة، حَتَّى عُدَّ من معتقداتهم، بروايات متعددة، ما يفيد مجموعه العلم القطعي؛ فالإيمان بخروج المهدي واجب، كما هو مقرر عند أهل العلم، ومدون في عقائد أهل السنة والجماعة) (٢). اهـ.

ومنه: العلَّامة الإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت:١٢٥٠هـ)؛ حيث قال فيها: (وهي متواترة بلا شك ولا شبهة، بل يصدق وصف التواتر على ما هو دونها في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول) (٣). اهـ.

ومنه: النواب محمد صديق خان بن حسن الحسيني البخاري القنوجي (ت:١٣٠٧هـ)، فقد قال: (لا شك في أن المهدي يخرج في آخر الزمان من غير تعيين لشهر وعام؛ لما تواتر من الأخبار في الباب، واتفق عليه جمهور الأمة سلفًا عن خلف (٤) إلَّا من لا يُعتد بخلافه) (٥). اهـ.

---

(١) «الإشاعة»، ص (٨٧).

(٢) «لوامع الأنوار البهية»، (٢/٨٠).

(٣) نقله عنه في «الإذاعة»، ص (١١٤).

(٤) كذا في الأصل، والصواب: خَلَفٌ عن سلف.

(٥) «الإذاعة» ص(١٤٥).

وتقدم نقل تصريح الكتاني، والصبان، وأبي السعود الإدريسي، ومحمد حبيب الله الشنقيطي، وغيرهم ـ بتواتر الأَحَادِيث الواردة في شأن المهدي [١].

فَائِـدَةٌ: **إن وجود الحديث في كتب متعددة من طرق مختلفة يفيد القوة، ويعرف به التواتر، وقد بان لك فيما تقدم كثرة من خرَّج أحاديث المهدي من الأئمة، فضلًا عمن صحَّحها، واعتقد موجبها.**

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ: (ومِنْ أحسن ما يُقَرَّرُ به كونُ المتواتر موجودًا وجود كثرة في الأحاديث، أن الكتب المشهورة المتداولة بأيدي أهل العلم شرقًا وغربًا، المقطوع عندهم بصحة نسبتها إلى مُصَنِّفيها، إذا اجتمعت على إخراج حديث، وتعددت طرقه تعددًا تحيل العادة تواطؤهم على الكذب، إلى آخر الشروط أفاد العلم اليقيني بصحته إلى قائله، ومثل ذلك في الكتب المشهورة كثير) [٢]. اهـ.

وقال الشيخ عبدالله بن الصديق الغماري [٣] في سياق الرد على من شكك في تواتر أحاديث نزول عيسى وقتله الدجال: [لا شك أن العادة قاطعة باستحالة أن يتواطأ هذا الجمع من الصحابة، والتابعين، وتابعيهم، وحَمَلَةِ الحديث النبوي، على الكذب والخطإ، أو أن يقع ذلك منهم اتفاقًا من غير تواطؤ، بل العادة تحيل الكذب والخطأ على جمع أقل من هذا الجمع، حَتَّى إن جماعة من العلماء؛ منهم ابن حزم، قرروا أن الحديث إذا اجتمع على روايته خمسة من الصحابة كان متواترًا، ونظره في ذلك قوي سديد؛ لأن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا على أكمل حال من العدالة، والضَّبط، والإتقان، لا يدانيهم في ذلك أحد، هذا إلى ما ميَّزهم الله به من فصَاحة اللسان، وسيلان الأذهان، وطهارة الجنان، مع ما فُطروا عليه من حب الصدق، واستهجان

---

(١) انظر: ص(٨٥-٨٨).

(٢) «نزهة النظر شرح نخبة الفكر»، ص(٢٣).

(٣) صوفي أشعري مُحَدِّث أصولي، انظر ترجمته في «تتمة الأعلام»، لمحمد خير رمضان (١/٣٤٣ ـ ٣٤٦).

الكذب، والنفرة عن سفاسف الأمور، وغير ذلك مما أهَّلهم لصحبة النبي ـ عليه السلام ـ، ونصرة دينه، وتبليغ شريعته إلى أمته، وقد أخرج أحمد في السنة، والبزار، والطبراني في الكبير، بإسناد حسن عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إِنَّ اللَّهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَاتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَنْ دِينِهِ؛ فَمَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ، وَمَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ»(١).

(ولما أراد أبو بكر رضي الله عنه أن يجمع القرآن، حين استحر القتل بالقراء في وقعة اليمامة، قال لعمر وزيد ـ رضي الله عنهما ـ: «مَنْ جَاءَكُمَا بِشَاهِدَيْنِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَاكْتُبَاهُ»، قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: «فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الْعُسُبِ(٢)، وَاللِّخَافِ(٣)، وَصُدُورِ الرِّجَالِ، حَتَّى وَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ التَّوْبَةِ مَعَ أَبِي خُزَيْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ، لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾»... إلى آخر السورة)(٤).

ومما يجدر ذكره أن معنى قوله: (لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ) أنه لم يجدها مكتوبة عند أحد إلَّا عند خزيمة، فالذي انفرد به خزيمة كتابتها لا حفظها، وإلا فقد حفظها كثير من الصحابة في صدورهم، وإن لم يكونوا كتبوها في أوراقهم.

وأبو خزيمة الأنصاري هو خزيمة بن ثابت، جعل النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ شهادتهُ بشهادة رجلين، فكان يسمى ذا الشهادتين رضي الله عنه؛ فالصديق رضي الله عنه اكتفى بشهادة اثنين في القرآن، الذي هو أصل الدين، وأساس اليقين، ومُنْكِرُ شيء منه يكفر بإجماع المسلمين؛ لعلمه بما كان عليه الصحابة من شدة التحرز، والتيقظ،

(١) انظر: «السلسلة الضعيفة»، (١٧/٢) (٥٣٣)حيث حسَّنه موقوفًا.
(٢) العُسُب: جمع العسيب، وهو هنا جريدة النخل المستقيمة يُكْشَط خُوصُها.
(٣) اللِّخاف: جمع اللَّخْفَة، وهي حجر أبيض عريض رقيق.
(٤) رواه البخاري (٩/٩-١٣)، والترمذي (٣١٠٢).

والتثبت؛ بحيث إذا اجتمع اثنان منهم على رواية شيء لم يبق للوهم والخطإ فيه احتمال، فما ظنك بحديث يرويه جمع كبير من الصحابة، يتلقاه عنهم مثلهم من التابعين، ثم مثلهم من تابعي التابعين، وهلم جرًّا ؟

لا شك أنه يكون متواترًا على جميع الاصطلاحات المقررة، ولا يمكن أن يحوم حوله قَوْلُ مَنْ نفي التواتر، أو ادَّعى قلته؛ لأنه قول صدر عن قلة الاطلاع، وعدم التروي، فكان نصيبه مخالفة الواقع ومجانبة الحقيقة، وكان حقيقًا بالإهمال، جديرًا بعدم الاعتبار][1].

أما قولهم: «إن أحاديث الآحاد لا تفيد العلم»، فجوابه على فرض التسليم بأن أحاديث المهدي آحاد، أن حديث الآحاد حجة بنفسه في العقائد والأحكام، ويفيد العلم، (ويُقطع بصحته إذا تلقته الأمة بالقبول، أو عملت به، وهذا ما ذهب إليه أكثر أهل الأصول، وعامة الفقهاء من الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة، إلَّا فرقة تبعت أهل الكلام)[2].

وقد أفاد وأجاد الإمام الجهبذ المحقق ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ في الانتصار للقول بأن خبر الواحد يفيد العلم في كتابه الجليل «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة»[3].

---

(١) «عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسى عليه السلام» ص(٨-٩).

(٢) ذكره ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في «المسودة»، ص (٢٤٠)، (٢٤٤).

(٣) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة»، للشيخ محمد بن الموصلي ـ رحمه الله ـ (٢/٣٣٢-٤٣٣).
وراجع للتوسع في هذه المسألة:
١ـ «إحكام الأحكام»، لابن حزم ـ رحمه الله ـ (١/١٠٧)، وما بعدها.
٢ـ «رد شبهات الإلحاد عن أحاديث الآحاد»، للشيخ عبدالعزيز بن راشد النجدي ـ رحمه الله.
٣ـ «الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام»، للعلامة الألباني ـ رحمه الله.
٤ـ «أخبار الآحاد في الحديث النبوي»، للعلامة عبدالله بن عبدالرحمن بن جبرين ـ حفظه الله ـ، وهو من أقوى وأجمع ما كتب في المسألة، والله أعلم.
٥ـ «أصل الاعتقاد»، لفضيلة الدكتور عمر سليمان الأشقر ـ حفظه الله.

الشُّبْهَةُ الثَّالِثَةُ

- **قولهم: (نظرنا في أحاديث المهدي فلم نجد منها حديثًا واحدًا في الصحيحين، ولا يصح الاحتجاج بحديث في غير الصحيحين إلَّا إذا كان له أصل فيهما، أو في أحدهما).**

وقد ردد هذه المقولة، ودندن حولها، كثير ممن أنكروا حقيقة المهدي؛ فمنهم الشيخ محمد رشيد رضا الذي قال: «لم يعتد الشيخان بشيء من رواياتها»[(١)]، ومنهم أحمد أمين؛ فقد قال: «ولم يرو البخاري ومسلم شيئًا عن أحاديث المهدي؛ مما يدل على عدم صحتها عندهما»[(٢)].

ومنهم سعد محمد حسن[(٣)]، وعبدالله بن زيد بن محمود رئيس المحاكم القطرية[(٤)]، الذي قال: (وهذه الأحاديث لم يأخذها البخاري ومسلم، ولم يدخلاها في كتبهما، مع رواجها في زمنهما، وما ذاك إلَّا لعدم ثباتها عندهما)[(٥)]. اهـ.

وَجَوَابُ هَذَا مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أن دعوى خلو الصحيحين من حديث واحد في شأن المهدي غير صحيحة، بل فيهما ما يشير إلى المهدي بدون ذكر لفظة «المهدي»، وقد وردت

= ٦ـ «د. محمد عمارة في ميزان أهل السنة والجماعة»، للشيخ سليمان الخراشي، ص(٥٦٦ـ٥٩٠).
٧ـ «الأدلة والشواهد على وجوب الأخذ بخبر الواحد في الأحكام والعقائد»، للأخ سليم الهلالي ـ وفقه الله.

(١) «تفسير المنار»، (٤١٦/٩)، ط. الشعب.
(٢) «ضحى الإسلام»، (٢٣٧/٣).
(٣) «المهدية في الإسلام»، ص (٧٠).
(٤) «لا مهدي ينتظر بعد الرسول خير البشر»، ص (٣١).
(٥) «السابق»، ص (٦).

روايات صحيحة خارج الصحيحين تصرح بزيادة على ما فيهما، كما سبق ذكره[١]، وزيادة الثقة مقبولة عند علماء الحديث[٢]، كما أنه ينبغي ألا نعزل النصوص عن شرح العلماء الراسخين، وفهمهم لها، وقد سبق ذكر من حمل أحاديث الصحيحين المشار إليها آنفًا على المهديِّ نفسِهِ؛ مثل الحافظ أبي الحسن الآبُرِّيِّ، وحكاه عنه القرطبي، والحافظ ابن حجر، والسخاوي، والسيوطي، والزرقاني، وغيرهم، وأقروه عليه، وإليه - أَيْضًا - ذهب الطيبي، وأبو داود، وابن كثير، وابن القيم، وابن حجر الهيتمي، والكشميري، ومحمد صديق خان، ومحمد بن جعفر الكتاني.

الثَّانِي: أن أحدًا من أهل العلم لم يَقُلْ إن عدم إيراد الحديث في الصحيحين يدل على ضعفه عندهما، فقاعدة: «لا يصح الاحتجاج بحديث في غير الصحيحين إِلَّا إذا كان له أصل فيهما، أو في أحدهما»، قاعدة مُحْدَثَةٌ مبتدعة، لم يقل بها أحد من السلف، بل صرح الأئمة - بما فيهم الشيخان البخاري ومسلم - بما ينقض دعوى الاقتصار على الصحيحين من أساسها كما سنبين - إن شاء الله.

فقد قسم العلماء الصحيح إلى سبع مراتب مُرَتَّبَة حسب القوة، على النحو التالي:-

١ - صحيح اتفق على إخراجه البخاري ومسلم.

٢ - صحيح انفرد بإخراجه البخاري عن مسلم.

٣ - صحيح انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري.

٤ - صحيح على شرطهما معًا، ولم يخرجاه.

---

(١) انظر ص (٤٤-٥٦).

(٢) قال الحافظ في «شرح النخبة»، ص (٣٧)، (وزيادة راويهما - أي الصحيح والحسن - مقبولة ما لم تقع منافية لرواية من هو أوثق - ممن لم يذكر تلك الزيادة؛ لأن الزيادة إما أن تكون لا تنافي بينها، وبين رواية من لم يذكرها، فهذه تقبل مطلقًا؛ لأنها في حكم الحديث المستقل، الذي ينفرد به الثقة، ولا يرويه عن شيخه غيره، وإما أن تكون منافية؛ بحيث يلزم من قبولها رد الرواية الأخرى، فهذه هي التي يقع الترجيح بينها وبين معارضها، فيقبل الراجح ويُرَدُّ المرجوح). اهـ.
وانظر مقدمة صحيح ابن حبان (١/١٢٠)؛ و«جامع الأصول»، (١/١٠٣-١٠٥).

٥ ـ صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجه.

٦ ـ صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجه.

٧ ـ صحيح لم يخرجاه، ولم يكن على شرطهما معًا، ولا على شرط واحدٍ منهما(١).

وليس في الصحيحين من هذه المراتب إلَّا الثلاث الأُوَل، أما الأربع الباقية، فلا وجود لها إلَّا خارج الصحيحين، ولم يزل من دأب العلماء في جميع العصور الاحتجاج بالأحاديث الصحيحة، بل الحسنة الموجودة خارج الصحيحين(٢)، والعمل بها مطلقًا، واعتبار ما دَلَّت عليه دون إعراض عنها، أو تعرض للحط من شأنها، والتقليل من قيمتها؛ ومن أمثلة ذلك في أمور الاعتقاد:

١ ـ الحديث المشتمل على العشرة المُبَشَّرِينَ بالجنة ـ رضي الله عنهم ـ، وهو في السنن، ومسند الإمام أحمد وغيره، وليس في الصحيحين(٣)، ومع ذلك اعتقدت الأمة موجبه، وقل أن يوجد مؤلَّف في العقائد ـ ولو مختصرًا ـ إلَّا وهو متضمن التنصيص على ذكرهم، والشهادة لهم بالجنة؛ بناءً على الأحاديث الواردة في ذلك في غير الصحيحين.

٢ ـ الحديث الدال على أن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة، لم يرد في الصحيحين(٤)، وقد اعتقد الناس موجبه، واستدلوا به، وأورده شارح «الطحاوية»

---

(١) «قواعد التحديث»، ص (٨٢).

(٢) الصحيح من الحديث كما أنه موجود في الصحيحين، فهو موجود خارجهما في الكتب المؤلفة في الحديث النبوي كالموطإ، وصحيح ابن خزيمة، وصحيح ابن حبان، ومستدرك الحاكم، وجامع الترمذي، وسنن أبي داود، والنسائي، وابن ماجه، والدارقطني، والبيهقي، وغيرها.

(٣) أخرجه من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه أبو داود (٤٦٤٩)، (٤٦٥٠)؛ والترمذي (٣٧٤٨)، (٣٧٥٧)؛ وابن ماجه (١٣٤)؛ والإمام أحمد (١/١٨٧، ١٨٨، ١٨٩)؛ وابن أبي عاصم، (١٤٢٨)، (١٤٣١)، (١٤٣٣)، (١٤٣٦)؛ والحاكم (٤/٤٤٠)؛ والنسائي في «الفضائل»، (٨٧)، (٩٠)، (٩٢)، (١٠٦)؛ وأبو نُعَيْم (١/٩٥).

وأخرج نحوه من حديث عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه الترمذي (٣٧٤٨)؛ والإمام أحمد (١/١٩٣)؛ والبغوي (٣٩٢٥).

(٤) أخرجه من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه النسائي (٤/١٠٨)؛ وابن ماجه (٤٢٧١)؛ والإمام مالك=

وغيره، وأورده الحافظ ابن كثير في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾... الآية [آل عمران: ١٦٩]، وقال: (وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبوعة؛ فإن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ رواه عن محمد بن إدريس الشافعي ـ رحمه الله ـ، عن مالك بن أنس الأصبحي ـ رحمه الله ـ، عن الزهري، عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه رضي الله عنه، قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»، ونسأل الله الذي جمعهم في سند هذا الحديث أن يجمع أرواحهم فيما يقتضيه متنه، وإيانا بمنه وكرمه[(١)] اهـ.

٣ ـ حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل في نعيم القبر وعذابه، الذي وصف فيه الرسول ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ ما يجري عند الموت حتَّى البعث، وهو في مسند الإمام أحمد وغيره[(٢)]، ولبعضه شواهد في الصحيح، وقد أورده شارح الطحاوية، وقال عقب إيراده: «وذهب إلى موجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث»[(٣)]. اهـ.

٤ ـ الحديث الذي رواه الإمام أحمد وغيره، الدال على وزن الأعمال، وهو حديث البطاقة والسجلات ـ لم يرد في الصحيحين[(٤)]، واعتقد أهل السنة موجبه، وأورده شارح الطحاوية للاستدلال به على أن ميزان الأعمال له كِفَّتَانِ، وعلى وزن صحائف الأعمال.

= (١/٢٤٠)؛ والإمام أحمد (٣/٤٤٥)، (٤٥٦)، (٤٦٠)؛ وانظر «شرح الطحاوية»، بتحقيق د. عبدالمحسن التركي، والشيخ شعيب الأرناءوط (٢/٥٦٧).

(١) «تفسير القرآن العظيم»، (٢/١٤٢)، ط. الشعب، ومعنى «يعلق»: يأكل.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/٢٨٧، ٢٩٥، ٢٩٦)؛ وأبو داود (٤٧٥٣)؛ والطيالسي (٧٥٣)؛ والآجري، في «الشريعة»، ص (٣٦٧-٣٧٠)؛ وابن أبي شيبة (٣/٣٨٠-٣٨٢)؛ وعبدالرزاق (٦٧٣٧)؛ وأبو نعيم، في «الحلية»، (٩/٥٦)؛ والطبري (١٤٦١٤)؛ وصححه الحاكم (١/٣٧-٤٠).

(٣) «شرح الطحاوية»، بتحقيق الأرناءوط (٢/٥٧٦).

(٤) رواه من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ الإمام أحمد (٢/٢١٣)؛ والترمذي (٢٦٣٩)، وحسنه، وابن ماجه (٤٣٠٠)؛ وصححه ابن حبان (٢٥٢٤)؛ والحاكم (١/٦، ٥٢٩)؛ ووافقه الذهبي، وانظر: «شرح الطحاوية»، (٢/٦١٠).

الثَّالِثُ: أن المقبول من الحديث عند المحدثين أربعة أنواع؛ هي: الصحيح لذاته، والصحيح لغيره، والحسن لذاته، والحسن لغيره، ومعلوم أن الحديث الصحيح موجود في الصحيحين، وفي غيرهما، أما الحسن فوجوده في غير الصحيحين، وقد ذكر هذه الأنواع الأربعة العلماء؛ ومنهم: الحافظ ابن حجر في «شرحه نخبة الفكر»؛ حيث قال:

(«وخبر الآحاد بنقل عدل تام الضبط، متصل السند، غير معلل ولا شاذ، وهو الصحيح لذاته»، وهذا أول تقسيم المقبول إلى أربعة أنواع؛ لأنه إما أن يشتمل من صفات القبول على أعلاها أوْ لا. الأول: الصحيح لذاته، والثاني: إن وجد ما يجبر ذلك القصور؛ ككثرة الطرق، فهو الصحيح - أَيْضًا -، لكن لا لذاته، وحيث لا جبران فهو الحسن لذاته، وإن قامت قرينة ترجح جانب قبول ما يتوقف فيه، فهو الحسن - أَيْضًا - لكن لا لذاته)[1]. اهـ.

فالتشبث بقسم واحد فقط؛ وهو الصحيح لذاته، الموجود في الصحيحين، بدعة مخالفة لما عليه أهل الحديث والأثر، ويترتب عليها إهدار قسم عظيم من الأخبار المقبولة عند أهل العلم.

الرَّابِعُ: تنصيص أهل الحديث على أن الشيخين لم يستوعبا الصحيح: قال الحاكم أبو عبدالله - رحمه الله - تعالى - في «المستدرك»:

(ثم قيَّض الله لكل عصر جماعة من علماء الدين، وأئمة المسلمين، يزكُّون رواة الأخبار، ونقلة الآثار؛ ليذبوا به الكذب عن وحي الملك الجبار؛ فمن هؤلاء الأئمة:

أبو عبدالله محمد بن إسماعيل الجعفي، وأبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري - رضي الله عنهما -، صَنَّفا في صحيح الأخبار كتابين، مهذبين، انتشر ذكرهما في الأقطار، ولم يحكما، ولا واحد منهما، أنه لم يصح من الحديث غير ما أخرجه.

وقد نبغ في عصرنا هذا جماعة من المبتدعة، يشمتون برواة الآثار، بأن جميع ما

(١) «نخبة الفكر»، ص (٢٩).

يصح عندكم من الحديث لا يبلغ عشرة آلاف حديث، وهذه الأسانيد المجموعة المشتملة على ألف جزء، أو أقل، أو أكثر منه - كلها سقيمة غير صحيحة.

وقد سألني جماعة من أعيان أهل العلم بهذه المدينة وغيرها، أن أجمع كتابًا يشتمل على الأحاديث المروية بأسانيد يحتج محمد بن إسماعيل، ومسلم بن الحجاج بمثلها...)(١). اهـ.

وقال الحاكم - أَيْضًا - في «المدخل»، كما نقله ابن الأثير - رحمه الله -، بعد ذكره لأقسام الصحيح المتفق عليه، والمختلف فيه: هذه وجوه الصحيح المتفقة والمختلفة، قد ذكرناها لئلا يتوهم متوهم أنه لم يصح من الحديث إِلَّا ما أخرجه البخاري ومسلم(٢).

فإذا نظرنا فوجدنا البخاري قد صنف كتابًا في التاريخ، جمع أسامي من رُوِيَ عنهم الحديث، من زمان الصحابة إلى زمن خمسين، فبلغ عددهم قريبًا من أربعين ألف رجل وامرأة، خرَّج في «صحيحه» عن جماعة منهم، وخرَّج مسلم في «صحيحه» عن جماعة.

قال الحاكم: جمعت أنا أساميَهم، وما اختلفا فيه، فاحتج به أحدهما، ولم يحتج به الآخر، فلم يبلغوا ألفي رجل وامرأة(٣).

قال: (ثم جمعت مَنْ ظهر جرحُه من جملة الأربعين ألفًا، فبلغ مئتين وستة وعشرين رجلًا(٤)، فليعلم طالب هذا العلم أن أكثر رواة الأخبار ثقات، وأن الدرجة العليا للذين

---

(١) «المستدرك»، (١/٢-٣).

(٢) «جامع الأصول»، (١/١٧٢-١٧٤)؛ وانظره ص (١٦٧).

(٣) لكن الذي أثبته الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي في «الجمع بين رجال الصحيحين» أن عدد رجال الصحيحين ألفان وأربع مئة وخمسًا (٢٤٠٥).

(٤) ولو تأملت الفرق الكبير بين ما جمعه البخاري في «تاريخه الكبير»؛ وبين ما ذكره من الضعفاء في كتابه «الضعفاء»؛ وبين ما أخرجا عنه في كتابيهما، سواء اتفقا على الإخراج عنه، أو انفرد به أحدهما، فإذا كان عدد ما جمعه البخاري - رحمه الله - في «تاريخه الكبير» نحوًا من أربعين ألفًا وزيادة، وكتابه الضعفاء دون سبع مئة نفس، وعند الحاكم مئتان وستة وعشرون، وما أخرجا عنه متفقين أو منفردين أقل من ألفين وخمس مئة، وما بقي فكلهم ثقات، دل هذا على أنهما لم يلتزما الإخراج عن كل ثقة=

في «صحيحي البخاري ومسلم»، وأن الباقين أكثرهم ثقات، وإنما سقطت أساميهم من «الصحيحين» للوجوه التي قدمنا ذكرها، لا لجرحٍ فيهم، وطعن في عدالتهم، وإنما فعلا ذلك في كتابيهما زيادة في الاحتياط، وطلبًا لأشرف المنازل، وأعلى الرتب، وباقي الأحاديث معمول بها عند الأئمة.

ألا ترى أن الإمام أبا عيسى الترمذي ـ رحمه الله ـ، وهو من المشهورين بالحديث والفقه، قال في آخر كتابه «الجامع»: (إن جميع ما في كتابنا من الحديث معمول به، وأخذ به بعض أهل العلم، ما خلا حديثين)[1]، فذكرهما، ولم تسلم له دعوى استثنائهما[2].

قال الحاكم ـ رحمه الله ـ: (فإذا كان كتاب الترمذي، على كثرة ما فيه من الأحاديث[3]، لم يسقط العمل بشيء منه إلَّا بحديثين، فكيف يظن أنه لا صحيح إلَّا ما في كتابي البخاري ومسلم)[4].

قال الحازمي: (البخاري لم يلتزم أن يخرج كل ما صح من الحديث، وكما أنه لم يُخرج عن كل من صح حديثه، ولم يُنْسَبْ إلى شيء من جهات الجرح، وهم خلق كثير، يبلغ عددهم نيفًا وثلاثين ألفًا؛ لأن تاريخه يشتمل على نحو من أربعين ألفًا وزيادة، وكتابه في «الضعفاء» دون سبع مئة نفس، ومن خرَّجهم في جامعه دون ألفين...).

وذكر قول البخاري: (كنت عند إسحق بن راهوية، فقال لنا بعض أصحابنا: «لو جمعتم كتابًا مختصرًا لسنن النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ»، فوقع ذلك في

= كما أنهما لم يلتزما إخراج كل حديث صحيح، وإنما كان قصدهما ـ رحمهما الله ـ تعالى ـ إخراج مختصر للحديث الصحيح.

(١) «سنن الترمذي»، (٧٣٦/٥).

(٢) انظر: «مكانة الصحيحين»، ص (١٨٢-١٨٣).

(٣) عدة أحاديثه، كما أحصاها العلامة أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ (٣٩٥٦).

(٤) «جامع الأصول»، (١٧٢/١-١٧٤).

قلبي، فأخذت في جمع هذا الكتاب)، قال الحازمي - رحمه الله -:

(فقد ظهر بهذا أن قصد البخاري كان وضع مختصر في الحديث، وأنه لم يقصد الاستيعاب، لا في الرجال، ولا في الحديث ...)[(١)].

ومما يزيد الأمر إيضاحًا أن نتأمل عنوان صحيح البخاري؛ فإنه - رحمه الله - سمَّاه: «الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - وسننه وأيامه»، وما يعنينا في هذا المقام قوله «المختصر»؛ فإنه إشارة منه تدل على أنه - رحمه الله - كان يضع مختصرًا، ولم يقصد الاستيعاب، ولم يلتزم إخراجَ كُلِّ ما صح من الحديث، ولا يعكر على هذا وصفُه بأنه «جامع»؛ فإن المراد به أنه يحتوي على أحاديث في الأبواب الثمانية المعروفة، إلى جانب أن العلماء الذين شرحوا أحاديث الصحيحين قاموا بشرحها في ضوء الجمع بين أحاديث المتن المشروح، وبين الروايات الصحيحة الأخرى، التي صحت في غيرهما من الكتب، كما فعل الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»، الذي هو «قاموس السنة» حقًّا، وكذلك الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم، وغيرهما من العلماء، والمصنفين في الشروح، فأين هذا من منهج «الاقتصار» القاصر الذي يستغني تمامًا عن أحاديث ما سوى الصحيحين؟

قال الإمام الحافظ زين الدين عبدالرحيم العراقي في ألفيته:

أَوَّلُ مَنْ صَنَّفَ فِي الصَّحِيحِ ... مُحَمَّدٌ وَخُصَّ بِالتَّرْجِيحِ
وَمُسْلِمٌ بَعْدُ وَبَعْضُ الْغَرْبِ مَعْ ... أَبِي عَلِيٍّ فَضَّلُوا ذَا لَوْ نَفَعْ
وَلَمْ يَعُمَّاهُ وَلَكِنْ قَلَّ مَا ... عِنْدَ ابْنِ الْأَخْرَمْ مِنْهُ قَدْ فَاتَهُمَا
وَرُدَّ لَكِنْ قَالَ يَحْيَى الْبَرُّ ... لَمْ يَفُتِ الْخَمْسَةَ إِلَّا النَّزْرُ[(٢)]

---

(١) «شروط الأئمة الخمسة»، ص (٤٧-٥١).

(٢) «فتح المغيث»، (١/٢٧).

قال العراقي في شرحه:

«وَلَمْ يَعُمَّاهُ»؛ أي لم يعم البخاري ومسلم الصحيح، يريد لم يستوعباه في كتابيهما، ولم يلتزما ذلك، وإلزام الدارقطني وغيره[١] إياهما بأحاديث ليس بلازم، قال الحاكم في خطبة «المستدرك»: «ولم يحكما، ولا واحد منهما، أنه لم يصح من الحديث غير ما خرجاه». اهـ. «وَلَكِنْ قَلَّ مَا * عِنْدَ ابْنِ الأَخْرَمْ»؛ أي من الصحيح «قَدْ فَاتَهُمَا»، يريد أن الحافظ أبا عبدالله محمد بن يعقوب الأخرم شيخ الحاكم ذكر كلامًا معناه: «قل ما يفوت البخاريَّ ومسلمًا مما ثبت من الحديث»[٢]، قال ابن الصلاح: «يعني في كتابيهما»، و«يحيى» هو الشيخ محيي الدين النووي قال في «التقريب والتيسير»[٣]:

«والصواب أنه لم يَفُت الأصولَ الخمسةَ إِلَّا اليسير[٤]؛ أعني الصحيحين وسنن أبي

(١) (هو أبو ذر الهروي، كما في «شرح صحيح مسلم»). اهـ. من «توضيح الأفكار»، للصنعاني (١/ ٥٠).

(٢) (قال الحافظ ابن حجر: والذي يظهر من كلامه ـ أعني ابن الأخرم ـ أنه غير مريد للكتابين، وإنما أراد مدْح الرجلين بكثرة الاطلاع والمعرفة، لكن لما كان غير لائق أن يُوصَفُ أحد من الأمة بأنه جمع الحديث جميعه حفظًا وإتقانًا، حَتَّى ذُكِرَ عن الشافعي أنه قال: «من قال إن السنة كلها اجتمعت عند رجل واحد؛ فسق، ومن قال إن شيئًا منها فات الأمة؛ فسق»، فحينئذ عبر عمَّا أراده من المدح بقوله: «قلما يفوتهما منه»؛ أي: قلَّ حديث يفوت البخاريَّ ومسلمًا معرفته، أو نقول: سَلَّمْنا أن المراد الكتابان، لكن المراد من قوله: مما ثبت من الحديث «الثبوت على شرطهما لا مطلقًا». اهـ. نقلًا عن «توضيح الأفكار»، للصنعاني (١/ ٤٥ـ٥٥).

(٣) ونص عبارة النووي: «ولم يستوعبا الصحيح، ولا التزماه، قيل: ولم يفتهما إِلَّا القليل، وأنكر هذا، والصواب أنه لم يفت الأصول الخمسة إِلَّا اليسير، أعني الصحيحين، وسنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، وجملة ما في البخاري سبعة آلاف ومئتان وخمسة وسبعون حديثًا بالمكررة، وبحذف المكررة أربعة آلاف، ومسلم بإسقاط المكرر نحْو أربعة آلاف، ثم إن الزيادة في الصحيح تُعرف من السنن المعتمدة؛ كسنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن خزيمة، والدارقطني، والحاكم، والبيهقي، وغيرها، منصوصًا على صحته، ولا يكفي وجوده فيها إِلَّا في كتابِ مَنْ شرط الاقتصار على الصحيح، واعتنى الحاكم بضبط الزائد عليهما، وهو متساهل؛ فما صحَّحه، ولم نجد فيه لغيره تصحيحًا ولا تضعيفًا، حكمنا بأنه حسن، إِلَّا أن يظهر فيه علة توجب ضعفه». اهـ، «تدريب الراوي»، (١/ ٩٨).

(٤) (قال الحافظ ابن حجر: «مراده ـ أي النووي ـ من أحاديث الأحكام خاصة، أما غير الأحكام فليس بقليل»). اهـ. من «توضيح الأفكار»، (١/ ٥٥).

داود، والترمذي، والنسائي». اهـ.

وقال النووي ـ رحمه الله ـ في مقدمة «شرح صحيح مسلم» بعد أن ذكر إلزام جماعة لهما إخراج أحاديث على شرطيهما، ولم يخرجاها في كتابيهما:

(وهذا الإلزام ليس بلازم في الحقيقة؛ فإنهما لم يلتزما استيعاب الصحيح، بل صح عنهما تصريحهما بأنهما لم يستوعباه، وإنما قصدا جمع جمل من الصحيح، كما يقصد المصنف في الفقه جمع جمل من مسائله، لا أنه يحصر جميع مسائله)[١]. اهـ.

قال السيوطي بعد أن حكى قول الحافظ أبي عبدالله بن الأخرم: (وَلَمْ يَفُتْهُمَا إِلَّا الْقَلِيلُ)[٢]، وأنكر هذا القول البخاري فيما نقله الحازمي والإسماعيلي: (وما تركت من الصحاح أكثر)، ونقل السيوطي في «التدريب» عن الحاكم ما يُفْهَمُ منه الجواب عن قول ابن الأخرم؛ قال: (وحينئذ يُعرف من هذا الجواب عن قول ابن الأخرم، فكأنه أراد: «لم يفتهما من أصح الصحيح الذي هو الدرجة الأولى، وبهذا الشرط، إِلَّا القليل»، والأمر كذلك)[٣]. اهـ.

وقال ابن الصلاح في مقدمته: (لم يستوعبا الصحيح في صحيحيهما، ولا التزما ذلك؛ «أي الاستيعاب»، فقد روينا عن البخاري، أنه قال: (ما أدخلت في كتاب «الجامع» إِلَّا ما صَحَّ، وتركت من الصحاح لملال[٤] الطول)، وروينا عن مسلم أنه قال: (إنما وضعت ههنا ما أجمعوا عليه)[٥]، وقال العراقي: [قلت: أراد ـ والله أعلم ـ

---

(١) «شرح النووي لصحيح مسلم»، (٢٤/١).

(٢) انظر: «فتح المغيث»، (٣٠/١-٣٣).

(٣) «تدريب الراوي»، (١٠١/١).

(٤) لعل معناه: مخافة الطول.

(٥) ورجح النووي أن المراد بقول مسلم: «ليس كل شيء عندي صحيح وضعته هنا، إنما وضعت هاهنا ما أجمعوا عليه»؛ أي: ما لم تختلف الثقات فيه في نفس الحديث متنًا، ولا إسنادًا، إِلَّا ما لم يختلف في توثيق رواته.

قال ابن الصلاح: (ودليل ذلك أنه سُئِلَ عن حديث أبي هريرة «فَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا»: هل هو صحيح؟ =

أنه لم يضع في كتابه إلَّا الأحاديث التي وجد عنده فيها شرائط الصحيح المُجْمَع عليه، وإن لم يظهر اجتماعها في بعضها عند بعضهم، ثم إن أبا عبدالله الأخرم الحافظ قال: (قَلَّ ما يفوت البخاري ومسلمًا مما يثبت من الحديث)؛ يعني في كتابيهما، ولقائل أن يقول: ليس ذلك بالقليل؛ فإن «المستدرك على الصحيحين»، للحاكم أبي عبدالله، كتاب كبير يشتمل مما فاتهما على شيء كثير، وإن يكن عليه في بعضه مقال، فإنه يصفو له منه صحيح كثير، وقد قال البخاري: (أحفظ مئة ألف حديث صحيح، ومئتي ألف حديث غير صحيح)، وجملة ما في كتابه الصحيح سبعة آلاف ومئتان وخمسة وسبعون حديثًا، بالأحاديث المكررة، وقد قيل: إنها بإسقاط المكررة أربعة آلاف حديث، إلَّا أن هذه العبارة قد يندرج تحتها عندهم آثار الصحابة والتابعين، وربما عُدَّ الحديث الواحد المروي بإسنادين حديثين][1]. اهـ.

وقال الصنعاني في «توضيح الأفكار»:

تنبيه **إن قيل: ما وجه التعرض لكون الشيخين لم يستوعبا الصحيح في كتابيهما، ومن ادعى ذلك حتَّى يُفْتَقَر إلى نفيه؟**

[**قلت**: ادَّعاه الدارقطني عليهما، وغيره، كما عرفت، وكأنه فَهِم هو ومن تابعه من التسمية بالصحيح أنه جميع ما صحَّ، وما عداه حَسَن أو ضعيف، فيفيد أنهما قد حصرا الصحيح، وهو من باب مفهوم اللقب بعد التسمية به، وإن كان قبلها من باب مفهوم الصفة، وفهم ذلك الحافظ أبو زرعة؛ فإنه ذكر النووي عنه أنه قال: (طَرَّقَ -

= فقال: «عندي هو صحيح»، فقيل: لِمَ لَمْ تضعْه هنا؟ فأجاب بذلك). اهـ. وانظر: «علوم الحديث»، ص (١٥-١٦).

وقال البقاعي: قال البلقيني: وقيل أراد مسلم بقوله «ما أجمعوا عليه»: (ما أجمع عليه أربعة من أئمة أهل الحديث؛ وهم: أحمد بن حنبل، ويحيى بن يحيى، وعثمان بن أبي شيبة، وسعيد بن منصور الخراساني). اهـ، ولم يُرِدْ إجماع جميع الأمة، كما هو المتبادر للفَهم، لكن لم يتبين برهان هذا القول). اهـ، من هامش «توضيح الأفكار»، للصنعاني (١/٥٠-٥١).

(١) «التقييد والإيضاح»، ص (٢٢).

يريد مسلمًا ـ لأهل البدع علينا، فيجدون السبيل بأن يقولوا إذا احْتُجَّ عليهم بحديث: ليس هذا في الصحيح)، قال سعيد بن عمرو راوي ذلك عن أبي زُرعة: (فلما رجعت إلى نيسابور ذكرت لمسلم إنكار أبي زرعة، فقال مسلم: إنما قلت: «هو صحيح»، قال سعيد: وقَدِمَ مسلم بعد ذلك الرَّيَّ، فبلغني أنه خرج إلى أبي عبدالله محمد بن مسلم بن واره، فجاءه وعاتبه على هذا الكتاب، وقال له نحوًا مما قال أبو زرعة: «إن هذا يُطَرِّقُ لأهل البدع»، فاعتذر مسلم فقال: إنما قلت: «هو صحيح، ولم أقل: إن ما لم أخرجه من الحديث فهو ضعيف»)، ذكر هذا النووي في شرح مقدمة مسلم مفرقًا.

قلت: قد اتفق ما حدسه أبو زرعة من ذلك التطريق؛ فإنه ذكر الحاكم أبو عبدالله في خطبة المستدرك ما لفظِه: إنه صنف الشيخان في صحيح الأخبار كتابين مهذبين، انتشر ذكرهما في الأقطار، ولم يحكما ولا واحد منهما، أنه لم يصح من الحديث غير ما أخرجه، وقد نبغ في عصرنا هذا جماعة من المبتدعة يشمتون برواة الآثار (بأن جميع ما صحَّ عندهم من الحديث لا يبلغ عشرة آلاف حديث، وهذه المسانيد المجموعة المشتملة على ألف جزء، أو أكثر كلها سقيمة، أو غير صحيحة). اهـ.

فهذا هو الذي حدسه أبو زرعة وغيرُه قد وقع، وفي قوله: «عشرة آلاف» إشعار بعدة أحاديث الصحيحين، فكأن هذا هو من الحوامل لأهل الحديث على التعرض لذكر أن الشيخين لم يستوعبا الصحيح في كتابيهما، أما البخاري فقولُه: «أحفظ مئة ألف حديث صحيح»، وكون الذي أخرجه في كتابه لا يبلغ عُشر ما ذكره، صريح في أنه لم يستوعب الصحيح.

إن قلتَ: إن قول الحاكم في مواضع من المستدرك في الحديث: «على شرطهما، ولم يخرجاه»، يُشعر بخلاف ما نقله عنه في الخطبة، وإلا فلا فائدة لقوله: «ولم يخرجاه».

قلت: لعله لم يَسُق قوله: «ولم يخرجاه» مساق الاعتراض عليهما، بأنهما لم

يخرجاه، بل ذكر ذلك إخبارًا بأنهما لم يخرجا كل ما كان على شرطهما، فهو كالاستدلال لما قاله في خطبته من أنهما لم يستوعبا الصحيح، ولا التزما ذلك][1]. اهـ.

فهذه أقوال أئمة الشأن بما فيهم الشيخان، وكانا أولى الناس بتبني هذه القاعدة إن كانت صحيحة، تدحض هذه القاعدة المفتراة، ولم يقل أحد قط في حد الصحيح: «إنه ما أخرجه البخاري أو مسلم»، ولا هذا شرط في التصحيح.

* * *

(١) «توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار»، للصنعاني، (١/٥١-٥٢).

الشُّبْهَةُ الرَّابِعَةُ

● وهي احتجاجهم على تكذيب الأحاديث الصحيحة الواردة في شأن المهدي بحديث أخرجه ابن ماجه والحاكم عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «لَا يَزْدَادُ الْأَمْرُ إِلَّا شِدَّةً، وَلَا الدُّنْيَا إِلَّا إِدْبَارًا، وَلَا النَّاسُ إِلَّا شُحًّا، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ، وَلَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ»[١].

والجواب:

أن هذا الحديث تفرد به ابن ماجه دون سائر الستة، ورواه الحاكم عن أنس[٢]، وقال عقب روايته له: (إنما ذكرت هذا الحديث تعجبًا، لا محتجًّا به في المستدرك على الشيخين - رضي الله عنهما -)، وقال الذهبي في الميزان[٣]: (منكر)، وضعَّفه البيهقي[٤]، وقال الصغاني: (موضوع)[٥]، وممن ضعَّفه - أَيْضًا - الآبُرِّيُّ، والقرطبي، وابن تيمية[٦]، وابن القيم، وغيرهم.

ولا يُتكلَّفُ الجوابُ عن الحديث حَتَّى يكون صحيحًا، والباطل يكفي في رَدِّهِ كونه باطلًا، والله أعلم.

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية - رحمه الله - تعالى -:

[فأما حديث: «لَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ»، فرواه ابن ماجه في سننه عن يونس

---

(١) «سنن ابن ماجه»، (٤٩٥/٢).

(٢) «المستدرك»، (٤٤١/٤)؛ وكذا رواه أبو نُعَيْم في «الحلية»، (١٦١/٩)؛ والخطيب في «تاريخ بغداد»، (٢٢٠/٤).

(٣) «ميزان الاعتدال»، (٥٣٥/٣).

(٤) انظر: «تهذيب الكمال»، (٥٩٧/٦)؛ و«ميزان الاعتدال»، (٥٣٦/٣).

(٥) نقله عنه الشوكاني في «الفوائد المجموعة»، (١٢٧)، ص (٥١٠، ٥١١).

(٦) «منهاج السنة»، (٢١١/٤).

ابن عبدالأعلى، عن الشافعي، عن محمد بن خالد الجَنَدِيِّ، عن أبان بن صالح، عن الحسن، عن أنس بن مالك، عن النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وهو مما تفرد به محمد بن خالد، قال أبو الحسين محمد بن الحسين الآبري في كتاب «مناقب الشافعي»: «محمد بن خالد هذا غير معروف عند أهل الصناعة من أهل العلم والنقل، وقد تواترت الأخبار، واستفاضت عن رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ بذكر المهدي، وأنه من أهل بيته، وأنه يملك سبع سنين، وأنه يملأ الأرض عدلًا، وأن عيسى يخرج، فيساعده على قتل الدجال، وأنه يؤم هذه الأمة، ويصلي عيسى خلفه[(١)].

وقال البيهقي: تفرد به محمد بن خالد هذا، وقد قال الحاكم أبو عبدالله: هو مجهول، وقد اختلف عليه في إسناده، فروي عنه عن أبان بن أبي عياش، عن الحسن مرسلًا، عن النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، قال: فرجع الحديث إلى رواية محمد بن خالد، وهو مجهول، عن أبان بن أبي عياش، وهو متروك، عن الحسن، عن النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وهو منقطع، والأحاديث على خروج المهدي أصح[(٢)] إسنادًا][(٣)]. اهـ.

وقال الألباني في الحديث: «منكر»[(٤)]، ومما يدلنا على نكارته معارضته لأحاديث صحيحة تثبت صفة المهدية لغيره ـ عليه السلام ـ:

فمنها: ما رواه العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ أنه قال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»[(٥)].

---

(١) انظر: «تهذيب الكمال»، (٦/٥٩٧)؛ و«تهذيب التهذيب»، (٩/١٤٤).
(٢) انظر: «ميزان الاعتدال»، (٣/٥٣٦)؛ و«تهذيب الكمال»، (٦/٥٩٧).
(٣) «المنار المنيف»، ص (٨٣-٨٤)، تحقيق محمود مهدي استانبولي..
(٤) «السلسلة الضعيفة» (١/٨٩).
(٥) تقدم تخريجه ص (٢٦).

والمهدي الذي قد هداه الله إلى الحق، قال ابن الأثير: (ويريد بالخلفاء المهديين أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعليًّا ـ رضي الله عنهم ـ، وإن كان عامًّا في كل من سار سيرتهم»[١]. اهـ.

وقال التويجري: (أجمع العلماء قاطبة على أنه ـ أي عمر بن عبدالعزيز ـ من أئمة العدل، وأحد الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين)[٢]. اهـ.

ودعا رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ فقال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ»[٣]... الحديث.

وأفضل مهدي بعد نبينا ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ نبي الله عيسى ـ عليه السلام ـ، وأفضل المهديين بعده الخلفاء الراشدون الأربعة.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (عيسى أعظم مهدي بين يدي رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ وبين الساعة، وقد دلت السنة الصحيحة عن النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ على نزوله على المنارة البيضاء شرقي دمشق، وحكمه بكتاب الله، وقتله اليهود والنصارى، ووضعه الجزية، وإهلاك أهل الملل في زمانه، فيصح أن يقال: لا مهدي في الحقيقة سواه، وإن كان غيره مهديًّا، كما يقال: «لا علم إلَّا ما نفع»، و«لا مال إلَّا ما وقى وجه صاحبه»، وكما يصح أن يقال:

«إِنَّمَا الْمَهْدِيُّ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ»؛ يعني المهدي الكامل المعصوم[٤]. اهـ.

وقال القرطبي في «التذكرة»: (إسناده ضعيف، والأحاديث عن النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ في التنصيص على خروج المهدي من عترته من ولد فاطمة ثابتة، أصح من هذا الحديث، فاحكم بها دونه، إلى أن قال: (ويحتمل أن يكون قوله ـ عليه

---

(١) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٥/٢٥٤)، وراجع ص(٢٦،٢٧)، (٣٧٠،٣٧١).
(٢) «الاحتجاج بالأثر» ص(٢٣١).
(٣) تقدم ص(٢٧)
(٤) «المنار المنيف»، ص (١٤٨)، تحقيق أبي غدة، ط. أولى، ١٣٩٠هـ.

السلام ـ: «وَلَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى»؛ أي: لا مهديَّ كاملًا معصومًا إِلَّا عيسى، قال: وعلى هذا تجتمع الأحاديث، ويرتفع التعارض[1]، قال ابن كثير: (هذا الحديث ـ فيما يظهر ببادئ الرأي ـ مخالف للأحاديث الواردة في إثبات مهديٍّ غير عيسى ابن مريم، وعند التأمل لا ينافيها، بل يكون المراد من ذلك أن المهدي ـ حقَّ المهديِّ ـ هو عيسى، ولا ينفي ذلك أن يكون غيْره مهديًّا ـ أَيْضًا»)[2]. اهـ.

هذا من جهة الأثر، أما من جهة النظر، فيُقال: إن المهدي لم يَأْتِ ذكرهُ إِلَّا من جهة المعصوم ﷺ، فيكف يخبر عن أمرٍ أنه سيقع، وهو الصادق الذي لا ينطق عن الهوى، ثم ينفيه؟ والأخبار لا يُتصور وقوعُها على خلاف ما أخبر به الصادق المصدوق ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، ونفي المهدي يلزم منه وقوعُ الخبر على خلاف ما أخبر به أوَّلًا من وجوده، واللازم باطل، وهذا ما قرَّروا به أن النسخ لا يدخل الأخبار، التي هي من هذا القبيل، وهذا متفق عليه بين أهل الأصول؛ قال الزركشي في «البحر»: (إن كان مدلول الخبر مما لا يمكن تغيره، بألا يقع إِلَّا على واحدٍ؛ كصفات الله ـ تعالى ـ، وخبر ما كان من الأنبياء والأمم، وما يكون من الساعة وآياتها؛ كخروج الدجَّال، فلا يجوز نسخُه بالاتفاق، كما قال أبو إسحق المروزي، وابن برهان في «الأوسط»؛ لأنه يفضي إلى الكذب)[3]. اهـ.

* * *

(١) «التذكرة»، (٢/٧٢٢-٧٢٣)؛ وانظر: «فيض القدير»، (٥/٣٣٢)؛ و«عارضة الأحوذي»، (٩/٧٩)، و«سنن ابن ماجه بحاشية السندي» (٢/٤٩٥).

(٢) «نهاية البداية والنهاية»، (١/٤٥)؛ وقد مال ابن كثير إلى تصحيح هذا الحديث؛ بناءً على ما رُوِيَ عن ابن معين من توثيق الجندي، ومن ثم اضطر إلى التأويل المذكور.

(٣) «البحر المحيط»، (٤/٩٨).

الشُّبْهَةُ الْخَامِسَةُ

● وهي قولهم: (إن من العلماء من ضعَّف أحاديث المهدي جميعَها؛ وهو ابن خلدون).

والجواب بمعونة الملك الوهَّاب:

أن هذا الإطلاق غير صحيح؛ لأن الذي يظهر من كلام ابن خلدون ـ رحمه الله ـ في مقدمة تاريخه، أنه كان مترددًا في المسألة، ولم يكن جازمًا بإنكار المهدي، ولا شك أن هذا التردد ـ فضلًا عن التكذيب الصريح ـ شذوذ عن الحق، ونكوب عن الجادة المطروقة.

كما أن ابن خلدون نفسه قد اعترف بسلامة بعض أحاديث المهدي من النقد؛ حيث قال بعد إيراد الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي: (وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إِلَّا القليل، والأقل منه)[١] . انتهى، وهذا القليل الذي يسلم من النقد لا ريب أنه يكفي للاحتجاج به، ويكون الكثير الذي لم يسلم عاضدًا له ومقويًا، على أنه قد سلم الشيء الكثير، علمًا بأنه قد فاته من أحاديث المهدي الشيء الكثير.

---

(١) «مقدمة تاريخ ابن خلدون»، (١/٥٧٤)؛ ولعل من أوسع المراجع التي تناولت هذه الأحاديث بالدراسة النقدية العلمية رسالة ماجستير بعنوان: «الأحاديث الواردة في شأن المهدي في ميزان الجرح والتعديل»، للأستاذ عبدالعليم بن عبدالعظيم البستوي، تزيد على ست مئة صفحة، أنفق في إعدادها عدة سنوات، وجمع فيها ما جاء في هذا الموضوع من الأحاديث والآثار، ودرس أسانيدها، وبيَّن ما قاله المحدِّثون عن أحوال رجالها، وما قاله أهل العلم في صحتها أو ضعفها، ونقل فيها الكثير من أقوال العلماء في تواترها، وفي ثبوتها، والاحتجاج بها، وناقش قضية المهدي من جميع جوانبها، وأشرف على هذه الرسالة الأستاذ الدكتور محمد أبو شهبة ـ رحمه الله ـ تعالى ـ، وهي موجودة بمكتبة الدراسات العليا بجامعة الملك عبدالعزيز، بمكة المكرمة ـ حرسها الله ـ، وقد طُبِعَتْ مؤخرًا في مجلدين، وانظر فصل «موقف غريب لابن خلدون» ص(٤٢٣).

ودعوى ضعف جميع الأحاديث الواردة في شأن المهدي، لم تنقل عن أحد من أئمة الشأن[(١)]، وصِدْق وصف الضعف على بعضها لا يلزم منه سحبُه على الصحيح، والحسن منها؛ فإن الكل لا يُحكم عليه بحكم البعض، وقد اعترف ابن خلدون نفسه بسلامة بعضها من النقد كما قدمنا.

وقد تصدى عدد من العلماء لابن خلدون، وصنَّفوا في الرد عليه.

وقال الشيخ محمد صديق حسن خان في معرض رده على ابن خلدون ـ رحمه الله ـ: (أقول: لا شك في أن المهدي يخرج في آخر الزمان من غير تعيين لشهر وعام؛ لما تواتر من الأخبار في الباب، واتفق عليه جمهور الأمة سلفًا عن خلف، إلَّا من لا يُعتد بخلافه، وليس القول بظهوره بناءً على أقوال الصوفية ومكاشفاتهم، أو أهل التنجيم، أو الرأي المجرد، بل إنما قال به أهل العلم لورود الأحاديث الجمة في ذلك، فقول ابن خلدون: «إن صح ظهور هذا المهدي .....» لا يخلو عن مسامحة، ونوع إنكار من خروجه، وتلك الأحاديث واردة عليه، وليست بدون من الأحاديث التي ثبتت بها الأحكام الكثيرة المعمول بها في الإسلام، وما ذكر من جرح الرواة وتعديلهم يجري في رجال الأسانيد الأخرى ـ أيْضًا بعينه ـ، أو بنحوه، فلا معنى للريب في أمر ذلك الفاطمي الموعود المنتظر المدلول عليه بالأدلة، بل إنكار ذلك جُرْأة عظيمة في مقابلة النصوص المستفيضة المشهورة البالغة إلى حد التواتر، وأما أنه لا تتم شوكة أحد إلَّا بالعصبية فنعم، ولكن الله ـ تعالى ـ قادر على خرق العادة، ويؤيد دينه كيف يشاء). اهـ، وقد قال ذلك في معرض رده على قول ابن خلدون: (فإن صح ظهور هذا المهدي، فلا وجه لظهور دعوته إلَّا بأن يكون منهم؛ يعني بقايا الفاطميين المتفرقين في الآفاق، ويؤلف الله بين قلوبهم في اتباعه حَتَّى تتم له شوكة وعصبية وافية بإظهار كلمته، وحمل الناس عليها، وأما على غير هذا الوجه؛ مثل أن يدعو فاطمي منهم إلى

---

(١) انظر: «التاج» (٥/٣٤١).

مثل هذا الأمر في أفق من الآفاق من غير عصبية، ولا شوكة، إِلَّا مجرد نسبه في أهل البيت، فلا يتم ذلك، ولا يمكن؛ لما أسلفناه من البراهين الصحيحة). اهـ.

ثم قال الشيخ صديق حسن خان ـ رحمه الله ـ: (وهذا الاحتمال ـ وإن كان مطابقًا لما في الخارج ـ فلا يصح لأن تُرَدَّ به الأحاديث النبوية، فهذه زلة صدرت من ابن خلدون ـ رحمه الله ـ تعالى ـ، وليست من التحقيق في صَدْرٍ ولا وِرْد، فلا تغتر به، واعتقِد ما جاء عن رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وفَوِّضْ حقائقه إليه ـ تعالى ـ تكن على بصيرة من أمر دينك)[١]. اهـ.

وقال في «عون المعبود»: (وقد بالغ الإمام المؤرخ عبدالرحمن بن خلدون في تاريخه في تضعيف أحاديث المهدي كلها، فلم يصب، بل أخطأ)[٢]. اهـ.

وقال الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: (وقد أفردت تأليفًا مستقلًّا في الأحاديث الواردة في سيدنا عيسى، وفي المهدي المنتظر، سمَّيْتُه: «الجواب المقنع المحرر في أخبار عيسى، والمهدي المنتظر»، ورددت فيه على ابن خلدون في تضعيفه لأحاديث المهدي في مقدمة تاريخه، فمن شاء استيفاء الكلام على ما ورد فيهما، فليراجعه)[٣]. اهـ.

وقد صحح العلامة أحمد محمد شاكر ـ رحمه الله ـ بعض الأحاديث الواردة في شأن المهدي في تحقيقه لمسند الإمام أحمد، إِلَّا أنه حمل على ابن خلدون حملة عنيفة، وقال: (أما ابن خلدون فقد قفا ما ليس له به علم، واقتحم قُحَمًا لم يكن من رجالها، وغلبه ما شغله من السياسة وأمور الدولة، وخدمة من كان يخدم من الملوك والأمراء، فأوهم أن شأن المهدي عقيدة شيعية، أو أوهمته نفسه ذلك). اهـ، بل إنه قدم بين يدي الفصل نصيحةً للقارئ، قال فيها: (هذا الفصل من مقدمة ابن خلدون مملوء بالأغلاط

---

(١) «الإذاعة»، ص (١٤٥-١٤٦)، وراجع ص(١٣٢) هامش (٤).

(٢) «عون المعبود»، (١١/٣٦٢).

(٣) «فتح المنعم»، (١/٣٣١).

الكثيرة في أسماء الرجال، ونقل العلل؛ فلا يعتمدن أحد عليها في النقل، وما أظن أن ابن خلدون كان بالمنزلة التي يغلط فيها هذه الأغلاط، ولكنها ـ فيما أرى ـ من تخليط الناسخين، وإهمال المصححين) [١]. اهـ.

وقال ـ أيْضًا ـ: (إن ابن خلدون لم يحسن قول المحدثين: «الجرح مقدم على التعديل» [٢]، ولو اطلع على أقوالهم، وفقهها ما قال شيئًا مما قال، وقد يكون قرأ، وعَرَفَ، ولكنه أراد تضعيف أحاديث المهدي، بما غلب عليه من الرأي السياسي في عصره). اهـ.

وقال الشيخ محمد المغربي: (ويقرب في شدة القبح من الطعن في الأحاديث الصحيحة الواردة في نزول سيدنا عيسى ـ الطعن في الأحاديث الكثيرة الشهيرة الواردة في خروج المهدي آخر الزمان بأنها باطلة، وأنه «خُرافة»؛ تقليدًا لابن خلدون، وابن خلدون لم يكن فقيهًا في مذهبه، فضلًا عن كونه مُحَدِّثًا، وفضلًا عن كونه مبرزًا في علم الحديث، فيه أهلية النقد والتمييز للأحاديث، ومن الغلط الفاحش الداخل على كثير من خواص الناس، فضلًا عن عوامهم، الحكم على الكل بحكم البعض؛ فابن خلدون حكم على جميع الأحاديث الواردة في خروج المهدي بأنها من خرافات الرافضة ودسائسهم، ولا شك عند كل من له إلمام بالعلم أن هذا طعن بمجرد الرأي، لا يمت إلى تحقيق علم الرواية بشيء، وهو فاسد من وجهين:

الأول: يلزم منه رد كل رأي، أو عقيدة أخذ بها طائفة من طوائف المسلمين مخالفة لنا في المذهب، ولو كان حقًّا، ولو جاء فيه حديث، أو أحاديث عن رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وهذا نظر سخيف، فليست سنته ـ عليه الصلاة والسلام ـ مقصورة على طائفة مخصوصة من أمته.

---

(١) «المسند»، (٥/٣٥٧٠-٣٥٧١).

(٢) انظر تحقيق هذه القاعدة في «نزهة النظر»، للحافظ ص (٢٦)، (٧٥)؛ و«الرفع والتكميل»، ص(٥٨)، و(٢٦)؛ و«قواعد التحديث»، للقاسمي، ص (١٧٠-١٧١).

الثاني: تهجمه بغير علم على جميع الأحاديث الواردة بأنها من الخرافات، فلو كان عنده إلمام بعلم الرواية، ووقار العلماء المتثبتين، وحكم على بعضها بطريق الظن بأن فيه ـ مثلًا ـ راويًا كذابًا أو ضعيفًا، أو إسناد هذا الحديث مقطوع، أو واهٍ، لكان قريبًا من القبول عند من يفهم العلم).

ثم قال بعد كلام: (لقد تحقق بهذا أن كل فن من فنون العلم يُرْجَع فيه إلى أهله المبرزين فيه، وأن المسلم اللبيب المحتاط لدينه لا ينبغي له التسرع إلى إنكار حديث واحد لرأي أي شخص إلَّا ببرهان واضح، فكيف بأحاديث؟ وإن المتمسك برأي ابن خلدون غريق متمسك بغريق)[1]. اهـ.

دَعُوا كُلَّ قَوْلٍ عِنْدَ قَوْلِ مُحَمَّدٍ فَمَا آمِنٌ فِي دِينِهِ كَمُخَاطِرِ

وقال الشيخ أبو الفضل الغماري: (قد تصدى لابن خلدون شقيقنا العلامة المحدث السيد أحمد في كتاب خاص سماه: «إبراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون»، نقض فيه كل ما أبداه ابن خلدون من المطاعن، وتتبع كلامه جملة جملة؛ بحيث لم يترك بعده لقائل مقالًا)[2]. اهـ.

وقال الشيخ محمد بن جعفر الكتاني ـ رحمه الله ـ بعد أن نقل الحكم بتواتر أحاديث المهدي عن جمع من الأئمة: «ولولا مخافة التطويل لأوردت هاهنا ما وقفتُ عليه من أحاديثه؛ لأني رأيت الكثير من الناس في هذا الوقت يتشككون في أمره، ويقولون: يا تُرى هل أحاديثه قطعية أم لا؟ وكثير منهم يقف مع كلام ابن خلدون، ويعتمده، مع أنه ليس من أهل هذا الميْدان، والحق الرجوع في كل فن لأربابه، والعلم عند الله ـ تبارك وتعالى)[3]. اهـ.

---

(١) «سيد البشر يتحدث عن المهدي المنتظر»، ص (٥٨-٥٩)، نقلًا عن: «اعتقاد أهل القرآن في نزول المسيح ابن مريم آخر الزمان»، للشيخ محمد العربي المغربي.

(٢) «المهدي المنتظر»، للغماري، ص (٧).

(٣) «نظم المتناثر في الحديث المتواتر»، ص (١٤٦).

وقال الشيخ حمود بن عبدالله التويجري ـ رحمه الله ـ:

(إن مُنْخُلَ ابن خلدون الذي نخل به أحاديث المهدي كان واسع الخروق جدًّا، ولم يكن مضبوطًا ومحكمًا، فلهذا نَخَلَ به كثيرًا من الصحاح، والحسان الواردة في المهدي، ولم يستثن منها من النقد إِلَّا القليل، أو الأقل منه)(١). اهـ.

وقال الشيخ عبدالمحسن العباد ـ حفظه الله ـ:

(لو حصل التردد في أمر المهدي من رجل له خبرة بالحديث لاعتُبر ذلك زللًا منه، فكيف إذا كان من الأخباريين الذين هم ليسوا من أهل الاختصاص)(٢). اهـ.

وقال ـ أَيْضًا ـ:

(إن ابن خلدون مؤرخ، وليس من رجال الحديث؛ فلا يُعْتَدُّ به في التصحيح والتضعيف، وإنما الاعتداد بذلك بمثل البيهقي، والعقيلي، والخطابي، والذهبي، وابن تيمية، وابن القيم، وغيرهم من أهل الرواية والدراية، الذين قالوا بصحة الكثير من أحاديث المهدي، فالذي يرجع في ذلك إلى ابن خلدون كالذي يقصد الساقية، ويترك البحور الزاخرة، وعمل ابن خلدون في نقد الأحاديث أشبه ما يكون بعمل المتطبب إذا خالف الأطباء الحذاق المهرة.

إن ابن خلدون ـ وإن كان في التاريخ عَلَمًا من الأعلام ـ، فهو في الحديث من الأتباع المستفتين، وليس من المتبوعين المفتين، والقاصر في فَنٍّ، كالعامِّيِّ فيه، وإن كان متمكنًا من غيره.

والواجب الرجوع في كل فنٍّ إلى أهله، ولا شك أن المرجع في الحديث لمعرفة صحيحه وسقيمه أوعِيَتُهُ ونُقَّادُهُ.

وإذا اقتصرنا على القرنين الثامن والتاسع، اللذين عاش ابن خلدون فترة منهما؛ إذ

(١) «الاحتجاج بالأثر»، ص (٢٠٢).
(٢) «عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر»، ص (٥٦) طبعة مكتبة السنة، ١٤١٦هـ.

كانت ولادته سنة ٧٣٢هـ، ووفاته سنة ٨٠٨هـ، نجد أن من أبرز العلماء المتمكنين في الحديث النبوي، ومعرفة صحيحه وسقيمه ممن أدركته الوفاة خلال هذين القرنين، الحفاظ الجهابذة النقاد: الذهبي، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، وابن حجر العسقلاني، وقد قالوا جميعًا بصحة خروج المهدي في آخر الزمان، استنادًا إلى ثبوت الأحاديث الصحيحة في ذلك عندهم)[١]. اهـ.

وقال مُحَدِّثُ الشام، وحسنة الأيام، العلامة محمد ناصر الدين الألباني - رحمه الله، وجعل جنة الفردوس مثواه -: (وقد أخطأ ابن خلدون خطأ واضحًا؛ حيث ضعف أحاديث المهدي جُلَّها، ولا غرابة في ذلك؛ فإن الحديث ليس من صناعته.

والحق أن الأحاديث الواردة في المهدي فيها الصحيح والحسن، وفيها الضعيف والموضوع، وتمييز ذلك ليس سهلًا إلَّا على المتضلع في علم السنة، ومصطلح الحديث، فلا تعبأ بكلام من يتكلم فيما لا علم له به)[٢]. اهـ.

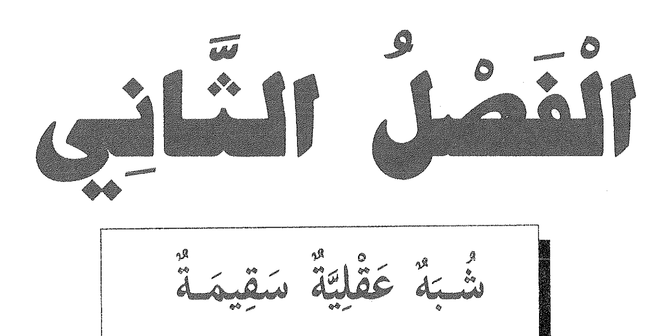
وأخيرًا نقول: عفا الله عن ابن خلدون وسامحه؛ لأن ما أتى به في هذا الباب لم يوافقه عليه أحد من جهابذة المحققين وأهل الحديث، لا قبله ولا بعده، وقد فتح - بهذا - البابَ لمحمد رشيد رضا، ومحمد فريد وجدي، وأحمد أمين، وعبدالله بن زيد بن محمود، وعبدالكريم الخطيب، وغيرهم ممن توكئوا على كلام ابن خلدون[٣]، وأوهموا الناس أن لهم سلفًا من العلماء في رد أحاديث المهدي، وأنهم لم يأتوا ببدع من القول، وقابلوا كل أحاديث المهدي بالرد والاطِّراح، دون تفريق بين الثابت منها وغير الثابت، فالله المستعان.

* * *

(١) «الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي»، ص (٢٩-٣١)، بتصرف.

(٢) «تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق»، للربعي، ص (٤٥).

(٣) ومن العجيب أن ابن خلدون صدَّق بمهدية الدجال السفاح الظالم الباغي ابن تومرت، بل دافع عنه بكلام هزيل متهافت، كما يأتي ص(٤٢٣) إن شاء الله تعالى.



الْفَصْلُ الثَّانِي

شُبَهٌ عَقْلِيَّةٌ سَقِيمَةٌ

الشُّبْهَةُ الأُولَى

- **وهي قولهم: (التصديق بخروج المهدي من القضايا النظرية في الدين التي لا يترتب عليها عمل، وما يفيدني في ديني إذا صدقت به؟ وماذا يضيرني إن كذبت به؟).**

والجواب بمعونة الملك الوهاب:

أَوَّلًا: إن هذه الأمور العلمية الخبرية، والتي تسمونها «الجانب النظري من الدين»، والتي أخبر بها الوحي يلزم تصديقها واعتقادها؛ لأنها أصل الدين، ولب الإسلام، وجوهر التوحيد؛ ولذا سميت الأوراق التي جمعها بعض أهل العلم في التوحيد «الفقه الأكبر»(١)؛ لأنه كذلك بالنسبة لفقه الفروع العملية.

وهذه الأمور هي في الحقيقة عملية تُناطُ بالقلب، وعمل القلب فيها التصديق، المنافي للتكذيب، واليقين الخالي من شائبة الشك والريب؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾... الآية [البقرة: ٢٢٥].

ثَانِيًا: إن الإيمان بهذه القضايا من مستلزمات الشهادة بأن محمدًا ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ رسول الله، والتي تقتضي: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهي عنه وزجر، وأن لا يعبدَ الله إلَّا بما شرع، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ

(١) وهذا الكتاب اشْتُهِرَتْ نسبته عند الحنفية إلى الإمام أبي حنيفة النعمان ـ رحمه الله ـ، وفي هذه النسبة نظر، وإن كان عدد غير قليل من مسائله يؤيدها ما تناثر في كتب الفقه والتراجم من نقول عن الإمام ـ رحمه الله ـ، وقد نسبه الذهبي ـ رحمه الله ـ إلى أبي مطيع الحكم بن عبدالله البلخي، وهو من كبار فقهاء أصحاب أبي حنيفة، فانظر: «العلو للعلي الغفار»، ص (١٠١)؛ وسبقه إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في «مجموع الفتاوى»، (٤٦/٥).

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»[١].

ثَالِثًا: إن التصديق بها من مستلزمات الإيمان باليوم الآخر؛ لأن أشراط الساعة التي منها خروج المهدي من مقدمات اليوم الآخر، وقد عَدَّ رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ التصديق بأمارات الساعة من أركان الدين، وذلك في حديث جبريل ـ عليه السلام ـ حين أتاه فسأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، وأمارات الساعة، وقال ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ في آخره: «إِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[٢].

رَابِعًا: (إن التصديق بخروج المهدي داخل في الإيمان بالقدر، فإن سبيل علم الخلق بما قدَّره الله أمران:

أحدهما: وقوع الشيء، فكل ما كان ووقع، علمنا أن الله قد شاءه؛ لأنه لا يكون ولا يقع إِلَّا ما شاءه الله، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

الثاني: الإخبار بالشيء الماضي الذي وقع، وبالشيء المستقبل قبل وقوعه، من الذي لا ينطق عن الهوى ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، فكل ما ثبت إخباره به من الأخبار في الماضي، علمنا بأنه كان على وَفْق خبره ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وكل ما ثبت إخباره عنه مما يقع في المستقبل، نعلم بأن الله قد شاءه، وأنه لا بد أن يقع على وَفْق خبره؛ كإخباره ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ بنزول عيسى ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ في آخر الزمان، وإخباره بخروج المهدي، وخروج الدجَّال، وغير ذلك من الأخبار)[٣].

خَامِسًا: إن الإيمان بأشراط الساعة من مقتضيات الإيمان بالغيب، وعليه فمن الإيمان

---

(١) تقدم تخريجه، ص(٢٤).

(٢) رواه مسلم في الإيمان: باب وصف جبريل ـ عليه السلام ـ للنبي ﷺ الإسلام والإيمان، (٨)؛ والترمذي فيه ـ أيْضًا ـ، (٢٨٣٧)؛ وأبو داود (٤٦٩٥)؛ والنسائي (٩٧/٨).

(٣) «الرد»، للشيخ عبدالمحسن العبَّاد، ص (٢٢٢).

بالغيب: الإيمان بما أخبر به النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ عن المهدي الذي يخرج في آخر الزمان، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾... الآية [الحشر: ٧].، وقد جعل الله ـ عز وجل ـ أمر التصديق بالأخبار الغيبية فتنة، ومحنة لعباده؛ ليَميز الخبيث من الطيِّب؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾[العنكبوت: ١-٣].

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ الآية [الإسراء: ٦٠].

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾... الآية [المدثر: ٣١].

قال ابن القيم: (... فهذا تصوير لحال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها: قلب يُفتتن به كفرًا وجحودًا، وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا، وقلب يتيقنه، فتقوم عليه به الحجة، وقلب يوجب له حيرة وعمًى؛ فلا يدري ما يراد به)[1]. اهـ.

وقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ﴾... الآية [العنكبوت: ٦٨]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وأيُّ فتنةٍ أعظم من أن يخبر الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ بخبر، فيقول من ينتسب إلى دينه: «ماذا يفيدني إن صدقت به، وماذا يضيرني إن كذبت؟»، على أنه يضيرك أن تكذِّب بخبر المعصوم ـ صَلَّى اللَّهُ

---

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»، (٢١/١).

عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - على الوجوه التي تقدمت، ويفيدك في خصال كثيرة؛ منها: زيادة إيمانك بمزيد التصديق، وارتفاع وصف الجهالة عنك، ومحبة أهل الحق وموالاتهم، والحمية من الشبهات التي قد تلم بك، كما ألمت بغيرك، فلم يملك لها دفعًا[١].

* * *

(١) انظر: «العالم والمتعلم»، المنسوب لأبي حنيفة النعمان، ص (٣٦-٣٧).

الشُّبْهَةُ الثَّانِيَةُ

● **وهي قولهم: (كيف يملأ المهدي الأرض عَدْلًا بعد أن ملئت جورًا في سبع سنين فقط، وهذا رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - مكث ثلاثًا وعشرين سنة، يجاهد ويدعو إلى الله، وما ملأ الأرض كلها عدلًا؟).**

والجواب بمعونة الملك الوهّاب

أَوَّلًا: إن الله - تعالى - قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، وقال - عز وجل -: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾[النجم: ٣-٤]، وكل ما ثبت عن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أنه أخبر به، فالواجب تصديقه، وأن لا يجد المسلم في نفسه حرجًا مما أخبر به رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، وأن لا يعارض خبره بكيف؟ ولِمَ؟ وهل؟ فإن هذا عنوان فساد العقيدة؛ قال - تعالى -: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[النساء: ٦٥].

ثانيًا: إن الله - تبارك، وتعالى - إذا أراد أمرًا هيَّأ أسبابه، ويسَّر الوصول إليه، وهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قد ملأ الأرض قسطًا وعدلًا في عشر سنين، وقد كانت قبل انتشار الإسلام في خلافته قد مُلِئَتْ ظلمًا وجورًا، وهذا عمر بن عبدالعزيز قد ملأ الأرض قسطًا وعدلًا في سنتين وخمسة أشهر، وأخبر النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - أن المهدي يملأ الأرض قسطًا وعدلًا في سبع سنين، وخبر الصادق المصدوق - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - واقع لا محالة، ولا يَستبعد وقوعه إلَّا من يشك في عموم قدرة الرب - تبارك وتعالى -، ونفوذ مشيئته، أو يشك في صدق النبي -

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ فيما أخبر به عما كان في الماضي، وعما يكون في المستقبل.

ثَالِثًا: إن المهدي سيهيئه الله ويُعِدُّه لتجديد الدين بأن يصلحه في ليلة، ثم يؤيده الله ـ تعالى ـ بكرامة خارقة للعادة، وهي أن يُخْسَفَ بالجيش الذي يقصده حينما يعوذ بالبيت الحرام[١]، فلعل هذا أحد أسباب التمكين له في الأرض، وليجزم الناس بعدئذ بأنه المهدي الذي أخبر عنه رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ حَقًّا وصِدقًا.

رَابِعًا: ومن المعلوم أن ثمار دعوة الأنبياء وآثارها في العالمين أحد أعلام نبوتهم، وكل ما وقع في هذه الأرض من آثار نبوة رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ من العدل، والرحمة، والخير، إنما هو من أعلام نبوته ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وكل ما يأتي الناسَ من خير بسبب بركة الإسلام إنما المتسبب الأول فيه من البشر هو رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، حَتَّى لو وقع ذلك من خلفائه وأتباعه من بعده ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، فما وقع من الخلفاء الراشدين، وما سيقع بإذن الله من المهدي، إنما هو أثر من آثار نبوة رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وثمرة من ثمرات بعثته المباركة، وقبس من مشكاة نبوته ﷺ[٢].

بل ما من مسلم على وجه الأرض، منذ بُعِث رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ إلى أن يأتي أمر الله، يؤمن بالله، ويعمل عملاً صالحًا؛ إلَّا ولرسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ مثلُ أجره؛ لأنه الذي سنَّ لنا الخير، وحذرنا من الشر، قال ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «الدَّالُّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ»[٣].

---

(١) هذا على القول بأنه المقصود بالحديث، كما تقدم ص (٤٥-٤٩).

(٢) بجانب أن مجرد وقوع خبره ﷺ تمامًا كما أخبر من أعلام نبوته ﷺ، كما سبق التنبيه على ذلك في المقدمة، ص(٦)، وانظر: «الموافقات» للشاطبي(٢/٤٣٨) وما بعدها.

(٣) رواه من حديث أبي مسعود رضي الله عنه الإمام أحمد (٥/٢٧٤)؛ وابن حبان في «صحيحه»، (٨٦٧، ٨٦٨)؛ وغيرهما، وانظر: «السلسلة الصحيحة»، (١٦٦٠).

وهل يقيس عاقلٌ جهادَ رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ الذي بُعث، وقد مقت الله أهل الأرض كلَّهم، عربَهم وعجمَهم، إلَّا بقايا من أهل الكتاب، والذي أُوذِيَ في الله، ولم يُؤْذَ أَحَدٌ، والذي أنقذ الله ببعثته البشرية، ورحم به العالمين، هل يقيس عاقل هذا وأضعافه بالمهدي الذي ما هو إلَّا «مجدد»، وحاكم عادل، وخليفة صالح، والذي يفتقر في إثبات مهديته إلى خبر الصادق المصدوق ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، والذي يفتقر في نشر العدل، والهداية، والرخاء، إلى شريعة رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، ولولا هداية رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ بعد هداية الله ـ تعالى ـ لما كان له، ولا لأحد من أمته، حظ من هداية، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وبهذا يتضح الجواب عن قول من غلظ حجابه، فتوهَّم أن في التصديق بأن المهدي سيملأ الأرض عدلًا في سبع سنين، تفضيلًا له على رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، فرد الحديث لذلك:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا   وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

فالمهدي يوافق اسمُه اسمَه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، ويوافق رسمُه رسْمَهُ؛ لأنه محمد المهدي، وبِهَدْيِ رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ يَهْدِي.

* * *

الشُّبْهَةُ الثَّالِثَةُ

● **لما ضَيَّق علماء الحديث الخناق على منكري أحاديث المهدي، وأثبتوا صحتها، بل تواترها، ذهب بعض من كَبُرَ عليهم أن يصدقوا بها على حقيقتها مذهبًا عجيبًا متهافتًا؛ إذ عجزوا عن ردها من حيث السند، فراحوا يتخبطون في تأويلها، ويتمحكون في صرفها عن ظاهرها، فقالوا: (نعم، صحت الأحاديث في إثبات حقيقة المهدي، ولكننا نؤولها بأن المهدي: رمز للخير، والهدي، والصلاح)[١].**

والجواب

أن القائلين بهذا التأويل الفاسد هم في الحقيقة مُكَذِّبُونَ لا مُثْبِتُونَ، فمثل هذه الصورة من التأويل الفاسد توأم التكذيب، وردِّ الحديث.

ناهيك عن الأضرار، والفتن، والمفاسد، التي قد تنشأ عن مثل هذا التأويل؛ حيث يكثر مُدَّعُو المهدية؛ ممن يرى في نفسه الخير، والهدى، والصلاح، أو يرى الناس فيه ذلك.

وإذا كانت أحاديث المهدي الحقيقي قد استُغلت أسوأ الاستغلال من مدعي المهدية، مع أن محورها شخص معين، له صفات محصورة، فماذا نتوقع أن يحصل إذا عممنا صفة المهدي بأنه كل خَيِّرٍ، ومهتدٍ، ومصلح؟

---

(١) كما فعل المدعو محمد فهيم أبو عبية حين اعتدى على كتاب «نهاية البداية والنهاية»، للحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ، وتجاسر على تأويل الأحاديث الصحيحة ـ بل المتواترة ـ تأويلًا سخيفًا باردًا، كل ذلك تحت ستار «تحقيق» الكتاب، وما هو إلَّا مسخ للنصوص، وتشويه للحقيقة، وإضاعة للأمانة، فانظره (١/٥، ٣٧، ١٥٢، ١٥٨) وغيرها من مواضع التحريف والتأويل الفاسد.

• التَّأْوِيلُ عَدُوُّ الرِّسَالَاتِ

فإن التأويل هو سبب البلاء الذي حل بالأمة الإسلامية على مَرِّ العصور، وطاغوت التأويل هو الذي فَرَّقَ الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، وبإخراج النصوص عن ظاهرها ـ بدون مُسَوِّغ ـ، وبتأويل كل فرقة للنصوص، حَتَّى تشهد لها على مُدَّعاها، انقسمت الأمة، وتشعبت بها الأهواء، ولم تُرَقْ دماء المسلمين في الفتن، ولم تُسْتَحَلَّ أموالهم، وأعراضهم، وحرماتهم، إِلَّا بالتأويل؛ فالتأويل وراء كل فسوق، ومروق، وكفر، وضلال، وزندقة، وإلحاد، فاستعرِضْ أحوال الدعاة؛ من متألهين، ومتنبئين، ومتمهِّدين، ثم انظر أرباب الفرق؛ من معتزلة، ومرجئة، وقرامطة، وباطنية، وبهائية، وقاديانية، وغيرهم، تجد الباب الذي دخلوا منه جميعًا هو التأويل، وإن اختلفت أهواؤهم، ونزعاتهم، وميولهم.

ولذا كان أهل السنة موفَّقين كل التوفيق، حين ضيَّقوا دائرة التأويل، وجعلوه مقصورًا على حد الضَّرورة، لا يتعدَّاها؛ لأنه بمثابة الرخصة، وقرروا أن كل ما جوزه العقل، وورد بوقوعه السمع، وجب حمله على ظاهره، كما نص عليه ابن المنير، ولولا هذه القاعدة، لما صح الإيمان بالمعجزات، ولا بشيء من السمعيات.

وإنما يُصار إلى التأويل عند تعذر الجمع بين النصوص المتعارضة، أو لوجود قرينةٍ تصحب الكلام، تدل على أن قائله لا يريد ظاهره، أو لغير ذلك من موجبات التأويل، والتأويل الصحيح: هو الذي يوافق ما جاءت به السنة، والفاسد: المخالف له، فكل تأويل لم يدلَّ عليه دليل من السياق، ولا معه قرينة تقتضيه، فإن هذا لا يقصده المُبَيِّنُ الهادي بكلامه؛ إذ لو قصده لحفَّ بالكلام قرائن تدل على المعنى المخالف لظاهره، حَتَّى لا يوقع السامع في اللبس والخطإ، فإن الله ـ سبحانه ـ أنزل كلامه بيانًا وهدى، فإذا أراد به خلاف ظاهره، ولم يحف به قرائن تدل على المعنى الذي يتبادر غيره إلى فَهْم كل أحد، لم يكن بيانًا ولا هدًى[1].

---

(١) انظر: «إعلام الموقعين»، (٣١٦/٤-٣١٩).

● التَّأْوِيلُ إِخْبَارٌ بِمُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ لَا إِنْشَاءٌ(١)

وفي هذا الموضع يغلط كثير من الناس؛ فإن المقصود فَهْمُ مراد المتكلم بكلامه، فإذا قيل: (معنى اللفظ كذا وكذا)، كان إخبارًا بالذي عَنى المتكلم، فإن لم يكن الخبر مطابقًا، كان كذبًا على المتكلم.

ويُعْرَفُ مرادُ المتكلم بطرقٍ متعددة؛ منها: أن يصرح بإرادة ذلك المعنى، ومنها أن يستعمل اللفظ الذي له معنى ظاهر بالوضع، ولا يبين بقرينة تصحب الكلام أنه لم يُرِدْ ذلك المعنى.

فكيف إذا حف المتكلم الذي أوتي جوامع الكلم - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - بكلامه ما يدل على أنه إنما أراد حقيقته، وما وُضِع له: من ذكره اسم المهدي، واسم أبيه، واسم قبيلته، ومدة خلافته، وملامح خِلقته... إلى آخر ما ذكر مما يقطع السامع له بمراد المتكلم، وأنه يقصد شخصًا مميَّزًا عن غيره، لا مطلق المهدي؟!!

وقد يريد المتكلم بكلامه خلافَ ظاهره، إذا قصد التعمية على السامع؛ حيث يسوغ ذلك (كما في رخصة التعريض)، ولكن المنكَر أن يريد بكلامه خلاف حقيقته إذا قصد البيان، والإيضاح، وإفهامَ مراده، كيف والمتكلم يؤكد كلامه بما ينفي المجاز، ويكرره غير مرة، ويضرب له الأمثال؟!

وأي تلاعب بالنصوص مثل هذا التلاعب؟ وأي إقدام على الكلام فيها بمجرد التشهي مثل هذا الإقدام؟!

والحاصل أن هذه الدعوى الخاسرة مردودة ولا كرامة، وأن المهدي جِسم لا عَرَض، والله أعلم.

* * *

(١) انظر: «الصواعق المرسلة على الجهمية، والمعطلة»، (١/٢٠٢)، وما بعدها.

الشُّبْهَةُ الرَّابِعَةُ

● وهي قولهم: (الاعتقاد في خروج المهدي خرافة، تسربت إلى أهل السنة من طريق المؤانسة، والمجالسة، والاختلاط بالشيعة، دون أن يكون لها أصل في عقيدتهم).

والجواب بمعونة الملك الوهَّاب:

أَوَّلًا: قد تقدم بيان صفة المهدي وأحواله في اعتقاد أهل السنة، يبقى أن نتعرف على اعتقاد الشيعة في مهديهم المزعوم:

فهو في اعتقادهم آخر الأئمة الاثني عشر المنصوص عليهم، وهم يعتقدون أن الإمامة منصب إلهي واجب على الله ـ معاذ الله ـ، لا على العباد، وأنها ركن من أركان الإيمان، لا يصح إيمان عبد حَتَّى يعتقد فيه على النحو الذي يقولون به، فهي تمام إيمانهم، وبناء إسلامهم، وركن أحكامهم.

ويغلون في أئمتهم غلوًّا شديدًا، فيعتقدون أنهم معصومون عن الخطإ، والسهو، والنسيان، منذ ولادتهم حَتَّىٰ موتهم، بل إنهم يولدون متعلمين لا يحتاجون إلى تعليم المعلمين، (ويعتقدون أن أمرهم أمر الله ـ تعالى ـ، ونهيهم نهيه، وطاعتهم طاعته، ومعصيتهم معصيته، ووليهم وليه، وعدوَّهم عدوه، ولا يجوز الرد عليهم، والراد عليهم كالراد على الرسول، والراد على الرسول كالراد على الله ـ تعالى ـ، فيجب التسليم لهم، والانقياد لأمرهم، والأخذ بقولهم.

ولهذا يعتقدون أن الأحكام الشرعية الإلهية لا تُسْتَقَى إِلَّا من نمير مائهم، ولا يصح أخذها إِلَّا منهم، ولا تفرغ ذمة المكلف بالرجوع إلى غيرهم، ولا يطمئن بينه وبين الله إلى أنه قد أدَّى ما عليه من التكاليف المفروضة إِلَّا من طريقهم)[1].

(١) «عقائد الإمامية»، لمحمد رضا المظفر، ص (٧٠).

وقال إمام الضلالة الخميني: (وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه مَلَكٌ مقرب، ولا نبي مرسل، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث؛ فإن الرسول الأعظم - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، والأئمة (ع) - أي: عليهم السلام - كانوا قبل هذا العالم أنوارًا، فجعلهم الله بعرشه محدقين، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلَّا الله)، إلى أن قال: (وقد ورد عنهم (ع) أن لنا مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب، ولا نبي مرسل)[(١)]. اهـ.

وقال - أَيْضًا -: (إن للإمام مقامًا محمودًا، ودرجة سامية، وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون)[(٢)].

وقال - أَيْضًا -: (والأئمة الذين لا نتصور فيهم السهو أو الغفلة)[(٣)].

وقال - أَيْضًا -: (إن تعاليم الأئمة كتعاليم القرآن، يجب تنفيذها واتباعها)[(٤)].

قال الشيخ إحسان إلهي ظهير - رحمه الله - تعالى -: (وأما الثاني عشر الموهوم، فكفى فيه القول إنهم يصرحون في كتبهم أنفسهم أنه لم يولد، ولم يعثر عليه، ولم يُرَ له أثر مع كل التفتيش والتنقيب، ثم يحكون حكايات وينسجون الأساطير، ويختلقون القصص والأباطيل في ولادته وأوصافه: إما موجود وُلِد، وإما معدوم لم يولد؟ غير مولود ومولودا! ومعدوم وموجودا!)[(٥)]. اهـ.

ثم ساق النص الذي يفيد ذلك من ستة مراجع لهم، وحكى الإمام ابن حزم -

---

(١) «الحكومة الإسلامية»، ص (٥٢)؛ وإذا كان الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «لَا أُوتَى بِأَحَدٍ يُفَضِّلُنِي عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ إِلَّا جَلَدْتُهُ حَدَّ الْمُفْتَرِي»، فماذا كان يقول ويفعل لو أتي بمن يفضله، ومن هم دونه، حَتَّى خرافة السرداب، على الأنبياء، والمرسلين، والملائكة المقربين؟! سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عظيم!

(٢) «الحكومة الإسلامية»، ص (٥٢).

(٣) «السابق»، ص (٩١).

(٤) «السابق»، ص (١١٣).

(٥) «الشيعة وأهل البيت»، ص (٢٩٤-٢٩٥).

رحمه الله ـ اضطرابهم الشديد في شأن ذلك المولود الذي لم يُخْلَقْ قط، ثم قال: (وكل هذا هَوَسٌ، ولم يعقب الحسن المذكور لا ذكرًا ولا أنثى، فهذا أول نُوكِ[١] الشيعة، ومفتاح عظيماتهم، وأخفها، وإن كانت مهلكة)[٢]. اهـ.

وقال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ في شأن ذلك المعدوم، الموجود في خيالاتهم الفاسدة:

(إنه الحاضر في الأمصار، الغائب عن الأبصار، الذي ورث العصا، ويختم الفضا، دخل سرداب سامرًا طفلًا صغيرًا، من أكثر من خمس مئة سنة، فلم تَرَهُ بعد ذلك عين، ولم يحس فيه بخبر، ولا أمر، وهم ينتظرونه كل يوم يقفون بالخيل على باب السرداب، ويصيحون به أن يخرج إليهم: «اخرج يا مولانا»، ثم يرجعون بالخيبة والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه)، ثم قال: (ولقد أصبح هؤلاء عارًا على بني آدم، وضحكة يسخر منهم كل عاقل)[٣]. اهـ.

مَا آنَ لِلسِّرْدَابِ أَنْ يَلِدَ الَّذِي ... كَلَّمْتُمُوهُ بِجَهْلِكُمْ مَا آنَا
فَعَلَى عُقُولِكُمُ الْعَفَاءُ فَإِنَّكُمْ ... ثَلَّثْتُمُ الْعَنْقَاءَ وَالْغِيلَانَا[٤]

فإذا كان الفرق بين المهدي عند الشيعة، والمهدي عند السنة كالفرق بين الثرى والثريا، فكيف يُسَوِّغُ عاقل لنفسه أن يسوي بين الحق والباطل؟ ما لكم كيف تحكمون؟!

ثانيًا: إن دعوى اقتباس السنة التصديق بخروج المهدي من الرافضة لا تستند إلى دليل إلَّا الظن، وقد قال ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ

---

(١) النُّوكُ: بالضم والفتح، الحُمْق.

(٢) «الفِصَل في الملل والنحل»، (١٨١/٤)؛ وانظر: «الشيعة والتشيع: فرق وتاريخ»، للشيخ إحسان إلهي ظهير ـ رحمه الله ـ، ص (٢٧١-٢٩٥).

(٣) «المنار المنيف»، ص(١٥٢ ـ ١٥٣).

(٤) «الصواعق المحرقة»، لابن حجر الهيثمي، ص (١٦٨)؛ والعنقاء: طائر معروف الاسم لا الجسم.

أَكْذَبُ الحَدِيثِ»[١].

ثالثًا: إن أحاديث المهدي مدونة في كتب السنة الشريفة بأسانيد تنتهي إلى رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ عن طريق صحابته الكرام ـ رضي الله عنهم ـ، أما أحاديث الشيعة، فهي تنتهي إلى أئمتهم المعصومين في زعمهم، وقد ينسبونها إلى رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ.

وما صح من الأحاديث الواردة في المهدي عن رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ لا علاقة له بالشيعة، ولم ينقل عن الشيعة[٢].

ثم إن المهدي عند الشيعة هو محمد بن الحسن العسكري صاحب السرداب، أما المهدي عند أهل السنة فهو محمد بن عبدالله.

فعقيدة أهل السنة في المهدي في وادٍ، وعقيدة الشيعة في مهديهم في وادٍ آخر.

رَابِعًا: إنه لا يجوز أن نَدَعَ حقًّا لباطلٍ؛ فكَوْنُ الرافضة كَذَبُوا في ادِّعاء المهدية لإمامهم الوهمي لا يُسَوِّغُ لنا لا عقلًا، ولا نقلًا أن نرفض الأدلة الصحيحة من سنته ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ التي تؤكد أن المهدي حقيقة لا خرافة، وقد ادَّعى كثير من الدجَّالين النبوة، فهل يصح أن يُحْتَجَّ بمجرد ذلك على نفي صحة الاعتقاد في النبوة؟! حاشا وكلَّا، وقد انحرف قوم في باب صفات الله ـ جلَّ وعلا ـ حَتَّى خرجوا إلى التشبيه والتجسيم، فهل يُسَوِّغُ لنا هذا أن ننفي عن الله صفاته ونعطلها؟ يروي عن الإمام أحمد ـ رحمه الله أنه قال ـ: «لا نزيل عن الله صفة من صفاته بشناعةٍ

---

(١) صدر حديث رواه البخاري (١٧١/٩)، في النكاح: باب لا يخطب على خطبة أخيه؛ ومسلم، (٢٥٦٣)، في البر والصلة، وأبو داود، ٤٨٨٢)، (٤٩١٧) في الأدب؛ والترمذي، (١٩٢٨)، في البر والصلة.

(٢) ويلزم من زعم أن أهل السنة اقتبسوا فكرة المهدية من الشيعة أن يكون ابتداء الفكرة في المهدي في أواخر القرن الثالث من الهجرة، بعد الميلاد الافتراضي لمحمد بن الحسن العسكري، وبعد ما دخل السرداب على حد زعم الرافضة فيه.

شُنِّعت»[1].

وقد تطرف النصارى في شأن عيسى ـ عليه السلام ـ حَتَّى رفعوه إلى مقام الألوهية، فهل يسوغ لنا هذا الاعتقاد الكفري أن نتطرف نحن في الجانب الآخر؛ فَنَسُبَّ المسيح ـ عليه السلام ـ، أو نكذب بنبوته؟

معاذ الله! فإن «كِلَا طَرَفَيْ قَصْدِ الْأُمُورِ ذَمِيمُ».

فالحق في شأن المهدي هو ما أخبر به الصادق المصدوق ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وسيقع كما أخبر ـ بإذن الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٨].

* * *

(١) «المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة» (١/٢٧٧).

مَطْلَبٌ

● **في بيان معنى قوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «يَكُونُ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً»، وأنه لا متعلق له بالمهدي المنتظر، فضلًا عن مهدي الرافضة الموهوم.**

عن جابر بن سمرة ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ قال: «يَكُونُ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ»(١)، وفي رواية أبي داود من طريق أخرى بلفظ:

«لَا يَزَالُ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا حَتَّى يَكُونَ عَلَيْكُمْ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً كُلُّهُمْ تَجْتَمِعُ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ»، فسمعت كلامًا من النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ لم أَفْهَمْهُ، قلت لأبي: «مَا يَقُولُ؟»، قال: «كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ»(٢).

وفي رواية له ـ أيضًا ـ: «لَا يَزَالُ هَذَا الدِّينُ عَزِيزًا إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً»(٣)... الحديث.

قال ابن بطال، عن المهلب: «لم ألق أحدًا يقطع في هذا الحديث»(٤)... يعني بشيء معين.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه، ونوَّر ضريحه ـ:

(... وهذا النص لا يجوز أن يُرادَ به هؤلاء الاثنا عشر؛ لأنه قال: «لَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ عَزِيزًا»، و«لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ عَزِيزًا»، و«لَا يَزَالُ أَمْرُ النَّاسِ مَاضِيًا»، وهذا يدل على أنه يكون أمر الإسلام قائمًا في زمن ولايتهم، ولا يكون قائمًا إذا انقضت ولايتهم،

---

(١) رواه البخاري (١٣/٢١١)، في الأحكام: باب في الاستخلاف، ومسلم، (١٨٢١) في الإمارة: باب الناس تَبَعٌ لقريش؛ والترمذي، (٢٢٢٤)، في الفتن: باب ما جاء في الخلفاء، وأخرجه ـ أيضًا ـ الإمام أحمد في «المسند»، (٥/٨٧، ٩٠، ٩٢، ٩٥، ٩٧، ٩٩، ١٠١، ١٠٧، ١٠٨).

(٢) (٤٢٧٩)، (٤/١٠٦)، كتاب المهدي.

(٣) (٤٢٨٠)، (٤/١٠٦)، كتاب المهدي.

(٤) «فتح الباري»، (١٣/٢١١).

وعند **هؤلاء الاثني عشرية** لم يَقُمْ أمر الأمة في مدة أحد من هؤلاء الاثني عشر، بل ما زال أمر الأمة فاسدًا منتقضًا يتولَّى عليهم الظالمون المعتدون، بل المنافقون الكافرون، وأهل الحق أذلُّ من اليهود. وأيضًا، فإن **عندهم** ولاية المنتظر دائمة إلى آخر الدهر، وحينئذ فلا يبقى زمان يخلو عندهم من الاثني عشر، وإذا كان كذلك لم يَبْقَ الزمان نوعين:

نوع يقوم فيه أمر الأمة، ونوع لا يقوم، بل هو قائم في الأزمان كلها، وهو خلاف الحديث الصحيح.

وأيضًا فالأمر الذي لا يقوم بعد ذلك إلَّا إذا قام المهدي: إما المهدي الذي يقرُّ به أهل السنة، وإما مهدي الرافضة، ومدته قليلة، لا ينتظم فيها أمر الأمة.

وأيضًا فإنه قال في الحديث: «كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ»، ولو كانوا مختصين بعليٍّ وأولاده لذكر ما يُمَيِّزون به، ألا ترى أنه لم يقل: «كلهم من ولد إسماعيل»، ولا من العرب، وإن كانوا كذلك؛ لأنه قصد القبيلة التي يمتازون بها؟ فلو امتازوا بكونهم من بني هاشم، أو من قبيل عليٍّ مع عليٍّ، لذكروا بذلك، فلما جعلهم من قريش مطلقًا، عُلِمَ أنهم من قريش، بل لا يختصون بقبيلة، بل بنو تميم، وبنو عدي، وبنو عبد شمس، وبنو هاشم؛ فإن الخلفاء الراشدين كانوا من هذه القبائل)[1] . اهـ.

وقال تلميذه الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ:

(فهؤلاء المُبَشَّرُ بهم في الحديثين ليسوا الاثني عشر الذين زعم فيهم الروافض ما يزعمون من الكذب والبهتان، وأنهم معصومون؛ لأن أكثر أولئك لم يَلِ أحد منهم شيئًا من أعمال هذه الأمة في خلافة، بل ولا في قطر من الأقطار، ولا بلد من البلدان، وإنما ولي منهم علي وابنه الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما.

وليس المراد من هؤلاء الاثني عشر الذين تتابعت ولايتهم سردًا إلى أثناء دولة بني

(١) «منهاج السنة النبوية»، (٨/٢٥٣-٢٥٤).

أمية؛ لأن حديث سَفينة: «الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً»(١)، يمنع من هذا الملك، وإن كان البيهقي قد رجحه(٢)....

ولكن هؤلاء الأئمة الاثني عشر وُجِدَ منهم الأئمة الأربعة: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، وابنه الحسن بن علي - أيْضًا -، ومنهم عمر بن عبدالعزيز، كما هو عند كثير من الأئمة، وجمهور الأمة، ولله الحمد.

وكذلك وجد منهم طائفة من بني العباس، وسيوجد بقيتهم فيما يُستقبل من الزمان، حَتَّى يكون منهم المهدي الْمُبَشَّرُ به في الأحاديث الواردة فيه، وقد نص على هذا الذي بَيَّنَّاهُ غير واحد، كما قررنا ذلك)(٣). اهـ.

وقال الشيخ عبدالمحسن العبَّاد حفظه الله مُعَلِّقًا على ما ذهب إليه الحافظ ابن كثير - رحمه الله -، من أن المهدي يمكن أن يكون أحد الأئمة الاثني عشر:

---

(١) رواه الترمذي بلفظ: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم مُلك بعد ذلك»... الحديث، (٢٢٢٧)، في الفتن: باب ما جاء في الخلافة، ورواه أبو داود بلفظ: «خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُلْكَ، أَوْ: مُلْكَهُ، مَنْ يَشَاءُ»، قال سعيد: قال لي سفينة: «أمسك عليك: أبا بكر سنتين، وعمر عشرًا، وعثمان اثنتي عشرة، وعليٌّ كَذَا»، (٤٦٤٦)، (٤٦٤٧)، في السنة: باب في الخلفاء، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: (أخرجه أصحاب السنن، وصححه ابن حبان). اهـ (٢١٢/١٣)، ط. السلفية.

(٢) وذلك لأن حديث سفينة يُرَادُ به خلافة النبوة خصوصًا، وهي التي اختص بها أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي - رضي الله عنهم -، وأكملت بخلافة الحسن بن علي - رضي الله عنهما -، وأما من كان بعد الثلاثين سنة، فخلافتهم خلافة ملك، أما حديث جابر بن سمرة - رضي الله عنهما - فلم يقيد الخلافة بخلافة النبوة، فلفظ الخلافة مشترك، يختص الراشدون منه بخصيصة هي خلافة النبوة المقدرة بثلاثين سنة.

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية - رحمه الله - تعالى -:

(والدليل على أن النبي ﷺ إنما أوقع عليهم اسم الخلافة؛ بمعنى الملك في غير خلافة النبوة قوله في الحديث الصحيح من حديث الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: «سَيَكُونُ مِنْ بَعْدِي خُلَفَاءُ يَعْمَلُونَ بِمَا يَعْلَمُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، وَسَيَكُونُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلَفَاءُ يَعْمَلُونَ بِمَا لَا يَعْلَمُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ أَنْكَرَ بَرِئَ، وَمَنْ أَمْسَكَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ».

«تهذيب سنن أبي داود»، (٣٦٤/١١)، مع «عون المعبود».

(٣) «نهاية البداية والنهاية»، (١٧/١ - ١٨)؛ وانظر: «البداية والنهاية»، (١٩٨/٦).

(هذا محل نظر؛ فإن الرسول ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، قال: «لَا يَزَالُ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَائِمًا مَا وَلِيَ عَلَيْهِمُ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً، كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ»، فقوله: «لَا يَزَالُ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَائِمًا»، يدل على أن الدين في زمانهم قائم، والأمر نافذ، والحق ظاهر، ومعلوم أن هذا إنما كان قبل انقراض دولة بني أمية، وقد جرى في آخرها اختلاف تَفَرَّقَ بسببه الناس، وحصل به نكبة على المسلمين، وانقسم أمر المسلمين إلى خلافتين، خلافة في الأندلس، وخلافة في العراق، وجرى من الخطوب والشرور ما هو معلوم.

والرسول ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ قال: «لَا يَزَالُ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَائِمًا»، ثم جرى بعد ذلك أمور عظيمة، حَتَّى اختل نظام الخلافة، وصار على كل جهة من جهات المسلمين أمير وحاكم، وصارت دويلات كثيرة، وفي زماننا هذا أعظم وأكثر، والمهدي حَتَّى الآن لم يخرج، فكيف يصح أن يُقَالَ: إن الأمر قائم إلى خروج المهدي، هذا لا يمكن أن يقوله من تأمَّل ونظر.

والأقرب في هذا ـ كما قاله ـ جماعة من أهل العلم: أن مراد النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ بهذا الحديث: «لَا يَزَالُ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَائِمًا مَا وَلِيَ عَلَيْهِمُ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً، كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ»، أن مراده من ذلك، الخلفاء الأربعة، ومعاوية رضي الله عنه، وابنه يزيد، ثم عبدالملك بن مروان، وأولاده الأربعة[1]، وعمر بن عبدالعزيز، هؤلاء اثنا عشر خليفة، والمقصود أن الأئمة الاثني عشر في الأقرب، والأصوب، ينتهي عددهم بهشام ابن عبدالملك؛ فإن الدين في زمانهم قائم، والإسلام منتشر، والحق ظاهر، والجهاد قائم، وما وقع بعد موت يزيد من الاختلاف والانشقاق في الخلافة، وتولي مروان في الشام، وابن الزبير في الحجاز ـ لم يضر المسلمين في ظهور دينهم؛ فدينهم ظاهر، وأمرهم قائم، وعدوهم مقهور، مع وجود هذا الخلاف الذي جرى، ثم زال بحمد الله بتمام البيعة لعبدالملك، واجتماع الناس بعدما جرى من الخطوب على يد الحجاج

(١) وهم: الوليد، ثم سليمان، ثم يزيد، ثم هشام، وتخلل بين سليمانَ ويزيدَ عمرُ بنُ عبدالعزيز.

وغيره، وبهذا يتبين أن هذا الأمر الذي أخبر به - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - قد وقع، ومضى، وانتهى، وأمر المهدي يكون في آخر الزمان، وليس له تعلق بحديث جابر ابن سمرة)[١]. اهـ.

* * *

(١) «الرد»، ص (١٥٩-١٦٠)؛ وانظر: «فتح الباري»، (١٣/٢١١-٢١٥)، ط. السلفية.

الشُّبْهَةُ الخَامِسَةُ

● **وهي قولهم: إن الاعتقاد في خروج المهدي يترتب عليه من المضار، والمفاسد، والفتن، ما يشهد به التاريخ، والواقع، أما اعتقاد بطلانه، وعدم التصديق به، فإنه يجلب الراحة والأمان، والسلامة من الزعازع والفتن.**

والجواب بمعونة الملك الوهَّاب:

أَوَّلًا: أن الواجب تصديق رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ فيما يخبر به من أمور الغيب، سواء كانت ماضية أو مستقبلة، موجودة أو غائبة عنا، والذين حكموا بصحة أحاديث المهدي هم العلماء الجهابذة، والنقاد المحققون من أهل الحديث، فلم يَبْقَ عذر لمن دونهم في أن يرد بجهله حكمهم، وينازع الأمر أهله.

ثَانِيًا: أن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن المهدي يقيم القسط، ويبسط العدل، ويرفع الجور، ويزيل الظلم، أما الفتن والزعازع، فإنما تكون من الدجالين الكذابين، الذين يدَّعون المهدية.

ثَالِثًا: أن المضار والمفاسد تترتب ـ أَيْضًا ـ على التكذيب بالأحاديث الصحيحة؛ مما ينافي الإيمان، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور: ٦٣].

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «من رد حديث رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ فهو على شفا هلكة»[١].

---

(١) انظر التنبيه السابع، ص (٢٤).

رَابِعًا: أن إنكار خروج المهدي في آخر الزمان ليس هو الذي يمنع من وقوع الفتن، ويحصل به الأمن والاطمئنان؛ بدليل أن الله ـ تعالى ـ قال في كتابه العزيز: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب: ٤٠]، وقال ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي»[(١)]، ومع ذلك وُجِدَ كثيرون ممن ادَّعَوْا النبوة، وحصل بذلك للمسلمين أضرار كبيرة؛ فقد قاتل المسلمون المتنبئين على دعواهم النبوة، وأراقوا دماءهم، كما وقع مع مسيلمة الكذَّاب، والأسود العنسي، وطليحة الأسدي، وسجاح، والمختار بن أبي عبيد، وغيرهم من الكذَّابين الدجَّالين، الذين كانت لهم شوكة وأتباع.

فكما لا يقول مسلم إن دعوى هؤلاء الدجالين للنبوة، وما حصل منهم ـ من المضار، والمفاسد الكبار، وسفك الدماء مما يشهد به التاريخ ـ تقدح في صحة الأدلة على نبوة النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وأنه خاتم الأنبياء؛ فكذلك لا يقول عاقل له أدنى علم ومعرفة: إن دعوى المتمهدين كذبًا وزورًا تقدح في صحة الأحاديث الواردة في المهدي، وتؤثر فيها.

أما الأسباب الحقيقية للنجاة من الفتن، فتكمن في التمسك بكتاب الله، وسنة رسوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، والاعتصام بحبله؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤٠-٤١]، وقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾[النور: ٥٥].،

(١) انظر: «الفِصَل»، لابن حزم (١/٧٧).

وقال ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ»(١) ... الحديث، إلى غير ذلك من أدلة الكتاب والسنة.

خَامِسًا: أما زعمهم أن التكذيب بأحاديث المهدي يجلب الراحة والأمان، والسلامة من الزعازع والفتن، فجوابه أن العكس هو الصحيح، فإن الذي يجلب ذلك كله هو الإيمان بكل ما جاء عن الله ـ تعالى ـ، وكل ما ثبت عن رسوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، والتنزه من الشكوك والأوهام في أنباء الغيب مما كان، وما سيكون.

فأما الراحة والاطمئنان برد الأحاديث، فهو من باب قوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ في الفتن: «فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا»(٢) ... الحديث، وهو من جنس فرح أهل البدع ببدَعهم، واطمئنانهم إليها، ووجدانهم الراحة في التمسك بها، وهذا من تلاعب الشيطان بهم، وتزيينه لهم سوء أعمالهم.

قال العلاَّمَةُ ناصر الدين الألباني ـ تغمده الله بواسع رحمته ـ وهو يعدد صور انحراف الناس في موضوع المهدي:

«ومنهم ـ وفيهم بعض الخاصة ـ من علم أن ما حكيناه عن العامة أنه خرافة، ولكنه توهم أنها لازمة لعقيدة خروج المهدي، فبادر إلى إنكارها، على حَدِّ قول من قال: «وَدَاوِنِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ»!

وما مثلهم إلَّا كمثل المعتزِلَة الذين أنكروا القدر، لما رأوا أن طائفة من المسلمين

(١) قطعة من حديث رواه الترمذي، (٢٥١٨)، في صفة القيامة، باب، (٦٠)؛ وقال: «حسن صحيح»؛ ورواه الإمام أحمد في «المسند»، (٢٦٦٩)، (٢٧٦٣)، (٢٨٠٤).

(٢) وأصل الحديث عن حذيفة بن اليمان ﵁ قال: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا ـ أَيْ قَبِلَهَا ـ، وَسَكَنَ إِلَيْهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ، مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا، كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»، رواه مسلم (١٤٤) في الإيمان: باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا.

استلزموا منه الجبر.

فهم بذلك أبطلوا ما يجب اعتقاده، وما استطاعوا أن يقضوا على الجبر، وطائفة منهم رأوا أن عقيدة المهدي قد استغلت عبر التاريخ الإسلامي استغلالًا سيئًا، فادَّعاها كثير من المغرضين، أو المهبولين، وجرت من جراء ذلك فتن مظلمة، كان من آخرها فتنة مهدي «جهيمان» السعودي في الحرم المكي، فرأوا أن قطع دابر هذه الفتن، إنما يكون بإنكار هذه العقيدة الصحيحة.

وما مثل هؤلاء إلَّا كمثل من ينكر عقيدة نزول عيسى ـ عليه السلام ـ في آخر الزمان، التي تواتر ذكرها في الأحاديث الصحيحة؛ لأن بعض الدجاجلة ادَّعاها؛ مثل ميرزا غلام أحمد القاديانى، وقد أنكرها بعضهم فعلًا صراحة؛ كالشيخ شلتوت، وأكاد أقطع بأن كل من أنكر عقيدة المهدي ينكرها ـ أَيْضًا ـ، وبعضهم يظهر ذلك من فلتات لسانه، وإن كان لا يُبين.

وما مثل هؤلاء المنكرين جميعًا عندي إلَّا كما لو أنكر رجل ألوهية الله ـ عز وجل ـ بدعوى أنه ادَّعاها بعض الفراعنة.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥][(١)] اهـ.

* * *

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٥٢٩)، (٤/٤٢ ـ ٤٣)؛ وانظر: «مقالات الألباني»، ص(١٠٥-١١٠).

الْبَابُ الثَّالِثُ

عُدْوَانُ مُدَّعِي الْمَهْدِيَّةِ عَلَى مَصَادِرِ التَّلَقِّي

مُقَدِّمَةٌ

هذا الباب طليعة للباب الرابع، ومقدمة له؛ حيث ذكرنا هناك تفاصيل أحوال أشهر مُدَّعِي المهدية، وباستقراء أحوالهم نجد أن الجانب التنظيري لدعواهم استند إلى أصول بَنَوْهَا على شفا جُرُفٍ هارٍ، وتحكَّموا بها في الشريعة بدل أن يتحاكموا إليها، وقفزوا فوق المعايير الشرعية والعقلية؛ فأثمرت دعواهم فِتَنًا، وجرَّت على أهل الإسلام مِحَنًا، ومِن ثَمَّ تأتي هذه «الطليعة» لمحاولة تزويد القارئ بالمناعة الكافية ضد ما نُسَمِّيهِ «ظاهرة العبث بمصادر التلقي».

● **وهذا العبث وهذا العدوان تتعدد مظاهره وأشكاله:**

فمنها ما يكون بالحذف والإبطال؛ كإنكار حُجِّيَّة السنة، أو غيرها من الأدلة الشرعية المرجعية، ومنها ما يكون بالزيادة؛ باعتماد مصادر لتلقي الأحكام مُغَايِرَة للأدلة الشرعية المعصومة؛ كالكتاب والسنة والإجماع، وإضفاء الحجية على هذه المصادر المزعومة، الأمر الذي يترتب عليه فتنة في الأرض، وفسادٌ كبير.

وبالرغم من تعدد مظاهر «العبث بمصادر التلقي» على يد الْفِرَقِ الضالَّةِ بصفة عامة، إلا أننا نخصُّ بالذكر هنا ما تورط فيه مُدَّعُوا المهدية بصفة خاصة، وكان له أثر في تدعيم دعواهم؛ كاعتماد بعضهم على المنامات، أو التلبيس على الناس بخوارق العادات، أو ادِّعاء التلقي المباشر عن النبي ﷺ، أو دعاوى الإلهام والتحديث والكشف، أو زعم لقيا الْخَضِرِ - عليه السلام - والأولياء، والتلقي عنهم.

إن تَكْرَارَ ظاهرة «ادعاء المهدية» المقترن بالاستجابة العاطفية الجارفة، والمندفعة من أتباع مُدَّعِيهَا - يعكس قصورًا أو تقصيرًا في هؤلاء الأتباع؛ حيث لم يُحْسِنُوا ميزان النقد، والتمحيص والتفتيش الدقيق، قبل التورط في هذه الضلالات، «والعاقل ينظر قبل أن يمشيَ، والأحمقُ يمشِي قبل أن ينظُرَ»، كما أن هذا «التَّكْرَارَ» يعني أن فِئَاتٍ من

الأمة لا تستنبط دروس وعبر التاريخ، وأنها تُلْدَغُ من نفس الجُحْرِ مرَّاتٍ ومرَّاتٍ؛ فأين هي من قول المعصوم ﷺ : «لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ»[1]؟!

* * * * *

(١) أخرجه البخاري (١٠/٤٣٩) في «الأدب»، ومسلم (٢٩٩٨) في «الزهد».

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

سُلْطَانُ الْمَنَامَاتِ

الْفَصْـلُ الْأَوَّلُ

سُلْطَانُ الْمَنَامَاتِ

كان «الحُلْم» ـ ولا يزال ـ من التجارب الإنسانية التي حَظِيَتْ باهتمامٍ بليغٍ في حياة البشر؛ إذ للحلم آثارُهُ وانطباعاتُهُ في نفس الحالم؛ (فقد تلقى صديقًا أو قريبًا فتراه حزينًا كئيبًا، فتسبر غور نفسه؛ لتعرف سرَّ كآبته وحزنه، فتعجب أشد العجب عندما تعلم أن سبب ذلك رؤيا مرعبة، أو منذرة بخطرٍ سيُدَاهِمُهُ. وقد تجده فرحًا منشرح الصدر، بَاسِمَ الثغر، وما ذلك إلا لأنه رأى رؤيا مفرحة، أو مُبَشِّرَةً بحدث سارٍّ قادم. يقول الدكتور عمر سليمان الأشقر ـ حفظه الله ـ: (كانت الرؤى ـ وما زالت ـ ذاتَ تأثير لا على الأفراد العاديين فحسب، بل وعلى النابغين والأذكياء، وكم أَقَضَّتِ الرُّؤَى مضاجِعَ الجبابرة والملوك، وكم شغلت شَعْبًا بأكمله يَوْمًا مَا، وما رؤيا ملك مصر في عهد يوسف ببعيدة عن ذاكرتنا، فقد رأى سبع بَقَرَاتٍ سمانٍ يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، وكانت رؤيا حق، نفعت الناس نفعًا عظيمًا، عندما وُجِدَ الشخصُ الذي يحسن تفسيرها، وتأويلها.

وكثيرٌ من الناس اليوم يُبَادِرُونَ بالتكذيب بالرؤى والأحلام، ويزعمون أن الرؤى المنامية ليست إلا انعكاسات لما يَجُولُ في فكر الإنسان في حال يقظته، وما يُخْتَزَنُ في فكره الباطن، فإذا ما استسلم للرقاد، وطاف في أودية الكرى، فإن عقله الباطن يعمل، فيحقق المرء في نومه ما لم يَسْتَطِعْ تحقيقه في عالم اليقظة.

ونحن لا نُنْكِرُ أن قِسْمًا كبيرًا من الرؤى ليس إلا انعكاسات لأحاديث النفس وخواطرها التي تمر بها في اليقظة، ولكننا نرفض رفضًا قاطعًا أن تكون جميع الرؤى كذلك، ونقول: إن هذا تَحَكُّمٌ يَعْلَمُ كَذِبَهُ كل من تفكر في رؤاه التي مرت به، أو التي سمع الناس يروونها، ويُحَدِّثُونَ بها عن أنفسهم، كيف بالله نُفَسِّرُ رؤيا امرأة رأت

وليدها يسقط من سطح منزل، وفي الصباح يخرج فلا يعود؛ لأن سيارة داهمته، وأودت بحياته؟! وكيف نُفَسِّرُ رؤيا رجل يرى نفسه وقد سافر إلى بلد، وسكن منزلًا معينًا رأى في المنام معالمه، فلا تمضي شهور حتى يكون في ذلك المنزل الذي رآه في منامه؟!

وكيف نُفَسِّرُ رؤيا رجل رأى أنه سافر، وتعطلت سيارته على صورة ما، وينسى الرؤيا ولا يذكرها إلا حينما يرى المشهد الذي رآه في المنام حقيقة ماثلة؟!. أذكر أن «محمد أسد»؛ وكان كاتبًا يهوديًّا، ثم اعتنق الإسلام، حَدَّثَ في كتابه «الطريق إلى مكة» عن رؤيا رآها قبل إسلامه، وقام من منامه، وسَجَّلَهَا، وقد تحققت فيما بَعْدُ، على الرغم من طولها، وكثرة أحداثها.

إذن، ليس كل الرؤى انعكاساتٍ لأحاديث النفس وخواطرها وهواجسها، بل الأمر أعمق من ذلك.

والإنسان ليس بِمُطِيقٍ بعقله وفكره أن يصل إلى أعماق نفسه؛ ففي النفس الإنسانية مَجَاهِيلُ يعجز الإنسان عن الإحاطة بها، على الرغم من أنها أقرب الأمور إليه.

والرؤى لها علاقة بالنفوس الإنسانية، وفيها جانب غيبي، لا يخضع للعلم المادي المبني على النظر والتأمل والبحث المادي.

وقد أَغْنَانَا الرسول ﷺ عن إتعاب النفس في هذا الموضوع، وقال لنا فيه الكلمة الحق؛ وهي الكلمة الفصل التي لا نحتاج معها إلى غيرها؛ وذلك أنها تمثل الحقيقة، وتُفَسِّرُ الأمر تفسيرًا يدرك الإنسان صدقه عندما ينظر إلى رؤاه، ورؤى الناس في ضوء ما أخبر به المصطفى ﷺ .

يقول الرسول ﷺ في الحديث الذي يرويه ابن ماجه: «إِنَّ الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ: مِنْهَا أَهَاوِيلُ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ بِهَا ابْنَ آدَمَ، وَمِنْهَا مَا يَهِمُّ بِهِ الرَّجُلُ فِي يَقَظَتِهِ فَيَرَاهُ فِي مَنَامِهِ، وَمِنْهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»(١).

---

(١) «صحيح ابن ماجه» (٣١٥٤) (٢/٣٤٠).

وفي الحديث الآخر عند الترمذي: «الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ: الْحَسَنَةُ بُشْرَى مِنَ اللَّهِ، وَالرُّؤْيَا يُحَدِّثُ الرَّجُلُ بِهَا نَفْسَهُ، وَالرُّؤْيَا تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ»[١].

فالذي قَرَّرَهُ الرسول ﷺ في الرؤيا أنها ثلاثة:

الأول: حديث النفس؛ وهي التي أسماها العلماء الماديُّونَ بالانعكاسات النفسية؛ وهي خواطر النفس، وتطلعاتها التي تصبو إلى تحقيقها في واقع الحياة، فتراها في المنام؛ إذ تحلم بممارسة أمور لم تستطع تحقيقها في واقع الحياة.

النَّوْعُ الثَّانِي: من الرؤى التي أخبر بها الرسول ﷺ: هي الرؤيا التي يسببها الشيطان؛ فإنه قد يُمَثِّلُ للإنسان في منامه رؤيا مفزعة، تُبَلْبِلُ خواطره، وتُرْهِقُ نفسه، وتَجْعَلُهُ يجول في عوالِمَ بعيدةٍ، حَذِرًا متخوفًا، وفي الحديث: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللَّهِ، وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلَا يُحَدِّثْ بِهِ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ، وَلْيَتْفُلْ ثَلَاثًا وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا، فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ»، متفق عليه[٢].

وقد جاء رجل إلى الرسول ﷺ فقال: «رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ رَأْسِي قَدْ قُطِعَ. قَالَ: فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَالَ: «إِذَا لَعِبَ الشَّيْطَانُ بِأَحَدِكُمْ فِي مَنَامِهِ فَلَا يُحَدِّثْ بِهِ النَّاسَ» رواه مسلم[٣].

والشيطان لديه القدرة على الوسوسة في صدور الناس ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾، وفي الحديث «أَنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ». فلديه القدرة على أن يُمَثِّلَ للنفس في منامها أمورًا تُفزِعُهَا وتَحزُنُهَا.

---

(١) «صحيح سنن الترمذي» (١٨٦٧) (٢/٢٦٢)، فالرؤيا كالكشف: منها رحماني، ومنها نفساني، ومنها شيطاني، كما قال ابن القيم في «بدائع الفوائد» (١/١٥٤).

(٢) رواه البخاري (١٢/٣٧٣)، ومسلم (٢٢٦١) (٢) في أول كتاب الرؤيا.

(٣) رواه مسلم (٢٢٦٨) (١٦) في الرؤيا.

النَّوْعُ الثَّالِثُ: رؤيا لم يُفَكِّرْ بِهَا صاحبها يومًا، ولم تخطر على باله، وهي بَعِيدَةٌ كل البعد عن تفكيره، وقد يراها بصورة جلية، لا تحتاج إلى تفسير ولا إلى تأويل، وقد تكون أمثالًا مضروبة، وأحداثًا مسبوكة، تحتاج إلى علم وتقدير، وفهم ثاقب، ونظر بعيد، وما كل من رُزِقَ علمًا رُزِقَ فَهْمًا بتأويل الأحلام والرؤى.

وهذا النوع من الرؤى هو البقية الباقية من حقيقة النبوة، فالوحي قد انقطع، والنبوة قد خُتِمَتْ، ولم يَبْقَ إلا هذه الرؤى، وهي المبشرات، يَقُولُ الرسول ﷺ: «لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا المُبَشِّرَاتُ». قَالُوا: وَمَا المُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ». رواه البخاري[1].

وزاد مالك برواية عطاء بن يسار: «يَرَاهَا الرَّجُلُ المُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ».

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ». متفق عليه[2].

وإذا كانت الرؤيا من الرسول والأنبياء فهي حق لا تُكَذَّبُ، بل هي وحي إلهي، وقد بادر خليل الرحمن إبراهيم إلى ذبح ولده عندما رأى في المنام أنه يذبحه، وما ذلك إلا لأن رؤياه وحي.

وغير الأنبياء تقع له الرؤيا الحق، وتكون دلائل الصدق عليها بينة، إلا أننا لا نستطيع أن نجزم بأنها رؤيا حق إلا إذا تحققت على النحو الذي رآه صاحبه في منامه.

لقد كان من أسباب افتتان بعض الناس، ومتابعتهم لأولئك الذين احتلوا الحرم المكي، واعتصموا به، تلك الرؤى التي رآها بعض الكبار والصغار، والنساء والرجال، وهي في جملتها تشير إلى أن المدعو محمد عبدالله القحطاني هو المهدي الذي بَشَّرَ به الرسول ﷺ[3]. وقد تبين للناس اليوم أن تلك الرؤى لم تكن صادقة؛ لأن ذلك

---

(١) رواه البخاري (١٢/٣٧٥) في التعبير: باب المبشرات، ومالك في «الموطأ» (٢/٩٥٧).

(٢) رواه البخاري (١٢/٣٧٣)، ومسلم (٢٢٦٤) في الرؤيا.

(٣) انظر ص (٥٥٧).

الرجل ليس هو المهدي، وإلا لو كان هو لم يقتل، ولبقي حتى يملأ الأرض عدلًا كما مُلِئَتْ جورًا وظُلْمًا؛ فذلك من علاماته الثابتة في الأحاديث، ولو كان فينا رسول الله ﷺ لعرفنا بالرؤيا الباطلة إذا اشتبهت الأمور، أما ونحن لسنا بمعصومين، فإن الرؤى تبقى في مجال الظن، ولا ترقى إلى اليقين والجزم ما لم تتمثل في واقع مشهود، وعند ذلك يوافق الواقع الخبر.

لقد أوَّل أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه بين يدي الرسول ﷺ رؤيا، فبين له الرسول ﷺ أنه أصاب في تأويله وأخطأ(١)، فمن يضمنُ لنا ألا نقع في الخطإ، ومن يضمَنُ لنا أن نُصِيبَ كَبِدَ الحقيقة(٢).

* * * * *

(١) عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: كان أبو هريرة رضي الله عنه يحدث: أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: «إني رأيت الليلة ظلة يُنَطِّفُ منها السمن والعسل، ورأيت الناس يستقون بأيديهم، فالمستكثر والمستقل، ورأيت سببًا واصلًا من السماء إلى الأرض، فأراك يا رسول الله أخذت به فعلوت، ثم أخذ به رجل بعدك فَعَلا، ثم أخذه رجل بعده فَعَلا، ثم أخذ به رجل فقُطِع به، ثم وُصِلَ له فَعَلا به»، فقال أبو بكر: «أي رسول الله بأبي أنت وأمي، والله لتدعني أعبرها»، فقال: «اعْبُرْها»، فقال: «أما الظُّلَّة فظلة الإسلام، وأما ما ينظف من السمن والعسل فهذا القرآن لينه وحلاوته، وأما المستكثر والمستقل، فهو المستكثر من القرآن والمستقل منه، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض، فهو الحق الذي أنت عليه فأخذتَ به فيُعْليكَ الله، ثم يأخذ به بعدك رجل آخر فيعلو به، ثم يأخذ بعده رجل آخر فيعلو به، ثم يأخذ آخر فينقطع به، ثم يوصل فيعلو به، أي رسول الله لتحدثني أصبتُ أم أخطأت؟»، قال النبي ﷺ: «أصبتَ بعضًا، وأخطأتَ بعضًا»، قال: «أقسمت - بأبي أنت وأمي - يا رسول الله لتخبرني ما الذي أخطأت؟»، فقال النبي ﷺ: «لا تقسم»، رواه البخاري (١٢/٤٣١- فتح)، ومسلم (٢٢٦٩)، وأبو داود (٤٦٣٢)، والترمذي (صحيح الترمذي: ٢٤٠٩)، واللفظ له.

(٢) «جولة في رياض العلماء» ص (١٠٧-١١٠) بتصرف.

نَمَاذِجُ وَاقِعِيَّةٌ مِن انْحِرَافِ النَّاسِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْمَنَامَاتِ

• دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ لَا تُسْفَكُ بِالْأَحْلَامِ:

حكى الحسن بن قحطبة قال: (اسْتُؤْذِنَ لشَرِيك بن عَبْدِاللَّهِ القاضي على المهدي وأنا حاضر، فقال: «عَلَيَّ بالسيف»، فأُحْضِرَ.

قال الحسن: فاستقبلني رِعْدَةٌ لم أملكها، ودخل شَرِيْكٌ فسلَّم، فانتضى المهدي السيف، وقال: «لا سَلَّمَ الله عليك يا فاسقُ».

فقال شريك: يا أمير المؤمنين، إن للفاسق علاماتٍ يُعرف بها: شرب الخمور، وسماع المعازف، وارتكاب المحظورات؛ فعلى أيِّ ذلك وجدتني؟

قال: «قَتَلَنِي اللهُ إن لم أقتُلْكَ».

قال: ولِمَ ذلك يا أمير المؤمنين، ودمي حرام عليك؟

قال: لأني رأيت في المنام كأني مقبل عليك أكلمك، وأنت تكلمني من قفاك، فأرسلت إلى المعبِّر، فسألته عنها، فقال: هذا رجل يطأ بساطك وهو يُسِرُّ خِلافَكَ. فقال شَرِيْك: «يا أمير المؤمنين، إن رؤياك ليست رؤيا يوسف بن يعقوب ـ عليهما السلام ـ، **وإن دماء المسلمين لا تُسْفَكُ بالأحلام**»، فَنَكَّسَ المهدي رأسه، وأشار إليه بيده: أَنِ اخْرُجْ، فانصرف.

قال الحسن: فقمت فلحقته، فقال: أما رأيت صاحِبَكَ وما أراد أن يصنع؟

فقلت:اسكت ـ لله أبوك! ـ ما ظننت أني أعيش حتى أرى مثلك)[1].

• لَا يُطْعَنُ فِي الرَّاوِي بِمُجَرَّدِ مَنَامٍ:

روى ابن عساكر في «تاريخ دمشق» بإسناده عن أحمد بن محمد بن رشدين أن بعضهم رأى الشافعي في المنام، فقال له: «كَذَبَ عليَّ يونس بن عبدالأعلى في حديث الجَنَدِي.. ما

---

(١) ذكره في «معالم في طريق طلب العلم» ص (٢٦٦-٢٦٧) غير معزوٍّ، وانظر: «الاعتصام» (١/ ٢٦١-٢٦٢).

هذا من حديثي، ولا حدَّثتُ به»[١]، عَلَّقَ الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في «الفتن والملاحم»[٢]: «يونس بن عبدالأعلى من الثقات، لا يُطعَن فيه بمجرد منام».

● **الرُّؤْيَا تَسُرُّ، وَلَا تَغُرُّ:**

عن المَرُّوذي قال: أدخلتُ إبراهيم الحُصْري على أبي عبدالله - وكان رجلًا صالحًا - فقال: «إن أمي رأت لك منامًا، هو كذا وكذا، وذكرتِ الجنة»، فقال: «يا أخي، إن سهلَ بن سلامة كان الناس يُخبرونه بمثل هذا، وخرج إلى سفك الدماء، وقال: الرؤيا تَسُرُّ المؤمن ولا تَغُرُّه»[٣].

وعن محمد بن يزيد قال: كانوا يرون لوهيب أنه من أهل الجنة، فإذا أُخْبِرَ بها اشتد بكاؤه، وقال: «قد خَشِيتُ أن يكون هذا من الشيطان»[٤].

● **يقول الشيخ سعيد بن ناصر الغامدي:**

(تضايق ناسٌ من وجود حاكم من الحُكَّام، وأصبحوا يتحدثون عن أمراضه، وقرب وفاته، فإذا بكثير منهم يرى في المنام أنه سيموت في شهر كذا، أو قبل شهر كذا، ثم يؤولها لهم واحد ممن على شاكلتهم، فيجزمون أنه لا يصلي العيد مع المسلمين، ويؤكدون بأن هذه الرؤى تواطأت، وأنه لا يمكن تكذيبها أو جحدها، ولا يمكن التشكيك في حصولها، فما الذي حدث؟ لقد صلى العيد وأعيادًا أخرى بعده.

وآخرون ثَقُلَ عليهم ما يُعَانِيهِ المسلمون من اليهود، فطاشت نفوسهم إلى أحلام رأوا فيها أن معارك واجتياحات يهودية لبلدان المسلمين؛ سوف تحصل في عام كذا وكذا، وبدءوا يضعون الخطط والاستراتيجيات، والتوقعات، لمواجهة هذا العدوان في هذا التاريخ.

---

(١) «تهذيب الكمال» (٥٩٦/٦).
(٢) «نهاية البداية والنهاية في الفتن والملاحم» (٤٥/١).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٢٢٧/١١).
(٤) «تلبيس إبليس» ص (٥٣٥).

وكم من رؤى يقظة أو منام بالغ في تقديرها الإنسان، وهو يعلم أنها من حديث النفس، أو تلبيسات الشيطان، فجرته إلى مهاويَ وبلاويَ، والله المستعان)[١].

● **وعقد الشيخ سلمان العودة فصلًا حول ظاهرة الاستغراق في المنامات، والغلو فيها، فقال ـ حفظه الله ـ:**

(ما أجمل الحادثة التي يذكرها المترجمون عن الإمام «عبدالقادر الجيلاني» ـ رحمه الله ـ أنه كان نائمًا، فرأى نارًا عظيمة تتصاعد، ثم سمع منها صوتًا يقول له: يا عبدالقادر.. أنا ربك.. وقد أحللت لك ما حرمت عليك.

فقال الشيخ عبدالقادر وهو في المنام:

ـ اخسأ يا عدو الله!

وعرف أن الشيطان عرض له ليصده عن دينه؛ لأن الحرام لا يكون حلالًا أبدًا، كما أن النجاسة لا تكون طهارة أبدًا، فلا يتحول المحرَّم بشريعة الله إلى حلال؛ لأن رجلًا رأى في النوم من يُحِلُّهُ له.

وإذا كُنَّا لا نقبل ونحن في اليقظة بكامل عقولنا وقوانا، من يُحَلِّلُ لنا الحرام، أو يُحَرِّمُ عَلَيْنَا الحلال.. فكيف نقبل ذلك في النوم حين يغيب إدراك الإنسان، ولا يعي ما حوله؟!

إن الاشتغال بهذه الرؤى العابثة هو شأن الفارغين، فإذا فقد الناس العلم الصحيح، والتوجيه السليم، اتجهوا لمثل هذه الخرافات، يروون بها ظمأهم، وحاجتهم إلى الدين.

ولذلك فإن لهذه الرؤى دلالة واضحة على مستوى الوعي، والفهم في المجتمع، وخاصَّة في مجال «المرأة».

وليس الحل هو أن يَهُبَّ العلماء إذا سمعوا مثل هذه الأسطورة؛ ليبينوا كذبها، هذا ـ

---

(١) «زغل الدعاة» ص (٦٦-٦٧).

ولا شك ـ مطلوب، ولكن يَجِبُ أن نسبق الأحداث ونبذل جهودًا كافية لملء عقل المرأة والرجل بالعلم الصحيح، والعاطفة الحية.. فالوقاية خير من العلاج.

لعل من الملاحظ أن بعض «الْقُصَّاص» والْوُعَّاظ يسردون كثيرًا من الأحلام في أحاديثهم، في الترغيب والترهيب.. وربما كان هذا المنهج، منهج المبالغة في ذكر الرؤى ناتجًا عن قلة العلم بالنصوص الشرعية.. وناتجًا عن فراغ فكري وعاطفي لدى هذا المتحدث ـ أيضًا.

أتذكر أنني قرأت أبياتًا لأحد المسجونين يصف فيها حاله، وحال أصحابه في السجن، ثم عرفت أنه الشاعر المعروف علي بن الجهم، أو عبدالله بن معاوية، أو صالح ابن عبدالقدوس، ويقول:

إِلَى اللَّهِ فِيمَا نَابَنَا نَرْفَعُ الشَّكْوَى ... فَفِي يَدِهِ كَشْفُ الضَّرُورَةِ وَالْبَلْوَى
خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَإِنَّا لأَهْلُهَا ... فَلَسْنَا مِنَ الأَمْوَاتِ فِيهَا وَلَا الأَحْيَا
إِذَا جَاءَنَا السَّجَّانُ يَوْمًا لِحَاجَةٍ ... فَرِحْنَا وَقُلْنَا: جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا
وَنَفْرَحُ بِالرُّؤْيَا فَجُلُّ حَدِيثِنَا ... إِذَا نَحْنُ أَصْبَحْنَا الْحَدِيثُ عَنِ الرُّؤْيَا
فَإِنْ حَسُنَتْ لَمْ تَأْتِ عَجْلَى وَأَبْطَأَتْ ... وَإِنْ قَبُحَتْ لَمْ تَحْتَبِسْ وَأَتَتْ عَجْلَى

◉ يَتَحَدَّثُونَ كَثِيرًا عَنِ الرُّؤْيَا، لماذا؟

أَوَّلًا: للفراغ، فليس لديهم أحاديث عن الوقائع والمستجدات؛ لأنهم مَعْزُولُونَ لا يسمعونها، خاصة في الزمن الماضي، وليس لهم عمل يشغلهم، ويقضي على فراغهم، خاصة في الماضي ـ أيضًا.

وَثَانِيًا: لأنهم في حال كرب، والرؤيا قد تكون مُبَشِّرَةً، تُشْعِرُ السجينَ بقرب خلاصه.

وربما كان في قصة يوسف ـ عليه السلام ـ وصاحبيه ما يُشِيرُ إلى أن السجين تحدث له الرؤيا، ويتحدث عنها، أكثر من غيره، خاصة وهو يعلم أن الأبواب كلها قد

أُغْلِقَتْ، فيلجأ إلى الله، ويَصْدُقُ معه، فيحدث له من صفاء القلب ما لا يحدث له في غير سِجْنِهِ.

إنه لجدير بالداعية أن يقتصد في ذكر الرؤى والأحلام، فلا يجعلها لُحْمَةَ وعظه وسُدَاهُ، ولا يقيمها مقامَ الأدلة الشرعية.

كان ﷺ كما في الصحيح، إذا صَلَّى الفجرَ التفت إلى أصحابه فقال: هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟[١]

... لكنه ﷺ حَدَّدَ فائدة الرؤيا بـ «التبشير»، وما في معناه (والله أعلم)؛ كالتحذير، أما التشريع فلا تشريع في يقظة ولا منام بعد موته ـ عليه الصلاة والسلام.

وليس كل ما يراه الإنسان في المنام رؤيا، بل هناك «الحلم»[٢]، وهو من الشيطان، وقد نَهَى النبي ﷺ أن يُخْبِرَ الإنسان بِتَلَاعُبِ الشيطان به في المنام[٣].

وهناك حديث النفس، فَإِذَا شغل أمر من الأمور بال الإنسان تراءى له في المنام.

وقد يكون ما يراه بسبب اعتلال المزاج واختلاله، أو الشبع أو الجوع أو غيرهما.

---

(١) رواه البخاري (٧٠٤٧)، وانظر: «الفتح» (١٢/٤٣٩) وما بعدها.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان آخر الزمان، لم تكد رؤيا المؤمن تكذب، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثًا، والرؤيا ثلاثةٌ: رؤيا بشرى من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ورؤيا مما يحدِّث الإنسان نفسه، ورؤيا من تحزين الشيطان، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فلا يحدّث به، وليقم وليصلِّ، والقيدُ في المنام ثباتٌ في الدين، والغُلُّ أكرهُهُ». (البخاري: ١٢/٣٥٦، ٣٥٩)، ومسلم (٢٢٦٣)، وانظر «شرح السنة» للبغوي: (١٢/٢٠٨).

(٣) عن جابر رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رجُلٌ وهو يخطب، فقال: يا رسول الله رأيت فيما يرى النائم البارحة كأن عُنقي ضربت، فسقط رأسي، فأتبعتُه، فأخذتُهُ ثم أعدتُهُ مكانه، فقال رسول الله ﷺ: «إذا لعب الشيطان بأحدكم في منامه، فلا يحدّثن به الناس» أخرجه مسلم (٢٢٦٨)، وانظر: «شرح السنة» للبغوي (١٢/٢١٢)..

وقد قَرَأْتُ أن أحد الروائيين المشهورين كان يأكل أكلة ثقيلة، ثم ينام، فإذا استيقظ دوَّن ما رأى على شكل «رواية»، أو قصة يتداولها الناس، ويتعجبون من خيال هذا الكاتب!

ومرة أخرى يجب التأكيد أن الداعية أو الواعظ لا يجدر به أن يَتَسَاهَلَ في حكاية الروايات الواهية، والموضوعة، والمشكوك فيها.. أن فلانًا رأى وفلانًا رأى.. ورأى رجل صالح فيما يرى النائم.. ورأت امرأة صالحة.

وما يدرينا نحن عن صلاحها؟ وقد يكون الإنسان ظاهِرُهُ الصلاح، لكن فيه «غفلة الصالحين»، فيحدِّث بكل ما يسمع.

وفي مقدمة صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»[١].

لقد أصبحت سيرة بعض الدُّعَاة والمصلحين تُلَاكُ في كثير من المجالس، بسبب حَشْدِهِمْ لهذه الأقاصيص، وهذه الرؤى، والأحلام، وتوثيقهم لها، بدون تثبت، وعدم تقدير نوعية المخاطبين، ومستوى عقولهم.

وإنه لمن الخطإ أن نَرْبِطَ إيمان الناس بأمر شرعي برؤيا حادثة، من حق أي إنسان أن لا يصدقها، أو أن يَشُكَّ فيها، فنستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

وخلاصة الأمر أن لا يستكثر الواعظ من سرد الرؤى، بل يجعلها كالملح، إن زاد ضر، وإن نقص ضر، على أن يكون وفق الضوابط التالية:

- لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا حَلَالٌ وَلَا حَرَامٌ وَلَا تَشْرِيعٌ.
- لَا تَكُونُ مُشْتَمِلَةً عَلَى تَهْوِيلٍ أَوْ مُبَالَغَةٍ يَأْبَاهَا الْعَقْلُ السَّلِيمُ، فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ عَدُّوا الْمُبَالَغَةَ فِي الْحَدِيثِ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى وَضْعِهِ.. فَمَا بَالُكَ بِالرُّؤْيَا؟

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٧٢/١).

- أَلَّا يُرْبَطَ إِيمَانُ النَّاسِ بِهَا، بَلْ يُوَجَّهُونَ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيُرَبَّوْنَ عَلَى تَعْظِيمِهِمَا، وَالرُّؤْيَا لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ مُبَشِّرَةً أَوْ مُحَذِّرَةً.
- أَلَّا يَتَسَرَّعَ فِي التَّوْثِيقِ فِي أُمُورٍ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهَا بِنَفْسِهِ، وَلَا يُبَالِغَ فِي حُسْنِ الظَّنِّ بِمُحَدِّثِيهِ.

على أن يُشْرَحَ للناس الموقف الشرعي الصحيح من الرؤيا، وأنواع ما يراه الإنسان في المنام، وآداب الرؤيا.. إلخ). اهـ.[١]

وعيد من كذب في منامه

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال رسول الله ﷺ: «من تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لم يره، كُلِّف أن يعقد بين شعيرتين، ولن يفعل»[٢]، وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «مِن أفرى الفِرى أن يُرِيَ عينَه ما لم تَرَ»[٣].

* * * * *

(١) «قضايا في المنهج» ص (١٩-٢٣) بتصرف يسير.

(٢) رواه البخاري في «التعبير» (٧٠٤٢) (١٢/٤٢٧)، وتحلَّم: تكلَّف الحلم، بأن زعم أنه رأى رؤيا في حال كونه كاذبًا في دعواه، قوله: ولن يفعل: لأن فتل إحداهما بالأخرى غير ممكن عادة، فهو يُعذَّب حتى يفعل ذلك، ولا يمكنه فعله، فيدوم عذابه.
قال المناوي ـ رحمه الله ـ: «وإنما شُدِّد الوعيد على ذلك مع أن الكذب في اليقظة قد يكون أشد مفسدة منه؛ إذ قد يكون شهادة في قتل أو حَدٍّ؛ لأن الكذب في النوم كذب على الله تعالى، لأن الرؤيا جزء من النبوة، وما كان من أجزائها فهو منه تعالى، والكذب على الخالق أقبح منه على المخلوق» اهـ. من «فيض القدير» (٦/٩٩).

(٣) رواه البخاري (٧٠٤٣) (١٢/٤٢٧)، وأفرى الفِرى: أعظم الكذبات.
واقعة طريفة: جاء في هامش «البداية والنهاية» (١٣/١٢٠) أن أعرابيًّا جاء إلى «قان»، وقال له: رأيت في النوم أباك جنكيز خان، فقال لي: «قل لابني قان يقتل المسلمين»، وكان قان يميل إلى المسلمين، مخالفًا لأهل بيته، فسأل الرجل: «هل تعرف اللغة المغولية؟» فقال: لا، فقال الملك له: «أنت كاذب، لأن أبي ما كان يعرف من اللغات ودرس غير المغولية»، فأمر بضرب عنقه، وأراح المسلمين من كيده.

مَنَامَاتٌ فِي خِدْمَةِ الْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ

● قال ابن عربي:

«إني رأيت رسول الله ﷺ في مُبَشِّرَةٍ - رؤيا - أُرِيتُهَا في العشر الأواخر من المحرم سنة ٦٢٧هـ بدمشق، وبيده كتاب، فقال: هذا كتاب «فصوص الحِكَم»، خذه، واخرج به إلى الناس[١].

● وزعم ابْنُ الْفَارِضِ:

أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام، فسأله - أي النبي - عن قصيدته التائية الكبرى، بِمَ سَمَّاهَا؟ فأجابه ابن الفارض بأنه سماها «لوائح الجنان، وروائح الجنان»، فقال له النبي: لا، بل سَمِّهَا «نظم السلوك».. ومن هنا كان الاسم عنوانًا على هذه القصيدة، اشْتُهِرَتْ به[٢].

● إن من عادة الصوفية اختلاقَ القصص «الإرهابية»؛ لترهيب الناس من مخالفتهم أو الإنكار عليهم:

قال النبهاني: «قال المناوي: قال لي فقيه عصره شيخنا الرملي: إن بعض المنكرين رأى أن القيامة قد قامت، ونُصِبَتْ أوانٍ في غاية الكِبَر، وأُغْلِيَ فيها ماء يتطاير منه

---

(١) «الكتاب التذكاري لمحيي الدين بن عربي» ص (١٣٥) ط. القاهرة - ١٣٨٩هـ، وليت شعري كيف يقر رسول الله ﷺ كتاب «فصوص الحكم» الذي يقول فيه الإمام ولي الدين أبو زرعة العراقي رحمه الله: «لا شك في اشتمال الفصوص المشهورة عنه على الكفر الصريح الذي لا شك فيه، وكذلك فتوحاته المكية، فإن صح صدور ذلك عنه، واستمر إلى وفاته، فهو كافر مخلد في النار بلا شك» اهـ. من «تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي» للعلامة برهان الدين البقاعي ص (١٣٥).

(٢) «ابن الفارض» للدكتور محمد مصطفى حلمي ص (١٩٦)، وابن الفارض قال فيه العلامة بدر الدين حسين بن الأهدل: «واعلم أن ابن الفارض من رءوس أهل الاتحاد» اهـ. من «تنبيه الغبي» ص (٥٦)، وفي القصيدة المشار إليها يناجي ابن الفارض ربه مخاطبًا إياه - تَعَالَى - وتقدس - بضمير المؤنث، كما في «ديوان ابن الفارض» المكتبة الثقافية. بيروت ص (٣٢-٣٨)، قال البقاعي رحمه الله: «قد صارت نسبة العلماء له - أي ابن الفارض - إلى الكفر متواترة تواترًا معنويًّا» اهـ. من «تنبيه الغبي» ص (٢١٧).

الشرر، وجيء بجماعة ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فصُلِقوا فيه حتى تَهَرَّى اللحم والعظم، فقال: ما هؤلاء؟ قال: «الذين ينكرون على ابن عربي وابن الفارض»[١].

● **الأَمِيرُ بُرْهَان نِظَام شَاهْ:**

الذي تَشَيَّعَ وبالغ في ذلك، حتى إنه أمر الناس أن يسبوا الخلفاء الثلاثة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ في المساجد، والأسواق، والشوارع، وجعل الأرزاق السَّنِيَّة للسابين من خزانته، وقتل، وأسر خلقًا كثيرًا من أهل السنة والجماعة، وسبب ذلك على ما ذكره محمد قاسم الشيعي البيجابوري في تاريخه: (أن ولده عبدالقادر ابْتُلِيَ بمرض عسير، عجز الأطباء عنه، واستيأس الناس من حياته، وكان برهان شاه يبذل النقود والجواهر والأموال الطائلة فيه، فبَشَّرَهُ الشيخ طاهر[٢] ذات يوم بشفائه، وعهد إليه أن يخطب للأئمة[٣] في الجُمَعِ، والأعياد، ويروج مذهبهم في بلاده، فعاهده برهان شاه.

ورأى في تلك الليلة كأن رجلًا يقدم عليه، وستة رجال معه في جانبه الأيمن، وستة كذلك في جانبه الأيسر، وقيل له: «إن القادم هو سيدنا محمد رسول الله ﷺ، ومعه الأئمة من أهل البيت»، فَسَلَّمَ عليه برهان شاه، فقال له الرجل القادم: «إن الله ـ سبحانه ـ قد شفى ولدك، فعليك أن تجتهد فيما أشار إليه ولدي طاهر»، ثم انتبه برهان شاه من نومه، فرأى أن ولده قد شفاه الله ـ سبحانه ـ في تلك الليلة، فَتَلَقَّنَ من الطاهر مذهب الإمامية من الولاء والبراء، وتشيَّع، وتَشَيَّعَ أهل بيته، وخدمُه نحو ثلاثة آلاف، وصار الطاهر مقضيَّ الأمر في ترويج مذهبه بأرض الدكن)[٤].

---

(١) «جامع كرامات الأولياء» للنبهاني (٢/٢١٨) ط. دار صادر ـ بيروت.

(٢) هو طاهر بن رضى الإسماعيلي القزويني الذي أمر بقتله إسماعيل بن الحيدر الصفوي سلطان الفرس، فخرج من بلاده، وقدم الهند، ثم استقدمه برهان شاه، وبنى له مدرسة يدرس بها، وكان يحضر دروسه العلماء كلهم، ويحضر برهان شاه أيضًا لميله إلى العلم، ويجلس عنده إلى آخر البحث، حتى إنه كان يحقن الماء في البطن، ولا يخرج من ذلك المجلس لقضاء الحاجة.

(٣) أي أئمةِ الرافضة الاثنى عشر.

(٤) «المختار المصون من أعلام القرون» (٢/٨٤٦)، وانظر: «فرق الهند» ص(٥٧٩ ـ ٥٨٠).

● عَصَا الْعَيْدَرُوسِ:

فيما يلي قصة «منامٍ» لوَّح به الشيخ عبدالقادر العيدروس في كتابه «تعريف الأحياء بفضائل الإحياء»، ورفعها كعصا يهدد بها كل من ينكر على أبي حامد الغزالي، وعلى «إحيائه»؛ حيث قال:

«وذكر اليافعي أن أبا الحسن بن حرزهم الفقيه المشهور المغربي - كان بالغ في الإنكار على كتاب إحياء علوم الدين - وكان مُطَاعًا مسموع الكلمة -، فأمر بجمع ما ظفر به من نسخ الإحياء، وهَمَّ بإحراقها في الجامع يوم الجمعة، فرأى ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع، فإذا هو بالنبي ﷺ فيه، ومعه أبو بكر وعمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -. والإمام الغزالي قائم بين يدي النبي ﷺ، فلما أقبل ابن حرزهم قال الغزالي: «هذا خصمي يا رسول الله، فإن كان الأمر كما زعم تُبْتُ إلى الله، وإن كان شيئًا حصل من بركتك، واتباع سنتك، فخذ لي من خصمي، ثم ناول النبي ﷺ كتاب الإحياء، فتصفحه النبي ﷺ ورقة ورقة، من أوله إلى آخره، ثم قال: والله إن هذا لشيء حسن. ثم ناوله الصِّدِّيق رضي الله عنه، فنظر فيه، فاستجاده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق إنه لشيء حسن، ثم ناوله الفاروق عمر رضي الله عنه، فنظر فيه، وأثنى عليه، كما قال الصِّدِّيق، فأمر النبي ﷺ بتجريد الفقيه علي بن حرزهم عن القميص، وأن يُضْرَبَ ويُحَدَّ حدَّ المفتري، فجُرِّد وضُرِبَ، فلما ضُرِبَ خمسة أسواط تَشَفَّعَ فيه الصدِّيقُ رضي الله عنه، وقال: يا رسول الله، لعله ظن فيه خلاف سنتك، فأخطأ في ظنه، فَرَضِيَ الإمام الغزالي، وقبل شفاعة الصِّدِّيق. ثم استيقظ ابن حرزهم، وأَثَرُ السياط في ظهره، وأعلم أصحابَهُ، وتاب إلى الله عن إنكاره على الإمام الغزالي واستغفر، ولكنه بقي مدة طويلة متألِّمًا من أثر السياط»[1].

---

(١) «تعريف الأحياء بفضائل الإحياء» ملحق بآخر «الإحياء»، وانظر: «طبقات الشافعية» للسبكي (٤/١٣١- ١٣٢).

وهذا الحُلْم مما يقطع ببطلانه، وكذبه؛ وذلك لما تضمنه «الإحياء» من الضلالات والطامَّات[١]، وهو الذي يقول فيه الإمام أبو بكر الطُّرطوشي ـ رحمه الله ـ: «شحن أبو حامد «الإحياء» بالكذب على رسول الله ﷺ، فلا أعلم كتابًا على بَسِيطِ الأرض أكثرَ كذبًا منه»[٢]، ولذلك أفتى علماء الدولة المرابطية بتحريقه.

ومن ذلك ما رواه ابن عساكر ـ رحمه الله ـ بسنده إلى أبي الفتح الساوي أنه كان في المسجد الحرام، فغلبه النوم، فرأى عرصة واسعة فيها ناس كثيرون واقفين، وفي يد كل واحد منهم كتاب مجلد، قد تحلقوا كلهم على رسول الله ﷺ، يَعْرِضُونَ أن يقرءوا عليه من كتبهم، إلى أن قال: فلما رأيت أن القوم قد فرغوا، وما بقي أحد يقرأ عليه شيئًا، تقدمت قليلًا، وكان في يدي كتاب مُجَلَّدٌ، فناديت وقلت: يا رسول الله هذا الكتاب معتقدي، ومعتقد أهل السنة، لو أذنت لي حتى أقرأه عليك؟ فقال: وأَيْشِ ذاك؟ قلت: يا رسول الله، هو قواعد العقائد الذي صَنَّفَهُ الغزالي، فَأَذِنَ لي في القراءة، فقعدت وابتدأت، وقرأت عليه الكتاب[٣].

وليت شعري كيف يمثل «قواعد العقائد» عقيدة أهل السنة والجماعة، وهو كتاب مبني على المذهب الأشعري، وقد شحن بأساليب علم الكلام الذي ذمَّه السلف، ونَفَّروا منه، وهو كتاب يحوم حول شرح صفات المعاني السبع: الحياة، والقدرة، والعلم، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، كما أنه مُشْتَمِلٌ على الجوهر، والعَرَض، ونحوهما من عبارات المتكلمين المبتدعة، فما كان هذا شأنه يستحيل أن يرضى عنه، أو يقبله رسول الله ﷺ.

---

(١) راجع في بيانها مفصلة «أبو حامد الغزالي والتصوف» للشيخ عبدالرحمن دمشقية ـ ط. دار طيبة ـ الرياض.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٩/٣٢٨).

(٣) انظر: «تبيين كذب المفتري» ص (٢٩٧- ٢٩٩).

● أَضْرِحَةُ الْمَنَامَاتِ .. وَالْمَزَارَات الْمَزُوَّرَات:

تُوجَدُ في كثير من بلاد العالم الإسلامي مقابر وهميةٌ يُزْعَمُ أنها مقابرُ لأولياءَ صالحين، ويَرْجِعُ الفضل في بنائها إلى «رُؤًى منامية»؛ إذ يكفي عند القوم أن يَدَّعِيَ مُدَّعٍ أنه رأى رؤيا تُكَلِّفُهُ ببناء قبر أو قبة فوق المكان الفلاني؛ ليصبح مزارًا لأحد الأولياء.

ومن أشهر أضرحة الرؤيا: مشهد السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ بالقاهرة، أقامته زوجة الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله[١]، وكذا ضريح السيدة سُكَيْنَة بنت الحسين ابن علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -[٢].

ومنها: القبر المنسوب إلى زينب بنت علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما - بالقاهرة، فإنه كذب لا أصل له، ويقال: إن موضعه كان ساقية، فلما رأى صاحبها أنها لا تغل له مع التعب إلا اليسير، زعم للناس: أَنَّهُ رأى زينب في المنام، تأمره أن يُقِيمَ لها قبة في هذا المكان؛ فأقامها، وأعانه العوام، ثم كان سادنًا لها، فجاءته الأموال الكثيرة[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - تَعَالَى -: «حدثني بعض أصحابنا أنه ظهر بشاطئ الفرات رجلان، وكان أحدهما قد اتخذ قبرًا تُجْبَى إليه أموال ممن يزوره، ويُنْذَرُ له من الضُّلَّال، فعمد الآخر إلى قبر، وزعم أنه رأى في المنام أنه قبر عبدالرحمن بن عوف، وجعل فيه من أنواع الطيب ما ظهرت له رائحة عظيمة»[٤].

وقال شيخ الإسلام: «وغالب ما يَسْتَنِدُ إليه الواحد من هؤلاء: أن يَدَّعِي أنه رأى منامًا، أو أنه وجد بذلك القبر علامة تدل على صلاح ساكنه: إما رائحة طيبة، وإما توهم خرق عادة ونحو ذلك، وإما حكاية عن بعض الناس: أنه كان يُعَظِّمُ ذلك القبر.

---

(١) «الآثار الإسلامية في مصر من الفتح العربي حتى نهاية العصر الأيوبي» لمصطفى عبدالله شيحة ص(١٤٣).
(٢) «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» (١/١٠٢).
(٣) «صراع بين الحق والباطل» ص (١١١).
(٤) «مجموع الفتاوى» (٢٧/٤٥٩).

فأما المنامات فكثير منها ـ بل أكثرها ـ كذب، وقد عرفنا في زماننا بمصر، والشام، والعراق من يَدَّعي أنه رأى منامات تتعلق ببعض البقاع أنه قبر نبي، أو أن فيه أثر نبي، ونحو ذلك، ويكون كاذبًا، وهذا الشيء مُنْتَشِرٌ، فرائي المنام غالبًا ما يكون كاذبًا، وبتقدير صِدْقِهِ: فقد يكون الذي أخبره بذلك شيطان، والرؤيا المحضة التي لا دليل يدل على صِحَّتِهَا لا يجوز أن يثبت بها شيء بالاتفاق؛ فإنه قد ثَبَتَ في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «الرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ: رُؤْيَا مِنَ اللَّهِ، وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ بِهِ الْمَرْءُ نَفْسَهُ، وَرُؤْيَا مِنَ الشَّيْطَانِ».

فإذا كان جنس الرؤيا تحته أنواع ثلاثة، فلا بد من تمييز كل نوع منها عن نوع»[١].

هَذِهِ الظَّاهِرَةُ.. إِلَى مَتَى؟

تقول الرواية: «مرضت فتاة مرضًا شديدًا أعيا الأطباء، وفي ذات ليلة بكت حتى جاءها النوم، وهي على تلك الحال، فرأت أم المؤمنين زينب، فوضعت في فمها شيئًا من القطران، وطلبت منها أن تكتب أذكارًا معينة ثلاث عشرة مرة، وتطلب من الناس أن يكتبوها، فلما استيقظت الفتاة وجدت نفسها قد شُفِيَتْ من المرض تمامًا، وقامت بكتابة الورقة ثلاث عشرةَ مرة، ووزعتها، فحدث التالي:

- أول ورقة وقعت في يد رجل فقير فكتبها ثلاث عشرة مرة، ووزعها، فجاءته أموال طائلة بعد ثلاثة عشر يومًا.
- والورقة الثانية وقعت في يد غني، فمزقها، فذهبت أمواله كلها بعد ثلاثة عشر يومًا.
- والورقة الثالثة: وقعت في يد رجل على رأس عمل كبير، فسخر منها، ففُصِلَ من العمل بعد ثلاثة عشر يومًا.
- تقول الرواية: فعليك أخي المسلم، أختي المسلمة، أن تقوموا بكتابة هذه الورقة، وتوزيعها؛ لتنالوا من الله كل ما تحبون في إرادته»

(١) «السابق» (٢٧/٤٥٧- ٤٥٨).

● **ويعلق الشيخ سلمان العودة على هذه «الخرافة» قائلًا:**

إنه نوع من «الإرهاب الفكري» المدمِّر.

لا تستخدم عقلك، ولا تناقش؛ لئلا يصيبك ما أصاب هؤلاء، واحذر أن تمزق تلك الورقة «الأسطورة»؛ لئلا تفقد عملك، أو تفقد مالك.. وربما تفقد دينك ـ هكذا يزعمون ـ.

إن الوحي قد انتهى فلا يتنزل على أحد بعد النبي ﷺ، ومع ذلك، فإن من المسلمين من يشرِّعون تشريعات جديدة، لم ترد في الوحي، ويُحَذِّرون من يخالفها بالعقاب والعذاب، ويُبَشِّرُونَ من يفعلها بالتوفيق.. فكيف تنطلي هذه الألاعيب السخيفة على مسلم قرأ في التنزيل:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المَائدة: الآية ٣] .

إننا نعلم يقينًا أن الإنسان قد يترك أعظم شعائر الدين العملية ـ وهي الصلاة ـ، ومع ذلك يظل مرزوقًا معافًى في دنياه؛ لأن الدنيا ليست دار جزاء ولا حساب، والأصل أن الجزاء والحساب في الآخرة، بل نجد قومًا كُفَّارًا لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، ومع ذلك وَسَّعَ الله عليهم في الرزق، وأعطاهم من العلم المادي، والحضارة المادية، ما لم يُعْطِ غيرهم.

فالدنيا دار بلاء، وليست دار جزاء.

فكيف يأتي من يستخف بعقول بعضنا، ويزعم أن من لم يَفْعَلْ كذا أصابه بعد أيام معدودة ما يكره، ومن فعله لَقِيَ ما يحب؟!

وهذا الفعل المطلوب ليس واجبًا، ولا مُسْتَحَبًّا، بل ولا مباحًا، إنما هو بدعة منكرة، وخرافة غليظة.

ثم لنتساءل: هل هذه الكتابة «عبادة»، أم أنها «عمل دنيوي محض»؟

فإذا كانت عبادة، فهي مردودة؛ لأن الإنسان أراد بها الدنيا، وحفظ المال، والوظيفة، والصحة، ولم يُرِدْ بها وجه الله ـ تَعَالَى.

وإذا كانت عَمَلًا دنيويًّا فهي ـ أيضًا ـ مرفوضة؛ لأنها ليست من الأسباب المادية، والذي يُرِيدُ المحافظة على الوظيفة عليه أن لا يتأخر عن وقت الدوام، وأن يؤدي مسئولياته، وأن يُحْسِنَ استقبال المراجعين، ويبني علاقته مع رؤسائه على أساس صحيح.

وهكذا حفظ المال والصحة وغيرهما له أسبابه المادية المعروفة، وليس هذا العمل منها بحال.

ثم لماذا رقم (١٣)؟

لقد جاء في الشرع الذكر مرة واحدة، وثلاث مرات، وسبع مرات، وعشر مرات، ومائة مرة، أما ثلاثَ عشرةَ مرة فليس لذلك نظير في الشرع مطلقًا؟

وأخيرًا: من الذي يَرْوِي هذه الأكذوبة المُلَفَّقَة المخترعة؟

فتاة مريضة؟ ومن هي؟ ومن يقول إنها صادقة؟ ومن يروي عن هذه الفتاة؟ إنها رِوَايَةٌ مسلسلة بالمجهولين، والكذَّابين، والأفَّاكين، وهؤلاء لا تُقْبَلُ شهادتهم على بَصَلَةٍ، فما دونها، فكيف تُقْبَلُ روايتهم في أمر كهذا؟!

وحتى لو كان الرواة من أساطين الثقات، فإنهم إذا حدَّثوا بمثل هذا الكذب البواح سقطت عدالتهم، وذهبت الثقة بهم، وتُرِكُوا، ووجب ردعهم وتعزيرهم، ومنعهم من التغرير بعقول السُّذَّجِ والبُلْهِ، والله المستعان، وأنَّى لأساطين الثقات أن يحدثوا بمثل هذا؟»[1]. اهـ.

---

(١) «قضايا في المنهج» ص (١٥- ١٨) بتصرف.

ونظير هذه الرواية ما يشيع من وقت إلى آخر من أن فتاة رأت رسول الله ﷺ في المنام، وقال لها: «إن الساعة ستكون قريبًا، وعلامة ذلك أن تفتحي مصحفًا قديمًا فتجدي فيه شعرة»، فترى الناس يُهْرَعُون إلى فحص مصاحفهم للتفتيش عن الشعرة المزعومة.

رُؤْيَة رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَنَامِ

قد يظُنُّ بعض الناس أن هناك نوعًا من الرؤيا لا يحتاج إلى تبين، فهي عندهم صادقة أبدًا، وهي رؤية رسول الله ﷺ في المنام، ولا شَكَّ أن رؤيا الرسول ﷺ حقٌّ وصدقٌ؛ وذلك لما ثبت من قوله ﷺ: «مَنْ رَآنِي فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَزَايَا بِي»[(١)]، وقوله ﷺ: «من رآني فإني أنا هو، فإنه ليس للشيطان أن يتمثل بي»[(٢)]، وقوله ﷺ: «مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَسَيَرَانِي فِي الْيَقَظَةِ، وَلَا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي»[(٣)]، وقوله ﷺ: «مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي، إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلشَّيْطَانِ أَنْ يَتَمَثَّلَ فِي صُورَتِي»[(٤)].

ولكن ينبغي أن نَعْلَمَ أن رُؤْيَا الرسول ﷺ تكون حقًّا إذا كانت الصورة المرئية له هي صورته الحقيقية التي كان عليها، أما إذا رُؤِيَ بصورة غير صورته، وزعمت الصورة المرئية أنها الرسول، فالأمر ليس كذلك، فالممنوع أن يَتَمَثَّلَ الشيطان في الصورة الحقيقية للرسول ﷺ أما أن يزعم الشيطان أنه الرسول، وقد تَمَثَّلَ في صورة غير صورة الرسول، فهذا أمر لم ينفِهِ الحديث.

---

(١) رواه من حديث أبي قتادة رضي الله عنه البخاري (٦٩٩٦) (١٢/٣٨٣)، ومسلم (٢٢٦٧).

(٢) رواه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه الترمذي (٢٢٨٠)، وهو في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٨٥٩).

(٣) رواه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٦٩٩٣) (١٢/٣٨٣)، ومسلم (٢٢٦٦) (١١).

(٤) رواه من حديث جابر رضي الله عنه الإمام أحمد (٣/٣٥٠)، ومسلم (٢٢٦٨) (١٢)، وابن ماجه (٣٩٠٢).

إذن هناك فرق كبير بين أن يقول: «من رآني»، وبين: «من رأى شخصًا يدعي أنه أنا»، أو «من رأى شخصًا وظن أنه أنا»، فإن قوله ﷺ : «من رآني» يعني رؤيته ﷺ بشكله، وصورته التي كان عليها.

وهناك فرق ـ أيضًا ـ بين قوله ﷺ : «فإن الشيطان لا يتمثل بي»، وبين: «فإن الشيطان لا يدعي أنه أنا»؛ فالأولى تعني أن الشيطان لا يستطيع أن يتراءى بصورة الرسول ﷺ ، وشكله الذي كان عليه في حياته؛ بحيث لو رآه أحد الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ لعرفه ﷺ .

إن الشيطان ممنوع من أن يتمثل بشخص النبي ﷺ، ولكن ليس ممنوعًا من أن يقول: «أنا رسول الله»، ويكون في صورة غير صورته ﷺ .

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: (وقوله: «لا يستطيع أن يتمثل بي» يشير إلى أن الله ـ تَعَالَى ـ وإن أمكن الشيطان من التصور في أي صورة أراد، فإنه لم يُمَكِّنه من التصور في صورة النبي ﷺ . وقد ذهب إلى هذا جماعة فقالوا في الحديث: إن محل ذلك إذا رآه الرائي على صورته التي كان عليها)[1] .

وروى الحافظ في «الفتح» (من طريق إسماعيل بن إسحاق القاضي، عن سليمان بن حرب، وهو من شيوخ البخاري، عن حَمَّاد بن زيد، عن أيوب قال: «كان محمد ـ يعني ابن سيرين ـ إذا قَصَّ عليه رجل أنه رأى النبي ﷺ قال: «صِفْ لي الذي رأيته»، فإن وصف له صفة لا يعرفها قال: «لم تَرَهُ»، وسنده صحيح، ووجدت له ما يؤيده: فأخرج الحاكم من طريق عاصم بن كليب: حَدَّثَني أبي قال: قلت لابن عباس: «رأيت النبي ﷺ في المنام»، قال: «صِفْهُ لي»، قال: «ذكرت الحسن بن علي، فشبهته به»، قال: «قَدْ رَأَيْتَهُ»، وسنده جيد)[2] .

وقصة الشيخ عبدالقادر مع الشيطان معروفة، وذلك حين قال له الشيطان: «أنا

---

(١) «فتح الباري» (١٢/٣٨٦).

(٢) «السابق» (١٢/٣٨٤).

ربك، قد أبحتك من فرائضي»، فقال له الشيخ: «اخْسَأْ يا عدو الله»، فقال الشيطان: «غَلَبْتَنِي بفقهك يا عبدالقادر»، فَسُئِلَ عن كيفية وقوفه على خُدْعَةِ الشيطان، فقال: إن الشيطان قال: «أنا ربك»، ولم يجرؤ على أن يقول: «أنا الله»، وزعم أنه قد أَحَلَّنِي من فرائض العبادات، والله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لم يُحِلَّ ذلك لنبيه ﷺ، فكيف يحلها لي؟

فإذا كان يُمْكِنُ للشيطان أن يقول أنا ربك، ألا يمكنه أن يقول «أنا النبي»، من غير أن يتمثَّل بالنبي ﷺ بالضرورة[1].

نَمَاذِجُ مِنْ الِاسْتِغْلَالِ السَّيِّئِ لِمَا يُزْعَمُ مِنْ رُؤْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَنَامِ

وإن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قول الشعراني في «مختصره لتذكرة القرطبي»:

فقد حكى اختلافَ الناس في موضع رأس الحسين رضي الله عنه، وحكى قول القرطبي: إن أصح ما قِيلَ فِيهِ إِنَّهُ دُفِنَ بالبقيع عند قبر أمه، فاطمة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ، ثم قال: «وبه قال الزبير بن بَكَّار الذي هو أعلم بالأنساب، قال القرطبي ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ: وما ذكر أنه في عسقلان في مشهد هناك، أو بالقاهرة، فشيء باطل لا يصح، ولا يثبت»[2].

ثم قال الشعراني: ومما وقع لي أنني قلت لسيدي الشيخ شهاب الدين بن شلبي الحنفي مفتي المسلمين رضي الله عنه:

«أترى أن تزور معنا رأس الحسين في المشهد بخان الخليلي؟ فقال: إنه لم يثبت كون الرأس هناك»[3]، قلت له: «نزوره بالنية على تقدير صحة ذلك»، فقال: نعم، فلما

(١) انظر: «شبهات أهل الفتنة وأجوبة أهل السنة» ص (٣٩٤).

(٢) «التذكرة» ص (٦٦٧-٦٦٨).

(٣) وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ـ تَعَالَى ـ: «بل المشهد المنسوب إلى الحسين بن علي=

دخلنا مقصورته بالمشهد قلت للشيخ: «اجلس مراقبًا بقلبك للرأس»، فجلس متخيلًا لها في ذهنه، فحصل له ثِقَلُ رأسٍ، فنام فرأى نقيبًا مشدود الوسط، قد خرج من القبر، فما زال بصره يتبعه حتى دخل مقصورة رسول الله ﷺ، وقال له: يا رسول الله إن الشيخ شهاب الدين بن الشلبي، وعبدالوهاب الشعراني - يزوران رأس ولدك الحسين، فقال ﷺ : «تَقَبَّل الله منهما»، انتهى، فاستيقظ الشيخ شهاب الدين، وتواجد حتى وقعت عمامته من فوق رأسه، وقال: آمنت وصدقت بأن الرأس هنا، وحكى الواقعة، ولم يزل يزوره حتى مات، فزر يا أخي هذا المشهد بالنية الصالحة إن لم يكن عندك كشف[1]. فقول الإمام القرطبي - رحمه الله - تَعَالَى -: «إن دفن الرأس في مصر باطل»؛ صحيح في أيام القرطبي؛ فإن الرأس إنما نقلها طلائع بن رُزِّيْك بعد موت القرطبي[2]، فافهم، والله - تَعَالَى - أعلم[3]. اهـ.

الْوَصِيَّةُ الخُرَافِيَّةُ الْمُزْمِنَةُ

● ولعل أشهر ما زَوَّرَهُ الكَذَّابُونَ، وروَّجه الأفَّاكُونَ - الوصية المنحولة المنسوبة إلى

= - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - الذي بالقاهرة كذب مختلق، بلا نزاع بين العلماء المعروفين عند أهل العلم، الذين يرجع إليهم المسلمون في مثل ذلك لعلمهم وصدقهم» اهـ. من «مجموع الفتاوى» (٢٧/٤٥١)، وقال أيضًا:

«فأصل هذا المشهد القاهري: هو ذلك المشهد العسقلاني، وذلك العسقلاني محدث بعد مقتل الحسين بأكثر من أربعمائة وثلاثين سنة، وهذا القاهري محدث بعد مقتله بقريب من خمسمائة سنة، وهذا مما لم يتنازع فيه اثنان ممن تكلم في هذا الباب من أهل العلم.. وهذا بينهم مشهور متواتر» اهـ «السابق» (٢٧/٤٥٦).

(١) فتأمل - رحمك الله - هذه المغالطة، وهذا القفز فوق كل المعايير العلمية ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النّجم: الآية ٢٣] .

(٢) وليت شعري كيف يتسنى ذلك وقد توفي طلائع بن رزيك سنة (٥٥٦هـ)، كما في «البداية والنهاية» (١٢/٢٤٣- ٢٤٤)، وتوفي القرطبي رحمه الله بعده بحوالي ١١٥ سنة إذ توفي القرطبي سنة (٦٧١هـ)؟!!

(٣) «مختصر التذكرة للقرطبي» ص (١٨٢- ١٨٣)، وانظر: «وفيات الأعيان» (٢/٥٣٠).

الشيخ أحمد، حامل مفاتيح حرم رسول الله ﷺ، وفيها يزعم أنه رأى رسول الله ﷺ في رؤيا، وأخبره بوصية يُبَلِّغُهَا أمته، وتحتوي هذه الوصية على سلسلةٍ من الوعود بالخير والبركة على من يكتب منها ثلاثين نسخة، ويُوَزِّعُهَا على معارفه، والتهديد بنزول النكبات والمصائب على من يهملها ولا يكتبها. ومن العجيب أن هذه الخرافة «مزمنة»، لا تكاد تخبو منذ أن ظهرت قبل عشرات السنين، فهي تعود إلى الانتشار من حينٍ لآخر، متجاوزة حُدود التاريخ والجغرافيا، فمِن ثَمَّ تعاقب العلماء على تناولها بالنقض والإبطال، ومنهم الشيخ محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ (ت ١٣٦٥هـ)؛ حيث قال ـ رحمه الله ـ في شأنها:

«إننا نتذكر أننا رأينا مثل هذه الوصية منذ كنا نتعلم الخط والتهجي إلى الآن مرارًا كثيرة، وكلها معزوة كهذه إلى رجل اسمه الشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية، والوصية مكذوبة قطعًا، لا يختلف في ذلك أحد شَمَّ رائحة العلم والدين، وإنما يصدقها البلداء من العوامِّ الأميين، ولا شَكَّ أن الواضع لها من العوامِّ الذين لم يتعلموا اللغة العربية؛ ولذلك وضعها بعبارة عامِّيَّة سخيفة، لا حاجة إلى بيان أغلاطها بالتفصيل؛ فهذا الأحمق المفتري ينسب هذا الكلام السخيف إلى أفصح الفصحاء، وأبلغ البلغاء ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ، ويزعم أنه وجده بجانب الحجرة النبوية مكتوبًا بخط أخضر، يريد أن النبي الأمي هو الذي كتبه، ثم يتجرأ بعد هذا على تكفير من أنكره؛ فهذه المعصية هي أعظم من جميع المعاصي التي يقول: إنها فشت في الأمة، وهي الكَذِبُ على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وتكفير علماء أمته، والعارفين بدينه، فإن كل واحد منهم يكذِّب واضع هذه الوصية بها، وقد قال المحدِّثون: إن قوله ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»، قد نُقِلَ بالتواتر، ولا شك أن واضع هذه الوصية مُتَعَمِّدٌ لكذبها، ولا ندري أهناك رجل يُسَمَّى الشيخ أحمد أم لا؟

أما تَهَاوُنُ المسلمين في دينهم، وتركهم الفرائض والسنن، وانهماكهم في المعاصي؛ فهو مُشَاهَدٌ، وآثار ذلك فيهم مشاهدة؛ فقد صاروا وراء جميع الأمم، بعد أن كانوا

بدينهم فوق جميع الأمم، ... ولا حاجة لمن يريد نصيحتهم بالكذب على الرسول، ووضع الرؤى التي لا يجب على من رآها أن يعتمد عليها شرعًا، بل لا يجوز له ذلك إلا إذا كان ما رآه موافقًا للشرع؛ فالكتاب والسنة الثابتة بين أيدينا، وهما مملوآن بالعِظَاتِ والعبر، والآيات والنذر»[١].

● وممن تناولها بالرد والإبطال مجلة «نور الإسلام»[٢]؛ إذ جاء فيها:

«بُلِيَ الإسلام بأشخاص يتخذون من الافتراء عليه طرقًا للتنفير منه، أو حبائل لاصطياد شيء من المال، ومن هذا القبيل صحيفة تشتمل على حكاية رؤيا منسوبة لشخص يُسَمِّي نفسه الشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية، وقد اخْتُرِعَتْ هذه الأكذوبة من مدة تزيد على أربعين سنة، ولا يزال مخترعها يتعهد بها الناس في الشرق والغرب من سنة إلى أخرى، وكثيرًا ما كتب أهل العلم في تزييفها وبيان ضلالاتها، ورجاؤنا اليوم في الخطباء والوُعَّاظِ أن يُنَبِّهُوا الأمة لفريتها، وسخافة عقل من يتقبلها، وقد ورد إدارة المجلة مقال مُحَرَّر بقلم فضيلة الأستاذ صاحب التوقيع، يكشف عن جهل كاتبها، وسوء قصده، وعظم وِزْرِهِ، وإليك ما كتب الأستاذ محمود ياسين:

«لا نزال بين آونة وأخرى نسمع خبر هذه الرؤيا، ويسوؤنا أن يتهافت الناس على طبعها، ونشرها، وقراءتها، وتعليقها على الجدران؛ رغبة في الوعد الذي وقع فيها، وهو قوله: «ومن يُصَدِّقْ بها يَنْجُ من عذاب النار»، وقوله: «ومن قرأها ونقلها من بلد إلى بلد؛ كان رفيق النبي ﷺ في الجنة، وكانت له شفاعته يوم القيامة»، ورهبة من الوعيد الذي تضمنته، وهو قوله: «ومن كذب بها كفر»، وقوله: «ومن قرأها ولم ينقلها كان خصم النبي ﷺ يوم القيامة».

---

(١) «فتاوى رشيد رضا» (١/ ٢٤٠- ٢٤٢) بتصرف، بواسطة «كتب حذر منها العلماء» (٢/ ٣٣٥-٣٣٦).

(٢) «المجلد الثالث» - الجزء الرابع - عدد ربيع الثاني ١٣٥١هـ ص (٢٨٩) وما بعدها، بواسطة «كتب حذر منها العلماء» (٢/ ٣٣٩- ٣٤٧) بتصرف.

كُنَّا في سنة (١٣٢١) هجرية نَشَرْنَا في الجزء السادس من المجلد الثالث من مجلة «الحقائق»؛ ردًّا مُمْتِعًا على هذه الفرية، وحَذَّرْنَا الناسَ من الوثوق بها، والاغترار بوعودها، ووَقَعَ إذ ذاك في خَلَدِنَا أنَّ صاحب هذه النشرة سيرتدع عن إعادة نشرها، وأنَّ الناس سيُعْرِضُونَ عنها، ولا يلتفتون بعد هذا إليها، ولكن خاب ما ظَنَنَّا، ولم نبلغ ما أملنا؛ فالكاذب لا يزال الفينةَ بعد الفينةِ ينشر فريته، ويذيع كذبته بين الناس، وهم لا يزالون يُقْبِلُونَ عليها، ويتقبلون ما فيها من تُرَّهَاتٍ وتغرير بالقبول الحسن، والعناية اللازمة.

ثم إن ناشرها جريًا مع الأيام قد عاد عليها بالتشذيب والتهذيب؛ فَنَقَّحَ وصَحَّحَ، وحذف منها كثيرًا من المفتريات التي كنا نبهنا عليها مثل قوله: «كنت ليلة الجمعة في اليوم الثاني والعشرين من شهر صفر الخير سنة كذا ـ مضطجعًا على وضوء كامل» ... إلخ، وقوله: «استحيت (كذا) من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وهو يقول لي: يا محمد، لأبدلن وجوههم، وأعذبهم عذابًا شديدًا. فقلت: يا رب، أمهلهم حتى أنذرهم وأبلغهم»... إلخ، وقوله: «يأحمد، إنهم قد سُلِبَ إيمانهم من كثرة الزنى»... إلخ، وقوله: «يأحمد، إن تارك الصلاة لا تمشوا بجنازته»، وقوله: «ومن اطلع عليها ولم يخبر بها الناس كان وجهه مُسْوَدًّا يوم القيامة»... إلخ، وقوله: «ومن كذَّب ولم يُصَدِّقْ بها ـ يعني الوصية ـ فهو ملعون، ثم ملعون، ثم ملعون ...» إلخ، وقوله: «من بعد ألف وثلاث ومئة وأربعين سنة يخرجن (كذا) النساء من بيوتهن إلى الأسواق، من غير إذن أزواجهن»... إلخ، وقوله: «وبعد ألف وثلاث مئة وخمسين ينزل من السماء مطر كبيض الدجاج، وبعد سنة (١٣٧٠) تغيب الشمس ثلاثة أيام»، وقوله: «وبعد ألف وأربع مئة يظهر المسيح الدجَّال».

وقوله: «فما كان، والله، والله، والله، وآيات الله، وأمانه، أنها مكتوبة بقلم القدرة»، وقوله: «ومن كان عنده ثلاثة دراهم واستأجر بهم (كذا)، وكتب هذه الوصية، وكان مُذْنِبًا، وعليه فرض صيام؛ غُفِرَتْ ذنوبه ببركة هذه الوصية».

كل هذه التُّرَّهَاتِ والأكذوبات قد حذفها هذا المفتري الكَذَّاب جَرْيًا مع الأيام كما

قلنا، وجاء إلينا الآن برؤيا، أو وصية ملخَّصة مشذَّبة، ومع ذلك، لم تَخْلُ مما يجب إنكاره، وفضيحة صاحبه، وإشهاره بين الناس بأنه كاذب أفَّاك متلاعب، مجترئ على الله ـ تَعَالَى ـ، وعلى رسوله ﷺ، القائل في الحديث الصحيح المتواتر الذي رواه الجم الكثير من الصحابة عنه ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»؛ أي: فليتخذ منزله منها.

«لو أن هذا الرجل الذي سَمَّى نفسه بالشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية كان ممن يخشون الله ـ تَعَالَى ـ، ويُعِدُّونَ العدة للقائه ـ سبحانه ـ، لما حَمَّل نفسه أقبح أنواع الكذب، وأشدها لله ـ تَعَالَى ـ سخطًا؛ حيث اعتاد أن يبني وصيته على رُؤْيَا منامية يحكيها للناس، وهُوَ في ذلك من الأفَّاكين الكذَّابين الدَّجَّالين؛ فقد صحَّ عنه ﷺ؛ أنه قال: «إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْفِرَى أَنْ يُدْعَى الرَّجُلُ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ يُرِيَ عَيْنَهُ فِي الْمَنَامِ مَا لَمْ تَرَ، أَوْ يَقُولَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ»، وقال ﷺ: «مِنْ أَفْرَى الْفِرَى أَنْ يُرِيَ عَيْنَهُ مَا لَمْ تَرَ».

● مِنِ افْتِرَاءَاتِ صَاحِبِ الْوَصِيَّةِ الْمَزْعُومَةِ

قوله: «قال الشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية الشريفة: قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: من قَرَأَهَا ونقلها من بلد إلى بلد؛ كان رفيقي في الجنة، وشفاعتي له يوم القيامة، ومن قرأها ولم ينقلها كان خصمي يوم القيامة»؛ لأن فيها إسنادَ حديث إلى النبي ﷺ كَذِبٍ موضوعٍ عليه، لا أصل له في الدين، ولا يحل نقله عنه ﷺ لأحد من المسلمين؛ فالعجب ممن يدعي أنه خادم الحجرة النبوية الشريفة؛ كيف يجرؤ هذه الجرأة، ويتقول على النبي ﷺ ما لم يَقُلْهُ، وما لا يجتمع مع أحكام دينه، وقواعد شريعته؟ وهذا وأمثاله يحملنا على أن نظن بهذا الرجل أنه ليس من المسلمين، بل عدو لهم متستر باسم خادم الحجرة النبوية الشريفة، يستهزئ بدينهم، وبأحكام شرعهم؛ فيجعل جزاء نقل وصية من بلد إلى بلد مرافقة النبي ﷺ في الجنة، واستحقاق شفاعته.

ومنها قوله: «ومن يصدق بها ينجو (كذا) من عذاب النار، ومن كذب بها كفر»؛

لأنَّ هذا الوعيد لا يصح أن يكون إلا لكتاب الله ـ تَعَالَى ـ، وما علم من الدين الإسلاميّ بالضرورة؛ كأركان الإيمان والإسلام، أما غير ذلك مما لا يجب الإيمان به شرعًا، فالتكذيب به ليس كفرًا، كما أن التصديق به لا يُنَجِّي من نار، ولا يمنع من عذاب، ومن هنا يعلم القارئ سَخَافَةَ عقل هذا الرجل الذي يسمي نفسه بالشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية الشريفة، وجهله، وقلة دينه، وجرأته على الله ـ تَعَالَى ـ وعلى شريعته، وأنه على ما نُرَجِّحُ متلاعب مستتر بهذا الاسم، لا يريد إلا الكيد للمسلمين وإيذاءهم.

«إن هذه الوصية تحمل في طَيَّاتِهَا دليل كذبها، ودليل تزويرها؛ فصاحبها يهدِّد الناس ويخوِّفهم إذا لم ينشروها أن تصيبهم المصائب، وتحلَّ بهم الكوارث، وأن يموت أبناؤهم، وأن تُفْقَدَ أموالهم، وهذا ما لم يقل به إنسان، حتى في كتاب الله، وفي سنة رسول الله ﷺ؛ لم يُؤْمَرِ الناس أن كلَّ مَنْ قرأ القرآن كتبه ونشره، وأن مَنْ قرأ «صحيح البخاري» كتبه ونشره، وإلا حلت به المصائب؛ فكيف بمثل هذه الوصايا التخريفيَّة؟! هذا شيء لا يمكن أن يصدِّقَهُ عقل مسلم، يفهم الإسلام فَهْمًا صحيحًا.

وتقول الوصية الزَّائفة: إنَّ فلانًا في البلد الفلاني نشر هذه الوصية؛ فرُزِقَ بعشرات الآلاف من الروبيات، هذا كله تخريف، وتضليل للمسلمين عن الطريق الصحيح، وعن اتباع السنن والأسباب التي وضع الله عليها نظام هذا الكون؛ فالرزق له أسبابه، وله طرائقه، وله سننه»[١].

● وقد أصدرت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء فتوى تُبْطِلُ هذه الوصية المزعومة، وهاك نَصَّها:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه، وبعد:

«من الممكن عقلًا الجائز شرعًا أن يرى المسلم في منامه النبي ﷺ على هيئته

---

(١) «فتاوى معاصرة» (١/١٨٧).

وصورته التي خلقه الله عليها؛ فتكون رؤيا حقٍّ، فإن الشيطان لا يتمثل به؛ لقوله ﷺ: «مَنْ رَآني في الْمَنَامِ فَقَدْ رَآني، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي». رواه الإمام أحمد والبخاري من طريق أنس، ولكن قد يكذب الإنسان فيدعي زورًا أنه رأى النبي ﷺ على صورته التي خَلَقَهُ الله عليها، والتي نُقِلَتْ إلينا نقلًا صحيحًا، وقد يرى في منامه شَخْصًا على غير الصفة الخِلْقية للنبي ﷺ ويُخَيَّلُ إليه الشيطان أنه النبي ﷺ وليس به؛ فتكون الرؤيا كاذبة.

والرؤيا المنسوبة إلى الشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية إن لم تَصِحَّ نسبتها إليه؛ كانت مصطنعة مفتراة، وهذا هو الظاهر؛ فإنه لا يزال مُدَّعٍ مجهول يسمي نفسه الشيخ أحمد، ويدعي أنه رأى هذه الرؤيا، وقد تُوُفِّيَ الشيخ أحمد خادم الحجرة من زمن طويل، كما أخبر بذلك أهله، وأقرب الناس إليه، حينما سئلوا عن ذلك، وأنكروا نسبة هذه الرؤيا إليه، وهم ألصق الناس به، وأعرفهم بحاله، وإن صَحَّتْ نسبتها إليه، فهي إما كذب منه وافتراء على النبي ﷺ، وإما أضغاث أحلام وخيال كاذب، وتلبيس من الشيطان على الرائي، وليست رؤيا صادقة، والذي يدل على أنها كذب، وبهتان، أو خيال وزور ـ ما اشتملت عليه مما يتنافى مع الواقع، وشريعة رسول الله ﷺ.

أما منافاتها للواقع، فإنها لا تزال تُطْبَع وتنشر مرات بعد وفاته، وقد أنكر أهله وأَلْصَقُ الناس به نسبتها إليه حينما سُئِلُوا عن ذلك.

وأما منافاتها للشريعة الإسلامية؛ فلما اشتملت عليه من الأمور التالية:

أَوَّلًا: الإخبار فيها عن تحديد عدد من مات من هذه الأمة على غير الإسلام من الجمعة إلى الجمعة، وهذا من أمور الغيب، التي لا يعلمها البشر، إنما يعلمها الله، ومن يظهره عليها من رسله في حياتهم، وقد انقطعت الرسالة من البشر بوفاة النبي ﷺ، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: الآية ٦٥]، وقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ

مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، وقال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب: الآية ٤٠] .

ثَانِيًا: إخباره عن النبي ﷺ أنه قال له: «أنا خجلان من أفعال الناس القبيحة، ولم أقدر أن أقابل ربي والملائكة»؛ فإنه من الزور والأخبار المنكرة؛ لأن النبي ﷺ لا يعلم أحوال أمته بعد وفاته، بل لا يعلم منها أيام حياته في الدنيا إلا ما رآه بنفسه، أو أخبره به من اطلع عليه من الناس، أو أظهره الله عليه؛ فعن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: خطب النبي ﷺ، فقال: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]»، إلى أن قال: «أَلَا إِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ؛ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ! أَصْحَابِي. فَيُقَالُ: لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: الآية ١١٧] . فَيُقَالُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ»، رواه البخاري.

وعلى تقدير أنه يعلم أحوال أمته بعد وفاته، فلا يلحقه بذلك حرج، ولا يصيبه من وراء كثرة ذنوبهم ومعاصيهم إثم ولا خجل، وقد ثبت في حديث الشفاعة العظمى أن أهل الموقف كُفَّارًا ومسلمين يستشفعون بالأنبياء واحدًا بعد آخر حينما يشتد بهم هول الموقف، فيعتذر كل منهم عن الشفاعة لهم عند الله، ثم ينتهي أهل الموقف إلى النبي ﷺ، فيسألونه أن يشفع لهم عند الله، فيستجيب لهم، ولا يمنعه من الشفاعة لهم كثرة معاصيهم، أو كفر الكافرين منهم، ولا يخجل من ذلك، بل يذهب فيسجد تحت العرش، ويحمد ربه، ويثني عليه بمحامد يُعَلِّمُهُ إياها، حتى يأمره أن يرفع رأسه، وأن يشفع لهم، وبعد ذلك ينصرفون للحساب والجزاء، ولم يمنعه شيء من ذلك من لقاء ربه، ومقابلة الملائكة، ولم يَلْحَقْهُ منه عار.

ثَالِثًا: إخباره بالجزاء العظيم الذي يترتب على كتابة هذه الوصية، ونقلها من محل إلى محل، أو من بلد إلى بلد، وتعيين جزاء الأعمال وتحديده من الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلا الله، وقد انقطع الوحي إلى البشر بوفاة خاتم الأنبياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ فادعاء العلم بذلك باطل، وقد ادعاه الشيخ أحمد المزعوم؛ حيث قال في الوصية المكذوبة: «ومن يكتبها ويرسلها من بلد إلى بلد، ومن محل إلى محل، بُنِيَ له قصر في الجنة»، وقال: «ومن يكتبها وكان فقيرًا أغناه الله، أو كان مدينًا قضى الله دَيْنَه، أو كان عليه ذنب غفر الله له ولوالديه»؛ فهو كاذب في ذلك.

وكذا إخباره عن الوعيد الشديد الذي يصيب من لم يكتبها، ويرسلها، وتعيينه إياه بأنه يُحْرَمُ شفاعة النبي ﷺ، ويَسْوَدُّ وجهه في الدنيا والآخرة؛ حيث قَالَ فيها: «ومن لم يكتبها ويرسلها، حُرِّمَتْ عليه شفاعتي يوم القيامة»، وقال: «ومن لم يكتبها من عباد الله، اسْوَدَّ وجهه في الدنيا والآخرة»؛ فهذا ـ أيضًا ـ من الغيب الذي لا يعلم بتحديده إلا الله، فَإِخْبَارُهُ به وقد انقطع الوحي إلى البشر؛ رجم بالغيب، وكَذِبٌ وزور، وكذا قوله فيها: «ومن يُصَدِّقْ بها (ينجو) من عذاب النار، ومن يكذب بها كفر»؛ فهذا ـ أيضًا ـ زورٌ وبهتانٌ، فإن التكذيب بالرؤيا الصادرة من غير الأنبياء لا يعد كُفْرًا بإجماع المسلمين.

رَابِعًا: إن كل ما أَخْبَرَ به من الوعد والوعيد على سبيل التعيين والتحديد يتضمن تشريعًا بالحث على كتابة الوصية، وإبلاغها ونشرها بين الناس للعمل بها، واعتقاد ما فيها رَجَاءَ المثوبة التي حَدَّدَهَا، ويتضمن تشريع تحريم كتمانها، والتفريط في إبلاغها ونشرها، والتحذير من ذلك خشية أن يَحِيقَ بمن كتمها أو فَرَّطَ في نَشْرِهَا ما أخبر به من الوعيد الشديد بحرمانه من الشفاعة، واسوداد وجهه.

خَامِسًا: عَدَمُ التناسب بين ما أخبر به من الجزاء والأعمال، وهو دليل الوضع والكذب في الأخبار، إلى غير هذه الأمور من الأكاذيب؛ فيجب أن يحذر المسلم هذه

الوصية المزعومة، ويعمل على القضاء عليها.

وبالله التوفيق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم(١).

لَا يَسْتَدِلُّ بِالرُّؤْيَا فِي الْأَحْكَامِ إِلَّا ضَعِيفُ الْمُنَّةِ

● قال الإمام أبو إسحق الشاطبي - رحمه الله - تَعَالَى -:

«وربما قال بعضهم: رأيت النبي ﷺ في النوم، فقال لي: كذا، وأمرني بكذا، فيعمل بها، ويترك بها، مُعْرِضًا عن الحدود الموضوعة في الشريعة، وهو خطأ؛ لأن الرؤيا من غير الأنبياء لا يحكم بها شرعًا على حال، إلا أن تعرض على ما في أيدينا من الأحكام الشرعية، فإن سوغتها عُمِلَ بمقتضاها، وإلا وجب تركها، والإعراض عنها، وإنما فَائِدَتُهَا البشارة أو النذارة خاصة، وأما استفادة الأحكام فلا، فلو رأى في النوم قائلًا يقول: إن فلانًا سرق فاقطعه، أو عالم فاسأله، أو اعمل بما يقولون لك، أو فلان زنى فحده، وما أشبه ذلك؛ لم يصحَّ له العمل حتى يقوم له الشاهد في اليقظة، وإلا كان عاملًا بغير شريعة؛ إذ ليس بعد رسول الله ﷺ وحي.

ولا يُقَالُ: إن الرؤيا من أجزاء النبوة، فلا ينبغي أن تُهْمَلَ، وأيضًا إن المخبر في المنام قد يكون النبي ﷺ، وهو قد قال: «مَنْ رَآنِي فِي النَّوْمِ فَقَدْ رَآنِي حَقًّا، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي»، وإذا كان... فإخباره في النوم كإخباره في اليقظة.

لأنا نقول: إن كانت الرؤيا من أجزاء النبوة فليست إلينا من كمال الوحي، بل جزء من أجزائه، والجزء لا يقوم مقام الكل في جميع الوجوه، بل إنما يقوم مقامه في بعض الوجوه، وقد صُرِفَتْ إلى جهة البشارة والنذارة.

وأيضًا، فإن الرؤيا التي هي جزء من أجزاء النبوة من شرطها أن تكون صالحة من

---

(١) «فتاوى اللجنة الدائمة» (٧- ٧٧) فتو ١٩٩

الرجل الصالح، وحصول الشروط مما ينظر فيه، قد تتوفر، وقد لا تتوفر.

وأيضًا فهي منقسمة إلى الحلم وهو من الشيطان، وإلى حديث النفس، وقد تكون بسبب هيجان بعض أخلاط، فمتى تتعين الصالحة حتى يحكم بها وتترك غير الصالحة؟ ويلزم أيضًا على ذلك أن يكون تجديد وحي بحكم بعد النبي ﷺ وهو منهي عنه بالإجماع.

يُحكى أن شريك بن عبدالله القاضي دخل على المهديِّ، فلما رآه قال: «عليَّ بالسيف والنِّطْع»[1]، قال: «ولم يا أمير المؤمنين؟»، قال: رأيت في منامي كأنك تطأ بساطي وأنت معرض عني، فقصصت رؤياي على من عبَّرها، فقال لي: «يُظهر لك طاعة، ويضمر معصية»، فقال له شريك: والله ما رؤياك برؤيا إبراهيم الخليل عليه السلام، ولا أن معبرك بيوسف الصديق عليه السلام، فبالأحلام الكاذبة تضرب أعناق المؤمنين؟ فاستحيى المهدي، وقال: اخرج عني، ثم صرفه وأبعده.

وأما الرؤيا التي يخبر فيها رسول الله ﷺ الرائي بحكم، فلا بد من النظر فيها أيضًا، لأنه إذا أخبر بحكم موافق لشريعته، فالحكم بما استقر، وإن أخبر بمخالف، فمحال، لأنه ﷺ لا ينسخ بعد موته شريعته المستقرة في حياته، لأن الدين لا يتوقف استقراره بعد موته على حصول المرائي النومية، لأن ذلك باطل بالإجماع، فمن رأى شيئًا من ذلك فلا عمل عليه، وعند ذلك نقول: إن رؤياه غير صحيحة، إذ لو رآه حقًّا لم يخبره بما يخالف الشرع.

لكن يبقى النظر في معنى قوله ﷺ: «من رآني في النوم فقد رآني»، وفيه تأويلان:

أحدهما: ما ذكره ابن رشد إذ سئل عن حاكم شهد عنده عدلان مشهوران بالعدالة في قضية، فلما نام الحاكم ذكر أنه رأى النبي ﷺ، فقال له: «ما تحكم بهذه الشهادة فإنها باطلة»، فأجاب بأنه:

---

(١) النِّطَع: بساط من الجلد، كثيرًا ما كان يُقْتَل فوقه المحكومُ عليه بالقتل.

لا يحل له أن يترك العمل بتلك الشهادة، لأن ذلك إبطال لأحكام الشريعة بالرؤيا، وذلك باطل لا يصح أن يُعتقد، إذ لا يعلم الغيب من ناحيتها إلا الأنبياء الذين رؤياهم وحي، ومن سواهم إنما رؤياهم جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة.

ثم قال: وليس معنى قوله: «من رآني فقد رآني حقًّا» أن كل من رأى في منامه أنه رآه فقد رآه حقيقة، بدليل أن الرائي قد يراه مرات على صور مختلفة، ويراه الرائي على صفة، وغيره على صفة أخرى، ولا يجوز أن تختلف صور النبي ﷺ ولا صفاته، وإنما معنى الحديث: من رآني على صورتي التي خُلِقتُ عليها فقد رآني، إذ لا يتمثل الشيطان بي .. إلى أن قال الشاطبي رحمه الله: «فهذا ما نقل عن ابن رشد، وحاصله يرجع إلى أن المرئي قد يكون غير النبي ﷺ، وإن اعتقد الرائي أنه هو»، ثم قال: «نعم لا يحكم بمجرد الرؤيا حتى يعرضها على العلم، لإمكان اختلاط أحد القسمين بالآخر، وعلى الجملة فلا يستدل بالرؤيا في الأحكام إلا ضعيف المُنَّة[1]، نعم يأتي المرئي تأنيسًا وبشارة ونذارة خاصة، بحيث لا يقطعون بمقتضاها حكمًا، ولا يبنون عليها أصلًا، وهو الاعتدال في أخذها، حسبما فهم من الشرع فيها، والله أعلم» اهـ[2] .

● وقال الإمام الشاطبي رحمه الله - تَعَالَى - في سياق الرد على من يحتج بالإلهام والكشف والرؤى المنامية:

(هذه الأمور لا يصح أن تراعى وتعتبر؛ إلا بشرط أن لا تخرم حكمًا شرعيًا، ولا قاعدة دينية، فإن ما يخرم قاعدة شرعية أو حكمًا شرعيًا ليس بحق في نفسه، بل هو إما خيال أو وهم، وإما من إلقاء الشيطان، وقد يخالطه ما هو حق وقد لا يخالطه، وجميع ذلك لا يصح اعتباره من جهة معارضته لما هو ثابت مشروع، وذلك أن التشريع الذي أتى به رسول الله ﷺ عام لا خاص، وأصله لا ينخرم، ولا ينكسر له اطراد، ولا يحاشَى من الدخول تحت حكمه مكلف، وإذا كان كذلك، فكل ما جاء

---

(١) المُنَّة: القوة، يقال: ليس لقلبه مُنَّة.

(٢) «الاعتصام» (١/ ٢٦٠- ٢٦٤) بتصرف.

من هذا القبيل الذي نحن بصدده مضادًّا لما تمهَّد في الشريعة؛ فهو فاسد باطل.

ومن أمثلة ذلك مسألة سئل عنها ابن رشد في حاكم شهد عنده عدلان مشهوران بالعدالة في أمر؛ فرأى الحاكم في منامه أن النبي ﷺ قال له: «لا تحكم بهذه الشهادة؛ فإنها باطل»، فمثل هذه الرؤيا لا معتبَر بها في أمر ولا نهي، ولا بشارة ولا نذارة، لأنها تخرم قاعدة من قواعد الشريعة، وكذلك سائر ما يأتي من هذا النوع، وما روي «أن أبا بكر رضي الله عنه أنفذ وصية رجل بعد موته برؤيا رؤيت؛ فهي قضية عين لا تقدح في القواعد الكلية لاحتمالها، فلعل الورثة رضوا بذلك، فلا يلزم منها خَرْم أصلًا».

وعلى هذا فلو حصلت المكاشفة بأن هذا الماء المعين مغصوب أو نجس، أو أن هذا الشاهد كاذب، أو أن المال لزيد وقد تحصَّل بالحجة لعمرو، أو ما أشبه ذلك؛ فلا يصح له العمل على وفق ذلك ما لم يتعين سبب ظاهر؛ فلا يجوز له الانتقال إلى التيمم، ولا ترك قبول الشاهد، ولا الشهادة بالمال لزيد على حال، فإن الظواهر قد تعيَّن فيها بحكم الشريعة أمر آخر، فلا يتركها اعتمادًا على مجرد المكاشفة، أو الفراسة، كما لا يعتمد فيها على الرؤيا النومية، ولو جاز ذلك؛ لجاز نقض الأحكام بها وإن ترتبت في الظاهر موجباتها، وهذا غير صحيح بحال، فكذا ما نحن فيه.

وقد جاء في «الصحيح»: «إنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأحكمَ له على نحو ما أسمع منه» الحديث؛ فقيد الحكم بمقتضى ما يسمع، وترك ما وراء ذلك، فلم يحكم إلا على وفق ما سمع، لا على وفق ما علم، وهو أصل في منع الحاكم أن يحكم بعلمه[1] اهـ.

---

(١) «الموافقات» (٢/٤٥٧ـ ٤٥٩).

نصوص أخرى لبعض أهل العلم في المسألة

ذكر جماعة من أهل العلم منهم أبو إسحاق الإسفراييني أن من رأى النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وعلى آله وَسَلَّمَ - في المنام وأمره بأمر يلزمه العمل به، ويكون قوله حجة[١].

وقد أبى جمهور العلماء هذه الطريقة، واتفقوا على أن أي شيء مما ينتج عن الرؤيا إذا خالف الشريعة مردود، وإن وافقها فهو أمارة يؤتنس بها، وإن لم يوافقها ولم يخالفها جاز العمل بها، وهاك بعضَ نصوصِهم:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «الرؤيا المحضة التي لا دليل على صحتها؛ لا يجوز أن يثبت بها شيء بالاتفاق»[٢].

وقال الإمام النووي رحمه الله:(إن الرائي وإن كانت رؤياه حقًا، ولكن لا يجوز إثبات حكم شرعي بما جاء فيها، لأن حالة النوم ليست حالة ضبط وتحقيق لما يسمعه الرائي، وقد اتفقوا على أن من شروط مَن تُقبل روايته وشهادته أن يكون متيقظًا لا مغفلًا ولا كثير الخطإ، ولا مختلَّ الضبط، والنائم ليس بهذه الصفة)[٣] اهـ.

وقال ابن الحاج رحمه الله: (إن الله لم يكلف عباده بشيء مما يقع لهم في منامهم لقوله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وعلى آله وَسَلَّمَ -: «رفع القلم عن ثلاثة...» عَدَّ منهم: «النائم حتى يستيقظ»، لأنه إذا كان نائمًا فليس من أهل التكليف، فلا يعمل بشيء يراه في نومِه)[٤] اهـ.

وقال الإمام القرافي رحمه الله: (فلو رآه عليه السلام، فقال له: إن امرأتك طالق ثلاثًا، وهو يجزم بأنه لم يطلقها؛ فهل تحرم عليه لأن رسول الله ﷺ لا يقول إلا حقًّا؟

وقع فيه البحث مع الفقهاء واضطربت آراؤهم في ذلك بالتحريم وعدمه، لتعارض

---

(١) انظر «المدخل» لابن بدران ص (١٣٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٧/٤٥٧ - ٤٥٨).

(٣)، (٤) انظر: «أفعال الرسول ﷺ» للدكتور محمد سليمان الأشقر (٢/١٦٢).

خبره عليه السلام عن تحريمها في النوم، وإخباره في اليقظة في شريعته المعظمة أنها مباحة له، والذي يظهر لي أن إخباره عليه السلام في اليقظة مقدم على الخبر في النوم لتطرق الاحتمال للرائي بالغلط في ضبط المثال)[١] اهـ.

وقال العلامة عليُّ بن سلطان محمد القاري رحمه الله: (لا اعتماد على رؤية المنام في غير حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، مع أن الرؤى قد تحتاج إلى تعبير يناسب الرائي أو غيره في هذا المقام، فلو فرض أن أحدًا رأى النبي عليه الصلاة والسلام، وأمره بفعل شيء أو تركه على خلاف قواعد الإسلام، فليس له القيام بذلك الأمر بإجماع علماء الأنام)[٢] اهـ.

وقال العلامة الشوكاني رحمه الله: (إن الشرع الذي شرعه الله لنا قد كمَّله الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: الآية ٣] .. ولم يبق بعد ذلك حاجة للأمة في أمر دينها، وقد انقطعت البعثة لتبليغ الشرائع وتبيينها بالموت، وبهذا تعلم أنا لو قدَّرنا ضبط النائم لم يكن ما رآه من قوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وعلى آله وَسَلَّمَ ـ أو فِعْلِهِ حجةً عليه ولا على غيره من الأمة)[٣] اهـ.

وقال العلامة عبدالعزيز بن باز ـ رحمه الله ـ:

(أما اعتماد المنامات في إثبات كون فلان هو المهدي؛ فهو مخالف للأدلة الشرعية ولإجماع أهل العلم والإيمان، لأن المرائي مهما كثرت لا يجوز الاعتماد عليها في خلاف ما ثبت به الشرع المطهر، لأن الله سبحانه أكمل لنبينا محمد ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وعلى آله وَسَلَّمَ ـ ولأمته الدين، وأتم عليهم النعمة قبل وفاته عليه الصلاة والسلام فلا يجوز لأحد أن يعتمد شيئًا من الأحلام في مخالفة شرعه عليه الصلاة والسلام)[٤].

---

(١) «الفروق» (٤/٢٤٥ـ ٢٤٦).
(٢) «المقدمة السالمة في خوف الخاتمة» ص (٢٢).
(٣) «إرشاد الفحول» ص (٢٤٩).
(٤) «جريدة عكاظ» ١٨/١/١٤٠٠هـ.

وأخيرًا إليك هذه الوقائع:

- حكى العثماني قاضي صفد أنه توجه لزيارة الشيخ الزاهد الفقيه الشافعي فرج بن عبدالله المَغْرِبي الصفدي صحبة الشيخ تاج الدين المقدسي، فجرت مسألة النظر إلى الأمرد، وأن الرافعي يُحَرِّمُ بشرط الشهوة، والنووي يقول: «يحرم مطلقًا»، فقال الشيخ فرج: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقال لي: «الحق في هذه المسألة مع النووي»، فصاح الشيخ تاج الدين، وقال: «صار الفقه بالمنامات؟!»، فخضع الشيخ فرج، وقال: «أستغفر الله، أنا حكيت ما رأيت، والبحث له طريق»، فسكت الشيخ تاج الدين، وقال: «نحن في بيتك»[١].

- في إحدى السنوات تراءى الناس الهلال - هلال رمضان - فلم يروه، فجاء رجل إلى قاضي البلد يقول له:

«لقد رأيت الرسول ﷺ البارحة في المنام، وأخبرني أن الليلة من رمضان، وأمرني والمسلمين بالصيام».

فقال له القاضي: «إن الذي تزعم أنك رأيته في المنام قد رآه الناس في اليقظة جَهَارًا نَهارًا، وقال لهم: (صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته)؛ فلا حاجة بنا إلى رؤياك»[٢].

- ورُوِيَ أن رجلًا رأى النبي ﷺ في النوم، فقال له: «اذهب إلى موضع كذا فاحفره، فإن فيه رِكَازًا[٣]، فخذه لك، ولا خُمسَ عليك فيه»، فلما أصبح ذهب إلى ذلك الموضع، فحفره فوجد الرِّكَازَ فيه، فاستفتى علماء عصره فأفتوه بأن لا خمس عليه لصحة الرؤيا، وأفتى العز بن عبدالسلام بأن عليه الخمس، وقال: «أكثر ما ينزل منامه منزلة حديث صحيح، وقد عارضه ما هو أصح منه، وهو حديث «فِي الرِّكَازِ

(١) «الدرر الكامنة» (٣/٣١١-٣١٢).
(٢) «قضايا في المنهج» ص (١٥).
(٣) الركاز: المراد به هنا الأجزاء المستقرة في الأرض من المعادن والجواهر كالذهب والفضة والنحاس.

الخُمُسُ»(١).

يقول الدكتور عمر الأشقر ـ حفظه الله ـ: «الرؤيا لا تُعَدُّ تشريعًا، وبعض الأفراد والجماعات تجعل من الرؤى، والتجليات، والأفكار، وأحاديث القلوب مصدرًا تشريعيًّا ينافس القرآن والسنَّة، وقد يُقَدَّمُ عليهما.

الرُّؤْيَا الصادقة ما هِيَ إلا مبشِّرٌ بأمر سارٍّ، وقد تكون دعوةً إلى الاستقامة، وقد تكون تثبيتًا على الحق، وقد تُنَفِّرُ من الباطل، ولكنها لا تشرع شيئًا جديدًا، وقد جادلني رجل كان يَسِيرُ على بدعة لم يُشَرِّعْهَا الله؛ إذ كان يَقُومُ على القبور بعد أن يُدْفَنَ أصحابها؛ لِيُلَقِّنَ الميتَ حُجَّتَهُ، ويعرفه بما يجيب به رسل ربه، جادلني هذا الرجل بأن هذا مشروع، بدليل أنه رأى في منامه كيف يُفْعَلُ بالميت منذ نزع الروح إلى الدفن، وكان هذا التلقين مما رآه يُفعل، فقلت له: إن ديننا تامٌّ كامل، لا ينتظر شخصًا يكمله بالرؤيا والمنام، وكيف يكون جوابك عندما يأتيك آخَرُ يزعم أنه رأى خلاف ما رأيت؟!

ومن الذي نتبعه: أنت أم هو؟ كلا، لا نتبع إلا خير الهدي؛ هدي محمد ﷺ»(٢).

* * * * *

(١) «شرح الزرقاني على الموطإ» (٢/١٠١)، والحديث في البخاري (١٤٩٩)، ومسلم (١٧١٠).
(٢) «جولة في رياض العلماء وأحداث الحياة» ص (١١٤).

الْفَصْلُ الثَّانِي

دَلَالَاتُ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ

الْفَصْـلُ الثَّانِي

دِلَالَاتُ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ

ظهرت بعض خَوَارِقِ العادات على يد بعض من ادَّعَوا المهدية، الذين وظَّفوها للترويج لدعواهم، وبالتالي انساق وراءهم كثير من العوام، وبعض الخواص، فنشأ عن ذلك كثير من الفتن، من أخطرها ادِّعَاءُ أو نسبة أولئك إلى العصمة، الأمر الذي يترتب عليه طاعة عمياء في كل ما يأمرونهم به، مما يُعَدُّ تعديًا صريحًا على مصادر التلقي، والمرجعية الشرعية.

وَخَرْقُ الْعَادَةِ أَنْوَاعٌ[1]:

١ـ **إذا اقترن بدعوى النبوة**، فهو المعجزة[2] التي يُقصد بها إظهارُ صِدْقِ مَن ادَّعى النبوة، مع عجز المنكرين عن الإتيان بمثله.

٢ـ **الإرهاص**: ما يظهر من الخوارق قبل ظهور النبي.

٣ـ **الاستدراج**: ما يظهر من خارق للعادة على يد كافرٍ أو فاسق.

٤ـ **الكرامة**: ظهور أمر خارق للعادة على يد شخص ظاهر الصلاح، غير مقارن لدعوى النبوة والرسالة.

إن التمييز بين هذه الأنواع من الخوارق من الأهمية بمكان، وبخاصة التفريق بين ضِدَّين هما الاستدراج والكرامة، وذلك لأن العوام ومن لا يحسنون العلم يربطون بين خرق العادة بمجرده وبين وَلاية الله ـ تَعَالَى ـ، فعندهم كل من خُرِقَتْ له العادة فهو ولي، ويترتب على ذلك خطأ ثانٍ، وهو الافتتان بذلك «الولي» والغلو فيه الذي يَصِلُ أحيانًا إلى ادِّعَاء عصمته.

---

(١) انظر: «الموسوعة الفقهية» (٣٤/٢١٦ـ ٢٢١).

(٢) والمعجزة لغةً: ما يُعجز الخصم عند التحدي.

بَيْنَ الْمُعْجِزَةِ وَالْكَرَامَةِ

مما يتعلق بتمييز الكرامة عن غيرها من خوارق العادات؛ التمييز بين الولي الذي يجوز أن تحدث له الكرامة، وبين من هو أعلى منه منزلة؛ وهو النبي، أو من يَدَّعِي مثل منزلته كذبًا وبهتانًا، وهو الْمُشَعْوِذُ والساحر وغيرهم.

فأما الفرق بين النبي والولي من جهة الخارق الذي يجري على يد كل منهما، فقد علمنا أن النبي تجري على يده المعجزات، وهي نوعان، سَمَّاهَا «ابن تيمية» معجزات كبرى، وهي دليل صدقه، ونوع من التوابع والنوافل سَمَّاها معجزات صغرى.

والولي تحدث على يده الكرامات، وقد تشتبه بالمعجزات الصغرى، أو تماثلها، ولكن النبي يختص بالعصمة دون الولي، فالمعجزة للنبي دليل على عصمته من الخطإ فيما أُرسِل من أجله؛ وهو التشريع.

أما الولي فكرامته إنما تدل على صدق النبي الذي آمن به هذا الولي، واتبعه في شريعته، ولا تدل بحال على عصمته هو مِن أن يخطئ في بعض أعماله، أو عباداته أو توجيهاته؛ لأنه لم يُرْسَلْ ويُصْطَفَ من الله - عَزَّ وَجَلَّ - لهذا الغرض كالنبي، وإنما هو مجتهد فيه، أما النبي فقد اصطفاه الله من عباده لهذا الغرض[1].

الْكَرَامَةُ تَدُلُّ عَلَى الْوَلَايَةِ، لَكِنَّهَا لَا تَدُلُّ عَلَى الْعِصْمَةِ

ومن هنا وجبت طاعة النبي مطلقًا، بينما لا تجب طاعة الولي مطلقًا، إلا فيما عليه دليل شرعي واضح، وفارق آخر بين المعجزة والكرامة؛ هو أن الكرامة تحدث بحسب حاجة الولي، فإذا احتاج إليها لتقوية إيمانه؛ جاءه منها ما يكفيه لتقوية إيمانه، أو احتاج إليها لفك ضيق عليه، أو على من يدعو له؛ جاءه من ذلك ما يُفَرِّجُ كربته ويجيب دعاءه، بخلاف المعجزات؛ فإنها لا تكون إلا لحاجة الخلق وهدايتهم.

(١) انظر «شبهات التصوف» ص (١٣٦).

ويقول شيخ الإسلام «ابن تيمية» ما نصه: «وكرامات الصالحين تدل على صحة الدين الذي جاء به الرسول، ولا تدل على أن الولي معصوم، ولا على أنه يجب طاعته في كل ما يقوله.

ومن هنا، ضل كثير من الناس من النصارى وغيرهم؛ فإن الحواريين ـ مثلًا ـ كانت لهم كرامات، كما تكون الكرامات لصالحي هذه الأمة، فظنوا أن ذلك يستلزم عصمتهم، كما يستلزم عصمة الأنبياء، فصاروا يوجبون موافقتهم في كل ما يقولون، وهذا غلط».

والحقيقة أن كثيرًا من المسلمين ـ أيضًا ـ قد وقع فيما وقع فيه النصارى من الخطإ الذي ذكره ابن تيمية، فبمجرد أن يشتهر شخص بشيء من الكرامات ترتفع درجة الثقة في أقواله، وتوجيهاته، وأوامره، ونواهيه، إلى حد أن أكثر الناس لا يقبل فيها جدلًا البتة[١].

مِنْ ضَوَابِطِ الْحُكْمِ عَلَى خَرْقِ الْعَادَةِ
النَّظَرُ فِي سِيرَةِ وَاسْتِقَامَةِ مَنْ خُرِقَتْ لَهُ

وأما تمييز الولي الصادق الذي قد تجري على يديه الكرامات من الدَّعِيِّ الكاذب الذي يُمَوِّهُ على الناس ويخدعهم، فإنما يكون ذلك بحسب صلاحه وتقواه، من قيامه بالفرائض والنوافل، واتقائه الكبائر، والصغائر، واتصافه بالصفات الكريمة، واستدامته عليها، فإن اتصف شخص بكل هذه الصفات الطيبة، وعُرِفَتْ عنه، ثم حَدَثَ على يديه شيء من الخوارق فيما لا يخالف الشرع، فيجوز أن يطلق على ذلك الخارق اسم «كرامة».

أما إن كان الرجل على خلاف ذلك، مُشْتَهَرًا بالفسق والفساد والضلال، وغير

(١) «السابق» ص (١٣٦- ١٣٧).

ذلك، فإن كل ما يجري على يديه لا يُعْتَدُّ به بالغًا ما بلغ، والله أعلم[١].

مِنْ شُرُوطِ الْكَرَامَةِ

● قال الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ:

(ومن الفوائد في هذا الأصل أن يُنْظَرَ إلى كل خارقة صدرت على يدي أحد، فإن كان لها أصل في كرامات الرسول ﷺ ومعجزاته؛ فهي صحيحة، وإن لم يكن لها أصل؛ فغير صحيحة، وإن ظهر ببادئ الرأي أنها كرامة؛ إذ ليس كل ما يظهر على يدي الإنسان من الخوارق بكرامة، بل منها ما يكون كذلك، ومنها ما لا يكون كذلك.

وبيان ذلك بالمثال أن أرباب التصريف بالهمم والتقربات بالصناعة الفلكية، والأحكام النجومية، قد تصدر عنهم أفاعيل خارقة، وهي كلها ظلمات بعضها فوق بعض، ليس لها في الصحة مدخل، ولا يُوجَدُ لها في كرامات النبي ﷺ منبع؛ لأنه إن كان ذلك بدعاء مخصوص، فدعاء النبي ﷺ لم يكن على تلك النسبة، ولا تجري فيه تلك الهيئة، ولا اعتمد على قِرانٍ في الكواكب، ولا التمس سعودها أو نحوسها، بل تحرى مجرد الاعتماد على من إليه يُرْجَعُ الأمر كلُّه، والتجأ إليه، مُعْرِضًا عن الكواكب، وناهيًا عن الاستناد إليها؛ إذ قال: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ» ... الحديث[٢]، وإن تَحَرَّى وقتًا، أو دعا إلى تَحَرِّيهِ، فلسبب بريء من هذا كله؛ كحديث التنزل[٣]، وحديث اجتماع الملائكة طرفي النهار[٤]، وأشباه ذلك) إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: «وهذا الموضع مَزَلَّة قدم للعوامِّ، ولكثير من الخواص؛ فَلْتَتَنَبَّهْ له»[٥].

---

(١) انظر: «موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية» ص (٢٣٦-٢٣٧)، «شبهات التصوف» ص (١٣٨).
(٢) أخرجه البخاري (٢/٣٣٣) (٨٤٦)، ومسلم (١/٨٣-٨٤) (٧١).
(٣) أخرجه البخاري (٣/٢٩) (١١٤٥)، ومسلم (١/٥٢١) (٧٥٨).
(٤) أخرجه البخاري (٢/٣٣) (٥٥)، ومسلم (١/٤٣٩) (٦٣٢).
(٥) «الموافقات» (٢/٤٤٤-٤٤٦).

خَرْقُ الْعَادَةِ بِمُجَرَّدِهِ لَا يَدُلُّ عَلَى الْوَلَايَةِ

● يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ:

(وكل من خالف شيئًا مما جاء به الرسول، مقلدًا في ذلك لمن يظن أنه وَلِيٌّ لله، فإنه بنى أمره على أنه ولي لله، وأن ولي الله لا يُخَالَفُ في شيء، ولو كان هذا الرجل من أكبر أولياء الله؛ كأكابر الصحابة، والتابعين لهم بإحسان، لم يُقْبَلْ منه ما خالف الكتاب والسنة، فكيف إذا لم يكن كذلك؟!

وتجد كثيرًا من هؤلاء عمدتهم في اعتقادِ كَوْنِهِ وليًّا لله أنه قد صدر عنه مُكَاشَفَةٌ في بعض الأمور، أو بعض التصرفات الخارقة للعادة؛ مثل أن يُشِيرَ إلى شخص فيموت، أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها، أو يمشي على الماء أحيانًا، أو يملأ إبريقًا من الهواء، أو ينفق بعض الأوقات من الغيب، أو يختفي أحيانًا عن أعين الناس، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاءه، فقضى حاجته، أو يُخْبِرَ الناس بما سُرِقَ لهم، أو بحالِ غائِبٍ لهم أو مريض، أو نحو ذلك من الأمور، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي الله، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء، أو مشى على الماء، لم يُغْتَرَّ به حتى يُنْظَرَ متابعته لرسول الله ﷺ، وموافقته لأمره ونهيه.

وكرامات أولياء الله ـ تَعَالَى ـ أعظم من هذه الأمور، وهذه الأمور الخارقة للعادة ـ وإن كان قد يكون صاحبها وليًّا لله ـ فقد يكون عَدُوًّا لله، فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفَّار، والمشركين، وأهل الكتاب، والمنافقين، وتكون لأهل البدع، وتكون من الشياطين، فلا يجوز أن يُظَنَّ أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولي لله، بل يُعْتَبَرُ أولياء الله بصفاتهم، وأفعالهم، وأحوالهم التي دلَّ عليها الكتاب والسنة، ويُعْرَفُونَ بنور الإيمان والقرآن، وبحقائق الإيمان الباطنة، وشرائع الإسلام الظاهرة.

مِثَال ذلك: أن الأمور المذكورة وأمثالها، قد توجد في أشخاص، ويكون أحدهم لا

يتوضأ، ولا يصلي الصلوات المكتوبة، بل يكون مُلَابِسًا للنجاسات، معاشرًا للكلاب، يأوي إلى الحمامات، والقمامين، والمقابر، والمزابل، رائحته خبيثة، لا يتطهر الطهارة الشرعية، ولا يتنظف...)(١). اهـ.

● قال الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ:

(ومن هنا يُعْلَمُ أن كل خارقة حدثت أو تحدث إلى يوم القيامة، فلا يصح رَدُّها ولا قبولها إلا بعد عرضها على أحكام الشريعة، فإن ساغت هناك فهي صحيحة مقبولة في موضعها، وإلا لم تُقْبَلْ إلا الخوارق الصادرة على أيدي الأنبياء ـ عليهم السلام ـ؛ فإنه لا نظر فيها لأحد؛ لأنها واقعة على الصحة قطعًا؛ فلا يمكن فيها غير ذلك، ولأجل هذا حَكَمَ إبراهيم ـ عليه السلام ـ في ذبح ولده بمقتضى رؤياه، وقال له ابنه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وإنما النظر فيما انخرق من العادات على يد غير المعصوم.

وبيان عرضها أن تُفرض الخارقةُ واردة من مجاري العادات، فإن ساغ العمل بها عادة وكسبًا، ساغت في نفسها، وإلا فلا؛ كالرجل يكاشف بامرأة أو عورة، بحيث اطَّلع منها على ما لا يجوز له أن يَطَّلِعَ عليه، وإن لم يكن مقصودًا له، أو رأى أنه يدخل على فلان بيته وهو يُجَامِعُ زوجته ويراه عليها، أو يكاشف بمولود في بطن امرأة أجنبية؛ بحيث يقع بصره على بَشَرتها، أو شيء من أعضائها التي لا يسوغ النظر إليها في الحس، أو يرى صورة مكيفة مقدرة تقول له: «أنا ربك»، أو يرى ويسمع من يقول له: «قد أحللت لك المحرمات»، وما أشبه ذلك من الأمور التي لا يقبلها الحكم الشرعي على حال، ويُقَاسُ على ذلك ما سواه، وبالله التوفيق)(٢). اهـ.

---

(١) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» ص (٦١-٦٢)، وانظر: «ولاية الله والطريق إليها» ص (٢٥٢ - ٢٥٤).

(٢) «الموافقات» (٢/٤٨١-٤٨٢) بتصرف، وانظر: «مدارج السالكين» (١/٤٨-٤٩).

● وقال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ:

«خرق العادة قد يقع للزنديق بطريق الإملاء والإغواء، كما يقع للصدِّيق بطريق الكرامة والإكرام، وإنما تحصل التفرقة بينهما باتباع الكتاب والسنة»[١].

● وقال العلامة الشوكاني ـ رحمه الله ـ:

(ولا يجوز للولي أن يعتقد في كل ما يقع له من الواقعات والمكاشفات أن ذلك كرامة من الله ـ سبحانه ـ، فقد يكون من تلبيس الشيطان ومكره. بل الواجب عليه أن يعرض أقواله وأفعاله على الكتاب والسنة، فإن كانت موافقة لها، فهي حق، وصدق، وكرامة من الله ـ سبحانه ـ، وإن كانت مخالفة لشيء من ذلك؛ فليعلم أنه مخدوع ممكور به، قد طمع منه الشيطان؛ فلبَّس عليه)[٢]. اهـ.

● **وقال الدكتور تقي الدين الهلالي شيخ التوحيد والسنة في بلاد المغرب** ـ بل في كثير من بلاد العالم الإسلامي ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ: (.. ومن هذا تَعْلَمُ أن ظهور الخوارق، وما في عالم الغيب ـ ليس دليلًا على صلاح من ظهرت له تلك الخوارق، ولا على وَلايته لله البتة؛ فإن كل مرتاضٍ رياضة روحية تظهر له الخوارق على أي دين كان، وقد سمعنا وقرأنا أن العُبَّاد الوثنيين من أهل الهند تقع لهم خوارق عظام)[٣]. اهـ.

(إذن، فيجب على كل مسلم التحقق من ذلك، ولا يجوز القطع بوَلاية كل من فعل خارقًا من خوارق العادات؛ لأن الغاية من خرق العادة عند الْمُشَعْوِذِينَ: التلبيس على المسلمين في دينهم، كما كانت الشياطين تخدع المشركين، فَتَدْخُلُ في أجواف الأصنام وتصدر أصواتًا، يظنون أن أصنامهم تتحدث إليهم، أو تحركها الشياطين من مكانها، فيظنوا أنها تتحرك من تلقاء نفسها.

ولقد ذكر الشعراني أن الشيطان كان يدخل في أجواف الأصنام، والغربان،

(١) «فتح الباري» (١٢/٣٨٥).
(٢) «ولاية الله والطريق إليها» ص (٢٤٩).
(٣) نقله عنه في «الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة» ص (٤٦٦).

والعصافير، ويتكلم على ألسنتها بما شاء، حتى عُبدت من دون الله)[١].

مَنِ الْقَادِرُ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ «الْأَحْوَالِ الرَّحْمَانِيَّةِ» وَ«الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ»؟

يتمكن إبليس من الإنسان على قدر حظه من العلم، فكلما قَلَّ علمه اشتد تَمَكُّنُ إبليسَ منه، وكلما كثر العلم قل تَمَكُّنُهُ منه؛ ولذلك لا تشتبه «الكرامة الرحمانية» بالحال «الشيطانية» إلا عند الجُهَّال، وأهل الأهواء، بخلاف أهل العلم والبصيرة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ: (فإذا كان العبد من هؤلاء فَرَّقَ بين حال أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، كما يُفَرِّقُ الصيرفي بين الدرهم الجيد والدرهم الزيف، وكما يُفَرِّقُ من يعرف الخيل بين الفرس الجيد والفرس الرديء، وكما يُفَرِّقُ من يعرف الفروسية بين الشجاع والجبان، وكما أنه يجب الفرق بين النبي الصادق وبين المتنبي الكذَّاب، فَيُفَرَّقُ بين محمد الصادق الأمين رسول رب العالمين، وموسى، والمسيح، وغيرهم، وبين مسيلمة الكذَّاب، والأسود العنسي، وطلحة الأسدي، والحارث الدمشقي، وباباه الرومي، وغيرهم من الكذَّابين، وكذلك يُفَرِّقُ بين أولياء الله المتقين، وأولياء الشيطان الضالين)[٢]. اهـ.

● وقال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ:

«ومن العُبَّاد من يرى ضوءًا أو نورًا في السماء، فإن كان في رمضان قال: رأيت ليلة القدر، وإن كان في غيره قال: فُتِحَتْ لي أبواب السماء، وقد يتفق له الشيء الذي يطلبه، فيظن ذلك كرامة، وربما كان اختبارًا، وربما كان من خِدَعِ إبليس، والعاقل لا يُسَاكِنُ شيئًا من هذا، ولو كان كرامة»[٣].

كان أبو ميسرة فقيه المغرب يختم كل ليلة في مسجده، فرأى ليلة نورًا قد خرج من الحائط، وقال: تَمَلَّ من وجهي؛ فأنا ربك، فبصق في وجهه، وقال: «اذهب يا

(١) «الرفاعية» ص (٩٤-٩٥).
(٢) «الفرقان» ص (٦٦).
(٣) «تلبيس إبليس» ص (٥٢٩).

ملعون»(١)، فَطَفِئَ النور(٢).

[وكم اغتر قوم بما يشبه الكرامات، فقد روينا بإسنادٍ عن حسن عن أبي عمران قال: قال لي فرقد: «يا أبا عمران، قد أصبحتُ اليوم وأنا مهتم بضريبتي، وهي ستة دراهم، وقد أهلَّ الهلال وليست عندي، فدعوت، فبينما أنا أمشي على شط الفرات إذا أنا بستة دراهم، فأخذتها فوزنتها، فإذا هي ستة لا تزيد ولا تنقص»، فقال: «تَصَدَّقْ بِهَا، فإنها ليست لك»، قلت: - أبو عمران هو إبراهيم النخعي فقيه أهل الكوفة - فانظروا إلى كلام الفقهاء، وبُعد الاغترار عنهم، وكيف أخبره أنها لُقَطَة، ولم يلتفت إلى ما يُشْبِهُ الكرامة، وإنما لم يأمره بتعريفها لأن مذهب الكوفيين أنه لا يجب التعريف لما دون الدينار، وكأنه إنما أمره بالتصدُّق بها لئلا يَظُنَّ أنه قد أُكرم بأخذها وإنفاقها.

وبإسناد عن إبراهيم الخراساني أنه قال: احتجت يومًا إلى الوضوء، فإذا أنا بكوز من جوهر، وسواك من فضة، رأسه ألين من الخز، فاستكت بالسواك، وتوضأت بالماء، وتركتهما وانصرفت.

قلت: في هذه الحكاية من لا يُوثَقُ بروايته، فإن صَحَّتْ دلت على قِلَّةِ علم هذا الرجل؛ إذ لو كان يفهم الفقه علم أن استعمال السواك الفضة لا يجوز، ولكن قلَّ علمه فاستعمله، وإن ظن أنه كرامة، والله - تَعَالَى - لا يكرم بما يمنع استعماله شرعًا، إلا إن أُظْهِرَ له ذلك على سبيل الامتحان](٣).

قال القشيري: (قال إبراهيم الخوَّاص: «طَلَبْتُ الحْلال في كل شيء، حتى طلبته في صيد السمك، فأخذت قصبة، وجعلت فيها شَعْرًا، وجلست على الماء، فألقيت الشِّصَّ، فخرجت سمكة، فطرحتها على الأرض، وألقيت ثانية، فخرجت لي سمكة.

---

(١) لأن الله - تَعَالَى - لا يُرى في الدنيا، ونور الله - تَعَالَى - لا يقوم له شيء، ولما ظهر للجبل منه أدنى شيء ساخ الجبل وتدكدك، انظر: «مدارج السالكين» (٣/٢٢٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٥/٣٩٦).

(٣) «تلبيس إبليس» ص (٥٣٣).

إذ مِن ورائي لطمةٌ لا أدري مِن يَدِ مَن هي، ولا رأيت أحدًا، وسمعت قائلًا يقول: «أنت لم تصب رزقًا في شيء إلا أن تَعْمَدَ إلى مَنْ يذكرنا فتقتله؟»، قال إبراهيم: «فقطعت الشعر، وكسرت القصبة، وانصرفت»[١].

ولو أن هذا الصوفي تَدَبَّرَ قوله - تَعَالَى -: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ [المائدة: ٩٦]، لجزم قاطعًا بأن اللاطم لم يكن سوى إبليس؛ إذ الله لا يعاقِب على صيد ما أباحه، ولا يحرم صيد الأسماك؛ لأنها تذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فإنه ما من شيء إلا يُسَبِّحُ بحمده ويذكره، ولو تركنا ذبح الأنعام - وهي تذكر الله - تَعَالَى - أيضًا -، لم يكن لنا ما يقيم قوى الأبدان.

وذكر محمد بن أبي الفضل الهمداني المؤرخ قال: حدثني أبي قال: كان السرمقاني المقرئ يقرأ على ابن العلاف، وكان يأوي إلى المسجد بدرب الزعفراني، واتفق أن ابن العلاف رآه ذات يوم في وقت مجاعة، وقد نزل إلى دجلة، وأخذ منه أوراق الخس مما يرمي به أصحابه، وجعل يأكله، فشق ذلك عليه، وأتى إلى رئيس الرؤساء، فأخبره بحاله، فتقدم إلى غلام بالقرب إلى المسجد الذي يأوي إليه السرمقاني أن يعمل لبابه مفتاحًا من غير أن يُعْلمه، ففعل وتقدم إليه أن يحمل كل يوم ثلاثة أرطال خبزًا سميدًا، ومعها دجاجة، وحلوى سكرًا، ففعل الغلام ذلك، وكان يحمله على الدوام، فأتى السرمقاني في أول يوم فرأى ذلك مطروحًا في القبلة، ورأى الباب مغلقًا فتعجب، وقال في نفسه: هذا من الجنة، ويجب كتمانه، وأن لا أتحدث به، فإن من شروط الكرامة كتمانها[٢]، وأنشدني:

مَنْ أَطْلَعُوهُ عَلَى سِرٍّ فَبَاحَ بِهِ ... لَمْ يَأْمَنُوهُ عَلَى الْأَسْرَارِ مَا عَاشَا

فلما استوى حاله، وأخصب جسمه، سأله ابن العلاف عن سبب ذلك، وهو عارف به، وقصد المزاح معه، فأخذ يُوري ولا يصرح، ويَكْني ولا يُفْصِح، ولم يزل ابن العلاف يستخبره حتى أخبره أن الذي يجده في المسجد كرامة؛ إذ لا طريق لمخلوق

(١) «الرسالة القشيرية» ص (٨٤).
(٢) وقد قالوا: «الشأن في الكرامة إخفاؤها، وفي المعجزة إظهارها».

عليه، فقال له ابن العلاف: «يجب أن تدعو لابن المسلمة، فإنه هو الذي فعل ذلك»، فنغص عيشه بإخباره، وبانت عليه شواهد الانكسار[١]. اهـ.

أَمْثِلَةٌ مِنَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ

● يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في شأن أصحاب الأحوال الشيطانية:

«وهؤلاء تقترن بهم الشياطين، وتنزل عليهم، فيكاشفون الناس ببعض الأمور، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر، وهم من جنس الْكُهَّان والسحرة الذين تنزل عليهم الشياطين، قال ـ تعَالَى ـ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١- ٢٢٣]، وهؤلاء جميعًا ينتسبون إلى المكاشفات، وخوارق العادات، إذا لم يكونوا متبعين للرسل، فلا بد أن يكذبوا، وتكذبهم شياطينهم، ولا بد أن يكون في أعمالهم ما هو إثم وفجور؛ مثل نوع من الشرك، أو الظلم، أو الفواحش، أو الغلو، أو البدع في العبادة.

ولهذا تنزلت عليهم الشياطين، واقترنت بهم، فصاروا من أولياء الشيطان، لا من أولياء الرحمن؛ قال الله ـ تعَالَى ـ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾[٢] [الزخرف: ٣٦]».

ومن الأحوال الشيطانية حال «عبدالله بن صياد»، الذي ظهر في زمن النبي ﷺ، وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدجَّال، وتوقف النبي ﷺ في أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجَّال، لكنه كان من جنس الكُهَّان، فقال له النبي ﷺ : «قَدْ خَبأْتُ لَكَ خَبِيئًا» قال: «الدُّخُ الدُّخُ»، وقد كان خَبَّأَ له سورة الدخان، فقال له النبي ﷺ : «اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ»[٣]، يعني إنما أنت من إخوان الْكُهَّان، والْكُهَّان كان يكون

(١) «تلبيس إبليس» ص (٥٣٣- ٥٣٤).
(٢) «الفرقان» ص (١٨-١٩).
(٣) رواه مسلم (٤/٢٢٤٤) (٢٩٣٠).

لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من الْمُغَيَّبَاتِ بما يَسْتَرِقُهُ من السمع، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب، كما هو في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ ـ وَهُوَ السَّحَابُ ـ فَتَذْكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ، فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ، فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُهَّانِ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِئَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ»(١).

وهذا المسيح الدجّال الذي هو أعظم فتنةٍ تمر على البشرية في تاريخها، حتى حَذَّر جميع الأنبياء منه أُمَمَهُمْ، وحتى قال فيه النبي ﷺ: فيما رواه أبو داود عن عمران بن حصين رضي الله عنهما: «مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ، فَوَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، فَيَتَّبِعُهُ؛ مِمَّا يُبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»(٢)، وسوف يأتي بأعظم الخوارق:ـ

فمنها: ما رواه حُذَيْفَةُ رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ، فَنَارُهُ جَنَّةٌ، وَجَنَّتُهُ نَارٌ»(٣).

ـ **ومنها**: أنه يستعين بالشياطين؛ فقد رُوِي عن أبي أُمَامَةَ رضي الله عنه قال: «وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَقُولَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، أَتَشْهَدُ أَنِّي رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيْطَانَانِ فِي صُورَةِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، فَيَقُولَانِ: يَا بُنَيَّ اتَّبِعْهُ؛ فَإِنَّهُ رَبُّكَ»(٤).

ـ **ومن فتنته** أنه يأمر السماء فتُمْطِر، والأرضَ فتُنْبِتُ، ويدعو البهائم فتتبعه، ويأمر الخرائب أن تُخْرِجَ كنوزها المدفونة فتستجيب(٥).

ـ **ومن فتنته** أنه يقتل ذلك الشابَّ المؤمنَ فيما يظهر للناس، ثم يَدَّعِي أنه أحياه،

---

(١) رواه البخاري (٢٢١) (٣٠٤/٦ـ فتح).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٨١٤/٣) (٣٦٢٩).

(٣) رواه مسلم (٢٢٤٨/٤) (٢٩٣٤).

(٤) «ضعيف ابن ماجه» (٨٨٤) ص(٣٣٠).

(٥) انظر الحديث في «صحيح مسلم» (٢٢٥٢/٤) (٢٩٣٧).

فيقول ذلك الشابُّ: «والله ما كنت فيك أشد بصيرةً مني اليوم»[١].

● **يقول شيخ الإسلام في شأن أصحاب الأحوال الشيطانية:**

(وهؤلاء تأْتيهم أرواح تخاطبهم، وتتمثل لهم، وهي جن وشياطين، فيظنونها ملائكة؛ كالأرواح التي تخاطب من يعبد الكواكب والأصنام.

وكان من أول ما ظهر من هؤلاء في الإسلام: المختار بن أبي عبيد الذي أَخبر به النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في «صحيحه» عن النبي ﷺ أنه قال: «سَيَكُونُ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ»[٢]، وكان الكذَّابَ: المختار بن أَبي عبيد[٣]. والمبيرَ: الحجاج بن يوسف، فقيل لابن عمر وابن عباس: إن المختار يزعم أنه يُنَزَّلُ إليه، فَقَالَا: صدق، قال الله ـ تَعَالَى ـ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء].

وقال الآخر: وقيل له: إن المختار يزعم أَنه يُوحَى إليه، فقال: قال الله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١][٤].

(والأسود العنسي الذي ادَّعى النبوة كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأُمور المغيَّبة، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون مِن الشياطين أَن يخبروه بما يقولون فيه، حتى أعانتهم عليه امرأته، لما تبيَّن لها كفره، فقتلوه.

وكذلك مسيلمة الكذَّاب، كان معه من الشياطين من يُخْبِرُهُ بالمغيبَّات، ويعينه على بعض الأمور.

---

(١) انظر الحديث في «صحيح البخاري» (١٣/١٠١- فتح)، ومسلم (٤/٢٢٥٦) (٢٩٣٨).

(٢) رواه مسلم، والمُبير: المهلِك.

(٣) ومن طرائف الأخبار: أن سراقة البارقي ـ وكان من ظرفاء المدينة ـ أسره رجل من أصحاب المختار هذا، فأتى به المختار، وقال: «أسرتُ هذا»، فقال: «كذبتَ ما أسرني إلا رجل عليه ثياب بيض على فَرَسٍ أبلق»، فقال المختار: «أما إن الرجل قد عاين الملائكة، خلُّوا سبيله»، فأفلت منهم بدهائه وحسن تخلصه.

(٤) «الفرقان» ص (٨٦).

وأمثال هؤلاء كثيرون؛ مثل الحارث الدمشقي الذي خرج بالشام زمن عبدالملك بن مروان وادعى النبوة، وكانت الشياطين تُخْرج رجليه من القيد، وتمنع السلاح أن يَنْفُذَ فيه، وتُسَبِّحُ الرُّخامة إذا مسحها بيده، وكان يُرِي الناسَ رجالًا وركبانًا على خيل في الهواء، ويقول: هي الملائكة، وإنما كانوا جِنًّا، ولما أَمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم يَنْفُذْ فيه، فقال له عبدالملك: إنك لم تُسَمِّ الله، فسَمَّى اللهَ، فطعنه، فقتله[١].

وهكذا أهل الأحوال الشيطانية تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذُكِرَ عندهم ما يَطْرُدُهَا؛ مثل آية الكرسي، فإنه قد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ في حديث أَبي هريرة رضي الله عنه، لما وَكَّلَهُ النبي ﷺ بحفظ زكاة الفطر، فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة، وهو يمسكه فيتوب فيطلقه، فيقول له النبي ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟»، فيقول: زعم أَنه لا يعود، فيقول: «كَذَبَكَ وَإِنَّهُ سَيَعُودُ»، فلما كان في المرة الثالثة، قال: دعني حتى أُعلِّمك ما ينفعك: إذا أَويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥] ... إلى آخرها، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تُصْبِحَ، فلما أخبر النبي ﷺ قال: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»، وأَخبره أَنه شيطان.

ولهذا إذا قرأَها الإِنسان عند الأَحوال الشيطانية بِصِدْقٍ أَبطلتها؛ مثل من يدخل النار بحال شيطاني، أَو يحضر سماع المكاءِ والتصدية، فتنزل عليه الشياطين، وتتكلم على لسانه كلامًا لا يُعْلَمُ، وربما لا يُفْقَهُ، وربما كاشف بعض الحاضرين بما في قلبه، وربما تكلم بألسنة مختلفة؛ كما يتكلم الجني على لسان المصروع، والإنسان الذي حَصَلَ له الحال لا يدري بذلك، بمنزلة المصروع الذي يتخبَّطه الشيطان من المس، ولبسه، وتكلَّم على لسانه، فإذا أَفَاق لم يشعر بشيء مما قال[٢]. اهـ.

(١) انظر تفصيل خبره في «تلبيس إبليس» ص (٥٢٩- ٥٣٣).

(٢) «الفرقان» ص (١٣٤- ١٣٥).

وهذه الأَرواح الشيطانية هي الروح الذي يزعم صاحب «الفتوحات» أَنه أَلقى إِليه ذلك الكتاب، ولهذا يذكر أَنواعًا من الخلوات بطعام معين، وشيء معين، وهذه مما تفتح لصاحبها اتصالًا بالجن والشياطين، فيظنون ذلك من كرامات الأَولياءِ، وإنما هو من الأَحوال الشيطانية، وأَعرف من هؤلاءِ عَدَدًا، ومنهم من كان يُحْمَلُ في الهواء إلى مكان بعيد ويعود، ومنهم من كان يُؤْتَى بمال مسروق، تسرقه له الشياطين وتأتيه به، ومنهم من كانت تدله على السرقات بِجُعْلٍ يحصل له من الناس، أَو لعطاء يعطونه إذا دَلَّهُمْ على سرقاتهم، ونحو ذلك.

ولما كانت أَحوال هؤلاءِ شيطانية، كانوا مناقضين للرسل ـ صلوات الله ـ تَعَالَى ـ وسلامه عليهم ـ، كما يُوجَدُ في كلام صاحب «الفتوحات المكية»، و«الفصوص»، وأَشباه ذلك؛ يَمْدَحُ الكفارَ؛ مثل قوم نوح، وهود، وفرعون، وغيرهم، وينتقصُ الأَنبياءَ؛ كنوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، ويَذُمُّ شيوخ المسلمين المحمودين عند المسلمين؛ كالجُنَيْدِ بن محمد، وسهل بن عبدالله التستري، وأَمثالهما، ويَمْدَحُ المذمومين عند المسلمين؛ كالحلاج ونحوه؛ كما ذكره في تجلياته الخيالية الشيطانية[١]. اهـ.

التَّفْرِيقُ بَيْنَ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ:

(وبين كرامات الأَولياء، وبين ما يشبهها من الأَحوال الشيطانية فروق متعددة:

منها: أَن كرامات الأَولياء سببها الإيمان والتقوى، والأَحوال الشيطانية، سببها ما نهى الله عنه ورسوله.

وقد قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: الآية ٣٣] ، فالقول على الله بغير علم، والشرك، والظلم، والفواحش؛ قد حرّمها الله ـ تَعَالَى ـ ورسوله، فلا تكون سببًا لكرامة الله ـ تَعَالَى ـ بالكرامات عليها،

(١) «الفرقان» ص (٨٧).

فإذا كانت لا تحصل بالصلاة، والذكر، وقراءَة القرآن، بل تحصل بما يُحِبُّهُ الشيطان، وبالأُمور التي فيها شرك؛ كالاستغاثة بالمخلوقات، أَو كانت مما يُسْتَعَانُ بها على ظلم الخلق، وفعل الفواحش، فهي من الأَحوال الشيطانية[1]، لا من الكرامات الرحمانية.

ومن هؤلاءِ من إذا حضر سماع المكاءِ والتصدية يتنزَّل عليه شيطانه، حتى يَحْمِلَهُ في الهواءِ، ويخرجه من تلك الدار، فإذا حضر رجل من أَولياءِ الله ـ تَعَالَى ـ، طرد شيطانه فيسقط، كما جرى هذا لغير واحد.

ومن هؤلاءِ من يستغيث بمخلوق، إما حي أَو ميت، سواءٌ كان ذلك المخلوق مسلمًا، أَو نصرانيًّا، أَو مشركًا، فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به، ويقضي بعض حاجة ذلك المستغيث؛ فيظن أنه ذلك الشخص، أَو هو مَلَكٌ تصوَّر على صورته،

---

(١) ولا تحصل هذه الخوارق عند تلاوة القرآن الكريم، وإنما تحصل عند استعمال الآلات الموسيقية كالطبل والدف والمزامير وغيرها، وهذا دليل على أن هذه أحوال شيطانية لا إيمانية، ولذلك كان يشترط بعضهم على من يحضرهم أن لا يقرأوا قرآنًا، ولا يتكلموا بشيء البتة، وقد طلب بعض الرفاعية من أحد الشباب الانصراف عنهم حين كان يتمتم بالذكر وقراءة القرآن، مما أدى إلى جرحهم لدى إدخالهم الشيش، حتى قالوا: «إن بين الحاضرين رجلًا روحه شريرة فلينصرف عنا» وقال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله في أثناء كلامه على طائفة محمد بن عيسى «أكلة الثعابين والنار»: (وقد أحرجت واحدًا منهم، وأردته على أن يمكنني من وضع النار حيث أريد من بدنه، فلم يقبل، ثم استتبته فأظهر التوبة عن مخادعة الناس بذلك) اهـ. من «المنار» المجلد العاشر ص (٢٩٠).
وقال أيضًا رحمه الله: (إن ما يفعله الرفاعية من اقتحام النار وضرب الشيش وإدخال الحديد المحميّ في ألسنتهم وأكل الحيات والحشرات إنما هو من الشعوذة التي لا ينفردون بها عن غيرهم، بل إنها منتشرة بين كثيرين من المنتمين إلى أديان ومذاهب ونحل مختلفة وفي أفكار عديدة) اهـ كما حكاه عنه الشيخ عبدالرحمن دمشقية، ثم قال:
(وقد زعم أمامي واحد من أهل الطريقة الرفاعية أن إكرام الله لهم حاصل في كونهم يأكلون الزجاج أمام الكفار، وأنهم عاينوا الزجاج في بطنه، وتأكدوا من صحة ذلك، وأدّى ببعضهم إلى الإسلام. فقلت: هذا من جهل أولئك بحقيقة الأمر، فإنهم لو علموا أن هذا يحدث للوثنيين والبوذيين لربما ارتدوا على أعقابهم، بل يحدث مثل ذلك أيضًا على مسارح السيرك، حيث يُدخِل الساحر الشيش في الأجساد، بل يَقْسِم الفتاة بالسيف نصفين) اهـ. بتصرف من «الرفاعية» ص(١٠٤ ـ ١٠٥).

وإنما هو شيطان أَضلَّه لَمَّا أَشرك بالله، كما كانت الشياطين تدخل في الأَصنام، وتكلِّم المشركين، ومن هؤلاءِ من يتصوَّر له الشيطان، ويقول له: أَنا الْخَضِرُ، وربما أَخبره ببعض الأُمور، وأَعانه على بعض مطالبه، كما قد جرى ذلك لغير واحد من المسلمين، واليهود، والنصارى. وكثيرٌ من الكُفَّار بأَرض المشرق والمغرب، يموت لهم الميت، فيأْتي الشيطان بعد موته على صورته، وهم يعتقدون أَنه ذلك الميت، ويقضي الديون، ويرد الودائع، ويفعل أَشياءَ تتعلق بالميت، ويدخل إلى زوجته ويذهب، وربما يكونون قد أَحرقوا ميتهم بالنار، كما تصنع كُفَّار الهند، فيظنون أَنه عاش بعد موته، ومن هؤلاءِ شيخ كان بمصر أَوصى خادمه فقال: إذا أَنا متُّ فلا تدع أَحدًا يغسلني، فأَنا أَجيءُ وأغسل نفسي، فلما مات رأَى خادمه شخصًا في صورته، فاعتقد أَنه هو، دخل وغسَّل نفسه، فلما قضى ذلك الداخل غسله؛ أَي غسل الميت، غاب، وكان ذلك شَيْطَانًا، وكان قد أَضلَّ الميت، وقال: إنك بعد الموت تجيءُ فَتُغَسِّلُ نفسك، فلما مات جاءَ - أَيضًا - في صورته ليغوي الأَحياءَ، كما أَغوي الميت قبل ذلك.

ومنهم من يرى عرشًا في الهواءِ، وفوقه نور، ويسمع من يخاطبه ويقول: أَنا ربك، فإن كان من أَهل المعرفة، عَلِمَ أَنه شيطان، فزجره، واستعاذ بالله منه، فيزول.

ومنهم من يرى أَشخاصًا في اليقظة يدَّعي أَحدهم أَنه نبي، أَو صِدِّيقٌ، أَو شيخٌ من الصالحين، وقد جرى هذا لغير واحد، وهؤلاء منهم من يرى ذلك عند قبر الذي يزوره، فيرى القبر قد انشق وخرج إليه صورة، فيعتقدها الميت، وإنما هو جني تصوَّر بتلك الصورة، ومنهم من يرى فارسًا قد خرج من قبره، أَو دخل في قبره، ويكون ذلك شيطانًا، **وكل من قال: إنه رأَى نَبِيًّا بعين رأَسه فما رأَى إلا خيالًا.**

ومنهم من يرى في منامه أَن بعض الأَكابر؛ إما الصدِّيق رضي الله عنه ، أَو غيره قد قصَّ شعره، أَو حلقه، أَو أَلبسه طاقيته، أَو ثوبه، فيصبح وعلى رأسه طاقية، وشعره محلوق، أَو مُقَصَّرٌ، وإنما الجن قد حَلَقُوا شعره، أَو قَصَّرُوهُ، وهذه الأَحوال الشيطانية تحصل لمن

خرج عن الكتاب والسنة، وهم درجات، والجن الذين يقترنون بهم من جنسهم وعلى مذهبهم، والجن فيهم الكافر، والفاسق، والمخطئ، فإن كان الإنسي كافرًا، أو فاسقًا، أو جاهلًا، دخلوا معه في الكفر، والفسوق، والضلال، وقد يعاونونه إذا وافقهم على ما يختارونه من الكفر؛ مثل الإقسام عليهم بأسماءِ من يُعَظِّمونه من الجن وغيرهم، ومثل أن يكتب أسماءَ الله، أو بعض كلامه بالنجاسة، أو يقلب فاتحة الكتاب، أو سورة الإخلاص، أو آية الكرسي، أو غيرهنَّ، ويكتبهنَّ بنجاسة، فيغوِّرون له الماءَ، وينقلونه، بسبب ما يرضيهم به من الكفر، وقد يأْتونه بمن يهواه من امرأة أو صبي؛ إما في الهواء، وإما مدفوعًا ملجأً إليه، إلى أمثال هذه الأُمور التي يطول وصفها، والإيمانُ بها إيمان بالجبت والطاغوت، والجبت: السحر، والطاغوت: الشياطين والأصنام، وإن كان الرجل مُطِيعًا لله ورسوله باطنًا وظاهرًا؛ لم يمكنهم الدخول معه في ذلك، أو مسالمته.

ولهذا لما كانت عبادة المسلمين المشروعة في المساجد التي هي بيوت الله، كان عُمَّار المساجد أبعد عن الأَحوال الشيطانية، وكان أَهل الشرك والبدع، الذين يُعَظِّمُونَ القبور، ومشاهد الموتى، فيدعون الميت، أو يدعون به، أو يعتقدون أَن الدعاءَ عنده مستجابٌ ـ أَقْرَبَ إلى الأَحوال الشيطانية؛ فإنه ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

وثبت في «صحيح مسلم» عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس ليال: «إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَذَاتِ يَدِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا سُدَّتْ، إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ، أَلا إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كانوا يَتَّخِذُونَ قبورَ أنبيائهم مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

وفي «الصحيحين» عنه أَنه ذُكِرَ له في مرضه كنيسة بأَرض الحبشة، وذكروا من حسنها، وتصاويرَ فيها، فقال: «أُولَئِكَ إِذَا كان فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ

مَسْجِدًا، ثم صَوَّروا تلك الصور، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(١)]. اهـ.

● وقال شيخ الإسلام ـ أيضًا ـ:

«وإنما غاية الكرامة لزوم الاستقامة[(٢)]، فلم يُكْرِمِ الله عبدًا بمثل أن يُعِينَهُ على ما يُحِبُّهُ ويرضاه، ويزيده مما يقربه إليه، ويرفع به درجته.

.. وجميع ما يؤتيه الله لعبده من هذه الأمور، إن استعان به على ما يحبه الله ويرضاه، ويُقَرِّبُهُ إليه، ويرفع درجته، ويأمره الله به ورسوله، ازداد بذلك رِفْعَةً، وقربًا إلى الله ورسوله، وعَلَتْ درجته، وإن استعان به على ما نهى الله عنه ورسوله؛ كالشرك، والظلم، والفواحش، استحق بذلك الذَّمَّ والعقاب، فإن لم يتداركه الله ـ تَعَالَى ـ بتوبة، أو حسنات مَاحِيَةٍ، وإلا كان كأمثاله من المذنبين؛ ولهذا كثيرًا ما يُعَاقَبُ أصحاب الخوارق، تارة بسلبها، كما يُعْزَلُ الملك عن ملكه، ويُسلب العَالِمُ علمه، وتارة بسلب التطوعات، فينقل من الولاية الخاصة إلى العامة، وتارة ينزل إلى درجة الفسَّاق، وتارة يرتدُّ عن الإسلام، وهذا يكون فيمن له خوارق شيطانية، فإن كثيرًا من هؤلاءِ يرتد عن الإسلام، وكثيرًا منهم لا يعرف أَن هذه شيطانية، بل يَظُنُّهَا من كرامات أَولياء الله، ويظن من يَظُنُّ منهم أَن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إذا أَعطى عبدًا خرق عادة لم يحاسبه على ذلك، كمن يظن أن الله إذا أعطى عبدًا ملكًا، ومالًا، وتصرفًا، لم يحاسبه عليه، ومنهم من يستعين بالخوارق على أُمور مباحة، لا مأْمور بها، ولا منهي عنها، فهذا يكون من عموم الأَولياء، وهم الأَبرار المقتصدون، وأَما السابقون المقربون فأَعلى من هؤلاءِ، كما أَن العبد الرسول أَعلى من النبي الملك.

ولما كانت الخوارق كثيرًا ما ينقص بها درجة الرجل، كان كثير من الصالحين يتوب

---

(١) «الفرقان» ص (١٣٦- ١٤٠).

(٢) والمريد الصادق قد تكثر له الكرامات في ابتدائه تثبيتًا له وتأنيسًا ومعونة، فإذا كمل خفت عنه أو انعدمت لعدم احتياجه إليها، ومن ثم قال الجنيد رحمه الله: «مشى قوم على الماء، ومات بالعطش من هو أفضل منهم» انظر: «زاد المسلم» (١٧٩/٣)، وقال الشاطبي رحمه الله: «وعدُّوا من رَكَنَ إلى الكرامات مستدرَجًا، من حيث كانت ابتلاءً، لا من جهة كونها آية أو نعمة» اهـ. من «الموافقات» (٥٤٩/١).

من مثل ذلك، ويستغفر الله ـ تَعَالَى ـ، كما يتوب من الذنوب؛ كالزنا، والسرقة، وتُعْرَضُ على بعضهم فيسأَل الله زوالها، وكلهم يأْمر المريد السالك أَن لا يقف عندها، ولا يجعلها همته، ولا يتبجح بها[1]، مع ظنهم أَنها كرامات، فكيف إذا كانت بالحقيقة من الشياطين تغويهم بها؟! فإني أَعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع، وإنما يُخَاطِبُهُ الشيطان الذي دخل فيها، وأَعْرِفُ من يخاطبهم الحجرُ والشجرُ، وتقول: هَنِيئًا لك يا ولي الله، فيقرأ آية الكرسي، فيذهب ذلك. وأَعرف من يقصد صيد الطير، فتخاطبه العصافير وغيرها، وتقول: خذني حتى يأكلني الفقراءُ، ويكون الشيطان قد دخل فيها، كما يدخل في الإِنس، ويخاطبه بذلك، ومنهم من يكون في البيت وهو مغلق، فيرى نفسه خارجه وهو لم يفتح، وبالعكس، وكذلك في أَبواب المدينة، وتكون الجن قد أَدخلته وأَخرجته بسرعة، أَو تُرِيهِ أَنوارًا، وتحضر عنده من يطلبه، ويكون ذلك من الشياطين، يتصورون بصورة صاحبه، فإذا قرأ آية الكرسي مرة بعد مرة، ذهب ذلك كله.

وأَعرف من يخاطبه مخاطب ويقول له: أَنا من أَمر الله، ويعده بأَنه المهدي الذي بَشَّرَ به النبي ﷺ، ويُظْهِرُ له الخوارق؛ مثل أَن يخطر بقلبه تصرف في الطير، والجراد في الهواءِ، فإذا خطر بقلبه ذهاب الطير أَو الجراد يمينًا وشمالًا، ذهب حيث أَراد، وإذا خطر بقلبه قيام بعض المواشي، أَو نومُه، أَو ذَهَابُه، حصل له ما أَراد من غير حركة منه في الظاهر، وتحمله إلى مكة، وتأْتي به، وتأْتيه بأَشخاص في صورة جميلة، وتقول له: هذه الملائكة الكروبيون أَرادوا زيارتك، فيقول في نفسه: كيف تصوروا بصورة

---

(١) قال ابن الجوزي رحمه الله ـ تَعَالَى ـ:
(ولما علم العقلاء شدة تلبيس إبليس حذروا من أشياء ظاهرها الكرامة، وخافوا أن تكون من تلبيسه.
.. وعن رابعة أنها أصبحت يومًا صائمة في يوم بارد، قالت: فنازعتني نفسي إلى شيء من الطعام السخن أفطر عليه، وكان عندي شحم، فقلت: لو كان عندي بصل أو كراث عالجته، فإذا عصفور قد جاء فسقط على المثقب في منقاره بصلة، فلما رأيته أضربت عما أردت، وخفت أن يكون من الشيطان. وبالإسناد عن محمد بن يزيد قال: كانوا يرون لوهيب أنه من أهل الجنة، فإذا أُخبر بها اشتد بكاؤه، وقال: قد خشيت أن يكون هذا من الشيطان) اهـ. من «تلبيس إبليس» ص (٥٣٥ـ ٥٣٦).

المردان، فيرفع رأسه فيجدهم بلحًى، ويقول له: علامة أنك المهدي أنك تنبت في جسدك شامة[١]، فَتَنْبُتُ ويراها، وغير ذلك، **وكله من مكر الشيطان.**

وهذا باب واسعٌ، لو ذَكَرْتُ ما أَعرف منه لاحتاج إلى مجلد كبير. وقد قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر]، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿كَلَّا﴾، ولفظة (كلا) فيها زجر وتنبيه، زجرٌ عن مثل هذا القول، وتنبيه على ما يخبر به، ويأْمر به بعده؛ وذلك أَنه ليس كل مَنْ حصل له نِعَمٌ دنيوية تُعَدُّ كرامة، يكون الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مُكْرِمًا له بها، ولا كل من قَدَّر ـ أي: ضَيَّق ـ عليه ذلك يكون مُهِينًا له بذلك، بل هو ـ سبحانه ـ يَبْتَلِي عبده بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، فقد يعطي النعم الدنيوية لمن لا يحبه، ولا هو كريم عنده؛ ليستدرجه بذلك، وقد يحمي منها من يُحِبُّهُ ويُوَالِيهِ؛ لئلا ينقص بذلك مرتبته عنده، أَو يقع بسببها فيما يكرهه منه.

وأَيضًا كرامات الأَولياءِ لا بد أَن يكون سببها الإيمان والتقوى[٢]، فما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان، فهو من خوارق أَعداءِ الله، لا من كرامات أَولياءِ الله، فمن كانت خوارقه لا تحصل بالصلاة، والقراءَة، والذكر، وقيام الليل، والدعاءِ، وإِنما تحصل عند الشرك؛ مثل دعاءِ الميت، والغائب، أَو بالفسق، والعصيان، وأَكل المحرَّمات؛ كالحيات، والزنابير، والخنافس، والدم، وغيره من النجاسات، ومثل الغناءِ، والرقص، لا سيما مع النسوة الأَجانب، والمردان، وحالة خوارقه تنقص عند سماع القرآن، وتقوى عند سماع مزامير الشيطان، فيرقص ليلًا طويلًا، فإِذا جاءَت الصلاة صلَّى قاعدًا، أَو ينقر الصلاة نقر الديك، وهو يبغض سماع القرآن، وينفر عنه، ويتكلفه، ليس له فيه

---

(١) وأمر هذه «الشامة» لا يعرف له أصل في الأحاديث الصحيحة الواردة في حق المهدي، ومن الغريب أن «المهدي السوداني» عُني بأمر شامة كانت فيه، وكان يُعَوِّل عليها أحيانًا في إثبات مهديته، كما تراه ص(٤٨٢).

(٢) وقد قيل: «الكرامة تَنتجُ عن استقامةٍ، أو تُنْتِج استقامةً».

محبة، ولا ذوق، ولا لذة عند وجده، ويحب سماع المكاءِ والتصدية[١]، ويجد عنده مواجيد، فهذه أحوال شيطانية، وهو ممن يتناوله قوله ـ تعَالَى ـ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزّخرُف: الآية ٣٦].

فالقرآن هو ذكر الرحمن، قال ـ تعَالَى ـ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦] يعني تركت العمل بها. ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾.

قال ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: «تكفَّل الله لمن قرأ كتابه، وعمل بما فيه، أَن لا يَضِلَّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة»، ثم قرأ هذه الآية[٢]. اهـ.

حِيَلٌ لَا خَوارِقُ

من الخوارق ما لا يكون بتسبب شيطاني مباشر، وإنما يكون بطريق التعلم والحيلة، كما يفعله النصارى كثيرًا، وكما كان يفعل ابن تومرت[٣]، وكما رُوِيَ عن الحلَّاج، من أنه (كان يدفن شيئًا من الخبز، والشواء، والحلوى في موضع من البَرِّيَّة، ويُطْلِعُ بعض أصحابه على ذلك، فإذا أصبح قال لأصحابه: «إن رأيتم أن نخرج على وجه السياحة»، فيقوم، ويمشي الناس معه، فإذا جاءوا إلى ذلك المكان، قال له صاحبه الذي أطلعه على ذلك: «نشتهي الآن كذا وكذا»، فيتركهم الحلاج، وينزوي عنهم إلى ذلك المكان، فيصلي ركعتين، ويأتيهم بذلك، وكان يمد يده إلى الهواء، ويَطْرَحُ الذهب في أيدي الناس ويُمَخْرِقُ، وقد قال له بعض الحاضرين يَوْمًا: «هذه الدراهم معروفة، ولكن

---

(١) المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق.

(٢) «الفرقان» ص (١٤٧- ١٥١).

(٣) انظر حيل ودجل ابن تومرت ص (٣٩٤، ٤٠١).

أؤمن بك إذا أعطيتني درهمًا عليه اسمك واسم أبيك»، وما زال يُمَخْرِقُ إلى وقت صَلْبِهِ[١].

ومن ذلك ما ذكره بعض أصحاب ابن الشَّبَّاس قال: (حضرنا يومًا عنده، فأخرج جديًا مشويًّا، فأمرنا بأكله، وأن نكسر عظمه ولا نهشمها، فلما فرغنا أمر بردها إلى التنور، وترك على التنور طبقًا، ثم رفعه بعد ساعة، فوجدنا جديًا حيًّا يرعى حشيشًا، ولم نَرَ للنار أثرًا، ولا للرمَّادِ ولا للعظام خبرًا، قال: فتلطفت حتى عرفت ذلك، وذلك أن التنور يفضي إلى سرداب، وبينهما طبق نحاس بلولب، فإذا أراد إزالة النار عنه فركه فينزل عليه فيسده وينفتح السرداب، وإذا أراد أن يظهر النار أعاد الطبق إلى فم السرداب فتراءى للناس.

● قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ:

وقد رأينا في زماننا من يشير إلى الملائكة ويقول: «هؤلاء ضيف مكرمون»، يوهم أن الملائكة قد حضرت، ويقول لهم: «تقدموا إليَّ»، وأخذ رجل في زماننا إبريقًا جديدًا فترك فيه عَسَلًا، فتشرب في الخزف طعم العسل، واستصحب الإبريق في سفره، فكان إذا غرف به الماء من النهر، وسقى أصحابه وجدوا طعم العسل، وما في هؤلاء من يعرف الله، ولا يخاف في الله لومة لائم، نعوذ بالله من الخذلان[٢].

* * * * *

---

(١) «تلبيس إبليس» ص (٥٣٩).

(٢) «السابق» ص (٥٤١- ٥٤٢)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١١/٤٤٥، ٦١٠)، و«البداية والنهاية» (١٤/٣٦).

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

دَعْوى رُؤْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ يقَظَةً بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَالتَّلَقِّي عَنْهُ مُبَاشَرَةً

دَعْوى رُؤْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ يَقَظَةً بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَالتَّلَقِّي عَنْهُ مُبَاشَرَةً

«وَكُلُّ مَنْ قَالَ إِنَّهُ رَأَى نَبِيًّا بِعَيْنِ رَأْسِهِ، فَمَا رَأَى إِلَّا خَيَالًا»[١].

شيخ الإسلام ابن تيمية

من عبث الصوفية بمصادر التلقي، وعدوانهم على المرجعية الشرعية العليا، أنهم ادَّعَوْا أنه يمكن للخواصِّ أن يلقوا رسول اللَّه ﷺ حال اليقظة، وأن يَتَلَقَّوْا عنه أحكامًا شرعيَّةً ملزمة؛ مما فتح البابَ على مصراعيه للكذِبِ الفاحش على رسول اللَّه ﷺ، وادِّعَاءِ إقراره وموافقته على كثير من الضلالات والبدع التي تَلَطَّخَ بها القوم.

ولما كانت الفرقة التجانية ممن روَّج لهذه الفكرة، ودَافَعَ عنها، انبرى بعض الغيورين من أهل العلم والسنة لدحض افترائهم، ورد عدوانهم، ومنهم الشيخ علي بن محمد الدخيل اللَّه في بحثه القيم: «التجانية»، الذي نلخص منه الفصل التالي بشيء من التصرف:

أ ـ ذِكْرُ جُمْلَةٍ مِنْ نُصُوصِهِمْ تُصَرِّحُ بِإِيمَانِهِمْ بِرُؤْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ يَقَظَةً بَعْدَ مَوْتِهِ، فِي الدُّنْيَا

١ ـ قال في «جواهر المعاني»: «قال رضي الله عنه : أخبرني سيد الوجود يَقَظَةً لا منامًا، قال لي: أنت من الآمنين، ومن رآك من الآمنين إن مات على الإيمان .. إلخ»[٢].

٢ ـ وقال في «رِمَاح حزب الرحيم»: «ولا يكمل العبد في مقام العرفان حتى يصير يجتمع برسول اللَّه ﷺ يَقَظَةً ومشافهة... إلخ[٣]).

٣ ـ وقال في «بغية المستفيد»: «.. منهم من يرى روحه في اليقظة متشكلة بصورته

---

(١) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» ص (١٣٨).

(٢) «جواهر المعاني» (١/١٢٩)، وانظره (١/٣٠، ٣١)، (٢/٢٢٨).

(٣) «رماح حزب الرحيم في نحور حزب الرجيم» (١/١٩٩).

الشريفة، ومنهم من يرى حقيقة ذاته الشريفة وكأنه معه في حياته ﷺ، وهؤلاء هم أهل المقام الأعلى في رؤيته ﷺ»[١].

٤ـ وقال في «الدرة الخريدة»: «وأما الذي هو أفضل وأعز من دخول الجنة، فهو رؤية سيد الوجود ﷺ في اليقظة، فيراه الولي اليوم كما يراه الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ، فهي أفضل من الجنة»[٢].

ب ـ ذِكْرُ أَدِلَّتِهِمْ وَمُنَاقَشَتُهَا

الدَّلِيلُ الأَوَّلُ:

يستدل التجانيون على إمكان رؤية النبي ﷺ يَقَظَةً بعد موته في الدنيا بما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَسَيَرَانِي فِي الْيَقَظَةِ، وَلَا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي»[٣]، قالوا: فالحديث صريح في رؤية النبي ﷺ يَقَظَةً بعد موته في الدنيا، قال ابن أبي جمرة: «ودعوى الخصوص بغير مخصِّص منه ـ عليه السلام ـ تَعَسُّفٌ»[٤].

● المُنَاقَشَةُ:

أَوَّلًا: أن الحديث على هذه الرواية[٥] ليس نصًّا صريحًا في رؤية النبي ﷺ يَقَظَةً بعد موته في الدنيا كما يزعم التجانيون، بل الحديث محتمل؛ ولذا اختلف العلماء في معناه، وأَوَّلُوهُ على عدة تأويلات:

---

(١) «بغية المستفيد» ص (٧٩، ٨٠).

(٢) «الدرة الخريدة شرح الياقوتة الفريدة» (١/٤٧).

(٣) رواه البخاري (١٢/٣٨٣ ـ فتح)، واللفظ له، ومسلم (١٥/٢٦ ـ شرح النووي)، وأبو داود (١٣/٣٦٦ ـ عون).

(٤) «رماح حزب الرحيم» (١/٢٠٥).

(٥) ورد الحديث بعدة روايات إحداها قوله: «سيراني في اليقظة»، والثانية: «لكأنما رآني في اليقظة»، والثالثة: «فقد رآني في اليقظة»، قال ابن حجر: (وجل أحاديث الباب كالثالثة إلا قوله: «في اليقظة») اهـ. من «فتح الباري» (١٢/٣٨٣).

أ ـ قال ابن التين: «المراد به من آمن به في حياته ولم يره؛ لكونه حينئذ غائبًا عنه[١]، فيكون بهذا مُبَشِّرًا لكل من آمن به ولم يره أنه لا بد أن يراه في اليقظة قبل موته[٢] ﷺ، والمعنى: أن اللَّه سيوفقه للهجرة إليه، والتشرف بلقائه في حياته، ويكون اللَّه ـ تَعَالَى ـ جعل رؤيته في المنام علامةً على رؤياه في اليقظة.

ب ـ وقال ابن بَطَّالٍ: معناه: سيرى تأويل تلك الرؤيا في اليقظة وصحتها، وخروجها على الوجه الحق[٣].

جـ ـ وقيل: إنه على التشبيه والتمثيل، ويدل على ذلك قوله في الرواية الثانية: «لَكَأَنَّمَا رَآنِي فِي الْيَقَظَةِ»[٤].

د ـ وقيل المعنى أنه يراه يَقَظَةً في الآخرة، وفي هذا بِشَارَةٌ لرائيه بأن يموت مسلمًا؛ لأنه لا يراه تلك الرؤية الخاصة باعتبار القرب إلا من تَحَقَّقَ موته على الإسلام.

هـ ـ أنه يراه في المرآة التي كانت له إن أمكنه ذلك، وهو قول ابن أبي جمرة، قال في «الفتح»: «وهذا من أبعد المحامل»[٥].

و ـ أنه يراه حقيقة في الدنيا ويخاطبه[٦].

ثانيًا: أن هذا الاحتمال الأخير باطل، وذلك من وجهين:

● **الْأَوَّلُ**: أنه **مستحيلٌ شرعًا**، ووجه ذلك:

١ـ أن النبي ﷺ قد مات؛ فادعاء حياته بعد موته ﷺ قبل يوم القيامة مستحيلٌ شرعًا؛ لأنه يلزم منه مخالفته لقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠].

(١) أي لأنه لم يكن هاجر في حياة النبي ﷺ.
(٢) «فتح الباري» (١٢/٣٨٥).
(٣) «السابق» (١٢/٣٨٥)، «شرح المواهب اللدنية» للزرقاني (٥/٢٩٣).
(٤)، (٥)، (٦) «السابق» (١٢/٣٨٥).

● قال الصنعاني - رحمه الله - تَعَالَى -:

(والآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والمعلوم من الضرورة الدينية، أنَّ مَنْ وَارَاهُ القبر لا يخرج منه إلا في المحشر، قال الله - تعالَى -: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥]، ولم يقل: تَارَاتٍ أُخَرَ، وقال - تعالَى -: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: ٢١، ٢٢]، وقال الله - تعالَى -: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يس: ٣١]

وأما الأحاديث النبوية فإنها متواترة أن من أُدْخِلَ قبره لا يخرج منه إلا عند النفخة الثانية في الصور... وبالجملة، فالقول بخروج الميت من قبره، وبروزه بشخصه لقضاء أغراض الأحياء - قول مخالف للعقل والنقل[1].

ولا يَرِدُ على ذلك أن الأنبياء أحياء في قبورهم، وكذلك الشهداء، ولا ما ورد عن النبي ﷺ من أنه تُرَدُّ عليه روحه حتى يَرُدَّ السلام على من سَلَّمَ عليه[2]، فإن تلك حياة برزخية تختلف عن هذه الحياة؛ ولذا يُقْتَصَرُ في شأنها على ما ورد في النصوص، ثم إنه يلزم من ذلك: أن يُطَالَبُوا بالتكاليف، وأن يخرجوا ليجاهدوا أعداء اللَّه، واللازم باطل، وإذا بطل اللازم بطل الملزوم.

٢- أَنَّ النبي ﷺ قال: «مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَسَيَرَانِي فِي الْيَقَظَةِ»[3].

فَعَلَّقَ الجواب على الشرط، ومن المعلوم أن جمعًا كثيرًا من سلف الأمة وخلفها قد رَأَوْهُ في المنام، ولم يذكر أحد منهم أنه رآه ﷺ في اليقظة، وخبرُ الصادق ﷺ لا يتخلف[4].

---

(١) «الإنصاف في حقيقة الأولياء وما لَهم من الكرامات والألطاف» للصنعاني ص (٥١).

(٢) رواه أبو داود، وسكت عنه «سنن أبي داود» (٦/٢٦ - عون)، والإمام أحمد في «مسنده» (٢/٥٢٧)، وصحح ابن القيم إسناده كما في «عون المعبود» (٦/٣٠).

(٣) انظر تخريجه ص (٢٦٢).

(٤) «فتح الباري» (١٢/٣٨٥).

● الْوَجْهُ الثَّانِي: أنه **مستحيلٌ عقلًا:**

قال القرطبي:«وهذا القول يُدْرَكُ فساده ببادئ العقول؛ إذ يلزم عليه أن لا يراه أحد إلا على صورته التي مات عليها.

وأن لا يراه رائيان في آن واحدٍ في مكانين.

وأن يحيا الآن، ويخرج من قبره، ويمشي في الأسواق ويخاطبوه، ويلزم منه أن يخلو قبره الشريف من جسده الشريف، فلا يبقى في قبره منه شيء، فَيُزَارُ مجرد القبر، ويُسلَّمُ على غائب؛ لأنه جائز أن يُرَى في الليل والنهار، مع اتصال الأوقات على حقيقته في غير قبره، وهذه جهالات لا يلتزم بها من له أدنى مُسْكَةٍ من العقل»(١).

واعتُرِض على هذا بأن النبي ﷺ يمكن أن يراه شخصان في مكانين مختلفين في وقت واحد، كما تُرَى الشمس أو القمر في أماكنَ متعددةٍ في آن واحدٍ من جماعة كثيرين.

وأجيب عن هذا الاعتراض بأن النبي ﷺ بَشَرٌ كان يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، ولم يكن له حجم الشمس وارتفاعها، حتى يمكن أن يراه جمع كثير في وقت واحد، ثم إن النبي ﷺ إذا كان في بيته لا يراه إلا من كان معه في البيت، دون من كان خارجه، وكذلك الشمس؛ فإنها لو رُؤِيَتْ فرضًا داخل بيتٍ في جِرْمِها، لاستحال رؤية جرمها في بيت آخر(٢).

٣ـ أنه على فرض صحة هذا الاحتمال لا يليق بعالم بله غيره أن يصرف هذا الدليل إلى هذا الاحتمال؛ لأن من القواعد الأصولية أن الدَّلِيلَ إِذَا تَطَرَّقَ إِلَيْهِ الِاحْتِمَالُ بَطَلَ بِهِ الِاسْتِدْلَالُ، فكيف إذا كان هذا الاحتمال ينقضه نفس الحديث، ويرده الشرع والعقل؟!

---

(١) «شرح الزرقاني على المواهب اللدنية» (٥/٢٩٣).

(٢) «السابق» (٥/٢٩٥).

٤ـ ما نقلوه عن ابن أبي جمرة من قوله: «ومن يدعي الخصوص فيه بغير مخصِّص منه ـ عليه السلام ـ فمتعسف».

مردود بأن الحديث ليس نصًّا صريحًا في رؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته في الدنيا، ولا في الآخرة، فتخصيصه بالدنيا بغير مخصص تعسف ـ أيضًا ـ لكن لما كان تأويله برؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته في الدنيا مخالفًا للشرع والعقل؛ حمله جمهور العلماء على رؤية النبي ﷺ يقظة في الآخرة، واللَّه أعلم.

دَلِيلُهُم الثَّانِي:

قال في «رماح حزب الرحيم»: «إن رؤية النبي ﷺ داخلة تحت قدرة اللَّه ـ تَعَالَى ـ فالمنكِر لها منكِرٌ لقدرة اللَّه على ذلك، ومن أنكر قدرة اللَّه؛ فقد كفر، واللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ الذي أحيا الميت ببعض البقرة: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة: ٧٣]، والذي جعل دعاء إبراهيم سببًا لإحياء الطيور: ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وجعل تعجب العُزَيْرِ سببًا لموته وموت حماره، ثم لإحيائهما بعد مئة سنة، قادر على أن يجعل رؤيته ﷺ في النوم سببًا لرؤيته في اليقظة»[(١)]. اهـ ملخصًا.

وقال محمد الحافظ التجاني:«وأصل الاجتماع الروحي اجتماع النبي ﷺ ليلة الإِسراء بالأنبياء ـ عليهم السلام ـ وهم في الدار الآخرة، وكان الكليم سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ سببًا في تخفيف الصلوات عن هذه الأمة، وهو في الدار الآخرة، وصح أن سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه أنفذ وصية ثابت بن قيس بن شماس، وقد أوصى بها بعد استشهاده»[(٢)].

فقد أخرج الحاكم في «المستدرك» عن ثابت عن أنس: «أن ثابت بن قيس جاء يوم اليمامة، وقد تحنط، ولبس كفنه، وقد انهزم أصحابه، فقال: اللَّهم إني أبرأ إليك مما جاء

---

(١) «رماح حزب الرحيم» (١/٢٠٥).

(٢) انظر الجواب عنه في «الموافقات» (٢/٤٥٧) وما بعدها.

به هؤلاء، وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء، فبئس ما عودتكم أقرانكم، خلوا بيننا وبين أقراننا ساعة، ثم حَمَلَ فقاتل ساعة، فقتل، وكانت درعه قد سرقت، فرآه رجل فيما يرى النائم، فقال: إن درعي في قِدْرٍ تحت إكاف بمكان كذا وكذا، وأوصى بوصايا، فطُلِب الدرع، فوُجِدَ حيث قال، فأنفذوا وصيته»[١].

وعن مسلم أبي سعيد مولى عثمان بن عفان أن عثمان رضي الله عنه أعتق عشرين عبدًا مملوكًا، ودعا بسراويل، فشدها عليه ـ ولم يلبسها في جاهلية ولا إسلام ـ وقال: «إني رأيت رسول اللَّه ﷺ البارحة في المنام، وأبا بكر، وعمر، فقالوا لي: اصبر فإنك تفطر عندنا القابلة»، ثم دعا بمصحف فنشره بين يديه فَقُتِلَ، وهو بين يديه[٢].

وقال محمد الحافظ: «وهذا يثبت أن روح الحي تجتمع بأرواح الأموات في النوم، والذي يجمعهم في النوم يجمعهم في اليقظة، والجميع في العالم تحت سلطانه».

● المناقشة:

١ـ إن هذا الرد يلزمنا لو كنا نستدل على عدم إمكان الرؤية يقظة باستبعاد القدرة على ذلك، معاذ اللَّه! والذين ينكرون رؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته في الدنيا هم من أعلم الناس بقدرة اللَّه ـ تعالَى ـ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]. فاللَّه ـ تعالَى ـ قادر على أن يجعل عباده كلهم مؤمنين: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩] . وكما أنه قادر على أن يجعل المبتدع سنيًّا ملتزمًا، ولكن هكذا شاء اللَّه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السَّجدَة: ١٣].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣/٢٣٥)، وقال: «صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجه»، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع»: «ورواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح» (٩/٣٢٢).

(٢) قال الهيثمي: (رواه عبدالله، وأبو يعلى في «الكبير» ورجالهما ثقات) اهـ. من «مجمع الزوائد» (٧/٢٣٢).

فمن اعتقد أن النبي ﷺ لا يُرى يقظة بعد موته في الدنيا، فقد بنى ذلك على أن هذه المسألة من المسائل الاعتقادية ـ لا أنه منكر لقدرة اللَّه ـ والأصل في الأمور الاعتقادية الحظر، حتى يرد دليل يرفع هذا الحظر، وليس هناك دليل شرعي معتبر يرفع هذا الحظر، بل دلَّ الشرع والعقل على خلاف ذلك.

٢ـ إن قدرة اللَّه ـ تَعَالَى ـ متعلقة بكل شيء؛ إذ هو القادر على كل شيء ـ سبحانه ـ فلا تلازمَ إذن بين قدرة اللَّه ـ تَعَالَى ـ وبين رؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته في الدنيا؛ إذ لو قلنا بذلك، للزم من هذا القول إباحة جميع المحرمات، وتحريم جميع المباحات، وإلغاء جميع الشرائع، وإفساد العباد والبلاد؛ لأن اللَّه قادر على ذلك جميعًا، فمن الممكن أن نبيح الفاحشة؛ لأن إباحتها داخلة تحت قدرة اللَّه، ومن الممكن أن نحرم الصلاة؛ لأن تحريمها داخل تحت قدرة اللَّه، فإذا بطل اللازم بطل الملزوم، واللَّه أعلم.

٣ـ إن رؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته في الدنيا قد أنكرها جمع غفير من العلماء والأئمة؛ كابن حجر العسقلاني، وأبي بكر بن العربي، وابن تيمية، والألوسي، وغيرهم، فهل معنى هذا أنهم يجهلون قدرة اللَّه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؟! ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النُّور: الآية ١٦] .

٤ـ إن ما استدل به محمد الحافظ من إمكان رؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته في الدنيا قياسًا على رؤية النبي ﷺ للأنبياء ليلة الإسراء يقظة في الدنيا لا يصح، **وبيان ذلك**:

أ ـ أن الإسراء والمعراج كانا معجزة للنبي ﷺ خاصة لا يقاس عليه غيره.

ب ـ أن رؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته في الدنيا أمر من أمور الاعتقاد لا يجوز فيها القياس؛ لأنها توقيفية.

٥ـ أن كل ما ذكره من الآثار فغاية ما فيها رؤى منامية، وهذه ثابتة للنبي ﷺ ولسائر أمته في الأحاديث الصحيحة[1]، والنزاع في اليقظة لا في المنام.

٦ـ قوله: «... وهذا يثبت أن روح الحي تجتمع بأرواح الأموات في النوم، والذي يجمعهم في النوم يجمعهم في اليقظة والجميع في العالم تحت سلطانه».

---

(١) انظرها ص (١٩٦).

يجاب عنه من وجهين:

أ ـ أن هذا قياس لا يصح؛ لأن الرؤية في النوم قد جاءت بذكرها الأحاديث الصحيحة بخلاف رؤية اليقظة؛ فقد دل الشرع والعقل على خلافها، فلا يصح قياس ما دلَّ الدليل على منعه على ما دل الدليل على إثباته.

ب ـ أن قوله: «... والذي يجمعهم في النوم يجمعهم في اليقظة، والجميع في العالم تحت سلطانه» غاية ما فيه الاستدلال بعموم قدرة اللَّه ـ تَعَالَى ـ وقد سبق الجواب عنه.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ مِنْ أَدِلَّتِهِمْ:

أن رؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته في الدنيا كرامة يمنحها اللَّه من يشاء من عباده، فالمنكر لها منكرٌ لكرامات الأولياء الثابتة بالكتاب والسُّنَّة والآثار المسندة؛ ففي الكتاب قصة أصحاب الكهف، وقصة الخَضِر مع موسى، وقصة آصف بن برخيا مع سليمان... وغيرها.

وفي السُّنَّة قصة الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار، وحديث جريج وكلام الطفل ببراءته... وغيرها كثير.

ومن الآثار قصة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع سارية.

ومن العقل والنظر وقوعها المتكرر تكرارًا ينتهي إلى حد القطع بشهادة الكتاب والسُّنَّة والإِجماع.

● المناقشة:

١ـ إن هذا الدليل لا يرد على محل النزاع؛ إذ لا تلازم بين إنكار رؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته في الدنيا وبين إنكار الكرامة، فقد أنكر رؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته جمع من العلماء المثبتين لكرامات الأولياء؛ كابن حجر العسقلاني، والقرطبي، وابن العربي، والأهدل، وغيرهم.

٢ـ إن رؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته في الدنيا ليست من باب الكرامة، وبيان ذلك:

أـ أن الكرامة هبة من الله ـ تَعَالَى ـ لمن يشاء من عباده الصالحين لا تُطْلَبُ ابتداء(١)، وهم يقولون بطلبها ابتداء.

ب ـ أن الكرامة لا تدرك بالتعلم، وهم يقولون بأنها تدرك بالتعلم عن طريق كثرة الذكر والرياضة(٢).

قال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي: «أما اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من الكرامات فهو من المغالطة؛ لأن الكرامة شيء من عند الله يكرم بها أولياءه لا قصد لهم فيها، ولا تحديَ، ولا قدرة، ولا علم؛ كما في قصة مريم بنت عمران، وأسيد بن حضير، وأبي مسلم الخولاني»(٣). اهـ.

ج ـ أن الكرامة أمر خارق للعادة لا يخالف النصوص الشرعية الثابتة بالكتاب والسنَّة، ورؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته في الدنيا معارضة لنص شرعي(٤)، كما أنها مستحيلة عقلًا(٥).

د ـ أن الكرامة غالبًا لا تحدث إلا مرة واحدة في العمر، وربما مرة واحدة على امتداد الزمان، بينما يرى التجانيون أن رؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته في الدنيا تقع لآلاف البشر في الوقت الواحد، وكل ذلك يبطل القول بأنها من باب الكرامة، والله أعلم.

دَلِيلُهُم الرَّابِعُ:

«أن رؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته في الدنيا قد وقعت لجمع غفير من سلف هذه

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/٣٦٠).

(٢) «بغية المستفيد» ص (٧٩ـ٨٠).

(٣) انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص (١٩٨).

(٤) وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وانظر ص(٢٦٣).

(٥) انظر ص (٢٦٥).

الأمة؛ منهم: الشيخ أبو مدين المغربي شيخ الجماعة، والشيخ عبدالرحمن القناوي، والشيخ أبو العباس المرسي، والشيخ أبو السعود بن أبي العشائر، وإبراهيم المتبولي، والشيخ جلال الدين السيوطي، وغيرهم»[(١)].

● المناقشة:

١ـ إذا ظهر في كلام الأولياء والصالحين ما يخالف الشرع والعقل فينبغي أن يحمل على أحسن المحامل ويصار إلى تأويله؛ إذ قد يُنْقَلُ عنهم الكلام وَيُفْهَمُ على غير ما أرادوا؛ لتفاوت المدارك واختلاف العقول، فمِن ذلك مثلًا ما قاله أبو العباس المرسي: «لو حُجِب عني النبي ﷺ طرفة عين، ما عددت نفسي من المسلمين». قال الشيخ الأهدل: «فهذا كلام فيه تجوُّز يقع مثله في كلام الشيوخ والصالحين، والمراد به أنه لم يحجب حجاب غفلة ونسيان عن دوام المراقبة واستحضارها في الأعمال والأقوال، ولم يُرِدْ أنه لم يحجب عن الروح الشخصية؛ فذلك مستحيل»[(٢)].

أما من لم يبلغ درجة أولئك في الصلاح والتقوى فلا عبرة بما يقوله، إنما هو شيطان تمثل له، وأخبر قرينه بخبر كاذب، بل قد يتمثل الشيطان لعباد اللَّه الصالحين؛ كما حدث لعبد القادر الجيلاني، فقد رأى الشيطان في النوم، فقال له: «أنا ربك قد أبحت لك المحرمات»، فقال: اخسأ يا لعين، فقيل له: بم عرفت أنه شيطان؟ قال: «بقوله: أبحت لك المحرمات. وبقوله: أنا ربك. ولم يقل: أنا اللَّه»[(٣)].

وقد روى سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن أيوب قال: «كان محمد ـ يعني ابن سيرين ـ إذا قصَّ عليه رجل أنه رأى النبي ﷺ قال: صف لي الذي رأيته. فإن وصف له صفة لا يعرفها قال: لم تره»[(٤)].

---

(١) «رماح حزب الرحيم» (١/١٩٩).

(٢) «شرح المواهب اللدنية» للزرقاني (٥/٣٠٠ـ ٣٠١).

(٣) «السابق» (٥/٢٩٨).

(٤) قال الحافظ: «إسناده صحيح» اهـ. من «فتح الباري» (١٢/٣٨٣ـ ٣٨٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والضُّلَّال من أهل القبلة يرون من يعظمونه[١]، إما النبي ﷺ وإما غيره من الأنبياء يقظة، ويخاطبهم ويخاطبونه، وقد يستفتونه ويسألونه عن أحاديث، فيجيبهم»، ثم قال: «لكن كثيرًا من الناس يكذِّب بهذا، وكثيرًا منهم إذا صدّق به يظن أنه من الآيات الإلهية، وأن الذي رأى ذلك رآه لصلاحه ودينه، ولم يعلم أنه من الشيطان، وأنه بحسب قلة علم الرجل يضله الشيطان، ومن كان أقل علمًا قال له ما يعلم أنه مخالف للشريعة. وهو، وإن ظن أنه قد استفاد شيئًا، فالذي خسره من دينه أكثر»[٢].

٢ـ إن ما وقع لهؤلاء الشيوخ هل ثبت عنهم أنه كان يقظة أو منامًا؟ وإذا ثبت أنه كان يقظة، فهل ثبت عنهم بسند صحيح يوثق به؟ وإذا ثبت أنه كان يقظة بسند صحيح يوثق به، فهل هم معصومون من تلبيس الشيطان عليهم؟

كل هذه الأسئلة لا نجد الجواب عليها!!

٣ـ إن رؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته لم تنقل عن أحد من أهل القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير من المصطفى ﷺ .

إذ كيف يظهر ﷺ للمفضول ولا يظهر للفاضل؟ وقد حدثت حوادث كانت الحاجة فيها إلى ظهوره شديدة جدًّا[٣]، **منها**:

١ـ اختلاف المهاجرين والأنصار ـ رَضِيَ اللَّه عَنْهُمْ ـ على الخلافة، وقد بقي النزاع بينهم مستمرًا ثلاثة أيام، حتى شغلهم ذلك عن دفن النبي ﷺ فلو ظهر لهم وأخبرهم بأن الخليفة أبو بكر رضي الله عنه لانقطع النزاع، فكيف لا يظهر في اليقظة لأفضل الناس بعده في أمر مهم؟

٢ـ اختلاف أبي بكر رضي الله عنه مع فاطمة الزهراء ـ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا ـ على الميراث، واشتداد حزنها على أبيها بعد وفاته.

---

(١) كذا، ولعلها «يظنونه».

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٣٩١ـ ٣٩٢)، و«الجواب الباهر» ص (٥٤ـ٥٥).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٤٠٧)، و«الفكر الصوفي» ص (٤٧٤) وما بعدها.

٣ـ ما وقع بين طلحة والزبير وعائشة من جهة وعلي بن أبي طالب من جهة أخرى، حتى وقعت حرب الجمل، فقتل فيها خلق كثير من الصحابة.

٤ـ خلاف علي رضي الله عنه مع الخوارج، وما وقع بين علي ومعاوية ـ رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا ـ من النزاع[١].

ففي كل هذه الحوادث لم يُرْوَ أن النبي ﷺ ظهر لأصحابه يقظة؛ ليفصل بينهم مع أنهم أصحابه، فكيف يظهر لمن هو دونهم منزلة وتقوى؟ واللَّه أعلم.

دَلِيلُهُمُ الخَامِسُ:

أن رؤية النبي ﷺ يقظة قد قال بها علماء كثيرون قبل التجاني؛ كالإمام السيوطي، وابن أبي جمرة، والشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني، وابن حجر المكي الهيتمي، والغزالي، وابن الحاج، والسبكي، والعفيف اليافعي.

قال الإمام السيوطي ـ بعد أن ذكر حديث البخاري: «مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَسَيَرَانِي فِي الْيَقَظَةِ، وَلَا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي»، وبعضَ النقول عن بعض العلماء ـ قال: «فحصل من مجموع هذه النقول والأحاديث أن النبي ﷺ حي بجسده وروحه، وأنه يتصرف ويسير حيث شاء في أقطار الأرض في الملكوت، وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته، لم يتبدل منه شيء، وأنه مغيب عن الأبصار كما غيبت الملائكة مع كونها أحياء بأجسادهم، فإذا أراد اللَّه رفع الحجاب عمن أراد برؤيته رآه على هيئته التي هو عليها، لا مانع من ذلك، ولا داعي للتخصيص برؤية المثال»[٢].

وقال الغزالي ـ بعد مدح الصوفية وبيان أنهم خير خلق اللَّه ـ: «حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتهم، ويقتبسون منهم

(١) «شرح المواهب اللدنية» (٥/٢٩٥)، و«غاية الأماني في الرد على النبهاني» (١/٢٢٦).
(٢) «الحاوي للفتاوى» (٢/٤٣٥).

فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصورة والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاقُ النطق»[(١)]. اهـ.

● المناقشة:

هذا الدليل مردود من وجهين:

١ـ أن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ حينما بعث نبيه ﷺ أنزل عليه القرآن، وآتاه الحكمة؛ فحد الحدود وبيَّن الشرائع والأحكام، فما دلت الشريعة المطهرة على إثباته أثبتناه، وما دلت على نفيه نفيناه، وما اختُلِفَ فيه رُدَّ إلى كتاب اللَّه وسنَّة رسوله ﷺ إذ هما المرجع في هذا الباب؛ قال اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. ولم يمت النبي ﷺ إلا وقد أكمل اللَّه به الدين، وأتم به على عباده النعمة؛ كما قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة : ٣].

ولم يرد في القرآن شيء يدل على رؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته في الدنيا، وكذلك لم يرو شيء في السنّة المطهرة، وأما الحديث السابق فقد بيَّنَّا آنفًا بطلان الاستدلال به على رؤيته ﷺ يقظة بعد موته، ووجه الحق فيه، واللَّه أعلم.

٢ـ أن اللَّه ـ تَعَالَى ـ قد حفظ كتابه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩]، وقد عصم اللَّه نبيه ﷺ فلا يبلغ عن ربه إلا الحق: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾، [النجم: ٣،٤].

وكلام العلماء يُؤْخَذُ منه ويُرَدُّ، مهما بلغت منزلتهم علمًا وتقوى وورعًا، فهم مقيدون بالكتاب والسنَّة؛ إذ هما المحك؛ فما وافقهما قُبِلَ، وما خالفهما رُدَّ، وعبارات العلماء في هذا المعنى كثيرة.

(١) «المنقذ من الضلال» ص (٣١)، وانظر: «أبو حامد الغزالي والتصوف» للشيخ عبدالرحمن دمشقية (١٥٩ـ ١٧٨).

وهناك كثير من العلماء الأجلاء الذين لهم باع طويل في خدمة كتاب اللَّه وسنّة رسوله ﷺ ومع ذلك لم يسلموا من الزلل، والأمثلة على ذلك كثيرة في باب العقائد وفي باب الفروع، وقد تركت ذكرها أدبًا مع علماء الشريعة.

ج ـ المذهب الراجح في رؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته في الدنيا.

قد تبيَّن لك أنه ﷺ لا يُرى يقظة، ومن رأى ما يوهم ذلك فإنه من تلبيس الشيطان ـ لعنه اللَّه ـ ولا يرد عليه حديث: «فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي».

فإن الشيطان كما أخبر ﷺ لا يتمثل به، لكن الشيطان يخبر قرينه بخبر كاذب؛ كما فعل ذلك مع الجيلاني (١).

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ عليه رحمة اللَّه ـ: «وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي حَقًّا؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي» (٢)، فهذا في رؤية المنام؛ لأن رؤية المنام تكون حقًّا، وتكون من الشيطان، فمنعه اللَّه أن يتمثل به في المنام. أما في اليقظة فلا يراه أحد بعينه في الدنيا» (٣). اهـ.

وقال شيخ الإسلام ـ أيضًا ـ: «وأما في اليقظة فمن ظن أن أحدًا من الموتى يجيء بنفسه للناس عيانًا قبل يوم القيامة فمِن جهله أُتي» (٤).

وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «وكل من قال: إنه رأى نبيًّا بعين رأسه، فما رأى إلا خيالًا» (٥).

---

(١) انظر: «شرح المواهب اللدنية» للزرقاني (٥/٢٩٨).
(٢) رواه البخاري (١٢/٣٨٣- فتح)، ومسلم (١٥/٢٦ ـ شرح النووي).
(٣) «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» ص (٢٩- ٣٠).
(٤) «مجموع الفتاوى» (١٣/٩٤).
(٥) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» ص (١٣٨).

وقد سبق أن ذكرنا قول القرطبي[1] في استحالة رؤيته ﷺ يقظةً بعد موته.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: «وشذ بعض الصالحين؛ فزعم أنها تقع بعين الرأس حقيقة»[2].

والأدلة على عدم إمكان رؤية النبي ﷺ بعد موته في اليقظة كثيرة،، أشرنا إلى كثير منها في المناقشة، ونلخصها فيما يلي:

١ـ أن رؤية النبي ﷺ يقظة من باب العقائد، والعقائد مبنية على التوقيف، فلا يجزم بنفي شيء أو إثباته إلا بدليل يصح الاعتماد عليه، ولم يرد في الكتاب ولا في السنّة ما يدل على إثباتها، ولم يدَّعِهَا أحد ـ فيما نعلم ـ من الصحابة، ولا من التابعين، ولا من أتباعهم، وهذا من أدلة الاستدلال عند أهل الأصول، وهو ما يعرف عندهم: «بانتفاء المَدْرَك».

أما حديث: «فَسَيَرَانِي فِي الْيَقَظَةِ»، فقد بيَّنَّا كلام العلماء على هذه الرواية، ووجه الحق فيها.

٢ـ أن رؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته في الدنيا مستحيلة شرعًا وعقلًا، وقد سبق بيان ذلك.

٣ـ أنه قد حدثت حوادث خطيرة في صدر الإسلام كانت الحاجة فيها إلى ظهوره ﷺ شديدة جدًّا، ومع ذلك لم يذكر أحد أنه ﷺ رؤي يقظة، فكيف يظهر للمفضول، ولا يظهر للفاضل؟!

فمن قال: إن النبي ﷺ يُرى يقظة بعد موته في الدنيا، فقد أتى بقول يُدْرَكُ فساده بأوائل العقول، قال القسطلاني في «المواهب اللدنية»: «وبالجملة، فالقول برؤيته ﷺ بعد موته بعين الرأس في اليقظة يُدْرَكُ فساده بأوائل العقول؛ لاستلزامه خروجه من قبره، ومشيه في الأسواق، ومخاطبته للناس، ومخاطبة الناس له... إلخ»[3].

---

(١) انظر: «زاد المسلم» (٣/١٨٧).
(٢) «شرح المواهب اللدنية» للزرقاني (٥/٢٩٩).
(٣) «السابق».

فَصْلٌ

فِيمَا يَدَّعِي التِّجَانِيَّةُ تَلَقِّيَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِهِ يَقَظَةً

كما يزعم التجانيون أنهم يرون النبي ﷺ يقظة، فإنهم يزعمون أنهم يستفتونه ويسألونه عن أمور دينهم ودنياهم، ويتلقون منه الأوراد، ويصحح لهم الأحاديث، فيعملون بذلك، وفيما يلي بعض النصوص الدالة على ذلك، وهذه النصوص منها ما يدل على اعتقادهم ذلك، ومنها ما يدل على تطبيقهم لهذا الاعتقاد.

فمما يدل على اعتقادهم ذلك:

ما جاء في «بغية المستفيد» «... عن الشيخ أحمد الزواوي كان يقول: طريقنا أن نكثر من الصلاة عليه ﷺ حتى نصير من جلسائه، ونصحبه يقظة مثل أصحابه، ونسأله عن أمور ديننا، وعن الأحاديث التي ضعفها الحفاظ عندنا، ونعمل بقوله فيها»[١]. اهـ.

وأما ما يدل على تطبيقهم ذلك فمنه:

١- قول مؤلف «جواهر المعاني» عن الصلاة المسماة «بياقوتة الحقائق»: «هي من إملاء رسول اللَّه ﷺ من لفظه الشريف على شيخنا يقظة لا منامًا»[٢].

٢- وقال أيضًا: «... سأل سيد الوجود، وعلم الشهود ﷺ في كل نفس مشهود، عن نسبه، وهل هو من الأبناء والأولاد، أو من الآل والأحفاد؟ فأجابه ﷺ بقوله: «أنت ولدي حقًّا» كررها ثلاثًا ﷺ، وقال: نسبك إلى الحسن بن علي صحيح، وهذا السؤال من سيدنا رضي الله عنه لسيد الوجود يقظة لا منامًا، وبشره ﷺ بأمور عظام جسام ﷺ وشرَّف وكرَّم ومجَّد وعظَّم[٣]».

وقال - أيضًا - فيما يرويه عن شيخه التجاني: «قال: رأيته مرة ﷺ وسألته عن

(١) «بغية المستفيد» ص (٧٩).
(٢) «جواهر المعاني» (٢/٢٢٨).
(٣) «السابق» (١/٣٠- ٣١).

الحديث الوارد في سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ قلت له: ورد عنك روايتان صحيحتان، واحدة قلت فيها: «يَمْكُثُ بَعْدَ نُزُولِهِ أَرْبَعِينَ»، وقلت في الأخرى : «سَبْعًا». ما الصحيحة منها؟ قال ﷺ : «رواية السبع»[١] .

● المناقشة:

١ـ لو سلمنا جدلًا ـ وهو محال ـ أن النبي ﷺ يُرى يقظة، فالحق أنه لا عمل إلا بالكتاب والسنّة، والسنّة هي ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو وصف، وما ادعاه التجانيون من الإخبار عن النبي ﷺ يقظة بعد موته، فليس داخلًا في تعريف السنَّة، فلا يمكن أن يسمى حديثًا مرفوعًا، ولا موقوفًا، ولا مرسلًا، ولا مضطربًا، ولا شاذًّا.

قال محمد الخضر الشنقيطي: «فإن كانت مرفوعة متصلة الإسناد، كما يقول صاحب المنية:

وَكُلُّ مَا يُرْوَى فَعَنْ خَيْرِ الْوَرَى ... مُتَرْجَمٌ لَفْظُهُ بِالْأَمْرِ[٢]

فعلى هذا يكون ما قالوه وحيًا مرويًّا عن النبي ﷺ ؛ لقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣،٤]، ويكون هو صحابيًّا والناقلون عنه تابعين، أو تكون غير مرفوعة متصلة الإسناد؛ لاستحالة وجود الصحابة في القرن الثاني عشر، فتكون مروية عن النبي ﷺ مباشرة، وهذا غير معقول، اللَّهم، إلا أن يقولوا: إن شريعتهم لما كانت مخترعة غير داخلة تحت قانون شرعي وجب أن يُخترعَ لها اصطلاح غير داخل في اصطلاح المُحَدِّثين»[٣] .

٢ـ إنه يشترط فيما روي عن النبي ﷺ في حياته صحة السند، وعدالة الرواة، فكيف برؤى لا نشك في بطلانها؛ لمخالفتها للأدلة النقلية والعقلية.

---

(١) «السابق» (١/٥٥).

(٢) «منية المريد» ص (٧).

(٣) «مشتهى الخارف الجاني في رد زلقات التجاني الجاني» ص (٤٤ـ ٤٥).

٣- إن اتصال النبي ﷺ بالناس قد انقطع بوفاته؛ كما دل على ذلك الكتاب والسنَّة، فمن ذلك حديث ابن عباس - رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا - عن النبي ﷺ قال: إنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ، وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم.

وإن أناسًا من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: أصحابي أصحابي، فيُقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم. فأقول: كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ -إلى قوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾[1] [المائدة: ١١٧-١١٨][2].

قال الألوسي:«ومعنى الجماتين: أني ما دمت فيهم كنت مشاهدًا لأحوالهم؛ فيمكن لي بيانها، فلما توفيتني كنت أنت المشاهد لها لا غيرك، فلا أعلم حالهم، ولا يمكنني بيانها»[3].

ففي الحديث - كما ترى - تصريح بانقطاع الاتصال بين الرسول ﷺ وبين الناس بعد مماته.

وقال ابن القيم:«فالعلم اللدني نوعان: لدني رحماني، ولدني شيطاني، والمحك هو الوحي، ولا وحي بعد رسول اللَّه ﷺ »[4].

٤- وقد اختلف الأصوليون: هل يجوز للرسول ﷺ تأخير البيان إلى وقت الحاجة، أو لا يجوز له ذلك؟ أما تأخير البيان إلى ما بعد وفاته ﷺ فلم يقل به عاقل فضلًا عن عالم مُنْصِفٍ يطلب الحق، ويتحرى الحقيقة.

٥- وسئل الشيخ التجاني: «أيُكذَبُ عليك؟ قال: نعم، إذا سمعتم عني شيئًا فزنوه بميزان الشرع، فما وافق فاعملوا به، وما خالف فاتركوه»[5].

---

(١) رواه البخاري (٦/٣٨٦- ٣٨٧ - فتح)، ومسلم (١٧/١٩٤- نووي).
(٢) «روح المعاني» (٧/٦٩).
(٣) عزاه إلى «مدارج السالكين» (٢/٢٦١).
(٤) «الانتصاف» (١/الحلقة الثالثة) لمحمد الحافظ التجاني.

قلت: وقد عرضنا ذلك على الكتاب والسنّة، فبان بطلانه وبعده عن الحق؛ فوجب عليهم رده أخذًا بوصية شيخهم، كيف لا، وقد بان لهم الدليل؟[١].

تَنْبِيهَاتٌ:

الأَوَّلُ: ذكر العلامة محمد حبيب اللَّه الشنقيطي ـ رحمه اللَّه ـ اختلاف العلماء في هذه المسألة، ومال إلى خلاف قول الجمهور، إلا أنه قال:

«إذا علمت ما قررناه من إمكان رؤيته ﷺ في اليقظة كرامة لبعض خواص أكابر الأولياء...، فاعلم أن فائدة ذلك إنما تعود غالبًا على الرائي فقط، ولا يجوز أن يثبت بها حكم شرعي كائنًا ما كان ندبًا أو غيره من سائر الأحكام الشرعية، كما تعطيه قواعد الشرع المعلومة، وكما صرح به الأئمة؛ كالحافظ ابن حجر وغيره، فقد قال في «فتح الباري» بعد بحث طويل عند قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «وَلَا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي» ما نص المراد منه: ومع ذلك فقد صرح الأئمة بأن الأحكام الشرعية لا تثبت بذلك»[٢]. اهـ.

وهذا كلام العلماء فيما يدعي النائم أنه أخذه عن النبي ﷺ من أحكام في النوم، مع ثبوت رؤيته ﷺ في النوم بالأحاديث الصحيحة، فكيف بما يزعمون أنهم أخذوه عنه ﷺ بعد موته في اليقظة مع أنها مردودة شرعًا وعقلًا كما تم بيانه.

الثَّانِي: بحسب قلة علم الرجل يضله الشيطان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ: «والمقصود أن الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ لم يطمع الشيطان أن يضلهم كما أضل غيرهم من أهل البدع الذين تأولوا القرآن على غير تأويله، أو جهلوا السنّة، أو رأوا وسمعوا أمورًا من الخوارق فظنوها من

(١) انتهى بتصرف من «التجانية: دراسة لأهم عقائد التجانية على ضوء الكتاب والسنة» ص (١٢٥ـ ١٤٩)، للشيخ علي بن محمد الدخيل الله ـ طبعة دار طيبة ـ الرياض.
(٢) «زاد المسلم» (١٨٧/٣).

جنس آيات الأنبياء والصالحين، وكانت من أفعال الشياطين... فأهل الهند يرون من يعظمونه من شيوخهم الكفار وغيرهم.

والنصارى يرون من يعظمونه من الأنبياء والحواريين وغيرهم.

والضُّلَّال من أهل القِبلة يرون من يعظمونه، إما النبي ﷺ وإما غيره من الأنبياء يقظة، ويخاطبهم ويخاطبونه، وقد يستفتونه ويسألونه عن أحاديث فيجيبهم، ومنهم من يخيل إليه أن الحجرة قد انشقت، وخرج منها النبي ﷺ، وعانقه هو وصاحباه...

وأعرف ممن وقع له هذا وأشباهه عددًا كثيرًا، وقد حدثني بما وقع له في ذلك، وبما أخبر به غيره من الصادقين من يطول هذا الموضع بذكرهم... لكنْ كثير من الناس يكذِّب بهذا، وكثير منهم إذا صدَّق به يظن أنه من الآيات الإلهية، وأن الذي رأى ذلك رآه لصلاحه ودينه، ولم يعلم أنه من الشيطان، وأنه بحسب قلة علم الرجل يضله الشيطان»(١).

الثَّالِثُ: قال الشيخ عبدالرحمن عبدالخالق ـ حفظه الله ـ: «... ولو فرضنا جدلًا أن الرسول ﷺ يمكن أن يعود بجسده الشريف أو روحه الطاهر ﷺ ليلقى بعض المسلمين، فإننا نجزم أن لقاءه هذا سيكون لتعزيز شريعته التي بثها في حياته لا لهدمها، فنتصور مثلًا في مثل التجاني أن يقول: «لا تكن أنت وأتباعك عبيدًا للاستعمار الفَرَنْسِيِّ ولا خدمًا للكفار، وقوموا بنصرة الدين، وجاهدوا في سبيل اللَّه».

وأما أن يأتي النبي ﷺ ليقول للتجاني: «أقطعتُكَ الجنة وأتباعك ـ ولو كانوا مجرمين فاسقين ـ وكل من رآك دخل الجنة، ولو كان كافرًا، وَاؤْمُرْ أتباعك أن يَدْعوك من دون اللَّه، ويشركوا باللَّه في كل شيء»... إلخ كلامه(٢).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٧/٣٩٠ـ ٣٩٢). بتصرف.

(٢) «الفكر الصوفي» ص (٣٦٠).

الرَّابِعُ: يدعي التجانية أن النبي ﷺ لم يؤمر بتبليغ كل ما علمه، وأن ما لم يبلغه في حياته يبلغه بعد وفاته لمن يلقاه من الخواص، قال مؤلف «جواهر المعاني»: «وسألته ﷺ: هل خبر سيد الوجود بعد موته كحياته سواء؟ فأجاب ﷺ بما نصه: الأمر العام الذي كان يأتيه عامًّا للأمة طوي بساط ذلك بموته ﷺ وبقي الأمر الخاص الذي كان يلقيه للخاص، فإن ذلك في حياته وبعد مماته دائمًا لا ينقطع»[١]. اهـ.

وقال مؤلف «الجيش الكفيل»: «فإذا تقرر هذا علمت ضرورة أنه ﷺ لم يؤمر بتبليغ كل ما علمه، كيف وعنده علم الأولين والآخرين»[٢]. اهـ.

وقال - أيضًا -: «وسئل: هل كان ﷺ عالمًا بفضل صلاة الفاتح لما أغلق؟ فقال: نعم، كان عالمًا به، قالوا: ولِم لَم يذكره لأصحابه؟ قال: لعلمه ﷺ بتأخير وقته، وعدم وجود من يظهره الله على يديه في ذلك الوقت»[٣]. اهـ.

فأين هؤلاء الظالمون المتعدون حدود الله من قوله - تَعَالَى -: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المَائدة: الآية ٣] ... الآية؟ وأين هم من قوله - تَعَالَى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المَائدة: الآية ٦٧] ؟ وأين هم من تبري عليٍّ ﷺ من أن يكون ﷺ خصهم بشيء من العلم دون الناس، كما في حديث أبي جحيفة[٤]؟

وإذا كان يلزم من كلام أولئك الضالين عدم انقطاع خبر السماء بوفاة رسول الله ﷺ فلماذا قالت أم أيمن للشيخين - رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا -: «ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء»، فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها[٥]؟

---

(١) «جواهر المعاني» (١/١٤٠).

(٢) «الجيش الكفيل بأخذ الثأر» ص (١١٠- ١١١).

(٣) «السابق» ص (١١٠).

(٤) انظر تخريجه ص(٣٩٠).

(٥) رواه مسلم (١٦/ ٩- ١٠، شرح النووي).

وأين هؤلاء من قول أم المؤمنين عائشة ـ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا ـ لمسروق ـ رحمه اللَّه ـ: «من حدثك أن محمدًا ﷺ كتم شيئًا مما أنزل عليه فقد كذب، واللَّه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾... الآية» [1]؟

وقال الإمام أبو محمد بن حزم ـ رحمه اللَّه ـ: «... واعلموا أن رسول اللَّه ﷺ لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها، ولا أطلع أخص الناس به من زوجة أو ابنة عم أو ابن عم أو صاحب على شيء من الشريعة كتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم، ولا كان عنده ـ عليه السلام ـ سر ولا رمز ولا باطن غير ما دعا الناس كلّهم إليه، ولو كتمهم شيئًا لما بلَّغ كما أُمِر، ومن قال هذا فهو كافر، فإياكم وكلَّ قول لم يبين سبيله، ولا وضح دليله، ولا تعوجوا عما مضى عليه نبيكم ﷺ وأصحابه ـ رَضِيَ اللَّه عَنْهُمْ ـ» [2]. اهـ

* * * * *

---

(١) رواه البخاري (٨/٢٧٥ ـ فتح)، ومسلم (٣/٨ـ ٩، شرح النووي).

(٢) «الفِصَل» (٢/١١٦).



الْفَصْلُ الرَّابِعُ

الإِلْهَامُ وَالتَّحْدِيثُ وَالْكَشْفُ



الْفَصْـلُ الرَّابِعُ

الْإِلْهَامُ وَالتَّحْدِيثُ وَالْكَشْفُ

الْإِلْهَامُ لُغَةً: مصدر أَلْهَمَ، يُقَالُ: ألهمه الله خيرًا؛ أي لَقَّنَهُ إياه، والإلهام أن يلقي الله في النفس أمرًا يبعث على الفعل أو الترك، وهو نوعٌ من الوحي يَخُصُّ الله به من يشاء من عباده.

قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٧-٨]، ويُروى عن حصين بن منذر مرفوعًا: «قُلِ اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وأعذني من شَرِّ نَفْسِي».

وعند الأصوليين: إيقاع شيءٍ في القلب يطمئن له الصدر، يخص به الله ـ سبحانه ـ بعض أصفيائه.

وقد عدَّ الأصوليون الإلهام نوعًا من أنواع الوحي إلى الأنبياء، وفي كتاب «التقرير والتحبير» عن الإلهام من الله لرسوله: إنه إلقاء معنًى في القلب بلا واسطةِ عبارةِ الملَك، وإشارتهِ مقرون بخلق علم ضروري أن ذلك المعنى منه ـ تعَالَى ـ[1]، ومنه ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ، حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»[2].

«يتفق الأصوليون على أن الإلهام من الله ـ تعَالَى ـ لأنبيائه حقٌّ، وهو بالنسبة للنبي ﷺ حُجَّةٌ في حَقِّهِ، كذلك هو في حق أمته، ويكفر منكر حقيقته، ويفسق تارك العمل به كالقرآن.

أما إلهام غير الأنبياء من المسلمين، فإنه ليس بحجة؛ لأن من ليس معصومًا لا ثِقَةَ

---

(١) «الموسوعة الفقهية» (٦/١٨٨).

(٢) رواه البغوي في «شرح السنة» (٤١١٢)، وله شواهد كثيرة يصل بها إلى درجة الصحة، فانظرها في «حاشية الموافقات» (٤/٤٦٥-٤٦٦)، وانظر ص(٩٩).

بخواطره؛ لأنه لا يأمن من دسيسة الشيطان فيها، وهو قول جمهور أهل العلم، وهو المختار عند الحنفية، ولا عبرة بما قاله قومٌ من الصوفية بأنه حُجَّةٌ في الأحكام[1].

وقيل: هو حجة على الملهَمِ لا على غيره، إذا لم يكن له معارض من نص أو اجتهاد أو خاطر آخر، وهذا ذكره غير واحد، فيجب العمل به في حق الملهم، ولا يجوز أن يدعو غيره إليه»[2].

● وقال الإمام ابن حزم رحمه الله:

(ويُقَالُ لمن قال بالإلهام: ما الفرق بينك وبين من ادَّعى أنه أُلْهِمَ بطلان قولك، فَلَا سبيل له إلى الانفصال عنه، والفرق بين هذه الدعوى، ودعوى من ادَّعَى أنه يُدْرِكُ بعقله خلاف ما يدركه ببديهة العقل، وبين ما يدركه بأوائل العقل أن كل من في المشرق والمغرب إذا سُئِلَ عَمَّا ذكرنا أننا عرفناه بأوائل العقل أخبر بمثل ما نخبر به سواء بسواء، وأن المدعين للإلهام ولإدراك ما لا يدركه غيرهم بأول عقله لا يتفق اثنان منهم على ما يدعيه كل واحد منهم إلهامًا، أو إدراكًا، فَصَحَّ بلا شك أنهم كَذَبَةٌ، وأن الذي بهم: وِسْوَاسٌ[3]؛ وأيضًا، فإن الإلهام دعوى مجردة من الدليل، ولو أُعْطِيَ كل امرئ بدعواه الْمُعَرَّاة، لما ثَبَتَ حَقٌّ، ولا بطل باطل، ولا استقر ملك أحد على مال، ولا انتُصِفَ من ظالم، ولا صَحَّتْ ديانة أحد أبدًا؛ لأنه لا يعجز أحد عن أن يقول: أُلْهِمْتُ أنَّ دَمَ فلانٍ حلال، وأن مَالَهُ مباحٌ لي أخذه، وأن زوجه مُبَاحٌ لي وطؤها، وهذا لا ينفك منه، وقد يقع في النفس وَسَاوِسُ كثيرةٌ، لا يجوز أن تكون حقًّا، وأشياء متضادة يُكَذِّبُ بعضها بعضًا، فلا بد من حاكم يميز الحق منها من الباطل، وليس ذلك

---

(١) وعليه بنى محمد أحمد المتمهدي السوداني دعوته قائلًا: «إن أمرنا ناشيء عن إلهام صائب مع المشورة المسنونة» اهـ. نقله عنه في «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر» ص (٣٩٣)، ومن قبله ادعى ابن عربي أن «ترتيب الفتوحات المكية لم يكن لي من اختيار، ولا عن نظر فكري، وإنما الحق يملي لنا على لسان مَلَك الإلهام جميع ما نسطره» اهـ. من «الفتوحات المكية» (٢٨٧/١).

(٢) «الموسوعة الفقهية» (١٨٨/٦)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٤٢/٢- ٤٧)، (٤٧٢/١٠- ٤٧٩).

(٣) الوسوسة: إلقاء معنى في النفس بمباشرة سبب نشأ من الشيطان له.

إلا العقل الذي لا تتعارض دلائله)[1]. اهـ.

● **وقال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ:**

(قال: وهو ـ أي الإلهام ـ على ثلاث درجات:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: نَبَأٌ يقع وحيًا قاطعًا مقرونًا بسماع؛ إذ مطلق النبإ الخبر الذي له شأن، فليس كل خبر نبأ، وهو نبأ خبر عن غيب معظم.

ويريد بالوحي والإلهام: الإعلام الذي يقطع من وَصَلَ إليه بموجبه، إما بواسطة سمع، أو هو الإعلام بلا واسطة.

قلت: أما حصوله بواسطة سمع، فليس ذلك إلهامًا، بل هو من قبيل الخطاب، وهذا يستحيل حصوله لغير الأنبياء، وهو الذي خُصَّ به موسى؛ إذ كان المخاطِبُ هو الحق ـ عز وجل.

وأما ما يقع لكثير من أرباب الرياضات من سماع؛ فهو من أحد وجوه ثلاثة، لا رابع لها؛ أعلاها: أن يخاطبه الملك خطابًا جزئيًا، فإن هذا يقع لغير الأنبياء؛ فقد كانت الملائكة تخاطب عمران بن حصين بالسلام، فلما اكتوى تركت خطابه، فلما ترك الكي عاد إليه خطاب ملكي؛ **وهو نوعان:**

أَحَدُهُمَا: خطابٌ يسمعه بأذنه، وهو نادر بالنسبة إلى عموم المؤمنين.

وَالثَّانِي: خطاب يُلْقَى في قلبه يُخَاطِبُ به الملك روحه، كما في الحديث المشهور: «إِنَّ لِلْمَلَكِ لَمَّةً بِقَلْبِ ابْنِ آدَمَ، وَلِلشَّيْطَانِ لَمَّةً، فَلَمَّةُ الْمَلَكِ: إِيعَادٌ بالْخَيْرِ، وَتَصْدِيقٌ بِالْوَعْدِ، وَلَمَّةُ الشَّيْطَانِ: إِيعَادٌ بِالشَّرِّ، وَتَكْذِيبٌ بِالْوَعْدِ»، ثم قرأ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: الآية ٢٦٨]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ﴾ [الأنفال: ١٢]، قيل في تفسيرها:

---

(١) «الإحكام في أصول الأحكام» (١/١٧-١٨).

قَوُّوا قلوبهم، وبَشِّرُوهُمْ بالنصر، وقيل: احضُروا معهم القتال، والقولان حق؛ فإنهم حضروا معهم القتال، وثَبَّتُوا قلوبهم.

ومن هذا الخطاب: واعظ الله ـ عز وجل ـ في قلوب عباده المؤمنين؛ كما في جامع الترمذي، ومسند أحمد من حديث النَّوَّاس بن سمعان، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ ـ تَعَالَى ـ ضَرَبَ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى كَنَفَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ، لَهُمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَدَاعٍ يَدْعُو على رَأْسِ الصِّرَاطِ، وَدَاعٍ يَدْعُو فَوْقَ الصِّرَاطِ، فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللَّهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ، فَلَا يَقَعُ أَحَدٌ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ حَتَّى يَكْشِفَ السِّتْرَ، وَالدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللَّهِ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ»، فهذا الواعظ في قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهي بواسطة الملائكة.

وأما وقوعه بغير واسطة: فمما لم يتَبَيَّنْ بعد، والجزم فيه بنفي أو إثبات موقوف على الدليل، والله أعلم.

فَصْـــلٌ

النَّوْعُ الثَّانِي مِنَ الخِطَابِ الْمَسْمُوعِ: خطاب الهواتف من الجانِّ، وقد يكون المخاطِبُ جنيًّا مؤمنًا صالحًا، وقد يكون شيطانًا، وهذا ـ أيضًا ـ نوعان:

أَحَدُهُمَا: أن يخاطبه خطابًا يسمعه بأذنه.

وَالثَّانِي: أن يُلْقِيَ في قلبه عندما يُلِمُّ به، ومنه وعده، وتمنيته حين يَعِدُ الإنسي ويُمَنِّيه، ويأمره، وينهاه، كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النِّساء: الآية ١٢٠]، وقال: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٨]، وللقلب من هذا الخطاب نصيب، وللأذن ـ أيضًا ـ منه نصيب، والعصمة منتفية إلا عن الرسل، ومجموع الأمة.

فمِن أين للمخاطَب أن هذا الخطاب رحماني، أو مَلَكِيٌّ؟ بأي برهان؟ أو بأي دليل؟ والشيطان يقذف في النفس وَحْيَهُ، ويُلقي في السمع خِطَابَهُ، فيقول المغرور المخدوع: «قيل لي، وخوطبت»، صدقت، لكن الشأن في القائل لك، والمخاطِب، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لغيلان بن سلمة ـ وهو من الصحابة، لَمَّا طَلَّقَ نساءه، وقَسمَ ماله بين بنيه ـ: «إني لأظن الشيطان ـ فيما يسترق من السمع ـ سمع بموتك، فقذفه في نفسك»(١)، فمن يأمن القراء بعدك يا شهر؟

فَصْلٌ

النَّوْعُ الثَّالِثُ: خِطَابٌ حَالِيٌّ، تكون بدايته من النفس، وعَوْدُهُ إليها، فيتوهمه مِن خارج، وإنما هو من نفسه، منها بدا، وإليها يعود.

وهذا كثيرًا ما يَعْرِضُ للسالك، فيغلط فيه، ويعتقد أنه خطاب من الله، كَلَّمَهُ به منه إليه، وسبب غلطه: أن اللطيفة المدركة من الإنسان إذا صَفَتْ بالرياضة، وانقطعت عَلَقُها عن الشواغل الكثيفة، صار الحكم لها بحكم استيلاء الروح والقلب على البدن، ومصير الحكم لهما، فتنصرف عناية النفس والقلب إلى تجريد المعاني التي هي متصلة بهما، وتشتد عناية الروح بها، وتصير في محل تلك العلائق، والشواغل، فتملأ القلب، فتصرف تلك المعاني إلى المنطق، والخطاب القلبي الروحي بحكم العادة، ويتفق تجرد الروح، فتتشكل تلك المعاني للقوة السامعة بشكل الأصوات المسموعة، وللقوة الباصرة بشكل الأشخاص المرئية، فيرى صورها، ويسمع الخطاب، وكله في نفسه ليس في الخارج منه شيء. ويحلف أنه رأى وسمع، وصَدَقَ، لكن رأى وسمع في الخارج، أو في نفسه، ويتفق ضعف التمييز، وقلة العلم، واستيلاء تلك المعاني على الروح، وتجردها عن الشواغل.

---

(١) انظره في «الإصابة» (٥/٣٣٤).

فهذه الوجوه الثلاثة هي وجوه الخطاب، ومن سَمَّع نفسه غيرها، فإنما هو غرور، وخدع، وتلبيس، وهذا الموضع مقطع القول، وهو من أجَلِّ المواضع لمن حَقَّقَهُ وفَهِمَهُ، والله المُوَفِّقُ للصواب»، اهـ[1].

فَصْلٌ

● ثم قال - رحمه الله -:

قال: «الدرجة الثانية: إلْهَامٌ يقع عيانًا، وعلامة صحته: أنه لا يخرق سِتْرًا، ولا يجاوز حَدًّا، ولا يخطئ أبدًا».

الفرق بين هذا وبين الإلهام في الدرجة الأولى: أن ذلك عِلْمٌ شَبِيهٌ بالضروري الذي لا يمكن دفعه عن القلب، وهذا مُعَايَنَةٌ ومُكَاشَفَةٌ، فهو فوقه في الدرجة، وأتَمُّ منه ظهورًا، ونسبته إلى القلب نسبة المرئي إلى العين، وذكر له ثَلَاثَ عَلَامَاتٍ:

إحْدَاهَا: «أنه لا يخرق سِتْرًا»؛ أي صاحبه إذا كُوشِفَ بحال غير المستور عنه لا يخرق ستره، وَيَكْشِفُهُ؛ خيرًا كان أو شرًّا، أو أنه لا يخرق ما ستره الله من نفسه عن الناس، بل يستر نفسه، ويستر من كُوشِفَ بحاله.

الثَّانِيَةُ: «أنه لا يُجَاوِزُ حَدًّا» يَحْتَمِلُ وجهين:

أَحَدُهُمَا: أنه لا يتجاوز به إلى ارتكاب المعاصي، وتجاوز حدود الله؛ مثل الكُهَّان، وأصحاب الكشف الشيطاني.

الثَّاني: أنه لا يقع على خلاف الحدود الشرعية؛ مثل أن يتجسس به على العورات التي نهى الله عن التجسس عليها وتتبعها، فإذا تتبعها وقع عليها بهذا الكشف، فهو شيطاني لا رحماني.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٤٥ - ٤٨).

الثَّالِثَةُ: أنه لا يخطئ أبدًا، بخلاف الشيطاني؛ فإن خطأه كثير؛ كما قال النبي ﷺ لابن صائد: «مَا تَرَى؟ قَالَ: أَرَى صَادِقًا وَكَاذِبًا، فَقَالَ: لُبِّسَ عَلَيْكَ»، فالكشف الشيطاني لا بد أن يَكْذِبَ، ولا يستمر صدقه البتة[١]. اهـ.

● وقال الإمام أبو إسحاق الشاطبي ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ:

«اعلم أن النبي ﷺ مُؤَيَّدٌ بالعصمة، معضود بالمعجزة الدالة على صدق ما قال، وصحة ما بيَّن، وأنت ترى الاجتهاد الصادر منه معصومًا بلا خلاف، إما بأنه لا يخطئ البتة، وإما بأنه لا يُقَرُّ على خطإ إن فُرِضَ؛ فما ظنك بغير ذلك؟

فكل ما حكم به؛ أو أخبر عنه من جهة رؤيا نوم، أو رؤية كشف؛ مثلُ ما حكم به مما ألقى إليه الْمَلَكُ عن الله ـ عز وجل.

وأمَّا أمَّتُهُ، فكل واحدٍ منهم غير معصوم، بل يجوز عليه الغلط، والخطأ، والنسيان، ويجوز أن تكون رؤياه حلمًا[٢]، وكشفه غير حقيقي، وإن تبين في الوجود صدقه[٣]، واعْتِيدَ ذلك فيه واطَّرَدَ؛ فإمكان الخطإ والوهم باقٍ، وما كان هذا شأنه لم يَصِحَّ أن يُقْطَعَ به حكم.

وأيضًا؛ فإن كان مثل هذا مَعْدُودًا في الاطِّلاع الغيبي؛ فالآيات والأحاديث تدل على أن الغيب لا يعلمه إلا الله؛ كما في الحديث من قوله ـ عليه السلام ـ: «فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ تَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: الآية ٣٤] ... إلى آخر سورة لقمان»[٤].

---

(١) «السابق» (١/٤٨- ٤٩).

(٢) أي: والحُلم من الشيطان كما جاء في الحديث.

(٣) أي في غير هذه الجزئية التي يفرض الكلام فيها؛ فإمكان الخطإ والوهم باقٍ في هذه الجزئية حتى ينكشف الأمر؛ إما بتحققها، أو عدمه، **وبعد تحققها وحصولها، فالمرجع الوجود، لا الكشف ولا الرؤيا.**

(٤) قطعة من حديث أخرجه البخاري في «صحيحه» (٥٠) (١/١١٤)، (٤٧٧٧) (٨/٥١٣)، ومسلم (٩) (١/٣٩).

وقال في الآية الأخرى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: الآية ٥٩]

واستثنى الْمُرْسَلِينَ في الآية الأخرى بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]... الآية، **فبقي من عداهم على الحكم الأول؛ وهو امتناع علمه.**

وقال - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عِمران: ١٧٩] ... الآية، وقال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النَّمل: الآية ٦٥] .

وفي حديث عائشة: «وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ، فَقَدْ أَعْظَمَ الْفِرْيَةَ عَلَى اللَّهِ[(١)]».

وقد تعاضدت الآيات والأخبار، وتكررت في أنه لا يعلم الغيب إلا الله، وهو يفيد صحة العموم من تلك الظواهر، فإذا كان كذلك خَرَجَ مَن سوى الأنبياء من أن يشتركوا مع الأنبياء صلوات الله عليهم في العلم بالمغيبات، وما ذُكِرَ قبلُ عن الصحابة، أو ما يُذْكَرُ عنهم بسندٍ صحيحٍ، فَمِمَّا لا ينبني عليه حكم؛ إذ لم يشهد[(٢)] له رسول الله ﷺ، ووقوعه على حسب ما أخبروه، هو مما يُظَنُّ بهم، ولكنهم لا يُعَامِلُونَ أنفسهم إلا بأمر مشتركٍ لجميع الأمة، وهو جواز الخطإ؛ لذلك قال أبو بكر: «أُرَاهَا جارية»[(٣)]،

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧) (١٥٩/١) عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -، ولفظه: «ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غدٍ؛ فقد أعظم على الله الفرية»، واللفظ الذي ذكره الشاطبي هو لفظ رواية الترمذي (٣٠٦٨) (٢٦٢/٥- ٢٦٣).

(٢) كشهادته لرؤيا عبدالله بن زيد في الأذان.

(٣) يشير إلى ما رواه مالك في «الموطإ» (٧٥٢/٢) رواية يحيى الليثي، عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: إن أبا بكر الصديق نَحَلَها جادَّ عشرين وَسْقًا من ماله بالغابة، فلما حضرته الوفاة، قال: «والله يا ابنتي ما من الناس أَحَدٌ أحبُّ إليَّ غِنًى بعدي منك، ولا أَعَزُّ عليَّ فقرًا بعدي منك، وإني كنت نحلتُك جادَّ عشرين وَسْقًا، فلو كنت جددتيه، واحتزتيه كان لك، وإنما هو اليومَ مالُ وارث، وإنما هما أخواكِ، وأختاكِ، فاقتسموه على كتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ -».

قالت عائشة: فقلت: «يا أبت! والله لو كان كذا وكذا لتركته، إنما هي أسماء، فمن الأخرى؟» قال أبو بكر: «ذو بطن بنتِ خارجة، أُراها جارية».

جادَّ عشرين وَسْقًا: أي ما يُجَدُّ منه هذا القدر، والجاد هنا بمعنى المجدود، أي المقطوع. =

فأتى بعبارة الظن التي لا تفيد حكمًا، وعبارة «يا ساريةُ الجبلَ»[١] ـ مع أنها إن صحت لا تفيد حكمًا شرعيًّا[٢] ـ، هي ـ أيضًا ـ لا تفيد أن كل ما سواها مثلها، وإن سُلِّمَ فلخاصية أن الشيطان كان يَفِرُّ منه[٣]، فلا يَطُورُ[٤] حول حمى أحواله التي أكرمه الله بها، بخلاف غيره؛ فإذا لاح لأحدٍ من أولياء الله شيءٌ من أحوال الغيب، فلا يكون على علمٍ منها مُحَقَّقٍ لا شَكَّ فِيهِ، بل على الحال التي يُقَالُ فيها «أُرَى»، و«أَظُنُّ»، فإذا وقع مطابقًا في الوجود، وفُرِضَ تحققه بجهة المطابقة أولًا، والاطراد ثانيًا؛ فلا يبقى للإخبار به بعد ذلك حكمٌ؛ لأنه قد صار من باب الحكم على الواقع[٥]؛ فاستوت الخارقة وغيرها، نَعَمْ[٦] تفيد الكرامات والخوارق لأصحابها يقينًا، وعلمًا بالله ـ تَعَالَى ـ،

= **جددتيه:** قطعتيه، **احتزتيه:** حُزْتِيه.
ذو بطن بنت خارجة: أي صاحب بطنها، يريد الحمل الذي فيه.
أراها جارية: يعني أظنها أنثى، فكان كما ظن رضي الله عنه، سُمِّيت أم كلثوم، قيل: لرؤيا رآها أبو بكر رضي الله عنه.

(١) عن نافع أن عمر بعث سرية، فاستعمل عليهم رجلًا يقال له: سارية، فبينما عمر يخطب يوم الجمعة فقال: «يا ساريةُ الجبلَ، يا ساريةُ الجبلَ»، فوجدوا سارية قد أغار إلى الجبل في تلك الساعة يوم الجمعة، وبينهما مسيرة شهر.
وفي رواية: (فجعل ينادي: «يا سارية الجبل، يا سارية الجبل» ثلاثًا، ثم قدم رسول الجيش، فسأله عمر، فقال: يا أمير المؤمنين هُزمنا، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا مناديًا: «يا سارية الجبل» ثلاثًا، فأسندنا ظهورنا بالجبل، فهزمهم الله، فقيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك).
عزاه الألباني في «الصحيحة» (١١١٠) إلى أبي بكر بن خلاد في «الفوائد»، والسلمي في «الأربعين الصوفية»، والبيهقي في «الدلائل»، وصححه، وانظر: «الموافقات» (٤/٤٦٩)، وقال ابن كثير في «البداية» (٧/١٣١): «وهذا إسناد جيد حسن».

(٢) بل نصيحةً ومشورة.

(٣) كما روى الشيخان عن سعد رضي الله عنه مرفوعًا: «والذي نفسي بيده؛ ما لقيك الشيطان سالكًا فَجًّا قط إلا سلك فَجًّا غير فجك».

(٤) يطور: يقرب، وفلان يطور بفلان: أي كأنه يحوم حوله، ويدنو منه.

(٥) أي: لأنه يبقى على عدم العلم، بل على مجرد ظن أو شك حتى يقع، فبعد وقوعه مطابقًا لا يبقى للإخبار به فائدة في بناء حكم عليه، ويكون الحكم ـ إن كان هناك حكم ـ مبنيًّا على الواقع نفسه.

(٦) استدراك على ما قبله الموهم أنه حينئذ لا فائدة في الخوارق والكرامات لأنه لا ينبني عليها حكم أصلًا، يقول: بل لها فائدة أهم من هذا، وهي زيادة اليقين، وشرح الصدر، بتضاعف نور الإيمان، واتساع البصيرة والعلم بالرب واهبها.

وقوة فيما هم عليه، وهو غير ما نحن فيه»[١]، اهـ.

● **وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ:**

«وكذلك من اتبع ما يرد عليه من الخطاب، أو ما يراه من الأنوار والأشخاص الغيبية، ولا يعتبر ذلك بالكتاب والسنة، فإنما يتبع ظنًّا لا يغني من الحق شيئًا، فليس في المحدثين المُلْهَمِينَ أفضل من عمر؛ كما قال ﷺ:

«إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَعُمَرُ مِنْهُمْ»، وقد وافق عمر ربَّه في عدة أشياء، ومع هذا فكان عليه أن يعتصم بما جاء به الرسول، ولا يقبل ما يرد عليه حتى يعرضه على الرسول، ولا يتقدم بين يدي الله ورسوله.

فكل من كان من أهل الإلهام والخطاب، والمكاشفة، لم يكن أفضل من عمر، فعليه أن يسلك سبيله في الاعتصام بالكتاب والسنة تبعًا لما جاء به الرسول، لا يجعل ما جاء به الرسول تبعًا لما ورد عليه، وهؤلاء الذين أخطئوا وضلوا، وتركوا ذلك، واستغنوا بما ورد عليهم، وظنوا أن ذلك يغنيهم عن اتباع العلم المنقول.

وصار أحدهم يقول: «أخذوا علمهم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت»، فَيُقَالُ لَهُ: أما ما نقله الثقات عن المعصوم فهو حق، ولولا النقل المعصوم، لكنت أنت وأمثالك إما من المشركين، وإما من اليهود والنصارى، وأما ما ورد عليك؛ فمِن أين لك أنه وحيٌ من الله؟

ومن أين لك أنه ليس من وحي الشيطان؟

و«الوحي» وحيان: وحيٌ من الرحمن، ووحيٌ من الشيطان، قال ـ تعَالَى ـ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: الآية ١٢١]، وقال ـ تعَالَى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ

---

(١) «الموافقات» (٤/٤٧٠- ٤٧٣).

زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعَام: ١١٢] ، وقال - تَعَالَى -: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢١]»[١] اهـ.

وقد غلا أبو حامد الغزالي في إثبات حجية «الكشف»، حتى إنه ليقول في «مشكاة الأنوار»: «في الأولياء من يكاد يشرق نوره حتى يكاد يستغني عن مدد الأنبياء»[٢].

وقال - أيضًا -: «فَأَمَّا من يأخذ معرفة هذه الأمور[٣] من السمع المجرد، فلا يستقر له فيها قدم، ولا يَتَعَيَّنُ له موقف». اهـ[٤].

علَّق شيخ الإسلام ابن تيمية قائلًا: «قلت: هذا الكلام مضمونه أنه لا يُسْتَفَادُ من خبر الرسول ﷺ شيء من الأمور العلمية، بل إنما يُدْرِكُ ذلك كل إنسان بما حَصَلَ له من المشاهدة والنور والمكاشفة».

وقال - أيضًا -: «وهذان أصلان للإلحاد؛ فإن كل ذي مكاشفة إن لم يَزِنْهَا بالكتاب والسنة، وإلا دخل في الضلالات[٥]».

وقال - رحمه الله -: «وما جاء به الرسول معصوم لا يستقر فيه الخطأ، وأما ما يقع لأهل القلوب من جنس المخاطبة والمشاهدة ففيه صواب وخطأ، وإنما يُفَرَّقُ بين صوابه، وخطئه بنور النبوة.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣/٧٣- ٧٥).

(٢) «مشكاة الأنوار» ص (٤٥)، ضمن مجموعة «القصور العوالي»، ونقول تعقيبًا على هذا الضلال المبين: «لماذا إذن بكى الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - لانقطاع الوحي بوفاة النبي ﷺ ؟!».

(٣) يقصد بهذه الأمور معرفة ما يتأول من الصفات الإلهية وغيرها مما لا يُتأول، وقد حكى مذهب الأشعرية، ثم المعتزلة ثم الفلاسفة، ثم قال: «وحد الاقتصاد بين هذا الانحلال كله وبين جمود الحنابلة دقيق غامض، لا يطلع عليه إلا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهي لا بالسماع (يعني الأدلة السمعية من الكتاب والسنة)، فما وافق ما شاهدوه بنور اليقين قرروه، وما خالف أولوه» اهـ. من «الإحياء» (١/١٠٤).

(٤) «السابق».

(٥) وانظر شيئًا من هذه الضلالات مفصلة في «الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة» ص (١٤٣- ١٩٩)، و«أبو حامد الغزالي والتصوف» ص (١٧٩- ٢٠١).

قال بعض الشيوخ ما معناه: قد ضُمِنَتْ لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسنة، ولم تُضْمَنْ لنا العصمة في الكشوف»، ثم قال شيخ الإسلام: «من المعلوم أن هذا ـ أي الكشف ـ لو كان ممكنًا؛ لكان السابقون الأوَّلُونَ أَحَقَّ الناس بهذا، ومع هذا فما منهم من ادَّعى أنه أدرك بنفسه ما أخبر به الرسول ﷺ »[١].

ونقل الحافظ في الفتح، عن ابن السمعاني قوله: «وإنكار الإلهام مردود، ويجوز أن يَفْعَلَ الله بعبده ما يُكْرِمُهُ به، ولكن التمييز بين الحق والباطل في ذلك أن كل ما استقام على الشريعة المحمدية، ولم يكن في الكتاب والسنة ما يَرُدُّهُ فهو مقبول، وإلا فمردودٌ يقع من حديث النفس، ووسوسة الشيطان، ثم قال: ونحن لا ننكر أن الله يكرم عبده بزيادة نورٍ منه، يزداد به نظره، ويقوى به رأيه، وإنما ننكر أن يرجع إلى قلبه بقول لا يعرف أصله، ولا نزعم أنه حجة شرعية، وإنما هو نورٌ يختص الله به من يشاء من عباده، فإن وافق الشرع كان الشرع هو الحجة». اهـ[٢].

وقال الإمام المحقق ابن قَيِّم الجوزية في ضمن شرحه لعبارة صاحب المنازل: «وأمَّا الدرجة الثالثة: فمكاشفة عين، لا مكاشفة علم»... إلخ.

«وليس مراد الشيخ في هذا الباب: الكشف الجزئي المشترك بين المؤمنين والكفَّار، والأبرار والفجَّار؛ كالكشف عمَّا في دار إنسان، أو عمَّا في يده، أو تحت ثيابه، أو ما حَمَلَتْ به امرأته، بعد انعقاده ذكرًا أو أنثى، وما غاب عن العيان من أحوال البعد الشاسع ونحو ذلك، فإن ذلك يكون من الشيطان تارةً، ومن النفس تارةً؛ ولذلك يقع من الكفَّار؛ كالنصارى، وعابدي النيران، والصلبان؛ فقد كاشف ابن صياد النبي ﷺ بما أضمره له، وخبأه، فقال له رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ»، فأخبر أن ذلك الكشف من جنس كشف الكهان، وأن ذلك قَدْرُهُ، وكذلك مُسَيْلَمَةُ الكذَّاب،

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٥/٣٤٨ـ ٣٥٤).

(٢) «فتح الباري» (١٢/٣٨٨ـ ٣٨٩).

مع فرط كفره، كان يُكَاشِفُ أصحابه بما فعله أحدهم في بيته، وما قاله لأهله، يخبره به شيطانه، ليُغويَ الناس، وكذلك الأسود العنسي، والحارث المتنبي الدمشقي الذي خرج في دولة عبد الملك بن مروان، وأمثال هؤلاء ممن لا يحصيهم إلا الله، وقد رأينا نحن وغيرنا منهم جماعة، وشاهد الناس مِن كَشْفِ الرُّهْبَان عُبَّاد الصليب ما هو معروف.

والكشف الرحماني من هذا النوع: هو مثل كشف أبي بكر لما قال لعائشة ـ رَضي الله عنهما ـ: إن امرأته حامل بأنثى، وكشف عمر رضي الله عنه لَمَّا قال: «يا سارية الجبلَ»، وأضعاف هذا من كشف أولياء الرحمن.

والمقصود: أن مراد القوم بالكشف في هذا الباب أمر وراء ذلك، وأفضله وأجله: أن يكشف للسالك عن طريق سلوكه؛ ليستقيم عليها، وعن عيوب نفسه ليصلحها، وعن ذنوبه ليتوب منها.

فما أكرم الله الصادقين بكرامةٍ أعظم من هذا الكشف، وجعلهم منقادين له، عاملين بمقتضاه، فإذا انضم هذا الكشف إلى كشف تلك الحجب المتقدمة عن قلوبهم: سارت القلوب إلى ربها سير الغيث إذا استدبرته الريح»(١).

وقال ـ رحمه الله ـ أيضًا ـ:

«فالكشف الصحيح: أن يَعْرِفَ الحق الذي بَعَثَ الله به رُسُلَهُ، وأنزل به كُتُبَهُ، معاينة لقلبه، ويجرد إرادة القلب له، فيدور معه وُجُودًا وعَدَمًا، هذا هو التحقيق الصحيح، وما خالفه فغرور قبيح». اهـ(٢).

* * *

(١) «مدارج السالكين» (٣/٢٢٧-٢٢٨).

(٢) «السابق» (٣/٢٢٦).

لَا عِلْمَ إِلَّا بِدَلِيلٍ أَوْ شَاهِدٍ

● **قال الإمام المحقِّقُ ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ:**

«علوم الشواهد» هي ما حَصَلَتْ من الاستدلال بالأثر على المؤثر، وبالمصنوع على الصانع، فالمصنوعات شواهد، وأدلة، وآثار، وعلوم الشواهد: هي المستندة إلى الشواهد الحاصلة عنها.

و«العلم اللدني» هو العلم الذي يقذفه الله في القلب إلهامًا بلا سبب من العبد، ولا استدلال؛ ولهذا سُمِّيَ لَدُنِّيًا، قال الله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] ، والله ـ تَعَالَى ـ هو الذي عَلَّم العباد ما لا يعلمون؛ كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العَلق: ٥] ، ولكن هذا العلم أخص من غيره؛ ولذلك أضافه إليه ـ سبحانه ـ؛ كبيته، وناقته، وبلده، وعبده، ونحو ذلك، فتضمحل العلوم المستندة إلى الأدلة والشواهد في العلم اللدني، الحاصل بلا سبب ولا استدلال، هذا مضمون كلامه.

ونحن نقول: إن العلم الحاصل بالشواهد والأدلة هو العلم الحقيقي، وأما ما يَدَّعِي حُصُولَهُ بِغَيْرِ شاهدٍ، ولا دليل، فلا وُثُوقَ به، وليس بِعِلْمٍ. نعم، قد يقوى العلم الحاصل بالشواهد، ويتزايد؛ بحيث يصير المعلوم كالمشهود، والغائب كالمُعَايَنِ، وعلم اليقين كعين اليقين، فيكون الأمر شعورًا أولًا، ثم تجويزًا، ثم ظنًّا، ثم علمًا، ثم معرفةً، ثم علمَ يقينٍ، ثم حقَّ يقينٍ، ثم عينَ يقينٍ، ثم تضمحل كل مرتبة في التي فوقها؛ بحيث يصير الحكم لها دونها، فهذا حقٌّ.

وأما دعوى وقوع نوع من العلم بغير سبب من الاستدلال، فليس بصحيح؛ فإن الله ـ سبحانه ـ رَبَطَ التعريفات بأسبابها، كما ربط الكائنات بأسبابها، ولا يحصل لبشر علم إلا بدليلٍ يدله عليه. وَقَدْ أَيَّدَ الله ـ سبحانه ـ رسله بأنواع الأدلة والبراهين التي

دلتهم على أن ما جاءهم هو من عند الله، ودَلَّتْ أممهم على ذلك، وكان معهم أعظم الأدلة والبراهين على أن ما جاءهم هو من عند الله، وكانت براهينهم أدلةً، وشواهد لهم، وللأمم؛ فالأدلة والشواهد التي كانت لهم ومعهم، أعظم الشواهد والأدلة، والله ـ تَعَالَى ـ شهد بتصديقهم بما أقام عليه من الشواهد، فكل علم لا يستند إلى دليل فدعوى لا دليل عليها، وحكم لا برهان عند قائله، وما كان كذلك لم يكن علمًا، فضلًا عن أن يكون لَدُنِّيًّا.

فالعلم اللدني ما قام الدليل الصحيح عليه: أنه جاء من عند الله على لسان رسله، وما عداه فلدني من لدن نفس الإنسان، منه بدأ وإليه يعود، وقد انبثق[1] سَدُّ العلم اللدني، ورخص سعره، حتى ادعت كل طائفة أن علمهم لدني، وصار من تكلم في حقائق الإيمان والسلوك، وباب الأسماء والصفات بما يسنح له، ويلقيه شيطانه في قلبه ـ يزعم أن علمه لدني، فَمَلَاحِدَةُ الاتحادية، وزنادقة المنتسبين إلى السلوك يقولون: إن علمهم لدني، وقد صَنَّفَ في العلم اللدني متهوكو المتكلمين»، وزنادقة المتصوفين، وجَهَلَةُ المتفلسفين، وكلٌّ يزعم أن علمه لدني، وصدقوا، وكذبوا فإن «اللدني» منسوب إلى «لدن» بمعنى «عند»، فكأنهم قالوا: العلم العندي، ولكنَّ الشأن فيمن هذا العلم مِن عِنده، ومن لدنه، وقد ذَمَّ الله ـ تَعَالَى ـ بأبلغ الذم من ينسب إليه ما ليس من عنده؛ كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٧٨] ، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٧٩]، وقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فكلُّ من قال: هذا العلم من عند الله، وهو كاذب في هذه النسبة، فله نَصِيبٌ وافر من هذا الذم، وهذا في القرآن كثير، يذم الله ـ سبحانه ـ من أضاف إليه ما لا علم له به، ومن قال عليه ما لا يعلم؛ ولهذا رتب ـ سبحانه ـ المحرماتِ أربعَ مراتبَ، وجعل

(١) انبثق: انثقب، وانشق.

أشدَّها القولَ عليه بلا علم، فجعله آخر مراتب المحرمات التي لا تُبَاحُ بحال، بل هي محرمة في كل ملة، وعلى لسان كل رسول؛ فالقائل: «إن هذا علم لدني»، لما لا يعلم أنه من عند الله، ولا قام عليه برهان من الله أنه من عنده: كاذب مُفْتَرٍ على الله، وهو من أظلم الظالمين، وأكذب الكاذبين»[١].

الصُّوفِيَّةُ وَالْإِلْهَامُ

لقد كانت قصة موسى والخَضِر ـ عليهما السلام ـ مَرْتَعًا خَصْبًا لخيال الصوفية؛ حتى زعموا أن الخَضِرَ حيٌّ أبدَ الدهر، وأنه يلتقي بالأولياء، ويعلمهم علم الحقيقة، والأوراد، وأنه صاحب شريعة، وعلم باطني يختلف عن الشريعة الظاهرية، وأن علمه لدني موهوب من الله بغير وحي الأنبياء، وكل ذلك بناءً على أنه وليٌّ، وليس نبيًّا.

● **قال إمامهم ابن عربي في «الفتوحات المكية»:**

«اعلم أيها الولي الحميم ـ أيدك الله ـ أن هذا الوتد هو خَضِرُ صاحب موسى ـ عليه السلام ـ أطال الله عمره إلى الآن، وقد رأينا من رآه، واتفق لنا في شأنه أمر عجيب»[٢].

ذِكْرُ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ الْخَضِرَ نَبِيٌّ وَلَيْسَ وَلِيًّا فَحَسْبُ:

قال الفخر الرازي في معرض حديثه عن الْخَضِرِ ـ عليه السلام ـ وهل هو نبيٌّ أو ولي: والأكثرون على أن ذلك العبد كان نبيًّا، واحتجوا عليه بوجوه:

الحجة الأولى:

أنه ـ تعالى ـ قال: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الكهف: ٦٥]، والرحمة هي النبوة بدليل

---

(١) «السابق» (٣/٤٣١ـ ٤٣٣).

(٢) «الفتوحات المكية» (٣/١٨٠).

قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزّخرُف: ٣٢] .

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القَصَص: ٨٦] .

والمراد من هذه الرحمة النبوة.

الْحُجَّةُ الثَّانِيَةُ:

قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] ، وهذا يقتضي أنه ـ تَعَالَى ـ عَلَّمَهُ بلا واسطةِ تعليمِ مُعَلِّمٍ، ولا إرشاد مرشد، وكل من عَلَّمَهُ الله لا بواسطة البشر وجب أن يكون نبيًّا يعلم الأمور بالوحي من الله.

الْحُجَّةُ الثَّالِثَةُ:

أن موسى ـ عليه السلام ـ قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، والنبي لا يتبع إلا النبي في التعليم.

الْحُجَّةُ الرَّابِعَةُ:

أن ذلك العبد أظهر الترفع على موسى؛ حيث قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف: ٦٨] .

وأما موسى فإنه أظهر التواضع؛ حيث قال: ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩] .

وكل ذلك يدل على أن ذلك العالم كان فوق موسى، ومن لا يكون نبيًّا لا يكون فوق النبي.

الْحُجَّةُ الْخَامِسَةُ:

احتج الأصمُّ على نبوته بقوله في أثناء القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾ [الكهف: ٨٢]، ومعناه فعلته بوحيَ الله، وهو يدل على النبوة».(١) اهـ.

* * *

ومما يَدُلُّ على أن الْخَضِرَ ـ عليه السلام ـ نبيٌّ من أنبياء الله، وليس وَلِيًّا فحسب، قوله لموسى ـ عليه السلام ـ: «يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لَا تَعْلَمُهُ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ الله لَا أَعْلَمُهُ».

وقال لموسى ـ أيضًا ـ: «مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ الْبَحْرِ»(٢).

«ولا شك أن ما فعله الْخَضِرُ فعله عن وَحْيٍ حقيقي من الله، وليس عن مجرد خيال، أو إلهام؛ لأن قتل النفس لا يجوز بمجرد الظن؛ ولذلك قال الخضر: «وما فعلته عن أمري»، فلم يفعل إلا عن أمر الله الصادق، ووحيه القطعي، ومثل هذا الأمر، والوحي القطعي قد انقطع بوفاة النبي ﷺ، فلا وحي بعده، ومن ادَّعى شيئًا من ذلك، فقد كفر؛ لأنه بذلك خالف القرآن الذي يقول الله فيه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠] (٣).

وقد أيَّد القول بنبوة الْخَضِرِ العلامة القرآني محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله ـ، ثم ناقش حجية الإلهام، وضوابط التعامل معه؛ حيث قال ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ:

قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥] .

---

(١) «التفسير الكبير» (١٤٨/٢٢).

(٢) رواه البخاري (٤٣٢/٦- فتح).

(٣) انظر: «الفكر الصوفي» ص (١٣٢).

اعلم أولاً أن الرحمة تَكرَّرَ إطلاقها على النبوة في القرآن، وكذلك العلم المؤتى من الله تَكرَّرَ إطلاقه فيه على علم الوحي، فمن إطلاق الرحمة على النبوة قوله ـ تَعَالَى ـ في «الزخرف»: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾... الآية؛ أي نبوته حتى يتحكموا في إنزال القرآن على رجل عظيم من القريتين، وقوله ـ تَعَالَى ـ في سورة «الدخان»: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾... الآية، وقوله ـ تعَالَى ـ في آخر «القصص»: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القَصَص: ٨٦] ... الآية، ومن إطلاق إيتاء العلم على النبوة قوله ـ تعَالَى ـ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النِّساء: ١١٣] ، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يُوسُف: ٦٨] ... الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

ومعلوم أن الرحمة وإيتاء العلم اللدني أعم من كون ذلك عن طريق النبوة وغيرها، والاستدلال بالأعم على الأخص فيه أن وجود الأعم لا يستلزم وجود الأخص كما هو معروف، ومن أظهر الأدلة في أن الرحمة والعلم اللدني اللَّذَيْنِ امتنَّ الله بهما على عبده الخضر عن طريق النبوة والوحي قوله ـ تَعَالَى ـ عنه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢] ؛ أي وإنما فعلته عن أمر الله ـ جل وعلا ـ، وأمر الله إنما يتحقق عن طريق الوحي؛ إذ لا طريق تُعْرَفُ بها أوامر الله ونواهيه إلا الوحي من الله ـ جل وعلا.

ولا سيما قتل الأنفس البريئة في ظاهر الأمر، وتعييب سُفُنِ الناس بخرقها؛ لأن العدوان على أنفس الناس، وأموالهم لا يصح إلا عن طريق الوحي من الله ـ تَعَالَى ـ، وقد حَصَرَ ـ تَعَالَى ـ طُرُقَ الإنذار في الوحي في قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ [الأنبياء: ٤٥] ، و«إنما» صيغة حصر، فإن قيل: قد يكون ذلك عن طريق الإلهام؟

فالجواب: أن المقرر في الأصول أن الإلهام من الأولياء لا يجوز الاستدلال به على

شيء؛ لِعَدَمِ العصمة، وعدمِ الدليل على الاستدلال به.

بل ولوجود الدليل على عدم جواز الاستدلال به، وما يزعمه بعض الْمُتَصَوِّفَةِ من جَوَازِ العمل بالإلهام في حق الملهم دون غيره، وما يزعمه بعض الجبرية أيضًا من الاحتجاج بالإلهام في حق الملهم وغيره، جاعلين الإلهام كالوحي المسموع، مُسْتَدِلِّينَ بظاهر قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ، وبخبر: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»[(١)]، كله باطل لا يُعَوَّلُ عليه؛ لعدم اعتضاده بدليل، وغير المعصوم لا ثقة بخواطره؛ لأنه لا يأمن دسيسة الشيطان، وقد ضُمِنَتِ الهداية في اتباع الشرع، ولم تُضْمَنْ في اتباع الخواطر والإلهامات.

والإلهام في الاصطلاح: إيقاع شيء في القلب يَثْلَجُ له الصدر من غير استدلال بوحي، ولا نَظَرَ في حجة عقلية، يَخْتَصُّ الله به من يشاء من خلقه، أما ما يُلْهَمُه الأنبياءُ مما يلقيه الله في قلوبهم فليس كإلهام غيرهم؛ لأنهم معصومون بخلاف غيرهم، قال في «مراقي السعود» في كتاب الاستدلال:

وَيُنْبَذُ الإِلْهَامُ فِي الْعَرَاءِ ... أَعْنِي بِهِ إِلْهَامَ الأَوْلِيَاءِ
وَقَدْ رَآهُ بَعْضُ مَنْ تَصَوَّفَا ... وَعِصْمَةُ النَّبِيِّ تُوجِبُ اقْتِفَا[(٢)]

وبالجملة، فلا يخفى على من له إلمام بمعرفة دين الإسلام أنه لا طريق تُعْرَفُ بها أوامر الله ونواهيه، وما يتقرب إليه به من فعل وترك، إلا عن طريق الوحي؛ فَمَنِ ادَّعَى أنه غَنِيٌّ في الوصول إلى ما يُرْضِي ربه عن الرسل، وما جاءوا به ـ ولو في مسألة واحدة ـ، فلا شك في زندقته، والآيات والأحاديث الدالة على هذا لا تُحْصَى، قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ، ولم يَقُلْ: حتى نُلْقِيَ في

---

(١) رُوي من حديث أبي سعيد الخدري، وأبي أمامة الباهلي، وأبي هريرة، وعبدالله بن عمر، وثوبان ـ رضي الله عنهم ـ، وضعفَّه الألباني رحمه الله في «السلسلة الضعيفة» (١٨٢١)، وكذا ضعفه محقق «مسند الشهاب» (٣٨٧/١).

(٢) «نشر البنود على مراقي السعود» ص (٢٦١- ٢٦٢).

القلوب إلهامًا، وقال ـ تعالى ـ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النِّساء: ١٦٥] ، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ﴾ [طه: ١٣٤] ... الآية.

والآيات والأحاديث بمثل هذا كثيرة جدًّا، وقد بَيَّنَا طَرَفًا من ذلك في سورة «بني إسرائيل» في الكلام على قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥][(١)]، وبذلك تعلم أن ما يَدَّعِيهِ كثير من الجهلة المدعين التصوف من أن لهم ولأشياخهم طريقًا باطنة توافق الحق عند الله، ولو كانت مخالفة لظاهر الشرع؛ كمخالفة ما فعله الخَضِرُ لظاهر العلم الذي عند موسى ـ زندقة، وذريعة إلى الانحلال بالكلية من دين الإسلام، بدعوى أن الحق في أمور باطنة تخالف ظاهره.

وقال القرطبي ـ رحمه الله ـ في تفسيره[(٢)] ما نصه: «قال شيخنا الإمام أبو العباس: ذهب قومٌ من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق لا تلزم منه هذه الأحكام الشرعية، فقالوا: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يُحْكَمُ بِهَا على الأنبياء والعامة، وأما الأولياء، وأهل الخصوص؛ فلا يَحْتَاجُونَ إلى تلك النصوص؛ بل إنما يُرَادُ منهم ما يَقَعُ في قلوبهم، ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم، وقالوا: وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق للخَضِرِ؛ فإنه استغنى بما تَجَلَّى له من العلوم عمَّا كان عند موسى من تلك الفهوم[(٣)]، وقد جاء فيما ينقلون: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ»، قال شيخنا رضي الله عنه: وهذا القول زندقة وكفر، يُقْتَلُ قائله، ولا يُسْتَتَابُ؛ لأنه

(١) «أضواء البيان» (٣/٤٢٩) وما بعدها.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/٤٠- ٤١).

(٣) وسيأتي ـ إن شاء الله ـ تفصيل الرد على هذا الزعم ص (٣٥٢) وما بعدها.

إنكار ما عُلِمَ من الشرائع؛ فإن الله ـ تَعَالَى ـ قد أجرى سنته، وأنفذ حكمته بأن أحكامه لا تُعْلَمُ إلا بواسطة رسله السُّفَرَاءِ بينه وبين خلقه، وهم المُبَلِّغُونَ عنه رسالتهم، وكلامه، المبينون شرائعه وأحكامه، اختارهم لذلك وخَصَّهُمْ بما هنالك؛ كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحَجّ: ٧٥] ، وقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ، وقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢١٣] ، إلى غير ذلك من الآيات، وعلى الجملة، فقد حصل العلم القطعي واليقين الضروري، واجتماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله ـ تَعَالَى ـ التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يعرف شيء منها إلا من جهة الرسل، فمن قال إن هناك طريقًا أخرى يُعرف بها أمره ونهيه غير الرسل؛ حيث يُسْتَغْنَى عن الرسل ـ فهو كافر يُقتل ولا يُسْتَتَابُ، ولا يُحتاج معه إلى سؤال وجواب، ثم هو قولٌ بإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ ؛ الذي قد جَعَلَهُ الله خاتم أنبيائه ورسله، فلا نبي بعده ولا رسول.

وبيان ذلك أن من قال: يأخذ عن قلبه، وأن ما يقع فيه حكم الله ـ تَعَالَى ـ، وأنه يعمل بمقتضاه، وأنه لا يحْتَاجُ مع ذلك إلى كتاب ولا سنة، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة؛ فإن هذا نحو ما قاله ﷺ : «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي»... الحديث[1]، انتهى من تفسير القرطبي.

وما ذكره في كلام شيخه المذكور من أن الزنديق لا يُسْتَتَابُ هو مذهب مالك ومن وافقه، وقد بَيَّنَا أقوال العلماء في ذلك وأدلتهم، وما يُرَجِّحُهُ الدليل في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» في سورة «آل عمران»[2]، وما يَسْتَدِلُّ به بعض الجهلة

---

(١) تقدم تخريجه ص (٢٨٧).

(٢) «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» ص (٦٣ـ ٦٦) ملحق بالمجلد الأخير من «تتمة أضواء البيان».

ممن يدعي التصوف على اعتبار الإلهام من ظواهر بعض النصوص؛ كحديث: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ»[١]، لا دليل فيه البتة على اعتبار الإلهام؛ لأنه لم يقل أحد ممن يُعْتَدُّ به أن المفتي الذي تُتَلقى الأحكام الشرعية من قِبَلِهِ القلبُ، بل معنى الحديث: التحذير من الشُّبَهِ؛ لأن الحرام بَيِّنٌ والحلال بَيِّنٌ، وبينهما أمور مشتبهة، لا يعلمها كل الناس؛ فقد يفتيك المفتي بحِلِّية شيء، وأنت تعلم من طريق أخرى أنه يحتمل أن يكون حرامًا، وذلك باستناد إلى الشرع؛ فإن قلب المؤمن لا يطمئن لما فيه الشبهة، والحديثُ كقوله «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ»، وقوله ﷺ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»، رواه مسلم من حديث النَّوَّاس بن سمعان رضي الله عنه.

وحديث وابصة بن معبد رضي الله عنه الْمُشَارُ إليه، قال: أتيت رسول الله ﷺ، فقال: «جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ؟»، قلت: نعم، قال: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ، وَأَفْتَوْكَ»، قال النووي في «رياض الصالحين»: حديث حسن، رواه أحمد والدرامي في «مسنديهما»، ولا شك أن المراد بهذا الحديث ونحوه الحث على الوَرَعِ، وترك الشُّبَهِ، فلو التبست - مثلًا - ميتة بمُذَكَّاة، أو امرأة محرم بأجنبية، وأفتاك بعض المفتين بحلية إحداهما؛ لاحتمال أن تكون هي الْمُذَكَّاة في الأول، والأجنبية في الثاني، فإنك إذا استفتيت قلبك علمت أنه يحتمل أن تكون هي الميتة أو الأخت، وأن ترك الحرام، والاستبراء للدين والعرض - لا يتحقق إلا بتجنب الجميع؛ لأن ما لا يتم ترك الحرام إلا بتركه فتركه واجب، فهذا يحيك في النفس، ولا تنشرح له؛ لاحتمال الوقوع في الحرام فيه كما ترى، وكل ذلك مُسْتَنِدٌ لنصوص الشرع لا للإلهام.

ومِمَّا يدل على ما ذكرنا من كلام أهل الصوفية المشهود لهم بالخير والدين والصلاح قول الشيخ أبي القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزَّاز القواريرى - رحمه الله -:

(١) انظر شرحه وافيًا في «الاعتصام» للشاطبي (٢/١٥٣- ١٦٣).

«مذهبنا هذا مُقَيَّدٌ بالكتاب والسنة»[(١)]، نقله عنه غير واحد ممن ترجمه ـ رحمه الله ـ، كابن كثير، وابن خلكان وغيرهما، ولا شك أن كلامه المذكور هو الحق؛ فلا أمر ولا نهي إلا على ألسنة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وبهذا كُلِّهِ تعلم أن قتل الخَضِرِ للغلام، وخرقه للسفينة، وقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢] دليل ظاهر على نُبُوَّتِهِ، وعزا الفخر الرازي في تفسيره القول بنبوته للأكثرين.

ومما يُسْتَأْنَسُ به للقول بنبوته تواضع موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ له في قوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، وقوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩]، مع قول الخَضِرِ له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف: ٦٨][(٢)]. اهـ.

- **وقال العلامة محمد ناصر الدين الألباني ـ رحمه الله ـ تعليقًا على أثر: «يَا سَارِيَةَ الْجَبَلَ»:**

«ومما لا شك فيه أن النداء المذكور إنما كان إلهامًا من الله ـ تَعَالَى ـ لعمر، وليس ذلك بغريب عنه؛ فإنه «محدَّث»؛ كما ثبت عن النبي ﷺ، ولكن ليس فيه أن عمر كُشِفَ له حالُ الجيش، وأنه رآهم رأي العين؛ فاستدلال بعض المتصوفة بذلك على ما يزعمونه من الكشف للأولياء، وعلى إمكان اطلاعهم على ما في القلوب من أبطل الباطل، كيف لا، وذلك من صفات رب العالمين، المنفرد بعلم الغيب، والاطلاع على

---

(١) ومثله ما حكاه شيخُ الإسلام ابن تيمية عن أبي الحسن الشاذلي قال: «قد ضُمنت لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسنة، ولم تضمن لنا العصمة في الكشوف والإلهام» «مجموع الفتاوى» (٢/٢٢٦).
وقال أبو سليمان الداراني: «إنه لتقع في قلبي النكتة من نكت القوم، فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين: «الكتاب والسنة» «تلبيس إبليس» ص (١٦٢).
وقال أبو عثمان النيسابوري: «من أمَّرَ على نفسه الشريعة قولًا وفعلًا نطق بالحكمة، ومن أمَّرَ على نفسه الهوى قولًا وفعلًا نطق بالبدعة، لأن الله ـ تَعَالَى ـ يقول: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النُّور: الآية ٥٤]،
وقال أبو عمرو بن نجيد: «كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة؛ فهو باطل» «قطر الولي» ص (٢٥٢).

(٢) «أضواء البيان» (٤/١٥٨- ١٦٢).

ما في الصدور، وليت شعري، كيف يزعم هؤلاء ذلك الزعم الباطل، والله ـ عز وجل ـ يقول في كتابه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، فهل يعتقدون أن أولئك الأولياء رسل من رسل الله حتى يصح أن يُقَالَ إنهم يطلعون على الغيب بإطلاع الله إياهم!! سبحانك هذا بهتانٌ عظيم!!

على أنه لو صَحَّ تسمية ما وَقَعَ لعمر رضي الله عنه كَشْفًا، فهو من الأمور الخارقة للعادة، التي **قد تقع من الكافر ـ أيضًا ـ**، فليس مجرد صدور مثله بالذي يدل على إيمان الذي صدر منه فضلًا عن أنه يدل على وَلايته؛ ولذلك يقول العلماء: «إن الخارق للعادة إن صدر من مسلم فهو كرامة، وإلا فهو استدراج»، ويضربون على هذا مثلًا الخوارق التي تقع على يد الدجَّال الأكبر في آخر الزمان؛ كقوله للسماء: أمطري، فتمطر، وللأرض: أنبتي نباتك فتنبت، وغير ذلك مما جاءت به الأحاديث الصحيحة.

ومن الأمثلة الحديثة على ذلك ما قرأته اليوم من عدد (أغسطس) من السنة السادسة من مجلة «المختار» تحت عنوان: «هذا العالم المملوء بالألغاز وراء الحواس الخمس»، ص: ٢٣، قصة (فتاة شابة ذهبت إلى جنوب أفريقيا للزواج من خطيبها، وبعد معاركَ مريرةٍ معه، فسخت خِطبتها بعد ثلاثة أسابيع، وأخذت الفتاة تذرع غرفتها في اضطراب، وهي تصيح في أعماقها بلا انقطاع: «أواه! يا أماه.. ماذا أفعل؟»، ولكنها قررت ألا تزعج أمها بذكر ما حَدَثَ لها، وبعد أربعة أسابيع تلقت منها رسالةً جاء فيها: ماذا حدث؟ لقد كنت أهبط السلم عندما سمعتك تصيحين قائلة: «أوَّاهُ يا أمَّاه.. ماذا أفعل؟»، وكان تاريخ الرسالة متفقًا مع تاريخ اليوم الذي كانت تصيح فيه من أعماقها).

وفي المقال المشار إليه أمثلة أخرى مما يدخل تحت ما يسمونه اليوم بـ «التخاطر»[1]،

(١) وهذا ما يعرف في «علم النفس غير الحِسِّيِّ» أو «البارا سيكولوجيا» Parapsychology بالتخاطر أو التليباثي Telepathy، وهو اتصال العقول عن طريق انتقال الخواطر Thought - transference، أو قراءة الأفكار mind - reading، بأن يحدث الاتصال والاتفاق بين الأفكار في نفس اللحظة مع توصيل التأثيرات من غير استعانة بمسالك الحس المألوفة، انظر: «موسوعة علم النفس والتحليل النفسي» ص (١٨٢)، «موسوعة الطب النفسي» (١/٣٣٢- ٣٣٣).

و«الاستشفاف»، ويعرف باسم «البصيرة الثانية»، اكتفينا بالذي أوردناه؛ لأنها أقرب الأمثال مشابهة لقصة عمر رضي الله عنه التي طالما سَمعتُ من يُنكرها من المسلمين؛ لظنه أنها ممَّا لا يُعْقَلُ، أو أنها تتضمن نسبة العلم بالغيب إلى عمر، بينما نجد غير هؤلاء ممن أشرنا إليهم من المتصوفة يستغلونها لإثبات إمكان اطلاع الأولياء على الغيب، والكل مخطئ؛ فالقصة صحيحة ثابتة، وهي كرامة أكرم الله بها عمر، حيث أنقذ به جيش المسلمين من الأسر أو الفتك به، ولكن ليس فيها ما زعمه المتصوفة من الاطلاع على الغيب، وإنما هو من باب الإلهام (في عرف الشرع)، أو (التخاطر) في عرف العصر الحاضر، الذي ليس معصومًا؛ فقد يصيب كما في هذه الحادثة، وقد يخطئ كما هو الغالب على البشر؛ ولذلك كان لا بد لكل ولي من التقيد بالشرع في كل ما يصدر منه من قول أو فعل خشية الوقوع في المخالفة، فيخرج بذلك عن الولاية التي وصفها الله ـ تَعَالَى ـ بوصف جامع شامل فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾، ولقد أحسن من قال:

إِذَا رَأَيْتَ الشَّخْصَ قَدْ يَطِيرُ   وَفَوْقَ مَاءِ الْبَحْرِ قَدْ يَسِيرُ
وَلَمْ يَقِفْ عَلَى حُدُودِ الشَّرْعِ   فَإِنَّهُ مُسْتَدْرَجٌ وَبِدْعِي[١].

التَّحْدِيثُ وَالمُحَدَّثُونَ

الأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي المُحَدَّثِينَ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ فِيمَا مَضَى قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ مُحَدَّثُونَ، وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي هَذِهِ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ»[٢].

وعنه رضي الله عنه مرفوعًا: «لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يُكَلَّمون[٣]

---

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٣/١٠٢ ـ ١٠٤)، حديث (١١١٠).

(٢) رواه البخاري (٣٦٨٩) (٧/٤٢ ـ فتح).

(٣) قيل: تكلمه الملائكة في نفسه، وإن لم ير مكلِّمًا في الحقيقة، فيرجع إلى الإلهام، انظر: «فتح الباري» (٧/٥٠).

من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن من أمتي منهم أحد فعمر»[١].

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «قد كان يكون في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم»[٢].

معنى المحدَّث: يُقَالُ للرجل الصادق الظن: مُحَدَّث، بتشديد الدال المفتوحة[٣].

وقال ابن وهب: (تفسير «مُحَدَّثُونَ»: مُلْهَمُونَ)[٤]، والملهم: «هو الذي يُلقى في نفسه الشيء، فَيُخْبِرُ به حَدْسًا وفِراسة[٥]»، وقال سفيان بن عيينة: مُحَدَّثُونَ: مُفَهَّمون[٦].

وقال ابن القيم: هو الذي يُحَدَّثُ في سِرِّه وقلبه بالشيء، فيكون كما يُحَدَّث به[٧].

وقيل: «هو الرجل الصادق الظن، وهو من أُلقي في روعه شيء من قبل الملإ الأعلى، فيكون كالذي حدَّثه غيره به، وبهذا جَزَمَ أبو أحمد العسكري، وقيل: من يجري الصواب على لسانه من غير قصد»[٨].

ونقل النووي عن البخاري ـ رحمه الله ـ أن المحدثين «هم الذين يجري الصواب على ألسنتهم»[٩].

---

(١) «السابق».
(٢) رواه مسلم (١٨٦٤/٤) (٢٣).
(٣) «لسان العرب» (١٣٤/٢).
(٤) «صحيح مسلم» (١٨٦٤/٤).
(٥) «لسان العرب» (١٣٤/٢).
(٦) «سنن الترمذي» (٦٢٢/٥) (٣٦٩٣).
(٧) «مدارج السالكين» (٣٩/١).
(٨) «فتح الباري» (٥٠/٧).
(٩) «شرح النووي لصحيح مسلم» (١٦٦/١٥).

التَّحْدِيثُ إِلْهَامٌ خَاصٌّ

• قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ:

(المَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ[١]: مرتبة التحديث، وهذه دون مرتبة الوحي الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين؛ كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ كما قال النبي ﷺ: «إِنَّهُ كَانَ فِي الأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ فَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ».

التَّحْدِيثُ أَخَصُّ مِنَ الإِلْهَامِ: فإن الإلهام عامٌّ للمؤمنين بحسب إيمانهم؛ فكل مؤمن فقد ألهمه الله رشده الذي حصل له به الإيمان؛ فأما التحديث: فالنبي ﷺ قال فيه: «إِنْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ أحد فَعُمَرُ»؛ يعني من المُحَدَّثِينَ، فالتحديث إلهام خاص، وهو الوحي إلى غير الأنبياء: إما من المكلفين؛ كقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القَصَص: ٧]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ [المَائدة: ١١١]، وإما من غير المكلفين؛ كقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل: ٦٨]، فهذا كله وحي إلهام)[٢].

الصِّدِّيقُ أَكْمَلُ مِنَ المُحَدَّثِ

قال الإمام المحقق ـ رحمه الله ـ: «والمحدَّث هو الذي يحدَّثُ في سره وقلبه بالشيء فيكون كما يُحَدَّثُ به».

قال شيخنا: «والصِّدِّيقُ أكمل من المحدَّث؛ لأنه استغنى بكمال صِدِّيقِيَّتِهِ ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف؛ فإنه قد سَلَّمَ قلبه كله، وسره، وظاهره، وباطنه

(١) أي من مراتب الهداية للإنسان.

(٢) «مدارج السالكين» (١/٤٤ـ ٤٥).

للرسول، فاستغنى به عما منه»[١].

قال: وكان هذا المحدَّث يَعْرِضُ ما يُحَدَّثُ به على ما جاء به الرسول، فإن وافقه قَبِلَهُ، وإلا رَدَّهُ، فَعُلِمَ أَنَّ مَرْتَبَةَ الصِّدِّيقِيَّةِ فوق مرتبة التحديث)[٢] اهـ.

وقال أيضًا ـ رحمه الله ـ تعالى ـ:

«ولا تظن أن تخصيص عمر رضي الله عنه بهذا تفضيل له على أبي بكر الصديق، بل هذا من أقوى مناقب الصديق، فإنه ـ لكمال مشربه من حوض النبوة، وتمام رضاعه من ثدي الرسالة ـ استغنى بذلك عما تلقَّاه من تحديث أو غيره، فالذي يتلقاه من مشكاة النبوة أتم من الذي يتلقاه عمر من التحديث، فتأمل هذا الموضع، وأعطه حقه من المعرفة، وتأمل ما فيه من الحكمة البالغة الشاهدة لله بأنه الحكيم الخبير»[٣].

* * *

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) «السابق» (١/٣٩ـ ٤٠)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٢/٢٢٦ـ ٢٢٧)، و«دقائق التفسير الجامع لتفسير شيخ الإسلام ابن تيمية» تحقيق د. محمد السيد الجليند (٤/٣٠٦ـ٣٠٧).

(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/٢٥٥) ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

الْفَرْقُ بَيْنَ الْفِرَاسَةِ وَالْإِلْهَامِ

أن الفراسة قد تتعلق بنوعِ كسبٍ وتحصيلٍ، وأما الإلهامُ فموهبة مُجَرَّدَةٌ، لا تُنَالُ بكسبٍ البتة(١).

هَلْ فِي الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّة مُحَدَّثُونَ؟

قال الإمام المحقِّق ابن قَيِّم الجوزية ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ: «وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: جزم بأنهم كائنون في الأمم قبلنا، وعَلَّق وجودهم في هذه الأمة بـ«إن» الشرطية، مع أنها أفضل الأمم؛ لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها، ورسالته، فلم يُحْوِج الله الأمة بعده إلى مُحدَّث، ولا مُلْهَم، ولا صاحب كشف، ولا منام، فهذا التعليق لكمال الأمة، واستغنائها لا لنقصها»(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ:

«وأمَّا مُحَمَّد ﷺ فَبُعِثَ بكتاب مستقلٍّ، وشرع مُسْتَقِلٍّ كامل تَامٍّ لم يُحْتَجْ معه إلى شرع سابق تتعلمه أمته من غيره، ولا إلى شرع لاحق يكمل شرعه؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَعُمَرُ».

فجزم أن من كان قبله كان فيهم مُحَدَّثُونَ، وعَلَّقَ الأمرَ في أمته، وإن كان هذا الْمُعَلَّق قد تحقق؛ لأن أمته لا تحتاج بعده إلى نبي آخر، فَلَأَنْ لا تحتاج معه إلى مُحدَّث ملهم أولى وأحرى.

وأما من كان قبله فكانوا يحتاجون إلى نبي بعد نبي، فأمكن حاجتهم إلى الْمُحَدَّثِينَ

---

(١) «السابق» (١/٤٥)، وانظر: «فراسة المؤمن» للشيخ إبراهيم الحازمي.

(٢) «مدارج السالكين» (١/٣٩).

الملهمين؛ ولهذا إذا نزل المسيح ابن مريم في أُمَّتِه لم يحكم فيهم إلا بشرع محمد ﷺ»[١]. اهـ.

وقال - أيضًا - رحمه الله -: «الْمُحَدَّثُ كان فيمن قبلنا، وكانوا يحتاجون إليه... وأمة محمد ﷺ لا تحتاج إلى غير محمد ﷺ»[٢]. اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: «وقوله «إِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي» قيل: لم يورد هذا القول مورد الترديد؛ فإن أمته أفضل الأمم، وإذا ثبت أن ذلك وُجِدَ في غيرهم، فإمكان وجوده فيهم أولى[٣]، وإنما أورده مورد التأكيد؛ كما يقول الرجل: «إن يكن لي صديق فإنه فلان»، يريد اختصاصه بكمال الصداقة لا نفي الأصدقاء، ونحوه قول الأجير: «إن كنت عملت لك فوفني حقي»، وكلاهما عالم بالعمل، لكن مراد القائل أن تأخيرك حقي عملُ مَنْ عِنْدَهُ شكٌّ في كوني عملتُ.

وقيل: الحكمة فيه أن وجودهم في بني إسرائيل كان قد تحقق وقوعه، وسبب ذلك احتياجهم؛ حيث لا يكون حينئذ فيهم نبي، واحتمل عنده ﷺ أن لا تحتاج هذه الأمة إلى ذلك؛ لاستغنائها بالقرآن عن حدوث نبي، وقد وقع الأمر، كذلك؛ حتى إن المحدث منهم إذا تحقق وجوده؛ لا يحكم بما وقع له، بل لا بد من عرضه على القرآن؛ فإن وافقه أو وافق السنة، عمل به، وإلا تركه، وهذا - وإن جاز أن يقع - لكنه نادر ممن يكون أمره منهم مبنيًّا على اتباع الكتاب والسنة»[٤]. اهـ.

---

(١) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٢/٣٨٢-٣٨٣).

(٢) «الفتاوى الكبرى» (٥/١٠٧) بتصرف.

(٣) بل مقتضى أفضلية هذه الأمة المحمدية استغناؤها عن المحدثين، لكمال دينها، وإن فرض وجودهم فإن الشرع مستغن عنهم، وحاكم عليهم لا العكس، كما تقدم من كلام شيخ الإسلام، وكما يأتي من كلام ابن حجر رحمه الله تعالى.

(٤) «فتح الباري» (٧/٥٠ - ٥١).

الْفَرْقُ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْمُحَدَّثِ(١)

النَّبِيُّ: يُوحى إليه بوحي يَعلم أنه وحي من اللَّه ـ عز وجل ـ سواء كُلِّف بتبليغه إلى الناس أم لا.

والنَّبي لا يحتاج إلى التأكد من صحة ما أوحي إليه به بعرضه على وحي سابق؛ لأنه يعلم يقينًا أنه وحي من اللَّه ـ سبحانه ـ، ووحي اللَّه ـ عز وجل ـ يكمل بعضه بعضًا، ثم إن النبي معصوم من الوهم فيما يخبر به عن اللَّه ـ سبحانه ـ؛ كما قال ـ جل ذكره ـ: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾[الجن: ٢٦ ـ ٢٨]، فهو هنا يحرسهم حتى يبلغوا عنه.

والنبي إن أخطأ في رأي أو اجتهاد، فإن اللَّه ـ سبحانه ـ لا يتركه على ذلك، بل يصحح له عن طريق الوحي؛ كما وقع في قصة أسرى بدر؛ حيث أنزل اللَّه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] ، وكإذنه للمتخلفين عن تبوك، يقول اللَّه ـ تَعَالَى ـ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، وغير ذلك كثير.

أَمَّا الْمُحَدَّثُ: فإنه يُحدَّث في سره بالشيء، ولا يعلم أنه من اللَّه ـ تَعَالَى ـ، وقد كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «لا يقولن أحد: قضيت بما أراني اللَّه ـ تَعَالَى ـ؛ فإن اللَّه ـ تَعَالَى ـ لم يجعل ذلك إلا لنبيه، وأما الواحد منا فرأيه يكون ظنًّا، ولا يكون علمًا»(٢). أي أنه لا يصل ذلك التحديث إلى درجة اليقين لعدم تيقنه بكونه من اللَّه ـ سبحانه ـ، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا قضى في شيء لا يعتبره قضية مسلَّمة، وأنه من اللَّه، بل يعزوها إلى نفسه غير مؤكد صحتها؛ ففي قضية الكلالة، قال: «أقول فيها برأيي؛ فإن يكن صوابًا؛ فمن اللَّه، وإن

---

(١) بتصرف من «عقيدة ختم النبوة» للشيخ أحمد بن سعد الغامدي ص(١٢٣ ـ ١٢٦).

(٢) «تفسير مفاتيح الغيب» (١/٣٣).

يكن خطأ؛ فمني ومن الشيطان»[١].

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أفضل المحدَّثين ـ إن وجدوا ـ وقد شهد له رسول اللَّه ﷺ بقوله: «إِنِّي لأَنْظُرُ إِلَى شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ قَدْ فَرُّوا مِنْ عُمَرَ»[٢]، وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ»[٣]، وقال ﷺ: «لَوْ كَانَ نَبِيٌّ بَعْدِي لَكَانَ عُمَرَ»[٤]، وكان علي رضي الله عنه يقول: «ما كنا نُبْعِدُ أن السكينة تنطق على لسان عمر»[٥].

وكان عمر يقول: «اقتربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون؛ فإنه تتجلى لهم أمور صادقة»[٦].

ومع ذلك لم يعتبر آراءه حقًّا صوابًا، بل كان يتهم نفسه؛ كما سبق؛ ولذلك كان يعرض آراءه على الكتاب والسنَّة.

وَالْمُحَدَّثُ يَجِبُ أَنْ يَعْرِضَ آرَاءَهُ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ:

لما كان المحدَّث لا يعلم أن ما في قلبه من اللَّه؛ فإنه يلزمه ـ ليعلم صحة ذلك ـ أن يَعْرِضَهُ على ميزان صحيح واضح، وليس ذلك إلا كتاب اللَّه، وسنَّة رسوله ﷺ وقد كانت هذه حالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع نفسه وغيره.

فليس في المحدَّثين أفضل من عمر، وقد وافق ربَّه في عدة أشياء، ومع هذا، فكان عليه أن يعتصم بما جاء به الرسول، ولا يقبل ما يرد عليه حتى يعرضه على الرسول، ولا يتقدم بين يدي اللَّه ورسوله.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٤٠).

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (٣/٢٠٧) (٢٩١٤).

(٣) «السابق» (٣/٢٠٤) (٢٩٠٨).

(٤) «السابق» (٣/٢٠٤) (٢٩٠٩).

(٥) «سير أعلام النبلاء» سير الخلفاء الراشدين ص(٧٦).

(٦) ذكره في «الفرقان بين أولياء الرحمن، وأولياء الشيطان» ص(٥٢).

وكان إذا تبين له من ذلك أشياء خلاف ما وقع له فيرجع إلى السنَّة.

وكان أبو بكر يبين له أشياء خفيت عليه، فيرجع إلى بيانه، وإرشاده؛ كما جرى يوم الحديبية، ويوم مات رسول اللَّه ﷺ، ويوم ناظره في مانعي الزكاة، وغير ذلك، وكانت امرأة تَرُدُّ عليه، وتذكر الحجة من القرآن، فيرجع إليها؛ كما جرى في مهور النساء، ومثل ذلك كثير(١).

ومن الأمور التي بينها له أبو بكر رضي الله عنه، وردَّه فيها إلى الصواب أمر موت النبي ﷺ؛ حيث قام عمر يقول: واللَّه، ما مات رسول اللَّه ﷺ، وكان يقول بعدها: واللَّه ما كان يقع في نفسي إلا ذاك، وليبعثنه اللَّه، فيقطعن أيدي رجال، وأرجلهم، فجاء أبو بكر فكشف عن رسول اللَّه ﷺ فقبله، وقال: بأبي أنت وأمي، طبت حيًّا وميِّتًا، والذي نفسي بيده لا يذيقك اللَّه الموتتين أبدًا، ثم خرج، فقال: أيها الحالف، على رِسْلِكَ، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر: فحمد اللَّه أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد اللَّه، فإن اللَّه حي لا يموت، وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزُّمَر: ٣٠]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٤٤﴾ [آل عِمرَان: ١٤٤](٢).

وكذلك في قصة الحديبية عندما صالح النبي ﷺ قريشًا «وثبت عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر، أليس رسول اللَّه؟ قال: بلى. قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر، الزم غَرْزَه؛ فإني أشهد أنه رسول اللَّه. قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول اللَّه»(٣).

---

(١) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» ص(٥٣ - ٥٤).

(٢) رواه البخاري (١٩/٧ - فتح).

(٣) رواه بنحوه البخاري (٢٨١/٨).

وقد قال عمر في ذلك: «ما زلت أتصدق، وأصوم، وأصلي، وأعتق؛ من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيرًا»[1]؛ لأنه قد قال للرسول ﷺ مثل ما قال لأبي بكر.

وكذلك في قصة عيينة بن حصن عندما دخل عليه، فقال له: «هي يا بن الخطاب، فواللَّه، ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل»؛ فغضب عمر حتى همَّ به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن اللَّه ـ تعالى ـ قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإن هذا من الجاهلين. قال ابن عباس الراوي: «واللَّه، ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب اللَّه»[2].

وقال ابن حجر ـ رحمه اللَّه ـ: «إن المحدَّث منهم إذا تحقق وجوده لا يحْكمُ بما وقع له، بل لابد له من عرضه على القرآن، فإن وافقه أو وافق السنَّة، وإلا تركه»[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ:

(وكذلك في قتال مانعي الزكاة، قال عمر لأبي بكر: كيف نقاتل الناس، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا»، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: ألم يقل: «إِلَّا بِحَقِّهَا»، فإن الزكاة من حقها، واللَّه، لو منعوني عَناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول اللَّه ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فواللَّه، ما هو إلا أن رأيت قد شُرِحَ صدر أبي بكر للقتال، فعلمت أنه الحق.

ولهذا نظائر تبين تقدم أبي بكر على عمر، مع أن عمر رضي الله عنه مُحَدَّثٌ، فإن مرتبة الصديق فوق مرتبة المحدَّث؛ لأن الصديق يتلقى عن الرسول المعصوم كل ما يقوله

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/٣١٧).
(٢) رواه البخاري (٨/٣٠٤ ـ ٣٠٥) فتح.
(٣) «فتح الباري» (٧/٥١).

ويفعله، والمحدَّث يأخذ عن قلبه أشياءَ، وقلبه ليس بمعصوم، فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي المعصوم.

ولهذا كان عمر رضي الله عنه يشاور الصحابة - رَضِيَ اللَّه عَنْهُمْ - ويناظرهم ويرجع إليهم في بعض الأمور، وينازعونه في أشياء، فيحتج عليهم، ويحتجون عليه بالكتاب والسنَّة، ويقرهم على منازعته، ولا يقول لهم: «أنا محدَّث ملهم مخاطب؛ فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضوني»، فأي أحد ادعى، أو ادعى له أصحابه أنه ولي للَّه، وأنه مخاطَب يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله، ولا يعارضوه، ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة؛ فهو وهم مخطئون، ومثل هذا أضل الناس، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه أفضل منه، وهو أمير المؤمنين، وكان المسلمون ينازعونه، ويعرضون ما يقوله - وهو وَهُمْ - على الكتاب والسنَّة، وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يُؤْخَذُ من قوله ويُتْرَكُ، إلا رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم .

وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم؛ فإن الأنبياء - صلوات اللَّه عليهم وسلامه - يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن اللَّه - عز وجل - وتجب طاعتهم فيما يأمرون به، بخلاف الأولياء؛ فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به، ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به، بل يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنَّة، فما وافق الكتاب والسنَّة وجب قبوله، وما خالف الكتاب والسنَّة كان مردودًا، وإن كان صاحبه من أولياء اللَّه، وكان مجتهدًا معذورًا فيما قاله، له أجر على اجتهاده، ولكنه إذا خالف الكتاب والسنَّة كان مخطئًا، وكان من الخطإ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى اللَّه ما استطاع، فإن اللَّه - تَعَالَى - يقول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التَّغَابُن: ١٦]، وهذا تفسير قوله - تَعَالَى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٢] .

قال ابن مسعود وغيره: «حق تقاته: أن يطاع فلا يُعْصَى، وأن يُذْكَر فلا يُنْسَى، وأن يُشْكَرَ فلا يُكفر»؛ أي بحسب استطاعتكم؛ فإن اللَّه - تَعَالَى - لا يكلف نفسًا إلا

وسعها؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف: ٤٢] ، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢] .

وقد ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الإيمان بما جاءت به الأنبياءُ في غير موضع؛ كقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾، وقال ـ تعالى ـ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذا الذي ذكرته من أن أولياء اللَّه يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنَّة، وأنه ليس فيهم معصوم يسوغ له، أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنَّة هو مما اتفق عليه أولياء اللَّه ـ عز وجل ـ، ومن خالف في هذا فليس من أولياء اللَّه ـ سبحانه ـ الذين أمر اللَّه باتباعهم، بل إما أن يكون كافرًا، وإما أن يكون مفرطًا في

الجهل). اهـ[(١)].

وقال ـ أيضًا ـ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ: «ولو كان أحد يأتيه من اللَّه ما لا يحتاج إلى عرضه على الكتاب والسنَّة؛ لكان مستغنيًا عن الرسول في بعض دينه، وهذا من المارقين الذين يظنون أن من الناس من يكون مع الرسول كالخضر مع موسى، ومن قال هذا فهو كافر»[(٢)].

شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ يَدْحَضُ مَقُولَةَ: «حَدَّثَنِي قَلْبِي عَنْ رَبِّي»

قال:وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات: «حَدَّثَنِي قَلْبِي عَنْ رَبِّي»، فصحيح أن قلبه حدَّثه، ولكن عَمَّن؟ عن شيطانه، أو عن ربه؟ فإذا قال: «حَدَّثَنِي قَلْبِي عَنْ رَبِّي»، كان مُسْنِدًا الحديثَ إلى من لم يعلم أنه حدثه به، وذلك كذب، قال: ومحدَّث الأمة لم يكن يقول ذلك، ولا تفوَّه به يومًا من الدهر، وقد أعاذه اللَّه من أن يقول ذلك، بل كتب كاتبه يومًا: «هذا ما أرى اللَّه أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب»، فقال: «لا، امْحُهْ، واكتب: هذا ما رأى عمر بن الخطاب، فإن كان صوابًا فمن اللَّه، وإن كان خطأ فمن عمر، واللَّه ورسوله منه بريء»، وقال في الكلالة: «أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابًا فمن اللَّه، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان»، فهذا قول المحدَّث بشهادة الرسول ﷺ وأنت ترى الاتحادي، والحلولي، والإباحي الشَّطَّاح، والسماعي، مجاهر بالقِحَة والفرية، يقول: «حَدَّثَنِي قَلْبِي عَنْ رَبِّي».

فانظر إلى ما بين القائلين والمرتبتين والقولين والحالين، وأعط كل ذي حق حقه، ولا تجعل الزَّغَلَ والخالص شيئًا واحدًا». اهـ[(٣)].

* * * * *

(١) «الفرقان» ص(٥٤ ـ ٥٦).

(٢) «مجموعة الرسائل والمسائل» (١/ ٤٣).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٤٠)، والزَّغَل: الغِشُّ.

فَصْــلٌ

• **قال الحافظ الذهبي - رحمه اللَّهُ تَعَالَى -:**

«... وقد رأيت غير واحد من هذا النمط الذين زال عقلهم أو نقص، يتقلبون في النجاسات، ولا يصلون، ولا يصومون، وبالفحش ينطقون، ولهم كشف كما - واللَّه - للرهبان كشف، وكما للساحر كشف، وكما لمن يُصرع كشف، وكما لمن يأكل الحية، ويدخل النار حالٌ مع ارتكابه للفواحش، فواللَّه، ما ارتبطوا على مسيلمة والأسود إلا لإتيانهم بالمغيبات[1]». اهـ.

وقال الإمام المحقق ابن القيم - رحمه اللَّه - تَعَالَى -: «الفراسة الثانية: فراسة الرياضة والجوع، والسهر والتخلي، فإن النفس إذا تجردت عن العوائق، صار لها من الفراسة، والكشف بحسب تجردها، وهذه فراسة مشتركة بين المؤمن والكافر، ولا تدل على إيمان، ولا على وَلاية، وكثير من الجهال يغتر بها، وللرهبان فيها وقائع معلومة، وهي فراسة لا تكشف عن حق نافع، ولا عن طريق مستقيم، بل كشفها جزئي من جنس فراسة الولاة، وأصحاب عبارة الرؤيا، والأطباء، ونحوهم.

وللأطباء فراسة معروفة من حذقهم في صناعتهم، ومن أحب الوقوف عليها فليطالع تاريخهم وأخبارهم»[2]. اهـ.

وقال العلامة عبد الرحمن المعلمي اليماني - رحمه اللَّه - تَعَالَى -: «... ثم جاء القرن الثاني، فتوغل أفرادٌ في العبادة والعزلة وكثرة الصوم والسهر وقلة الأكل، لعزَّة الحلال في نظرهم، فجاوزوا ما كان عليه الحال في عهد النبي ﷺ فوقعوا في طرفٍ من الرياضة، فظهرت على بعضهم بعض آثارها الطبيعية؛ كالإخبار بأن فلانًا الغائب قد

---

(١) «نزهة الفضلاء» (٣٦٧١/٤)، وانظره: (١٦٨٣/٤، ١٧٣٣)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٤٣٥/١٠) وما بعدها.

(٢) «مدارج السالكين» (٤٨٦/٢ - ٤٨٧)، وانظر: «قطر الولي» ص(١٧١-١٧٩)، فإنه مهم.

مات، أو سيقدم وقت كذا، وأن فلانًا يضمر في نفسه كذا، وما أشبه ذلك من الجزئيات القريبة(١)، فكان الناس يظنون أن جميع ذلك من الكرامات، والواقع أن

(١) علَّق العلامة الألباني رحمه الله على هذا الموضع قائلًا: قلت: الإخبار عما في نفس الغير ليس من الجزئيات القريبة، بل هو من خصوصيات الله تبارك وتعالى، ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي...﴾ [المائدة: ١١٦] فيستحيل أن يصل إلى هذه المرتبة من يتعاطى الرياضة من مؤمن أو كافر، ونحوه الإخبار بموت الغائب، أو بقدومه، نعم هذان الأمران الأخيران ونحوهما قد يكون من وحي الشيطان الجني الذي يسترق السمع إلى الشيطان الإنسي، أو يمكنه بحكم جبلته أن يطلع على موت فلان، قبل أن يطلع عليه البعيد عنه من بني الإنسان، فيخبر به من يريد أن يضله من الإنس كهؤلاء المرتاضين الذين يتحدث عنهم المصنف - رحمه الله تعالى. ومثله قدوم الغائب، ومكان الضالة ونحو ذلك، فهذه أمور ميسورة للجن، فَيُطْلِعون بعض الإنس بها لإضلالهم ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝﴾ [الجن: ٦]، وأما الاطلاع على ما في الصدور والإخبار به فليس في طوق أحد منهم إلا بإخبار الله عز وجل من شاء من عباده الذين ارتضاهم لرسالته كما قال ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ......﴾.

نعم ليس من هذا القبيل ما يلهمه الرجل الصالح، ثم يقع كما ألهم، لأنه لو سئل عنه قبل ذاك لم يستطع الجزم به، فلأنه لا يدري أمن إلهام الرحمن هو، أم من وحي الشيطان؟ بخلاف التي قالت: ﴿مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾. وليس منه أيضًا ما يتنبأ به الإنسان بفراسته وملاحظته الدقيقة التي لا يتنبه لها غيره، وقد وقع لي شخصيًّا من هذا النوع حوادث كثيرة لولا أنني كنت أبادر إلى الكشف عن أسبابها الطبيعية لظنها الناس كشفًا صوفيًّا! فمن ذلك أنني كنت يومًا في حلقة الدرس أنتظر أن يكتمل الجمع، إذ قلت لمن عن يميني - وهو حي يرزق - بعد قليل يدخل فلان - لشاب سميته: فلم يمضِ سوى لحظات حتى دخل! فنظر إلى جليسي دهشًا كأنه يقول: أكشف؟ فقلت: لا بل هي الفراسة. ثم شرحت له سر المسألة، وذلك أن الشاب المشار إليه أعرف أن له دراجة عادية يأتي عليها إلى الدرس. وأعرف أيضًا أن الراكب لها إذا أراد النزول عنها أوقف تحريك رجليه إذا اقترب من المكان الذي يريد النزول عنده، وأنه عند ذاك يسمع منها صوتُ بعض مسنناتها، وكانت دراجة الشاب من النوع المعروف بـ(السباقية)، والصوت الذي يسمع منها عند النزول أنعم من الأخريات، وكان هو الوحيد الذي يركبها من بين الذين يحضرون الدرس عادة، فلما أراد النزول، وأوقف رجليه طرق سمعي ذلك الصوت، فعرفت أنه هو، وأخبرت جليسي به، فكان كذلك!

وقد اتفق لي مرارًا - ويتفق مثله لغيري - أنني وأنا في صدد تقرير مسألة يقوم بعض الحاضرين يريد أن يسأل، فأشير إليه بأن تمهل، فإذا فرغت منها قلت له: الآن فسل. فيقول: ما أردت السؤال عنه قد حصل! فأقول: أهذا هو الكشف؟! فمثل هذه الإجابة قد تقع تارة عفوًا، وتارة بقصد من المدرس الذي بحكم مركزه قد ينتبه لما لا ينتبه له الحاضرون فيعرف من علامات خاصة تبدو له من الذي يريد السؤال ما هو سؤاله فيجيبه قبل أن يسأل! فيظن كثير من الناس أنه كشف أو إخبار عما يضمر في نفسه، وإنما هو الظن والفراسة، ويستغل ذلك بعض الدجالين فيلقون في نفوس مريديهم أنهم يطلعون على الضمائر، وأنهم يعلمون الغيب، فيتقبلون ذلك منهم ببساطة وسلامة قلب، حتى أن الكثير منهم لا=

كثيرًا منه كان من آثار الرياضة، وهي آثار طبيعية غريبة تحصل لكل من كان في طبعه استعداد وتعاني الرياضة بشروطها؛ سواء أكان مسلمًا ـ صالحًا أو فاجرًا ـ أم كافرًا، فأما الكرامات الحقيقية فلا دخل فيها لقوى النفوس، فلما وقعوا في ذلك وجد الشيطان مسلكًا للسلطان على بعض أولئك الأفراد بمقدار مخالفتهم للسنَّة؛ فمنهم من كان عنده من العلم ما دافع به عن دينه؛ كما نقل عن أبي سليمان الداراني أنه قال: «ربما تقع في قلبي النكتة من نكت القوم أيامًا، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين ـ الكتاب والسنَّة» ذكرها ونحوها من كلامهم أبو إسحاق الشاطبي في «الاعتصام، ١٠٦ ـ ١٢١».

ومنهم من سلم له أصل الإيمان، لكن وقع في البدع العملية، ومنهم من كان سلطان الشيطان عليه أشد؛ فأوقعه في أشد من ذلك، كما ترى الإشارة إلى بعضه في ترجمة رياح بن عمرو القيسي من «لسان الميزان». ثم صار كثير من الناس يتحرون العزلة والجوع والسهر لتحصيل تلك الآثار، فقوي سلطان الشيطان عليهم، ثم نُقِلت مقالات الأمم الأخرى، ومنها الرياضة وشرح ما تثمره من قوة الإدراك والتأثير، فضمها هواتُها إلى ما سبق، ملصقين لها بالعبادات الشرعية، وكَثُرَ تعاطيها من الخائضين في الكلام والفلسفة، فمنهم من تعاطاها؛ ليروج مقالاته المنكرة بنسبتها إلى الكشف والإلهام والوحي، ويتدرع عن الإنكار عليه، بزعم أنه من أولياء اللَّه ـ تَعَالَى ـ، ومنهم من تعاطاها على أمل أن يجد فيها حلًّا للشكوك والشُّبَهِ التي أوقعه فيها التعمق في الكلام والفلسفة.

هذا، والشرع يقضي بأن الكشف ليس مما يصلح الاستناد إليه في الدين، ففي «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ»، قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ».

= يسافرون، ولا يأتون عملًا يهمهم، إلا بعد موافقة شيخهم عليه، فكأنه عندهم ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النِّساء: الآية ١٧٦] . والله المستعان) اهـ. من هامش «القائد إلى تصحيح العقائد» ص(٦٦ ـ ٦٧).

وفيه حجة على أنه لم يبق مما يناسب الوحي إلا الرؤيا، اللَّهم، إلا أن يكون بقي ما هو دون الرؤيا، فلم يعتد به، فدل ذلك أن التحديث والإلهام والفراسة، والكهانة، والكشف، كلها دون الرؤيا، والسر في ذلك أن الغيب على مراتب.

الأُولَى: ما لا يعلمه إلا اللَّه، ولم يُعْلِمْ به أحدًا، أو أعلم به بعض ملائكته.

الثَّانِيَةُ: ما قد علمه غير الملائكة من الخلق.

الثَّالِثَةُ: ما عليه قرائن ودلائل إذا تنبه لها الإنسان عرفه؛ كما ترى أمثلة ذلك فيما يحكى من ذكاء إياس والشافعي وغيرهما، فالرؤيا قد تتعلق بما هو من المرتبة الأولى، لكن الحديث يقضي أنه لم يبق منها إلا ما كان على وجه التبشير فقط، وفي معناه التحذير، والفراسة، تتعلق بالمرتبة الثالثة، وبقية الأمور بالمرتبة الثانية، وإنما الفرق بينها - واللَّه أعلم - أن التحديث والإلهام من إلقاء الملك في الخاطر، والكهانة من إلقاء الشيطان، والكشف قوة طبيعية غريبة؛ كما يسمى في هذا العصر قراءة الأفكار.

نعم، قد يقال: إن الرياضة قد تؤهل صاحبها لأن يقع له في يقظته ما يقع له في نومه، فيكون الكشف ضربًا من الرؤيا.

وأقول: إن صح هذا، فقد تقدم أن الرؤيا قصاراها التبشير والتحذير، وفي الصحيح أن الرؤيا قد تكون حقًّا وهي المعدودة من النبوة، وقد تكون من الشيطان، وقد تكون من حديث النفس، والتمييز مُشْكِل، ومع ذلك فالغالب أن تكون على خلاف الظاهر؛ حتى في رؤيا الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كما قُصَّ من ذلك في القرآن، وثبت في الأحاديث الصحيحة؛ ولهذه الأمور اتفق أهل العلم على أن الرؤيا لا تصلح للحُجَّة، وإنما هي تبشير، وتنبيه، وتصلح للاستئناس بها إذا وافقت حجة شرعية صحيحة؛ كما ثبت عن ابن عباس أنه كان يقول بمتعة الحج؛ لثبوتها عنده بالكتاب والسنَّة، فرأى بعض أصحابه رؤيا توافق ذلك؛ فاستبشر ابن عباس.

هذا حال الرؤيا، فَقِس عليه حال الكشف إن كان في معناها، فأما إن كان دونها،

فالأمر أوضح، وتجد في كلام المتصوفة أن الكشف قد يكون حقًّا، وقد يكون من الشيطان، وقد يكون تخيلًا موافقًا لحديث النفس، وصرحوا بأنه كثيرًا ما يكشف للرجل بما يوافق رأيه حقًّا كان أو باطلًا، ولهذا تجد في المتصوفة من ينتسب إلى قول أهل الحديث، ويزعم أنه يكشف له بصحة مذهبه، وهكذا تجد فيهم الأشعري والمعتزلي والمتفلسف وغيرهم، وكلٌّ يزعم أنه يُكْشَفُ له بصحة مذهبه، ومخالفه منهم لا يُكَذِّبُهُ، ولكنه يُكَذِّبُ كشفه، وقد يكشف لأحدهم بما يوافق مقالات الفرقة التي ينتسب إليها، وإن لم يكن قد عرف تلك المقالات من قبل؛ كأنه لحسن ظنه بهم، وحرصه على موافقتهم إنما تتجه همته إليهم؛ فيقرأ أفكارهم، وترتسم في مخيلته أحوالهم.

فالكشف إذن تبع للهوى، فغايته أن يؤيد الهوى ويرسخه في النفس، ويحول بين صاحبه وبين الاعتبار والاستبصار، فكأن الساعي في أن يحصل له الكشف إنما يسعى في أن يضله اللَّه ـ عز وجل ـ ولا ريب أن من التمس الهدى من غير الصراط المستقيم مستحق أن يضله اللَّه ـ عز وجل ـ وما يزعمه بعض غلاتهم من أن لهم علامات يميزون بها بين ما هو حق من الكشف وما هو باطل دعوى فارغة، إلا ما تقدم عن أبي سليمان الداراني، وهو أن الحق ما شهد له الكتاب والسنَّة، لكن المقصود الشهادة الصريحة التي يفهمها أهل العلم من الكتاب والسنَّة بالطريق التي كان يفهمها بها السلف الصالح.

فأما ما عُرِفَ عن المتصوفة من تحريف النصوص بما هو أشنع وأفظع من تحريف الباطنية فهذا لا يشهد لكشفهم، بل يشهد عليه أوضح شهادة بأنه من أبطل الباطل.

أولًا: لأن النصوص بدلالتها المعروفة حجة؛ فإذا شهدت ببطلان قولهم علم أنه باطل.

ثانيًا: لأنهم يعترفون أن الكشف محتاج إلى شهادة الشرع؛ فإن قبلوا من الكشف تأويل الشرع؛ فالكشف شهد لنفسه، فمن يشهد له على تأويله؟»[(١)]. اهـ.

---

(١) «القائد إلى تصحيح العقائد» ص(٦٦ - ٧١) باختصار.

الْفَصْلُ الْخَامِسُ

ادِّعَاءُ لُقْيا الخَضِرِ وَالتَّلَقِّي عَنْهُ

الْفَصْلُ الخَامِسُ

ادِّعَاءُ لُقْيَا الخَضِرِ وَالتَّلَقِّي عَنْهُ

وهذه الدعوى مبنية على زعم الصوفية أن الْخَضِرَ ـ عليه السلام ـ حي، ويَبْدُو أن أول من افتراها مُحَمَّد بن علي بن الحسن الترمذي الْمُسَمَّى بالحكيم؛ حيث قال في كتابه «ختم الوَلاية» في سياق جوابه عن علامات الأولياء:

«ولِلْخَضِرِ ـ عليه السلام ـ قصة عجيبة في شأنهم ـ أي الأولياء ـ، وقد كان عَايَنَ شأنهم في البدء ومن وقت المقادير، فأحب أن يدركهم، فأُعطِيَ الحياة حتى بلغ من شأنه أنه يُحْشَرُ مع هذه الأمة، وفي زمرتهم، حتى يكون تَبَعًا لمحمد ﷺ، وهو رجل من قرن إبراهيم الخليل، وذي القرنين، وكان على مقدمة جنده؛ حيث طلب ذو القرنين عين الحياة[1]، ففاتته، وأصابها الْخَضِرُ، في قصة طويلة.

وهذه آياتهم وعلاماتهم، فأوضح علاماتهم ما ينطقون به من العلم من أصوله.

قال له قائل: وما ذلك العلم؟

قال: علم البدء، وعلم الميثاق، وعلم المقادير، وعلم الحروف.

فهذه أصول الحكمة، وهي الحكمة العليا، وإنما يظهر هذا العلم عن كُبَرَاءِ الأولياء، ويقبله عنهم من له حظ من الولاية»[2].

وزعم الحكيم الترمذي أن من صفات أوليائه المزعومين أنه «تظهر على أيديهم الآيات؛ كطي الأرض، والمشي على الماء، ومحادثة الخضر ـ عليه السلام ـ»، الذي زعم ـ أيضًا ـ أن «الأرض تُطْوَى له برها وبحرها، سهلها وجبلها، يبحث عن الأولياء شوقًا إليهم»[3].

---

(١) أي عين ماء الحياة؛ من شرب منها فلا يموت أبدًا في زعمهم.

(٢) «ختم الولاية»، ص: (٣٦٢)، نقلًا عن «الفكر الصوفي»، ص: (١٣٤ ـ ١٣٥)، وهذا الكتاب يُعَدُّ ـ بحق ـ أخطر كتب الصوفية على الإطلاق.

(٣) السابق، ص: (٣٦١).

خُلَاصَةُ التَّصَوُّرِ الصُّوفِيِّ لِلْخَضِرِ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ

١ ـ أنه حي إلى أبد الدهر.

٢ ـ أنه صاحب شريعة، وعلم باطني يختلف عن علوم الشريعة الظاهرية.

٣ ـ أنه ولي، وليس بنبي[(١)].

٤ ـ أن علمه «لدني»، موهوب له من الله بغير وحي الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، وأن هذه العلوم تُنَزَّلُ إلى جميع الأولياء في كل وقت، قبل بعثة رسول الله ﷺ، وبعد بعثته، وأن هذه العلوم أكبر وأعظم من العلوم التي مع الأنبياء، بل لا تدانيها، ولا تُضَاهِيهَا علوم الأنبياء.

وكما أن الْخَضِرَ ـ وهو ولي فقط في زعمهم ـ كان أعلم من موسى؛ فكذلك الأولياء من أمَّةِ محمد ﷺ هم أعلم من محمد ﷺ ؛ لأن مُحَمَّدًا ﷺ عالم بالشريعة الظاهرة فقط، والولي عالم بالحقيقة الصوفية، وعلماء الحقيقة أعلم من علماء الشريعة.

٥ ـ أن الْخَضِرَ يلتقي بالأولياء، ويُعَلِّمُهُمْ من هذه الحقائق، ويأخذ لهم العهود الصوفية.

٦ ـ أن الحقائق تَخْتَلِفُ عن الشريعة المحمدية، فلكل ولي طريقته المستقلة، وكشفه الخاص، وعلمه اللدني الذي قد يختلف مع الوحي المحمدي[(٢)].

● يقول الشيخ عبدالرحمن عبدالخالق ـ حفظه الله ـ تَعَالَى ـ:

«باختصار لقد تَحَوَّلَ الْخَضِرُ إلى قصة خُرَافِيَّةٍ كبيرة أشبهَ بقصة ما يُسَمُّونَهُ بالسوبرمان، الذي يطير في كل مكان، ويلتقي بالأصدقاء والخلان في كل البلدان، ويشرع للناس ما شاء من عبادات وقربان، ويلقن الأذكار، وينشئ الطرق الصوفية، ويُعَمِّدُ الأولياء والأقطاب، ويولي من يشاء، ويعزل من يشاء، وما عليك إذا أردت لقاء الْخَضِرِ إلا أن تذكر مجموعة من الأذكار، فيأتيك الْخَضِرُ في الحال، ويبشرك بما تشاء

(١) راجع أدلة ترجيح نبوة الخضر عليه السلام، ص: (٣٠٢) وما بعدها.

(٢) انظر: «الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة»، ص: (١٣٣).

من البشارات، ويجعلك وليًّا من الأولياء، ويعطيك علومًا لدنية لم يعلمها الرسل أنفسهم، ولا خَطَرَتْ لهم على بال»[(١)].

* * *

نُقُولٌ عَنِ الصُّوفِيَّةِ فِي لُقْيَا الخَضِرِ وَالتَّلَقِّي عَنْهُ:

● يقول أحمد بن إدريس الشاذلي:

«اجتمعْتُ بالنبي ﷺ اجتماعًا صوريًّا، ومعه الخَضِرُ ـ عليه السلام ـ، فأمر النبي ﷺ الخَضِرَ أن يلقنني أذكارالطريقة الشاذلية، فلقنني إياها بحضرته»، ويَسْتَطْرِدُ قائلًا: «ثم قال ﷺ للخَضِرِ ـ عليه السلام ـ يا خَضِرُ، لَقِّنْهُ ما كان جامعًا لسائر الأذكار، والصلوات، والاستغفار»[(٢)].

● ويقول شيخهم ابن عربي:

«اعلم أيَّدَكَ الله ـ أيها الولي الحميم ـ أن هذا الوتد هو خضر صاحب موسى ـ عليه السلام ـ، أطال الله عمره إلى الآن، وقد رأينا من رآه، واتفق لنا في شأنه أمر عجيب، وذلك أن شيخنا أبا العباس العريبي ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ جرت بيني وبينه مسألة في حق شخص كان قد بَشَّرَ بظهوره رسول الله ﷺ، فقال لي: «هو فلان ابن فلان»، وَسَمَّى لي شخصًا أعرفه باسمه، وما رأيته، ولكن رأيت ابن عمته، فربما توقفت منه، ولم آخذ بالقبول؛ أعني قول الشيخ العريبي فيه؛ لكوني على بصيرة في أمره، ولا شك أن الشيخ رجع سهمه عليه، فتأذى في باطنه، ولم أشعر بذلك؛ فإني كنت في بادية الطريق.

---

(١) السابق، ص: (١٣٤).

(٢) «مفاتيح كنوز السماوات والأرض»، لصالح محمد الجعفري، (ص٨) نقلًا عن «الفكر الصوفي»، ص: (١٣٩).

فانصرفت عنه إلى منزلي، فنمت في الطريق، فلقيني شخص لا أعرفه، فسلَّم عليَّ ابتداءً سلامَ مُحِبٍّ مشفق، وقال لي: «يا محمد، صدِّق الشيخ أبا العباس فيما ذكره لك عن فلان»، وسَمَّى لنا الشخص الذي ذكره أبو العباس العريبي، فقلت: «نعم»، وعلمت ما أراد، ورجعت من حيني إلى الشيخ لأُعَرِّفه بما جرى، فعندما دخلت عليه، قال لي: «يا أبا عبدالله، أحتاج معك إذا ذكرت لك مسألة يقف خاطرك عن قبولها إلى الْخَضِرِ يتعرض إليك، يقول لك: صَدِّق فلانًا فيما ذكره لك؟!

ومن أين يتفق لك هذا في كل مسألة تسمعها مني، فتتوقف؟»، فقلت: «إن باب التوبة مفتوح»، فقال: «وقبول التوبة واقع»، فعلمت أن ذلك الرجل كان الْخَضِرَ، ولا شك أني استفهمت الشيخ عنه أهو هو؟ قال: نعم، هو الْخَضِرُ»[1].

وزعم ابن عربي أيضًا (أنه اجتمع بالخضر، وأنه ـ أي الخضر ـ ألبسه خرقة الصوفية، وأن ذلك تم تجاه الحجر الأسود في مكة، وأنه أخذ عليه العهد بالتسليم لمقامات الشيوخ «أهل التصريف» وأنه كان مترددًا في لبس الخرقة من الخضر حتى أعلمه الخضر أنه لبسها من يد رسول الله ﷺ بالمدينة المشرفة منبع الفيض الأتم)[2].

وذكر الشعراني في «معارج الألباب» عن بعض شيوخه، ذكر له أن الْخَضِرَ ـ عليه السلام ـ كان يحضر مجلس فقه أبي حنيفة في كل يوم بعد صلاة الصبح يتعلم منه الشريعة، فلما مات (أي أبو حنيفة) سأل الْخَضِرُ ربه أن يرد روح أبي حنيفة إلى قبره؛ حيث يتم له علم الشريعة، وأن الْخَضِرَ كان يأتي إليه كل يوم على عادته يسمع منه الشريعة داخل القبر، وأقام على ذلك خمس عشرة سنة؛ حتى أكمل علم الشريعة[3].

---

(١) «الفتوحات المكية»، (١٨٠/٣).

(٢) «الكتاب التذكاري، لابن عربي»، ص: (٣٠٤).

(٣) «معارج الألباب»، ص (٤٤)، نقلًا عن «الفكر الصوفي»، ص: (١٣٧ ـ ١٣٨)، وانظر: «الإنصاف»، للصنعاني، ص: (٥٢).

إِبْطَالُ دَعْوَى الصُّوفِيَّةِ أَنَّ الخَضِرَ حَيٌّ

● قال العلَّامَةُ القرآني محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ:

«اعلم أن العلماء اختلفوا في الخَضِرِ: هل هو حي إلى الآن، أو هو غير حي، بل ممن مات فيما مضى من الزمان؟ فذهب كثير من أهل العلم إلى أنه حي، وأنه شَرِبَ من عين تُسَمَّى عين الحياة، وممن نصر القول بحياته القرطبي في تفسيره، والنووي في شرح مسلم وغيرِه، وابنُ الصلاح، والنقَّاش، وغيرهم، قال ابن عطية: وأطنب النَّقَّاش في هذا المعنى، يعني حياة الخَضِرِ، وبقاءه إلى يوم القيامة، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي ابن أبي طالب وغيره، وكلها لا تقوم على ساق ـ انتهى بواسطة نقل القرطبي في تفسيره.

وحكايات الصالحين عن الخَضِرِ أكثر من أن تُحصر، ودعواهم أنه يحج هو وإلياس كل سنة، ويروون عنهما بعض الأدعية؛ كل ذلك معروف، ومستند القائلين بذلك ضعيف جدًّا؛ لأن غالبه حكاياتٌ عن بعض من يُظَنُّ به الصلاح، ومناماتٌ، وأحاديثُ مرفوعةٌ عن أنس وغيره، وكلها ضعيف لا تقوم به حجة.

ومن أقواه عند القائلين به ـ آثار التعزية حين تُوفِّي النبي ﷺ، وقد ذكر ابن عبدالبر في تمهيده عن علي رضي الله عنه قال: لما تُوُفِّي النبي ﷺ، وَسُجِّيَ بثوبٍ، هَتَفَ هاتف من ناحية البيت يسمعون صوته، ولا يرون شخصه: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، السلام عليكم أهل البيت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ الآية [آل عِمرَان: ١٨٥]، إن في الله خَلَفًا من كل هالك، وعِوَضًا من كل تالف، وعزاءً من كل مصيبة ـ فبالله فثقوا، وإياه فارجوا؛ فإن المُصَابَ من حُرِمَ الثواب»، فكانوا يُرَوْنَ أنه الخَضِرُ ـ عليه السلام ـ؛ يعني أصحاب النبي ﷺ. انتهى بواسطة نقل القرطبي في تفسيره.

قال مُقَيِّدُهُ ـ عفا الله عنه ـ: والاستدلال على حياة الخَضِرِ بآثار التعزية كهذا الأثر

الذي ذكرنا آنفًا ـ مَرْدُودٌ من وجهين:

الْأَوَّلُ: أنه لم يثبت ذلك بسند صحيح، قال ابن كثير في تفسيره: وحكى النووي، وغيره في بقاء الْخَضِرِ إلى الآن، ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابن الصلاح إلى بقائه، وذكروا في ذلك حكاياتٍ عن السلف وغيرهم، وجاء ذكره في بعض الأحاديث، ولا يصح شيء من ذلك، وأشهرها حديث التعزية، وإسناده ضعيف. اهـ منه.

الثَّانِي: أنه على فرض أن حديث التعزية صحيح، لا يلزم من ذلك عقلًا، ولا شرعًا، ولا عرفًا، أن يكون ذلك المعزِّي هو الْخَضِرُ؛ بل يجوز أن يكون غيرَ الْخَضِرِ من مؤمني الجن؛ لأن الجن هم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] ، ودعوى أن ذلك المعزي هو الْخَضِرُ تحكُّمٌ بلا دليل، وقولهم: «كانوا يُرَوْنَ أنه الْخَضِرُ»، ليس حجةً يجب الرجوع إليها؛ لاحتمال أن يُخْطِئُوا في ظنهم، ولا يدل ذلك على إجماع شرعي معصوم، ولا متمسك لهم في دعواهم أنه الْخَضِرُ كما ترى.

قال مُقَيِّدُهُ ـ عفا الله عنه ـ: الذي يظهر لي رجحانه بالدليل في هذه المسألة أن الْخَضِرَ ليس بحي، بل تُوُفِّي، وذلك لعدة أدلة:

الْأَوَّلُ: ظاهر عُمُوم قَوْلِهِ ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]؛ فقوله «لبشر» نكرة في سياق النفي، فهي تَعُمُّ كل بشر، فيلزم من ذلك نفيُ الخلد عن كل بشرٍ من قبله، والْخَضِرُ بَشَرٌ من قبله؛ فلو كان شَرِبَ من عين الحياة، وصار حَيًّا خالدًا إلى يوم القيامة، لكان الله قد جعل لذلك البشر الذي هو الْخَضِرُ من قبله الخلد.

الثَّانِي: ـ قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ»، فقد روى مسلم في صحيحه بسنده إلى ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال:

حَدَّثَني عمر بن الخطَّاب، قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألف، وأصحابه ثلاث مئة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، ثم مَدَّ يَدَيْهِ، فجعل يهتف بربِّهِ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ»، فما زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبلَ القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكرٍ، فأخذ رداءَهُ، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك؛ فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ [الأنفال: ٩] ، فأمده الله بالملائكة... الحديث، ومَحَلُّ الشاهد منه قوله ﷺ: «لا تُعبد في الأرض» فعل في سياق النفي، فهو بمعنى: لا تقع عبادة لك في الأرض»؛ لأن الفعل ينحل عن مصدر وزمن عند النحويين، وعن مصدر، ونسبة، وزمن، عند كثير من البلاغيين، فالمصدر كامن في مفهومه إجماعًا، فيتسلط عليه النفي، فيؤول إلى النكرة في سياق النفي، وهي من صيغ العموم؛ وإلى كون الفعل ـ في سياق النفي، والشرط ـ من صيغ العموم، أشار في «مراقي السعود» بقوله عاطفًا على ما يفيد العموم:

وَنَحْوُ لَا شَرِبْتُ أَوْ إِنْ شَرِبَا وَاتَّفَقُوا إِنْ مَصْدَرٌ قَدْ جُلِبَا

فإذا علمت أن معنى قوله ﷺ : «إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ لَا تُعْبَد فِي الْأَرْضِ»؛ أي لا تقع عبادة لك في الأرض؛ فاعلم أن ذلك النفي يشمل بعمومه وجود الْخَضِرِ حيًّا في الأرض؛ لأنه على تقدير وجوده حيًّا في الأرض، فإن الله يُعْبَدُ في الأرض، ولو على فرض هلاك تلك العصابة من أهل الإسلام؛ لأن الْخَضِرَ ما دام حيًّا، فهو يُعْبَدُ في الأرض.

الثَّالِثُ: إخباره ﷺ بأنه على رأس مئة سنة من الليلة التي تَكَلَّمَ فيها بالحديث لم يَبْقَ على وجه الأرض أحد ممن هو عليها تلك الليلة، فلو كان الْخَضِرُ حيًّا في الأرض لما تَأَخَّرَ بعد المئة المذكورة، روى مسلم بسنده إلى عبدالله بن عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ

قال: صَلَّى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته؛ فلما سَلَّمَ قام، فقال: «أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّ عَلَى رَأْسِ مِئَةِ سَنَةٍ مِنْهَا لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِهَا أَحَدٌ»، قال ابن عمر: فَوَهَلَ[1] الناس في مقالة رسول الله ﷺ تلك، فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مِئَةِ سنة، وإنما قال رسول الله ﷺ: «لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ»، يريد بذلك أن يَنْخَرِمَ ذلك القرن.

وروى مسلم في «صحيحه» بسنده إلى ابن جُرَيْج، قال:

أخبرني أبو الزُّبَيْر أنه سمع جابر بن عبدالله ـ رَضي الله عنهما ـ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ـ قبل أن يموت بشهر ـ: «تسألوني عن الساعة؟ وإنما علمها عند الله، وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة اليومَ يأتي عليها مِئَةُ سَنَةٍ وهي حَيَّةٌ يومئذ».

وروى بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: لما رَجَعَ النبي ﷺ من تَبُوك سألوه عن الساعة، فقال رسول الله ﷺ: «لَا تَأْتِي مِئَةٌ، وَعَلَى الْأَرْضِ نَفْسٌ مَنْفُوسَةٌ الْيَوْمَ».

ثم روى بسنده عن جابر بن عبدالله، قال: قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ تَبْلُغُ مِئَةَ سَنَةٍ»، فقال سالم: تذاكرنا ذلك عنده، إنما هي كل نفس مخلوقة يومئذ.

فهذا الحديث الصحيح الذي رواه عن النبي ﷺ ابن عمر، وجابر، وأبو سعيد، فيه تصريح النبي ﷺ بأنه لا تبقى نفس منفوسة حية على وجه الأرض بعد مئة سنة، فقوله: «نفس منفوسة» ونحوها من الألفاظ في روايات الحديث نَكِرَةٌ في سياق النفي، فهي تَعُمُّ كل نفس مخلوقة على الأرض، ولا شك أن ذلك العموم بمقتضى اللفظ يشمل الخَضِرَ؛ لأنه نفس منفوسة على الأرض.

---

(١) فَوَهَلَ: الوَهَل: الفزع، وهِلْتُ أَهِلُ وَهَلًا: إذا فجأك أمر لم تعرفه، فارتعت له، وَوهل يَهِل إلى الشيء وَهْلًا: إذا ذهب وَهْمُه إليه، «جامع الأصول» (١٠/٣٨٩)، وانظر: «النهاية» (٥/٢٣٣).

وروى البخاري في «صحيحه» بسنده أن عبدالله بن عُمَرَ، قال: صلى النبي ﷺ صلاة العشاء في آخر حياته، فلمَّا سلَّمَ قام النبي ﷺ فقال: «أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ؛ فَإِنَّ رَأْسَ مِئَةٍ لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ»، فَوَهِلَ الناس في مقالة رسول الله ﷺ إلى ما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مئة سنة، وإنَّما قال النبي ﷺ : «لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ»، يريد بذلك أنها تخرم ذلك القرن.

الرَّابعُ: أن الخَضِرَ لو كان حيًّا إلى زمن النبي ﷺ لكان من أتباعه، ولَنَصَرَهُ، وقاتل معه؛ لأنه مَبْعُوثٌ إلى جميع الثَّقَلَيْنِ الإنس والجن.

والآياتُ الدَّالَّةُ على عموم رسالته كثيرة جدًّا؛ كقوله ـ تعالَى ـ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] ، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفُرقان: ١] ، وقوله ـ تعَالَى ـ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سَبَإ: ٢٨] ، ويُوَضِّحُ هذا أنه ـ تعَالَى ـ بَيَّنَ في سورة «آل عمران»: أنه أخذ على جميع النبيين الميثاقَ المُؤَكَّدَ أنهم إن جاءهم نبينا ﷺ مُصَدِّقًا لما معهم أن يؤمنوا به وينصروه، وذلك في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران: ٨١-٨٢].

وهذه الآية الكريمة ـ على القول بأن المراد بالرسول فيها نبينا ﷺ، كما قاله ابن العَبَّاس وغيره ـ فالأمر واضح، وعلى أنها عامَّة؛ فهو ﷺ يدخل في عمومها دخولًا أوليًّا؛ فلو كان الخَضِرُ حيًّا في زمنه لجاءه ونصره، وقاتل تحت رايته؛ وممَّا يوضح أنه لا يدركه نبي إلا اتبعه ما رواه الإمام أحمد وابن أبي شيبة، والْبَزَّارُ من حديث جابر رضي الله عنه: أن عمر رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه عليه، فغضب،

وقال: «لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتْبَعَنِي». اهـ، قال ابن حجر في «الفتح»: «ورجاله موثوقون، إلا أن في مجالدٍ ضعفًا»، وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تاريخه بعد أن ساق آية «آل عمران» المذكورة آنفًا، مُسْتَدِلًّا بها على أن الْخَضِرَ لو كان حَيًّا لجاء النبي ﷺ ونصره ـ ما نَصُّهُ: قال ابن عَبَّاسٍ ـ رَضي الله عنهما ـ: ما بَعَثَ الله نَبِيًّا إلا أخذ عليه الميثاق؛ لئن بُعِثَ محمد ﷺ وهو حي؛ ليؤمِنَنَّ به، ولينْصُرَنَّهُ، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ وهم أحياء لَيُؤْمِنُنَّ به، ويَنْصُرُنَّهُ ـ ذكره البخاري عنه.

فالخضر إن كان نَبِيًّا أَوْ وَلِيًّا، فقد دخل في هذا الميثاق، فلو كان حَيًّا في زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه، يؤمن بما أنزل الله عليه، وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه؛ لأنه إن كان وليًّا، فالصِّدِّيقُ أفضلُ منه، وإن كان نبيًّا، فموسى أفضل منه.

وقال الإمام أَحْمَدُ في «مسنده»: حَدَّثَنَا شُرَيْحُ بن النعمان: حدثنا هشيم أنبأنا مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبدالله: أن رسول الله ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»، وهذا الذي يُقْطَعُ به، ويُعْلَمُ من الدين علم الضرورة.

وقد دَلَّتْ هذه الآية الكريمة أن الأنبياء كلهم لو فرض أنهم أحياء مُكَلَّفُونَ في زمن رسول الله ﷺ لكانوا كُلُّهُمْ أتباعًا له، وتحت أوامره، وفي عموم شرعه، كما أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لما اجتمع بهم ليلة الإسراء، رُفِعَ فوقهم كُلِّهِمْ، ولَمَّا هبطوا معه إلى بيت المقدس، وحانت الصلاة أَمَرَهُ جبريل عن أمر الله أن يَؤُمَّهُمْ؛ فَصَلَّى بهم في محلِّ وِلايتهم، ودار إقامتهم، فَدَلَّ على أنه الإِمَامُ الأَعْظَمُ، والرسول الخاتم الْمُبَجَّلُ الْمُقَدَّمُ ـ صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

فإذا عُلِمَ هذا ـ وهو معلوم عند كل مؤمن ـ عُلِمَ أنه لو كان الخَضِرُ حيًّا؛ لكان من جملة أُمَّةِ محمد ﷺ، وممن يَقْتَدِي بشرعه، لا يسعه إلا ذلك، هذا عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ إذا نزل في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المُطَهَّرَةِ، لا يخرج منها، ولا يَحِيدُ عنها، وهو أحد أولي العزم الخمسة المرسلين، وخاتَم أنبياء بني إسرائيل، والمعلوم أن الخَضِرَ لم يُنقل ـ بسند صحيحٍ، ولا حسنٍ تسكن النفس إليه ـ أنه اجتمع برسول الله ﷺ في يومٍ واحد، ولم يَشْهَدْ معه قتالًا في مشهد من المشاهد، وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق فيما دعا به ربه ـ عز وجل ـ، واستنصره، واستفتحه على من كفره: «اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ لَا تُعْبَدْ بَعْدَهَا فِي الْأَرْضِ»، وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذٍ، وسادة الملائكة، حتى جبريل ـ عليه السلام ـ؛ كما قال حسَّانُ ابن ثابت في قصيدة له في بيتٍ يُقَالُ بأنه أفخر بيت قالته العرب:

وَبِبِئْرِ بَدْرٍ إِذْ يَرُدُّ وُجُوهَهُمْ ... جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمَّدُ

فلو كان الخَضِرُ حيًّا لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته، وأعظم غزواته، قال القاضي أبو يعلى محمد بن الحُسَيْنْ بن الفرَّاء الحنبلي: سُئِل بعض أصحابنا عن الخَضِر هل مات؟ فقال: نعم، قال: وبلغني مثل هذا عن أبي طاهر بن العبادي، قال: وكان يَحْتَجُّ بأنه لو كان حيًّا، لجاء إلى رسول الله ﷺ ـ نقله ابن الجوزي في «العجالة»، فإن قيل: فهل يقال إنه كان حاضرًا في هذه المواطن كلها، ولكن لم يكن أحد يراه[١]؟ فالجواب: أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذي يَلْزَمُ منه تخصيص العمومات بمجرد التوهمات، ثم ما الحامل له على هذا الاختفاء؟ وظهوره أعظم لأجره، وأعلى في مرتبته، وأظهر لمعجزته، ثم لو كان بَاقِيًا لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديثَ النبوية، والآياتِ القرآنيةَ، وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة، والروايات المقلوبة، والآراء البدعية، والأهواء العصبية، وقتاله مع المسلمين في غزواتهم، وشهوده

---

(١) دعوى أنه محجوب عن أعين الناس؛ كالملائكة، والجن لا دليل عليها، وهي خلاف الأصل؛ لأن الأصل في بني آدم أن يرى بعضهم بعضًا.

جُمَعَهُمْ وجماعاتهم، ونفعه إياهم، ودفعه الضرر عنهم مما سواهم، وتسديده العلماء والحُكَّام، وتقريره الأدلة والأحكام - أفضل مما يُقَالُ من كونه في الأمصار، وَجَوْبِهِ الفيافِي والأقطار، واجتماعه بعُبَّادٍ لا تُعْرَفُ أحوال كثير منهم، وجعله كالنقيب المُتَرْجِمِ عنهم؟!

وهذا الذي ذَكَرْتُهُ لا يتوقف أحد فيه بعد التفهم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، انتهى من «البداية والنهاية»، لابن كثير - رحمه الله - تَعَالَى -.

فتحصَّلَ أن الأحاديث المرفوعة التي تدل على وجود الخَضِرِ حيًّا باقيًا لم يثبت منها شيء، وأنه قد دلت الأدلة المذكورة على وفاته، كما قدمنا إيضاحه»، اهـ[1].

وقال القاضي أبو يعلى - رحمه الله -:

«وما أبْعَدَ فَهْمَ من يُثْبِتُ وجود الخَضِرِ - عليه السلام -، وينسى ما في طيِّ إثباته من الإعراض عن هذه الشريعة...»، ثم قال بعد أن ذكر وُجُوهًا من الأدلة العقلية على عدم حياة الخَضِرِ:

الْخَامِسُ: أن القول بحياة الخَضِرِ قولٌ على الله - تَعَالَى - بغير علم، وهو حرام بنص القرآن.

أَمَّا الْمُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ: فظاهرة، والأولى؛ فلأن حياته لو كانت ثابتة لدلَّ عليها القرآن أو السنة، أو إجماع الأمة؛ فهذا كتاب الله، فأين فيه حياة الخَضِرِ؟ وهذه سنة رسول الله ﷺ، فأين فيها ما يَدُلُّ على ذلك بوجه؟ وهؤلاء علماء الأمة، فمتى أجمعوا على حياته؟

السَّادِسُ: أن غاية ما يُتَمَسَّكُ به في حياته حكايات منقولة، يخبر الرجل بها أنه رأى الخَضِرَ فَيَا لَلْعجب! هل لِلْخَضِرِ علامَةٌ يعرفه بها من رآه؟ وكثير من زاعمي رؤيته

---

(١) «أضواء البيان»، (٤/١٦٣ - ١٧١) بتصرف.

يَغْتَرُّ بقوله: أنا الخَضِرُ، ومعلوم أنه لا يجوز تصديق قائل ذلك بلا برهان من الله ـ تَعَالَى ـ؛ فمِنْ أين للرائي أن المُخْبِرَ له صادق لا يكذب؟

السَّابعُ: أن الخَضِرَ فَارَقَ موسى بن عمران كليم الرحمن، ولم يصاحبه، وقال: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨]، فكيف يرضى لنفسه بمفارقة مثل موسى ـ عليه السلام ـ، ثم يجتمع بِجَهَلَةِ العُبَّادِ الخارجين عن الشريعة، الذين لا يحضرون جُمُعَةً، ولا جماعة، ولا مجلسَ علم؟ وكلٌّ منهم يقول: قال لي الخَضِرُ، جاءني الخَضِرُ، أوصاني الخَضِرُ، فيا عَجَبًا له يُفَارِقُ الكليمَ، ويدور على صُحْبَةِ جاهل، لا يصحبه إلا شيطان رجيم، سبحانك هذا بهتان عظيم!.

الثَّامِنُ: أن الأمة مُجْمِعَةٌ على أن الذي يقول: «أنا الخَضِرُ» لو قال: سمعت رسول الله يقول كذا وكذا، لم يُلْتَفَتْ إلى قوله، ولم يُحْتَجَّ به في الدين، ولا مخلص للقائل بحياته عن ذلك إلا أن يقول: إنه لم يَأْتِ إلى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولا بايعه، أو يقول: إنه لم يُرْسَلْ إليه، وفي هذا من الكفر ما فيه.

التَّاسِعُ: أَنَّهُ لو كان حيًّا لكان جهاده الكفَّارَ، ورباطه في سبيل الله ـ تعالى ـ، ومقامه في الصف ساعة، وحضوره الجُمُعَةَ والجماعة، وإرشاد جَهَلَةِ الأمة ـ أفضل بكثير من سياحته بين الوحوش في القفار والفلوات، إلى غير ذلك»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ:

«والصواب الذي عليه المحققون أنه ميت، وأنه لم يدرك الإسلام، ولو كان موجودًا في زمن النبي ﷺ، لوجب عليه أن يُؤْمِنَ به، ويُجَاهِدَ معه؛ كما أوجب الله ذلك عليه، وعلى غيره، ولكان يكون في مكة والمدينة، ولكان يكون حضوره مع الصحابة للجهاد معهم، وإعانتهم على الدين ـ أولى به من حضوره عند قوم كُفَّارٍ؛ ليُرَقِّعَ لهم سفينتهم، ولم يكن مختفيًا عن خير أمة أُخْرِجَتْ للناس، وهو قد كان بين يدي

---

(١) نقله عنه الألوسي في «روح المعاني»، (١٥/٣٢٠ ـ ٣٢١).

المشركين، ولم يحتجب عنهم، ثم ليس للمسلمين به وأمثاله حاجة لا في دينهم، ولا في دنياهم؛ فإن دينهم أخذوه عن الرسول النبي الأمي ﷺ الذي عَلَّمَهُمُ الكتاب والحكمة... وإذا كان الْخَضِرُ حيًّا دائمًا، فكيف لم يذكر النبيُّ ذلك قط؟ ولا أخبر به أمته؟ ولا خلفاؤه الراشدون؟ وقول القائل: «إنه نقيب الأولياء»، فيُقَالُ له: مَن وَلَّاهُ النقابة؟ وأفضل الأولياء أصحاب محمد، وليس فيهم الْخَضِرُ، وعامَّةُ ما يُحْكَى في هذا الباب من الحكايات بعضها كَذِبٌ، وبعضها مبني على ظن رجل؛ مثل شخص رأى رجلًا ظن أنه الْخَضِرُ، وقال: إنه الْخَضِرُ، كما أن الرافضة تَرَى شَخْصًا تَظُنُّ أنه الإمام الْمُنْتَظَر الْمَعْصُومُ، أو تدعي ذلك، ورُوِيَ عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال ـ وقد ذُكِرَ له الْخَضِرُ ـ: «من أحالك على غائب فما أنصفك، وما ألقى هذا على ألسنة الناس إلا الشيطان»[(١)].

وقال الإمام أبو الحسن بن المنادي ـ رحمه الله [(٢)] ـ:

«بحثت عن تعمير الْخَضِرِ، وهل هو بَاقٍ، أم لا؛ فإذا أكثرُ الْمُغَفَّلِينَ مفترون بأنه بَاقٍ من أجل ما رُوِيَ في ذلك، قال: «والأحاديث المرفوعة في ذلك واهية، والسند إلى أهل الكتاب ساقط؛ لعدم ثقتهم، وخبر مسلمة بن مصقلة كالخرافة، وخبر رياح كالريح، قال: وما عدا ذلك كله من الأخبار كلها واهية الصدور والأعجاز، لا يخلو حالها من أحد أمرين:

إما أن تكون أُدْخِلَتْ على الثقات استغفالًا، أو يكون بعضهم تَعَمَّدَ.

وقد قال الله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤]» اهـ.

وممن قال بموت الْخَضِرِ إبراهيم الحربي؛ حيث قال حين سُئِلَ عن بقاء الْخَضِرِ إلى

---

(١) مجموع الفتاوى، (٢٧/ ١٠٠ ـ ١٠٢)، وانظره: (٤/ ٣٣٧).

(٢) «الزهر النضر في نبإ الخضر»، ضمن «الرسائل المنيرية»، (٢/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧).

الآن: «من أحال على غائب لم ينتصف منه، وما ألقى هذا بين الناس إلا الشيطان»[١].

وقال الإمام أبو الْخَطَّابِ بن دحية ـ رحمه الله ـ:

«وجميع ما ورد في حياته لا يصح منها شيء باتفاق أهل النقل، وإنما يذكر ذلك من يروي الخبر، ولا يذكر علته؛ إما لكونه لا يعرفها، وإما لوضوحها عند أهل الحديث».

ثم قال: «وأما ما جاءَ عن المشايخ فهو مما يُتعجب منه؛ كيف يجوز لعاقل أن يَلْقَى شخصًا لا يعرفه، فيقول له: أنا فلان، فيصدقه؟».

ثم قال: «وأما حديث التعزية الذي ذكره أبو عُمَرَ، فهو موضوع رواه عبدالله بن مُحَرَّرٍ عن يزيد بن الأصم، عن علي رضي الله عنه، وابن مُحَرَّرٍ متروك، وهو الذي قال ابن المبارك في حقه كما أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه: لما رأيته كانت بَعْرَةٌ أحبَّ إليَّ منه، ففضل رؤية النجاسة على رؤيته»[٢].

قال الحافظ: «وكان الإمام أبو الفتح الْقُشَيْرِيُّ يذكر عن شيخ له أنه رأى الْخَضِرَ وحَدَّثَهُ، فَقِيلَ له: «من أعلمه أنه الْخَضِرُ؟ أم كيف عرف ذلك؟ فسكت»[٣].

وساق الإمام الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ الحكايات والروايات التي اسْتَدَلَّ بها القائلون بحياة الْخَضِرِ، ثم قال: «وهذه الروايات والحكايات هي عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم، وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جدًّا، لا يقوم بمثلها حجة في الدين، والحكايات لا يخلو أكثرها عن ضعف في الإسناد، وقُصَارَاهَا أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم من صحابي، أو غيره؛ لأنه يجوز عليه الخطأ، والله أعلم»...، إلى أن قال: «وقد تصدى الشيخ أبو الفرج بن الجوزي ـ رحمه الله ـ في كتابه «عُجَالَةُ المنتظر

---

(١) نقله عنه في «روح المعاني»، (١٥/٣٢٠).

(٢) «الزهر النضر»(٢/٢٠٣ ـ منيرية)، والخبر في «مقدمة صحيح مسلم» (١/٢٧).

(٣) «السابق»، (٢/٢٣٤).

في شرح حالة الخَضِر»، للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات، فَبَيَّنَ أنها موضوعات، ومن الآثار عن الصحابة، والتابعين فمن بعدهم، فَبَيَّنَ ضَعْفَ أسانيدها ببيان أحوالها، وجَهَالَةِ رجالها، وقد أجاد في ذلك، وأحسن الانتقاد»[١].

وقال الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني - رحمه الله -: «والذي تَمِيلُ إليه النفس من حيث الأدلة القوية خلاف ما يعتقده العوامُّ من استمرار حياته، لكن ربما عرضت شبهة من جهة كثرة الناقلين للأخبار الدالة على استمراره؛ فَيُقَالُ: هب أن أسانيدها واهية؛ إذ كل طريق منها لا يسلم من سبب يقتضي تضعيفها، فماذا يُصْنَعُ في المجموع؛ فإنه على هذه الصورة قد يلتحق بالتواتر المعنوي الذي مَثَّلُوا له بجود حاتم، فمن هنا مع احتمال التأويل في أدلة القائلين بعدم بقائه؛ كآية ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] ، وكحديث: «رَأس مِئَةِ سَنَةٍ» وغير ذلك مما تقدم بيانه.

وأقوى الأدلة على عدم بقائه عدم مجيئه إلى رسول الله ﷺ، وانفراده بالتعمير من بين أهل الأعصار المتقدمة بغير دليل شرعي، والذي لا يُتوقَّفُ فيه: الجزمُ بنبوته»[٢].

ورَجَّحَ المفسّر الشهير الآلوسي - رحمه الله - القول بحياة الخضر - عليه السلام -، والعجيب أنه - مع ذلك - قال: «ثم اعلم بعد كل حساب أن الأخبار الصحيحة النبوية والمقدمات الراجحة العقلية تساعد القائلين بوفاته - عليه السلام -؛ أيَّ مساعدة، وتعاضدهم على دعواهم أي معاضدة، ولا مقتضى للعدول عن ظواهر تلك الأخبار إلا مراعاة ظواهر الحكايات المروية، والله - تَعَالَى - أعلم بصحتها عن بعض الصالحين الأخيار، وحسن الظن ببعض السادة الصوفية، فإنهم قالوا بوجوده إلى آخر الزمان على وجه لا يقبل التأويل السابق»[٣].

---

(١) «البداية والنهاية»، (٣٣٤/١).
(٢) «الزهر النضر» ضمن «الرسائل المنيرية»، (٢٣٤/٢).
(٣) «روح المعاني»، (٣٢٨/١٥).

وقال العلَّامَةُ الشيخ بكر أبو زيد ـ حفظه الله ـ: (إذا اتَّضَحَ ذلك فاعلم أن القول بولاية الخَضِرِ، والقول بأنه ما زال حيًّا، قد جرَّ هذان القولان من البلايا والمحن، والدعاوى الكاذبة، والتلبيس على العامَّة، بل وعلى الخاصَّة، ما لا يُصَدِّقُهُ عقل، ولا يقبله دين: مِن دعوى فضل الوَلاية والأولياء على النبوة والأنبياء، وإن فلانًا لقي الخَضِرَ ـ عليه السلام ـ واستلهمه كذا وكذا، والقول بوَلايته وحياته أبد الدهر هما مُعْتَمَدُ الصوفية في جعل الشريعة لها ظاهر وباطن، وأن علماء الباطن يُنْكِرُونَ على علماء الظاهر ولا عكس، وبه قالوا بحجية الإلهام، وأن الولي أفضل وأعلم من النبي، والدعوى الواسعة للقاء الخَضِرِ، والأخذ عنه، فمنهم من لقي الخَضِرَ يصلي على المذهب الحنفي، وآخرون رأوه يصلي على المذهب الشافعي)[١]. اهـ.

وَالسُّؤَالُ الْآنَ:

إذا صَدَقَ الذين زعموا لقيا الخَضِرِ، والخَضِرُ ميت على الراجح، فما الجواب عن حكاياتهم؟ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«إن الذين رأوا من قال: «إني أنا الخضر» هم كثيرون صادقون، والحكايات متواترات؛ لكن أخطئوا في ظنهم أنه الخضر، وإنما كان جنيًّا»[٢].

وقال أيضًا رحمه الله: «كُلُّ من ادعى أنه رأى الْخَضِرَ، أو رأى من رأى الْخَضِرَ، أو سمع شَخْصًا رأى الْخَضِرَ، أو ظن الرائي أنه الْخَضِرُ: فكل ذلك لا يجوز إلا على الجهلة الْمُخَرِّفِينَ الذين لاحظ لهم من علم، ولا عقل، ولا دين، بل هم من الذين لا يفقهون ولا يعقلون»[٣].

وقال ـ رحمه الله ـ: «ومنهم من لا يَظُنُّ أولئك الأشخاص إلا آدميين أو ملائكة؛

(١) «التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير»، ص (٦٥).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٣/٩٣).
(٣) «السابق» (٢٧/٤٥٨).

فإن كانوا غير معروفين قال: هؤلاء رجال الغيب، وإن تَسَمَّوْا فقالوا: هذا هو الْخَضِرُ، وهذا هو إلياس، وهذا هو أبو بكر وعمر، وهذا هو الشيخ عبدالقادر، أو الشيخ عَدِيٌّ، أو الشيخ أحمد الرفاعي، أو غير ذلك، ظن أن الأمر كذلك.

فهنا لم يغلط، لكن غلط عقله؛ حيث لم يعرف أن هذه شياطين تمثلت على صور هؤلاء، وكثير من هؤلاء يظن أن النبي ﷺ نفسه، أو غيره من الأنبياء أو الصالحين يأتيه في اليقظة.. والذي له عقل وعلم يعلم أن هذا ليس هو النبي ﷺ ؛ تارة لِمَا يَرَاهُ منهم من مخالفة الشرع؛ مثل أن يأمروه بما يخالف أمر الله ورسوله، وتارة يعلم أن النبي ﷺ ما كان يأتي أحدًا من أصحابه بعد موته في اليقظة، ولا كان يخاطبهم من قبره، فكيف يكون هذا لي؟»[1].

وقال ـ أيضًا ـ رحمه الله ـ: «فمن هؤلاء من يسمع خطابًا، أو يرى من يأمره بقضية، ويكون ذلك الخطاب من الشيطان، ويكون ذلك الذي يخاطبه الشيطان، وهو يحسب أنه من أولياء الله من رجال الغيب.

ورجال الغيب هم الجن، وهو يحسب أنه إنسي، وقد يقول له: أنا الْخَضِرُ، أو إلياس، بل أنا محمد، أو إبراهيم الخليل، أو المسيح، أو أبو بكر، أو عمر، أو أنا الشيخ فلان... ويكون ذلك شيطانًا لَبَّس عليه.

فهؤلاء يتبعون ظَنًّا لا يُغْنِي من الحق شيئًا، ولو لم يتقدموا بين يدي الله ورسوله، بل اعتصموا بالكتاب والسنة لتبين لهم أن هذا من الشيطان، وكثير من هؤلاء يتبع ذوقه ووجده، وما يجده محبوبًا إليه، بغير علم، ولا هدًى، ولا بصيرة، فيكون مُتَّبِعًا لهواه بلا ظن»[2].

* * * * *

---

(١) «السابق» (١٣/٧٧ ـ ٧٨).

(٢) «السابق»، (١٣/٧١ ـ ٧٢).

فَصْـلٌ

فِي إِبْطَالِ احْتِجَاجِ الصُّوفِيَّةِ بِقِصَّةِ مُوسَى وَالْخَضِرِ عَلَى أَنَّ الْوَلِيَّ يَخْرُجُ عَنْ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ ﷺ

● يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ تعالَى ـ:

«وأما احتجاجهم بقصة موسى والْخَضِرِ فيحتجون بها على وجهين:

أَحَدِهُمَا: أن يقولوا: إن الْخَضِرَ كان مُشَاهِدًا الإرادة الربانية الشاملة، والمشيئة الإلهية العامَّة، وهي الحقيقة الكونية، فلذلك سَقَطَ عنه الملام فيما خالف فيه الأمر والنهي الشرعي، وهو من عظيم الجهل والضلال، بل من أعظم النِّفَاقِ والكفر، فإن مضمون هذا الكلام أن من آمن بالقدر، وشَهِدَ أن الله رب كل شيء، لم يكن عليه أمر ولا نهي، وهذا كُفْرٌ بجميع كتب الله، ورُسُلِهِ، وما جاءوا به من الأمر والنهي... وهؤلاء هم القدرية الشِّرْكِيَّةُ، الذين يحتجون بالقدر على دفع الأمر والنهي، هم من شر القدرية الذين هُمْ مَجُوسُ هذه الأمة، الذين رُوِيَ فيهم: «إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»[1]؛ لأن هؤلاء يقرون بالأمر والنهي، والثواب والعقاب، لكن أنكروا عموم الإرادة والقدرة والخلق، وربما أنكروا سابق العلم.

وأما القدرية الشِّرْكِيَّةُ فإنهم يُنْكِرُونَ الأمر والنهي، والثواب والعقاب، لكن وإن لم ينكروا عموم الإرادة والقدرة، والخلق؛ فإنهم ينكرون الأمر والنهي، والوعد والوعيد، ويَكْفُرُونَ بجميع الرسل والكتب؛ فإن الله إنما أرسل الرسل مُبَشِّرِينَ مَنْ أطاعهم بالثواب، ومنذرين من عصاهم بالعقاب.

وأيضًا فإن موسى ـ عليه السلام ـ كان مؤمنًا بالقدر، عالماً به، بل أتباعه من بني إسرائيل كانوا ـ أيضًا ـ مؤمنين بالقدر؛ فهل يَظُنُّ من له أدنى عقل أن موسى طلب أن

(١) رواه أبو داود، (٤٦٩١)، والحاكم (١/٨٥)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع»، (٤/١٥٠).

يتعلم من الْخَضِرِ الإيمان بالقدر، وأن ذلك يدفع الْمَلَامَ، مع أن موسى أعلم بالقدر من الْخَضِرِ، بل عموم أصحاب موسى يعلمون ذلك.

وأيضًا، فلو كان هذا هو السرَّ في قصة الْخَضِرِ لَبُيِّنَ ذلك لموسى، وقال: «إني كنت شاهدًا للإرادة والقدر»، وليس الأمر كذلك، بل بَيَّنَ له أسبابًا شرعية تُبِيحُ له ما فعل.

وَأَمَّا الْوَجْهُ الثَّانِي: فإن مِن هؤلاء مَن يظن أن من الأولياء من يسوغ له الخروج عن الشريعة النبوية، كما سَاغَ لِلْخَضِرِ الخروج عن متابعة موسى، وأنه قد يكون للولي في المكاشفة والمخاطبة ما يستغني به عن متابعة الرسول في عموم أحواله أو بعضها، وكثيرٌ منهم يُفَضِّلُ الولي - في زعمه: إما مُطْلَقًا، وإما من بعض الوجوه - على النبي، زاعمين أن في قصة الْخَضِرِ حُجَّةً لهم، وكل هذه مقالات من أعظم الجهالات والضلالات، بل من أعظم أنواع النفاق، والإلحاد، والكفر؛ فإنه قد عُلِم بالاضطرار من دين الإسلام أن رسالة محمد بن عبدالله ﷺ لجميع الناس عربهم وعجمهم، وملوكهم وزُهَّادِهِمْ، وعلمائهم وعامَّتهم، وأنها باقية دائمة إلى يوم القيامة، بل عامَّة الثقلين الجن والإنس، وأنه ليس لأحد من الخلائق الخروج من متابعته وطاعته، وملازمة ما يشرعه لأمته من الدين، وما سَنَّهُ لهم من فعل المأمورات، وترك المحظورات، بل لو كان الأنبياء المتقدمون قبله أحياءً لوجب عليهم متابعته وطاعته... ومما يُبَيِّنُ الغلط الذي وقع لهم في الاحتجاج بقصة موسى والْخَضِرِ على مخالفة الشريعة - أن موسى - عليه السلام - لم يكن مبعوثًا إلى الْخَضِرِ، ولا أوجب الله على الْخَضِرِ متابعته وطاعته، بل قد ثَبَتَ في الصحيح أن الْخَضِرَ، قال له: «يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لَا تَعْلَمُهُ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ»؛ وذلك أن دعوة موسى كانت خاصة، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال فيما فَضَّلَهُ الله به على الأنبياء قال: «كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[1]، فدعوة

---

(١) «صحيح البخاري»، مع الفتح، (١/٤٣٦).

محمد ﷺ شاملة لجميع العباد، وليس لأحد الخروجُ عن متابعته وطاعته، ولا استغناءٌ عن رسالته، كما ساغ للخَضِرِ الخروجُ عن متابعة موسى وطاعته، مستغنيًا عنه بما علَّمَهُ الله، وليس لأحد ممن أدركه الإسلام أن يقول لمحمد: «إني على علم من علم الله عَلَّمَنِيهِ لا تعلمه»، ومن سَوَّغَ هذا، أو اعتقد أن أحدًا من الخلق الزُّهَّادِ، والْعُبَّادِ، أو غيرهم - له الخروج عن دعوة محمد ﷺ ومتابعته؛ فهو كَافِرٌ باتفاق المسلمين... وقصة الْخَضِرِ ليس فيها خروج عن الشريعة؛ ولهذا لما بَيَّنَ الْخَضِرُ لموسى الأسباب التي فعل لأجلها ما فعل؛ وافقه موسى ولم يختلفا حينئذ[1]، ولو كان ما فعله الْخَضِرُ مخالفًا لشريعة موسى لما وافقه»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في موضع آخر رَادًّا على الْمُتَصَوِّفَة، الذين يحتجون بقصة الْخَضِرِ مع موسى على أن الأولياء يسوغ لهم الخروج عن الشريعة، كما خرج الْخَضِرُ عن شَرِيعَةِ موسى، وفَعَلَ أُمورًا مُحَرَّمَةً في شريعة موسى؛ قال - رحمه الله -: «ومثل احتجاج بعضهم بقصة الْخَضِرِ وموسى - عليه السلام - على أن من الأولياء من يستغني عن محمد ﷺ كما استغنى الْخَضِرُ، ومثل قول بعضهم: إن خاتَم الأولياء له طريق إلى الله يَسْتَغْنِي به عن خاتم الأنبياء، وأمثال هذه الأمور التي كَثُرَتْ في كثير من المنتسبين إلى الزُّهْدِ، والفقر، والتصوف، والكلام، والتفلسف، وكُفْرُ هؤلاء قد يكون من جنس كُفْرِ اليهود والنصارى، وقد يكون أعظم، وقد يكون أخفَّ، بحسب أحوالهم»[3].

وقال الإمام ابن القَيِّم مُسْتَنْكِرًا احتجاج المتصوفة بِقِصَّةِ الْخَضِرِ مع موسى على جواز خروج الأولياء عن الشريعة الإسلامية:

«فمن ادَّعَى أنه مع مُحَمَّدٍ ﷺ كالْخَضِرِ مع موسى، أو جَوَّز ذلك لأحد من الأمة؛

---

(١) انظر: «الفكر الصوفي»، ص: (١٣٠ - ١٣٢).
(٢) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»، (١١/٤٢٠ - ٤٢٦) باختصار.
(٣) السابق، (٢٤/ ٣٣٩).

فليجدد إسلامه، وليتشهد شهادة الحق؛ فإنه بذلك مُفَارِقٌ لدين الإسلام بالكلية؛ فضلًا عن أن يكون من خاصة أولياء الله، وإنما هو من أولياء الشيطان، وخلفائه، ونُوَّابِهِ، وهذا الموضع مُقَطَّعٌ، ومُفَرَّقٌ، بين زنادقة القوم، وبين أهل الاستقامة منهم، فَحَرِّكْ تَرَهُ»[1].

● وقال الشيخ عبدالرحمن عبدالخالق ـ حفظه الله ـ تعالَى ـ:

«إن وجود الخَضِرِ ـ عليه السلام ـ على دين وشريعة غير شريعة موسى كان أمرًا سائغًا، وسنة من سنن الله قبل بعثة محمد ﷺ ؛ لأن النبي كان يُبْعَثُ إلى قومه خَاصَّةً؛ ولذلك كان موسى رَسُولًا إلى بني إسرائيل فقط، ولم يكن رَسُولًا للعالمين، ولذلك لما سَلَّم موسى ـ عليه السلام ـ على الخَضِر، قال الخَضِرُ: وأَنَّى بأرضك السلام؟ قال له موسى: أنا موسى، قال الخَضِرُ: موسى بني إسرائيل؟! قال: نعم... أي أنت مبعوث إلى بني إسرائيل، ومنهم.

ولذلك لم تكن شريعة موسى لازمة للخضر، ولجميع الناس في زمانه، وأما بعد بعثة محمد ﷺ، فإنه لا يجوز شرعًا أن يكون هُنَاكَ من هو خَارِجٌ عن شريعته؛ لأن الرسول ﷺ رسول العالمين، لا يَسَعُ الخَضِرَ ولا غيره أن يتخلف عن الإيمان به واتباعه؛ ولذلك لا وجود بتاتًا للخَضِرِ، أو أمثاله، بعد بعثة الرسول محمد ﷺ »[2].

ولو طاوعتِ الأُمَّةُ الصوفيةَ، واتبعت مزاعمهم في هذا الباب؛ احتِجَاجًا باستغلالهم السيئ لقصة موسى والخَضِرِ ـ عليهما السلام ـ، لبطل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولَفُتِحَتِ الذريعة للزنادقة لاستحلال المحرمات، وإسقاط التكاليف؛ كما تذرعت إلى ذلك الباطنية بمفهومهم للباطن والظاهر.

إن قصة موسى والخَضِرِ حق من عند الله، أما استغلال الصوفية لها، فإنما يريدون به

---

(١) «مدارج السالكين»، (٢/٤٧٦).

(٢) «الفكر الصوفي»، ص: (١٣٢).

الباطل؛ وذلك لوجوه تسعة[١]:

الْوَجْهُ الأَوَّلُ: أن موسى ـ عليه السلام ـ كان يعلم منزلة الْخَضِرِ في العلم، وبأنه أكثر عِلْمًا منه، وهذا كافٍ لأخذ ما عند الخضر بلا إنكار ولا اعتراض، ومع ذلك فقد أنكر موسى عليه، بينما لم يُخْبِرِ الله العباد عن حقيقة صِدْقِ مشايخ وأولياء الصوفية، أو كذبهم، ولا أنزل فيهم ذِكْرًا يجعل الناس واثقين من أن ما يَرَوْنَهُ منهم من الأعمال المنكرة، قد يكون له تأويلات مشابهة لأعمال الْخَضِرِ.

فإنه حين سُئِلَ موسى ـ عليه السلام ـ: أي الناس أعلم؟ قال: أنا، فَعَتَبَ الله عليه؛ إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، فقال له: «بَلَى، لِي عَبْدٌ بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ: أَيْ رَبِّ مَنْ لِي بِهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ، حَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ»[٢]؛ أي يكون في المكان الذي أضعت عنده الحوت.

إذن، فموسى على علم بمنزلته في العلم، وبمكانه الذي يَلْقَاهُ عنده، بل وهو مأمور بملاقاته كما يُسْتَفَادُ ذلك من الحديث؛ قال الطبري:

«وكان موسى قد حَدَّثَ نفسه أنه ليس أحد أعلم منه أو تَكَلَّمَ به، فمن ثَمَّ أُمِرَ أن يأتي الْخَضِرَ».

الْوَجْهُ الثَّانِي: أن ما فعله الْخَضِرُ ـ عليه السلام ـ كان مأمورًا به، ولم يفعله من عنده؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾ [الكهف: ٨٢]، وقد ذهب المفسرون إلى أن الأمر ههنا هو الوحي ـ وفي مقدمتهم الرازي ـ؛ بحجة استحالة قتل غلام ونحوه، من غير حصول وحي قاطع يأمر بذلك، فهل مشايخ الصوفية مأمورون من الله بفعل المنكرات المخالفة لأوامره ونواهيه، ودينه الذي أتمه وارتضاه لعباده؟ وهل يحصل لهم الوحي في ذلك كما حصل لِلْخَضِرِ ـ عليه السلام ـ؟ إن قالوا بحصول الوحي

---

(١) منقولة بتصرف من «أبو حامد الغزالي والتصوف»، للشيخ عبد الرحمن دمشقية، ص: (٢٩٠ ـ ٢٩٦).
(٢) انظر: «فتح الباري»، (٦/ ٤٣١ ـ ٤٣٢).

فإنهم حينئذ دَجَاجِلَةٌ، لا فرق بينهم وبين مسيلمة الكذَّاب.

وإن نَفَوْا أن يكونوا قد فعلوا هذه المنكرات بمقتضى وحي ما، فإنه حينئذ يُقَالُ لهم: ما تفعلونه مخالف لما أوحاه الله على نبيه ﷺ ؛ فلا وجه يَصِحُّ في استدلالكم بقصة الخَضِرِ، وبأفعاله التي كانت وَحْيًا، ولم يفعلها عن أمره؟!

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أنهم باستدلالهم بقصة موسى والخَضِرِ ينتقصون من مكانة وقدر موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ فإنهم يُنَزِّلُونَهُ منزلة العوامِّ الذين يرون ظواهر الأعمال، ولا يتفطنون إلى معرفة حقائقها.

وهم ـ أي مشايخ الصوفية ـ يَدَّعُونَ أنهم يعرفون ذلك، ويُقَدِّمُونَ بذلك دَرَجَةَ العارف (الصوفي) على رتبة النبي[1]، جاعلين موسى في مصافِّ العوامِّ الذين لم ينالوا درجة الصوفي العارف.

الْوَجْهُ الرَّابِعُ: أنه لا يجوز الخروج على شريعة النبي محمد ﷺ إلى شريعة أخرى، وهذه القصة حدثت في بني إسرائيل لم نُؤْمَرْ بالتعبد بفعلها، قال ـ تعالى ـ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾، [البقرة: ١٣٤].

فقد أمر الله ـ تعالى ـ مريم وزكريا أن يُمْسِكَا عن الكلام ثلاثة أيام بقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦].

وقوله لزكريا ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠]؛ فهل يجوز أن يتخذ أحد من أمة محمد ﷺ من هذا الصيام عبادة له؛ فيصوم عن الكلام؛ مُسْتَدِلًّا بورود ذلك في القرآن؟ ومعلوم أن الخَضِرَ وموسى ـ بل وسائر الأنبياء ـ عليهم أفضل الصلوات وأتم التسليم ـ لو كانوا أحياءً لما وَسِعَهُمْ إلا أن يتبعوا شريعة النبي محمد ﷺ ؛ لأن النبي كان يُرْسَلُ إلى قومه خاصَّةً،

(١) كما قال ابن عربي في «الفصوص»، (١/٦٢، ١٣٤).

ونبينا ﷺ أُرْسِلَ إلى النَّاسِ عامَّة - إنْسِهِمْ وجِنِّهِمْ - وحين يَنْزِلُ المسيح آخر الزمان؛ فإنه يحكم بين الناس بشريعة القرآن، لا يحكم بإنجيل ولا توراة.

والمسيح - عليه السلام - هو من الرسل الخمسة أولي العزم، وهو خاتم أنبياء بني إسرائيل، ومع هذا فإنه يَتَّبِعُ ما أنزل إلى نبينا ﷺ، ويحكم بين الناس فيه.

الْوَجْهُ الْخَامِسُ: أن موسى والْخَضِر - عليهما السلام - لم يخرجا عن الشريعة والنصوص في شيء، وإنما كان موقف موسى مع الْخَضِرِ كموقف الْمُجْتَهِدِ المتمسك بعموم الدليل مع صاحب النص الخاصِّ المتمسك بالدليل الخاصِّ، وكلاهما على الدليل يعتمد، ومن الشريعة يستقي؛ لأن هذا مأمور، وذاك مأمور.

الْوَجْهُ السَّادِسُ: أَنَّ الْخَضِرَ لم ينكر على موسى إنكاره عليه مطلقًا، بل أنكر عليه إقدامَهُ على الإنكار قبل أن يسأله عن مأخذه الشرعي، مع أنه حَذَّرَهُ أنه لن يستطيع معه الصبرَ على ما لم يُحِطْ به خُبْرًا.

وَثَانِيًا: أنه اشترط عليه أن لا يسأله عن شيء حتى يُحْدِثَ له منه ذِكْرًا، ولكن كان من شأن موسى - عليه السلام - وطبعه أن يسارع في الحق؛ كما قص الله - تعالى - علينا من خبر إقدامه على قتل القبطي، وأخذه بلحية أخيه هارون ورأسه، وإلقائه الألواح، وقد بادر ههنا إلى قوله: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ [الكهف: ٧٦].

ولهذا قال النبي ﷺ: «رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى، لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لأَبْصَرَ الْعَجَبَ»[(١)].

فأين هذا من أوامر الصوفية الصريحة بعدم الاعتراض على الشيخ مهما ارتكب من المحرمات الظاهرة، فإن مُجَرَّدَ الاعتراض أو الاستدراك على الشيخ مُوجِبٌ عندهم للمقت، والطرد من رحمة الله، وسلب المال، والسقوط في امتحان الشيخ؛ كما يُلَفِّقون.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري»، (١٥/ ١٨٦)، و«فتح الباري»، (٨/ ٤٢٤).

الْوَجْهُ السَّابِعُ: أن إنكار موسى يستدل منه على أن الفطر السليمة، الخالصة من شوائب العبودية والتقديس لغير الحق الذي أنزله الله ـ لا بد وأن تُنْكِرَ الْمُنْكَرَ، وكل الناس مأمورون بذلك؛ عَمَلًا بقوله ـ تعالى ـ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ولم يُسْتَثْنَ من هذه الآية شَيْخٌ، ولا ولي، بل ولا صحابي أو تابعي، وقد كان الصحابة يُنْكِرُ الواحد منهم على الآخر إن خالف في شيء ما، فإذا كان ذلك يقع بين الصحابة ـ وهم أفضل أولياء الله على الإطلاق ـ؛ فما بالك بأولياء الصوفية إن كانوا أولياء لله حقا؟! ثم إن الله أمرنا أن نُنْكِرَ الْمُنْكَرَ، في حين أنه لم يُؤْتِنَا عِلْمَ الغيب الذي يمكن معه معرفة حقيقة مراد الشيخ الصوفي بالمنكر الذي يزعم أنه يبدو منكرًا في ظاهره.

فترك الْمُنْكَرِ بحجة ما حصل بين موسى والْخَضِرِ لا حجة فيه، بل الحجة كل الحجة في الإنكار على من خالف شرع الله في شيء ما؛ لأن الوعيد الوارد في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثير من الآيات والأحاديث، وقد لُعِنَ بنو إسرائيل بسبب تركهم هذا الأصلَ العظيمَ من أصول الدين، والذي به يُحْفَظُ الدين من فساد المفسدين، وضلال الْمُضِلِّينَ، وبِدَعِ الْمُبْتَدِعِينَ، الذين يأخذون ما تشابه من قصة موسى والْخَضِرِ ـ عليهما السلام ـ، ويتركون الْمُحْكَمَ من الآيات والأحاديث الدالَّة على حِلِّ الطَّيِّبات، وتحريم الخبائث.

وعلامة ضلالهم أنهم لا يَحُثُّونَ الناس على العمل بهذا الأصل، ولا يُذَكِّرُونَهُمْ بقوله ـ تعالى ـ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

وإنما يُحَذِّرُونَهُمْ من الإنكار؛ مُسْتَدِلِّينَ بقصة موسى والْخَضِرِ التي لا تشهد إلا ضدهم، وبالحديث القدسي: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»، لكن الحديث لم يَغْنِهِمْ بذلك؛ لأن أولياء الله ليسوا مُخَرِّفَةً ولا مُبْتَدِعَةً، فلا يرقصون عند السماع، ولا

يجعلون دعاءهم لله مُكاءً وتصديةً، ولا ينشرون الوثنية والدَّجَلَ بين العوامِّ.

الْوَجْهُ الثَّامِنُ: أن فَهْمَ المتصوفة للقصة فهم شاذٌّ، وتأسيسهم بها شَاذٌّ - أيضا -؛ فالصحابة، والتابعون، وتابعو التابعين - لم يفهموا منها هذا الفَهْمَ، ولم يبنوا عليها منهجًا يُرتِّب على أساسها العلاقة بين المريد والشيخ، ولا يُعْقَلُ أن يكون المتصوفة قد انفتح عليهم من فَهْمِ هذه الآية، وأُخْفِيَ على أولئك الأفاضل الذين لم يُقَلِّدْ أحد منهم - ولا أفاضل الأئمة - فيما بينهم - ما حَدَثَ بين موسى والخَضِرِ، حتى جاء الصوفية، وتذرعوا بتلك القصة؛ تلبيسًا منهم على عوامِّ الخلق.

الْوَجْهُ التَّاسِعُ: إذا كان الخَضِرُ - عليه السلام - قال لموسى - عليه السلام -: «يَا مُوسى، إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِن علمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لَا تَعْلَمُهُ»، وإذا كان هذا خروجًا من الخَضِرِ عن شريعة موسى في هذا الباب، فإن ذلك لا يجوز قوله في شريعة محمد ﷺ، التي قال الله فيها: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فما خَرَجَ الخَضِرُ عن شريعة موسى في هذا الباب إلا لشرع آخر من الله أمره به، أما شريعة سيدنا محمد ﷺ، فإنها باقية إلى قيام الساعة، ولا يُسْتَبْدَلُ أو يُسْتَغْنَى عنها بشيء آخر البتة، ولا يجوز أن يقول قائل: أنا على علم من الله لم يُؤْتَهُ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ إِذْ ما نُزِّلَ عليه ﷺ هو المصدر الوحيد الذي يجب أن يكون مشكاة للمسلمين كُلِّهِمْ، لا يُسْتَثْنَى منهم أحد في الخروج عنه، وقد قال - تعالى -: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

فذلك تأكيد من الله على عدم حصول وحي منه على أحد غير النبي ﷺ، وهو في الوقت نَفْسِهِ يفيد تحريم أخذ شيء من الأمور التعبدية عن غير هذا الطريق.

* * * * *

الْبَابُ الرَّابِعُ

الْفَصْلُ الْأَوَّل: ذِكْرُ الِاخْتِلَافِ فِي الْمَهْدِيِّ، وَأَشْهَرِ مَنِ ادَّعَى الْمَهْدِيَّةَ، أَوِ ادُّعِيَتْ لَهُ، وفيه فصل عن مهدي المغاربة ابن تومرت

الْفَصْلُ الثَّانِي: حَرَكَتَا الْمَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ، وَالْمَهْدِيِّ الْقَحْطَانِيِّ.

الفصل الثالث: ضوابط الحكم على مُدَّعي المهدية.

الْفَصْلُ الأَوَّلُ

ذِكْرُ الِاخْتِلَافِ فِي الْمَهْدِيِّ
وَأَشْهَرِ مَنِ ادَّعَى الْمَهْدِيَّةَ أَوِ ادُّعِيَتْ لَهُ

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

ذِكْرُ الِاخْتِلَافِ فِي الْمَهْدِيِّ، وَأَشْهَرِ مَنِ ادَّعَى الْمَهْدِيَّةَ، أَوِ ادُّعِيَتْ لَهُ

قال جمهور أهل السنة: «إنه من أهل بيت النبي ﷺ، من ولد الحسن بن علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ، يخرج في آخر الزمان، وقد امتلأت الأرض ظلمًا وجورًا، فيملؤها قِسْطًا وعَدْلًا، وهذا هو القول الصحيح الذي تشهد له الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، وأقره كبار المُحَدِّثِينَ، والْحُفَّاظ، والمحققين في القديم، والحديث، إلا من لا يعتد بخلافه»، وقد سبق بيان ذلك بالتفصيل.

ـ وادَّعى بعضهم أنه **المسيح عيسى ابن مريم** ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ اعتمادًا على الحديث المنكر: «لَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ»، وقد سبق رد هذا القول، وتضعيف الحديث[1].

ـ لقد راودت فكرة المهدية كثيرًا من الناس، حتى ادعاها بعضهم لنفسه؛ إما لوجود «بعض» العلامات فيه، أو لِتَكَلُّفِهِ الاتِّصَافَ بها.

ـ ومنهم فِرَقٌ ضالَّة حوَّرت فكرة المهدية، وتناولتها بالتعديل والتحريف؛ لينطبق وصفها على شخص معين تمحوروا حوله على أنه المهدي المنتظر.

ـ ومنهم من لم يَدَّعِ المهدية لنفسه إطلاقًا، ولكنه كان متحليًا بصفاتٍ طيبة جعلت مُحِبِّيه وأتباعه المبهورين به يَدَّعون أنه المهدي المنتظر.

ـ ومنهم من اجتمع فيه صفات طيبة، وإنجازات واقعية رائعة، في خدمة الدين، ولم يَدَّعِ المهدية لنفسه، ولا ادَّعاها له أحد، ولكن أُطْلِقَ عليه وصف «المهدي» بالمعنى العام

---

(١) انظر ص (١٤٩).

لا الخاص.

ـ ومن مُدَّعِي المهدية من طَبَعَ أَثَرًا عميقًا في أحداث التاريخ؛ حيث قامت له دعوة وكِيان، ومنهم من خمل ذِكْرُهم؛ فعاشوا وماتوا دون أضواء ولا ضوضاء.

وفي هذا الفصل نستعرض أشهر مُدَّعِي المهدية، أو مَن ادُّعِيَتْ لهم المهدية، وقد نبسط سيرة بعضهم؛ لما فيها من الدروس والعبر لكل من تراوده نفسه أن يدعي المهدية لنفسه، أو يَدَّعِيَهَا لغيره، والله ـ تَعَالَى ـ من وراء القصد.

(١) علي بن أبي طالب أمير المؤمنين رضي الله عنه (ت ٤٠ هـ).

ادعى عبدالله بن سبإ[١] اليهودي الزنديق الْمُتَمَسْلِمُ أن عَلِيًّا رضي الله عنه هو المهدي الْمُنْتَظَرُ، وأنه يرجع إلى الدنيا قبل يوم القيامة، فيملأ الأرض عدلًا كما مُلِئَتْ جَوْرًا.

ولما قُتِلَ علي رضي الله عنه زعم ابن سبإ أن المقتول لم يكن عليًّا، وإنما كان شيطانًا تصور للناس في صورة علي رضي الله عنه، وأن عليًّا صعد إلى السماء، كما صعد إليها عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ[٢]، وزعم أنه الذي يجيء في السَّحاب، وأن الرعد صوته، والبرق تبسمه[٣].

وقد قيل لابن سبإ: إن عليًّا قد قُتِلَ، فقال: «إن جئتمونا بدماغه في صرة لم نصدق بموته، لا يموت حتى ينزل من السماء، ويملك الأرض بحذافيرها»[٤].

● يقول الدكتور عبدالعليم البستوي ـ حفظه الله ـ:

(لقد كان هدف عبدالله بن سبإ الأساسي هو إثارة الفتن والقلاقل بين المسلمين من

(١) أصله من اليمن، وكان يهوديًّا فأظهر الإسلام، وطاف بلاد المسلمين ليلفتهم عن طاعة الأئمة، ويُدخل بينهم الشر، قال فيه الذهبي: «من غلاة الزنادقة، ضالٌّ مُضِلٌّ»، وقد كان أبرز زعماء الفتنة الدامية التي انتهت بمقتل أمير البررة، وقتيل الفجرة؛ عثمان بن عفان رضي الله عنه وادَّعى إلهية عليٍّ رضي الله عنه.

(٢) «الفرق بين الفرق» ص (٢٣٣).

(٣) «الملل والنحل» (١/١٧٤).

(٤) «التنبيه والرد» ص (١٨)، و«الفِصَل» (٤/١٨٠)، و«الملل والنحل» (١/١٧٤).

كل وجه ممكن، وإفساد عقائدهم بأي طريق، ولقد وحد في التظاهر بحب أهل البيت منفذًا كبيرًا، ومرتعًا خَصِبًا لتحقيق مآربه التخريبية.

فقد كان المسلمون جميعًا ينظرون إلى أهل بيت الرسول ﷺ نظرة حب وتقدير؛ لمنزلتهم من الرسول ﷺ، وكان من السهل جدًّا إثارة عواطف عامَّة المسلمين، بحجة الدفاع عن أهل البيت، والولاء لهم وتأييدهم.

وهكذا حدث؛ فقد استغل عبدالله بن سبإ هذه الناحية، وكذلك كل الذين شايعوه، ومشوا على فكرته في جميع العصور حسب مصالحهم، وأغراضهم، وأهوائهم السياسية، والمادية، ومن هنا نرى فرق الشيعة جميعًا على فكرة الرجعة لمن اختارته لها مهديًّا، إلا أن السر في تعدد أحزابهم هو ما كانت تُمْلِيهِ ظروفهم السياسية، وأهواؤهم المادية، وأغراضهم المختلفة، فكلما سولت لأحدهم نفسه أن يُغَامِرَ بطلب الوِلاية، والرياسة، أو المنافع الأخرى، اختار له مهديًّا، وتظاهر بالدعوة إلى إمامته، فإذا مات ذلك المهدي المزعوم قبل أن تتحقق مآربه، ادعى أنه غاب، ولم يمت، ولا بد أن يرجع قبل يوم القيامة، فيملأ الأرض عدلًا كما ملئت جَوْرًا، وظُلْمًا، ومن هنا كثر المهديون عندهم)[١].

(٢) مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ[٢] ـ رحمه الله ـ تَعَالَى (ت ٨١هـ).

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: (كان أول أمر المختار أن ابن الزبير أرسله إلى الكوفة؛ ليؤكد له أمر بيعته، فأظهر المختار أن ابن الزبير دعا في السر للطلب بدم الحسين، ثم أراد تأكيد أمره، فادَّعى أن محمد بن الحنفية هو المهدي الذي سيخرج في

---

(١) «المهدي المنتظر» ص (٦٣).

(٢) هو أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام، وهو أخو الحسن والحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ، غير أن أمهما فاطمة الزهراء ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ، وأمه خولة بنت جعفر الحنفية، ينسب إليها تمييزًا له عنهما، كان واسع العلم، ورعًا، قويًّا، شجاعًا.

آخر الزمان، وأنه أمره أن يدعو الناس إلى بيعته، وزَوَّرَ على لسانه كتابًا[١]، فدخل في طاعته جمعٌ جَمٌّ، فَتَقَوَّى بهم، وتتبع قَتَلَةَ الحسين، فقتلهم، فَقَوِيَ أمره بمن يحب أهل البيت)[٢].

وذكر الشهرستاني (أن المختار بن أبي عبيد[٣] قال بإمامة محمد بن الحنفية بعد علي، ولما وقف محمد بن الحنفية على ذلك تبرأ منه)[٤].

وقال عبدالقاهر البغدادي: (ثم رفع خبر المختار إلى ابن الحنفية، وخاف من جهته الفتنة في الدين، فأراد قدوم العراق ليصير إليه الذين اعتقدوا إمامته، وسمع المختار ذلك، فخاف من قدومه العراق ذهابَ رياسته وولايته، فقال لجنده: «إنا على بيعة المهدي، ولكن للمهدي علامة، وهو أن يضرب بالسيف ضربة، فإن لم يقطع السيف جلده فهو المهدي»، وانتهى قوله هذا إلى ابن الحنفية، فأقام بمكة خوفًا من أن يقتله المختار بالكوفة[٥].

وقد اتفقت فِرَقُ الكَيْسانية[٦] كلُّها على إمامة ابن الحنفية في حياته، ولكن بعدما مات أقر قوم منهم بموته[٧]، وحوَّلوا الإمامة إلى غيره على خلاف كثير فيهم، وقال قوم آخرون: إنه حي، ولم يَمُتْ، وإنه في جبل رَضْوَى[٨]، وعنده عين من الماء، وعين من العسل، يأتيه رزقه غدوًّا، وعشيًّا، تُحَدِّثه الملائكة، وعن يمينه أسد، وعن يساره نمر،

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: (وذلك عن غير أمر ابن الحنفية ورضاه، وإنما يتقولون عليه ليروجوا على الناس به، وليتوصلوا إلى أغراضهم الفاسدة). اهـ من: «البداية والنهاية» (٨/٢٤٨).

(٢) «الاحتجاج بالأثر» ص (١٢٣).

(٣) هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي، كان يدعي الكهانة، وكان شديد الكذب، ومن أقبحه: أنه ادعى أن جبريل ـ عليه السلام ـ يأتيه، وكان يقول بالبَداء، وقد اتفق العلماء ـ كما قال النووي ـ على أنه الكذَّاب المراد بقول النبي ﷺ: «إن في ثقيف كذَّابًا ومُبيرًا» رواه مسلم، وأن المبير هو الحجَّاج بن يوسف، كما في «شرح النووي» (١٥/١٠٠).

(٤) «الملل والنحل» (١/١٤٨).

(٥) «الفرق بين الفرق» ص (٤٧).

(٦) نسبة إلى كَيْسان، لقب المختار بن أبي عبيد، وقيل: كيسان مولى علي رضي الله عنه.

(٧) مات ابن الحنفية سنة ٨١، وصلى عليه أبان بن عثمان بن عفان والي المدينة، ودُفِنَ بالبقيع.

(٨) جبل على مسيرة يوم من ينبع، وعلى سبع مراحل من المدينة ـ «معجم البلدان» (٣/٥١).

يحفظانه من أعدائه، إلى وقت خروجه، وأنه صاحب الزمان يخرج، ويقتل الدجَّال، ويهدي الناس من الضلالة، ويُصْلِحُ الأرض بعد فسادها، ولم يَمُتْ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلًا، كما ملئت جَوْرًا[(١)].

قال الحِمْيَرِيُّ ـ، وكان ممن ينتظرون رجعة محمد بن الحنفية ـ:

يَا شِعْبَ رَضْوَى قَاطِنٌ بِكَ لَا يُرَى ... حَتَّى مَتَى تَخْفَى وَأَنْتَ قَرِيبُ
يَا بْنَ الْوَصِيِّ وَيَا سَمِيَّ مُحَمَّدٍ ... وَكَنِيَّهُ نَفْسِي عَلَيْكَ تَذُوبُ
لَوْ غَابَ عَنَّا عُمْرَ نُوحٍ أَيْقَنَتْ ... مِنَّا النُّفُوسُ بِأَنَّهُ سَيَئُوبُ[(٢)]

وقال كُثَيِّرُ عَزَّة، وكان على مذهب الكيسانية:

أَلَا قُلْ لِلْوَصِيِّ فَدَتْكَ نَفْسِي ... أَطَلْتَ بِذَلِكَ الْجَبَلِ الْمَقَامَا
أَضَرَّ بِمَعْشَرٍ وَالَوْكَ مِنَّا ... وَسَمَّوْكَ الْخَلِيفَةَ وَالْإِمَامَا
وَعَادَوْا فِيكَ أَهْلَ الْأَرْضِ طُرًّا ... مَقَامُكَ عَنْهُمُ سِتِّينَ عَامَا
وَمَا ذَاقَ ابْنُ خَوْلَةَ طَعْمَ مَوْتٍ ... وَلَا وَارَتْ لَهُ أَرْضٌ عِظَامَا
لَقَدْ أَمْسَى بِمَجْرَى شِعْبِ رَضْوَى ... تُرَاجِعُهُ الْمَلَائِكَةُ الْكَلَامَا
وَإِنَّ لَهُ لَرِزْقًا كُلَّ يَوْمٍ ... وَأَشْرِبَةً يُعِلُّ بِهَا الطَّعَامَا[(٣)]

وقال ـ أيضًا ـ:

أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ ... وُلَاةَ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءُ
عَلِيٌّ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ ... هُمُ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خَفَاءُ
فَسِبْطٌ سِبْطُ إِيمَانٍ وَبِرٍّ ... وَسِبْطٌ غَيَّبَتْهُ كَرْبَلَاءُ
وَسِبْطٌ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى ... يَقُودَ الْخَيْلَ يَقْدُمُهَا اللِّوَاءُ

---

(١) انظر: «مقالات الإسلاميين» (٩٢/١)، «الملل والنحل» (١٥٠/١)، «التنبيه والرد» ص (١٩)، «الفرق بين الفرق» ص (٣٦).
(٢) «المهدية في الإسلام» ص (١٥٩).
(٣) «الفرق بين الفرق» ص (٤٢)، «الأغاني» (١٤/٩).

تَغَيَّبَ لَا يُرَى فِيهِمْ زَمَانًا بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءُ[١]

وقال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية»:

(وقد ذهب طائفة من الرافضة إلى إمامته، وأنه يُنْتَظَرُ خروجه في آخر الزمان، كما يَنْتَظِرُ طائفة أخرى منهم الحسن بن محمد[٢] العسكري، الذي يخرج - في زعمهم - من سرداب سامَرَّاء، وهذا من خرافاتهم، وهذيانهم، وجهلهم، وضلالهم، وتُرَّهَاتِهِم)[٣]. اهـ.

(٣) سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِالْمَلِكِ الخليفة الأُمَوي (ت ١٠٠هـ)

من خيار ملوك بني أمية، كان - رحمه الله - دَيِّنًا فصيحًا مُفوَّهًا عادلًا محبًّا للغزو.

عن ابن سيرين قال: «يرحم الله سليمان؛ افتتح خلافته بإحياء الصلاة، واختتمها باستخلافِهِ عُمَرَ»[٤].

وقال الفرزدق في سليمان بن عبدالملك:

وَأَلْقَيْتَ مِنْ كَفَّيْكَ حَبْلَ جَمَاعَةٍ وَطَاعَةَ مَهْدِيٍّ شَدِيدِ النَّقَائِمِ[٥]

وقال جرير فيه - أيضًا -:

سُلَيْمَانُ الْمُبَارَكُ قَدْ عَلِمْتُمْ هُوَ الْمَهْدِيُّ قَدْ وَضَحَ السَّبِيلُ[٦]

وقال نَهار بن تَوْسِعة في سليمان بن عبدالملك:

لَهُ رَايَةٌ بِالثَّغْرِ سَوْدَاءُ لَمْ تَزَلْ تُفَضُّ بِهَا لِلْمُشْرِكِينَ جُمُوعُ

مُبَارَكَةٌ تَهْدِي الْجُنُودَ كَأَنَّهَا عُقَابٌ نحت من ريشها الوُقُوعُ

---

(١) «مقالات الإسلاميين» (٩٣/١)، «الفرق بين الفرق» ص(٤١).

(٢) كذا في الأصل، وصوابه: «محمد بن الحسن».

(٣) «البداية والنهاية» (٣٩/٩).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١١٢/٥).

(٥)، (٦) «المهدية في الإسلام» ص (٦٤).

عَلَى طَاعَةِ الْمَهْدِيِّ لَمْ يَبْقَ غَيْرُهَا فَأُبْنَا وَأَمْرُ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعُ[١]

وعن حكيم بن سعد قال: لما قام سليمان، فأظهر ما أظهر، قلت لأبي يحيى: «هذا المهدي الذي يُذكر؟» قال: «لا»[٢].

(٤) عُمَرُ بْنُ عَبْدِالْعَزِيزِ، خامس الخلفاء الراشدين المهديين، (ت١٠١هـ) - رحمه الله - تعالى -.

مجدد المئة الأولى، شاع عدله، وذاع فضله، حتى ظن البعض أنه المهدي الْمُبَشَّرُ به، قال وهب بن منبه: «إن كان في هذه الأمة مهدي، فهو عمر بن عبدالعزيز»[٣]، وعن عبدالجبار بن أبي معن قال: سمعت سعيد بن المسيب، وسأله رجل، فقال له: «يا أبا محمد، مَنِ الْمَهْدِيُّ؟»، فقال له سعيد: «أدخلت دار مَرْوان؟»، قال: «لا»، قال: «فادخل دار مروان تَرَ المهديَّ»، قال: فأذن عمر بن عبدالعزيز للناس، فانطلق الرجل حتى دخل دار مَرْوان، فرأى الأميرَ والناسَ مجتمعين، ثم رجع إلى سعيد بن المسيب، فقال: «يا أبا محمد، دخلتُ دار مروان، فلم أر أحدًا أقول: هذا المهدي»، فقال له سعيد بن المسيب، وأنا أسمع: «هل رأيت الأشجَّ عمر بن عبدالعزيز القاعد على السرير؟»، قال: نعم، قال: «فهو المهدي»[٤].

وعن العزرمي قال: سمعت محمد بن علي يقول: «النبي منا، والمهدي من بني عبد شمس، ولا نعلمه إلا عمر بن عبد العزيز»[٥].

وعن إبراهيم بن ميسرة قال: قلت لطاووس: «عمر بن عبدالعزيز المهدي؟»، قال:

---

(١) «ضحى الإسلام» (٢٣٦/٣)، وفي قوله: «عُقاب نحت من ريشها الوقوع» اضطراب!

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف».

(٣) «تاريخ الخلفاء» ص (٢١٦).

(٤)، (٥) «الطبقات الكبرى» (٢٤٥/٥)، و«تهذيب التهذيب» (٣٥٠/١٠)، وراجع حديث جابر رضي الله عنه المتقدم ص (٤٤).

«كان مهديًّا، وليس بذاك المهدي»[١].

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ: (لا ريب أنه كان راشدًا مهديًّا، ولكن ليس بالمهدي الذي يخرج في آخر الزمان)[٢]. اهـ.

(٥) مُوسَى بْنُ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِاللَّهِ (ت١٠٣هـ)

وهو ممن وصفه الناس بالمهدية، ولم يَدَّعِها لنفسه، كان إمامًا قدوة، من الأتقياء الصلحاء الفصحاء، قال الذهبي: «قيل: كان موسى يُسَمَّى المهديَّ»[٣]، وقال خالد بن سُمَيْر: «وكان في زمانه يرون أنه المهدي»[٤].

(٦) الحَارِثُ بْنُ سُرَيْجٍ (ت ١٢٨هـ).

خرج على أمير خراسان (١١٦هـ) في زمن الخليفة هشام بن عبدالملك، وزعم أنه يدعو إلى الكتاب، والسنة، وأنه صاحب الرايات السود، واستولى على بعض البلاد من خراسان، ثم انهزم أمام الجيش الأموي، وهرب إلى بلاد الترك، حيث مكث اثنتي عشرة سنة، ولما كتب له يزيد بن الوليد بالأمان، رَجَعَ إلى بلاد المسلمين، ولما تولى الخلافة مَرْوان بن محمد خرج من جديد، وكان يؤيده في دعواه الجهم بن صفوان، ويقرأ على الناس سيرته في المساجد، والطرقات، إلى أن تصدى له نصر بن سَيَّار أمير خراسان، فقتل كثيرًا من أصحابه، ومنهم الجهم بن صفوان، ثم وقع قتال بين الحارث وحليفه جديع بن علي الأزدي الكرماني، فانهزم أصحاب الحارث، فقُتِلَ مع مئة من أصحابه في رجب ١٢٨هـ، وأمر الكرماني بصلب الحارث بلا رأس على باب مرو[٥].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف».
(٢) «المنار المنيف» ص (١٥٠).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/٣٦٥).
(٤) «السابق» (٤/٣٦٦).
(٥) انظر: «الكامل»، لابن الأثير، (٥/١٧-٢٠)؛ و«البداية والنهاية»، لابن كثير، (١٠/٢٦-٢٧).

(٧) مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ «النفس الزكية» (ت ١٤٥هـ)

هو مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ الْهَاشِمِيُّ أَبُو عَبْدِاللَّهِ الْمَدَنِيُّ، اشْتُهِرَ بالعلم والزهد، حتى لُقِّبَ بـ«النفس الزكية»، وكان من سادات بني هاشم علمًا، وشجاعة، وكرمًا، كان صَوَّامًا قَوَّامًا من الصالحين، سَمَّاهُ أهل بيته بالمهدي، ولعله اقتنع بأنه الْمُبَشَّرُ به في الأحاديث خاصة، وأن اسمه محمد بن عبدالله، وأنه من ولد فاطمة ـ عليها السلام ـ، وهو يرى ظلم ملوك الدولة الأموية، وكان النفس الزكية قد بايعه جماعة من أهل الحجاز في أواخر دولة مَرْوَان الحمار بالخلافة، وكان من بينهم أبو جعفر المنصور، الذي أصبح فيما بعد الخليفة العباسي الثاني، بعد وفاة أبي العباس السفَّاح في أواخر سنة ١٣٦هـ.

فلما بُويعَ المنصور بالخلافة اختفى محمد، ومعه أخوه إبراهيم؛ خوفًا من المنصور أن يَبْطِشَ بهما، وخاف المنصور أن يخرجا عليه يُطَالِبَانِهِ بالخلافة، ولما لم يتمكن المنصور من القبض عليهما قَبَضَ على أبيهما، وجماعة من أقاربهما، وحبسهم في سجن المدينة، ثم نقلهم إلى العراق، ومات كثير منهم في السجن.

فلما ضاق محمد ذرعًا بالاختفاء، تواعد هو وأخوه بالظهور في يوم واحد، فظهر محمد في المدينة، وهجم على أمير المدينة، وسجنه، ثم استولى على المدينة، كما استولى أخوه على البصرة في اليوم نفسه، وبايعه أهل المدينة، وتلقب بالمهدي[(١)]، وقد صرح بمهديته في بعض رسائله إلى المنصور.

قال ابن كثير: «تَلَقَّبَ بالمهدي؛ طمعًا أن يكون هو المذكور في الأحاديث، فلم يكن به، ولا تم له ما رجاه، ولا ما تَمَنَّاهُ، فإنا لله!»[(٢)].

وجرت بينه وبين المنصور مكاتبات كلٌّ منهما يعد فضائله، وحقه للخلافة،

---

(١) انظر: «مقاتل الطالبين» ص (٢٣٢)، وما بعدها.

(٢) «البداية والنهاية» (٨٤/١٠).

والإمارة، ولكن لم تَنْحَلَّ المشكلة بالمكاتبات، فجرت معاركُ طاحنةٌ كادت أن تغير مسار التاريخ، إلى أن وجَّه المنصور جيشًا قوامه عشرة آلاف جندي، بقيادة عيسى بن موسى العباسي، ودافع «النفس الزكية» وأصحابه بضراوة، ولكنهم لم يستطيعوا أن يصمدوا أمام الجيش العباسي، وكان المصير أن قُتِلَ محمدٌ النفسُ الزكية، وهو ينادي: «وَيْحَكُم! ابنُ نبيكم مجروحٌ مظلومٌ»، وكان ذلك في ١٤ رمضان سنة ١٤٥هـ[(١)].

لقد دخل في رُوع «النفس الزكية» أنه المهدي الموعود، «ولم ينتبه إلى السنن الكونية، وأن ظهور المهدي لا بد له من مقدمات يستطيع فيها أن يحكم المسلمين حكمًا إسلاميًّا صحيحًا، وأن المهـدي في آخـر الزمان عـند نزول عيسى - عليه السلام -»[(٢)] هـ.

وادَّعى بعض «الجارودية» أنه حي لم يُقْتَلْ، ولا مات، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلًا كما مُلِئَتْ جَوْرًا[(٣)]، وزعم «المُحَمَّدِيَّةُ» أنه في جبل حاجر من ناحية نجد، إلى أن يُؤْمَرَ بالخروج فيخرج، ويملك الأرض، ويُبَايَع له بمكة بين الركن، والمقام[(٤)].

(٨) المهدي بن المنصور ثالث خلفاء بني العباس (ت ١٦٩هـ)

زعم بعضهم أنه المهدي المنتظر، وقد مضى زمانه، «واستدلوا بآثار موضوعة، وعلى تقدير صحتها لا تدل على أن المهدي العباسي هو المهدي الذي يخرج في آخر الزمان، بل هو مهدي من جملة المهديين الذي قال فيهم رسول الله ﷺ (عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي)، ومنهم في ذلك الوصف العام عمر بن

---

(١) «السابق» (٨٩/١٠).

(٢) «حركة النفس الزكية»، للأستاذ/ محمد سليمان العبدة - حفظه الله - ص (٦٩).

(٣) «الفصل» (١٧٩/٤).

(٤) «الفرق بين الفرق» ص (٥٨)، «مقالات الإسلاميين» (٩٩/١)، وانظر: «المهدي المنتظر» للبستوي، ص (٢١٣-٢١٥).

عبدالعزيز رضي الله عنه، بل هو أولى بهذه الصفة من المهدي العباسي»[١].

(٩) المهدي الخرافة مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيُّ (الإمام الغائب المزعوم):

يزعم الشيعة الإمامية الاثنا عشرية أن الإمامة تكون بالنص الإلهي، وأن النبي ﷺ نص على أن الإمامة تبدأ من ولاية علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتنتهي بإمامة محمد بن الحسن «المهدي»، وهو إمامهم الثاني عشر الذي يزعمون أنه ولد من جارية، ثم غاب عن أنظار الناس.

لقد اخترع الشيعة هذه الخرافة ليخرجوا من المأزق الذي تورطوا فيه؛ حيث إنهم يعتقدون أن الإمام لا يموت حتى يُوصِيَ من يكون خَلَفًا له. يروي الكليني عن جعفر الصادق أنه قال: «لا يموت الإمام حتى يعلم من يكون بعده، فيوصي إليه»[٢]، وروى عنه - أيضًا - قوله: «لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت»[٣].

كما أنهم زعموا أن الإمامة منحصرة في أولاد الحسين بن علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، ثم وقعت الورطة الكبرى حين تُوُفِّي الحسن العسكري، ولم ينجب أولادًا[٤]، وأصبح مذهبهم الضالُّ مهددًا في وجوده، ومِن ثَم ادَّعوا - تسويغًا لاستمرار الإمامة - أنه ولد له ولد، غير أنه اختفى في سرداب في بيت أبيه، ولكن لا يجوز البحث عنه، ولا السؤال عن مكانه، وقد اختلفوا اختلافًا شديدًا في وقت ميلاده، ومن هي أمه؟ وهل هو مستور غُيِّبَ دون أن يراه أحد؟ أو شُوهِدَ قبل الغيبة، أو بعدها؟ ومتى غاب[٥]؟

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» (٦/٢٤٧-٢٤٨)، (١٠/١٥١ - ١٥٦)، و«المنار المنيف» ص (١٥٠).

(٢) «أصول الكافي»، للكليني، (٢٧٧).

(٣) «السابق» ص (١٧٩).

(٤) فقد جاء في «أصول الكافي»: «أن الإمام الحسن العسكري ولد في رمضان عام ٢٣٢هـ، وتُوُفِّيَ بعد أن عاش ثمانية وعشرين عامًا، بدون أن ينجب وَلَدًا، حسب رواية أخيه جعفر بن علي». اهـ، ص (٢٠٦).

(٥) انظر: «الملل والنحل» (١/١٧١-١٧٣)، و«فرق الشيعة»، للنوبختي، ص (٩٠-٩٢)؛ و«الفِصَل» (٥/٢١-٢٢).

لقد افترق الشيعة بعد وفاة الحسن العسكري إلى أربَعَ عشرةَ فرقة، لم تعترف بالمهدي المزعوم منها غيرُ ثلاث، وأنكرت الباقياتُ أن يكون له ولد أصلًا[١].

ويقول الشيخ محب الدين الخطيب ـ رحمه الله ـ مبينًا ارتباط اعتقادهم في المهدي الخرافة باعتقادهم في الرجعة:

(... ومن عقائدهم الأساسية أنه عندما يقوم المهدي ـ وهو إمامهم الثاني عشر ـ من نومته الطويلة، التي زادت على ألف ومئة سنة، سيُحيي الله له ولآبائه جميع حُكَّام المسلمين السابقين، مع الحُكَّام المعاصرين لقيامه، وعلى رأس الجميع الجبت والطاغوت (أبو بكر، وعمر) ـ في زعمهم قبحهم الله ـ فَمَن بعدهما، فيحاكمهم على اغتصابهم الحكم منه، ومن آبائه الأحد عشر إمامًا؛ لأن الحكم في الإسلام حق لهم من الله، مُنْذُ تُوُفِّي رسول الله ﷺ إلى أن تقوم الساعة، ولا حق فيه لأحد غيرهم.

وبعد محاكمة هؤلاء الطواغيت المغتصبين يقتص منهم، فيأمر بقتل وإعدام كل خمس مئة معًا، حتى يستوفي قتل ثلاثة آلاف من رجال الحكم في جميع عصور الإسلام، ويكون ذلك في الدنيا قبل البعث النهائي في يوم القيامة، ثم بعد موت من يموت، وإعدام من يُعْدَمُ، يكون البعث الأكبر للحشر، ثم إلى الجنة، أو النار؛ الجنةُ لآل البيت، والذين يعتقدون فيهم هذه العقائدَ، والنار لكل من ليس بشيعي.

والشيعة يُسَمُّونَ هذا الإحياءَ، والمحاكمةَ، والقصاصَ باسم (الرجعة)، وهي من عقائدهم الأساسية التي لا يرتاب فيها شيعي واحد.

... ولأجل أن تعلم عقيدة الرجعة في كتبهم الْمُعْتَبَرَةِ أذكر لك ما قاله شيخ الشيعة أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان المعروف عندهم باسم «الشيخ المفيد»، في كتابه «الإرشاد في تاريخ حُجَجِ الله على العباد» (ص٣٩٨-٤٠٢)، وهو مطبوع على الحجر في إيران طبعة قديمة، لم يُذْكَرْ تاريخها، ولكنها طُبِعَتْ على خط محمد علي

---

(١) «التشيع بين مفهوم الأئمة والمفهوم الفارسي»، لمحمد البنداري، ص (٢١٣).

محمد حسن الكلبابكاتي.

روى الفضل بن شاذان عن محمد بن علي الكوفي، عن وهب بن حفص، عن أبي بصير، قال: قال أبو عبدالله ـ يعني جعفرًا الصادق ـ:

ينادي باسم القائم؛ (أي إمامهم الثاني عشر الذي يزعمون أنه وُلِدَ منذ أكثر من أحد عشر قرنًا، ولم يَمُتْ بعد؛ لأنه سيقوم، ويحكم، وينادي باسمه في ليلة ثلاث وعشرين، ويقوم في يوم عاشوراء)، لكأني به في اليوم العاشر من المحرم قائمًا بين الركن والمقام، جبرئيل عن يمينه ينادي البيعة له، فتسير إليه الشيعة من أطراف الأرض، تُطْوَى لهم طيًّا، حتى يُبَايِعُوهُ، وقد جاء الأثر بأنه يسير من مكة حتى يأتي الكوفة، فينزل على نجفنا، ثم يفرق الجنود منها في الأمصار.

وروى الحجال عن ثعلبة، عن أبي بكر الحضرمي، عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ أن محمدًا الباقر قال: «كأني بالقائم ـ عليه السلام ـ على نجف الكوفة، وسار إليها من مكة في خمسة آلاف من الملائكة، جبرئيل عن يمينه، وميكائيل عن شماله، والمؤمنون بين يديه، وهو يفرق الجنود في البلاد».

وروى عبدالكريم الجعفي قال: «قلت لأبي عبدالله ـ يعني جعفرًا الصادق ـ: «كم يملك القائم ـ عليه السلام ـ؟»، قال: «سبع سنين، تطول الأيام حتى تكون السنة من سنيه مقدار عشر سنين من سنيكم، فتكون سنو ملكه سبعين سنة من سنيكم هذه».

قال أبو بصير: «جُعِلْتُ فداك! فكيف يُطَوِّلُ الله السنين؟»، قال: «يأمر الله الفلك باللبوث، وقلة الحركة؛ فتطول الأيام لذلك، والسنون، وإذا آن قيامه مُطِرَ الناس جمادى الآخرة، وعشرة أيام من رجب، مَطَرًا لم يَرَ الخلائقُ مثله، فينبت الله لحوم المؤمنين، وأبدانهم في قبورهم، فكأني أنظر إليهم مقبلين ينفضون شعورهم من التراب».

وروى عبدالله بن المغيرة عن أبي عبدالله جعفر الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «إذا

قام القائم من آل محمد أقام خمس مئة من قريش، فضرب أعناقهم، ثم أقام خمس مئة أخرى، فضرب أعناقهم ثم، خمس مئة أخرى، حتى يفعل ذلك ست مرات». قلت: «ويبلغ عدد هؤلاء هذا؟!» (وإنما استغرب ذلك لأن الخلفاء الراشدين، وبني أمية، وسائر حكام المسلمين إلى زمن جعفر الصادق ـ لا يبلغ عددهم عُشْرَ مِعْشَار هذا العدد)، فقال جعفر الصادق: «نعم، منهم، ومن مواليهم»، وفي رواية أخرى: «إن دولتنا آخر الدول، ولم يَبْقَ أهل بيت لهم دولة إلا ملكوا قبلنا؛ لئلا يقولوا إذا رأوا سيرتنا إذا ملكنا سرنا بمثل سيرة هؤلاء».

وروى جابر الجعفي عن أبي عبدالله قال: «إذا قام قائم آل محمد ضرب فساطيط يعلم فيها القرآن على ما أُنْزِلَ، فأصعب ما يكون على من حفظ اليوم؛ (أي على ما حفظه الناس من المصحف العثماني كما هو في زمن جعفر الصادق)؛ لأنه يخالف فيه التأليف.

وروى عبدالله بن عجلان عن أبي عبدالله ـ عليه السلام ـ قال: «إذا قام قائم آل محمد حكم الناس بحكم داود»[1].

وروى المفضل بن عمر عن أبي عبدالله قال: «يخرج مع القائم ـ عليه السلام ـ من ظهر الكوفة سبعة وعشرون رجلًا من قوم موسى، وسبعة من أهل الكهف، ويوشع بن نون، وسليمان، وأبو دجانة الأنصاري، والمقداد، ومالك بن الأشتر، فيكونون بين يديه أنصارًا، وحُكَّامًا».

وهذه النصوص منقولة بالحرف، وبكل أمانة، من كتاب عالم من أعظم علمائهم؛ وهو «الشيخ المفيد»، مروية بأسانيدهم المكذوبة ـ بلا شك ـ على آل البيت، الذين كان من أكبر مصائبهم أن يكون هؤلاء الكذَّابون خاصَّة شيعتهم، وكتاب «الشيخ المفيد»

---

(١) انظر: «لله ... ثم للتاريخ» لأحد علماء النجف التائبين» وهو السيد حسين الموسوي ص(١٠٥-١١٤)، حيث كشف الأصول اليهودية للدين الرافضي، بصفته شاهدًا من أهلها.

مطبوع في إيران، ونسخه الأثرية محفوظة، وموجودة عندنا.

ولأن عقيدة «الرجعة»، ومحاكمة حُكَّام المسلمين فيها - من عقائد الشيعة الأساسية، كان يؤمن بها عالمهم السيد المرتضى مؤلف كتاب «أمالي المرتضى»، وهو أخو الشريف الرضي الشاعر، وشريكه في تزوير الزيادات على «نهج البلاغة»[١]، ولعلها أكثر من ثُلُث الكتاب، وهي التي فيها تعريض بالصحابة، وتحامل عليهم، فقال السيد المرتضى المذكور في كتابه «المسائل الناصرية»: «إن أبا بكر وعمر يُصْلَبَانِ يومئذ على شجرة في زمن المهدي (أي إمامهم الثاني عشر الذي يسمون قائمَ آل محمد)، وتكون تلك الشجرة رطبة قبل الصلب، فتصير يابسة بعده»[٢].

ومن أكاذيبهم - أيضًا - أن المهدي المزعوم هذا سيُخْرِجُ مصحف فاطمة، وهو غير المصحف الموجود الآن، وقد نسب الكليني صاحب «الكافي» إلى جعفر الصادق أنه قال: «وإن عندنا لمصحفَ فاطمةَ - عليها السلام -، وما يدريهم ما مصحف فاطمة - عليها السلام -... مصحفٌ فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد. مكثت فاطمة بعد النبي خمسًا وسبعين يومًا، صُبَّت عليها مَصَائِبُ من الحزن لا يعلمها إلا الله؛ فأرسل الله إليها جبرئيل يسليها، ويعزيها، ويُحَدِّثُهَا عن أبيها، وما يحدث لذريتها، وكان عليٌّ يستمع، ويكتب ما سمع. حتى جاء منه مصحف قدر القرآن ثلاث مرات، ليس فيه شيء من حلال، ومن حرام، ولكن فيه علم ما يكون»[٣].

لقد ثبت تاريخيًا أن الحسن العسكري مات، ولم يعقب، وقد مات عقيمًا، ونص على ذلك ابن جرير، وابنُ قانع، وغيرهما من المؤرخين، قال الشيخ محب الدين

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٧/٥٨٩)، و«ميزان الاعتدال» (٣/٢٤٢)، و«كتب حذر منها العلماء» (٢/٢٥٠ - ٢٥٧)، وانظر نقد ابن كثير للشريف الرضي في «البداية والنهاية» (١٢/٥٣).

(٢) «الخطوط العريضة» ص (٥٩-٦٢)، باختصار، وانظر: «لله ثم للتاريخ» ص(٧٨).

(٣) «الكافي»، للكليني، (٣/١٩٩)، وانظر: «لله ثم للتاريخ» ص(٧٨ - ٨٢).

الخطيب - رحمه الله -: «إنه - أي محمد بن الحسن العسكري - شخصية موهومة نُسِبَتْ كَذِبًا للحسن العسكري الذي مات عن غير ولد، وصَفَّى أخوه جعفر تِرْكَتَهُ على أنه لا ولد له، وللعلويين سجل مواليد يقوم عليه نقيب في تلك الأزمان، لا يُولَدُ منهم مولود إلا سُجِّلَ فيه، ولم يُسَجَّلْ فيه للحسن العسكري وَلَدٌ، ولا يَعْرِفُ الْعَلَوِيُّونَ المعاصرون للحسن العسكري أنه مات عن ولدٍ ذكر»[1].

● ويقول الدكتور عبدالعليم البَستوي معلقًا على خرافة مهدي السرداب:

(ومن الأدلة الواضحة على كذب هذه الأسطورة المختلقة أن رواتها أنفسهم مضطربون أشدَّ الاضطراب في تفاصيلها، فَوَقَعَ بينهم اختلاف كبير في الوالد، والولد، والأم، والغيبة، وقد ذكره الشهرستاني في «الملل والنحل» بالتفصيل[2].

ومع هذا الاختلاف، والاضطراب، والتخليط في هذه الأسطورة التي اختلقها بعض زعمائهم لأغراضهم الخاصة[3]، أصبح الكثير منهم يَشُكُّونَ فيها، حتى اضْطُرُّوا من جديد إلى اختراع أحاديثَ نسبوها إلى أئمتهم من أهل البيت، بأنه لا يخرج حتى يقع كثير من أتباعهم في شك من أمره، وأصبح البعض منهم يُوَقِّتُونَ لخروجه تسلية للأتباع السُّذَّجِ، وتبريرًا لعواطفهم، ولما وقع خلاف ذلك، وثبت كذبهم مرة أخرى، اضْطُرُّوا إلى اختراع أحاديثَ نسبوها إلى أئمة أهل البيت في كراهية التوقيت، وهكذا اخْتُرِعَتْ مجموعة خرافات وأكاذيب لحماية الأكذوبة الأولى، ولكن حتى الآن لم يقرَّ لهم قرار[4])...

● ولما رأى هؤلاء أن الأحاديثَ الثابتةَ الواردةَ في المهدي تقضي على أسطورتهم

---

(١) «الخطوط العريضة» ص (٨٣)، وانظر: «لله.. ثم للتاريخ» ص(١٠٥).

(٢) «الملل والنحل» (١/١٧١-١٧٣).

(٣) انظر: «الخطوط العريضة» ص (٨٤).

(٤) انظر: كتاب «الكافي» للكليني، باب نادر في حال الغيبة (٤/٣٩٠)، باب الغيبة (٤/٣٩٤)، باب التمحيص والامتحان (٤/٤٤٦)، باب، كراهية التوقيت (٤/٤٤٣)، وغيرها.

بالبطلان؛ فهي تنص على كون المهدي اسمُهُ اسمُ النبي ﷺ، واسمُ أبيه اسمُ أبي النبي ﷺ، ووجدوا أنفسهم في موقف حَرِجٍ، بدءوا في اختلاقِ أكاذيبَ، وتأويلاتٍ مضحكةٍ:

١ـ اختلقوا أحاديثَ ليس لها زمام، ولا خطام، ونسبوها إلى الرسول ﷺ، وإلى علي، وغيره، وزعموا بها أنه ابن الحسن العسكري، حتى أنهم لم يتورعوا عن ذكر اسمه بالصراحة في هذه الأحاديث المخترعة.

٢ـ صاروا يؤولون أحاديث المهدي الصحيحة بتأويلات مضحكة، أو ينكرونها؛ فمنهم من ذهب إلى حذف هذه الكلمة من الرواية، وذكر «اسمه اسمي»[1] فقط، وأنكر زيادة «اسم أبيه اسم أبي»، وزعم أن اللازم طرحها، والإعراض عنها، إن لم يمكن تأويلها.

ومنهم من زعم أن هذه الرواية مُحَرَّفَةٌ، والصواب «اسم أبيه اسم ابني» بالنون؛ يعني الحسن[2].

ومنهم من لجأ إلى تحريف معناها: فقالوا: إن المراد بأبيه هو جَده؛ وهو الحسين، وكنيته أبو عبدالله؛ فمعناه محمد بن أبي عبدالله، وجُعِلَتِ الكُنْيَةُ اسمًا؛ ومنهم ابن طلحة في كتابه «غاية السول في مناقب الرسول»، وكأنهم أحدقوا النظر في آبائه من الحسن العسكري إلى علي بن أبي طالب، فلم يجدوا أحدًا اسمه عبدالله في هذه الأجيال الطويلة كلها، ولو وجدوا لكان أهون). اهـ[3].

● **قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:**

«ومن له أدنى نظر يعرف أن هذا تحريف صريح، وكذب على رسول الله ﷺ؛ فهل يفهم أحد من قوله: «يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي، وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمَ أَبِي»، إلا أن اسم أبيه عبدالله، وهل يدل هذا اللفظ على أن جده كُنْيَتُهُ أبو عبدالله، ثم أي تمييز يحصل له بهذا؟ فكم من ولد الحسين من اسمه محمد، وكل هؤلاء يُقَالُ في أجداهم محمد بن

(١) «منهاج السنة» (٤/٢١١).

(٢) «الإشاعة» ص (٨٧).

(٣) «المهدي المنتظر» ص (٨١-٨٢)، بتصرف.

أبي عبدالله، كما قيل في هذا، وكيف يعدل من يريد البيان إلى من اسمه محمد بن الحسن فيقول: إن اسمه محمد بن عبدالله، ويعني بذلك أن جده أبو عبدالله، وهذا كان تعريفه بأنه محمد بن الحسن، أو ابن أبي الحسن؛ لأن جده عليًّا كنيته أبو الحسن ـ أحسن من هذا، وأبين لمن يريد الهدى، والبيان، وأيضًا فإن المهدي المنعوت من ولد الحسن بن علي لا من ولد الحسين، كما تقدم لفظ حديث علي»[١].

١٠ المهدي الملحد عُبَيْدُاللَّهِ بْنُ مَيْمُونٍ الْقَدَّاحُ (ت٣٢٢هـ)

كان جَدُّه يهوديًّا من بيتٍ مجوسي، فانتسب بالكذب والزور إلى أهل البيت، وادَّعى أنه المهدي الذي بَشَّر به النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، ومَلَكَ، وتَغَلَّبَ، واستفحل أمره، إلى أن استولت ذُرِيَّتُهُ الملاحدةُ المنافقون، الذين كانوا أعظم النَّاس عداوة لله ولرسوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، على بلاد المغرب، ومصر، والحجاز، والشام، واشتدت غربة الإسلام، ومحنته، ومصيبته بهم، وكانوا يدَّعون الإلهية، ويدعون أن للشريعة باطنًا يُخَالِفُ ظاهرها؛ وهم ملوك القرامطة الباطنية أعداء الله، فتستروا بالرفض، والانتساب ـ كذبًا ـ إلى أهل البيت، ودانوا بدين أهل الإلحاد، وروَّجوه، ولم يَزَلْ أمرهم ظاهرًا، إلى أن أنقذ الله الأمة منهم، ونصر الإسلام بصلاح الدين يوسف بن أيوب ـ رحمه الله ـ، فاستنقذ الأمة الإسلامية منهم، وعادت مصر دارَ إسلامٍ بعد أن كانت دارَ نفاقٍ وإلحادٍ في زمنهم[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «إن طوائفَ ادعى كلٌّ منهم أنه المهدي المُبَشَّرُ به؛ مثل مهدي القرامطة الباطنية الذي أقام دعوتهم بالمغرب، وهم من ولد ميمون القدَّاح، وادعوا أن ميمونًا هذا من ولد محمد بن إسماعيل[٣]، وإلى ذلك

---

(١) «منهاج السنة» (٤/٢١١).

(٢) انظر: «نقد المنقول» ص (٨٢).

(٣) (فقد ادَّعى أنه عُبَيْدالله بن الحسين بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، مع أن المعلوم لدى علماء الأنساب أن محمد بن إسماعيل مات، ولم يعقب). انظر: «الفرق بين الفرق» ص (٢٨٢-٢٨٣).

انتسبت الإسماعيلية، وهم ملاحدة في الباطن، خارجون عن جميع الملل، أكفر من الغالية؛ كالنصيرية، ومذهبهم مُرَكَّبٌ من مذهب المجوس، والصابئة، والفلاسفة، مع إظهار التشيع، وجَدُّهُمْ رجلٌ يهوديٌّ كان ربيبًا لرجل مجوسي، وقد كانت لهم دولة وأتباع، وقد صنَّف العلماء كُتُبًا في كشف أسرارهم، وهتك أستارهم؛ مثل: كتاب القاضي أبي بكر الباقلاني، والقاضي عبدالجبار الهمداني، وكتاب الغزالي، ونحوهم[(١)].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ: (كانت مدة ملك الفاطميين مئتين وثمانين سنة، وكسرًا، فصاروا كأمس الذاهب ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾، وكان أول ملك منهم المهدي، وكان من سلمية[(٢)]، حدادًا اسمه عبيد، وكان يهوديًّا، فدخل بلاد المغرب، وتسمي بعُبَيْدِالله، وادَّعى أنه شريف عَلَوِيٌّ فاطمي، وقال عن نفسه إنه المهدي، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء والأئمة، بعد الأربع مئة[(٣)].

والمقصود أن هذا الدَّعِيَّ الكذَّابَ راج له ما افتراه في تلك البلاد، ووازره جماعة من الجَهَلَةِ، وصارت له دولة وصولة، ثم تمكن، إلى أن بنى مدينة سمَّاها «المهدية»[(٤)]؛ نسبةً إليه، وصار ملِكًا مُطاعًا، يُظهر الرفضَ، وينطوي على الكفر المحض)[(٥)]. اهـ.

---

(١) «منهاج السنة» (٤/٢١١).

(٢) من قرى الشام.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٥/١٢٧)، (١٧/٥٠١)، (٤/١٦٢)، و«درء التعارض» (١٠/٦٠)، «سير أعلام النبلاء» (١٥/١٤١).

(٤) مدينة محدثة بساحل أفريقية، بينها وبين القيروان ستون ميلًا، والبحر محيط بها من جهاتها الثلاث، وقد أنشأها عبيد الله المهدي الفاطمي، حين اضطر العبيديون إلى الخروج من القيروان سنة ٣٠٨هـ، فرارًا من أجواء القيروان وأهلها الذين عادوا العبيديين وقاوموهم حتى تركوا شهود الجمعة معهم، وحتى لم يعد يحضرها من أهل القيروان أحد، وأفتى علماؤهم بعدم جواز دفع الزكاة لهم، بل جابهوهم بالسلاح، واعتبر العلماء قتيل الفاطميين خير قتيل، وكانت العامة تطلق على «المهدية»: «المردية» تفاؤلًا بهلاكها، انظر: «الأثر السياسي للعلماء في دولة المرابطين» ص(٢٦ ـ ٢٧).

(٥) «البداية والنهاية» (١١/٣٦٩).

● وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في أحداث سنة ٤٠٢هـ:

«وكتب جماعة من العلماء، والقضاة، والأشراف، والعدول، والصالحين، والفقهاء، والمحدثين، وشهدوا جميعًا أن الفاطميين ملوكَ مصرَ (كُفَّارٌ فُسَّاقٌ فُجَّارٌ مُلْحِدُونَ، زَنَادِقَةٌ مُعَطِّلُونَ، وللإسلام جاحِدُونَ، ولمذهب المجوسية والثنوية مُعْتَقِدونَ، قد عطَّلوا الحدودَ، وأباحوا الفروجَ، وأحلُّوا الخمرَ، وسفكوا الدماءَ، وسَبُّوا الأنبياءَ، ولعنوا السلفَ، وادَّعَوُا الرُّبُوبيَّةَ)[١].

● وقال ـ أيضًا ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ:

(وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء، وأكثرهم مالًا، وكانوا من أعتى الخلفاء، وأجبرهم، وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرةً، وأخبثهم سريرةً، ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات، وكَثُرَ أهل الفساد، وقلَّ عندهم الصالحون من العلماء، والعُبَّاد، وكثر بأرض الشام النصرانية، والدرزية، والحشيشية، وَتَغَلَّبَ الفِرِنْجُ على سواحل الشام بأكمله... وقتلوا من المسلمين خَلْقًا، وأممًا لا يحصيهم إلا الله، وسَبَوْا ذراريَ المسلمين من النساء والولدان، مما لا يحد، ولا يوصف، وأخذوا من أموال المسلمين ما لا يُحَدُّ، ولا يُوصَفُ...)[٢]. اهـ.

وقال القاضي الباقلاني عنهم: «هم قومٌ يُظْهِرُونَ الرفضَ، ويُبْطِنُونَ الكُفرَ المحضَ، والله ـ سبحانه ـ أعلم»[٣].

ورُؤي الفقيه المالكي عبدالله بن التبان يبكي بحرقة، فقيل له في ذلك، فقال: «خشية أن يشك الناس في كفر بني عبيد فيدخلوا النار»[٤]

---

(١) «السابق».
(٢) «السابق» (٢٨٦/١٢).
(٣) «السابق» (٣٦٩/١١).
(٤) «الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين» ص(٢٦).

● **وقال السيوطي في «تاريخ الخلفاء»:**

(ولم أُورِدْ أحَدًا من الخلفاء العبيديِّين؛ **لأن إمامتهم غير صحيحة؛ لأمور:**

● منها: أنهم غير قُرَشِيِّينَ، وإنما سَمَّتْهُمْ بالفاطميين جَهَلَةُ العوامِّ، وإلا فجَدُّهُمْ مجوسيٌّ، قال القاضي عبدالجبار البصري: اسم جد الفاطميين سعيدٌ، وكان أبوه يهوديًّا حدادًا نشَّابَةً...

وقال ابن خلكان: أكثر أهل العلم لا يُصَحِّحُونَ نسبَ المهدي عبيدالله جد خلفاء مصر، حتى إن العزيز بالله ابن المعز في أول وِلايته صعد المنبر يوم الجمعة، فوجد هناك ورقة فيها هذه الأبيات:

إِنَّـا سَـمِـعْـنَـا نَـسَـبًـا مُـنْـكَـرًا ... يُتْلَى عَلَى الْمِنْبَرِ فِي الْجَامِعِ

إِنْ كُـنْـتَ فِـيمَـا تَـدَّعِـي صَـادِقًـا ... فَاذْكُرْ أَبًا بَعْدَ الْأَبِ السَّابِعِ

وَإِنْ تُـرِدْ تَحْـقِـيـقَ مَـا قُـلْـتَـهُ ... فَانْسِبْ لَنَا نَفْسَكَ كَالطَّائِعِ

أَوْ لَا، دَعِ الْأَنْـسَـابَ مَـسْـتُـورَةً ... وَادْخُلْ بِنَا فِي النَّسَبِ الْوَاسِعِ

وَإِنَّ أَنْـسَـابَ بَـنِـي هَـاشِـمٍ ... يَقْصُرُ عَنْهَا طَمَعُ الطَّامِعِ

وكتب العزيز إلى الأُمَوِيِّ صاحب الأندلس كتابًا سبَّه فيه، وهجاه، فكتب إليه الأُمَوِيِّ: «أما بعدُ، فإنك عرفتنا فهجوتنا، ولو عَرَفْنَاك لأجَبْنَاكَ»؛ يعني أنه دَعِيٌّ لا تُعْرَفُ قبيلته، وما أحسنَ ما قال حفيده المعزُّ صاحب القاهرة، وقد سأله ابن طَبَاطَبَا عن نسبهم، فجذب نصف سيفه في الغمد، وقال: «هذا نَسَبي»، ونثر على الأمراء، والحاضرين الذهب، وقال: «هذا حَسَبي».

● ومنها: أن أكثرهم زنادقة خارجون عن الإسلام، ومنهم من أظهر سبَّ الأنبياء، ومنهم من أباح الخمر، ومنهم من أمر بالسجود له، والخَيِّرُ منهم رافضي خبيث لئيم، يأمر بسب الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ ـ تَعَالَى ـ عَنْهُمْ ـ، ومِثْلُ هؤلاء لا تنعقد لهم بيعة، ولا تصح لهم إمامة.

قال القاضي أبو بكر الباقلاني: «كان المهدي عبيدالله باطنيًّا خبيثًا، حريصًا على إزالة ملة الإسلام، أعدم العلماء والفقهاء؛ ليتمكن من إغواء الخلق، وجاء أولاده على أسلوبه: أباحوا الخمور والفجور، وأشاعوا الرفض».

وقال الذهبي: «كان القائم بن المهدي شرًّا من أبيه، زنديقًا ملعونًا، أظهر سب الأنبياء»، وقال: «وكان العبيديُّون شرًّا من التتار على ملة الإسلام»، وقال أبو الحسن القابسي: «إن الذين قتلهم عبيدالله وبنوه من العلماء والعُبَّاد - أربعة آلاف رجل؛ ليردُّوهم عن الترضي عن الصحابة، فاختاروا الموت».

قال القاضي عياض: «سُئِلَ أبو محمد القيرواني الكيزاني، من علماء المالكية، عَمَّنْ أَكْرَهَهُ بنو عبيد - يعني مصرَ - على الدخول في دعوتهم، أو يقتل.

قال: يختار القتل، ولا يُعْذَرُ أحدٌ في هذا الأمر...؛ لأن المقام في موضع يُطْلَبُ من أهله تعطيل الشرائع، وهو لا يجوز».

وقال ابن خلكان: «وقد كانوا يَدَّعُونَ علم الْمُغَيَّبَاتِ، وأخبارُهُمْ في ذلك مشهورة، حتى أن العزيز صَعِدَ يومًا المنبرَ، فرأى ورقةً فيها مكتوب:

إِنْ كُنْتَ أُعْطِيتَ عِلْمَ غَيْبٍ ... بَيِّنْ لَنَا كَاتِبَ الْبِطَاقَهْ
بِالظُّلْمِ وَالْجَوْرِ قَدْ رَضِينَا ... وَلَيْسَ بِالْكُفْرِ وَالْحَمَاقَهْ

وكتبت إليه امرأة قصة، فيها: «بالذي أعز اليهود بميشا، والنصارى بابن نسطور، وأذل المسلمين بك، إلا نظرت في أمري»، وكان ميشا اليهودي عاملًا بالشام، وابن نسطور النصراني بدمشق.

● ومنها أن مبايعتهم صدرت والإمام العباسي قائم موجود سابق البيعة؛ فلا تصح؛ إذ لا تصح البيعة لإمامين في وقت واحد، والصحيح الْمُتَقَدِّمُ». اهـ[1].

---

(١) «تاريخ الخلفاء» (٤-٦).

فصل

(١١) ابْنُ تُومَرْتَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ الْبَرْبَرِيُّ الْهَرْغِيُّ(١)

في أواخر سنة ٥١٤هـ (١١٢٠م) وقعت بمدينة مَرَّاكُش أول بادرة مؤذنة ببداية الثورة الدينية التي اضطلع بها محمد بن تومرت ضد الدولة المرابطية.

ففي ذات يوم جمعة، من هذه السنة، دخل إلى المسجد الجامع رجل صغير القد، متواضع الهيئة، وجلس على مقربة من المحراب بإزاء الموضع المخصص لجلوس أمير المسلمين، فلما اعترض على ذلك بعض سدنة الجامع، تلا الآية ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨]، ولما حضر أمير المسلمين علي بن يوسف، نهض سائر الحضور، إلَّا ذلك الرجل، فلما انتهت الصلاة بادر الرجل بالسلام على عليٍّ، وقال له فيما قال «غَيِّرِ المنكر في بلدك، فأنت المسئول عن رعيتك»، وبكى، فلم يجبه أمير المسلمين بشيء، ولما عاد إلى القصر سأل عنه، فقيل له: «إنه قريب العهد بالوصول، وهو يؤلف الناس، ويقول لهم: إن السنة قد ذهبت»، فأمر علي بن يوسف، وزيره عمر بن ينتان أن يكشف عن أمره ومقصده، فإن كانت له حاجة ينظر في قضائها، فقال الرجل: «ليس لي حاجة، وما قصدي إلا تغيير المنكرات».

كان هذا الرجل هو محمد بن تومرت، وكان قد آب من رحلته إلى المشرق؛ ونزل بمراكش، بعد أن طاف ببعض مدن المغرب الشمالية، وهو يدعو للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) مصادر هذه الترجمة: «دولة الإسلام في الأندلس» - الجزء الرابع - لمحمد عبدالله عنان؛ «دولة الموحدين» للدكتور علي محمد الصلابي؛ «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي (٥٣٩/١٩ - ٥٥٢)؛ «الكامل»، لابن الأثير، (٥٦٩/١٠،٥٨٢)؛ «وفيات الأعيان»، لابن خلكان، (٤٥/٥-٥٥)؛ «تذكرة الحفَّاظ»، للذهبي، (١٢٧٤/٤)؛ «طبقات السبكي»، (١٠٩/٦-١١٧)؛ «البداية والنهاية»، لابن كثير، (١٨٦/١٢-١٨٧)؛ «شذرات الذهب»، لابن العماد، (٧٠/٤-٧٢)؛ «أطلس تاريخ الإسلام» ص (١٨١).

وأصل هذا الرجل من قبيلة هَرْغَة إحدى بطون مصمودة الكبرى، وقد اختلف في تاريخ مولده فيما بين ٤٧١، ٤٩١هـ، واسمه محمد بن عبدالله، ووالده من أهل السوس، وكان يقال لوالده «تومَرت» أي الضياء الذي يوقد في المسجد، وقيل: إنه لما وُلد فرحت به أمه وسُرَّت، فقالت بلسانها: «آتومرت آينو أيسك آيبوي»، ومعناه: يا فرحتي بك يا بني، وكانت إذا سئلت عن ابنها وهو صغير، تقول: «يك تومرت»، معناه: صار فرحًا مسرورًا، فغلب عليه اسم تومرت، وتُرك دعاؤه باسمه ا ـ ول عبدالله[١].

● قال الحافظ الذهبي في التعريف به:

«الخارج بالمغرب، المدَّعي أنه عَلَوِيٌّ حَسَني، وأنه الإمام المهدي، وأنه معصوم، وهو بالإجماع مخصوم. رَحَلَ من السوس الأقصى شابًّا إلى المشرق، فحج، وتَفَقَّهَ، وحصَّل أطرافًا من العلم، وكان لَهِجًا بعلم الكلام، خائضًا في مزالِّ الأقدام، ألَّف عقيدةً لقَّبها بالمرشدة، وحمل عليها أتباعه، وسمَّاهم الموحِّدين، ونبز من خالف «المرشدة» بالتجسيم، وأباح دمه، نعوذ بالله من الغَيِّ والهوى!

وكان خَشِنَ العيشِ، فقيرًا، قانعًا باليسير، مقتصِرًا على زِيِّ الفَقْرِ، لا لَذَّةَ له في مأكَلٍ، ولا مَنْكَح، ولا مال، ولا في شيءٍ غير رياسة الأمر، حتى لَقي الله ـ تَعَالَى ـ.

لكنه دخل ـ وَاللَّهِ ـ في الدِّماء؛ لِنيل الرياسة المُرْدِيَة.

وله فصاحةٌ في العربية، والبربرية، وكان يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويُؤذَى، ويُضْرَب، ويصبر.

أُوذِيَ بمكة؛ فراح إلى مِصرَ، وبالغ في الإنكار، فطردُوه، وآذَوْهُ، وكان إذا خاف مِن البطشِ بهِ خلَّط وَتَبَالَهَ»[٢].

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/١٥٨ ـ ١٥٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٩/٥٣٩ـ٥٤٢) بتصرف.

ثم سكن الثَّغر[١] مدَّةً، ثم ركِبَ البحر إلى المغربِ من الإسكندرية في أواخر سنة ٥١١هـ (١١١٧م)، ويقال إنه خرج منفيًا من الإسكندرية، لما ترتب من شغب على نشاطه في مطاردة المنكر، بيد أنه استمر في دعوته إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو على ظهر السفينة التي أقلته، فألزم ركابها بإقامة الصلاة وقراءة القرآن، واشتد في ذلك حتى قيل إن ركاب السفينة ألقوه إلى البحر، فلبث أكثر من نصف يوم يسبح إلى جانبها دون أن يصيبه شيء، فلما رأوا ذلك أنزلوا إليه من رفعه من الماء، وقد عظم في نفوسهم، وبالغوا في إكرامه. ولما وصل إلى المهدية، نزل بمسجد من مساجدها، وليس معه سوى ركوة ماء وعصا، فتسامع به الناس، وأقبل الطلاب يقرأون عليه مختلف العلوم، وكان إذا شاهد منكرًا من آلات الملاهي، أو أواني الخمر، بادر إلى إزالته وكسرها، وأصابه بسبب ذلك بعض الأذى، ووصل خبره إلى الأمير يحيى ابن تميم بن المعز بن باديس ملك أفريقية، فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء، فلما رأى سمته، واستمع إلى مناقشاته أعجب به وأكرمه وسأله الدعاء[٢] فقال: «أصلحك الله لِرعيتك!»، قال الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى:

(وسار إلى بَجاية، فبقي يُنكِرُ كعادته؛ فنُفِيَ، فذهب إلى قرية مَلَّالة، فوقع بها بعبدِالمؤمن[٣] الذي تسلطَن، وكان أَمْرَدَ عاقلًا، فقال: «يا شابُّ، ما اسمُكَ؟» قال: عبدُالمؤمن، قال: «الله أكبرُ، أنت طَلِبَتِي، فأين مقصِدُكَ؟»، قال: طلبُ العلم، قال: «قد وجدتَ العلمَ، والشَّرفَ، اصْحَبْني»، ونظر في حليته، فوافَقَتْ ما عنده مما ادعى أنه اطلع عليه من كتاب الجَفْرِ[٤]، فقال: «ممن أنت؟»، ....

(١) أي: الإسكندرية.

(٢) «دولة الإسلام في الأندلس» (١٦٤/٤ - ١٦٥).

(٣) عبدالمؤمن بن علي القيسي (ت٥٥٨هـ)، انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٣٦٦/٢٠)، «وفيات الأعيان» (٢٣٧/٣-٢٤١)، «البداية والنهاية» (٢٤٦/١٢-٢٤٧)، «شذرات الذهب» (١٨٣/٤)، «دولة الإسلام» (١٦٥/٤).

(٤) (الجَفْر - بفتح الجيم وسكون الفاء - من أولاد المعز: ما بلغ أربعة أشهر، والمراد هنا جلد المعز الذي=

قال: «مِن كُومية»[1]، فربط الشاب، وشوَّقه إلى أمورٍ عَشِقَها، وأفضَى إليه بسرِّه،

= كُتِبَ فيه، وهذا الكتاب يَزْعُمُ الإمامية أن جعفرًا الصادق ـ رحمه الله ـ كتب لهم فيه كل ما يحتاجون إليه، وكل ما سيَقَعُ ويكون إلى يوم القيامة، وكان مكتوبًا عنده في جلد ماعز، فكتبه عنه هارون بن سعيد العجلي رأس الزيدية، وسماه الجَفْر باسم الجلد الذي كُتِبَ فيه، وهذا زَعْمٌ باطل؛ فإن جعفرًا الصادق كجده أمير المؤمنين لا يعلم الغيب، وقد ثبت عن جده أمير المؤمنين أن رسول الله ﷺ لم يخصه بشيء من دون أصحابه، كما في صحيح البخاري (١١١) و(١٨٧٠) و(٣١٧٢) و(٣١٧٩) و(٦٧٥٥) و(٦٩٠٣) و(٦٩١٥) و(٧٣٠٠)، من طريق أبي جُحَيْفَةَ السوائي، قال: سألت عليًّا رضي الله عنه: هل عندكم شيء مما ليس في القرآن، أو ما ليس عند الناس؟ فقال: والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما عندنا إلا ما في القرآن؛ إلا فهمًا يُعطى رجل في كتابه، وما في هذه الصحيفة، قال: قلت: فما هذه الصحيفة؟ قال: «العقل؛ وفكاك الأسير، ولا يُقْتَلُ مسلم بكافر». قال الحافظ ابن حجر: وإنما سأله أبو جُحَيْفَةَ عن ذلك لأن جماعة من الشيعة كانوا يزعمون أن عند أهل البيت ـ لا سيما عليًّا ـ أشياء من الوحي خصهم النبي ﷺ بها لم يَطَّلِعْ غيرهم عليها.

ونقل العيني في «عمدته»: (١/١٦١) عن ابن بطال قوله: فيه ما يقطع بدعة الشيعة والمدَّعين على علي رضي الله عنه أنه الوصي، وأنه المخصوص بعلم من عند رسول الله ﷺ، لم يعرفه غيره؛ حيث قال: ما عنده إلا ما عند الناس من كتاب الله، ثم أحال على الفهم الذي الناس فيه على درجاتهم، ولم يخص نفسه بشيء غير ما هو ممكن في غيره.

على أن الكتاب لا تصح نسبته إلى جعفر الصادق ـ رحمه الله ـ، والذين نسبوه إليه من أجهل الناس بمعرفة المنقولات، والأحاديث، والآثار، والتمييز بين صحيحها وضعيفها، وعمدتهم في المنقولات التواريخ المنقطعة الإسناد، وكثير منها من وَضْعِ من عُرِفَ بالكذب والاختلاق؛ كأبي مخنف لوط، وهشام بن محمد بن السائب، وأمثالهما، وغير خافٍ على طلبة العلم أن ما لا يُعْلَمُ إلا من طريق النقل لا يمكن الحكم بثبوته إلا بالرواية الصحيحة السند، فإذا لم تُوجَدْ، فلا يسوغ لنا شرعًا وعقلًا أن نقول بثبوته. وانظر «أبجد العلوم» (٢/٢١٤-٢١٦)، و«لُقَطَةُ العجلان»، كلاهما لصديق حسن خان، ومجلة المنار ٦٠/٤، للسيد رشيد رضا). اهـ. من تعليق الشيخ شعيب الأرناؤط على «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٥٤٢-٥٤٣)، وانظر: «كتب حذر منها العلماء» (١/١٠٨-١٢٣).

وقد نقل ابن خلكان (٣/٢٤٠) عن ابن قتيبة قوله: «وأعجب من هذا التفسير تفسير الروافض للقرآن الكريم، وما يدَّعونه من علم باطنه بما وقع إليهم من الجفر الذي ذكره هارون بن سعيد العجلي، وكان رأس الزيدية، فقال:

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ الـرَّافِـضِـينَ تَـفَـرَّقُـوا ... فَكُلُّهُمُ فِي جَعْفَرٍ قَالَ مُنْكَرَا

فَـطَـائِـفَـةٌ قَـالُـوا إِمَـامٌ وَمِـنْـهُـمُ ... طَوَائِفُ سَمَّتْهُ النَّبِيَّ الْمُطَهَّرَا

وَمِنْ عَجَبٍ لَمْ أَقْضِهِ جِلْدُ جَفْرِهِم ... بَرِئْتُ إِلَى الرَّحْمَنِ مِمَّنْ تَجَفَّرَا

(١) بضم الكاف وسكون الواو: قبيلة صغيرة كانت تنزل بساحل البحر من أعمال تلمسان.

وكان في صُحبته الفقيهُ عبدُالله الوَنْشَرِيسِي، وكان جميلًا نَحْوِيًّا، فاتفقا على أن يُخفيَ علمَهُ، وفصاحَتَهُ، ويتظاهرَ بالجهل واللَّكَنِ مدةً، ثم يجعلَ إظهار نفسِهِ معجزةً، ففعل ذلك، ثم عَمَدَ إلى ستة من أجلاد أتباعِهِ، وسار بهم إلى مَرَّاكُشَ(١)، وهي لابنِ تاشفين، فأخذوا في الإنكار(٢)، فخوَّفوا الملك منهم، وكانوا بمسجد خرابٍ، فأحضرهم الملكُ فكلموه فيما وقع فيه مِن سَبِّ الملك، فقال: «ما نُقِلَ من الوقيعة فيه فقد قلْتُه، ولي مِن ورائه أقوال، وأنتم تُطرونه، وهو مغرورٌ بكم، فيا قاضي، هل بلغك أنَّ الخمرَ تُبَاعُ جهارًا، وتمشي الخنازيرُ في الأسواق، وتُؤخَذُ أموالُ اليتامى؟»، فَذَرَفَتْ عينا الملكِ، وأطرق، وفَهِمَ الدُّهاةُ طَمَعَ ابنِ تُومرت في المُلك، فنصح مالك بن وهيب - وكان عالمًا صالحًا - سلطانه، وقال: «إني خائفٌ عليك من هذا، فاسجنْه، وأصحابَه، وأنفق عليهم مؤنتهم، وإلا أنفقتَ عليهم خزائنَك»(٣)، فوافقه، فقال الوزيرُ: «يَقْبُحُ بالْمَلِكِ أن يبكي مِن وَعْظِهِ، ثم يُسيء إليه في مجلسٍ، وأن يَظْهَرَ خوفُك - وأنت سلطان - مِن رجلٍ فقيرٍ»، فأخذته نخوةٌ، وصرفه، وسأله الدُّعاء»(٤). اهـ.

«لقد تنبه الفقيه مالك بن وهيب الأندلسي إلى أن ابن تومرت ليس طالب آخرة،

---

(١) لما طُرد ابن تومرت من فاس، توجه إلى مَرَّاكُش مقر حكم المرابطين، وخلال رحلته إليها كان يُنَبِّهُ عبدالمؤمن بن علي للمواقع ذات الأهمية الاستراتيجية، ويدل ذلك على أنه عاد إلى بلاده وهو يحمل معه برنامجًا للدعوة إلى الخروج على المرابطين، وخطة لحرب طويلة الأمد ضدهم، انظر: «دولة الموحدين» ص(٢٦)، و«السلفية وأعلامها في موريتانيا» ص(٢٠٢).

(٢) انظر واقعة إنكاره على أخت أمير المسلمين في «دولة الإسلام» (١٦٩/٤).

(٣) وعند ابن خَلِّكان: (ففهم الحاضرون من فحوى كلامه أنه طامع في المملكة لنفسه، ولما رأوا سكوت الملك وانخداعه لكلامه لم يتكلم أحد منهم، فقال مالك بن وهيب، وكان كثير الاجتراء على الملك: «أيها الملك، إن عندي لنصيحة إن قبلتها حمدت عاقبتها، وإن تركتها لم تأمن غائلتها: إن هذا والله لا يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما يريد إثارة الفتنة، والغلبة على بعض النواحي، فاقتله، وقلدني دمه»، وفي بعض الروايات: فقال الملك: «ما هي؟»، قال: «إني خائف عليك من هذا الرجل، وأرى أنك تعتقله وأصحابه، وتنفق عليهم كل يوم دينارًا لتكتفي شره، وإن لم تفعل ذلك لتنفقن عليه خزائنك كلها، ثم لا ينفعك ذلك»)اهـ. «وفيات الأعيان» (٥٠/٥)، و«الكامل» (٥٧١/١٠).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٥٤٢/١٩، ٥٤٤) بتصرف.

وإنما هو طالب سلطان، وأشار على الأمير علي بن يوسف بقتله؛ ليكتفي شره؛ لأنه إذا وقع في بلاد المصامدة أَلَّبَهُمْ على المرابطين، ولكن وزير علي بن يوسف ينتان بن عمر، وسير بن وربيل، أقنعا أمير المسلمين علي بن يوسف بعدم الأخذ برأي مالك بن وهيب.

وألحّ مالك بن وهيب على أمير المسلمين[١] بتخليده في السجن إذا لم يَقْتُلْهُ، وقال له: «اجْعَلْ عليه كبلًا؛ كي لا تسمع له طبلًا»، فوافقه على ذلك، وحال ينتان مرة ثانية دون الأخذ برأي مالك بن وهيب، والذي خاطب أمير المسلمين قائلًا: «يا أمير المسلمين، هذا وَهَنٌ في حق الملك أن تلتفت لهذا الرجل الضعيف؛ فخلِّ سبيله؛ إنه رجل لا يملك سد جوعه». لقد أصابت كلمات الوزير ينتان عزة نفس أمير المسلمين، فاستصغر شأنه، وأمر بإطلاق سراحه، على شرط أن يخرج من بلاد أمير المسلمين[٢].

لقد صدقت فِراسة مالك بن وهيب في ابن تومرت، وندم ابن تاشفين، بعد فوات الأوان؛ لأنه لم يأخذ برأيه[٣]. لقد كان ابن تومرت مُولَعًا بالأمر بالمعروف، والنهي عن

---

(١) لما كثرت فتوح «الأمير» يوسف بن تاشفين رحمه الله، وترامت أطراف مملكته، قالوا له: «إن حقك يسمو على لقب الإمارة»، واقترحوا عليه أن يتسمى «بأمير المؤمنين» ولكنه أبى، واعتذر بأن هذا اللقب إنما يتسمى به خلفاء بني العباس، سلالة النبي ﷺ، وأصحاب الحرمين، وأنه يُعتبر في المغرب رَجُلَهم والقائم بدعوتهم، ولذا قَبِلَ أن يسمى «أمير المسلمين».

لقد كان المرابطون يعتقدون وجوب بيعة الخليفة العباسي، فاعترفوا بالخلافة العباسية، ونقشوا اسم الخليفة العباسي على نقودهم، وعقِبَ انتصار ابن تاشفين في الأندلس أوفد إلى الخليفة العباسي الإمام عبدالله بن العربي يبشره بانتصاراته في الأندلس، ويطلب تقليده بولاية البلاد التي بسط نفوذه عليها، وعادت البعثة إلى المغرب بتقليد الخليفة وعهده للأمير يوسف بن تاشفين.

وهذه من محاسن المرابطين جزاهم الله خيرًا، التي تجسد حرصهم على لزوم جماعة المسلمين، رغم تمكنهم من الاستقلال بالدولة بدون أي ضرر، وبذلك كانوا سندًا معنويًّا قويًّا للخلافة العباسية السنية، انظر: «فقه التمكين عند دولة المرابطين» ص(١٨٢ - ١٩١)، «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/٣٨ - ٤١).

(٢) «دولة الموحدين» ص (٢٨-٢٩).

(٣) وعند ابن خلكان: (... فَنَدِمَ - أي الملك - على فوات محمد من يده، وعَلِمَ أن الحزم كان مع مالك ابن وهيب فيما أشار به). اهـ. من «الوفيات» (٥/٥٢).

المنكر، وكان ينطوي قلبه - والله - تَعَالَى - أعلم - على أغراض أخر يشي بها قوله لبعض أصحابه قبل خروجه بالمغرب:

دَعْنِي فَفِي النَّفْسِ أَشْيَاءٌ مُخَبَّأَةٌ ... لَأَلْبِسَنَّ لَهَا دِرْعًا وَجِلْبَابَا
كَيْمَا أُطَهِّرَ دِينَ اللَّهِ مِنْ دَنَسٍ ... وَأُوجِبَ الْفَضْلَ لِلسَّادَاتِ إِيجَابَا
تَاللَّهِ لَوْ ظَفِرَتْ كَفِّي بِمَطْلَبِهَا ... مَا كُنْتُ عَنْ ضَرْبِ أَعْنَاقِ الْوَرَى آبَى[(١)]

وكان يتمثل بقول المتنبي:

وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا ... وَبِالنَّاسِ رَوَّى رُمْحَهُ غَيْرَ رَاحِمِ
فَلَيْسَ بِمَرْحُومٍ إِذَا ظَفِرُوا بِهِ ... وَلَا فِي الرَّدَى الْجَارِي عَلَيْهِمْ بِآثِمِ[(٢)]

(وسار ابنُ تُومَرت إلى أغمات، فنزلوا على الفقيه عبدالحق الْمَصمودي، فأكرمهم، فاستشارُوه، فقال: «هُنا لا يحميكم هذا الموضع؛ فعليكم بِتِينَمَلَّ، فهي يومٌ عنَّا، وهو أحصنُ الأماكن؛ فأقيمُوا به بُرهَةً كي يُنسى ذكرُكم»، فتجدد لابن تُومرت بهذا الاسمِ ذكرٌ لما عنده[(٣)]، فلما رآهم أهلُ الجبل على تلك الصُّورة، علموا أنَّهم طَلَبَةُ علمٍ؛ فأنزلوهم، وأقبلُوا عليهم، ثم تسامَع به أهلُ الجبل، فتسارعُوا إليهم، فكان ابنُ تُومرت مَنْ رأى فيه جَلادة، عَرَضَ عليه ما في نفسه، فإن أسرع إليه، أضافه إلى خواصِّه، وإن سكت، أعرض عنه. وكَانَ كُهولُهم ينهون شُبَّانهم، ويُحذِّرونهم[(٤)]، وطالت المدةُ، ثم كَثُرَ أتباعُهُ مِن جبال دَرن، وهو جبل الثلج، وطريقُهُ وَعْرٌ ضيِّق.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٩/٥٥٢)، و«السابق» ص (٣٦)، وانظر: «دولة الإسلام» (٤/١٦٨، ١٧٦، ١٩٥، ١٩٦).

(٢) «وفيات الأعيان» (٥/٥٤).

(٣) أي من خبر الجفر المزعوم، ويحتمل أن أحد المؤرخين من أتباعه هو الذي افترى هذه الفرية تأييدًا لدعوته، ليوهم صدق دعواه المهدية والعصمة، أو أن الذي افتراها ابن تومرت نفسه، والله أعلم.

(٤) في «الوفيات»: (٥/٥١): «وكان يستميل الأحداث وذوي الغرة، وكان ذوو العقل والحلم من أهاليهم يُحَذِّرُونَهُمْ من اتباعه، ويُخَوِّفُونَهُمْ من سطوة الملك».
وقال ابن خلكان - أيضًا -: «ثم إن محمدًا استدنى أشخاصًا من أهل الغرب أجلادًا في القوى الجسمانية أغمارًا، وكان أميلَ إلى الأغمار من أولي الفطن والاستبصار». اهـ من «فوات الوفيات» (٥/٤٨).

قال اليسع في «تاريخه»: «لا أعلم مكانًا أحصنَ من تِينَمَلل؛ لأنها بينَ جبلين، ولا يصِلُ إليهما إلا الفارِسُ، وربما نَزَلَ عن فرسه في أماكنَ صعبةٍ، وفي مواضِعَ يَعْبُرُ على خشبةٍ، فإذا أُزيلت الخشبة، انقطع الدَّرْبُ، وهي مسافة يوم، فشرع أتباعُه يُغيرون، ويقتلُون، وكثُرُوا، وقَووا، ثم غَدَرَ بأهل تِينَمَلَلَ الَّذين آووْهُ، وأمر خواصَّه، فوضعُوا فيهم السيف[1]، فقال له الفقيهُ الإفريقي أحدُ العشرة مِن خواصِّه: «ما هذا؟! قومٌ أكرمونا وأنزلونا، نقتلُهم؟!!» فقال لأصحابه: «هذا شكٌّ في عِصمتي، فاقتلُوه، فقُتِلَ».

قال اليسع: (وكُلُّ ما أذكُرُه من حال المصامِدة، فقد شاهدتُهُ، أو أخذتُه متواترًا، وكان في وصيته إلى قومه إذا ظَفِرُوا بمُرَابِطٍ، أو تِلِمْسَاني، أن يُحرِقوه)[2].

(وقبل أن يعطي ابن تومرت الأمر لجيوشه بالانقضاض على المرابطين؛ للاستيلاء على عاصمتهم مراكش، أراد أن يُطَهِّرَ صفوفه من بعض الأشخاص الذين يشك في ولائهم له، فأوعز في عام ٥١٩هـ/١١٢٥م لصديقه الحميم الونشريسي، الذي كان يُظْهِرُ البلاهة، بينما هو عالم، أن يُظْهِرَ ما لديه من علم دُفْعَةً واحدة؛ ليكون ذلك بمثابة المعجزة لابن تومرت، وكان الونشريسي، باتفاق مع ابن تومرت، قد حفظ أسماء مَنْ

---

(١) وقصة ذلك: «أن أهل تينملل بعثوا إليه بطاعة قبيلتهم «هزميرة الجبل»، وأن سكناه لديهم أصلح له، وأقرب إلى بث دعوته، فسار إليهم، ونزل بتينملل، فأكرمه أهلها أيما إكرام، وأكَّدوا له خضوعهم وطاعتهم، وبايعوه، فرأى المهدي من كثرتهم وحصانة بلدهم ما راق لديه، وكان يخرج إلى الشريعة (أي: مورد الماء الذي يُستقى منه بلا رشاء) في خارجها، ويجلس على حجر مربع أمام المحراب، ويعظ الناس، فلاحظ أن قبيلة «هزميرة» يحضرون دائمًا متقلدين سلاحهم، فسألهم يومًا: «لم تمسكون سلاحكم، وإخوانكم الموحِّدون لا يمسكونه؟»، فتركوا حمل السلاح مدة، وكان قد توجس من كثرتهم وقوتهم، ونظر في أمرهم، فجاءوا ذات يوم إلى سماع الوعظ دون سلاح، وكان الموحدون بالعكس قد تقلدوا سلاحهم، فانقضوا عليهم، وأوسعوهم قتلًا، فقتلوا منهم في ذلك اليوم وفقًا لرواية اليسع نحو خمسة عشر ألف، وسُبيت نساؤهم، ونُهبت أموالهم، وقُسِّمت أراضيهم بين الموحدين». اهـ. من «دولة الإسلام في الأندلس» (١٨٢/٤)، ولكي لا تُحْدِثَ هذه الأعمال رد فعل عند أتباعه، أو تلقى معارضة عند الناس، فإنه كان يظهر بشيء من الخوارق والمعجزات؛ حتى يؤصل في نفوس الناس شرعية ما يقوم به، ويدعو إليه، انظر: «دولة الموحدين» ص (٦٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٩/٥٤٤-٥٤٥).

شَعَرَ أنهم يَشُكُّونَ في مهدية ابن تومرت، وكان ـ أيضًا ـ ابن تومرت قد طلب من القبائل تزويده بأسماء المشاغبين، فدفعها إلى الونشريسي، فحفظها، وبعد صلاة الفجر تقدم الونشريسي (الكاذب)، وأعلن أنه جاءه البارحة مَلكان، وشقا قلبه، وغسلاه، وحشواه علمًا، وحكمة، فاختبره القوم، فعجبوا من شدة حفظه، ثم شهد لابن تومرت بالمهدية. ثم قال: «اعرض عليَّ أصحابك؛ حتى أميز أهل الجنة من أهل النار، وقد أنزل الله ـ تَعَالَى ـ ملائكته إلى البئر التي في المكان الفلاني، يشهدون بصدقي، وكان المهدي قد وضع فيها رجالًا لهذا الغرض، فسار المهدي وأتباعه إلى ذلك البئر، وبعد أن وقف على رأسها، قال: «يا ملائكة الله، إن عبدالله الونشريسي قد زعم كيت، وكيت»، فقال من فيها: «صدق»، فصَدَّقَهُ الناس، ثم أمر بطمر البئر بحجة أنها مُقَدَّسَةٌ، وواضح أن طمره للبئر كان بسبب خوفه من أن يفضحوا أمره؛ مما سيكون له أسوأ الأثر على دعوته، وكشف زيفها)[١].

● قال الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ يصف هذه المذبحة المروِّعة:

(فلمَّا كان عامُ تسعةَ عِشرَ وخمسِ مئة، خرج يومًا، فقال: «تعلمون أن البشير ـ يُريد الوَنْشَرِيسي ـ رَجُلٌ أُمي، ولا يثبُت على دابَّة، فقد جعله الله مُبَشِّرًا لكم، مطَّلِعًا على أسراركم، وهو آيةٌ لكم، قد حَفِظَ القرآن، وتعلَّم الرُّكوب»، وقال: «اقرأ»، فقرأ الختمةَ في أربعةِ أيام، وركب حصانًا، وساقه، فَبُهِتُوا، وعدُّوها آيةً؛ لِغباوتهم، فقام خطيبًا، وتلا: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وتلا: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فهذا البشيرُ مطَّلِعٌ على الأنفس، مُلْهَمٌ، ونبيُّكم ﷺ يقول: «إِنَّ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ مُحَدَّثِينَ، وَإِنَّ عُمَرَ مِنْهُمْ»[٢]،

(١) «دولة الموحدين» ص (٨٦).

(٢) أخرجه البخاري: (٧/٤٢)، (٣٦٨٩) في فضائل أصحاب النبي ﷺ: باب مناقب عمر، من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ نَاسٌ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ»، وأخرجه مسلم (٢٣٩٨) والترمذي (٣٦٩٤) من حديث عائشة. وقال ابن وهب: تفسير «مُحَدَّثُونَ»: مُلْهَمُونَ، وقال ابن الأثير: «أراد بقوله «مُحَدَّثُونَ» أقوامًا يصيبون إذا ظنوا وحدسوا،=

وقد صَحِبَنَا أَقْوَامٌ أطلعه اللَّهُ على سرهم، ولا بُدَّ مِنَ النظرِ في أمرهم، وتيمُّمِ العدل فيهم، ثم نُودِيَ في جبال المصامدة: «من كان مطيعًا للإمام، فليأتِ»، فأقبلُوا يُهْرَعُونَ، فكانوا يُعرضون على البشير، فَيُخْرِجُ قومًا على يمينه، ويَعُدُّهُم مِن أهل الجنة، وقومًا على يساره، فيقول: «هؤلاء شاكُّون في الأمر»، وكان يُؤتى بالرجل منهم، فيقول: «هذا تائب، ردُّوه على اليمين، تاب البارحة»، فيعترِفُ بما قال، واتفقت له فيهم عجائب، حتى كان يُطلِقُ أهل اليسار، وهم يعلمون أن مآلَهم إلى القتل، فلا يَفِرُّ منهم أحد، وإذا تجمَّع منهم عِدَّةٌ، قتلهم قراباتُهم؛ حتى يقتل الأبُ ابنَه، والابن أباه، والأخُ أخاه.

قال: «فالذي صَحَّ عندي أنهم قُتِلَ منهم سبعون ألفًا على هذه الصفة، ويُسمُّونَهُ التمييز»[1].

ويبدو أن الذي دفع ابن تومرت للقيام بعمليات التمييز هو تراجع عدد كبير من الداخلين في دعوته عنها؛ وذلك بسبب ما تحمله من غُلُوٍّ، وشَطَطٍ، فقام بهذه العملية للتخلص من الذين يشك في إخلاصهم؛ خشية أن يقوى رد الفعل المضاد لدعوته[2].

(لقد علم ابن تومرت أن الباقين من أهلِ وأقارِبِ المقتولين لا تطيب قلوبهم بذلك، فجمعهم، وبَشَّرَهُمْ بانتقال مراكش إليهم، واغتنام أموال المرابطين؛ فسرهم ذلك، وسلَّاهم عن أهلهم، ثم ندبهم إلى قتال المرابطين، وتحول موقف الموحدين من الدفاع

= فكأنهم قد حُدِّثُوا بما قالوا»، وراجع ص(٣١٣).
قال الشيخ شعيب الأرناؤوط معلقًا على استدلال ابن تومرت: (واستشهاد ابن تومرت بالحديث في غير محله، وهو دال على سوء طويته، وجراءته على الله ورسوله، فإن البشير الونشريسي قد باع نفسه من الشيطان، وصار يستلهم منه الحيل الماكرة، والأساليب الخبيثة لإضلال الناس وإفسادهم إرضاءً لسيده ابن تومرت الذي اتخذه مطية لأطماعه، وتحصيل مرامه، فهو من أبعد الناس عن منزلة التحديث الجليلة التي اختص بها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁) اهـ. من حاشية «السير» (٥٤٦/١٩).

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥٤٦/١٩)، وانظر: «دولة الإسلام في الأندلس» (١٨٣/٤).
(٢) «دولة الموحدين» ص (٦٩).

إلى الهجوم، وبعد سلسلة من الحملات الناجحة التي قام بها ابن تومرت على معاقل المرابطين أراد أن يحسم الأمر بإسقاط عاصمة المرابطين مراكش)[١].

فَصْلٌ

● قال الحافظ الذهبي - رحمه الله - تَعَالَى -:

(وقال - أي عبد الواحد المراكشي -: «وكان جُلُّ ما يدعو إليه الاعتقادَ على رأي الأشعري، وكان أهلُ الغَرْب ينافِرُون هذه العلوم، فجمع مُتولي فاس الفقهاء، وناظرُوه، فظهر، ووجد جوًّا خاليًا، وقومًا لا يدرون الكلامَ، فأشاروا على الأمير بإخراجه، فسار إلى مَرَّاكُشَ، فبعثوا بخبره إلى ابن تاشفين، فجمع له الفقهاءَ، فناظره ابنُ وهيب الفيلسوف[٢]، فاستشعر ذكاءه، وقوةَ نفسه، فأشار على ابنِ تاشفين بقتلِهِ، وقال: «إن وقع إلى الْمَصَامِدَةِ قَوِيَ شرُّهُ»، فخاف اللهَ فيه، فقال: «فاحبسه»، قال: «كيف أحبِسُ مسلمًا لم يَتَعَيَّنْ لنا عليه حقٌّ؟ بل يُسافر»، فذهب، ونزل بِتينَمَلَل، ومنه ظهر، وبه دُفِنَ، فبث في المصامدة العلم، ودعاهم إلى الأمر بالمعروف، واستمالهم، وأخذ يشوق إلى المهدي، ويروي أحاديث فيه، فلما توثق منهم قال: أنا هو، وأنا محمد بن عبدالله، وساق نسبًا له إلى علي[٣]، فبايعوه، وألف لهم كتاب «أعز ما يطلب»، ووافق المعتزلة

---

(١) «السابق» ص (٨٦).

(٢) كان مالك بن وهيب مستشار أمير المسلمين علي بن يوسف ووزيره، وكان فقيهًا زاهدًا ورعًا، اشتغل بالفلسفة، لكنه لم يستطع أن يقيد معارفه الفلسفية ولا أن يَبُثَّها، «بل أضرب عن النظر ظاهرًا فيها وعن التكلم فيها لما لحقه من المطالبات في دمه بسببها» كما يقول ابن أبي أصيبعة، انظر: «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ص(٥١٥).

(٣) فادَّعى أنه محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن جابر ابن يحيى بن رباح بن يسار بن العباس بن **محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب**.
علَّق الحافظ منصور بن العمادية على هذا النسب قائلًا:
«وفي ذلك نظر من حيث إن محمد بن الحسن لم يُعقب»، انظر: «سير أعلام النبلاء» (٥٣٩/١٩، ٥٥٢).
فإن قيل: «إن كان انتسب إلى أهل البيت، فلا ينبغي الطعن فيه؛ لأن الناس مصدَّقون في أنسابهم»=

في شيء، والأشعرية في شيء، وكان فيه تشيع، ورتب أصحابه، فمنهم العشرة، فهم أول من لبَّاه، ثم الخمسين، وكان يسميهم المؤمنين، ويقول: ما في الأرض من يؤمن إيمانكم، وأنتم العصابة الذين عنى النبي ﷺ بقوله: «لا يزال أهل الغرب ظاهرين»(١)، وأنتم تفتحون الروم، وتقتلون الدجال، ومنكم الذي يؤم عيسى، وحدثهم بجزئيات اتفق وقوع أكثرها، فعظمت فتنة القوم به، حتى قتلوا أبناءهم وإخوتهم؛ لقسوتهم، وغِلَظِ طباعهم، وإقدامهم على الدماء، فبعث جيشًا، وقال: «اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الدين، فادعوهم إلى إماتة المنكر، وإزالة البدع، والإقرار بالمهدي المعصوم، فإن أجابوا، فهم إخوانكم، وإلا، فالسنة قد أباحت لكم قتالهم»، فسار بهم عبد المؤمن يقصد مراكش، فالتقاه الزبير ابن أمير المسلمين، فكلموهم بالدعوة، فردوا أقبح رد، ثم انهزمت المصامدة، وقُتِل منهم ملحمة، فلما بلغ الخبرُ ابنَ تومرت قال: «أنجي عبدُ المؤمن؟» قيل: نعم، قال: «لم يُفْقَدْ أحد»، وهوَّن عليهم، وقال: «قتلاكم شهداء».

قال الأمير عزيز في «أخبار القيروان»: «سمَّى ابن تومرت أصحابه بالموحِّدين، ومن خالفه بالمجسِّمين(٢)، واشتهر سنةَ خمسَ عشرةَ، وبايعتْه هَرْغَة على أنه المهدي، فقصده

= فالجواب: أن من يدرس سيرة ابن تومرت، ويسبر شخصيته، يعرف أنه كذَّاب دجَّال، لا يتورع عن أخس الوسائل لبلوغ غاياته وأطماعه، وتحقيق طموحاته، وآية ذلك أنه ادعى المهدية بعد ادعائه النسب الشريف؛ فصار كلابس ثَوْبَيْ زُورٍ، وانظر ص(٤٢٥).

(١) وتمامه: «عَلَى الْحَقِّ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»، أخرجه مسلم في «صحيحه» (١٩٢٥) في الإمارة من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. والمراد بأهل الغرب في هذا الحديث أهل الشام؛ لأنهم بالنسبة للمدينة النبوية في الجهة الشمالية الغربية. وانظر «فتح الباري»: (١٣/٢٩٥) الطبعة السلفية، وابن تومرت ينتقي النصوص المتشابهة، ويستدل بها، ويفسرها كما يروق له؛ ليكتسب بها ثقة من حوله.

(٢) ترجع هذه التسمية إلى أن ابن تومرت سأل أنصاره الموحدين في الغزوة التاسعة عما يقوله المرابطون عنهم؟ فقالوا: «إنهم لقبونا بالخوارج»، فقال ابن تومرت: «سبقونا بالقبيح، لو كان خيرًا أحجموا عنه، لقبوهم أنتم، فإن الله ذكر في كتابه: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾، قولوا لهم أنتم أيضًا «المجسمون» اهـ. من «دولة الإسلام» ص (١٨٣)، ومن المعلوم المشهور عند أهل العلم أن من علامات أهل البدع الوقيعة في أهل الحديث، وتسميتهم أهل السنة بالحشوية والمجسمة، تنفيرًا عن الحق وتشنيعًا عليه بلباسٍ من اللفظ القبيح، وانظر: «الرد العلمي» للمؤلف ص(٢١٦ - ٢١٧).

الملثمون، فكسروا الملثمين، وحازُوا الغنائم، ووثقت نفوسهم، وأتتهم أمداد القبائل، وَوُحِّدَتْ هنتاتة، وهي من أقوى القبائل»، ثم قال عزيز: «لهم تودُّد، وأدبٌ، وبشاشة، ويلبَسُونَ الثيابَ القصيرةَ الرخيصة، ولا يُخْلون يومًا من طِرادٍ، ومثاقفةٍ، ونضال، وكان في القبائل مفسدون، فطَلَبَ ابنُ تُومرت مشايخَ القبائل، ووعظهم، وقال: لا يَصْلُحُ دينُكُم إلا بالنهي عن المنكر، فابحثوا عن كُلِّ مُفْسِدٍ، فانهوه، فإن لم ينتَهِ، فاكتُبُوا إليَّ أسماءَهم، ففعلوا، ثم هدَّد ثانيًا، فأخذ ما تكرَّر من الأسماء، فأفردها، ثم جمع القبائلَ، وحضَّهم على أن لا يغيبَ منهم أحد، ودفع تلك الأسماء إلى البشير، فتأمَّلها، ثم عَرَضَهم رجلًا رجلًا، فمن وجد اسْمَه ردَّه إلى الشمال، ومن لم يجده بعثه على اليمين، ثم أمر بتكتيف أهلِ الشمال، وقال لِقراباتهم: هؤلاء أشقياء مِن أهل النار، فلتقتُلْ كُلُّ قبيلة أشقياءَها، فقتلوهم، فكانت واقعةً عجيبة، وقال: بهذا الفعل صحَّ دينُكم، وقوي أمرُكم»[1].

* * *

(وتضطرب الروايات حول تحديد تاريخ زحف الموحدين على مراكش، وسبب ذلك يعود إلى أن المعركة الفاصلة بين الطرفين جاءت بعد سلسلة معارك دامية؛ فالوصول إلى أسوار مراكش لم يتم بسهولة، بل كُلِّفَ الموحدون اختراقَ كلِّ الخطوط الدفاعية التي أقامها المرابطون، وحصَّنُوها بالقلاع. على أي حال صمَّم ابن تومرت على القضاء على المرابطين بإسقاط عاصمتهم مراكش، فأخذ يستدعي القبائل إلى تينملل ليحشدهم، ويوجههم إلى ذلك الهدف المنشود.

وتوافدت القبائل على ابن تومرت، وقد استعدت للقتال، وتجمع منهم نحو أربعين ألفًا منهم الفرسان، والغالب منهم رجَّالة. وقدم عليهم الونشريسي، ووجههم نحو مراكش، فبدءوا بالزحف نحوها عام ٥٢١هـ/ ١١٢٧م، وقبل وصولهم إلى أسوار

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٩/٥٤٨ـ٥٥٠).

مراكش خاضوا معارك عديدة مع المرابطين، كانت جميعها لصالحهم[١].

وضرب الموحدون الحصار حول مدينة مراكش مدة أربعين يومًا على أرجح الروايات، وطوال فترة الحصار كانت تدور رحى معارك ضارية بين المرابطين المدافعين عن عاصمتهم، والموحدين الذين كانوا يتمتعون بروح معنوية عالية؛ لكثرة انتصاراتهم على المرابطين.

وقبل بدء القتال دارت أحاديث بين الطرفين، الغرض الأساس منها تحطيم نفسية الخصم قبل مقارعته بالسِّنان، فبادر الموحدون بإرسال رسالة إلى المرابطين يطلبون منهم الاعتراف بمهدية ابن تومرت، والانصياع إليه، فرد أمير المسلمين عليهم مُحَذِّرًا إياهم من عاقبة مفارقة الجماعة، وهكذا لم يستجِبْ أي طرف للآخر.

وأخذ الونشريسي القائد العام للقوات الموحدية، وعبدالمؤمن إمام الصلاة لهم بتنظيم القوات الموحدية لخوض المعركة الفاصلة، وما هي إلا مدة وجيزة حتى اشتبك الطرفان في معركة مروعة استمرت من الصباح حتى الغروب، قُتِلَ فيها في بداية النهار الونشريسي، فخلفه عبدالمؤمن في قيادة الجيش، ولما رأى المصامدة كثرة المرابطين وقوتهم أسندوا ظهورهم إلى بستان هناك، والبستان عندهم يسمى البُحَيْرة، وما أن جن الليل حتى قتل معظم المصامدة، ففرَّ عبدالمؤمن بنفر يسير لا يتجاوز الأربع مئة، ما بين فارس وراجل، وبعد انتهاء المعركة بحثَ الموحدون عن جثة الونشريسي بين جثث القتلى، فلم يعثروا عليها؛ لأن عبدالمؤمن كان قد واراها فورًا، فأشاعوا فيما بينهم أنه رُفِعَ إلى السماء.[٢]

وتابع عبدالمؤمن مع من نجا من القتل سيره نحو تينملل، وعندما وصل إلى هيلانة[٣] استعاد أنفاسه، وحشد جنوده، وأعاد الكرة على مراكش، فهُزِمَ ـ أيضًا ـ،

(١) انظر تفصيل ذلك في «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/١٧٨ ـ ١٧٩).

(٢) انظر: «دولة الإسلام» (٤/١٨٨ ـ ١٨٩).

(٣) اسم قبيلة بربرية كانت تسكن بالقرب من مراكش.

وقُتل من أتباعه نحو اثني عشر ألفًا، فعاد أدراجه مع خمسين رجلًا من أتباعه إلى تينملل، وكان البيذق قد سبق عبدالمؤمن إلى ابن تومرت، وأخبره بخبر الفاجعة التي حلت بهم في البحيرة، فسأله ابن تومرت عن عبدالمؤمن، فقال: «هو حي»، فرد مُعَزِّيًا: «الأمر باقٍ»، وأوصاهم بعدم الجزع.

... ترددت أصداء هزيمة البحيرة بين قبائل الموحدين، فزلزلت ثقتهم بابن تومرت، فالمهدي مؤيد من السماء، فكيف يُهْزَم من كان حليفَه اللهُ...، وترتب على هذا التساؤل إعادة النظر في عقيدة المهدي، وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلها ابن تومرت لإقناعهم بأن قتلاهم في الجنة، فقد بقيت رواسب الشك في مهديته تُسَاوِرُ نفوسهم؛ عندها لجأ ابن تومرت إلى أسلوب المكر والخداع؛ حتى يعيد الثقة بدعوته، وقيادته، ومهديته، فاتفق مع مجموعة من أتباعه على أن يدفنهم أحياء، وجعل لكل واحد منهم متنفسًا في قبره، وأوصاهم بأن يقولوا إذا سئلوا: «قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا؛ من مضاعفات الثواب على جهاد لمتونة، وعلو الدرجات التي نلنا بالشهادة، فَجِدُّوا في قتال عدوكم، فإن ما دعاكم إليه الإمام المهدي صاحبكم حق»، ووعدهم إذا نفذوا ذلك بأن يخرجهم، ويجعل لهم منزلة رفيعة، ولما ذهب أكثر الليل اجتمع بأشياخ الموحدين، وأوضح لهم بأنهم حزب الله، وأنصار دينه، وطالبهم بالجد في قتال أعدائهم، وطلب منهم إن كانوا في شك مما يقول أن يذهبوا سويًّا إلى قبور قتلاهم في معاركهم مع المرابطين؛ ليحدثوهم بما لقوا من خير، ونعيم، وذهب معهم إلى مكان إحدى المعارك التي نشبت مع المرابطين، وسقط فيها عدد كبير من الموحدين، والتي يُوجَدُ فيها ذلك النفر الذين دفنهم أحياء، ولقنهم ما يقولون.

ولما وصل رفع صوته في المقبرة قائلًا: «يا معشر الشهداء خبرونا ما لقيتم من الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ»، فقالوا: «وجدنا ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على بال بشر»، إضافة إلى ما لقنهم إياه ابن تومرت، عندها ذُهِلَ الناس، وعادت ثقتهم

بالمهدي، وبدلًا من أن يُخْرِجَ المدفونين قام بإغلاق المنافس التي كان قد تركها لهم؛ فماتوا من فورهم؛ لأنه خَشِيَ أن يخرجوا فيذيعوا سرَّه، فيفتضح أمره فتكون كارثة عليه(١).

ورأى ابن تومرت في قرارة نفسه أن الهزائم التي مُنِيَتْ بها قواته ما هي إلا نذير شؤم للإطاحة بكل مخططاته التي سَخَّر حياته من أجلها؛ ليقيم دولته المنشودة، فتفاعلت هذه الأحداث في نفسه لتورثه المرض الذي أودى بحياته بعد فترة وجيزة(٢).

وتكاد تجمع معظم المصادر على أن وفاته كانت عام ٥٢٤هـ، ١١٣٠م، وتذكر المصادر الموحدية أنه لما شَعَرَ بدنو أجله استدعى أصحابه المسمين بالجماعة، وأهل الخمسين، فلما حضروا أخذ يعظهم، واعدًا إياهم بالنصر على المرابطين، ومحذرًا إياهم من الفرقة والتناحر، وأمر عليهم عبدالمؤمن، وطلب منهم السمع والطاعة له ما دام مطيعًا لربه.

وبهذه المواعظ وَدَّعَ ابن تومرت أصحابه، مُعْلِمًا إياهم بأنه راحل إلى ربه في هذه السنة، ولما اشتد عليه مرضه قَدَّم عبدالمؤمن بن علي للصلاة، وأمره بإخفاء وفاته حتى تجتمع كلمة الموحدين على أمير، وأن يتكفل بغسله، ودفنه بجامع تينملل.

وعندما توفي ابن تومرت كفنه عبدالمؤمن بن علي، وصلى عليه، ودفنه سرًّا بمسجده كما أوصاه، وقد كتم أصحابه وفاته مدة ثلاثة أعوام(٣)، ولم يعلنوها إلا في عام ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م بعد أن اتفقت كلمتهم على عبدالمؤمن بن علي). اهـ(٤).

وأفضى ابن تومرت إلى ربه، وهو لا يدري مصير دعوته لما لحق أتباعه من هزيمة

---

(١) وصدق من قال: «من أعان ظالمًا سُلِّط عليه».

(٢) انظر: «السابق» (٤/١٩٠).

(٣) وهذا على رواية ابن صاحب الصلاة وابن القطان كما في «دولة الإسلام» (٤/٢١٩).

(٤) «دولة الموحدين» ص (٨٦-٩١) بتصرف.

نكراء في موقعة «البحيرة»، وإن كان نجح في ترسيخ دعوته في قلوب أتباعه حتى صدقوه، وآمنوا بمهديته[١]، وعلى رأسهم عبدالمؤمن تلميذ ابن تومرت الوفي، الذي حمل الراية بعده، وبويع سرًّا سنة ٥٢٤هـ، ثم علنًا سنة ٥٢٦هـ[٢]. وما أن استتب له الأمر حتى عاد يناوش المرابطين، واستمر صراعه معهم عبر سلسلة طويلة من القتال المرير انتهت ببناء دولة الموحدين على أنقاض دولة المرابطين، التي اتسعت لتشمل المغرب الأقصى كله، ثم المغربين الأدنى، والأوسط، حتى امتدت دولة الموحدين من طرابلس شرقًا إلى السوس الأقصى غربًا، ثم دخل عبدالمؤمن الأندلس سنة ٥٤٦هـ، ودان له كثير من بلاد الأندلس.

* * *

(١) قال ابن خلكان ـ رحمه الله ـ: (ولم يفتح شيئًا من البلاد، وإنما قرر القواعد ومهَّدها، ورتب الأحوال ووطدها، وكانت الفتوحات على يد عبدالمؤمن). اهـ. «وفيات الأعيان» (٥/٥٥).

(٢) أي بعد وفاة ابن تومرت بنحو عامين، وهذا على رواية صاحب «روض القرطاس» كما في «دولة الإسلام» (١٩٨/٤، ٢٢٠، ٢٢١).

ومن الطريف ما ذكره ابن صاحب الصلاة أن عبد المؤمن ـ جريًا على سنن سلفه في الدجل ـ دبَّر حيلة «الطائر والشبل»، ليقنع الموحدين ببيعته، فقد درَّبهما خُفيَة خلال فترة البيعة الخاصة ـ أي على مدى ثلاث سنوات ـ: الطائرَ ـ ولعله كان الببغاء ـ على أن يدعو له بالخلافة، والشبلَ: على أن يجلس بين يديه وادعًا هادئًا، ثم دعا بعد ذلك الأشياخ الموحدين إلى مجلسه، واستشارهم في أمر من يتولى الخلافة، وهنا دعا الطائر له بنطقه: «العز والتمكين للخليفة عبدالمؤمن أمير المؤمنين»، ومثل الشبل بين يديه، رابضًا مطيعًا لإشارته، فتأثر الحاضرون بذلك، وبايعوه، كما في «دولة الإسلام» (٢١٩/٤ ـ ٢٢٠).

الْعَقِيدَةُ التُّومَرْتِيَّةُ

● إن العقيدة (التومرتية) كانت مزيجًا من أفكار منحرفة، وخليطًا من آراء الفرق الضالة؛ كالرافضة، والمعتزلة، والأشاعرة، والخوارج:

ابْنُ تُومَرْتَ رَائِدُ الْأَشْعَرِيَّةِ(*) فِي الْمَغْرِبِ الْإِسْلَامِيِّ

(نهج ابن تومرت نهج الأشاعرة في تأويل بعض صفات الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ حيث يذكر ابن خلدون أن ابن تومرت هو الذي حمل أهل المغرب على القول بالتأويل، والأخذ بالمذهب الأشعري في كافة العقائد، كما ذكر المراكشي أن ابن تومرت ضمَّن تصانيفه مذهب الأشاعرة في كثير من المسائل؛ حيث كان «... جُلُّ ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريقة الأشعرية...»، أما المقريزي فيرى أن ابن تومرت تعلَّم المذهب الأشعري أثناء وجوده في بلاد العراق، فلما عاد إلى بلاد المغرب، وأخذ بتعليم أصحابه، علَّمهم المذهب الأشعري، فكان ذلك سببًا في انتشار هذا المذهب في بلاد المغرب.

(*) اعلم ـ رحمك الله ـ أنه ليس المقصود بذلك أن العقيدة الأشعرية لم تكن تعرف في المغرب الإسلامي قبل ابن تومرت، فقد دخلته قبله في وقت مبكر، فمن علماء الأشاعرة المغاربة قبل ابن تومرت: الفقيه أبو عمران الفاسي الذي رحل إلى بغداد عام (٣٩٩هـ)، وتلقى أصول المذهب الأشعري على القاضي أبي بكر الباقلاني، ومنهم: أبو الوليد الباجي (ت٤٧٤هـ)، وأبو بكر محمد بن الحسن المرادي (ت٤٨٩)، ويقال إنه أول من أدخل العقيدة الأشعرية إلى المغرب الأقصى، ومنهم: القاضي أبو بكر بن العربي المعافري (ت٥٤٣هـ) الذي رحل إلى بغداد، وأخذ العقيدة الأشعرية عن أبي حامد الغزالي، وعاد إلى المغرب سنة (٤٩٤هـ).

إذن لا شك أن أهل المغرب الإسلامي عرفوا العقيدة الأشعرية قبل ظهور ابن تومرت، لكن هذه المعرفة بقيت محصورة في «أفراد» من العلماء، ولم ينتدبوا أنفسهم إلى الدعوة إليها، ولم يكن لها وجود في مناهج التعليم، في حين تغير الحال جذريًّا بعد عودة ابن تومرت من رحلته المشرقية، حيث حمل لواء الدعوة إلى الأشعرية، وشنع على مذهب السلف، وأعلن الحرب على أهله، وتمكن من فرض العقيدة الأشعرية في بلاد المغرب بمكر الثعلب، وغدر الجمل، وقوة السيف، انظر: «السلفية وأعلامها في موريتانيا» ص(٢٢٠ ـ ٢٢٤).

إن ابن تومرت من كبار الدعاة إلى المذهب الأشعري، بل أخذ منهم أكثر المسائل إلا أنه في إثبات الصفات، قد وافق المعتزلة في نفيها، وفي مسائل قليلة غيرها)[١].

● **لقد أصبح ابن تومرت فيما بعد من أعلام الأشاعرة لسببين.**

(**الأول**: أنه هو الذي فتح الباب في بلاد المغرب لدخول التأويل الكلامي، ولم يقتصر الأمر على هذا، بل تبنى - بصفته إمامًا مطاعًا - هذا الجانب، فكان لسلطته الدور الأكبر في انحسار مذهب أهل السنة، وفُشُوٍّ مذاهب المتكلمين.

الثاني: تأليفه المرشدة[٢]، وقد تكلمنا عنها، وهي مستقاة من مذهب الأشاعرة، ولم يقتصر الأمر على هذا بل كان يفرض هذه العقيدة على الناس؛ بحيث تدرس للعوام؛ وقسمهما إلى سبعة أحزاب عدد أيام الأسبوع، وقال لهم: «إن من لا يحفظ هذا التوحيد فليس بموحِّد، وإنما هو كافر لا تجوز إمامته، ولا تؤكل ذبيحته»، وأخذهم بقراءة حزب واحد منه كل يوم إثر صلاة الصبح، «فصار هذا التوحيد عند قبائل المصامدة كالقرآن العزيز، لأنه وجدهم قومًا جهلة لا يعرفون شيئًا من أمر الدين، ولا من أمر الدنيا»[٣].

لقد كان أهل المغرب في عافية من بلاء أهل الكلام، متبعين الكتابَ والسنةَ على مذهب مالك، وأهل المدينة، مشتغلين بالقرآن الكريم، وأحاديث الصحيحين، والموطإ، وغيرها، وكانوا في باب الصفات على مذهب السلف الصالح، متبعين إمامَهُمْ مالك ابن أنس - رحمه الله -، وأصحابه، الذين لم يُعْرَفْ عن أحد منهم القول بالتشبيه، والتجسيم[٤] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾.

(١) «دولة الموحدين» ص (٤٩).
(٢) وقد انتقد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله «المرشدة»، في «مجموع الفتاوى» (١١/٤٧٦ - ٤٩١)، وقال: «وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب كبير» (١١/٤٨٧).
(٣) «الأثر السياسي للعلماء» ص(٢٢٠)، نقلًا عن «روض القرطاس» ص(١٧٧).
(٤) انظر: «دولة الموحدين» ص (٥٢).

• يقول المؤرخ المغربي السلاوي:

«... وأما حالهم - يعني أهل المغرب - في الأصول، والاعتقادات، فبعد أن طهرهم الله من نزعة الخارجية أولًا، والرافضية ثانيًا، أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - في الإيمان بالمتشابه[١]، وعدم التعرض له بالتأويل، مع التنزيه عن الظاهر...، واستمر الحال على ذلك مدة، إلى أن ظهر محمد بن تومرت مهدي الموحدين في صدر المئة السادسة»[٢].

لقد سمى ابن تومرت أتباعه بالموحدين تلاعبًا بالأسماء، وتحريفًا لمعانيها، وتعريضًا بالمرابطين الذين اتهمهم كذبًا وزورًا بالتجسيم؛ ومن ثَمَّ كفَّرهم، واستحلَّ قتالهم، وسَفَكَ دماء الآلاف المؤلفة منهم، واستحل أموالهم، وسبى نساءهم[٣].

قال الذهبي - رحمه الله -: (قال اليسع بنُ حزم: سَمَّى ابنُ تُومرت المرابطين بالمجسِّمين، وما كان أهلُ المغرب يدينون إلا بتنزيه الله - تَعَالَى - عما لا يجب وصفُه بما يجب له، مع تركِ خوضهم عمَّا تقصر العقولُ عن فهمه.

إلى أن قال: فكفَّرهم ابنُ تُومرت لجهلهم العرضَ والجوهرَ[٤]، وأن من لم يَعْرِفْ ذلك لم يعرفِ المخلوقَ من الخالق، وبأن من لم يُهاجِرْ إليه، ويُقاتل معه، فإنه حلالُ الدم، والحريم، وذكر أن غضبَه لله، وقيامَه حِسبةٌ)[٥].

---

(١) انظر: «الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل» د. محمد السيد الجليند ص (٢٥ - ٧١)، (١٤٩ - ١٨٥).

(٢) «دولة الموحدين» ص (٦٤).

(٣) «السابق» ص (٥٢)، (١٠٧-١٠٨).

(٤) وذلك لأنه لما ناظر العلماء تجنب مناظرتهم في صميم علوم السلف كالقرآن والحديث والفقه، وغلبهم بالعلوم التي كان المرابطون ينفرون منها كالفلسفة والمنطق والكلام، ولعل أحسن تلخيص لموقف العلماء من الفلسفة في عهد المرابطين ما نجده في «وصية القاضي أبي الوليد الباجي لولديه» محذرًا من «قراءة شيء من المنطق وكلام الفلسفة، فإن ذلك مبني على الكفر والإلحاد، والبعد عن الشريعة»، كما نقله في «الأثر السياسي» ص(١٢١)، وقال المقري وهو يتكلم عما كان يشتغل به طلبة العلم في عهد المرابطين: «وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم» اهـ. من «نفح الطِّيب» (١/٢٢١).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٩/٥٥٠-٥٥١)، وانظر: «السلفية وأعلامها في موريتانيا» ص(٢٠٤-٢٠٧).

تَأَثُّرُ ابْنِ تُومَرْتَ بِالْمُعْتَزِلَةِ

إلى جانب تأثره بالمذهب الأشعري: تأثر ابن تومرت بمذهب المعتزلة؛ حيث قال ببعض آرائهم، فسَمَّى مرتكب الكبيرة بالفاسق، ولم يُسَمِّهِ بالمؤمن، أو الكافر، وهذا قريب من مذهب المعتزلة.

كما وافقهم في نفي الصفات عن الله ـ سبحانه ـ وسمَّى ذلك توحيدًا؛ إذ قال حينما تحدث عن صفات الله: «واشْتَغِلُوا بتعليم التوحيد؛ فإنه أساس دينكم، حتى تنفوا عن الخالق التشبيه، والشريك، والنقائص، والآفاق، والحدود، والجهات، ولا تجعلوه ـ سبحانه ـ في مكان، ولا في جهة؛ فإنه ـ تَعَالَى ـ موجود قبل الأمكنة والجهات؛ فمن جعله في جهة ومكان فقد جسَّمه، ومن جسمه فقد جعله مخلوقًا، ومن جعله مخلوقًا فهو كعابد وثن»، لقد تبنى ابن تومرت مذهب المعتزِلَةِ في الأسماء والصفات؛ حيث نفى كل ما عساه أن يوهم ـ في زعمه ـ الشبه والمثلية لله ـ سبحانه ـ ولو كان ذلك من الأسماء والصفات الثابتة لله في الكتاب والسنة؛ ولهذا سمى أصحابه بالموحدين؛ لأنهم ـ في رأيه ـ هم الذين يوحدون الله؛ لنفيهم الصفات عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ، كما كان يسمي أتباعه بالمؤمنين، ويقول لهم: ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم[(١)] .

لقد استعمل الموحدون القوة في فرض عقائدهم المختلطة على الشمال الأفريقي، واقتدوا بالمعتزلة في زمن المأمون العباسي، في فرضهم على الناس عقائدهم تحت شعار الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر[(٢)] .

---

(١) «دولة الموحدين» ص (٤٨-٤٩)، وانظر: «دولة الإسلام» (٤/٢١٣ ـ ٢١٤).

(٢) «السابق» ص (٥١).

ذِكْرُ مَا وَافَقَ فِيهِ الرَّافِضَةَ

ومما وافق فيه الرافضة جعلُه الإمامةَ شعارًا لدعوته، فقد قال في كتابه «أعز ما يُطْلَب»: «ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة في كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة، ما من زمان إلا وفيه إمام لله قائم بالحق في أرضه من عاد إلى نوح، ومن بعده إلى إبراهيم، ولا يكون الإمام إلا معصومًا من الباطل ليهدم الباطل، لأن الباطل لا يهدم الباطل».

إلى أن يقول: «والإمامة هي عمدة الدين وعموده على الإطلاق في سائر الأزمان» ثم يقول بعد كلام: إنه «لا يكذب بهذا، إلا كافر أو جاحد أو منافق أو زائغ أو مبتدع أو مارق أو فاجر أو فاسق، أو رَذْلٌ أو نَذْلٌ، لا يؤمن بالله واليوم الآخر»[(١)].

ووافق الرافضة أيضًا في ادعائهم العصمة لأئمتهم[(٢)]؛ وذلك أنه ادعى العصمة لنفسه، وصار أتباعه يطلقون عليه لقب «المعصوم»، دون ذكر اسمه؛ لاشتهاره به.

وقد حاول ابن تومرت أن يتدرج في إظهار هذا الأمر في بادئ أمره، فبدأ أولًا بالتلميح لهم، ثم صرَّح بدعوى العصمة لنفسه، وأنه المهدي المعصوم، وروى في ذلك أحاديث كثيرة، ولم يتورع عن الكذب في دعواه أنها تتمثل فيه، لقد سلك مع أتباعه مسلك التدرج، فأقنعهم بنسبه العربي الهاشمي، ثم بالمهدية، ثم بالعصمة.

والعصمة عند أهل السنة والجماعة لم تثبت إلا للأنبياء، والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، فيما يُبَلِّغُونَ عن الله من شرع، ولم يقولوا بها لسواهم، حتى لكبار الصحابة، الذين خصهم الله بالفضل؛ كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وغيرهم.

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/٢٠٦ ـ ٢٠٧).

(٢) قال ابن خلدون: «وكان من رأيه القول بعصمة الإمام علي رضي الله عنه على رأي الإمامية، من الشيعة»، انظر «سير أعلام النبلاء» (١٩/٥٤٨) هامش رقم (١).

إن ابن تومرت بهذا النهج يكون قد وافق الرافضة الاثني عشرية الذين قالوا بالعصمة لأئمتهم؛ حيث يقولون بوجوب عصمتهم من الكبائر، والصغائر، والنسيان؛ كما قالوا: إن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصومًا من جميع الرذائل والفواحش، ما ظهر منها وما بطن، من سن الطفولة إلى الموت، عمدًا وسهوًا، كما يجب أن يكون معصومًا من السهو، والخطإ، والنسيان، وهكذا نرى كيف غالى ابن تومرت في القول بالعصمة لنفسه، وهذا بلا شك انحراف عقدي خطير؛ **لأن من جعل بعد الرسول ﷺ معصومًا يجب الإيمان بكل ما يقوله فقد أعطاه معنى النبوة، وإن لم يعطه لفظها**، بل لم يكتفِ بهذا الأمر؛ حيث كان يأمر بقتل كل من يشك في عصمته.

ولكي يُؤَصِّلَ هذا الادعاء الكاذب عند أتباعه ألف لهم كتاب «أعز ما يطلب[١]»، وأمرهم بقراءته، بل حفظِهِ، وهذا بلا شكٍّ مما أصَّل فكر ابن تومرت، ومحبته في نفوس أصحابه.

إن عقيدة العصمة والمهدية التي غَرَسَهَا ابن تومرت في أصحابه سهلت له القضاء على خصومه، ودفع قبائل المصامدة ومن حالفها إلى مقاتلة المرابطين[٢]).

ومما اقتبسه ابن تومرت من الشيعة الاعتقاد في «الجفر»، بل حُكي أنه ادَّعى أنه اطلع على كتاب «الجفر»، ومنه تَعَرَّفَ ـ في زعمه ـ على صفات عبدالمؤمن بن علي حين لقيه في ملَّالة[٣].

فمن ثم قال فيه عبدالواحد المراكشي: «وكان يبطن شيئًا من التشيع»[٤].

* * *

(١) ويمكن اعتبار كتابه «أعز ما يُطلب» وصية ابن تومرت العقيدية والـ ، فلقد شكل ما فيه من تعاليم ومبادئ ـ خاصة بالإمامة والزعامة السياسية والدينية ـ أساس الدور حدية الروحي والسياسي.

(٢) «دولة الموحدين» ص (٤٦ـ ٤٨) بتصرف.

(٣) انظر ص(٣٨٩).

(٤) «المعجب» ص(٢٧٥).

ذِكْرُ مَا وَافَقَ فِيهِ الْخَوَارِجَ

أَوَّلًا: التَّهَوُّرُ فِي تَكْفِيرِ الْمُسْلِمِينَ:

(لقد اشتط ابن تومرت، وانحرف عن المنهج الصحيح من أجل تحقيق أهدافه؛ ولذلك نجده كفَّر من لم يُؤْمِنْ بما يقول، ويَعْتَنِقْ ما يدعو إليه، واستباح دمه، ولو كان من أتباعه، كما قال بكفر دولة المرابطين، وَوُجُوب جهادها، ولتأصيل هذا المبدإ في نفوس أصحابه؛ صرَّح به في أكثر من مناسبة، كما ضَمَّنَهُ كتبه التي أَلَّفها لهم، ورسائله التي كان يبعثها إلى الموحدين حيثما كانوا؛ حيث جاء في إحدى رسائله أن المرابطين قد عملوا «... على إهلاك الحرث والنسل، والاعتداء على الناس في أخذ أموالهم، وخراب ديارهم، وفساد بلادهم، وسفك دمائهم، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل، وأخذ أموال اليتامى، والأرامل...»(*).

وقال ابن تومرت في رسالته إلى علي بن يوسف بن تاشفين ـ رحمه الله ـ، والتي

(*) وقد تكون هذه الاتهامات الصادرة من خصم ظلوم من الكذب الذي لم يكن يتورع عنه ابن تومرت من أجل تثبيت دعوته، ومع أننا لا ننزه الدولة المرابطية ـ عن الخطإ واضطراب الأحوال، وطروء صور من الانحراف عن الشرع في عهدها الأخير ـ إلا أن علاج هذا كان النصح المخلص والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا أن يفعل ما فعل، وعلى كلٍّ تبقى هذه الدولة المجيدة صفحة مشرقة في التاريخ الإسلامي عامة، وتاريخ المغرب الإسلامي خاصة، فقد عاشت عمرها كله في الجهاد في سبيل الله لم تضع السيف قط، وكان للمرابطين سمعة طيبة في التعفف عن أموال الرعية، وإقامة العدل، وإغاثة الملهوف، وقمع الظلم، وإشاعة الإصلاح، والتمسك بالخلافة العباسية، ووحدة الجماعة المسلمة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابتغاء رضى الله سبحانه، فمِن ثَمَّ رغب فيهم الناس وأحبوهم، واستغاثهم أمراء الأندلس لإنقاذهم من النصارى، وعبر يوسف بن تاشفين بالمرابطين وهزم النصارى شر هزيمة في معركة «الزلَّاقة» التي أصبحت عند المغاربة والأندلسيين مثل يومي «القادسية»، و«اليرموك»، ولم يأخذ شيئًا من الأسلاب والغنائم، بل آثر بها ملوك الأندلس، وعاد إلى المغرب، قال القاضي ابن العربي: «ولو لم يكن للمرابطين فضيلة،ولا تقدم، ولا وسيلة إلا وقعة الزلاقة؛ لكان ذلك من أعظم فخرهم» كما في: «الحلل الموشية» ص(١٤٠)، وانظر: «السلفية وأعلامها في موريتانيا» ص(١٧٢-١٧٣)، «فقه التمكين عند دولة المرابطين».

اعْتُبِرَتْ «إعلان حرب»:

«مِنَ القائم بدين الله، العامل بسنة رسول الله، محمد بن عبدالله ـ وفقه الله ـ، إلى المغرور بدنياه علي بن يوسف، أما بعد، فإنا ما وجدنا لأكثركم من عهد، وإن وجدنا أكثركم لفاسقين، لم تخشوا عقوبة رب العالمين، ولم تتفكروا فيمن حولكم من الظالمين، الذين غووا فأصبحوا نادمين، فتبعهم الناس أجمعين، فإذا هم أخسر الخاسرين، وقد أمرني الله بإدحاض حجة الظالمين، ودعاء الناس إلى اليقين، ونسأل من الله أجر المحسنين. لا تغتروا؛ فإن المسلمين إليكم قادمون؛ لقتال من زاغ وجنف، وكفر بنعمة الله، وقد جاء في التنزيل أنكم لستم بمؤمنين، ولا تؤمنون بلا إله إلا الله، وإنها كلمة تقولونها عند الخوف والتعجب، وتارك واحدة من السنة كتاركها كلها؛ ومن أجل ذلك دماؤكم حلال، ومالكم فيء، وقد بينا لكم، وأوضحنا السبيل، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، والسلام على من اتبع الهدى، وخشي الرحمن»[1].

ويذكر المراكشي أنه لما تَوَجَّهَ جيش الموحدين إلى قتال المرابطين سنة ٥١٧هـ، أوصى أفراد ذلك الجيش بقوله: «اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين، الذين تسموا بالمرابطين، فادعوهم إلى إماتة المنكر، وإحياء المعروف، وإزالة البدع والإضرار بالإمام المهدي المعصوم، فإن أجابوكم فهم إخوانكم، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم؛ فقد أباحت لكم السنة قتالهم...».

وبالإضافة إلى هذه التهم الواضحة الصريحة التي قال بها ابن تومرت ضد دولة المرابطين، فإن القارئ لكتاب «أعز ما يطلب» يدرك أن ابن تومرت قد شحنه بالافتراءات، والدعاوَى الباطلة ضدهم، بل إنه قد أفرد فصولًا خاصة منه لهذا الغرض[2].

---

(١) «السابق» ص (٨٣) نقلًا عن: «أخبار المهدي ابن تومرت» للبيذق ص (١١).

(٢) فقد ادعى أنهم المقصودون ببعض أحاديث أشراط الساعة، وأنهم «حفاة، عراة، عالة، رعاء الشاء، جاهلون بأمر الله، وأنهم في آخر الزمان، ويتطاولون في البنيان، وأنهم صم بكم، وأن في أيديهم سياطًا=

وقد تنبه المرابطون لهذه التهم الموجهة ضدهم، فأخذوا بالتصدي لها؛ حيث بينوا للناس كذب تلك التهم التي ألصقها بهم ابن تومرت، وأنها مخالفة للحقيقة، ولكن هذا العمل لم يثن ابن تومرت عن حربه الدعائية، بل إنه كثَّف جهوده في هذا الميدان، ومما جاء في إحدى رسائله التي وجهها لهذا الغرض «واعلموا ـ وفقكم الله ـ يعني أتباعه ـ أن المجسمين، والمكابرين، وكل من نُسِبَ إلى العلم، أشد في الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين؛ فلا تلتفتوا إلى ما يقولونه؛ فإنه كذب، وبهتان، وافتراء على الله، ورسوله»، بل أقنعهم بأن جهاد المرابطين فرضٌ عليهم، كما فُرِضَ على الصحابة جهاد الكفرة «فالدين الذي جاهدوا عليه هو الدين لا يحول، ولا يزول، حتى ينفخ في الصور، والسنة التي قاتلوا عليها هي هذه لا تتبدل، ولا تتغير، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. فجهاد الكفرة الملثمين قد تعين على كل من يؤمن بالله، واليوم الآخر، لا عذر لأحد في تركه، ولا حجة له عند الله؛ فإنهم سَعَوْا في هدم الدين، وإماتة السنة».

كان هذا هو توجيه ابن تومرت لأتباعه في حملته الإعلامية الكاذبة ضد دولة المرابطين السنية، التي أقامت كيانها على مذهب أهل السنة والجماعة، والدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله على هدى من سنة رسول الله ﷺ؛ فقد طعن في عقيدتهم، ووصفهم بأنهم مجسمون، وكفار، لا تجوز طاعتهم، ولا الولاء لهم، بل يجب جهادهم؛ ولهذا قاتل الموحدون المرابطين قتالَ المسلمين للكفار[1] حسب اعتقادهم، وما ذلك إلا بسبب أن ابن تومرت قد نَحَا في حربه للمرابطين منحى فكريًّا عقديًّا،

= كأذناب البقر يعذبون بها الناس، وأنهم يغدون في سخط، ويروحون في لعنة.. إلى أن قال: «وجملة علاماتهم عشرون أخبر الرسول بجميعها قبل وجودهم، فظهرت كلها على وفق ما أخبر به»، وهكذا حاول أن يوظف بعض نصوص أشراط الساعة لخدمة مآربه، والتشنيع على المرابطين، انظر: «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/٢١٠ ـ ٢١١).

(١) ولهذا استحلوا أموالهم، وخربوا ديارهم، وسبوا نساءهم، وسفكوا دماء رجالهم، وباعوا أولادهم، وأجهزوا على جريحهم، وتعقبوا من فرَّ منهم، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، انظر: «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/١٩٢)، وكان ابن تومرت يرى أن قتال المرابطين واجب على المسلمين جميعًا، وأن قتالهم أكبر وأوجب من قتال النصارى، انظر: «الأثر السياسي للعلماء» ص(٢١٧).

غالى فيه حتى أصبح العَداء للمرابطين اتجاهًا فكريًّا واضحًا عند ابن تومرت، وأتباعه المخلصين لدعوته، ومما لا شك فيه أن هذا الاتجاه الذي حدده ابن تومرت من دولة المرابطين، قد أثر على معنوياتها، ثم على كيانها السياسي؛ وذلك لأن كثيرًا من الناس قد تبنوه، ومن ثم انبروا للعمل على حرب هذه الدولة، والسعي إلى إسقاطها؛ لتقوم دولة ابن تومرت على أنقاضها(١)).

ثانِيًا: التَّهَوُّرُ فِي سَفْكِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، بِمَا فِي ذَلِكَ دِمَاءُ أَتْبَاعِهِ:

قال الإمام المحقق ابن قَيِّم الجوزية - رحمه الله - تَعَالَى -:

(أما مهدي المغاربة محمد بن تومرت، فإنه رجل كذاب ظالم متغلب بالباطل، ملك بالظلم، والتغلب، والتحيل، فقتل النفوس، وأباح حريم المسلمين، وسبى ذراريهم، وأخذ أموالهم، **وكان شرًّا على الملة من الحجاج بن يوسف بكثير.**

وكان يودع بطن الأرض في القبور جماعة من أصحابه أحياءً يأمرهم أن يقولوا للناس إنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ، ثم يردم عليهم ليلًا؛ لئلا يُكَذِّبُوهُ بعد ذلك، وسمَّى أصحابَه الجهمية «الموحِّدين» نفاة صفاتِ الرب، وكلامِهِ، وعلوِّهِ على خلقه، واستوائِهِ على عرشِهِ، ورؤية المؤمنين له بالأبصار يوم القيامة، واستباح قتل من خالفهم من أهل العلم، والإيمان، وتسمى بالمهديِّ المعصوم). اهـ(٢).

● وقال الإمام الحافظ ابن كثير - رحمه الله - تَعَالَى -:

(وقد رأيت لبعضهم في سيرة ابن تومرت هذا مجلدًا في أحكامه، وإمامته، وما كان في أيامه، وكيف تملَّك بلاد المغرب، وما كان يتعاطاه من الأشياء التي توهم أنها أحوال بررة، وهي محالات لا تصدر إلا عن فجرة، وما قَتَلَ من الناس، وأَزْهَقَ من

---

(١) «دولة الموحدين» (٦٤-٦٦).

(٢) «المنار المنيف» ص (١٥٣).

الأنفس)[١]. اهـ.

«لقد تساهل ابن تومرت في إراقة الدماء دونما مسوغ شرعي؛ حيث كان لا يتردد في ذلك، حينما يرى أنه يخدم دعوته، أو يحقق شيئًا من مطامحه، مهما كانت التضحيات المقدمة لهذا الغرض، وقد تأصل هذا العمل عند ابن تومرت؛ حيث ألبسه لباسًا دينيًّا، حتى أصبح اتجاهًا دَعويًّا واضحًا في دعوته، ومن نماذج عمله في هذا الميدان ما ذكره ابن القطان ـ أحد تلاميذ ابن تومرت ـ أنه كان يَعِظُ تلاميذه وأنصاره في كل وقت «... ومن لم يحضر أُدِّبَ، فإن تمادى قُتِلَ، وكل من لم يحفظ حزبه عُزِّرَ بالسياط، وكل من لم يَتَأَدَّبْ بما أدب به ضُرِبَ بالسوط بالمرة والمرتين، فإن ظهر منه عناد، وتَرَكَ امتثال الأوامر قُتِلَ، ومن داهن قُتِلَ».

كما ذكر كل من البيذق، وابن القطان، وغيرهما من المؤرخين، أن ابن تومرت كان يقوم بما يسمى بعملية **التمييز** لأتباعه؛ حيث يَقْتُلُ كلَّ من يشك في ولائه لدعوته، وقد ذكر لنا البيذق وصفًا لعملية التمييز التي قام بها ابن تومرت قبل موقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ؛ حيث قال: «فأمر بالميز، فكان البشير يخرج بالمخالفين المنافقين، والخبثاء من الموحدين، حتى امتاز الخبيث من الطيب، ورأى الناس الحق عيانًا، وازداد الذين آمنوا إيمانًا، وذاق الظالمون النار، فظنوا أنهم مواقعوها، وما لهم عنها من محيص... فمات يومئذ من الناس خمس قبائل ...»[٢].

ثَالِثًا: الْخُرُوجُ عَلَى الْإِمَامِ الشَّرْعِيِّ بِالسَّيْفِ:

وهذا انحراف عما استقر عليه مذهب أهل السنة والجماعة، وعدول عن هديهم في الصبر على الأئمة، ولو كانوا جائرين، فكيف بالعادلين المجاهدين «المرابطين»؟

لقد كان أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين (٥٣٧هـ)، ثاني أمراء المرابطين

(١) «البداية والنهاية» (١٢/١٨٦-١٨٧).
(٢) «دولة الموحدين» ص (٦٦-٦٧).

الذي ظهر ابن تومرت في عهده، كان يُعَدُّ من الشخصيات النادرة في التاريخ، فقد كان من أصلح الحكام وأشدهم تمسكًا بالدين، عُرف بالقوة، والعدل، وامتاز بالعلم، والورع، والاستقامة، وحسن الخلق، والحزم، والنباهة، وكان مثل أبيه معظِّمًا للعلماء، لا يقطع أمرًا دون مشورتهم، والأخذ بفتياهم(١)، أما محمد بن تومرت فقد (كان في الحقيقة داعية سياسيًّا مصموديًّا، يسعى إلى توحيد قبائل مصمودة، وحفزها على التخلص من سلطان صنهاجة، والتغلب عليها، وإقامة دولة مصمودية مكانها)(٢).

عَوَامِلُ التَّمْكِينِ لِدَعْوَةِ ابْنِ تُومَرْتَ

الأَوَّلُ: شَخْصِيَّتُهُ.

لقد اجتمع في شخصية ابن تومرت مقوماتٌ فائقةٌ، أهَّلته للقيادة، فقد كان رجل دين، ورجل علم، ورجل سياسة؛ جمع بين العبادة، والزهادة، والتقشف(٣)، وبين الذكاء، وقوة النفس، والتبحر في العلم، وتشجيع النشاط العلمي في أتباعه، وبين السياسة؛ حيث كان المخطط الأول، بل الوحيد، لقيام دولة الموحدين، ورسم خطوطها العريضة.

---

(١) انظر: «السلفية وأعلامها في موريتانيا» ص(٢١٢)، و«دولة الإسلام في الأندلس» (٤/٥١:٥٤، ٥٨، ٢٤١:٢٤٤).

(٢) «أطلس تاريخ الإسلام» ص (١٨١).

(٣) ولم يلبس ابن تومرت قط سوى ثياب الصوف من قميص وسراويل وجبة، وقد يرتدي الثياب المرقعة، ولا يقبل على شيء من متاع الدنيا، حتى قيل إنه كان يقتات من غزل أخت له في كل يوم رغيفًا بقليل من سمن أو زيت، ولم يتحول عن ذلك حينما سما شأنه، وأقبلت عليه الدنيا، وكان ظهور مثل هذه الشخصية المبهرة في ذلك المجتمع البربري الساذَج، الذي اختاره مسرحًا لدعوته، والذي كان يخيم عليه الجهل المطبق، وتعصف به الخرافات والأساطير، مما يضفي عليه هالة الزعامة الخارقة، فمن ثم ألفى الطريق ممهدًا ليعلن دعوته، ويتشح بثوب المهدي المنتظر، وينتحل صفة الإمام المعصوم، انظر «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/١٩١ - ١٩٢).

لقد نشأ محبًّا للعلم، ورحل في طلب الاستزادة إلى المشرق الإسلامي سنة ٥٠٠هـ، فحج، وشرع في طلب العلم، ودامت رحلته خمسة عشر عامًا، كان لها أثر كبير في تشكيل شخصيته، والتأثير في آرائه.

غادر ابن تومرت وطنه بالسوس في طلب العلم، وعبر البحر إلى الأندلس، ودرس في قرطبة حينًا، ثم جاز من ثغر ألمرية إلى المشرق، ومر في طريقه على المهدية، وأخذ بها على الإمام المازَري، ثم قصد إلى الإسكندرية، ودرس بها على الإمام أبي بكر الطُّرْطُوشِيِّ، وأدى بعد ذلك فريضة الحج، ثم سافر إلى العراق، وأمضى بها أكثر من عشر سنوات، وفي بغداد درس الفقه والأصول على أبي بكر الشاشي الملقب بفخر الإسلام، وإلكيا الهراسي الطبري، ودرس الحديث على المبارك بن عبدالجبار وغيره[١]، وبالتأمل في تاريخ وفاة المبارك بن عبدالجبار وهو ٥٠٠هـ، كما في «شذرات الذهب» (٤١٢/٣)، نشك في لقيا ابن تومرت إياه، لأن الأخير لم يغادر المغرب إلا سنة ٥٠١هـ، ومن هنا اتهم بعض الباحثين أتباع ابن تومرت أنهم جمعوا لائحة من الأسماء البارزة، وجعلوا منها أشياخًا له لصبغه بصبغة علمية أكبر، وانظر «الأثر السياسي للعلماء في دولة المرابطين» هـ ص(٢٠٧).

ويشبه ذلك ما قيل من أنه لقي أبا حامد الغزالي، ودرس عليه في بغداد، ورُدَّ هذا القول باستحالة ذلك ماديًّا، قال ابن الأثير: «والصحيح أن ابن تومرت لم يجتمع به» وشكك فيها ابن خلدون وابن الخطيب[٢].

وفي بغداد تبحر في علم الكلام، وعقائد المعتزلة، والأشاعرة، وذكر المراكشي في وصفه لابن تومرت أنه «كان أوحد عصره في علم خط الرمل» «المعجب» ص(٢٦٥)، وهي صناعة يزعم أصحابها أنهم يستبطنون فيها أخبار الغيب، ومستقبل الأحداث[٣].

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» (١٦٠/٤ - ١٦١).
(٢) انظر تفصيل ذلك في «السابق» (١٦١/٤ - ١٦٣).
(٣) «أثر العلماء في سياسة دولة المرابطين» ص(٢٠٩).

ومكنته رحلاته المشرقية من تحصيل علوم النقل والعقل، ومكنته رحلاته المغربية مع المشرقية من الوقوف على أحوال العالم الإسلامي، واتساع خبرته بطبائع الجماعات المختلفة، واستيعاب أسباب تدهور الإمارات المغربية، الأمر الذي غرس في نفسه الطموح لنشر دعوته، وبناء دولته.

وتميز ابن تومرت بالقدرة التنظيمية، والمهارة التخطيطية، إلى جانب تميزه بالدهاء، وحسن استغلاله الفرص، وخبرته العسكرية، كما كان له منهجية تربوية، وأهداف محددة، سعى لإنجازها بكل الوسائل، ولو كانت دنيئة.

الثَّانِي: الصُّورَةُ الَّتِي قَدَّمَهَا لِنَفْسِهِ:

شكلت عاملَ جذبٍ للمحيطين به، فقد لَفَتَ أنظار الناس إليه بإظهار الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وشجاعته في نقد الولاة، بل مبالغته في ذلك أحيانًا، وكذا اشتهاره بالزهد، والتقشف، والقدرة على المناظرة، والمحاجة.

الثَّالِثُ: التَّدَرُّج، وَالْمَرْحَلِيَّةُ فِي إِظْهَارِ دَعْوَتِهِ:

مما وَفَّرَ لها غِطَاءً من «التقية» المرحلية حماها من وأدها في مهدها، واستئصالها، وظل مُلْتَزِمًا هذا المبدأَ إلى أن «استنسر»، بعد ما تكونت قاعدة شعبية عريضة من أتباعه، فتعذر، بل تعسَّر على المرابطين إخماد حركته.

الرَّابِعُ: قُوَّةُ جِهَازِهِ الْإِعْلَامِيِّ، وَكَفَاءَةُ آلَتِهِ الدِّعَائِيَّةِ:

وقد كان الإعلام التومرتي جارفًا إلى حدٍّ أن الدولة المرابطية لم تَقْوَ على قمعه، والتصدي لأكاذيبه بنفس الكفاءة، وقد ظهرت قدراته التَّعْبَوِيَّةُ في تحريض أتباعه، ودفعهم إلى المعارك؛ للقتال بضراوة ضد المرابطين، الذين وصمهم بالألقاب المنفرة؛ كالمجسمين، والزراجنة[1]، ....

(١) الزراجنة: نسبة إلى «الزرجان»؛ وهو طائر أسود البطن أبيض الريش؛ لأن المرابطين في زعمه بيض الثياب سود القلوب، كما في «دولة الإسلام في الأندلس» (١٨٥/٤).

والحشم[(١)]، وأنهم شر من إبليس، وأن حربهم أوجب من حرب النصارى، والمجوس، في الوقت الذي لقب أتباعه بالموحدين، تعريضًا بالمرابطين.

وقد كان من أعظم مزايا ابن تومرت العلمية؛ مقدرته البارزة في إتقان اللغتين العربية والبربرية، وكان وعظه ومخاطبته لقومه بالبربرية، تنفذ إلى سويداء قلوبهم، وتزيدهم فتنة به وتعلقًا، وتوطد مكانته الدينية والسياسية، وكانت كتب ابن تومرت ـ بعد القرآن والسنة ـ هي أشد الكتب الدينية احترامًا بين أقوام الموحدين على اختلاف قبائلهم، لأنها ـ نظرًا لكتابتها البربرية ـ كانت ذائعة، وكانت في متناول كل إنسان[(٢)].

الخامس: دعواه الانتساب إلى أهل بيت النبي ﷺ، ودعواه المهدية[(٣)]، والعصمة

مما سهَّل انقياد أتباعه له، وتسليمهم لتعاليمه، والتفاني في نصرته.

السَّادِسُ: طَبِيعَةُ أَتْبَاعِهِ:

فقد ساعدت سذاجة المجتمع المغربي، وجهله في تغلغل أفكاره في أوساطه، وقد كان يهتم بتجنيد الأغمار، والسُّذَّج، والأحداث، الذين شكلوا قاعدته الشعبية التي توكأ عليها[(٤)]؛ لأنهم أسلس قيادًا، وأكثر تقبلًا لحِيَلِهِ، ودَجَلِهِ[(٥)]، وكان يستبعد ذوي

(١) لاتخاذهم اللثام كما يتخذه الحشم، وهم خاصة الرجل من عبيد أو أهل أو جيرة، وانظر في سبب تسميتهم بالملثمين: «فقه التمكين عند دولة المرابطين» ص(٨-٩)، «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/٢١١-٢١٢).

(٢) «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/٢١٧).

(٣) وقد رسخ دعاة ابن تومرت في أذهان القبائل أن الفساد والظلم والجور لا تُزال إلا بالمهدي؛ لذا فالإيمان به واجب، ومن يشك فيه فهو كافر، وقال ابن تومرت في شأن المهدي: «فالعلم به واجب، والسمع والطاعة له واجب، والتسليم له واجب، والرضا بحكمه واجب، ورفع الأمور إليه بالكلية لازم»، وقال: «أمر المهدي حتم، ومن خالفه يُقتل» اهـ. انظر: «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/٢٠٨ - ٢٠٩)، و«الكامل» لابن الأثير (٦/٥٦٢).

(٤) وقد وصفهم المراكشي بأنهم «قوم صيام عن جميع العلوم» كما في «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» ص (٢٧٠)، ووصفهم ابن أبي زرع بأنهم «قوم جهلة، لا يعرفون شيئًا من أمر الدين، ولا من أمر الدنيا» كما في «روض القرطاس» ص(١٧٧)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١١/٤٧٧).

(٥) انظر: «تلبيس إبليس» ص(٥٣٩ - ٥٤٢).

الفِطَنِ، والبصائر، ويفتك بمن يظن في ولائه له شائبة شك، عن طريق المذابح الوحشية التي أسماها «التمييز»، كما تَقَدَّمَ بيانه.

السَّابِعُ: مَتَانَةُ جَبْهَتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ:

فقد أثمرت الروحُ المعنوية العالية، والتلاحم الشديد بينه كقيادة، وبين أتباعه، وقوة ثقتهم في منهجهم، وتوظيفه للعصبية القبلية،جبهة داخلية متماسكة، دعَّمها عن طريق الحيل، والدجل، والأكاذيب التي راجت على أتباعه الأغمار.

الثَّامِنُ: دَوْرُ عَبْدِالْمُؤْمِنِ، وَشَخْصِيَّتُهُ:

فقد كان ذا مَواهِبَ سياسيَّةٍ فذةٍ، وكفاءات متميزة، أهَّلته لكي يكون الساعد الأيمن لابن تومرت في حياته، ثم خليفة له بعد وفاته؛ حيث باشر بناء الدولة، وخاض حروبًا ضارية انتهت بسقوط دولة المرابطين، وتوحيد الشمال الأفريقي.

التَّاسِعُ: الضَّعْفُ الَّذِي بَدَأَ يَدِبُّ فِي دَوْلَةِ الْمُرَابِطِينَ:

والذي نشأ عن الانغماس في الترف، والشهوات، والانحراف عن الشورى، والتعصب الأعمى لمذهب الإمام مالك ـ رحمه الله ـ، وفقد القيادات المتميزة: في الحروب، أو بالموت، والأزمات الاقتصادية العنيفة، وأخيرًا: صدامها المسلح مع جيوش الموحدين الذي استنفد طاقتها، وأنهك قواها، وانتهى بالقضاء عليها.

* * *

أَهَمُّ المَآخِذِ عَلَى حَرَكَةِ ابْنِ تُومَرْتَ

الأَوَّلُ: ادِّعَاؤُهُ المَهْدِيَّةَ:

مع أنه أبعد الناس عن صفة المهدي، فلم يثبت انتسابه إلى أهل البيت، ولم تنعم الأمة في عهده بالأمن، والرخاء، بل شقيت بسفكه الدماء، وترويع المسلمين، ولم ينزل المسيح ـ عليه السلام ـ في عهده، والمهدي الحقيقي يقيم خلافة على منهاج النبوة، أما ابن تومرت فقد انحرفت عقيدته عن منهاج النبوة، وعقيدة السلف الصالح، التي قال الله ـ تَعَالَى ـ فيها: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾... الآية، والمهدي الحقيقي يملك سبع سنين، وابن تومرت لم يملك لحظة واحدة[1].

الثَّانِي: ادِّعَاؤُهُ العِصْمَةَ لِنَفْسِهِ:

وهذا افتراء على الله ـ تَعَالَى ـ، وعلى دينه، وشذوذ عن سبيل المؤمنين، وموافقة للرافضة ـ قبحهم الله ـ، وأين العصمة المدعاة، وقد أراق دماء الآلاف من المسلمين، وقتل من يشك في عصمته؟!، ومن قال إن المهدي الحقيقي يدعي العصمة لنفسه؟! ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

---

(١) ومن الأدلة على فساد عقيدته وزيف مهديته أنه ما كاد يمضي على وفاته قرن من الزمان حتى أصدر أحد خلفائه الملقب بالمأمون مرسومًا يقضي بإزالة اسم المهدي من الخطبة ومن السكة، ومحو اسمه من المخاطبات، وقال في كتابه الرسمي: «إن وصف ابن تومرت بالمهدي وبالإمام المعصوم إنما هو نفاق وبدعة وأمر باطل، وإنه يجب نبذه والقضاء عليه»، وقال: «وتلك ـ أي دعوى المهدية ـ بدعة قد أزلناها، والله يعيننا على القلادة التي تقلدناها، وقد أزلنا لفظ العصمة عمن لا تثبت له عصمة، فلذلك أزلنا عنه رسمه.. وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة، فما الظن بمن لم يدر بأي يد يأخذ كتابه؟ أفٍّ لهم قد ضلوا وأضلوا، ولذلك ولوا وذلوا، ما تكون لهم الحجة على تلك المحجة، اللهم اشهد، اللهم اشهد أنَّا قد تبرأنا منهم تبرأ أهل الجنة من أهل النار، إنهم في المعتقد من الكفار».

وفي رواية أنه صعد المنبر في مراكش، وخطب الناس، ولعن المهدي، وقال: «يا أيها الناس لا تدعوه بالمعصوم، وادعوه بالغوي المذموم، إنه لا مهدي إلا عيسى، وإنا قد نبذنا أمره النحيس به». انتهى. ملخصًا من «دولة الإسلام في الأندلس» (٥/٣٧٠ ـ ٣٧١).

الثَّالِثُ: تَبَنِّيهِ الْقَاعِدَةَ الْمِكْيَافِيلِيَّةَ «الْغَايَةُ تُسَوِّغُ الْوَسِيلَةَ»:

ففي سبيل التمكين لدعوته، وإقناع الناس بها، استحل الغدر، والكذب[١]، والدجل، والخداع، مع أن صاحب دعوة الحق يتنزه عن هذه الأساليب الرخيصة؛ إذ الحق غني عن أن يحتاج إلى هذه الأساليب الدنيئة في التمكين له، فغايته شريفة، ووسيلته إليها نظيفة.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَدْخَلَ التَّأْوِيلَ الْكَلَامِيَّ عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ الْإِسْلَامِيِّ:

بل الشمال الأفريقي، وفرضه عليهم بالقوة، بعد أن كانوا في عافية من شره، باتباعهم منهج السلف الصالح، أهل السنة والجماعة، كما أنه استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، حين تبنى خليطًا من أفكار الأشاعرة، والمعتزلة، والخوارج، والرافضة.

الخَامِسُ: تَسَبُّبُهُ فِي الْقَضَاءِ عَلَى دَوْلَةِ الْمُرَابِطِينَ السُّنِّية السلفية:

وكانت بداية هذه الجناية مبالغته في الإنكار على ابن تاشفين الذي اتقى الله فيه، وتورع عن قتله، أو حبسه، فاستغل ابن تومرت تسامحه معه، وتوصل به إلى شق عصا الطاعة، وتفريق الجماعة، وتمزيق دولة المرابطين، والقضاء عليها، مستحلًّا ذلك كله بسبب تكفيره المرابطين، بدل أن يبذل النصح المخلص بالوسائل الشرعية لذلك الملك الذي قال فيه ابن خلكان ـ رحمه الله ـ: «وكان ملكًا عظيمًا، حليمًا، ورعًا، عادلًا، متواضعًا»[٢]، ووصفه عبدالواحد المراكشي بأنه: «يُعَد من الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يُعَد من الملوك والمتغلبين»[٣].

لقد أسهمت حركة ابن تومرت على المدى البعيد في ضياع الأندلس، وسقوطها

---

(١) ومن كذبه أنه ادَّعى زورًا أن مكان ظهور المهدي هو المغرب الأقصى!
(٢) «وفيات الأعيان» (٥/٤٩).
(٣) «المعجب» ص(٢٥٢).

بيد النصارى[١]، ومع أن عبدالمؤمن أقام مملكة شاسعة امتدت إلى الأندلس، إلا أن الواقع أن تضحيات المرابطين في الأندلس كانت من أكبر الأسباب التي مكنت الموحدين المصامدة من التغلب، والنصر[٢].

● يقول الدكتور علي محمد الصَّلَّابي ـ حفظه الله ـ:

(إن حركة ابن تومرت حركة تدميرية عملت على هدم أركان دولة المرابطين، تلك الدولة التي قامت على تعاليم الإسلام النقية، واتخذت من جهاد النصارى في الأندلس هدفًا أسمى لوجودها، فما أفزعهم من مقر حكمهم في مَرَّاكُش إلى الأندلس سوى الغيرة على الإسلام، عندما أخذت معاقل المسلمين تتهاوى تحت مطارق «ألفونسو السادس»، وبذلك أَخَّرُوا سقوط الأندلس بيد النصارى عدة قرون.

ولكن ما إن بدأت ثورة المهدي ابن تومرت حتى أخذت تشغلهم بعض الشيء عن واجبهم المقدس في الأندلس، فأخذ أمير المسلمين يستصرخ قواده العظام من الأندلس، أمثال تاشفين بن علي لمقارعة الموحدين، وأدى ذلك إلى ازدياد ضغط النصارى على المسلمين في الأندلس، وبدءوا يلتهمون المدن الأندلسية الواحدة بعد الأخرى. في هذا الوقت استطاع ابن تومرت، بواسطة المؤمنين بمهديته، أن يطيحوا بدولة المرابطين، فأثلج ذلك قلوب النصارى الذين أدركوا أن الخلاص من الوجود الإسلامي في الأندلس أضحى وشيكًا[٣].

* * *

(١) ولا شك أن في هذا عبرة تاريخية تؤكد أن فساد العقيدة يترتب عليه اضمحلال أحوال الأمة، لأن العقيدة الصحيحة هي خط الدفاع الأول الذي ينهار بانهياره ما بعده، ولا يمكن أن تعود الأمة إلى عزها ومجدها إلا بتصحيح العقيدة كما قال ﷺ: «ثم تكون خلافة على منهاج النبوة» الحديث في «مجمع الزوائد» (١٨٩/٥).

(٢) «أطلس تاريخ الإسلام» ص (١٨١).

(٣) «دولة الموحدين» ص (٩٤)، وانظر: «دولة الإسلام في الأندلس» (٢٥٤/٤) وما بعدها.

فصـــل

موقف غريب لابن خلدون

● **ومن الغريب الذي يلفت النظر موقف العلامة المؤرخ ابن خلدون من ابن تومرت ودعوته، فهو يدافع عن المهدي ابن تومرت، وعن صحة دعوته، وصدق إمامته، في نبذة طويلة يقول فيها:**

«ويلحق بهذه المقالات الفاسدة، والمذاهب الفائلة، ما يتناوله ضعفة الرأي من فقهاء المغرب من القدح في الإمام المهدي صاحب دولة الموحدين، ونسبته إلى الشعوذة، والتلبيس فيما أتاه من القيام بالتوحيد الحق، والنعي على أهل البغي قبله، وتكذيبهم لجميع مدعياته في ذلك، حتى فيما يزعم الموحدون أتباعه من انتسابه في أهل البيت، وإنما حمل الفقهاء على تكذيبه، ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه، فإنهم لما رأوا من أنفسهم مناهضته في العلم والفتيا وفي الدين بزعمهم، ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأي، مسموع القول، موطأ العقب، نفسوا عليه ذلك، وغضوا منه بالقدح في مذاهبه، والتكذيب لمدعياته، وأيضًا فكانوا يؤنسون من ملوك لمتونة أعدائه تجلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم، لما كانوا عليه من السذاجة، وانتحال الديانة، فكان لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة، والانتصاب للشورى كل في بلده، وعلى قدره في قومه، فأصبحوا بذلك شيعة لهم، وحربًا لعدوهم، ونقموا على المهدي، ما جاء به من خلافهم، والتثريب عليهم، والمناصبة لهم، تشيعًا للمتونة، وتعصبًا لدولتهم». ثم يقول دفاعًا عن المهدي:

«وما ظنك برجل نقم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم، وخالف اجتهاده فقهاءهم، فنادى في قومه، ودعا إلى جهادهم بنفسه، فاقتلع الدولة من أصولها، وجعل عاليها سافلها، أعظم ما كانت قوة، وأشد شوكة، وأعز أنصارًا وحامية، وتساقطت في

ذلك من أتباعه نفوس لا يحصيها إلا خالقها، قد بايعوه على الموت، ووقوه بأنفسهم من الهلكة، فتقربوا إلى الله تعالى بإتلاف مُهَجِهِم في إظهار تلك الدعوة، والتعصب لتلك الكلمة حتى علت على الكلم، ودالت بالعدوتين من الدول، وهو بحالة من التقشف والحصر، والصبر على المكاره، والتقلل من الدنيا، حتى قبضه الله، وليس على شيء من الحظ والمتاع في دنياه.. فليت شعري، ما الذي قصد بذلك إن لم يكن وجه الله، وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله؟ ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تم أمره، وانفسحت دعوته، سُنَّةَ الله التي قد خلت في عباده»(١).

● **وقد علق الأستاذ محمد عبدالله عنان على موقف ابن خلدون قائلًا:**

«وابن خلدون يقدم إلينا هذا الدفاع عن المهدي في معرض كلامه عن أخطاء المؤرخين وأوهامهم ودعاويهم المغرضة، وهو يقدم إلينا منها نماذج، يصاحبه التوفيق في بعضها ويخطئه في البعض الآخر، ونحن نرى أن التوفيق قد أخطأه في هذا الدفاع عن المهدي ابن تومرت، وعن صدق دعوته، وقد استعرضنا فيما تقدم من حديثنا عن حياة المهدي، ما يحملنا على الشك، أولًا: في صدق انتسابه إلى آل البيت، وثانيًا: في انتحاله دعوة المهدية، وهي دعوة نشك أيضًا في صدقها من الناحية الدينية «!!» والتاريخية ونحن نعتقد أن مفكرًا عظيمًا، ومؤرخًا فيلسوفًا، وضعي العقلية، كابن خلدون، لا يمكن أن يؤمن بصدق هذه الدعوة، وإنما حمل ابنَ خلدون على الدفاع عن المهدي ودعوته، بواعثُ خاصة، أولها: أن بني خلدون ـ أسرة المؤرخ ـ كانت مذ غادرت الأندلس في أوائل القرن السابع الهجري ـ قد نزلت بتونس، وعاشت في رعاية بني حفص ملوك الدولة الحفصية الموحدية التي أسسها الأمير أبو يحيى زكريا بن عبدالواحد بن أبي حفص عمر الموحدي، وتولى أجداد المؤرخ في ظلهم مناصب النفوذ والثقة، وبدأ هو حياته العامة في ظلهم، وعاش في كنفهم ردحًا من الزمن، وأهدى

(١) «المقدمة» لابن خلدون ص(٢٢)ط. بولاق، وراجع موقف ابن خلدون من أحاديث المهدي ص(١٥٣).

أول نسخة من مقدمته وتاريخه للسلطان أبي العباس الحفصي (٧٨٤هـ)، فلم يكن من المعقول أن يجاهر المؤرخ في مقدمته، بالطعن في إمامة المهدي ودعوته، وهي التي كانت أساسًا لقيام الدولة الموحدية، وثانيًا: أنه ليس من المنطق السليم، أن يكون نجاح دعوة المهدي ابن تومرت، وما ترتب عليه من قيام الدولة الموحدية، دليلًا على صدق هذه الدعوة، لأن النجاح السياسي والعسكري لداعية أو متغلب لم يكن قط في ذاته دليلًا على صدق إمامة أو دعوة دينية، وثالثًا: أن إنكار صدق دعوة المهدي ابن تومرت لم يكن قاصرًا على الفقهاء المرابطين، الذين يعلل ابن خلدون طعنهم في هذه الدعوة بما كان يجيش في صدورهم من حقد على رجل يتفوق عليهم بعلمه، ويغض بهذا التفوق من مكانتهم ونفوذهم القديم لدى الدولة اللمتونية، بل شمل هذا الإنكار كثيرًا من المؤرخين[١].

ولا يكتفي ابن خلدون بالدفاع عن صحة دعوة المهدي، بل يقرن ذلك بالدفاع عن نسبه في آل البيت، وهو هنا في تدليله أضعف منطقًا، حينما يقول: «إنه لا دليل يعضد إنكار هذه النسبة، والناس مصدقون في أنسابهم»، وهو إذ يشعر هنا بضعف منطقه، يقول لنا: إن ظهور المهدي لم يكن يتوقف على نسبته، وإنما قام أمره بعصبيته القبلية في هرغة ومصمودة، وأن هذا النسب الفاطمي، كان أمرًا خفيًا عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم[٢].

ويذكرنا موقف ابن خلدون في الدفاع عن دعوة المهدي ابن تومرت ونسبه، بموقفه من نسب بني عبيد الخلفاء الفاطميين، فهو يتصدى لتأييده وإثباته، ويعتبر الطعن فيه من «الأخبار الواهية» التي عُني بتفنيدها في مقدمته، وأن هذا الطعن يرجع بالأخص إلى الأحاديث التي لُفقت لبني العباس خصوم الفاطميين تزلفًا إليهم، ويعتمد هنا على نفس النظرية التي لجأ إليها في الدفاع عن دعوة المهدي، وهو أن ظهور الفاطميين،

---

(١) بل تبرأ منه «المأمون» أحد خلفائه، كما تقدم ص(٤٢٠) هامش رقم (١).

(٢) «السابق» ص(٢٣).

وقيام الدولة الفاطمية المترامية الأطراف، واتصال أمرها نحوًا من مائتين وسبعين عامًا، كل ذلك لا يمكن أن يتم لِدَعِيٍّ[١].

وهي طريقة معكوسة في التدليل، ونظرية واضحة الضعف والسقم، إذ كان على ابن خلدون أن يقدم لنا الأدلة المباشرة، على صحة نسب الفاطميين لآل البيت، كما قدم خصومهم الأدلة على بطلان هذه النسبة.

وقد تناول كاتب مشرقي من كتاب النصف الأول من القرن الثامن الهجري هو الحسن بن عبدالله العباسي في كتابه «آثار الأول وترتيب الدول» مَثَلَ ابن تومرت وقصة ظهوره، في معرض الكلام عن الزهاد، والمغالطين باسم الزهد، فقال:

«وفيهم أصناف من أهل الغلط في طريق الزهد، والمغالطة لأغراض أُخَرَ، منهم صنف يغلب عليهم محبة الرياسة والإمرة..»[٢].

ويعتبر هذا الكاتب مَثَلَ ابن تومرت، هو أقرب ما جرى في هذا المعنى؛ معنى الداعية المتزهد المخادع الذي يبطن انتزاع الرياسة، وأنه تذرع بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر[٣].

- والحاصل أن حركة ابن تومرت لا يمكن وصفها بالحركة الإصلاحية؛ لأنها كانت حركة غلب عليها الإفساد والتدمير، وكانت أبعد ما تكون عن معالم المنهاج النبوي، والإصلاح السلفي التجديدي، وبخاصة في مجال العقيدة.

(١٢) تِمِرْتَاشُ بن النوين جوبان (قُتِلَ سنة ٧٢٨هـ):

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: (كان شجاعًا فاتكًا، إلا أنه خَفَّ عقله، فزعم

---

(١) «السابق» ص(١٧ ـ ١٨).

(٢) «آثار الأول وترتيب الدول» المنشور على هامش «تاريخ الخلفاء» السيوطي ص(٦١ ـ ٦٢) ط.القاهرة ١٣٠٥هـ.

(٣) «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/١٩٤ ـ ١٩٦).

أنه المهدي الذي يخرج في آخر الزمان، فبلغ ذلك أباه، فركب إليه، ورده عن هذا المعتقد)[١].

(١٣) أحمد بن عبدالله بن هاشم، أبو العباس المعروف بالملثم (٦٥٨-٧٤٠هـ)

(نشأ أبوه ببلاد الترك، وقدم القاهرة، فولد له الملثم في رمضان سنة ٦٥٨هـ، واشتغل في الفقه على مذهب الشافعي، وحفظ التنبيه، ولازم الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد في الفقه وسماع الحديث عشرين سنة، وسمع عدة من الكتب الكبار على ابن دقيق العيد، ثم سلك طريق العبادة، فحصل له انحراف مزاج، فادعى في سنة ٦٨٩هـ دعاوى عريضة؛ من رؤية الله ـ تَعَالَى ـ في المنام مرارًا، وأنه أسري به إلى السماوات السبع، ثم إلى سدرة المنتهى، ثم إلى العرش، ومعه جبريل، وجمع من الملائكة، وأن الله كلَّمه، وأخبره بأنه المهدي، وأن البشائر تواردت عليه من الملائكة، وأنه رأى النبي ﷺ، فأعلمه بأنه من ولده، وأنه المهدي، وأمره أن ينذر الناس، ويدعوهم إلى الله، فاشتهر أمره؛ فأخذ، وحُبس، وذُكر أنه سُقي السم مرارًا، فلم ينجع فيه، ودخل عليه رجل فأراد خنقه، فذكر عن نفسه أن الرجل جفت يده؛ أي: شَلَّت. وجمع هذا الرجل كتابًا كبيرًا بث فيه الأحوال التي اتفقت له، وفيه دعاوى عريضة غالبها منامات، ويحلف على كل منها، وذكر في بعض كلامه أن المهدي يخرج في سنة ٧٣٤هـ، أو في سنة ٧٤٤هـ، وذكر عدة منامات أنه هو المهدي، ثم ذكر في مواضع أن المعنيَّ بكونه المهديَّ أنه يهدي الناس إلى الحق، وليس هو المهدي الموعود به في آخر الزمان.

وَذَكَرَ أنهم حبسوه عند المجانين، ثم أرسلوا إليه السم فوضع في شرابٍ، وسقوه، فما أثر فيه، وأنهم سقوا نصرانيًا من الأسرى، فمات من ساعته، وأنه أُطْلِقَ، وأظهر التوبة

(١) «الدرر الكامنة» (٥٣/٢).

من دعواه أنه المهدي، وكان مما شُهِدَ عليه أنه زعم أنه رسول الله، فتنصَّل من ذلك، وقال: «إنما قلت: إني رسول أرسلني رسول الله إليكم لأنذركم»، ومات هذا الرجل في سنة ٧٤٠هـ، وقد جاوز الثمانين، والله أعلم بحاله)[(١)].

ولا يخفاك أن ما ادعاه من خَرْقِ عادة، وأحوال غريبة، إنما حكاها هو عن نفسه، وبالتالي فهو إما كاذب، وإما أنها أحوال شيطانية، وإلا فالدجال الأعور سيأتي بأضعافها، أو أنها صدرت عن «اضطراب نفسي»؛ كما يُفهم مما سبق.

(١٤) محمد بن يوسف الحسيني الجونبوري (ت ٩١٠):

ولد سنة سبع وأربعين وثمان مئة بمدينة جونبور بشرق الهند، وطلب العلم من بعض المشايخ، ثم اشتغل بالعبادة والرياضة، حتى ترك الأهل والأولاد، وخرج يتجول في الفيافي، والصحاري، والجبال، ورجع بدعوى المهدية، فأخذ يبشر الناس بمهديته من بلد إلى بلد، وتبعه أناس كثيرون مُغْتَرِّينَ بزهده وتقشفه؛ كشأنهم وراء كل ناعق، وفي سنة ٩٠١هـ سافر للحج، وادعى في مكة المكرمة أنه مهدي، ومن تبعه فهو مؤمن، ثم رجع إلى الهند، وأخذ يتجول من بلد إلى بلد يدعو الناس إلى مهديته، وتوجه إلى خراسان، ولعله أراد أن يطبق عليه حديث الرايات السود من خراسان، ولكن حالت بعض الموانع دونه، فمات، وهو ينتظر الدخول في خراسان، وكانت وفاته سنة ٩١٠هـ[(٢)].

واختلف الناس في شأنه، وقال اللاهوري في «خزينة الأصفياء»: إنه قال: «أنا مهدي» في غلبة الحال، ولكنه تاب عن ذلك القول في حالة الصحو، والإفاقة كغيره من الصوفية. وأما أصحابه الجهلة، فإنهم لم يعتبروا إقالته، فأصروا على أنه مهدي موعود، وضلوا عن الطريق، وأضلوا كثيرًا من الناس، واخترعوا مذهبًا جديدًا، وانتسبوا

(١) «السابق» (١/١٩٧-٢٠٠) بتصرف.

(٢) «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» (٧/٣٢٤-٣٢٦) بتصرف، وانظر: «فرق الهند» ص(٢٣٢).

إلى الفرقة المهدوية.

وقال أبو رجاء محمد الشاهجهانبوري في «الهدية المهدوية»: (إن الجونبوري لم يمنع أصحابه من ذلك؛ (أي من نسبة المهدوية إليه)، وبدَّل اسمَ أبيه بعبد الله، واسمَ أُمه بآمنة، وأشاعهما في الناس، وصنف كتابًا في أصول ذلك المذهب...، ومنها:

«أنه مهدي موعود، وأنه أفضل من أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -، بل إنه أفضل من آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى - على نبينا وعليهم السلام».

- ومنها: أنه كان مساويًا لسيدنا محمد ﷺ في المنزلة، وإن كان تابعًا له في الدين.
- ومنها: أنه ما خالف من الكتاب والسنة قولَهُ وفعلَهُ، فهو غير صحيح.
- ومنها: أن الجونبوري، وسيدنا محمدًا ﷺ كلاهما مسلمان كاملان، وسائر الأنبياء ناقصوا الإسلام.
- ومنها: أن الجونبوري شريك في بعض الصفات الإلهية بعد فوزه بالرسالة، والنبوة[1].

وقد عاثت هذه الفرقة فسادًا في ذلك العصر، فزعموا أن شيخهم هو إمام ذلك العصر، وأن من لم يدخل في طاعته فقد مات ميتةً جاهلية، وقتلوا كثيرًا من مخالفيهم، واستباحوا اغتيالهم، ولقد ألف علي المتقي[2] صاحب «كنز العمال» رسالتين للرد عليهم أولاهما: «الرد على من حكم وقضى أن المهدي قد جاء ومضى»، قال فيه:

«ومن قبائحهم أنهم يعتقدون أن من أنكر بهذا السيد الماضي الذي ادعى المهدوية فهو كافر، وبهذا الاعتقاد يُكَفِّرُونَ المسلمين، ويَكْفُرُونَ بِتَكْفِيرِهِمْ، وقال في كتابه الآخر «البرهان في علامات مهدي آخر الزمان»:

«كفى دليلًا على بطلان اعتقاد هذه الطائفة قتلهم العلماء؛ فإن خَصْلَتَهُمْ هذه تدل

---

(١) «المختار المصون من أعلام القرون» (٢/٨٧٦-٨٧٧) بتصرف.

(٢) انظر: «فرق الهند المنتسبة للإسلام» ص(٢٩١).

على عدم الدليل على اعتقادهم، وعجزهم عن إثبات معتقدهم»[(١)].

وقال البرزنجي: (وقد سمعت كثيرًا - من القادمين من بلاد الهند إلى الحرمين من العلماء والصلحاء - أن أولئك القوم إلى الآن على ذلك الاعتقاد الخبيث، وأنهم يُعْرَفُونَ بالمهدوية، وربما سُمُّوا بالقتالية؛ لأن كل من قال لهم: «إن اعتقادكم باطل»؛ قتلوه، حتى إن الرجل الواحد منهم يكون بين الجمع الكثير من المسلمين، فإذا قيل له: «إن اعتقادك باطل»، قتل القائل، ولا يبالي: أَيُقْتَلُ أو يَسْلَمُ؟)[(٢)].

(١٥) محمد بن عبدالله الكردي

قال البرزنجي:(وظهر - قبل تأليفي لهذا الكتاب بقليل - رجل بجبال عفرا، والعمارية، من الأكراد، يسمى «عبدالله»، ويدَّعي أنه شريف حسيني، وله ولد صغير ابن اثنتي عشرة سنة، أو أقل، أو أكثر، قد سمَّاه محمدًا، ولقَّبه: «المهدي الموعود»، وتبعه جماعة كثيرة من القبائل، واستولى على بعض القلاع، وركب إليهم والي المَوْصِل، ووقع بينهم قتال، وسفك دماء، وقد انهزم المدَّعي، وأُخِذ هو وابنه إلى إستانبول، ثم إن السلطان عفا عنهما، ومنعهما من الرجوع إلى بلادهما، وماتا جميعًا)[(٣)].

(١٦) الإمام المجاهد، والبطل المجالد، والعَلاَّمَة الزاهد العابد عبدالعزيز ابن محمد بن سعود، الملقب بمهديِّ زمانه (ت١٢١٨هـ)

من أمراء آل سعود في دولتهم الأولى، وهو أول من لُقِّب بالإمام بين العائلة السعودية[(٤)]، وَلِيَ بعد وفاة أبيه (١١٧٩هـ)، واتسع نطاق الدولة في أيامه توسعًا

---

(١) انظر: «البرهان في علامات مهدي آخر الزمان» ص (٦)، وما بعدها، و«فرق الهند» ص(٣١٩)، (٢٣٥).
(٢) «الإشاعة» ص (١٢١).
(٣) «السابق» ص (١٢١-١٢٢).
(٤) انظر: «تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب»، لحسين خلف الشيخ خزعل ص (٣٨٨-٣٩٠).

كبيرًا، وازدادت قوتها، قال الشوكاني في «البدر الطالع» شارحًا أَثَرَ فتوحات عبدالعزيز ابن محمد بن سعود ـ رحمه الله ـ:

(ومن دخل تحت حوزته أقام الصلاة، والزكاة، والصيام، وسائر شعائر الإسلام، ودخل في طاعته من عرب الشام الساكنين ما بين الحجاز، وصَعْدَة غالبهم، إما رغبة وإما رهبة، وصاروا مقيمين لفرائض الدين، بعد أن كانوا لا يعرفون من الإسلام شيئًا، ولا يقومون بشيء من واجباته إلا مجرد التكلم بلفظ الشهادتين، على ما في لفظهم بها من عِوَجٍ، وبالجملة فكانوا جاهلين جهلاء، كما تواترت بذلك الأخبار إلينا، ثم صاروا الآن يصلون الصلوات لأوقاتها، ويأتون بسائر الأركان الإسلامية على أبلغ صفاتها)[١] . اهـ.

● وقال الشيخ عثمان بن بشر النجدي في «عنوان المجد في تاريخ نجد»:

(وكان عبدالعزيز كثير الخوف من الله والذكر، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، ينفذ الحق، ولو في أهل بيته، وعشيرته، لا يتعاظم عظيمًا إذا ظَلَم؛ فيقمعه عن الظلم، وينفذ الحق فيه، ولا يتصاغر حقيرًا فيأخذ له الحق، ولو كان بعيد الوطن، وكان لا يكترث في لباسه، ولا سلاحه؛ بحيث إن بنيه وبني بنيه محلاة سيوفهم بالذهب، والفضة، ولم يكن في سيفه شيء من ذلك إلا قليل، وكان لا يخرج من المسجد بعد صلاة الصبح حتى ترتفع الشمس، ويصلي فيه صلاة الضحى، وكان كثير الرأفة، والرحمة بالرعية، وخصوصًا أهل البلدان؛ بإعطائهم الأموال، وبث الصدقة لفقرائهم، والدعاء لهم، والتفحص عن أحوالهم، وقد ذكر لي بعض من أثق به أنه يكثر الدعاء لهم في ورده، قال: وسمعته يقول: «اللهم أبق فيهم كلمة لا إله إلا الله حتى يستقيموا عليها، ولا يحيدوا عنها».

وكانت الأقطار والرعية في زمنه آمنة مطمئنة في عيشة هنية، والشخص الواحد

---

(١) «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» (٢/٥).

يسافر بالأموال العظيمة أي وقت شاء، شتاءً وصيفًا، يمنًا وشامًا، شرقًا وغربًا، في نجد، والحجاز، واليمن، وتهامة، وغير ذلك، لا يخشى أحدًا إلَّا الله: لا سارقًا، ولا مكابرًا، وكانت جميع بلدان نجد من العارض، والخرج، والقصيم، والوشم، والجنوب، وغير ذلك من النواحي، في أيام الربيع ـ يسيبون جميع مواشيهم في البراري من الإبل، والخيل الجياد، والبقر، والأغنام، وغير ذلك، ليس لها راعٍ، ولا مَرَاعٍ، بل إذا عطشت وردت على البلدان، ثم تصدر إلى مفاليها، حتى ينقضي الربيع، أو يحتاجون لها أهلها لسقي زروعهم، ونخيلهم، وربما تلقح، وتلد، ولا يدري أهلها إلا إذا جاءت، وولدها معها، إلا الخيل الجياد؛ فإن لها من يتعاهدها.

وكان ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ مع رأفته بالرعية، شديدًا على من جنى جنايةً من الأعراب، أو قطع سُبُلًا، أو سَرَقَ شيئًا من مسافر؛ بحيث من فعل شيئًا من ذلك أخذ ماله نكالًا، أو بعض ماله، أو شيئًا منه، على حسب جنايته، وأدَّبه أدبًا بليغًا.

وحُكي أنه أتى حاجٌّ من العجم، ونزل قُرْبَ بَوَادِي سُبَيْع، فسُرق من الحاج غِرارة[1] فيها من الحوائج ما يساوي عشرة قروش، فكتب صاحب الغرارة إلى عبدالعزيز يخبره بذلك، فأرسل إلى رؤساء تلك القبيلة، فلما حضروا عنده قال لهم: «إن لم تخبروني بالغرارة؛ وإلا جعلت في أرجلكم الحديد، وأدخلتكم السجن، وأخذت نكالًا من أموالكم»، فقالوا: «نغرمها بأضعاف ثمنها»، فقال: «كلا حتى أعرف السارق»، فقالوا: «ذرنا نصل إلى أهلنا، ونسأل عنه، ونخبرك»، ولم يكن بد من إخباره، فلما أخبروه به أرسل إلى ماله، وكان سبعين ناقة فباعها، وأدخل ثمنها بيت المال، وجيء بالغرارة لم تتغير، وكان صاحبها قد وصل إلى وطنه فأرسلها عبدالعزيز إلى أمير الزبير، وأمره أن يرسلها إلى صاحبها في ناحية العجم.

وذكر لي شيخنا القاضي عثمان بن منصور أن رجلًا من سُرَّاق الأعراب وجد عنزًا

---

(١) الغِرارة: وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه، وهو أكبر من الجُوالق.

ضالة، وهم جياع، وأخبرني أنهم أقاموا يومين، أو ثلاثة مُقْوين[١]، فقال بعضهم لبعض: «لينزل أحدكم على هذه العنز، فيذبحها لنأكلها»، فكل منهم قال لصاحبه: «انزل إليها»، فلم يستطع أحد منهم النزول، خوفًا من العاقبة على الفاعل، فألحوا على رجل منهم، فقال: «والله، لا أنزل إليها، ودعوها؛ فإن عبدالعزيز يرعاها»، فتركوها، وهم في أشد الحاجة إليها، وكانت الحجاج، والقوافل، وجباة الغنائم، والزكاة، والأخماس، وجميع أهل الأسفار يأتون من البصرة، وعمان، وبلاد العجم، والعراق، وغير ذلك إلى الدرعية، ويحجون منها، ويرجعون إلى أوطانهم، لا يخشون أحدًا في جميع البوادي مما احتوت عليه هذه المملكة، لا بحرب، ولا سَرَقٍ، وليس يُؤْخَذُ منهم شيء من القوانين التي تُؤْخَذُ على الحجّاج، وبَطَلَ جميع الجوائز على الدروب التي للأعراب، أحيوا بها سنن الجاهلية، ويخرج الراكب وحده من اليمن، وتهامة، والحجاز، والبصرة، والبحرين، وعمان، وأنقرة الشام، لا يحمل سلاحًا، بل سلاحه عصاه، لا يخشى كيد عدو، ولا أحد يريده بسوء.

وأخبرني أنه ظهر مع عمال من حلب الشام قاصدين الدرعية، وهم أهل ست نجائب محملات ريال زكوات بوادي أهل الشام، فإذا جنهم الليل وأرادوا النوم، نبذوا أرحلهم ودراهمهم يمينًا وشمالًا، إلا ما يجعلونه وسائد تحت رءوسهم.

وكان بعض العمال إذا جاءوا بالأخماس والزكاة من أقاصي البلاد، يجعلون مزاود الدراهم أطنابًا لخيمتهم، ورُبُطًا لخيلهم بالليل، لا يخشون سارقًا، ولا غيره.

وكان يوصي عماله بتقوى الله، وأَخْذِ الزكاة على الوجه المشروع، وإعطاء الضعفاء، والمساكين، ويزجرهم عن الظلم، وأخذ كرائم الأموال.

وكان ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ مع ذلك كثيرَ العطاء، والصدقات للرعية من الوفود،

---

(١) أقوى الرجل: افتقر، ونزل بالقَفْر، ونَفِدَ طعامه وفني زاده، وجاع فلم يكن معه شيء، وإن كان في بيته وَسْطَ قومه.

والأمراء، والقضاة، وأهل العلم، وطلبته، ومعلمة القرآن، والمؤذنين، وأئمة المساجد، حتى أئمة مساجد نخيل البلدان، ومؤذنيهم، ويرسل قهوة لأهل القيام في رمضان، وكان الصبيان من أهل الدرعية إذا خرجوا من عند المعلم يصعدون إليه بألواحهم، ويعرضون عليه خطوطهم، فمن تحاسن خطه منهم أعطاه عطاء جزيلًا، وأعطى الباقين دونه.

وكان عطاؤه للضعفاء والمساكين في الغاية، فكان منهم من يُكْتَبُ إليه منه، ومن أمه، وزوجته، وابنه، وابنته، من كل واحد كتابًا وحده، فيوقع لكل كتاب منهم عطاءه، فكان الرجل يأتيه بهذا السبب عشرون ريالًا، وأقل، وأكثر.

وكان إذا مات الرجل من جميع نواحي نجد يأتي أولاده إلى عبدالعزيز يستخلفونه، فيعطيهم عطاءً جزيلًا، وربما كتب لهم راتبًا في الديوان.

وكان كثيرًا ما يفرق على أهل النواحي والبلدان كثيرًا من الصدقات في كل وقت، وكل سنة، يعطي كل أهل بلد، وكل أهل ناحية ألفَ ريال، وأقل، وأكثر، ويسأل عن الضعفاء، والأيتام في الدرعية، وغيرها، ويأمر بإعطائهم، وكثيرًا ما يُفَرِّقُ على بيوت الدرعية، وضعفائها.

وكان كثيرًا ما يكتب لأهل النواحي بالحض على تعلم العلم، وتعليمه، ويجعل لهم راتبًا في الديوان، ومن كان منهم ضعيفًا يأمره بأن يأتي إلى الدرعية، ويقوم بجميع أنوابه.

وأخبرني كاتبه قال: إن عبدالعزيز أخذه يوما صداع، فدعاني، وقال: «اكتب صدقة لأهل النواحي»، فأملى علي: «لأهل منفوحة خمس مئة ريال، وأهل العيينة مثل ذلك، وأهل حريملا سبع مئة ريال، وأهل المحمل ألف ومئة ريال، ولجميع نواحي نجد على هذا المنوال»، قال: قيمتها تسعون ألف ريال، وأتى إليه يومًا خمس وعشرون حِمْلًا من الريالات، فمر عليها وهي مطروحة، فنخسها بسيفه، وقال: «اللهم سَلِّطْني عليها، ولا

تسلطها علي»، ثم بدأ في تفريقها[١]. اهـ.

وفي رجب ١٢١٨هـ قُتِلَ الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود في مسجد الطريف المعروف في الدرعية، وهو ساجد أثناء صلاة العصر، مضى عليه رجل قيل إنه كرديٌّ من أهل العمارية بلد الأكراد المعروفة عند الموصل، اسمه عثمان، أقبل من وطنه لهذا القصد محتسبًا، حتى وصل الدرعية في صورة درويش، وادَّعى أنه مهاجر، وأظهر التنسك، والطاعة، وتعلم شيئًا من القرآن، فأكرمه عبدالعزيز، وأعطاه، وكساه، وطلب الدرويش منه أن يعلمه أركان الإسلام، وشروط الصلاة، وأركانها، وواجباتها، مما كانوا يعلمونه الغريب المهاجر إليهم؛ وكان قصده غير ذلك، فوثب عليه من الصف الثالث، والناس في السجود، فطعنه في خاصرته أسفل البطن بخنجر معه قد أخفاها، وأَعَدَّها لذلك[٢].

حَكَمَ الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ مدة تسعة وثلاثين عامًا (١١٧٩هـ ـ ١٢١٨هـ) (١٧٦٥م ـ ١٨٠٣م)، ومضى أكثر عهد حكمه تحت إشراف مباشر من شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهَّاب نفسه[٣].

(١٧) السيد أحمد بن عرفان البريلوي (ت١٢٤٦هـ)[٤]:

الذي قاد مع الشاه إسماعيل الدِّهْلوي أعظم حركة إسلامية عَرَفَتْهَا القارة الهندية، ولم يَدَّعِ المهدية قط، ولكن بعض أتباعه توهموا ذلك، قال العلامة محمد صديق حسن خان ـ رحمه الله ـ: (... وقد حمل قوم من علماء الهند هذا الحديث على خروج السيد أحمد البريلوي بتكلفات باردة، مع أن السيد كان رجلًا صالحًا، حج،

(١) «المختار المصون من أعلام القرون» (٣/١٩١٥-١٩١٩).

(٢) «السابق» (٣/١٩١٤).

(٣) «محمد بن عبدالوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه» ص (١١١).

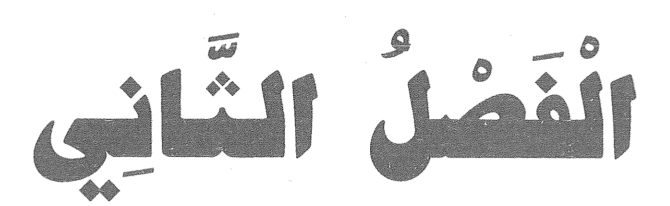
(٤) انظر ترجمته في «المختار المصون من أعلام القرون» (٣/١٦٩٢)، و«إذا هبت ريح الإيمان» للشيخ أبي الحسن الندوي ـ رحمه الله ـ تَعَالَى.

وجاهد، وغزا، ولم يَدَّعِ المهدوية قط، ولم تكن تنبغي له هذه الدعوة)[١]. اهـ.

وقال العلامة شمس الحق آبادي ـ رحمه الله ـ: (... ويقرب من هذا ما زعم أكثر العوام وبعض الخواص في حق الغازي الشهيد الإمام الأمجد السيد أحمد البريلوي ـ رَضِيَ اللَّهُ ـ تَعَالَى ـ عَنْهُ ـ أنه المهدي الموعود المُبَشَّر به في الأحاديث، وأنه لم يستشهد في معركة الغزو، بل إنه اختفى عن أعين الناس، وهو حي موجود في هذا العالم إلى الآن، حتى أفرط بعضهم فقال: «إنا لقيناه في مكة المعظمة حول المطاف، ثم غاب بعد ذلك»، ويزعمون أنه سيعود، وسيخرج بعد مرور الزمان، فيملأ الأرض عدلًا وقسطًا، كما مُلِئَتْ جورًا وظلمًا، وهذا غلط وباطل)، إلى أن قال: (وإلى الله المشتكى من صنيع هؤلاء، ونعوذ بالله من هذه العقيدة المنكرة الواهية، والله أعلم)[٢]. اهـ.

* * * * *

(١) «الإذاعة» ص (١٢٣).
(٢) «عون المعبود» (١١/٣٦٧-٣٦٨).



حَرَكَتَا الْمَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ، وَالْمَهْدِيِّ الْقَحْطَانِيِّ.

عَصْرُ الْمَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ

مُحَمَّد أَحْمَد بْن عَبْدِاللَّهِ

(١٢٥٩ هـ - ١٣٠٢ هـ) (١٨٤٤ م - ١٨٨٥ م).

وَضْعُ الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ

وُلِدَ المهدي بعد خمس سنوات من تولي السلطان عبدالمجيد الأول بعد وفاة أبيه سنة (١٨٣٩ م)، ثم عاصر مدة خلافة أخيه السلطان عبدالعزيز، التي امتدت خمس عشرة سنة (من ١٨٦١ إلى ١٨٧٦)، ثم عُزِلَ بمؤامرة أوربية، ثم قُتِلَ، وتولى من بعده ابن أخيه مراد الخامس بن عبدالمجيد، الذي عُزِلَ بعد ثلاثة أشهر، وثلاثة أيام، وبُويِعَ بعده أخوه عبدالحميد الثاني سنة (١٨٧٦م)، الذي عاصر المهديُّ السوداني تسع سنوات من فترة خلافته.

إذن عاش المهدي عصر الانحطاط والتراجع الذي أعقب مرحلة ضعف الدولة العثمانية؛ حيث تراجعت قوة العثمانيين مقابل نهضة الأوربيين، واشتدت المواجهة بين «دار الإسلام»، و«دار الحرب»، بين الأتراك العثمانيين، وخَلْفهم العالم الإسلامي في مواجهة الكنيسة البابوية، وخلفها كل دول الغرب النصراني[(١)] .

● أَمَّا عَنْ أَسْبَابِ وَمَظَاهِرِ هَذَا الضَّعْفِ وَالتَّرَاجُعِ[(٢)]:

فَأَوَّلُهَا: الانحراف عن شريعة الله - تعالى -، وتحكيم القوانين الوضعية، واعتماد تقليد الغرب أسلوبًا لا بديل عنه من أجل تحديث الدولة.

ثَانِيًا: سيطرة العقلية العسكرية في إدارة أحوال الدولة، وصراع أبناء الأسرة العثمانية

(١) «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص (٣٥٩).
(٢) طالعها مفصلة إن شئت في «التاريخ الإسلامي»، للأستاذ محمود شاكر، (٨/١١١ - ١٢٥)؛ وانظر: «المختار المصون من أعلام القرون»، (٣/٢٠٣٧).

على السلطة.

ثَالِثًا: منح الحصانة والامتيازات للأجانب، حتى صاروا دولة داخل الدولة.

رَابِعًا: إهمال العلم والجمود على الأساليب التقليدية.

خَامِسًا: شيوع تزوج السلاطين من فتيات نصرانيات ويهوديات؛ مما ترتب عليه تدخلهن في سياسة الدولة.

سَادِسًا: اتساع رقعة دولة الخلافة حتى زادت على ستة عشر مليون كيلو متر مربع؛ (أي ضعف مساحة الولايات المتحدة الأمريكية).

سَابِعًا: شيوع الترف والبذخ والإسراف.

ثَامِنًا: الثورات الداخلية، وَتَمَرُّدُ الرعايا من النصارى وغيرهم، بفعل الروح الصليبية المعادية، التي تَشَبَّعَ بها الأوروبيون تجاه الدولة، مما أنهك كِيَانَهَا وَمَزَّقَهَا.

تَاسِعًا: انتشار الدعوة إلى العصبية القومية.

عَاشِرًا: نشاط الجمعيات السرية العاملة على الانفصال عن الدولة، وتأسيس الجمعيات ذات الأهداف السياسية، تحت ستار أسماء علمية وأدبية، وبخاصة في بيروت؛ حيث انتشرت الإرساليات النصرانية الموالية للغرب، وفي إستنبول حيث كان معظم أعضائها من الأتراك المفتونين بأوربة، الداعين إلى العصبية التركية، ومن أصحاب المصالح، واليهود الناقمين على الحكم والإسلام، وأشهرها: جمعية تركيا الفتاة التي رفعت لواء التغريب، ومنها تفرع الجناح العسكري الذي عُرف باسم «الاتحاد والترقي».

وَضْعُ الإِمَارَاتِ السُّودَانِيَّةِ

يقع السودان ـ جُغْرَافِيًّا ـ في وسط البلاد الإسلامية العربية، ومع ذلك فقد كان ـ تاريخيًّا ـ من أحدث البلاد دخولًا في الإسلام؛ حيث تأخر انتشار الإسلام فيه حتى القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، ويبدو أن اندفاع الفاتحين المسلمين إلى

الغرب ـ بعد تمام فتح مصر ـ شغلهم عن الاتجاه جنوبًا[١].

إن السودان من البلاد التي دخلها الإسلام دون حرب، دخلها بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، فدون تدخل من أي دولة إسلامية، كان الإسلام يسري في بلاد السودان في هدوء يملأ القلوب؛ وذلك عن طريق بني رفاعة، وعرب جهينة، ودولة الفونج[٢].

(وقد انفردت بلاد سودان وادي النيل بوضع متميز عن سائر البلاد الإسلامية؛ فعلى قربها من بلاد العرب، وصِلَتِها الأبدية الحميمة بمصر، وبرغم بكور دخول الإسلام فيها، ظلت خارج حوزة الخلافة الإسلامية الراشدة منها والأموية، والعباسية أو العثمانية التركية. ظلت على هامش ذلك العالم، ولم تكن التغيرات والتيارات الفكرية والسياسية والاقتصادية المتجددة، والمتكررة لِتَمَسَّهَا إلا بقدر يسير، وعلى طول ذلك الزمان، فإن الأمة السودانية كانت في طور التكوين البشري، والجغرافي، والسياسي، واستمر ذلك الحال حتى مطلع القرن التاسع عشر.

لقد بقيت الممالك النصرانية في بلاد النوبة الممتدة من حدود مصر، وحتى «سنار» في أواسط الجزيرة حيًّا كَمَيِّتٍ، منذ ظهور الإسلام، وحتى القرن الخامس عشر لا تمثل إلا سلطة متآكلة مع الزمان، وديانة لم يُتَحْ لها إلا القليل بين سكان ضفاف النهر، بينما كان الإسلام واللغة العربية والقبائل العربية تنتشر، وتغلب على المجتمعات النوبية، والمجتمعات البدوية العربية والنوبية، ومن كانت تتصل به من الجماعات الزنجية في الغرب وفي الجنوب، في بلد شاسع تمتد أرضه من المدار الشمالي، وحتى خط الاستواء. نعم، لقد حدثت تحولات كبيرة، وخطيرة في القرن الخامس عشر، وقُبَيْلَهُ، وبعده، وأصبح الإسلام الكم والكيف، وصارت له السلطة والدولة، وأصبح له النفوذ

---

(١) «أطلس تاريخ الإسلام»، ص(٣٣٤).
(٢) السابق، ص(٣٣٦).

السياسي[١]، ووجدت شريعة الله سبيلها للناس.

حدث ذلك عندما قامت الممالك الإسلامية في الغرب، والوسط، والشمال، في «تقلى» و«المسبعات»، وفي «سنار» التي امتدت سلطتها حتى حدود مصر، وعُرِفَتْ «بالسلطنة الزرقاء». وكان كل ذلك؛ لانتشار القرآن، وازدياد العلماء، والتوسع في الصلات المتنوعة مع العالم الإسلامي المجاور، في مصر، وفي الحجاز، وفي تونس، وليبيا، والمغرب. واستمرت تلك التغيرات تزيد من حركة أهل بلاد سودان وادي النيل في الداخل بعضهم ببعض، فيزداد الإسلام انتشارًا، وتزداد حركة انتشار اللغة العربية، وما يتبعها من قِيَمٍ ومفهومات وسلوك. ويبلغ ذلك الأجزاء الجنوبية منه. وبنفس القدر كانت حركة الاتصال بالخارج تزداد، فكانت للسناريين أروقتهم المعروفة بهم في «الأزهر الشريف»، وكان لهم حجيجهم المعروف بهم في الحجاز، وكان لهم علماؤهم، وشيوخهم، وتجارهم المعروفون في عالمهم المجاور القريب منه والبعيد.

في ذات الوقت ظلت نتائج التحولات السياسية والاقتصادية والحضارية الناجمة

أولًا: من اشتداد المواجهة بين «دار الإسلام»، و«دار الحرب»؛ الأتراك العثمانيين، وخَلْفَهُمُ العالم الإسلامي، في مواجهة الكنيسة البابوية، وخَلْفَهَا كُلُّ دُوَلِ الغرب النصراني.

وثانيًا: ما نتج من تلك المواجهة من تحولات في طرق التجارة، واكتشاف للمسالك البحرية، وعلى رأسها اكتشاف أمريكا، والدوران حول «رأس الرجاء الصالح»[٢] وصولًا للهند.

وثالثًا: تَسَاقُط بلاد العالم الإسلامي، واضمحلال نفوذه رويدًا من الأطراف، في

(١) وقد قيل في تصوير ذلك: إن دار الخلافة كانت «جلبابًا» وسطه جزيرة العرب، وكُمَّاه يمتدان شرقًا في آسيا، وغربًا في مصر، وشمال أفريقية إلى أقصى المغرب.

(٢) كان البرتغاليون حريصين على تطويق المسلمين، ولما بدأ ملك البرتغال حملته على المسلمين في مراكش، وجد أن التطويق يجب أن يكون عن طريق الوصول إلى بلاد لا يسكنها مسلمون، حتى لا يساعدوا سكان الأندلس بثورات يقومون بها، فكان الانتقال عبر السواحل الأفريقية الغربية، وكانوا كلما وصلوا مكانًا وجدوا فيه مسلمين؛ تركوه، واتجهوا جنوبًا، حتى وصلوا الكنغو، وتجاوزوا خط الاستواء، ثم دفعت العواصف «بارتملي دياز» نحو أقصى جنوب القارة الأفريقية، وتجاوزها حتى وصل السواحل المطلة على المحيط الهندي، ولما عاد سمَّى الطرف الجنوبي من القارة برأس العواصف، ولكن =

الغرب النصراني، إلى أن أصيب العالم الإسلامي في قلبه بسقوط الشام ومصر، ومن قبلهما بلاد المغرب؛ لنفوذ فرنسا وبريطانيا.

ظلت نتائج كل هذا تنعكس على السودان في داخله؛ إذ لم يكن ليلفت من أنظار الطامعين، وكانت أوربا النصرانية قد أخذت تتوغل مكتشفة أسراره، وإمكاناته عن طريق الرَّحَّالة، والمسافرين، والتجار، والمبشرين. وتشقى إذ تجد الإسلام واللغة العربية ينتشران، ويتحلب لعابها لثروات عظيمة فيه، واستراتيجية تملك بناصيتها موارد النيل، مفتاح حياة مصر. ومع بداية القرن التاسع عشر كان محمد علي باشا قد أحكم قبضته على مصر، وخطط لأسباب متعددة لغزو بلاد النوبة، وكردفان، ودارفور بعد أن عرف عنها الكثير.

كان في بلاد سودان وادي النيل من السعة والثروة والرجال الأشداء ما يغري واليَ مصر «محمد علي باشا» الطَّموحَ القادمَ من «ألبانيا»، بعد ظهور «النظام الجديد»، وكانت بلاد النوبة وسنار وكردفان ودارفور تعيش فترة هامة من تاريخها. صِلَاتُهَا بعضها البعض، وصِلَاتُهَا بالخارج، وحركتها نحو مناطق جنوب وادي النيل، وكان الإسلام ينتشر، وكانت اللغة العربية تنتشر، وكانت أساليب حياة الناس تتأثر بذلك في كل شيء: قيمِهَا، ونظمِهَا، توجهاتِهَا، سلوكِهَا، تعامُلِهَا، وما إلى ذَلِكَ، وكانت شعوب بلاد سودان وادي النيل، وقبائلها، تعيش فترة انطلاقة؛ لتلاحم، وانسجام، وانصهار في بوتقة الإسلام والعروبة. وإذا بباشا مصر الذي سمع عن جيران مصر في الجنوب الكثيرَ يُعِدُّ العدةَ لغزو تلك البلاد.

لم تكن تلك البلاد قد عرفت الغزو بالصورة التي عرفتها مصر وجاراتها مراتٍ ومراتٍ من قبل... ولم يكن ثمة أسباب لغزو الآخرين، أو الغزو من الآخرين. لم يقبل السودان فكرة غزو «محمد علي»، فكتبوا مستنكرين مدافعين بأنهم مسلمون، وبلدهم

= ملك البرتغال أطلق عليه اسم «رأس الرجاء الصالح» Cape of Good Hope حيث شعر بأمل في إمكانية تطويق المسلمين، كان هذا والمسلمون لا يزالون مرابطين في الأندلس، انظر: «أفريقيا يراد لها أن تموت جوعًا» ص(١٩١).

بلد مسلم، دار إسلام، وليس دار حربٍ للمسلمين، فكيف يغزوهم جارٌ مسلم؟

وعندما بدأ «محمد علي» غزوه عام ١٨٢٠م لم يقابله النوبة والشايقية مستسلمين لعدده وعتاده، قاوموه بأرواحهم في معاركَ كانوا يعلمون أنهم سيخسرونها معاركَ، ويكسبونها استشهادًا ومستقبلًا؛ إذ يظل الثأر، ويبقى الحق ما بقي عنه المدافع. وهكذا كان الحال في بلاد «الجعليين»، وفيما بعدها من البلاد حتى مناطق الجنوب. وما كان محمد علي وأتباعه ليصلوا إلى ما وصلوا إليه في السودان لولا غلبتهم عددًا وعدة، وما كانوا بمستطيعين هم - أو من سمي بالمكتشفين لمنابع النيل من الأوربيين - أن يعرفوا ما عَرَفوه، أو يبلغوا ما بلغوه، لولا أنَّ تَوَسُّعَ محمد علي وتوسع أوربا صادف حركة واسعة لاكتشاف الذات، واكتشاف الأرض في داخل البلاد. وبَدَهِيٌّ أن سكان تلك المناطق لم يكونوا بحاجة إلى من يكتشف لهم بلادهم من الخارج. ولنا أن نرجع لسيرة «الزبير باشا رحمت»، وأمثاله ومعاصريه لنعرف العمل الكبير والأساسي الذي قاموا به فيما تم من توسع، وما سمي باكتشافات.

أحدث غزو محمد علي للسودان هزة بالغة في كيان مجتمعه المسلم الذي عرف للإسلام صفاءه وأمجاده، وعرف للمسلمين زهدهم، وورعهم، وتقواهم، وعزتهم، وعزمهم، وحسمهم. إنها بلادٌ أنارها نور القرآن، وقد انتشرت خلاويه «وفقراه» في كل جوانب البلاد؛ شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا، إنهم شعب عمرت قلوبهم بالإيمان، وحسن إسلامهم، وقام فيهم العلماء، وقضاة العدالة، ونبغ فيهم البلغاء، والشعراء، والمُدَّاح (مُدَّاحُ الرسول ﷺ)، ومن قَبْلِهِمْ حفظة القرآن؛ حتى أصبحت مواضع، وأسماء قرى كثيرة في جهات السودان المختلفة تعرف بمن بها «بالفقراء»، أو «بخلاوي القرآن»، أو «بالمسيد» (المسجد)؛ حيث أصبحت أماكن استقرار العلماء وحفظة القرآن المواضع التي تعمر بالسكان والعمران.

كان ذلك الإسلام، ثم كانت تلك الهزة العنيفة العميقة، وما تبعها من حكم ظالم

بغيض، وحكام ما كانوا بأية حال يعكسون الصورة المتوقعة من الإسلام والمسلمين؛ كان عهد محمد علي ببلاد سودان وادي النيل هو العهدَ الذي دخلت فيه تلك البلاد في منظومة بلاد الشرق الأدنى؛ لتصبح بطريق غير مباشر جزءًا من الإمبراطورية العثمانية المتحضرة، وبتلك الصورة وجدت بعض المداخل للعالم الحديث؛ مثل وسائل الاتصال السلكية، ومبادئ التعليم الحديث، عمل فيه «رفاعة رافع الطهطاوي»، وبعض المحاصيل الزراعية الجديدة؛ مثل القطن، مع بعض وسائل الزراعة الحديثة. لكن كانت مع ذلك السخرة، والتجنيد الإجباري، وأساليب من العسف والتعذيب؛ مثل «الخازوق»، وكانت الضرائب الباهظة. وجاءت مع جنود باشا مصر ـ وهي أخلاط عجيبة من بقايا المماليك والفلاحين المُجْبَرِينَ ـ جاءت معهم أشكال غريبة من شُذَّاذ الآفاق، وحثالة أوربا الغربية، من غربها ووسطها وجنوبها، من الرعايا العثمانيين وغيرهم من الأوربيين. لم يكن غريبًا أن يحسب الكثيرون أنها علامات آخر الزمن، ولا بُدَّ أن يزول ذلك الكابوس عن العالم الإسلامي المنهزم كله بظهور «صاحب الوقت» «المجدد» «الختم»، «القطب»، أو «المهدي».

لم يكن ذلك التوقع قاصرًا على السودان، بل شمل العديد من المسلمين، بيضان وسودان)[1].

لقد كانت أولى أعلام دخول السودان ميدان التاريخ محاولة محمد علي صاحب مصر فتح السودان ابتداءً من سنة ١٨٠٧م، وتوسيع حدود مصر حتى تشمله، وقد بدأت العملية سنة ١٨٢٠ م، ومهما قيل في محاولة محمد علي فتح السودان؛ فإنها في الحقيقة كانت نداءً قويًّا أيقظ السودان، ونَبَّهَ أهله إلى أنه أصبح عضوًا في أسرة الإسلام والعروبة الكبرى، وأن عليه أن يأخذ نصيبه من آلام هذه الأسرة ومسراتها[2].

---

(١) «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص(٣٥٨ ـ ٣٦١)، بتصرف.

(٢) «أطلس تاريخ الإسلام»، ص(٢٣٦).

أَسْبَابُ غَزْوِ مُحَمَّد عَلِي لِلسُّودَانِ(١)

١ ـ ما أكد عليه محمد علي في مراسلاته لابنه؛ وهو جلب العبيد لتشكيل جيش قوي منهم.

٢ ـ مطاردة المماليك الذين فروا بعد مذبحة القلعة إلى النوبة، ثم إلى بلاد الفونج سنة ١٨١١م.

٣ ـ إشغال الجند الألبانيين، أو التخلص منهم عن طريق إرسالهم إلى السودان.

٤ ـ كشف منابع النيل، والسيطرة عليها.

٥ ـ اكتشاف ثروات السودان، وبخاصة الذهب والفضة والعاج، بجانب الثروة الزراعية، واستغلالها لتعويض خسائره في الحروب.

٦ ـ ترويج تجارة مصر في السودان.

٧ ـ توسيع حدود دولته عن طريق توحيد مصر والسودان.

أرسل محمد علي عام ١٢٣٦هـ حملة بقيادة ابنه الثالث إسماعيل كامل باشا، وكان في الخامسة والعشرين من عمره، فاستولى على «دنقلة» و«بربر» و«شندي»، وكذلك قضى على مملكة الفونج، غير أن إسماعيل أصيب بمرض، فتوجه عائدًا إلى مصر، ولما وصل إلى بلدة «شندي» انتقم منه حاكمها بأن أحرق الخيمة التي كان يقيم فيها، واحترق معها، مما أحزن محمد علي، وأثار غضبه، فأرسل جندًا جديدًا بقيادة خورشيد باشا، فأحرق بلدة شندي، ونكَّل بأهلها.

وبقيت المناطق المذكورة تحت حكم «محمد علي»، وأسرته من بعده، وفي عام ١٢٧٩هـ، وصل إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي إلى حكم مصر، وكان حريصًا على التوسع، وكانت الدولة العثمانية آنذاك على درجة من الضعف تحول دون إمكانية فرض هيبتها على المناطق البعيدة عن مركزها والتابعة لها، فتنازلت له عن سواحل

(١) انظر: «التاريخ الإسلامي»، (٨/٤٨٨)؛ «الأصول الفكرية»، ص(١٠٤).

البحر الأحمر الغربية، وسواحل خليج عدن، ورأى هو أن يضم إليه الأراضي الواقعة إلى الجنوب من حدود دولته، حيث المجرى الأعلى لنهر النيل، فعهد إلى ضابط إنكليزي يهودي يدعى «صموئيل بيكر»، لتنفيذ أغراضه، وأعطاه رتبة فريق في الجيش المصري، وعهد إليه بمهمة فتح الجنوب بما في ذلك «أوغندا»، أو ما عرفت آنذاك باسم «مديرية خط الاستواء» «إكواتوريا»، وكلَّفه بالعمل على تنشيط التجارة المشروعة، والوقوف في وجه تجارة الرقيق ...

لقد وضعت مصر سياسة ثابتة لنشر الإسلام في مناطق منابع النيل، وتوافد العلماء والفقهاء من مصر إلى هناك، وما أفسد هذا العمل الجليل كله إلا الإنكليز الذين هم وراء متاعب العالم الإسلامي كله من السودان إلى فلسطين.

● يقول د. حسين مؤنس:

«إن أساليب الإدارة المصرية أيام محمد علي كانت غير منصفة؛ لا لأهل السودان، ولا لأهل مصر، ومع ذلك فقد كانت وحدة مصر والسودان أيام محمد علي، وما بعدها إلى أواخر أيام إسماعيل، من أكبر العوامل في إتمام إسلام السودان، ولولا أن إسماعيل الخديوي عهد في إدارة السودان لزبانية الاستعمار من أمثال صمويل بيكر، وجوردن، لأصبح السودان كله إسلاميًّا خالصًا، بل لامتدت دولة الإسلام حتى شملت وادي النيل كله»[١].

لم يكن غريبًا أن يخون «صموئيل بيكر» و«جوردون» الأمانة التي أنيطت بهما، ولكن العجب الذي لا ينقضي هو: كيف تأتمن الإدارة المصرية هذين الذئبين الذين عملا - بكل إخلاص - لمصالح وطنهم إنكلترا؟

بِـأَبِـي وَأُمِّـي ضَـاعَـتِ الْأَحْـلَامُ   أَمْ ضَاعَـتِ الْأَذْهَانُ وَالْأَفْـهَامُ
مَنْ حَادَ عَنْ دِينِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ   أَلَـهُ بِـأَمْـرِ الْمُسْـلِمِـينَ قِـيَـامُ؟

---

(١) «أطلس تاريخ الإسلام»، ص(٣٣٦).

لقد أقيل «بيكر» بعد أن ثبت أنه يعمل على عكس البرنامج المطلوب منه؛ من كسب محبة سكان الجنوب، وتأليف قلوبهم، والتقريب بينهم وبين إخوانهم في الشمال.

ثم استخلف إسماعيل ضابطًا بريطانيًّا آخر هو «جوردون» (١٢٩١ هـ، ١٨٧٣م) الذي جاء إلى مديرية خط الاستواء؛ ليخدم المصالح الإنكليزية كسابقه.

واستهل «جوردون» عمله بأن أرسل إلى ملك «أوغندا» بعثة تُعَلِّمُهُ «الدين الأوربي»، وتُحَدِّثُهُ عن عظمة ممالكها؛ وذلك لأن ملك أوغندا «موتيسا» كان قد عقد العزم على اعتناق الإسلام، وطَلَبَ من «جوردون» ـ بصفته مُوَظَّفًا يُمَثِّلُ مصر ـ إرسال علماء من الأزهر؛ كي يعلموه وقومَهُ دين الإسلام؛ تمهيدًا لانضمام «أوغندا» ـ اختياريًّا ـ إلى السودان، وبدلًا من ذلك أرسل إليه تلك البعثة كي تَحُولَ دون دخوله في الإسلام، وتدعوه إلى اعتناق النصرانية[1].

وقد منع «جوردون» وصول السلطات المصرية إلى مياه بحيرة فيكتوريا؛ خوفًا من وصول المسلمين إلى تلك الجهات، واحتكاكهم بأبناء البلاد، والتأثير عليهم، وتركها ميدانًا رحبًا للتوسع الإنكليزي[2].

● يقول د. عبدالعظيم الديب ـ حفظه الله ـ:

(... وقد وقع في يد المسئولين بمصر ـ قَدَرًا ـ رسائلُ متبادَلَةٌ بين جوردون ولندن، تثبت أنه يعمل لحسابهم ضد مصر؛ لهذا أُخرج «جوردون» من السودان)[3]. اهـ.

---

(١) «جنوب السودان»، د. عبد العظيم الديب، ص(٢٢ ـ ٢٤).
(٢) «التاريخ الإسلامي»، (٨/ ٥١٠).
(٣) «جنوب السودان وصناعة التآمر ضد ديار المسلمين»، ص(٢٤).

«جوردون» للمرة الثانية

● يقول د. عبدالعظيم الديب ـ وفقه الله ـ:

(وكأن إنجلترا أعيتها الحيل في السودان، في قلب أفريقية، فنقلت مؤامراتها، وجهودها إلى رأس القارة؛ إلى مصر، عسى أن تضرب السودان (قلب أفريقية) إذا تم لها ضرب مصر (رأس أفريقية)، فنصبت شِبَاكَ الديون والقروض، وأوقعت فيها حُكَّام مصر، وتدخلت في شئونها، وراحت تملي أوامرها في كل شأن، بما في ذلك إدارة السودان.

فحين سَلَّمت، واعترفت بحدود السودان، ووَحْدته استدارت من ناحية أخرى؛ لتحطم وتفتت هذه الوحدة، وفرضت على مصر (التي كانت قد خضعت لها) تعيين (غوردون) حاكمًا عامًّا للسُّودان (ويا للسخرية! مصر تحكم السودان، والحاكم غوردون).

وجاء (غوردون) الذي طُرِدَ من قبل ... لا مديرًا للجنوب فحسب؛ بل حاكمًا عامًّا، يحمل خطة واضحة لتحقيق ذات الأهداف القديمة؛ وهي:

● تفتيت السودان، وعدم السماح لدولةٍ بهذا الاتساع برفع هامتها في قلب القارة.

● القضاء على الدين الإسلامي[1].

● محاصرة العنصر العربي في السودان، وإضعاف شأنه، وتحطيمه.

وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف الخبيثة استخدم الأساليب التالية:

أ ـ عزل جميع الموظفين النابهين ذوي السمعة الحسنة، والسيرة النبيلة، مصريين وسودانيين، ولم يكن يطيق أي سوداني نابه يتفهم مشكلات بلاده، ويعمل لإسعادها.

---

(١) وكان جوردون قد طلب ـ أثناء وجوده بالسودان ـ قسيسًا من السويس؛ لينشر المذهب البروتستانتي بين مسلمي السودان؛ كما في «الأصول الفكرية»، ص(٩٠).

ب ـ جاء بجيش من الموظفين المرتزقة من أوباش الأمم، وكان شرطه الأول والأخير فيمن يعمل معه أن يكون عنصريًّا متعصبًا للرجل الأبيض.

جـ ـ عمل على بعث الروح القبلية بين أهل البلاد، وراح يوقع بين كل قبيلة وأخرى، وألزم كل سوداني أن يكتب بجوار اسمه في الأوراق الرسمية ـ كشهادة الميلاد ونحوها ـ اسم القبيلة التي ينحدر منها؛ حتى لا ينعم أهل البلاد بالأخوة الكاملة.

د ـ عمل على تحطيم العقيدة الإسلامية في نفوس الشعب، فأوعز إلى بعض رجاله الأوروبيين فادعوا الإسلام، ولبسوا ملابس المشايخ أصحابِ الطرق، وادَّعَوُا التفقُّهَ في الدين، وأخذوا في إفتاء الناس على هواهم، وقاموا بنفس الدور الذي قام به من قبل (عبدالله بن سبإ) اليهودي.

وكان على رأس هؤلاء «جس» الإيطالي الذي تسمى باسم الشيخ (أمين)، وكان يُوَزِّعُ البركات ويمنح العهود.

هـ ـ وأصدر غوردون أمرًا أباح به البغاء العلني، واستقدم جيشًا من العاهرات، وأباح لهن السكنى في أي مكان، ولو بجوار المساجد والزوايا والمدارس.

و ـ عمل على فصل جنوب السودان عن شماله، فقد ظهرت صحيفة «المكتشف» الإيطالية في تلك الفترة، وفيها على لسان أحد معاوني «غوردون» الإيطاليين: «يجب أن نفصل تمامًا البلاد السوداء (أي بلاد الزنوج) عن البلاد العربية من السودان، والتي يهيمن عليها العرب، وأن تُجْمَعَ تحت إدارة مستقلة واحدة أراضي بحر الغزال، ومديرية خط الاستواء، وذلك أن العرب الموجودين في السودان ليسوا إلا لصوصًا وشحَّاذِينَ يجب إرجاعهم إلى بلادهم الأصلية».

ز ـ عمل على التخلص من الزعيم السوداني الخطير «الزبير رحمت باشا»، فرفض رجوعه إلى السودان.

وظن «غوردون» أن جهوده قد أثمرت، وما غرسه من شر قد آتى أُكُلَهُ، فترك منصبه، وذهب ليستريح، وهو واثق من أنه حقق أهدافه الاستعمارية الخبيثة.

ولكن حالة البلاد كانت ـ كما صورها أحد علماء السودان ـ في رسالة إلى أستاذه بالأزهر، يقول فيها: « ... إن الحكومة التي يرأسها «غوردون» كأسدٍ كاسر، والأهالي

كالأنعام الضالة، لا راعي لها غير الأسد! هذه حالنا اليوم، وأنا أؤكد لك أن هذه الأحوال لن تدوم إلا أيامًا قلائل، وسترى أن الأغنام ستنقلب إلى ذئاب ... وسيقودها أسد كاسر، ويموت الأسد الظالم شَرَّ ميتة». وكأنما كان هذا العالم يقرأ من كتاب مفتوح!»[1]. اهـ.

* * *

(١) «جنوب السودان»، ص(٢٧ - ٣١؛ وانظر: «التاريخ الإسلامي»، (٨/ ٥١٠).

التَّعْرِيفُ بِالْمَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ(*)
(١٢٥٩ ـ ١٣٠٢ هـ)، (١٨٤٤ ـ ١٨٨٥م).

هاجرت أسرة المهدي من الجزيرة العربية فيمن هاجر من العلويين؛ فِرارًا من المظالم والآلام التي كان يصبها على رءوسهم الحجاج بن يوسف الثقفي في عهد الخليفة الأموي عبدالملك بن مَرْوان وفي عهد ابنه الوليد، وقد اتخذت هذه الأسرة واديَ النيل مُهاجَرًا لها، فأقامت في الفسطاط ما طابت لها الإقامة، وبها مات أحد رجالها المعروفين، نجم الدين بن عثمان ودفن عند «باب الوزير»، حي من أحياء القاهرة القديمة، ثم شدت الأسرة رحالها، وواصلت رحلتها جنوبًا، وقد طاب لبعض أفرادها المقام في «كشتمة» بين «أسوان» و«الدر»، وظل باقي الأسرة، وعلى رأسهم السيد نصر الدين بن عبدالكريم بين ظعن وإقامة، وحَلٍّ وَتَرْحَال، حتى انتهى بهم المطاف إلى إقليم «دنقلة» بالسودان، فألقوا عصا تَسْيَارِهِمْ هناك.

وبعد نزول أسرة المهدي في إقليم «دنقلة» بالسودان اتجه بعض أفراد هذه الأسرة إلى جزر ثلاث هناك، فاستوطنوها، وهي جزر «ضرار» و«لبيب» و«آب تركي»، ومن ثم عُرِفَتْ هذه الجزر، وما زالت تعرف إلى اليوم، باسم جزائر الأشراف.

ومن هذا الإقليم ـ إقليم «دنقلة» ـ وفي أواسط القرن السابع الهجري، سطع نجم أحد رجال هذه الأسرة المبرزين، وهو السيد حاج شريف، وطار ذكره، وبَعُدَ صيته، وعُرِفَ بالعلم والتقوى، فقصده الأتباع والمريدون من كل فج عميق.

وقد عُمِّرَ هذا الشيخ طويلًا... مستمتعًا بسلطان روحي قوي، ووُلِدَ له من الذكور ستة، أكبرهم السيد «محمد» جد المهدي من قِبَلِ أبيه، ثم قضى الحاج محمد شريف، وما زالت له، ولذريته إلى الآن قباب بـ«دنقلة» تُعْرَفُ بقباب الأشراف ...

(*) المصدر الرئيس لهذا الفصل: «الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته»، للدكتور عبدالودود شلبي ـ حفظه الله، من ص(١٧ ـ ٣١) بتصرف.

وقد وُلِدَ للسيد محمد بن الحاج شريف وَلَدٌ سَمَّاهُ عبدَالله، هو والد المهدي، وكان صَنَّاعًا ماهرًا، احترف هو وبعض أفراد أسرته حرفةَ النِّجَارة، وصناعة السفن.

وكانت المنطقة التي يعيشون فيها بـ«دنقلة»، لا تسعفهم بالأخشاب الصالحة لمزاولة مهنتهم، فارتحل عبدالله هذا، ومعه أسرته إلى مدينة «كرري» الواقعة على بُعْد خمسة عشر ميلًا شمال «أم درمان».

وقد اختلفت الروايات في تاريخ مولد المهدي، ونُسِبَ إلى ابنه السيد عبدالرحمن المهدي أنه قال: إن والده وُلِدَ في السابع والعشرين من رجب، سنة ١٢٦٠ هـ، الثاني عشر من أغسطس ١٨٤٤م، وأن مولده كان بجزيرة «لبب»؛ إحدى جزائر الأشراف.

وقد أطلق عليه والده اسم «محمد أحمد»، وظل يعرف بهذا الاسم إلى أن جهر بدعوى المهدية في الثامنة والثلاثين من عمره، وقد مات والد المهدي بعد عام من انتقاله إلى «كرري»، فدُفِنَ بها، وكذلك تُوفِّيَت والدته بعد عام من موت والده، وفي ذلك الوقت كان الصبي «محمد أحمد» قد بلغ السن التي يذهب فيها أقرانه إلى «الخلوة» أو «الكتَّاب» لحفظ القرآن الكريم، فذهب إلى خلوة الشيخ الفقيه الهاشمي بالقرب من «كرري» شمال «أم درمان»، وبقي فيها سبع سنوات، حفظ فيها القرآن، وجوَّده، وقد رغب شقيقاه أن يتعلم صناعة السفن، فرغب في غير ما رغبا فيه.

ثم انتقل بعد ذلك إلى خلوة الشيخ محمود الشنقيطي، ثم إلى خلوة الشيخ الأمين الصويلحي، بمسجد «ود عيسى» بالجزيرة، فبقي فيها قليلًا، ثم مضى إلى خلوة الشيخ محمد الخير في «الغبش»، تجاه «بربر»، فطاب له المقام والاعتكاف على الدروس والتحصيل.

وأظهر «محمد أحمد» في هذه الفترة إخلاصًا شديدًا للدين، وراض نفسه حتى يكبح جماحها، واشْتُهِرَ بالزهد والتقوى والورع، والولاء الخالص للأستاذ، كما أظهر تبرُّمًا مبكرًا من علاقة المشايخ بالحكومة، وقبولهم الجِرَايات(١) التي تنفقها عليهم، كان

(١) الجرايات: جمع الجِرَاية، وهي الجاري من الرواتب.

يرى أن ذلك مال حرام، يُجْبَى بلا شريعة تُسنِده، وبأسلوبٍ من العَسْفِ شَدِيدٍ[١] .

ويترقب «محمد أحمد» رسالة أهله؛ ليدفع بها عن نفسه غائلة الحاجة والجوع، فإذا ما جاءه المال ألفاه زائدًا عن حاجته الخاصة، والقليل منه كافٍ لسد عِوَزِهِ، ثم ينتهي به الأمر إلى أن يتصدق بالمال كُلِّه، ويعتمدَ على نفسه بالخروج إلى الغابة لقطع الأخشاب، وبيع ما يقدر على حمله منها في السوق، ويأكل ببعض ثمنه، ويتصدق بالباقي كله على الفقراء.

فإذا تعذر عليه الاحتطاب من الغابة لسبب من أسباب الطبيعة؛ خرج إلى النيل لصيد الأسماك، وإنه ليتورع عن أن يضع في صِنارته طُعْمًا حتى لا يخدع السمك الذي يحوم حولها في الماء، إن السمك مخلوق من مخلوقات الله، فلا ينبغي لأحد ـ إن كان مسلمًا ـ حقًّا ـ أن يخدع هذه المخلوقاتِ، وإذا كان الله قدر له رزقه، فليكن بطريق آخرَ غير التحايل والخداع.

ويعلم شيخه «محمد الخير» بقصة عزوفه عن طعامه، وقطعه الأخشابَ في الغابة، واحتطابه، وخروجه لصيد الأسماك، وتورعه عن خداعه، فيُقَبِّلُهُ بين عينيه إجلالًا، ويضمه إليه حُبًّا وإكبارًا، ثم يعرض عليه قائلًا: «يا بني، إني ورثت عن آبائي هذه الساقية، وتلك الأرض، والجارية والعبد، وإني لأقتات وأهلي منها، وإنك لتوليني فضلًا أيَّ فضلٍ لو أنك شاركتني القليل مما لديَّ»، فأطرق «محمد أحمد» إطراقة المتأني، فألَحَّ عليه أستاذه، وعاود الإلحاح، فقبل على أن يؤدي عِوَضَ ذلك عملًا يساعد به الجارية والعبد في حرث الأرض.

هكذا كان أمره، ولَمَّا يَبْلُغ العشرين، لقد حصَّل «محمد أحمد» في تلك السن المبكرة من العلم الكثيرَ؛ فدرس النحو، والصرف، والفقه، والتفسير، والتصوف، وأُولِعَ بالأدب والعلوم العقلية؛ فدرس الفلسفة، والعلوم الطبيعية، والمنطق، وأقبل على التفسير، وقرأ فيه قدرًا كبيرًا[٢] .

---

(١) «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص(٣٦٢).

(٢) ووجد بخطه على ظهر نسخة من «تفسير الجلالين» ما يفهم منه أنه قرأه أكثر من سبع وأربعين مرة على مشايخ كثيرين.

وكان الحكم المصري قد فتح الطريق أمام الصوفية التي نشطت في القرن التاسع عشر إلى أبعد الحدود؛ فاشتد نشاط الطريقة السمانية التي دخلت السودان سنة ١٨٠٠م، وشجع «محمد علي» طرقًا صوفية أخرى؛ كالطريقة السعدية؛ وهي فرع من الرفاعية، والطريقة الرحمانية؛ وهي فرع من الدرقاوية.

فماذا يختار «محمد أحمد» من هذه الطرق؟ وإلى أي شيخ يتقدم ويُبَايِعُ؟ لقد ذهب إلى الشيخ محمد شريف نور الدايم نقيب الأشراف، وشيخ المشايخ، والقطب البارز في الحركة الصوفية، وحفيد مؤسس الطريقة «السمانية» في السودان، وكانت شهرته قد سبقته إلى أستاذه، فأخذ منه العهد، وتَقَبَّلَهُ أحسن قبول، وكان ذلك في سنة (١٢٧٧هـ - ١٨٦١م)، وبقي عنده منقطعًا للعبادة والصلاة، ملازمًا خدمةَ أستاذه سعيدًا بأيِّ عملٍ يكلفه به، مبالِغًا في احترامه وتقديره، حتى إنه ليجلس أمامه منكسًا رأسه، فلا يرفعها إلا إذا حدثه.

كان كالطفل «بين يدي القابلة ... والميت بين يدي غاسله»؛ كما يقول الصوفية، لذلك أحبه شيخه، ورقاه في مدارج الطريقة، ورفع له راية، وأذن له بالتجوال في البلاد، وإعطاء العهود للمريدين، لكن سرعان ما دبَّ خلافٌ بينه، وبين شيخه «محمد شريف»، حصلت بينهما بسببه جفوة، فعاقبه على جرأته، وطرده من طريقته، وكانت تلك خلفية انتقاله إلى جزيرة «آبا» في النيل الأبيض؛ حيث شيَّد مسجدًا، وأقام خلوة للتدريس عام (١٢٨٦ هـ - ١٨٧١م). رَجَعَ «محمد أحمد» بعد ذلك إلى جزيرة «آبا»، فأقام بها مسجدًا، وشقَّ لنفسه غارًا، وأنشأ بها خلوة لتعليم الناس من كل مكان. ويُقَالُ: إنه كان يتولى تعليمهم بنفسه، حتى إنه علَّمَ ألوفًا مؤلفة من الأعراب، وتناهى إلى الناس أمر هذا الولي الشاب، فأقبلوا عليه يطلبون البركات.

وبدأ نجمه في الظهور والارتفاع ... أخذ الناس يتناقلون أخبار هذا العابد الناسك، وينشرونها في كل مكان: إن «وليًّا» جديدًا من أولياء الله يسكن جزيرة «آبا»، والسفن

المسافرة على مياه النيل لا يمكن أن تمضي دون التوقف بمحاذاة هذه الجزيرة؛ لنوال البركة، والتمتع بالنظر إليه لحظة.

ويعاوده الحنين إلى شيخه، فيذهب لزيارته، ويتقدم إليه كعادته ضارعًا ذليلًا ... وقد وضع «الشِّعبة[١]» في عنقه، وفروة الضأن فوق خاصرته، ويحثو الرماد على رأسه كأنه العبد الآبق، ويقبل على شيخه طالبًا منه الرضا والمودة، فيحل الشيخ الشعبة من عنقه، وفروة الضأن من خاصرته، وينفض التراب عن رأسه، ويدعو له بالخير والبركة، ثم يُقِيمُ عنده بعد ذلك مدة.

كان هذا اللقاء بين الشيخ، وحواريه هو آخر لقاء ينتهي بينهما في ألفة ومودة؛ فقد أخذت الأمور بعد ذلك تتدهور على نحوٍ غيرِ متوقعٍ، وغامت سماء صفائهما بالسُّحُبِ.

لقد انتهى الأمر ووقع الخلاف بين «محمد أحمد»، وشيخه ... واختلفت الآراء والأقوال في تفسير أسباب هذا الخلاف وتعليله:

فالشاطر البصيلي يذكر قولًا منسوبًا إلى الشيخ محمد شريف: بأن سبب العِداء بينه وبين محمد مرجعه إلى أنه قد نهاه عن دعوته بالمهدية، وتوفيق أحمد البكري يذكر سببًا آخر للخلاف بينه، وبين أستاذه، يرجع في جملته إلى إنكاره على شيخه حفلةً أقامها في بيته بمناسبة ختان أولاده، رقصت فيها النساء والإماء، ونُقِرَتْ فيها الدفوف، وكل ما يُصَاحِبُ ذلك من اللهو، والمجون، والشرب.

لقد ندد «محمد أحمد» بكل ما رأى، وطلب من مريديه وأحبابه ألا يشتركوا فيه، قائلًا: «إن الشريعة تمنع الرقص، والغناء، والشراب، والمجون، وليس في وسع أحد إجازتها، ولو كان إمامًا وشيخ طريقة».

---

(١) الشِّعبة: خشبة طويلة يتفرع أحد طرفيها على شكل رقم (٧)، وتوضع في عنق العبد الآبق، أو المجرم.

لقد كان اعتراض المهدي على شيخه بسبب ما رآه في بيته أمرًا يتفق تمامًا مع نشأته وتربيته؛ فقد حدث في ليلة زفافه أن اجتمع بعض النسوة والرجال؛ لإحياء هذه الليلة بالرقص والأغاني، فقام إليهم «محمد أحمد» ومنعهم من ذلك؛ لأن اختلاط الرجال بالنساء، والرقص، والأغاني؛ حرامٌ كله.

ثم إن هذا التصرف من المهدي تجاه شيخه يؤيده ما وقع قبل ذلك مع أستاذه الشيخ «محمد الخير»؛ حيث اعترض عليه بسبب تقاضيه مرتبًا من الحكومة، كانت تعطي لمثله من علماء الدين وشيوخ الطرق؛ لأن مال الحكومة «جمع بطريقة لا يرضاها الدين، وبوسائلَ لا تتفق والعدل، فهو مالٌ حرامٌ، وآكِلُهُ مُوغِلٌ في الحرام، مُشْتَرِكٌ فيه».

وقد ذكر أنصار «محمد أحمد» رواية أخرى لتعليل الجفوة والقطيعة بينه وبين أستاذه؛ فهم يقولون: «إنه الحقد والحسد، وانصراف الناس عن الشيخ محمد شريف». وقد رأى الشيخ «محمد شريف» بنفسه إقبال الناس على «محمد أحمد» إقبالًا لا يجد مثله، فساءه ذلك جدًّا ... وأخذ يعمل على الخفض من سطوة «محمد أحمد»، وعين أحد المشايخ ندًّا له في المنطقة التي يسكنها، وطلب من الناس اتباع هذا الشيخ، فأنكر «محمد أحمد» على شيخه «محمد شريف» هذا التصرف.

ومما يؤكد ذلك أن الشيخ «محمد شريف» حين ذهب إلى «رءوف باشا» الحاكم المصري للسودان يحذره مغبة الدعوة التي تقول: إن «محمد أحمد» هو «المهدي المنتظر»، وكان «محمد أحمد» قد أعلن دعوته في ذلك الوقت، فإذا بالحاكم يتباسم؛ لأنه يعلم ما بين الرجلين من قطيعة، ويعزو قوله إلى الحسد، وضِغْنِ النفس.

وسواء أكان هذا الأمر، أم ذاك؛ فإن الشيخ «القرشي» أحدَ مشايخ الطريقة السمانية المناوئين للشيخ «محمد شريف» قد اجتذب إليه «محمد أحمد»، وأكرم وفادته، وأشاع أن «محمد أحمد» قد انفصل عن شيخه الذي خالف الشريعة والسنة.

وبينما هو يهم بالرحيل، أقبل عليه رسول أستاذه «محمد شريف» يدعوه إليه؛

ليتصافيا بعد تلك الجفوة والنفور، فاعتذر شاكرًا، ومضى نحو الشيخ القرشي، وجدد له العهد، وتعلق بشيخه الجديد، وتعلق به شيخه.

● ويعلق الدكتور «عبدالودود شلبي» ـ حفظه الله ـ على هذه الأحداث قائلًا:

وفي تصورنا أن هذا الخلاف بين «محمد أحمد»، وشيخه، كانت له آثار بعيدة في حياة «المهدي»، وقيامه بحركته. فقد خرج منه الحواري الثائر منتصرًا، واستدعاه الشيخ القرشي مُرَحِّبًا، ومحمد أحمد «بَشَرٌ» قبل أن يكون «وليًّا».

لقد بدأ يشعر بأهميته في نظر نفسه؛ كما بدأ يشعر بحب الناس والتفافهم حوله، وكان لانعتاقه من قبضة الشيخ «محمد شريف»، وارتباطه بالشيخ القرشي الذي كان قد بلغ التسعين من عمره؛ كان لكل هذه العوامل أثرها في تصرفه، وتصوره، وفي حرية فكره وعمله، وفي الترحيب والابتهاج بكل ما يشيعه الناس عن كراماته ووَلايته.

ولم يلبث الشيخ القرشي أن مات (١٨٨٠م)، فبايعه أتباعه، ودخلوا جميعًا في طاعته، وكانت هذه البيعة وما أعقبها مقدمةً لإعلان مهديته.

يقول إبراهيم فوزي: «إن الشيخ القرشي ذكر قبل وفاته أن زمن ظهور المهدي المنتظر قد حان، وأن الذي يشيد على ضريحي «قبة»، ويختن أولادي هو «المهدي المنتظر»، فلما سمع المهدي ذلك طار فَرَحًا، وجمع ثلاث مئة رجل من أتباعه، وذهب معهم إلى «الحلاوين»، وشيد القبة من اللَّبِنِ الأخضر، وختن أنجال الشيخ القرشي بعد أن أخذ العهود على كثير من الناس بتصديق دعواه قبل أن يصدع بها»[1].

وبينما هو يعمل مع العاملين في البناء، قدم بدوي فارع القامة نحيلها، مس الجدري أطراف وجهه، غريب اللهجة والزي، حديد البصر، تومض عيناه بذكاء عظيم؛ هو «عبدالله بن محمد ود تورشين» من قبيلة التعايشة.

لقد أقبل من غرب السودان يستحثُّ خطاه لأخذ الطريق من «محمد أحمد» ...

---

(١) «السودان بين يدي غوردون وكتشنر»، ص(٧٤).

قال له: «يا سيدي: أنا عبدالله بن محمد ود تورشين، من قبيلة التعايشة البقارة، وقد سمعت بصلاحك في دار الغرب، فجئت لأخذ الطريقة عنك، وكان لي أبٌ صالح من أهل الكشف، وقد قال قبل وفاته: إنك ستقابل المهدي، وتكون وزيره، وقد أخبرني بعلامات المهدي وصفاته، فلما وقع نظري عليك رأيت فيك العلامات التي أخبرني بها والدي بعينها، فابتهج قلبي برؤية مهدي الله، وخليفة رسوله».

وقد ذكر الشيخ «محمد شريف» بعد خلافه مع «محمد أحمد» أنه: «في سنة ١٢٩٥ هـ جاءني رجل من البقَّارة يروم سلوك الطريقة السمانية على يدي، فلقنته أورادها، ومكث ملازمًا لخدمتي، وأخبرني أنه جاء مع والده من بلاد «الكلكلة» جنوب مقاطعات «دارفور»، قاصدين الأقطار الحجازية؛ لتأدية فريضة الحج، وأنهما فقيران لا يملكان غير عجل من البقر ذللاه بزمام، وامتطياه على مألوف عادة أهالي تلك البلاد، ولما وصل إلى بلاد الجمع من تخوم كردفان الشرقية مات أبوه، ولحق به العجل؛ فأقام بمنزلي نحو عامين، فكان أكثر كلامه معي قوله: «**إنك المهدي المنتظر، من ارتاب في ذلك فقد كفر**».

فكنت أنهاه عن ذلك القول، ولا ينتهي، وفي ذات يوم قلت له: «أنا لست مهديًّا، وأبغض شيء إليَّ سماع هذه الكلمة التي لا يسير بها غير تلميذي الذي طردته محمد أحمد، وقلت له على سبيل السخرية والازدراء: إذا كنت ممن يتوقعون المهدية؛ فعليك به».

وفي اليوم التالي سألت عنه، فلم أجده، وأخيرًا علمت أنه لحق بمحمد أحمد في «الحلاوين»، وهو يشيد قبة الشيخ القرشي، وأنه حين وقعت عينه عليه خر على الأرض مدعِيًا أنه «أغمي عليه»، وبعد حين رفع رأسه، فسأله الحاضرون عن سبب إغمائه، فقال: «نظرت أنوار المهدية على وجهه، فصعقت من شدة تأثيرها على حواسي»[1].

(١) «السابق»، ص(٧٥ - ٧٦).

«لقد بدأ المهدي في الدخول إلى مرحلة من تلك المراحل الفاصلة في حياته كفرد، وفي حياة السودان كشعب، وفي التاريخ كرجل من صانعي أحداثه، وعَلَم من أعلامه.
«مرحلة تتصارع فيها نوازع الإنسان ورغائبه بين الرجاء، والخوف، والأمل، والواقع، فيخطر له أنه مندوب لأمر هام يروقه أن يصبح أهلًا له، ثم ينكل عنه خوفًا من تَبِعَاته وأهواله، وكلما طالت به المناجاة والتساؤل؛ تمكن منه الخاطر، وتلمس الخلاص من شكوكه بالمزيد من الرياضة، والاستعداد، عسى أن يلهمه الغيب سبيل الرشاد، ويجلو له حقيقة الأمر الذي هو في ريبٍ منه، وإذا احتجبت عنه آيات الإلهام فترة؛ فليس بالعجيب في هذه الحالة ـ بين الأمل والخوف ـ أن يذكر فترات الحيرة التي مرت بالرسل الكرام، ويحسبها من ضروب الامتحان والتمحيص، في انتظار الموعد الموقوت، وقد يصادفه بين هواجس هذه الحيرة من ينفضها عنه ببارقة أمل ورجاء، وكلمة تشجيع، فيتشبث بها، وما أسرع النفس إلى التشبث بأمثال هذه العُلالة[1] في أوقات الأزمات».

ثم يخطو الخطوة الأولى، فلا يعدم من يخطوها معه، ويسبقه إلى ما بعدها، ثم تدفعه المصادفات تارةً حتى يتوسط الطريق، وتنسد وراءه شيئًا فشيئًا منافذ الرجوع إن فكر في الرجوع، ولن يلبث بعد ذلك أن يعلق بدولاب الحوادث، فتوحي إليه أمرها بحكم الضرورة قبل أن يوحي إليها؛ فإن خامره شك فلعله يحسب ـ في هذه المرحلة ـ أن المصلحة في التقدم أكبر، وأضمن من المصلحة في التراجع، والنكوص، ويزعم لضميره أنه إنما يريد الخير، ولا يحاسبه الله إلا بما نواه»[2].

* * *

(١) العُلالة: ما يُتلهى به.
(٢) «الإسلام في القرن العشرين»، للعقاد، ص(١٤٧).

أَسْبَابُ الثَّوْرَةِ المَهْدِيَّةِ

الأَوَّلُ: عَقِيدَةُ «المَهْدِيَّةِ»:

لا شك أن حركة المهدي السوداني كانت حركة دينية في أساسها الفكري، وغايتها، ووسائلها، ولا شك ـ أيضًا ـ أن التصديق بأنه هو المهدي الذي بشر به النبي ﷺ خلع على زعامته نوعًا من القداسة، وجعل الناس يتسابقون إلى لقائه، والدخول في طاعته، وهذا لا يعني إغفال العوامل الأخرى التي دفعت حركته إلى «الثورية»، ونخص العامل الثقافي بالذكر هنا؛ إذ إن «الصوفية» هي التي شكّلت، وصاغت صورة المهدي المنتظر؛ لما كانت تمثله من مرجعية بالنسبة للمجتمع السوداني عامة، ولشيوخ الطرق خاصة.

وهذا التصور لم ينبثق من مصادر السنة الصحيحة المحضة، وإنما اختلط به نتوءات وزيادات أضفتها عليه، وأضافتها إليه مصادر أخرى للتلقي، لا يسلِّم بها أهل السنة والحديث؛ كالأحاديث الضعيفة والموضوعة، والكشف، والإلهام، والرؤى، وحكايات الأولياء، واللقاءات المزعومة بالخضر، والأقطاب، والأوتاد، بل التلقي المباشر عن رسول الله ﷺ يقظة، أو النقل عن اللوح المحفوظ مباشرة[١].

لقد كان الشعب السوداني يتطلع إلى «المهدي المنتظر» (الذي يُخَلِّصُهُ من المظالم، التي أناخت على كاهله بشدة، والتي جعلت من الحكام وحوشًا مفترسة؛ فالضرائب باهظة، والرشوة متفشية، والدماء مهدرة، والأعراض مستباحة، والعدالة مفقودة، وفي مثل هذا الجو يشطح الخيال، ويستبد الأمل بالناس، فيتمنون الخلاص بأية طريقة، وينتظرون طلوع الفجر من أية ناحية، وقد لعبت الطرق الصوفية دورها في هذه المحنة، وهيأت أذهان الناس لقدوم ذلك البطل.

(١) وهذا ما سبق بيانه في «الباب الثالث» فراجعه.

وقد كان لابن عربي وكتبه دور كبير في هذه الناحية؛ فقد تكلم عن المهدي كثيرًا في «الفتوحات المكية»، وغيرها من كتبه، وكانت أقواله وكتاباته متداولة في السودان بكثرة، وقد أخذ عنه مهدي السودان كثيرًا، وسار على المنوال الذي اختطه، وكانت مهديته تجسيدًا للمعنى الذي أشار إليه ابن عربي في كتبه ومؤلفاته)(١). اهـ.

لقد كان من عادة محمد أحمد «المهدي» السوداني أن يخرج سائحًا مع بعض أصحابه؛ لإنذار الناس ودعوتهم، و«قد جال في جميع البلاد، ورأى بعينه وَجْدَ الناس - خاصَّتِهِمْ وعامَّتِهِمْ - على الحكومة، وشدة رغبتهم في التخلص منها؛ حتى كان الكثيرون يتمنون ظهور المهدي الموعود؛ لإنقاذهم من الحال التي كانوا عليها، وكلما رأوا رجلًا يفضلهم درايةً وعقلًا متصفًا بالغيرة على الدين ظنوه المهدي المنتظر».

لقد ترك هذا كله أثرًا في نفس «محمد أحمد»؛ فانصرف إلى التأمل والدراسة، واتجه إلى الاعتكاف والخلوة، ولقد تاقت نفسه أن يكون هو هذا الرجلَ الذي ينتظره الناس، وبات يحلم بهذا المنصب الذي يحكم بين البشر بالعدل، والقسطاس، لقد لعبت العوامل النفسية والشخصية دورها في نفس محمد أحمد، واضطرمت في قلبه جذوة الشوق والوجد، إنه صوفي عريق في التصوف، والصوفية يعتمدون على الذوق والإلهام والكشف، وفي عالم الصوفية مجال فسيح للترقي والسمو، ولشيخه «محيي الدين بن عربي» في ذلك كلام جميل وحُلْو»(٢).

فإذا نظرنا إلى المناخ العام في أفريقية وجدناه - أيضًا - مشحونًا بفكرة تَرَقُّبِ خروج «المهدي المنتظر»؛ إذ كانت بلاد العالم الإسلامي قد سقطت فريسة بيد الاستعمار الصليبي، وعانت ما اتسم به من تعصب وكراهية وحقد، فبدأت تغلي مراجل السخط والثورة والانفجار.

---

(١) «الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته»، ص(١٢ - ١٣).

(٢) «السابق»، ص(٢٣٩ - ٢٤٠).

«وقد سمع السودانيون ـ كغيرهم من المسلمين الأفارقة ـ عن قرب ظهور «المهدي»، الذي يُصْلِحُ الله به أمر الأمة، ويعيد للإسلام القوة والمجد والعزة، وقد بشَّرَتْ حركة «عثمان بن فودي»[1] بقرب ظهور المهدي المنتظر بالمشرق، وكتب أصحابه مؤلفات كثيرة في موضوعه، وقد ذكر «محمد بللو» في كتابه «إنفاق الميسور» أن والده عثمان قد أخبره عن قرب ظهور المهدي، وأن أتباع الشيخ عثمان هم أبكار أتباع المهدي، وأن الجهاد «الفولاني» لن يَخْمُدَ أُواره حتى يظهر المهدي.

وقد كان للوضع الجغرافي الذي يتمتع به السودان دورٌ كبيرٌ في تأثره بجميع التيارات التي تَهُبُّ على القارة الأفريقية، ونادرًا ما يقع شيء في هذه القارة ثم لا ينعكس صداه في السودان؛ بحكم هذه العوامل الجغرافية»[2].

الثَّانِي: فَسَادُ الأَوْضَاعِ الدَّاخِلِيَّةِ فِي السُّودَانِ:

«فقد شاهد محمد أحمد فيما شاهد أرواحًا مهدرةً، وحرياتٍ مغتصبةً، وأملاكًا منهوبةً، وبلادًا مخربة، والناس بين أثرياء ساقتهم تيارات النعيم إلى الشهوات والغَواية، وبين فقراءَ طحنتهم الفاقة؛ ففقدوا زمام التجمل بالصبر، وانجرفوا ـ على قلة ذات اليد ـ إلى الفساد والهاوية، ثم إن حكومة القاهرة أرسلت إليهم أمثال «بيكر»، و«غوردون»، وهؤلاء نصارى لا يدينون بدينهم، وكان أسلوبهم في الحكم موسومًا بالتحدي لشعائر الإسلام، وفرائضه؛ حتى تصور الناس أن الحكومة تريد بهم شرًّا وبدينهم»[3].

الحكومة نفسها كانت لعنة، ونظام الحكم في القاهرة أصبح عارًا وسُبَّةً، لم يكن هناك قانون يحكم، وحتى لو كان هناك قانون، فلن يجد الرجلَ الذي ينطق به، ويتكلم. كل شيء كان منهارًا؛ فسادٌ، ورِشْوةٌ، وظلمٌ، وحكَّامٌ جَهَلَةٌ قُساةٌ فَقَدُوا كل

(١) انظر تاريخها مختصرًا في «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص(٣٤٥ ـ ٣٥٧).
(٢) «الأصول الفكرية»، ص(١٣).
(٣) السابق، ص(٢٣٩).

إحساسٍ بالكرامةِ والعدل[١]، وسياطٌ محمومةٌ لا تَمَلُّ من التَّعذيبِ والجلْدِ. ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ!!

«ومهما يكن من شيء، فقد صادفت دعوة المهدي ذيوعًا ونجاحًا كان ـ دون ريب ـ لحالة البلاد السياسية والاقتصادية يدٌ كبرى فيه، فأقبل عليه الزعماء، وشيوخ القبائل مبايعين قائلين: نبايعك على المهدية، وإن لم تكن مهديًّا، نبايعك على قتال الحكومة، وخلع طاعتها...»[٢].

إن محمد أحمد عبدالله، أو «المهدي السوداني» لم يكن يفكر بأن يكون مهديًّا؛ لقد بدأ حياته واعظًا، ومرشدًا، ثم دفعته الظروف والأحداث بعد ذلك ليكون هو ـ في ظنه ـ «المهديَّ المنتظر» حقًّا.

وكما يقول «بسمارك» الإمبراطور الألماني:

«إن الناس يبالغون كثيرًا في تأثيري على الأحداث التي عَرَفْتُ فقط كيف أستغلها».

وهكذا كان المهدي؛ لقد لعبت عدة عوامل في إعلانه الجهاد، والثورة، واتخاذ حركته هذه الصورة العنيفة القوية[٣].

الثَّالِثُ: الثَّوْرَةُ الْعُرَابِيَّةُ فِي مِصْرَ:

لقد لعبت حركة «أحمد عرابي» في مصر دورًا بارزًا في الثورة المهدية، فهي التي أعطت المهدي السوداني الإشارة، وفتحت أمامه الطريق إلى الثورة، وهتفت بالسودانيين أن هيا حَطِّمُوا قيود الذُّلِّ والعبودية؛ والدليل على ذلك:

(١) حتى حُكِيَ أن «محمد الدفتردار» ـ أحد عمال «محمد علي» في حكم السودان ـ كان يخرج لاصطياد الآدميين على عادة غلاة القراصنة، والاستعماريين في ذلك العهد؛ كما في «السابق»، ص(٥).

(٢) «السابق»، ص(١٧٥).

(٣) «السابق»، ص(١٤).

ا ـ أن الثورة المهدية قامت بعد أشهر قليلة من الثورة العرابية.

ب ـ أن الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة العرابية هي نفس الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة المهدية.

جـ ـ أن نظام الحكم الذي ثار عليه الشعب المصري هو نفسه نظام الحكم الذي ثار عليه الشعب السوداني.

د ـ أن الفتوى التي أصدرها علماء الأزهر بمروق الخديوي عن الدين الإسلامي؛ بسبب خيانته، وانحيازه إلى الجيش البريطاني ـ قدمت إلى «المهدي» أكبر حجة لتسوغ ثورته ضد ممثلي هذا الحاكم، ونُوَّابِهِ في القطر السوداني.

هـ ـ أن الجيش المصري، الذي كان مفروضًا أن يَقْضِيَ على حركة المهدي ـ كان مشغولًا في القاهرة بحربه ضد الإنجليز والخديوي، فلما أخفقت الثورة العرابية، وسيطر الإنجليز على مقاليد الحكم في القاهرة، أرسل الخديوي فِرَقًا من الجيش بقيادة الإنجليز؛ لإخماد حركة المهدية، فكان الضُّبَّاطُ والجنود المصريون يفرون بأسلحتهم، وعتادهم، إلى صفوف المهدي، وكانوا يقولون: إنهم لم يرسلونا إلى السودان إلا لقتلنا؛ بسبب أننا من جنود عرابي.

لقد كان الميدان خاليًا أمام المهدي؛ فمضى في طريقه إلى الجهاد، والثورة، والتحدي.

- يقول المؤرخ المصري عبدالرحمن الرافعي:

«**كان من أسباب ثورة عرابي** تذمر الضباط المصريين من سوء معاملة الأتراك والأرناءود، ولم يكن الضباط المصريون يجدون منهم في الجملة إنصافًا، ولا مساواة، ولا معاملة حسنة.

وكان من أسباب ثورة المهدي مظالم الحُكَّام، وما عاناه المواطنون من العَسْف والظلم؛ فإن غالبية هؤلاء الحكام كانوا من الشركس، أو الأرناءود أو الترك، وقد زاد في ارتكاب هذه المظالم أن الحكومة كانت تعتبر السودان منفًى للحكام، ولم تكن الحكومة ترسل إليه ـ في الغالب ـ إلا الموظفين المغضوبَ عليهم؛ فالموظف الذي يذهب

إلى السودان، وهو شاعر بأنه مُبْعَدٌ أو منفي، لا يُنْتَظَرُ منه العدل، أضف إلى ذلك أن حُكَّامَ مصر لم يكونوا في الغالب مِثَالَ العدلِ، بل إن مظالمهم هي التي أَدَّتْ إلى قيام الثورة العرابِيَّةِ في مصر.

فما شكا منه المصريون ارتفعت بالشكوى منه ألسنة السودانيين، وكما يقول «ونستون تشرشل» الزعيم البريطاني الشهير: إن أهل شمال وادي النيل وجنوبه، كانوا في البلوى سواء، وقد تطلع أهل الشمال إلى زعيم ينقذهم مما كانوا فيه، فوجدوه في صورة زعيم عسكري هو «عرابي باشا»، وتطلع أهل الجنوب إلى زعيم ينقذهم مما حل بهم، فوجدوه في صورة زعيم ديني هو «محمد أحمد».

فالثورة العرابية كانت من أجل مصر، وكانت ضد الطُّغْمة الحاكمة من الشركس، والأرناءود، والترك، والثورة المهدية لم تكن ضد مصر، بل كانت ضد هذه الفئة الباغية التي تمسك في مصر والسودان بمقاليد الحكم، وقد التزم المهدي - في بياناته ومنشوراته - بهذا الخط، وكان في تعبيره واضحًا وضوحًا لا يقبل الشك.

● **يَقُولُ المَهْدِيُّ:**

«... إن هؤلاء الترك لما بَسَطَ الله عليهم النعم، ومَدَّ لهم في العمر، وطول العافية، ظنُّوا أن الملكَ لهم، والأمر بأيديهم، وخالفوا أمر الله ورسوله وأنبيائه ومن أمرهم بالاقتداء بهم، وحكموا بغير ما أنزله الله، وغير ما شرعه سيدنا محمد ﷺ، وسبوا دين الله، ووضعوا الجزية في رقابكم مع سائر المسلمين، وكل ذلك لم يأمرهم به الله، ولا رسوله، ومع ذلك أمهلهم الله، وبسط عليهم النعم، فلم يتفكروا حتى خذلهم الله، وسلبهم ثوب الملك، والهيبة، بتعديهم حدود الله، فانظروا الآن كيف صاروا عندكم، ومكنكم الله من نواصيهم، وأورثكم أرضهم، وديارهم، وأموالهم، مع آلة صولتهم، وقد أهلكهم الله بالغرور والأماني. أتريدون أن تكونوا مثلهم؟ أو تهلكوا كما هلكوا؟ أم تريدون أن يغضب الله عليكم، ويستبدل قومًا غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم،

فتنقلبوا على أعقابكم بعد أن مَنَّ الله عليكم، ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فتوبوا إلى الله، واشكروا نعمه عليكم؛ فإن النعم وحشية، فقيدوها بالشكر.

إن الترك كانوا يسحبون رجالكم، ويسجنونهم في القيود، ويأسرون نساءكم، وأولادكم، ويقتلون النفس التي حرمها الله بغير حقها، وكل ذلك لأجل الجزية، التي لم يأمر الله، ولا رسوله بها، ومع ذلك لم (يرحموا صغيركم، ولم يوقروا كبيركم).

كيف نسيتم هذا كله؟ وتخلفتم عن الجهاد في سبيل الله، ولم تأخذكم الغيرة على الدين وانتهاك محارمه؟ ومع إهانة الترك لكم، وذُلِّكم إليهم، كنتم سامعين طائعين منقادين لأمرهم حيثما أمروا، فكيف إذا أظهرني الله من جود فضله وكرمه؟ ألا توافقون على إقامة الدين، وهلاك القوم الكافرين؟»[(١)] اهـ.

وكان من أسباب الثورة العرابية: سوء الحالة الاقتصادية، وتدهور الأوضاع المالية بسبب الديون التي اقترضها إسماعيل، وجلبت على البلاد الخراب والفقر، هذا فضلًا عن فداحة الضرائب، وعدم توزيعها توزيعًا عادلًا، وتحصيلها بوسائل القهر والإرهاق، فانضم الأهلون إلى الثورة بمجرد قيامها.

وكان من أسباب ثورة المهدي: فرض الضرائب على الأهالي، وزادها ثِقَلًا أنها لم تكن موزعة بالقسط، بل كانت شديدة على الفقراء، خفيفة على الأغنياء، وفوق ذلك؛ فقد استعملوا في تحصيلها منتهى القسوة والعنف، حتى إن الرجل ليبيع متاعه، وكل شيء؛ ليدفع الضريبة الباهظة، « ... فإن عجز يُطْرَحْ أرضًا على وجهه، وتدقَّ أربعة أوتاد، وتربطْ كل يدٍ من يديه، وكل رجل من رجليه إلى وتد منها، ويقف الجلاد يجلده بالسياط، حتى يدمي جسده، أو يُلْقَى مكتوفًا في قيظ الهاجرة، ولظى الشمس المتوقدة يلهب جسده، أو أنهم لَيَضَعُونَ في سراويله هِرًّا بعد أن تُغَلَّ يداه، ويترك الهر

---

(١) «منشورات المهدية» ص(٤٠ - ٤٢)؛ المنشور الصادر في ٢٤ شوال ١٢٩٩هـ.

داخل سراويله، وأن المرأة كانت تُحْبَسُ إذا تأخر زوجها، أو وليها عن وفاء الأموال الأميرية، وتبقى في السجن إلى أن يدفع ما عليه، فيضطر للدفع مهما كلفه ذلك».

وشر من ذلك كله، مما لم يكن له مثيل في غير السودان؛ أن هؤلاء المأمورين لم يكتفوا بالضرائب الرسمية، بل فرضوا على الأهالي إتاواتٍ غيرَ رسميةٍ، يُحَصِّلُونَهَا مع الضرائب؛ وذلك بسبب أن أكثر الولاة الذين تَوَلَّوْا شئون السودان كانوا لا يهتمون في الغالب إلا بالانتفاع بوظائفهم، فيفرضون على المديرين أموالًا باسم الهدايا، فَيُضْطَرَّ المديرون إلى استرجاعها من مأموري المراكز الذين تحت إدارتهم، وهؤلاء يفرضونها على الأهالي أضعافًا مضاعفة؛ لأجل وفاء ما عليهم، والاحتفاظ بالبعض لأنفسهم.

وقد ساعد ـ أيضًا ـ على تدهور الأحوال الاقتصادية في السودان احتكار الحكومة تجارة العاج، وهو من أهم مصادر الثروة في السودان، وقد وقع هذا الاحتكار في عهد «غوردون» أيام ولايته الأولى، فاستأثرت الحكومة بالأرباح الطائلة التي كانت تعود إلى أصحابها من أهل التجارة والحرفة، فنقموا من الحكومة هذا الاحتكار، وسخطوا عليها، وهؤلاء التجار كانوا سادة السودان الحقيقيين، فكان هذا العمل المنطوي على الظلم هو النواةَ الأولى للثورة المهدية، أَضِفْ إلى هذا ذلك الأسلوبَ العنيف الذي اتخذه «غوردون» في منع تجارة الرقيق دون مراعاة للظروف الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تتطلب منه الكياسة، ومعالجة هذا الأمر بالأناة والتدريج؛ حتى لا ينهارَ النظام الاجتماعي مرة واحدة.

«وقد ذكر الكولونيل لونج بك Long bye أن غوردون حين تولى حكم السودان، كان الأمن واليسار يسودانِهِ، ولما غادره كان ينوء تحت أعباء الديون، والثورةُ تتمخض في أحشائه».

* * *

وكان من أسباب الثورة العرابية التدخل الأجنبي في شئون الحكم، وسيطرة المستشارين الأجانب على مقاليد السلطة في مصر، وقد أصبح هؤلاء الأجانب في

النهاية أصحابَ الكلمة النافذة، والسلطةِ الفعلية، وأصبح الخديوي، والحكومة في أيديهم ألعوبة.

وكان من أسباب الثورة المهدية تدخل الأوربيين في شئون الحكم، وتوليهم المناصب الهامة؛ فإن هؤلاء الأجانب لم يكونوا صادقي النية، وكانوا يثيرون بأعمالهم روح الحقد والكراهية، وكان من رأي المهدي: «... إلقاء تبعة تلك المظالم والمصائب على عاتق الحكومة المصرية؛ لأنها استخدمت أولئك الأجانب والدخلاء، وولتهم أمور العباد، فحَكَّمُوا سيوفهم في رقابهم، وأتوا ما أتوه من الظلم، وقتل النفوس، وهتك الأعراض، وكان من الواجب أن تتجسس أعمالهم، وتتنسم أخبارهم، حاسبة السودان عضوًا من أعضائها، يؤلمها ما يؤلمه، ولكنها أهملت هذا الواجب، وكان إهمالها دليلًا على تركها حبلها على غاربها، وترك مقادير السودان تجري في أعنتها. إذن ليس بدعًا انتفاض أهل السودان عليها، بل البدع والغرابة ألا ينتفضوا ويثوروا لخلع النير القاسي، وقلب تلك الهيئة الحاكمة التي أبلغت أرواحهم حناجرهم، ولم تعمل عملًا يُصْلِحُ دنياهم، ويستجلب رضاهم، بل وكلت أمورهم إلى أناس يعتبرون السود عبيدًا أَرِقَّاءَ، ولا يفرقون بينهم وبين العجماوات، ومن العبث أن يرضى المرء بالهوان إذا كان قادرًا على إصلاح حاله، وإسعاد أهله ...».

● يقول الدكتور جلال يحيى:

«كان السودانيون مسلمين متمسكين أشدَّ التمسك بدينهم، وكانوا بطبيعة الحال لا يعترفون لغير المسلم بأي حق في ولاية أمورهم، فماذا يكون الأمر عندما يكون هذا الحاكم نصرانيًّا أجنبيًّا يستخدم القوة كوسيلة وحيدة للتفاهم، وإصدار أوامرَ تتعارض مع الدين والتقاليد والعرف؟».

لقد كان هذا التدخل الأجنبي سببًا من أسباب الثورة العرابية، وكم كتب صاحِبَا مجلة «العروة الوثقى» مُنَدِّدَيْنِ بهذا التدخل، ألم يقل الشيخ حسن العدوي لرئيس

المحكمة التي تحاكمه بسبب اشتراكه في الثورة: «أُعْلِنُ إليك الساعة أن الخديوي الذي أسلم وطنه، واستسلم لأعدائه، مستحق للعزل»[1].

---

(١) وقصة ذلك: «أن إنجلترا وفرنسا تآمرتا على عزل الخديوي «إسماعيل»، وضغطتا على السلطان لعزله، فصدر المرسوم بذلك عام ١٢٩٧ هـ، وعُيِّنَ مكانه ابنه «توفيق»، الذي علم أن بقاءه مرهون برضا الأجانب عنه، فاستسلم لهم، وسمح بإقامة عدة مؤسسات مالية اقتصادية أوربية، مما أثار نقمة الجيش بجانب التأخر في دفع المرتبات، وجمود طائفة من الضباط المسلمين عند رتب معينة، فقدَّم أحمد عرابي، ولفيف من الضباط مذكرة إلى الخديوي توفيق يطالبونه بعزل وزير الحربية عثمان رفقي باشا، وإصلاح نظام الترفيع في ضباط الجيش، فأمر رئيس الوزراء باعتقالهم، ومحاكمتهم، لكن الجيش اقتحم مقر المحكمة، وأخرج ضباطه، وانطلقوا في مظاهرة إلى قصر عابدين، مجددين مطالبهم، فعزل الخديوي عثمان رفقي باشا، واختير مكانه محمود سامي البارودي، وتعددت المواجهات بين الخديوي والضباط، وساندت بريطانيا وفرنسا الخديوي ضد الشعب المصري، والجيش، ووعدته بحماية عرشه بالقوة، ورحل الخديوي إلى الإسكندرية؛ ليكون بمقربة من الحماية الأجنبية، ثم ضرب الإنكليز الإسكندرية في ١١ يوليو ١٨٨٢م، وأشعلوا فيها النيران، ونزلت إليها القوات الإنكليزية؛ حيث جرت مذبحة بشرية للمصريين المدافعين عنها، وتوجه الخديوي إلى قصر رأس التين، حيث استقبله قائد الأسطول الإنكليزي «سيمور»، وهنأه قناصل الدول بسلامته.

وأسرع عرابي بجيشه إلى الإسكندرية للدفاع عنها، ولما تمكن الإنكليز من احتلالها انسحب عرابي بجيشه إلى كفر الدوار؛ حيث أقام التحصينات هناك، وأرسل عرابي إلى الخديوي قطارًا خاصًّا؛ ليعود به إلى القاهرة، فرفض، وانحاز إلى الإنكليز، وأعلن دخوله في حمايتهم، ثم أصدر منشورًا بعزل أحمد عرابي من منصبه كوزير للجهادية، وطالب الجيش بمخالفته، وعصيان أوامره.

وفي يوم ٦ رمضان سنة ١٢٩٩ هـ، الموافق ٢٢ يوليو ١٨٨٢م، انعقد مؤتمر عام في ديوان الداخلية، «وبعد تلاوة الأوراق المعروضة للتذاكر في شأنها صدرت فتوى شرعية من الشيخ العارف بالله شيخ الإسلام والمسلمين السيد محمد عليش، وشيخ الإسلام الشيخ حسن العدوي، والشيخ الخلفاوي، وغيرهم من العلماء بمروق الخديوي توفيق باشا من الدين مروق السهم من الرمية؛ لخيانته لدينه ووطنه، وانحيازه لعدو بلاده. ورأينا توقيف أوامر الخديوي، وما يصدر من نظاره «وزرائه» الموجودين معه في الإسكندرية، كيف كانت، ولأي جهة من الجهات، وعدم تنفيذها؛ حيث إن الخديوي خرج عن قواعد الدين الحنيف، والقانون المنيف».

واستطاع اللورد دفرين السفير البريطاني في عاصمة الخلافة، استطاع في النهاية استصدار قرار من الصدر الأعظم يعلن فيه عصيان عرابي، وخروجه على دولة الخلافة، وتلقف الإنكليز هذا القرار، فطبعوا منه الملايين، ووزعوه على كل من يعرف القراءة، وبهذا أصبح عرابي يحارب في ثلاث جبهات، لا في جبهة واحدة؛ الإنكليز، والسلطان، والخديوي.

وحشد عرابي قواته في كفر الدوار، وأقام فيها التحصينات، وفكر بردم قناة السويس؛ كي لا يعبرها =

ثم ألم يُفْتِ شيوخ الأزهر بخروج الخديوي توفيق عن الشرع.

فلم يكن غريبًا من المهدي أن يقف نفس الموقف، وأن يوجه إلى الخديو إنذارًا يُنَدِّدُ فيه بهذا التصرف[1].

* * *

= الإنكليز، ويهاجموه من الشرق، لكن ديليسيبس تعهد لعرابي بأن من المستحيل أن يدخل الإنكليز قناة السويس؛ احترامًا لحيادها، فلم يقم عرابي بردمها، كما كان ينوي، وخان ديليسبس وعده، وليس هذا بمستغربٍ منه، وهو الذي أرسل إلى من يدعى «البابا» يقول له بمناسبة فتح قناة السويس: «الآن أصبح الطريق إلى قلب العالم الإسلامي مفتوحًا»، وعبر الأسطول الإنكليزي قناة السويس، وتقدم من الإسماعيلية؛ حيث أنزل قواته، وأسرع عرابي لملاقاتهم، والتقى الطرفان في «التل الكبير»، في رمضان ١٢٩٩ هـ، لكن الخيانة عادت من جديد؛ **لتلعب** دورها بأيدٍ مصرية؛ فهذا محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب يخون الوطن والثورة، ويتولى ـ نيابةً عن الإنكليز ـ تثبيط همة المجاهدين في المعركة، والضابط «علي خنفس» يخون وطنه، فيُطلع العدو على خطة الدفاع، ومواطن الضعف في هذه الخطة.

لقد أحيط بعرابي من كل ناحية، وأطبق ليل الخيانة على جو المعركة؛ فلم يعد إنسان يعرف إنسانًا على حقيقته؛ فترجل الفارس عن جواده، وعاد إلى القاهرة؛ ليحاكم هو ومن معه، ثم يصدر الحكم بإعدامهم، ثم استبدلوه بالنفي المؤبد» اهـ. باختصار من «الأصول الفكرية»، ص(١١٨ ـ**١٢٩**)، وانظر: «الخيانة هزمت عرابي» تأليف عادل أحمد سركيس، ولأكثر المؤرخين المصريين وجهة نظر سلبية تجاه حركة عرابي؛ حيث يصفونه بقلة العلم، و«الغفلة» السياسية، بجانب أن حركته كانت وطنية مصرية خالصة، وليست إسلامية؛ وكما تورط الخديوي في صداقة القناصل الذئاب؛ فقد تورط عرابي أيضًا في صداقة المستشرقين الذئاب؛ وبخاصة «بلنت» الذي تزوج حفيدة الشاعر «بيرون» الذي كانت قصائده تؤجج الروح الصليبية للأوربيين ضد الدولة العثمانية؛ وهي «آن بلنت» التي قتل أبوها أثناء مهمة تجسسية في الدولة العثمانية، فجعلت مهرها الانتقام لأبيها، والقضاء على الدولة العثمانية الإسلامية، وتقدم «بلنت» بهذا المهر؛ وانظر تفصيل ذلك في كتاب «التحفة الندية في الفتنة العرابية»، للأستاذ أحمد سعيد نونو.

(١) «السابق»، «(١٦٢ ـ ١٦٧» بتصرف.

المِصْرِيُّونَ وَثَوْرَةَ المَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ

لقد كان التفاعل الثقافي والفكري قائمًا بين مصر والسودان منذ عهد سلطنتي «دارفور»، و«الفونج»، وكان الطلبة السودانيون يُبْتَعَثُونَ إلى الأزهر لتلقي العلم، ولا يزال في الجامع الأزهر رُواق يحمل اسم «دارفور، وسنار» إلى اليوم.

وكان في حلقة الشيخ «محمد عبده» أربعة وثمانون طالبًا سودانيًّا يتلقون العلم؛ كما كان الشيخ إسماعيل الكردفاني - مؤرخ سيرة المهدي - من علماء الأزهر، وفكَّر جمال الدين الأفغاني في إرسال الشيخ محمد عبده إلى السودان؛ ليعمل مع المهدي، وحُقِّق مع الشيخ محمد عبده بتهمة جمع الأسلحة، وإرسالها إلى السودان، ولما سأل الإنكليز الشيخ محمد عبده عن حركة المهدي، وكونها تهدد مصر بالخطر، قال: «لا خطر على مصر من حركة المهدي؛ إنما الخطر على مصر من وجودكم فيها، وإنكم إذا غادرتم مصر، فالمهدي لن يرغب في الهجوم عليها، ولن يكون في هجومه أدنى خطر، وهو الآن محبوب من الشعب المصري؛ لأنهم يرون فيه المخلِّص لهم من الاعتداء الأوربي، وسينضمون إليه عند قدومه»[١]. وكان المئات من المصريين، قد نُفُوا إلى السودان بسبب توجههم الوطني[٢].

وكان الكثير من قادة الجيش المصري وضُبَّاطِهِ وجنوده يرفضون قتال إخوانهم السودانيين، وقد فرَّ الكثير منهم إلى معسكر المهدي، وخالفوا أوامر القادة الإنكليز بقتل وضرب أبناء دينهم[٣].

وقد ذكر العميد كامل الشرقاوي أن عدد المصريين الذين انضموا إلى المهدي

---

(١) «الأصول الفكرية»، ص(٩٤ - ٩٥).
(٢) «السابق»، (١٧٢ - ١٧٣).
(٣) «السابق»، ص(٩١).

السوداني لا يقل عن ثمانية عشر ألفًا[١].

● يقول المؤرخ المصري عبدالرحمن الرافعي:

لا يسعنا في الجملة إلا القول بأن الثورة العرابية كانت من أسباب نجاح ثورة المهدي. لقد كان تأثير الثورة العرابية في الثورة المهدية مُضَاعَفًا. كان تأثيرها إيجابيًّا وسلبيًّا معًا؛ فقد شجع عرابي، بعد قيامه بحركته، المهديَّ على تقليده - كما يقول المؤرخ الرافعي - ولم تتمكن مصر، بسبب الثورة العرابية، من إرسال القوة الكافية لإخماد حركة المهدي.

وفي ذلك يقول الشيخ إسماعيل عبدالقادر الكردفاني المؤرخ المعتمد لسيرة المهدي: «لعل المانع من إرسال جيش مصري عَدَمُ تمكن الخديوي بسبب ما دهاه من قيام أحمد باشا عرابي عليه، وخروجه عن طاعته، وشروعه في محاربته، وذلك بعد أخذه فتاوى علماء مصر بمقاتلة ومحاربة واليها إذ ذاك، ووجوب الخروج عليه ومحاربته».

كل ذلك كان صحيحًا، ولكن الأهم من ذلك كله أن رجال الجيش المصري لم تكن لديهم رغبةٌ في قتال خسيس تفرضه عليهم حكومة ظالمة خائنة، وقد رأينا ما كتبته العروة الوثقى بخصوص هذه القضية، وكيف حذرت المصريين من قتال إخوانهم في العقيدة، أضف إلى هذا ما كان يشعر به الضابط المصري، والجندي المصري، من أن سفره إلى السودان كانت الغاية منه التخلص من الجنود والضباط الذين شاركوا في الثورة العرابية... كما أنهم - كرجال ثورة وطنية - كانوا لا يؤمنون بضرورة فرض سلطة الخديوي على ثوار السودان، فَكَثُرَتْ حوادث الهرب من المعسكر بِشَكْلٍ اضْطَرَّ الحكومة إلى ربطهم بالسلاسل، وكان رجال المدفعية يطلقون مدافعهم في اتجاه خاطئ، وكان العساكر يقولون لقادتهم: «لم يؤت بنا إلى هنا إلا لإعدامنا؛ لأننا عرابيون»، ولهذا كانت الأكثرية منهم تنضم إلى صفوف المهدي. وقد كان المهدي على علم تام بما يدور في مصر ذاتها، فقد كان له فيها من يوافيه بأنبائها

(١) «العذاب الذي لاقاه المسلمون على أيدي الغرب»، ص(١٤٣).

وأحوالها، وإن أحد هؤلاء الأعوان لَيكتب إليه بأن: «... الأحوال في مصر تنتقل من سيئ إلى أسوأَ، وأن حكومة مصر لا تقوى على مد يد المساعدة إلى السودان، وأنها ـ أي الحكومة المصرية ـ منقسمة إلى قسمين: أحدهما وطني، والثاني خديوي ...».

لقد كان هناك تشابه كبير بين الحركتين العرابية والمهدية، كانت كل منهما تطالب بإصلاحات إدارية واجتماعية، وكانت كل منهما ضد الوضع القائم والتدخل الأجنبي، وكانت كل منهما عبارةً عن حركة تحرر إسلامية[1]، ولم يُخْفِ عرابي، وهو في منفاه، تأييده ومَيْلَهُ للمهدي، كما كان العرابيون يفكرون في التحالف معه؛ لإقامة جبهة موحدة ضد التدخل العسكري البريطاني.

ولا يَسَعُ الباحث المدقق بعد هذه المقارنات والحقائق إلا تأكيد أهمية هذا الدور الذي لعبته الحركة العرابية في ثورة المهدي، وفي تمكين هذه الثورة من النجاح الذي أحرزته ضد الإنجليز والخديوي، وفي هذا التقارب والتعاطف بين الزعيمين السوداني والمصري.

يقول مؤلف «كرري»: وقد أمر المهدي أتباعه بعد قتل غوردون، وأوصاهم قائلًا: «الغوردون يا إخواننا لا تقتلوه، بل اقبضوا عليه حيًّا، وأحضروه إلينا؛ لأن فيه فائدةً عظيمةً؛ فإنا نريد أن نسلمه لأهله، ونفدي به رجلين عظيمين؛ هما: الزبير وعرابي». اهـ[2].

كانت مصر والسودان بلدًا واحدًا كما قدمنا، وما يصيب أحدهما ينعكس على البلد الآخر تلقائيًّا وطبيعيًّا، كان الحكم في البلدين واحدًا، والظلم الواقع عليهما مشتركًا، والشعور بالثورة والسخط ضد هذا الحكم عامًّا ... لم يكن السودان بعيدًا عن الأحداث التي وقعت في مصر، بل شارك فيها مشاركة إيجابية ... كانت الفرقة السودانية في الجيش المصري في مقدمة الفرق الثائرة، وكان قائدها «الأميرالاي عبدالعال حلمي» أحد زعماء الثورة، وكان الضباط السودانيون في هذه ظهيرًا لحركة

---

(١) وهذا ـ بالنسبة للثورة العرابية ـ محل نظر، إذ غلب عليها النزعة الوطنية، بخلاف حركة المهدي السوداني.

(٢) الأصول الفكرية، ص(١٧٣- ١٧٤).

المهدي في القاهرة، وكانوا يُمِدُّونَهُ بالمعلومات والأخبار الهامة ... والمنفيون الذين نُفُوا إلى السودان من القاهرة، وكانوا في جملتهم من الوطنيين أصحاب الاتجاهات الإصلاحية؛ ماذا كان دورهم في الحركة المهدية؟ وهل يُعْقَلُ وجود هؤلاء في الخرطوم دون أن يُسْهِمُوا بآرائهم في الثورة، وفي إعلان الغضب والسخط على حكومتهم في القاهرة؟ ... إن قصة الشيخ أحمد العوام(١) لأنصعُ دليلٍ على إسهام هؤلاء في الثورة، واشتراكهم الفعلي في الحركة، ووقوفهم وراء المهدي يساندونه بكلِّ قوة.

لقد كانت المعركة واحدة في كل من الخرطوم والقاهرة؛ ولهذا كان الضُّبَّاط والجنود المصريون يفرون بأسلحتهم إلى معسكر المهدية، وقد أعدم «غوردون» ضابطين مصريين كبيرين في الخرطوم بتهمة الخيانة، قبل سقوطها في يد الثورة»(٢).

(١) كان في داخل مدينة الخرطوم ـ في أثناء الحصار ـ عالم أزهري من رجال الثورة العرابية اسمه الشيخ أحمد العوام، كان قد نفي إلى السودان بعد فشل هذه الثورة، يقول نعوم شقير في تاريخه: «وكان في الخرطوم رجلٌ من خطباء الثورة العرابية، يقال له: أحمد العوام، وهو مصري الجنس، حسيني الانتساب، وقد نفي إلى الخرطوم؛ بسبب الثورة العرابية، فرأى الثورة المهدية في وجهه، فتشيع لها، وقد اطلعت على رسالة له بتاريخ ١٧ من رمضان سنة ١٣٠١ هـ، ١١ يوليو ١٨٨٤م، سماها «نصيحة العوام»؛ فإذا هي ثورة محضة، وقد أعلن فيها تشيعه للثورة المهدية، وكرهه للحكومة الخديوية (أي المصرية)، ومما قاله مشيرًا إلى موظفي حكومة الخرطوم: «... وطالما جادلتهم بالحق سرًّا، ونصحت لهم حتى في دار الحكومة جهرًا على مرأى ومسمع من وكيلها النصراني ـ يقصد جوردون ـ أن يسعوا في الصلح بين الطائفتين المتحاربتين عملًا بأمر الله، فلم أجد بينهم محقًّا، كلا ولا ساعيًا بكلمة حق؛ لإخماد هذه الحرب بين المسلمين، وعباد الله المؤمنين...، ولذلك اعتزلتهم، وجميع المحصورين، إلا من جاءني يسعى وهو يخشى، فإني أبذل له محض النصح، حتى يفتح الله بيننا، وهو خير الفاتحين».
وقد أثرت أقواله تأثيرًا بليغًا في نفوس أهل الخرطوم، فسجنه جوردون، وكبَّله بالحديد ..!
ثم عفا عنه، وجعله معاونًا في الحكمدارية براتب ١٥٠٠ قرش في الشهر، ولكنه ما لبث أن عاد إلى سابق عادته من انتقاد أعمال الحكومة، وتهييج أهل البلاد ضدها، ولما جاء الخبر بزحف المهدي على الخرطوم، وأعلن جوردون خبر قدوم الجيش الإنكليزي، جاهر الشيخ العوام في تكذيب جوردون، وتصديق المهدي، ولم يقتصر على ذلك، بل أغرى إحدى النساء، فرمت جمرة من شباك على معمل الفشكليك (الذخيرة) بقصد إحراقه، فسقطت الجمرة على بعض الأوراق، فأحرقتها، فشعر بها الحارس فأطفأها... واعترفت المرأة أن أحمد العوام هو الذي أمرها بذلك، فأمر جوردون بقتله، فقتل في سراي الشرق...!»؛ وانظر: «الأصول الفكرية»، ص(٩٢ ـ ٩٣).

(٢) «السابق» ص(١٣٠).

إِرْهَاصَاتٌ بَيْنَ يَدَي ادِّعَاءِ المَهْدِيَّةِ

١ ـ هيَّأت حركة الجهاد الفولاني التي قادها الشيخ «عثمان بن فودي» في «نيجيريا» لظهور المهدي، وبَشَّرَتْ بأن المهدي المنتظر على وشك أن يظهر في المشرق، وحَثَّتْ أتباعها على تأييده؛ مما أدى إلى هجرة بشرية كبيرة من تلك المنطقة إلى سودان وادي النيل والحجاز، للمشاركة في هذا الحدث العظيم، فلما أعلن «محمد أحمد» مهديته خاطب الناس بما كانوا يترقبونه.

٢ ـ حينما اتصل محمد أحمد بالشيخ القرشي «ود الزين» أحد شيوخ السمانية؛ جدد له العهد، وزوجه ابنته «النعمة» التي أنجبت له ابنه عليًّا، وقال عنه الشيخ القرشي فيما يُرْوَى عنه:

«إِدِّيته بنتي وفرسي، وأنا موعود فرسي دَهْ يركبه المهدي، وَشَيَّخْتُهُ وادِّيته الإجازة»(١).

٣ ـ قال شيخه القرشي قبل وفاته مباشرة: «إن زمن ظهور المهدي المنتظر قد حان، وإن الذي يشيد على ضريحي «قبة»، ويختن أولادي هو المهدي المنتظر»(٢).

«والتقطها محمد أحمد بأذنيه المرهفتين، وإحساسه المرهف ... سيكون هو المهدي؟ ولِمَ لا أكون أنا؟ إن بناء القبة أمر سهلٌ، وختان الأولاد أكثر سهولة، وما دام ثمن ذلك هو المهدية، فَلِمَ لا أكون أنا المهدي؟! لقد جمع المهدي ثلاث مئة من أتباعه، وذهب معهم إلى «الحلاوين»، وشيَّد القُبَّةَ من اللَّبِنِ الأخضر، وختن أنجال الشيخ القرشي بعد أن أخذ العهود على كثير من الناس بتصديق دعواه قبل أن يصدع بها.

٤ ـ وبينما كان يعمل في بناء القبة: إذ وفد عليه رجل فارع القامة، قوي الجسم، وما كاد نظره يقع على محمد أحمد، حتى سقط مغشيًّا عليه، ولم يُفِقْ من غشيته إلا بعد ساعة، ولما أفاق عاد، فنظر إلى محمد أحمد، وتَقَدَّمَ لمصافحته، فأُغْمِيَ عليه

---

(١) «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر» ص(٣٦٢).

(٢) «السودان بين يدي غوردون وكتشنر» ص(٧٤).

مَرَّةً ثانية، ثم أفاق وتقدم إلى محمد أحمد حبوًا على الأرض، فأخذ يده، وشرع في تقبيلها، وهو يرتعد ويبكي، فقال له محمد أحمد: من أنت يا رجل، وما شأنك؟ قال:

«يا سيدي، أنا عبدالله بن محمد ود تورشين، من قبيلة التعايشة، وقد سمعت بصلاحك في دار الغرب، فجئت لأخذ الطريقة عنك، وكان لي أبٌ صالحٌ من أهل الكشف، وقد قال لي قبل وفاته: إنك ستقابل المهدي، وتكون وزيره. وقد أخبرني بعلامات المهدي وصفاته، فلما وقع نظري عليك، رأيت فيك العلامات التي أخبرني بها والدي بعينها. فابتهج قلبي لرؤية مهدي الله، وخليفة رسوله، ومن شدة الفرح الذي شملني أصابني الذي رأيته».

لقد صادف هذا الكلام قبولًا وهوًى في نفس محمد أحمد، وجاء مطابقًا تمامًا لما ذكره الشيخ القرشي، وكان لهذا الإيحاء (١) ـ أو هذه التمثيلية ـ التي قام بها التعايشي دورٌ خطير في إعلان ظهور المهدي» (٢).

وقد ذكر ـ علي المهدي ـ في كتابه «جهاد في سبيل الله» ما خلاصته: إن المهدي كان ينتوي إعلان المهدية بعد بلوغه سن الأربعين؛ لأن كل الأعمال العظيمة تأتي بعد تمام الأربعين، ولكن مجيء الخليفة عبدالله التعايشي قدمها سنتين، ولو تأخر ـ أي التعايشي ـ عشر سنوات، لتأخرت ـ أي المهدية ـ عشر سنوات (٣).

(١) وقد صادف هذا «الإيحاء» ـ فيما يبدو ـ شخصية «قابلة للإيحاء suggestible»، فكان ما كان. انظر: «موسوعة علم النفس والتحليل النفسي»، للدكتور فرج عبدالقادر طه، ص(١٣٢).

(٢) «الأصول الفكرية»، ص(٢٩ ـ ٣٠)، (١٥٣ ـ ١٥٤).

(٣) يقول د. عبد الودود شلبي ـ حفظه الله ـ معلقًا على قول «عليٍّ المهدي» هذا:
«وهو قولٌ يجعل من «التعايشي» رأس هذه الفكرة، والعقل المخطط لهذه الدعوة.
وقد حفظ محمد أحمد للتعايشي هذه اليد، وجعله الوارث لدعوته، وخلافته من بعده، وهدد كل من يتناول أعماله وتصرفاته بالنقد «... لأن جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب؛ لأنه أوتي الحكمة، وفصل الخطاب، ولو كان حكمه على قتل نفس منكم، أو سلب أموالكم.. ومن تكلم في حقه، ولو بالكلام النفسي؛ فقد خسر الدنيا والآخرة، ويخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة، =

لقد كان «محمد أحمد» رجلًا من هذا النوع الشديد الحساسِيَةِ، كانت فيه شفافية ورقة، وكان أكثر إحساسًا بآلام وطنه وشعبه، وهذا النوع من الناس يمكن التأثير عليه بسهولة، واستغلال جوانب الخير والصلاح في نفسه، وإقناعه بأي عمل يعتقد فيه الصلاح والخير لأمته، وقد استغل فيه هذه الناحية رجلٌ كان على النقيض منه في ذلك كله، كان هذا الرجل هو «عبدالله التعايشي»، وكان التعايشي هذا مغرمًا بالأمجاد والبطولة، تَوَّاقًا إلى النفوذ والسلطة، وقد بذل والده عناية خاصة في تعليم أبنائه، ولكنه وجد عناءً أكبرَ مع عبدالله، فعبدالله اشْتُهِرَ بانصرافه عن علوم الدين، وحفظ القرآن، ولكنه كان يتشوق دائمًا إلى أخبار الغزوات والبطولات، واشْتُهِرَ منذ أيامه الأولى بالشجاعة والبأس، وانضم «للزريقات» في حربهم مع الزبير رحمت باشا، ووقع أسيرًا في يد الزبير الذي أمر بقتله، لولا أن تشفع له الفقهاء ورجال الدين، ولكن روحه المتعطشة للمجد رأت في ـ الزبير رحمت باشا ـ وقت أن كان في أوج قوته وشهرته، أنه المهدي المنتظر.

فأرسل إليه مبشرًا أنه حلم حُلْمًا رأى فيه: أن الزبير هو المهدي المنتظر، وأنه ـ (أي عبدالله) ـ سيكون وزيره.

فرد عليه الزبير زاجرًا، وأمره بعدم تَكرار هذا الحديث معه.

وقد كان والد عبدالله التعايشي ممن يشتغلون بالتنجيم والسحر، وكان «التعايشة» إذا أرادوا غزو جماعة أخرى استشاروه قبل القيام بهذا الغزو، فلما تقدمت به السن،

= وقد أتانا خبرٌ من الخضر ـ عليه السلام ـ أن الأولياء اجتمعوا في بيت المقدس، يقولون: الحمد لله الذي أظهر المهدي، وجعل عبد الله وزيره، ثم وجد (أي الخضر) اجتماع الشياطين، وهم يقولون: كان عيشنا بالغش والخداع، فأتى المهدي، وقطع علينا عيشنا، ولولا أن عبد الله وزيره، لكنا نجد في المهدية دخولًا».

«فحيث علمتم ذلك يا أحبابي أن الخليفة عبد الله مني، وأنا منه، فتأدبوا معه كتأدبكم معي، فجميع ما يفعله بأمر النبي ﷺ، أو بإذن منا لا بمجرد اجتهاد منه، ولا هو عن هوى، بل هو نائب عنه ﷺ في تنفيذ أمره»، اهـ. من «الأصول الفكرية»، ص(٢٤٥ ـ ٢٤٦).

عهد بحرفته تلك إلى ولده عبدالله، فاشتغل بهذه الحرفة فترةً من الزمن، ولكن طموحه لم يكن ليتوقف عند «ضرب الرمل»، وقراءة «الطالع»، وكتابة التعاويذ والتمائم.

إن في الرجل ذكاءً وقوةَ شخصية، لقد سئم هذه الحرفة، وهاجر بحثًا عن المجد. كانت أحاديث المهدية تملأ الجو، وكان تَوَقُّعُ ظهور المهدي حديثًا على كل لسان، فذهب إلى الشيخ محمد شريف نور الدائم شيخ الطريقة السمانية، وقال له: أنت المهدي المنتظر، لقد كرر ما فعله مع «الزبير»، وكأن الرجل كان يبحث عن أي مهديٍّ، ويستعجل ظهوره؛ ليصبح مستشاره ووزيره.

وقد رفض الشيخ محمد شريف هذه اللعبة، ثم قال له قبل أن يغادر بيته: إذا كنت تبحث عمن يقول بذلك: فعليك بتلميذي السابق محمد أحمد[1].

٥ ـ ومن البشائر المزعومة ما ذكره المهدي السوداني في قوله:

«ومن البشائر التي حصلت لنا أنه حصلت لنا حضرة نبوية (حضرها) «الفقيه عيسى»، فيأتي النبي ﷺ، ويجلس معي، ويقول للأخ المذكور: شيخك هو المهدي، فيقول الفقيه «عيسى»: إني مؤمنٌ بذلك، فيقول ﷺ: «من لم يصدق بمهديته، فقد كفر بالله ورسوله. قالها ثلاث مرات، ثم يقول له الأخ المذكور: يا سيدي يا رسول الله، الناس من العلماء يستهزئون بنا، والخشية ـ أيضًا ـ من الترك، فيقول ﷺ: «والله، والله، إن قَوِيَ يقينكم، إن أشرتم بأدنى قشة تنقضي حوائجكم».

ثم يقول الشيخ عبدالله: يا سيدي الشيخ الطيب، نحن مُصَدِّقُونَ بمهدية شيخنا، والناس ليسوا بمصدقين، فيقول الشيخ الطيب: إن شيخك حين ولادته (عرفه) أهل الباطن والحقيقة، فلما أتم الأربعين يومًا عرفته النباتات والجمادات أنه المهدي، ثم يقول الشيخ الطيب: الطريقة فيها الذل والانكسار، وقلة الطعام، وقلة الشراب، والصبر، وزيارة السادات، فتلك ستة، والمهدية ـ أيضًا ـ فيها ستة: الحرب، والحزم، والعزم،

(١) وقد صدر منه ذلك في سياق الزجر لا الإقرار كما تقدم ص(٤٥٩).

والتوكل، والاعتماد على الله، واتفاق القول، فهذه الاثنا عشر لم تجتمع إلا لك.

ثم يأتي الشيخ «التوم»، ويلقي عليَّ السلام بالمهدية، ويقول: اجتَهِدْ في قومك على أن يكون الكبير أبًا، والصغير ولدًا، والمساوي أخًا، ثم يأتي جدنا الشيخ البصير، ويلقي عليَّ السلام بالمهدية، ويتكلم بكلام، فهمنا منه أنه قال لي: اشدُد الحزام على سنة النبي العدنان، ثم يأتي الشيخ القرشي: فيلقى عليَّ السلام بالمهدية، ويتكلم بكلامٍ المفهومُ منه أنه يقول: «كُنْ ذاكرًا، ولمن معك ساترًا»، فيقول الشيخ عبدالله: يا سيدي، الناس منكرون مهدية شيخنا، فيقول: إن النبي ﷺ أعلمني قبل مماتي بأن شيخك هو المهدي بذاته.

ثم يقول: «وهذه الليلة المذكورة التي حصلت فيها هذه الحضرة المباركة غرة شعبان[1] ليلة الأربعاء.

ثم تلى علينا جميع الأحوال إلى دخول مكة، ومنازعة أهلها، ومبايعة الضعفاء والغرباء أولًا، ثم مبايعة الشريف ملك مكة، وجميع أشرافها»[2].

* * *

(١) وهي الليلة التي أعلن فيها مهديته.

(٢) «منشورات المهدية»، ص(١٢).

إِعْلَانُ الْمَهْدِيَّةِ وَتَوَابِعُهُ

في غُرَّةِ شعبان ١٢٩٨ هـ (الموافق ٢٩ يونية ١٨٨١م) أعلن محمد أحمد السوداني أنه المهدي المنتظر، وإمام الزمان الذي تجب طاعته على جميع البشر، وجاء في بيانه الأول قوله:

«وحيث إن الأمر لله، والمهدية المنتظرة أرادها الله، واختارها للعبد الفقير محمد بن السيد عبدالله، فيجب التسليم والانقياد لأمر الله ورسوله.

وبعد هذا البيان فالمؤمن يؤمن ويصدق؛ لأن المؤمنين هم الذين يؤمنون بالغيب، ولا ينتظرون لِأَخْبَارٍ أُخَرَ، فمن انتظر بعد ذلك، فقد استوجب العقوبة؛ لأنه ﷺ قال: «من شك في مهديته فقد كفر بالله ورسوله» ثلاثًا[1].

لقد صَدَّق أهل السودان - خاصتهم وعامتهم - دعوة المهدي، وتوافد إليه الزعماء، وشيوخ القبائل مبايعين من كل حَدَبٍ وصوب، قائلين: «نبايعك على المهدية، وإن لم تكن مهديًّا، نبايعك على قتال الحكومة، وخلع طاعتها».

إذن، كان «البطل» الذي يبحث عنه السودان قد استكمل كل عناصر الثورة، وكانت الظروف قد هيأت المناخ العام للتجاوب معه، لقد بدأ بالطوفان، ولا أمن ولا أمان إلا في سفينة إمام الزمان.

إن مما يَلْفِتُ النظرَ أن «إعلان المهدية»، اقترن بدعاوى خطيرة لا خطام لها، ولا زمام، والعجيب أن الناس في غمرة التعطش لخروج القائد الْمُنْتَظِرِ انقادوا انقيادًا أعمى لتلك الدعاوى العريضة التي صَرَخَ بها المهدي في قوةٍ، وعنف، وحماسٍ، وإصرار، وها هو ذا يخاطب شعبه المقهور قائلًا:

«فإلى قاطبة العلماء، والتجار، والعمد، والفقراء، والمساكين، من عبد ربه محمد

---

(١) «منشورات المهدية»، ص(٢٦ - ٢٧).

المهدي بن عبدالله:

اعلموا - وفقني الله وإياكم إلى اتباع الكتاب والسنة - أن قد أيدني الله - تعالى - بالخلافة الكبرى، وأعلمني سيد الوجود ﷺ بأني المهدي المنتظر، وخلفني بالجلوس على كرسيه مِرارًا، بحضرة الخلفاء والأقطاب والخضر، وأوتيت سيف النصر من حضرته ﷺ، وأعلمت أنه لا يُنْصَرُ عليَّ معه أحد، وأيدني الله - تعالى - بالملائكة المقربين، وبالأولياء من لَدُنْ أبينا آدم - عليه السلام - إلى وقتنا هذا، وكذلك الجن إلى وقتنا هذا، بعد أن أسلموا، وصدقوا بمهديتي.

وفي حال الحرب يحضر مع الجميع أمام جيشي سيد الوجود ﷺ بذاته الكريمة، ثم قال ﷺ:

«إن الله قد جعل لك على المهدية علامة، وهي الخال على خدي الأيمن، وجعل علامة أخرى، تخرج رايةٌ من نور، وتكون معي في حالة الحرب، يحملها عزرائيل - عليه السلام -، فيثبت الله بها قلوب أصحابي، وينزل الرعب في قلوب أعدائي، فلا يلقاني أحد بعداوة إلا خذله الله - تعالى -، ولو كان الثقلين الجن والإنس.

فمن له سعادةٌ صدَّق بأني المهدي المنتظر. ولكن لا يخفى أن البيان لا يهدي، وإنما الهادي هو الله - تعالى -، وقد أعلم اللهُ نبيه ﷺ بأن ليس عليه إلا البلاغ، وأنه لا يهدي من أحب، ومعلوم أنه لا يكذب على الله ورسوله إلا من لا خلاقَ لَهُ عند الله - تعالى -، ومن يعلم علم يقين أن متاع الدنيا قليل، لا يزن عند الله جناح بعوضة، لا يؤثره على ما عند الله - تعالى -، ولو آثر عليه لزال، كأن لم يكن، ولولا أني على نور من الله، وتأييد من رسول الله، لما قدرت على شيء، ولا ساغ لي أن أحكي بشيء، وما أخبرت عن النبي ﷺ بما أخبرت إلا بأمر منه ﷺ.

وقد أخبر ﷺ مرارًا أن من شك في مهديتي كفر بالله ورسوله، وأن من عاداني كافر، وأن من حاربني يخذل في الدارين، وأمواله وأولاده غنيمة للمسلمين.

وقد بشرني ﷺ أن أصحابي كأصحابه، وأن عوامهم لهم رتبة عند الله ـ تعالى ـ كرتبة الشيخ عبدالقادر الجيلاني، ولا تغتروا بالخطب التي ألفها في ذمِّنا وتكذيبنا علماء السوء ممن وقع في عرضنا، فهؤلاء ممن أدخل الله في قلوبهم النفاق؛ بحب المال وحب الجاه، ولا يخفى عليكم أن العلماء ينكرون كثيرًا من أمور المهدي؛ لأنه ليس معتقدهم الذي يظنونه، ولأنه يخالف مذاهبهم(١)، والتصديق بالمهدي أمر صعب، لا يُوَفَّق إليه إلا من أدركه الله بسابق سعادة.

وحيث إن الأمر لله، والمهدية أرادها الله، واختارها للعبد الفقير محمد بن السيد عبدالله،، فيجب التسليم، والانقياد لأمر الله ورسوله.

وبعد هذا البيان، فالمؤمن يؤمن ويُصَدِّقُ؛ لأن المؤمنين هم الذين يؤمنون بالغيب، ولا ينتظرون لإخبارٍ آخر، فمن انتظر بعد ذلك، فقد استوجب العقوبة، ومن لم تنفعه الموعظة طهَّرَهُ السيف»(٢).

«هذا وقد أخبرني سيد الوجود ﷺ: بأن من شك في مهديتك، فقد كفر بالله ورسوله ـ كررها ﷺ ثلاث مرات ـ وجميع ما أخبرتكم به من خلافتي على المهدية، فقد أخبرني به سيد الوجود ﷺ يقظة في حال الصحة، خاليًا من الموانع الشرعية، لا بنوم، ولا بجذب، ولا سكر، ولا جنون، بل متصفًا بصفات العقل، أقفو أثر رسول الله ﷺ، بالأمر فيما أمر به، والنهي عما نهى عنه.

وإني لا أعلم بهذا الأمر، حتى هجم عليَّ من الله ورسوله من غير استحقاق لي بذلك(٣)، فأمره مطاع، وهو يفعل ما يشاء ويختار، وحكم نبيه ﷺ كحكمه، ولما

---

(١) وهذا الكلام يعكس مدى تأثر المهدي السوداني بتصور ابن عربي عن المهدي؛ حيث قال في وصفه: «يرفع المذاهب من الأرض، أعداؤه مقلدة العلماء؛ لما يرون من الحكم بخلاف ما ذهب إليه أئمتهم»؛ كما في «الفتوحات المكية»، (٣/٣٢٨).

(٢) «منشورات الإمام المهدي»، (٢/٣٨).

(٣) «السابق»، (١/٦).

تكاثرت منه البشائر والأوامر لي في هذا المعنى، امتثلت قيامًا بأمر الله، وقد كنت قبل ذلك ساعيًا في إحياء الدين، وتقويم السنة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولَمَّا حصل - يا أحبابي - من الله ورسوله أمر الخلافة الكبرى، أمرني سيد الوجود ﷺ بالهجرة إلى «ماسة» بجبل قدير، وأمرني أن أكاتب بها جميع المكلفين أمرًا عامًّا[1]، فكاتبنا بذلك الأمراء، ومشايخ الدين، فأنكر الأشقياء، وصَدَّقَ الصديقون الذين لا يبالون بما لقوه في الله من المكروه، وما فاتهم من المحبوب المشتهى، بل ناظرون إلى وعده - سبحانه وتعالى - بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣].

● **ويحكي المهدي تفاصيل إحدى الحضرات المزعومة - في ليلة الإعلان عن مهديته - قائلًا:**

«ثم يأتي النبي ﷺ، ومعه الشيخ عبدالقادر الجيلاني لابسًا جُبَّةً، وعليها سيور، فيقول الشيخ عبدالله: يا سيدي، يا رسول الله، الناس منكرون الجبة، ويتعففون عنها، أفهي سنةٌ واردةٌ عنك أم لا؟

فيقول ﷺ: «وذات الإنسان رُقَعٌ: في رأسه رقعة زرقاء، وباطن شفتيه رقعة حمراء، وأسنانه رقعة بيضاء، وأظفاره رقعة صفراء، ولولا أني خشيت عليك أن تكون مغشيًّا لأريتك جُبَبَ الخلفاء الأربعة.

وهذه الليلة المذكورة التي حصلت فيها هذه الحضرة المباركة غرة شعبان ليلة الأربعاء.

ثم تلى علينا جميع الأحوال إلى دخول مكة، ومنازعة أهلها، ومبايعة الضعفاء والغرباء أولًا، ثم مبايعة الشريف ملك مكة، وجميع أشرافها»[2].

كانت المراسلات أسلوب المهدي المفضل؛ فقد بعثَ المهديُّ - ثم خليفته من بعده -

---

(١) «السابق»، (١/١١٢).

(٢) «منشورات المهدية»، ص(١٧).

مئاتِ الرسائل التي بيَّنَ فيها مقاصد دعوته؛ ومن ذلك رسالته إلى محمد رءوف باشا الحاكم العام للسودان، أو «الحكمدار»، التي قال فيها: «من عبد ربه محمد المهدي إلى الحكمدار بالخرطوم. وبعد، فالأمر المطلوب كشفه أن دعائي الخلق إلى السنة، والهجرة بالدين أمرٌ من سيد الوجود ﷺ، فمن تَبِعَ صار من المقربين، ومن خالف خذله الله في الدارين، فمن لم يصدق طهره السيف، ومن أتانا بالعداوة يأخذه الله؛ إما بالخسف، أو بالغرق، وفيما ذكرته كفاية يكتفى به أهل العناية[1] ...»، فجمع رءوف باشا العلماء، وأطلعهم على كتاب محمد أحمد، فالتمس بعضهم له عذرًا بأنه **قد حصل له جذب**، ولكنهم أجمعوا على ضرورة القبض عليه قبل اتساع الخرق[2].

فندب رءوف باشا لهذا الأمر أحد معاونيه؛ وهو محمد بك أبو السعود، وحين ذهب إلى المهدي وجده جالسًا، وحوله جماعة من تلامذته، فسَلَّمَ عليه، وقال: «إن الحكمدار بلغه أمر الدعوة التي قمت بها، وأرسلني لآتي بك إليه، وهو ولي الأمر الذي تجب طاعته».

فأجابه محمد أحمد: «أما ما طلبته من الوصول معك إلى الخرطوم، فهذا مما لا سبيل إليه، وأنا ولي الأمر الذي تجب طاعته على جميع الأمة المحمدية».

فقال له أبو السعود: «ارجع عن هذه الدعوى؛ فإنك لا تطيق حرب الحكومة، ولا نرى معك من يقاتلها»، فقال محمد أحمد وهو يبتسم: «أنا أقاتلكم بهؤلاء»، وأشار إلى أصحابه، ثم التفت إليهم، وقال: «أأنتم راضون بالموت في سبيل الله؟»، فقالوا كلهم: «نعم، رَاضُونَ بالموت في سبيل الله، وباذلون أرواحنا في رضا الله، ورسوله، ومهديه»، فالتفت المهدي إلى أبي السعود، وقال له: «قد سمعت ما أجابوا به، فارجِعْ إلى ولي أمرك في الخرطوم، وأخبره بما رأيت[3]، ورب الكعبة لقد كلفت برسالة

---

(١) «سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي»، ص(١٢٠)، نقلًا عن «الأصول الفكرية»، ص(١٧٥ - ١٧٦).

(٢) «جغرافية وتاريخ السودان»، ص(٦٥٢)، نقلًا عن «الأصول الفكرية»، ص(١٧٦).

(٣) «السابق»، ص(٦٥٢).

سأؤديها، ولو وقفت أمامي كل عقبات الدنيا ...».

فلما قفل أبو السعود راجعًا إلى الخرطوم، قال المهدي لأنصاره: «أيها الناس، إن الترك رجعوا لطلب المدد، وسيعودون لحربنا، فمن كان منكم خائفًا على أولاده، وأمواله، فليخرج منا، فنحن مسامحون له، وبيعتنا التي في أعناقكم ليس عليكم فيها حرج، فإن سلمنا فعودوا إلينا، فقالوا جميعًا بلسانٍ واحد: يا سيدنا، نحن بايعناك على الموت، ورضينا بذلك، ولا نرغب بأنفسنا عن نفسك، بل نحن معك حيثما تَوَجَّهْتَ، فَمُرْ بما شئت فنحن لك سامعون، ولأمرك مطيعون يا خليفة رسول الله»[(١)].

وصدقت نبوة المهدي، فقد عاد محمد أبو السعود على رأس قوة مسلحة للقبض عليه، وحمله مكتوفًا إلى الخرطوم، فكمن لها المهدي وأنصاره، فأبادوها جميعًا إلا القليل، ولم يكد أبو السعود يرى ما حل بجنوده، حتى رجع هاربًا من هذا الجحيم.

وتعرف هذه الواقعة بـ«واقعة أبا»، وكانت يوم الجمعة السادسَ عشرَ من شهر رمضان سنة ١٢٩٨ هـ، وقد انتشر خبرها في السودان انتشار البرق، ونُسِجَتْ حولها الكرامات والخوارق، ودارت حولها القصص والحكايات، وفي ذلك يقول الشيخ الكردفاني: «إذا تأملت بعين البصيرة، وطابت منك السريرة، اتضح لك أن موقعة «أبا» من حيث كونُها حصلت يوم الجمعة السادسَ عشرَ من شهر رمضان، قريبة الشبه من غزوة بدر؛ في كونها حصلت يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان، وفي نقص هذه الواقعة عن البدرية بيوم؛ أعني أن تلك يوم السابع عشر، وهذه يوم السادس عشر؛ سر لطيف، ومنهج من التأديبات الإلهية منيفٌ، يدركه الحاذق اللبيب، ويفطن لدقيق مرماه الفطن الأريب»[(٢)].

● يقول الدكتور عبد الودود شلبي ـ حفظه الله ـ:

---

(١) «السابق»، ص(٦٥٣).

(٢) «سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي»، ص(١٣٤)، نقلًا عن «الأصول الفكرية»، ص(١٧٧).

«كانت هذه الواقعة هي الشرارة التي أشعلت النار في السودان كله، وقد تبوأ المهدي ـ بعد سحقه لقوات الحكومة ـ قمة الزعامة الروحية والوطنية، وقد أيقن المهدي بعد هذه المعركة، أن الحكومة لن تتركه يهنأ بانتصاره عليها، كما أنها ـ أي الحكومة ـ لم تزل قوية ومحتفظة بهيبتها، والواجب يفرض عليه أن يحسب حسابها، ويستعد لملاقاتها وقتالها. إنه الجهاد والثورة، والجهاد والثورة في حاجة إلى تعبئة، وهذه التعبئة لا بد من أن تكون شاملة وعامة، وأية تعبئة من هذا النوع لا بد أن تكون مبرراتها قويةً، وصيغتها مقدسة، وهنا تلعب براعته الفكرية، وتمتزج الزعامتان الروحية والوطنية في هذا النداء الموجه إلى الأمة، يدعوها فيه إلى الهجرة.

لم يَقُلْ لهم: تعالوا نجتمع لقتال الحكومة، بل قال لهم: هيا إلى الهجرة، وللهجرة دلالات ومعانٍ كثيرةٌ؛ إنها تعني الخروج من النفس والأهل والمال، طاعةً لله، ورسوله؛ كما أنها ـ أي الهجرة ـ تحتل في تاريخ الإسلام مكانة رفيعة، وفي هذا يقول المهدي: «... لا يخفى عزيز علمكم ما ورد في فضل الهجرة، وقد أعاد الله لنا الزمن الماضي من الصحابة، وأعلمني ﷺ بأن أصحابي كأصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ، وبَشَّرَني أن من يصحبني قبل بلوغ أصحابي اثني عشر ألفًا فهو من أنصار الله، وفي رضاء الله ورسوله، وأن له سبعين حجة، ومعلومٌ أن نصر دين الله في القِلَّةِ ـ مع أسبقية الصحبة ـ فضله عظيم، ولا سيما، وقد قال الله ـ تعَالَى ـ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: ٨]، ومفهوم أن من لم يكن كذلك، فليس من أهل الصدق، وقد قال الله ـ تعالى ـ في فضل الهجرة: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النحل: ٤١]»[(١)].

وبعد معركة «أبا» «هاجر المهدي إلى «قدير» بكردفان؛ ليبتعد عن السلطة، ويحتمي

(١) «الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني»، ص(١٧٨).

بأتباعه في مكان آمن، ومن هناك امتدت دعوته إلى بحر الغزال بين أكبر القبائل الجنوبية؛ قبيلة «الدينكا»، وإلى جنوب كردفان، وكانت الهجرة لقدير للاحتماء بجبل «ماسا»، وقد روى المهدي أن حركته إليه إنما كانت هجرة أَمَرَهُ بها في رؤيةٍ رسولُ الله ﷺ.

وفي «قدير» تتابع أتباعه وافدين إليه يبايعونه، وينتظمون في سلك دعوته، مستعدين لمواجهة ما توقعوه من تجريدات عسكرية لم تنقطع، ولم تفلح أي منها في مواجهته؛ مما زاده مكانة، ومنعة، وقوة، ولقد انشغلت الحكومة التركية المصرية بثورة «عرابي» عام ١٨٨٢، وكان في ذلك مجال نظم المهدي فيه جيوشه على قيادات ثلاث: «الراية الزرقاء» تحت قيادة «عبدالله التعايشي» خليفته من بعده، وقوتها من رجال غرب السودان؛ «الراية الخضراء»، وعلى رأسها «علي الحلو»، وتُمَثِّلُ رجال الجزيرة؛ ثم «الراية الحمراء»، وقائدها «محمد شريف»، وتمثل مجموعات النيل، وتيمنًا بالرسول ﷺ، وتقليدًا له، سَمَّى نفسه خليفة رسول الله، وسمى خلفاءه بأصحاب الرايات؛ كفعل الخلفاء الراشدين.

وساقت الحكومة المصرية جيشًا لقتاله بقيادة «جيجلر» باشا البافاري، فهاجمه نحو خمسين ألف سوداني، وهزموه بالسيوف والعصي؛ مما كان له أثر فَعَّالٌ في زيادة الأتباع، واستولى المهدي على مدينة «الأُبَيِّضِ» سنة ١٣٠٠ هـ.

ولا نريد أن نقف كثيرًا عند الحملات والمعارك العسكرية، ولكننا لا بد أن نشير وبسرعة إلى توالي الانتصارات المذهلة التي مَهَّدَت الطريق للزحف على الخرطوم، وقَتْلِ «جوردون»، ذلك الحدث الجلل الكبير، الذي أنهى عهد التركية المصرية في السودان.

لقد أرسلت بريطانيا حملة عسكرية بقيادة القائد الإنكليزي «هكس» باشا للقضاء على الحركة المهدية، ولكنها فشلت وأُبِيدَتْ، وقُتِلَ قائدها، ولئن كانت «أبا» المفتاح

في بدء الدعوة، فإن معركة «شيكان»، التي أبادت حملة «هكس» باشا الكبيرة - كانت بحق بداية النهاية للعهد التركي، وكانت الدافع وراء سياسة الإخلاء التي بُعث من أجلها «جوردون»، ولكن غروره وتخيلاته جعلته يحيد عنها، فيلقى حتفه مقتولًا في الخرطوم، وكانت هزيمة «هكس» في «شيكان» في ٥ نوفمبر ١٨٨٣، كان هكس يتبجح بأن جنده قَادِرٌ على صد السماء بأسنة رماحه، وبصد الأرض بأقدام جنده، وتبارك الذي بيده الملك، هُزِمَ جيشه شرَّ هزيمة، ومات مِيتَةَ الكلاب، وفي العام نفسه ثار الشرق بقيادة «عثمان دقنة»، فأخذ «طوكر» و«سكات». و«عثمان دقنة» هو من حَطَّمَ تشكيلة المربع الأسكتلندي، وألحق هزيمةً نَكْرَاءَ بالبريطانيين[1]، وهكذا مَهَّدَ الطريق للزحف على الخرطوم وحصارها»[2].

وفي نفس الوقت كان «رودلف سلاتين» النمساوي الجنسية حاكمًا لمديرية دارفور سنة ١٨٨١م، باسم الحكومة المصرية، وكان قد أعلن إسلامه، ودخل في طاعة المهدي، واستولى الأنصار على دارفور، وعَيَّنَ المهدي قريبه محمد خالد عاملًا عليها، وظل «سلاتين» باشا في حاشية المهدي مدة اثني عشر عامًا؛ لأنه سلمَ للمهديين في ٢٣ ديسمبر ١٨٨٣م، وبعد القضاء على الحركة المهدية عاد «سلاتين» باشا إلى مصر، وكتب كتابه المشهور «النار والسيف في السودان».

وكانت مديرية بحر الغزال تابعة للإدارة المصرية في الخرطوم، وكان يحكمها ضابط إنكليزي يسمى «لبتون»، وقد حاول الدفاع عن المديرية، ولكن المهدي أرسل

---

(١) وقد سجل ذلك شاعر الإمبراطورية البريطانية «كبلنج» الذي كان يتغنى بأمجاد الإنكليز، ونشرهم الحضارة!، وكان قد اشترك في بعض المعارك ضد المهدي، فانبهر ببسالة أتباعه، وأنشأ قصيدة أسماها (Fuzzy Wazzy) ترجمت إلى العربية في أكثر من أربعين بيتًا، يقول فيها: إنه شاهدهم يقتحمون نيران المدافع، ويتسابقون إلى الموت، حتى أدخلوا الرعب في قلوب جنود ملكة بريطانيا، ولم يكن يدري «كبلنج» أنهم يتسابقون إلى «الحياة» الخالدة، والحقيقية، ويطلبون الشهادة في سبيل الله، انظر: «حزام المواجهة: حرب التنصير في أفريقيا»، ص(٦٧).

(٢) انظر: «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص(٣٦٣ - ٣٦٤)؛ و«الأعلام»، للزركلي، (٦/ ٢٠).

قوة من الأنصار استولت على بحر الغزال في أبريل ١٨٨٤م، واستسلم لبتون، ومات في الأسر بعد أربع سنوات»[١].

«كان الإنكليز يرتاعون لانتصارات المهدي؛ لأن ذلك يعني انهيار إمبراطوريتهم في الشرق، وسيثور المسلمون عليهم في أفريقيا والهند، وسيحاول الكثيرون تقليده في الثورة على الغرب، إن أمر السودان لا يهم، ولكن العبرة من أحداثه تثير في القلوب الفزع والرعب، وقد تساءلت جريدة «البال مال جازيت» عن السبب في عدم إرسال ضابط كفء؛ ليتولى إجهاض هذه الثورة في المهد، ورَشَّحَتْ لهذا الغرض غوردون الجنرال الذائع الصيت.

كان لغوردون شهرة كبيرة، وكان ملوك العالم يتنافسون لكسب وده؛ ليخدم معهم. كانت شهرة القائد الذي لا يقهر Leader of the ever victorious army، قد سارت بها الركبان؛ فقد خَدَمَ في الصين، وكان بطل حصار «سباستيول» في روسيا، و«الكيب تاون» في أفريقيا، وقاهر جزيرة «موريشيس» في المحيط الهندي، وكانوا يعتبرونه فوق ذلك كله من أبطال المسيحية.

عَوْدَةُ جُورْدُونَ

وصدرت الفرمانات في القاهرة بتعيينه حاكمًا عامًّا على السودان، لم يكن للقاهرة في هذا الترشيح أمر أو نهي، كان على الخديوي فقط أن يسمع ويطيع، لقد سقط في شَرَكِ الخيانة، وتآمر مع الإنجليز على الثورة العرابية، وأصبح - منذ ذلك الوقت - في يد الإنجليز ألعوبة.

لقد بدأت المرحلة الحاسمة في هذه الحرب بين الثورة المهدية، وخصومها في لندن، والقاهرة، والتقى «الصوفيان» وجهًا لوجه على أرض السودان الساخنة، فهل يَسْهُلُ

---

(١) «أطلس تاريخ الإسلام»، ص(٣٣٧).

عليه ـ كما تقول مجلة العروة الوثقى ـ رقية محمد أحمد المهدي بعدما قام بدعوة عظيمة كهذه؟

«جوردون» يدبر الحيلة

ماذا يفعل غوردون لمواجهة هذا الإعصار، وإخماد هذه النار؟! الحرب؟ وهل تجدي الحرب مع رجال غايتهم الموت؟ لقد كان أنصار المهدي يبكون حنينًا إلى الشهادة، ويستقبلون المدافع بوجوه باسمة، ويُلْقِي الواحد منهم نفسه وسط الألوف من جنود العدو المدججة بالسلاح والذخيرة.

ولكن غوردون لا تعجزه الحيلة، لقد تعامل من قبل مع كثيرين عَرَفَ كيف يتغلب عليهم، ولن يكون المهدي ـ كما حَدَّثَتْهُ نفسه ـ أخطرَ منهم، وبدأ يفتح ملفاتِهِ، ويُخْرِجُ أسلحته، وهنا نترك المجال فسيحًا أمام الرجلين؛ لنرى كيف يديران المعركة، وكيف كان الحوار بينهما في هذه المرحلة[١].

جُورْدُونُ يَعْرِضُ الرِّشْوَةَ

فقد قال في أولى رسائله إلى المهدي: «فخر الأمراء المكرمين، وقدوة الأولياء الصالحين، حضرة سيدنا، ومولانا السيد محمد أحمد بن عبدالله ـ حفظه الله آمين.

بعد إهداء السلام، وزيادة التوقير والاحترام لسموكم، نخبر حضرتكم أني قد تعينت واليًا على السودان باتفاقِ كلٍّ من الحكومة الخديوية، ودولة بريطانية؛ لتسوية حال السودان؛ بناءً على ما طرأ عليها في مدة السنين الأخيرة من انتشاب الحروب، وسفك دماء المسلمين، وقطع الطريق على أبناء السبيل، الذين يقصدون التوجه لزيارة

(١) «الأصول الفكرية»، ص(١٩٥ ـ ١٩٦).

قبر النبي[١] ـ عليه السلام ـ، والذين يريدون السعي على معايشهم من التُّجّار، والمتسببين[٢]، وقد شق علينا ذلك كثيرًا كما نعلم أن حضرتكم لا يخلصكم هذا الأمر؛ فغاية ما نريده الآن من جنابكم يا حضرة السيد أنه باتفاقنا سويًّا ننظر ما فيه حقن دماء المسلمين، وسلوك الطرق، ومداولة المواصلات بيننا وبينكم بغاية المحبة والمودة، بحسب ما يرضي الله ورسوله، وأن تأذنوا وتتكرموا بإطلاق الناس المأسورين عندكم من إسلام، ومسيحيين؛ لمناظرة عيالهم، والتوصية بهم، كما أننا شكرنا لفضلكم كثيرًا على صنيع معروفكم معهم، وإن كان حضرتكم تريد أن تكون سلطانًا على «كردفان»، فقد أعطيناها لكم؛ لتكون سلطانًا وأميرًا عليها، وأريد أن ترسلوا واحدًا سفيرًا معتمدًا من طرفكم لأجل مقابلتنا في الخرطوم، والتروي فيما هو لازم بيننا بخلوص النية، وحسن الطوية، ولأجل إعطائه ما هو لازم من عواميد ـ أعمدة ـ، وسلوك التلغراف؛ لتجديد ما سبق إتلافه بواسطة العربان، ومداومة المواصلات بيننا، ويرسل لطرف حضرتكم فرمان من لدن السلطان المعظم بتأييد حضرتكم على حكومة «كردفان»، واعلم يا حضرة السيد أني أريد أن أكون معكم بغاية المحبة والمودة، ولا أقصد إلا كل خير، ورجائي أن تتكرموا علينا برد الخطاب، والله الموفق للصواب. ١٦ ربيع الآخر ١٣٠١ هـ.

غوردون[٣]

المَهْدِيُّ يَرُدُّ: إِذَا أَتَيْتَنَا مُسْلِمًا نُرَبِّيكَ

الحمد لله الوالي الكريم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله والتسليم، وبعد: فمن عبد ربه محمد المهدي بن السيد عبدالله إلى عزيز بريطانية والخديوية غوردون

(١) يشد المسلمون الرحال قاصدين مكة المكرمة لأداء المناسك والصلاة في حرم الله تعالى، والمدينةَ النبوية للصلاة في الحرم النبوي، فإذا صاروا فيها؛ استحب لهم زيارة قبر النبي ﷺ، لكنهم لا يشدون الرحال قصدًا لزيارة القبر الشريف على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

(٢) هم صغار الحرفيين والتجار.

(٣) «منشورات المهدية»، هامش ص(٣١٩ - ٣٢٠).

باشا: وصل جوابك إلينا، وفهمنا ما فيه، والحال أنك تزعم إرادة إصلاح المسلمين، وفتح الطريق لزيارة قبر النبي ﷺ، واتصال المودة فيما بيننا وبينكم، وحل المأسورين من النصارى «والمسلمانين»، وأن تجعلنا سلطانًا على كردفان.

فأقول ـ والأمر لله ـ إني قد دعوت العباد إلى صلاحهم، وما يُقَرِّبُهُمْ من ربهم، وأن يفرغوا من الدنيا الفانية إلى دار البقاء، وليعملوا بما يصلحهم في آخرتهم، وقد كتبت إلى الحكمدارية في الخرطوم، وأنا بـ«أبا» بدعايتي إلى الحق، وبأن مهديتي من الله ورسوله، ولست في ذلك بـ «محتال»، ولا أريد مُلْكًا، ولا مالًا، ولا جاهًا، وإنما أنا عبدٌ أُحِبُّ المسكنة والمساكين، وأَكْرَهُ الفخر، وتَفَخُّرَ السلاطين؛ لما جُبِلُوا عليه من حُبِّ الجاه، والمال، والبنين، وهذا هو الذي صدهم عن صلاحهم، وأَخْذِ نصيبِهم من ربهم، فأخذوا الفانيَ، وتركوا الباقيَ، واشتغلوا بما لا يكون إلا من الفانيات، ولم يسمعوا قول الله ورسوله، ولم يذكروا خبر القرون الذين لم يُغْنِ عنهم ذلك شيئًا، وندموا على قدر الذي تنعموا به، فأيدني الله ـ تَعَالَى ـ بالمهدية الكبرى؛ لدلالتهم إلى الله ـ تَعَالَى ـ، وليتركوا العزَّ الفانيَ، والنعيمَ الفانيَ إلى العزِّ الدائِمِ، والنعيم الأبدي في دار النعيم المقيم، وقد قال المسيح ـ عليه السلام ـ: «ابنوا على موج البحر دارًا لكم»، فلا تتخذوها قرارًا، ومن ظن أنه يخوض البحر من غير بلل، فهو مغرور، وكذلك من ظن أنه يجمع الدنيا، ويريدها، ويكون له في الآخرة شأن.

فَأَنِبْ إلى الله الباقي، واخْضَعْ لجلاله، واطْلُبْ عِزَّ الآخرة، ولا تَظُنَّ أن هذه الدنيا دارٌ حتى تسعى لملكها وعزها، وكيف من يكون على خلاف سكة رسول الله يفتح زيارة قبره؟ ولم يكن النبي ﷺ ممن يرغب في زيارة الكلاب، كما ورد: «إِنَّ الدُّنْيَا جِيفَةٌ، وَطُلَّابُهَا كِلَابٌ»، ولم يَرْغَبْ في من عَبَدَ غير الله، ونسي الله، وأعرض عن كلامه، وطلب متاع الحياة الفانية.

فإن كنت شفيقًا على المسلمين، فبالأولى أشفق على نفسك، وخَلِّصْهَا من سخط

خالقها، وقوِّمْها على اتباع دين الحق، واتباع سيدنا محمد ﷺ، الذي أحيا ما اندرس من مِلَلِ الأنبياء والمرسلين، وأتى مُصَدِّقًا لما بين يديه من الكتب، فجميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لو حضروا لما سلكوا غير ملته، وكلهم يتمنون أن يكونوا من أمته، وممن حضر بَعْثَتَهُ.

فطَهِّر نفسك أولًا بالدخول في ملته، ثم أشفق على أمته بسلوك سنته، فعند هذا، فأنت الشفيق، ومِن غير هذا فما لك من المحقين رفيق، كيف، وقد قال الله - تَعَالَى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥،٥٦]. وإننا قد امتثلنا أمرَ الله، وما نتخذ وليًّا إلا الله ورسوله والمؤمنين، وعلى ذلك؛ فقد وُعِدْنَا بالغلبة؛ كما سمعت من قول الله هذا، وما دام الله يقول: ﴿هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، فلا غلبة لغيرهم ...

فإن رَجَعْتَ عما أنت عليه - من ملة غير الإسلام -، وأنبت إلى الله ورسوله، واخترت الآخرةَ - نَتَّخِذكَ وليًّا، وتكونُ من إخواننا، وتكون المودة المطلوبة عند الله ورسوله، وتكون ممن امتثل أمر الله ورسوله بعد هذه الآيات، فاستحق الوعد والبَشارة في قوله - تَعَالَى -: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾ [المائدة: ٦٥]، فبعد هذا تتصل المودة والمحبة فيما بيننا وبينك، وتكون ممن عمل بالقرآن والتوراة والإنجيل، وتكون قد اتبعت - باتباع سيدنا محمد ﷺ - عيسى وجميع الرسل والنبيين، وحُزْتَ الخير الأبدي، وإلا حيث علمت أن حزب الله - الذين وليهم الله ورسوله والذين آمنوا - هم الغالبون، فاعلم أن حزب الله واصل إليك، ومزيلٌ لك عما شاركت به الله خالقك، فادعيت ملك عباده وأرضه، مع أن الأرض لله، يورثها من يشاء من عباده الصالحين.

وأما المسلمانيون والمسيحيون الذين دعوت إلى إطلاق سراحهم، فأنا أريد لهم

الصلاح والنفع عند الله، وفي دار الأبد، كما أريده لك، ولكافة عبادة الله، فلا أبعدهم من جنتهم إلى محنتهم؛ فإن الله قد أيدني رحمة للعباد؛ لأنقذهم من الهلاك الذي وقعوا فيه.

وقد أيدني الله ـ تَعَالَى ـ بالأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين، وجميع الأولياء والصالحين؛ لإحياء دينه، وقد بشرني النبي ﷺ بأن جميع من يلاقيني بعداوةٍ يخذله الله ويهزمه.. فلا تغترَّ فَتَهْلِكَ؛ كما هلك إخوانك، فافهم وسَلِّم تَسْلَمْ ...

وأما الهدية التي أرسلتها لنا فعلى حسب نية الخير، فجزاك الله خيرًا، وهداك إلى الصواب، واعلم أنه كما كتبنا لك أنا لا نرغب متاع الحياة الدنيا وزينتها، وإنما هي قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب، وهاهي عائدة إليك مع ما نرغبه من اللباس لأنفسنا، وأصحابنا[١] الذين يريدون الآخرة، ويرغبون فيما عند الله من الخير الباقي الأبدي.

ثم إن مثل هديتك هذه عندنا كثير، ولكن أعرضنا عنها؛ طلبًا لما عند الله، وأقول لك في ذلك كما قال سليمان ـ عليه السلام ـ لبلقيس: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٦، ٣٧].

واعلم أنك إذا أتيتنا مسلمًا نربيك، فنريك من النور ما يطمئن به قلبك، ويزول به طمعك في الدنيا وما فيها، وبعد هذا البيان، فإن اهتديت، وسلمت لي، واتبعتني، حزت شَرَفَيِ الدنيا والآخرة، وفزت بأجرك وبأجر جميع من اتبعك، وإلا هلكت، وكان عليك إثمك، ومثلُ آثام جميع من اتبعك[٢].

---

(١) وقد كان المهدي أرفق مع هذه الرسالة (كسوة الزهاد أهل السعادة الكبرى، الذين لا يبالون بما فات من المشتهيات؛ طلبًا لعالي الدرجات؛ وهي: جُبة، ورداء، وسراويل، وعمامة، وطاقية، وحزام، وسُبْحَة؛ فإن أنبت إلى الله، وطلبت ما عنده، لا يصعب عليك أن تلبس ذلك، وتتوجه لدائم حظك)، اهـ. من «منشورات الإمام المهدي»، (١١٧/٢).

(٢) «السابق»، (١٠٩/٢)، «منشورات المهدية»، ص(٣١٩ - ٣٢٧).

جُورْدُون يُهَدِّدُ وَيَتَوَعَّدُ

من غوردون باشا والي السودان إلى محمد أحمد المتمهدي:

وصلني كتابك الركيك العبارة، العاري عنَ المعنى، الدال على سوء نيتك، وخبث طويتك، وعن قريب سَتُبْلَى بجيوشٍ لا طاقة لك بها، وتكون أنت المسئولَ أمام الله عما يُسْفَكُ من الدماء؛ كما أنك أنت المسئولُ الآن عمن أعميتَ قلوبهم، وغَشَّيْتَ بصائرهم، ويَتَّمْتَ أطفالهم، وخَرَّبْتَ ديارهم، وكنت لا أرى حاجة إلى مخاطبة رجل مِثْلِكَ جاحد النعمة، عادم الذمة، لكني تعلقت بأذيال الأمل، راجيًا من الله ـ عز وجل ـ أن يتجلى على فكرتك الخامدة، فتلقى النصيحة بيد القبول، وتعلو متن سلطنةٍ مَكَّنْتُكَ منها، وكان دون نيلها خَرْطُ الْقَتَادِ، وهاأنا مستعدٌ لقدومك، ومعي رجالٌ أقطع بهم أنفاسك، والعاقل من تدبر، والسلام[1].

غوردون

المَهْدِيُّ يَرُدُّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾

من العبد المعتصم بمولاه محمد المهدي بن عبدالله إلى غوردون باشا ـ هداه الله قبل أن يتلاشى ـ آمين:

نُعْلِمُكَ أن جوابك رَدَّ الْمُحَرَّرِ منا وصلَ إلينا، وفَهِمْنَا مضمونه، وقد عذرناك في عدم إذعانك وإجابتك لنا بالطاعة؛ كما طلبنا منك؛ وذلك لأنك لم تَدْرِ الحقيقة التي نحن عليها، وبحسب مقامنا، ودلالتنا إلى الله، وشفقتنا على جميع خلق الله، حتى من هو مثلك، لم يَطِبْ قلبنا بصرف النظر عنك، ولا زلنا ندارجك عسى الله أن يهديك إلى سواء السبيل؛ فأجب داعي الله، واغتنم سلامتك من الشر الوبيل، فقد رأيت ما حل

(١) «جغرافية وتاريخ السودان»، ص(٧٨٣)، نقلًا عن «الأصول الفكرية»، ص(٢٠٢ - ٢٠٣).

ونزل، ولا زلت ترى، ولا طاقة لك ولا لأعوانك بحرب جند الله ـ عز وجل ـ، وقد ذكرت أن «عبدالقادر ولد أم مريوم» حبيبك، وتقبل قوله ونصيحته، وطلبت إرساله إليك، فعلى ماذا؟ هل أنت منيب إلى الله؟ وقصدك التسليم لنا على يد المذكور؟ أم أنت على تصميمك في إعراضك ومعاداتك لربك؟ فأفدنا لنعلم طلبك له هو على أي الوجهين، ونرسله لك إن رأينا في ذلك صلاحًا للدين.

وأقول لك: إن عزة الإسلام خيرٌ لك، وأبقى لدوام احترامك في الدارين؛ فَتَحَلَّ بها إن عقلت.

«فإن أراد الله سعادتك، وقبلت نصحي، ودخلت في أماننا، وضماننا، فهو المطلوب، وإن أردت أن تجتمع على الإنجليز الذين أخبرنا رسول الله بهلاكهم، نوصلك إليهم، فإلى متى تكذيبنا، وقد رأيت ما رأيت؟ وقد أخبرنا رسول الله بهلاك من في الخرطوم قريبًا، إلا من آمن وسَلَّمَ، يُنَجِّيهِ الله؛ ولذلك أحببت لك ألا تهلك مع الهالكين؛ لأنا قد سمعنا مرارًا فيك الخير، ولكن على قدر ما كاتبناك للهداية والسعادة ما أجبتنا بكلام يؤدي إلى خيرك؛ كما نسمعه من الواردين والمترددين، والآن ما يئسنا من خيرك وسعادتك، وسنكتب لك آية واحدة من كتاب الله؛ عسى الله أن يُيَسِّرَ هدايتك، وطالما كاتبناك لترجع إلى وطنك، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[1] [النساء: ٢٩].

* * *

(١) «منشورات الإمام المهدي»، (٢/٢٥١، ٢٥٣).

صَلَفٌ وغُرُورٌ حَتَّى النِّهَايَةِ

«المهدي يزحف إلى العاصمة[(١)]، وجيوشه المُظَفَّرَةُ تهتف مُهَلِّلَةً، ولكنه - أي المهدي - لا يريد حربًا، إنه يريد أن يدخل المدينة صلحًا، فكتب إلى غوردون في اللحظات الأخيرة قائلًا: «لولا مراعاة حسم دماء المسلمين؛ لضربت صفحًا عن مخاطبتك، فسلم تسلم أنت ومن معك، وقد نصحتك وأنصحك، وإلا فالحرب بعد ذلك»[(٢)].

فكتب إليه غوردون قائلًا: «لست أبالي بك ولا بجيوشك، سترى ما يحل بك؛ ففيَّ الكفاءة لأن أُعَرِّفَكَ قدرك، ولا تَغُرَّنَّكَ كثرَةُ أنصارك»[(٣)].

وأقبل التاسع من ربيع الآخر سنة ١٣٠٢ هـ، الموافق ٢٦ من يناير ١٨٨٥م، فأمر غوردون أن تُعْزَفَ موسيقى الجيش، وكأنما أحس الرجل بِدُنُوِّ أجله، فأراد أن يسمع أغنية الوداع، ولكن الجيش الذي يريد أن تُعزف موسيقاه لا يقدر أفراده على التنفس، لقد أجهدهم الحصار، والجوع، واليأس، وأصبح الموت أمنية يتمناها الكثيرون من أفراد هذا الجيش...

ما هي نهاية كل هذا؟ لقد وجه غوردون هذا السؤال إلى نفسه، إنها ولا محالة قدرٌ مكتوب في سِجِلِّ الأزل أن الخرطوم سَتُؤْخَذُ عَنْوَةً، ولكنني لن أُنَالَ حيًّا، ثم أمر بوضع الديناميت في أقبية القصر، كي يُنْسَفَ بمن فيه إذا لزم الأمر، ولكنَّ الانتحار جريمة، إنها أكبر هزيمة يتعرض لها بطل، وقد كان غوردون في نظر نفسه بطل الأبطال، فكيف ينهزم؟!

لقد انهارت قِلَاعُ الظلم، وسقطت الحصون في يد الأنصار حصنًا بعد حصن،

(١) كان جوردون قد طلب إرسال حملة عسكرية؛ للقضاء على حركة المهدي، فجهزت بريطانيا الحملة، وأرسلتها إلى السودان، ولكن المهدي سارع إلى مهاجمة الخرطوم قبل وصول الحملة؛ «الموسوعة الحركية»، (٢٣١/١).

(٢) ، (٣) «جغرافية وتاريخ السودان»، ص(٨٤٧)، نقلًا عن «الأصول الفكرية»، ص(٢٠٥).

وتلاشى كل أثر للمقاومة في صفوف العدو، وحانت اللحظة الرهيبة بين غوردون وضحاياه في ساحة القصر.

كان غوردون واقفًا عند رأس السلم بثيابه العسكرية، وما كاد يرى جموعَ الأنصار متجهةً نحوه؛ حتى صاح فيهم قائلًا[1]:

ـ أين محمد أحمد؟

إن غوردون لم تفارقه كبرياؤه حتى هذه اللحظة، وهو موقف شجاع لا يُلَامُ عليه في الحقيقة.

ـ يَا مَلْعُونُ، هذا يومك!

وقذف أحد المهاجمين بحربة لتستقرَّ في الصدر، وسقط القائد الذي لا يقهر مُضَرَّجًا بدمائه على سُلَّمِ القصر[2].

وكانت نهاية فصل من فصول المأساة التي تعرض لها الإسلام في القرن التاسعَ عشرَ، وبداية فصل جديد من فصول تلك الغارة التي شُنَّتْ على الإسلام والمسلمين في كل أرض وقطر؛ فقد تناولت الصحف في إنجلترا وأوربا مأساة الخرطوم بالتعليق والوصف، واتسمت لهجتها بالغضب، والتهديد، والعنف، وَحَرَّضَتْ حُكُومَاتِهَا على العمل، والأخذ بالثأر.

وكان يومًا حزينًا في لندن؛ فقد مات «شهيد المسيحية» البطل، وتوقفت ساعة (بج بن) عن العمل، وكانت الملكة فكتوريا ـ كما يصف سكرتيرها ـ في حالة فظيعة: كانت تَهمُّ بالخروج حين تلقت برقية «وفاة غوردون»، فخرجت إلى مسكني على

(١) «جغرافية وتاريخ السودان»، ص(٨٦٧)، نقلًا عن «الأصول الفكرية»، ص(٢٠٦).

(٢) وكان ذلك في ٢٦ يناير ١٨٨٥م، وحزَّ أتباع المهدي رأس «جوردون»، وحملوها على حربة، وبعثوا به إلى المهدي، الذي كان يأمل إلقاء القبض عليه حيًّا؛ ليبادل به «أحمد عرابي» الذي أجبر على مغادرة مصر إلى المنفى. انظر: «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة»، (٣١٥/١).

مسافة ربع ميل، وسارت إلى حجرتي شاحبةً تَرْتَجِفُ، وقالت لزوجتي - التي جزعت لمرآها -: «فات الآوان» ...

أجل، فات الآوان، وتحرر السودان، ورفرفت أعلام المهدية فوق ربوعه في كل مكان ...[١]

لقد كان سقوط الخرطوم بين يدي المهدي آنذاك إيذانًا بانتهاء العهد العثماني على السودان، وانقاد السودان كله للمهدي من يومها، ولم يَبْقَ له منافس.

وآثر المهدي المنتَصِرُ أن لا يسكن مساكن الذين ظلموا في الخرطوم، فسار بناقته من «أبي سعد» إلى «أم درمان»، وحيث حطت رحالها بنى مسكنه ومسجده، متيمِّنًا بذلك بما فعله الرسول ﷺ[٢]، وسَمَّى أم درمان «البقعة المباركة»، وجعلها عاصمة الدولة المهدية[٣].

ومضى المهدي في تأسيس دعائم دولته الوليدة، فأقام في المنطقة التي امتد إليها نفوذه نظامًا إسلاميًّا، طَبَّقَ تعاليم الإسلام في جميع نواحي الحياة، فَعَيَّنَ قضاةً من صفوة العلماء الأتقياء، ونوابًا عنه في الأقاليم، ممن يثق بصلاحهم وعلمهم، وعهد إليهم مباشرة القضاء، والأحكام، والفصل بين الناس، ونظم الشئون المالية، وعيَّنَ جباة لجمع الزكاة، وقَسَّمَ الغنائم كما تقضي الشريعة الإسلامية، وجعل بيت المال موردًا لرزق المسلمين، يُعْطَى كل واحد منهم بمقدار حاجته هو وعائلته، ولم يتقيد بمذهب خاصٍ في أحكامه، ولكنه ادَّعى الاجتهاد، وطَرَحَ العملَ بالمذاهب الأربعة، وقال: «إن مذهبه هو الكتاب والسنة، والتوكل على الله»، وكان قضاته يرجعون إلى ما كان عليه المسلمون في حياتهم الأولى، ثم أرسل إلى خديوي مصر يدعوه إلى تطبيق أحكام الإسلام، وعدم اتخاذ الكافرين أولياء[٤].

---

(١) «الأصول الفكرية»، ص(٢٠٥ - ٢٠٧).
(٢) «ندوة الفكر الإسلامي المعاصر»، ص(٣٦٥).
(٣) «السابق»، ص(٣٩٢).
(٤) انظر: «الموسوعة الحركية»، (١/٢٣٣ - ٢٣٤).

مِنَ المَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ إِلَى خِدِيوِي مِصْرَ

«من العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن عبدالله إلى والي مصر:

لا يخفى على من نَوَّرَ الله بصيرته، وشَرَحَ صدره، أن الدين الذي يكون المتمسك به ناجيًا عند الله هو دين الإسلام، الذي جاء به نبينا محمد ﷺ، ونزل به القرآن من الملك العلَّام، قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وما سوى ذلك من الأديان فضلال يدعو إليه الشيطان حزبَهُ ليكونوا من أصحاب السعير.

ومن منحه الله عقلًا يوازي به بين الخبيث والطيب، لا ينبغي له أن يُصَرِّفَهُ إلا فيما ينتج خلاصه عند الله يوم تزل الأقدام، ويشيب الطفل، ويشتد الزحام، وإلا كان أسوأ حالًا من البهائم؛ حيث أضاع حكمة تركيب العقل فيه، ولا سبيل إلى السلامة عند الله إلا باتباع دينه، وإحياء سنة نبيه وأمته، وإماتة ما حدث من البدع والضلال، والإنابة إليه ـ تَعَالَى ـ في كل الأحوال، وقد تأكد ذلك في هذا الزمان، الذي عم الفساد فيه سائر البلدان؛ فإن دسائس أهل الكفر التي أدخلوها على أهل الإسلام، وضلالاتهم التي مَكَّثوها من قلوب الأنام، قد أفضت إلى اندراس الدين، وعَطَّلَتْ أحكام الكتاب والسنة بيقين، فصارت شعائر الإسلام غريبة بين الأنام، وتراكمت الظلمات وانتشرت البدع، وأبيحت محارم الإسلام، واشتد الكرب على أهل الإيمان، فصار القابض على دينه كالقابض على الجمر؛ لتراكم البغي والعدوان.

فعند ذلك أظهرني الله طِبْقَ الوعد الصادق رحمةً لعباده؛ لأنقذهم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، وأَدُلَّهم إلى الله على هدى منه وتبيان، وطَوَّقَني بالخلافة الكبرى على المهدية، وخَلَعَ عَلَيَّ حُلَلَهَا البهيةَ، وبَشَّرَنِي سيد الوجود ﷺ بالنصر على كل من يعاديني، ولو كان الثَّقَلَيْنِ، وبأن من يقصدني بعداوة يخذله الله في الدارين، وقَلَّدَني

سيف النصر، وأيدني بقذف الرعب في قلوب أعدائي يسعى أمامي أربعين ميلًا، وأخبرني بأني أملك جميع الأرض، وبأن من شك في مهديتي، فقد كفر بالله ورسوله، ونفسُه ومالُه غنيمةٌ للمسلمين، وبأن الله قد أيدني بالملائكة الكرام، وبالجن أحياءً وأمواتًا. وهكذا من البشارات والعجائب التي يطول شرحها، وكل ذلك بحضرة الملائكة المقربين، والخلفاء الأربعة، والخضر ـ عليه السلام، وما كنت أترقب هذا الأمر لنفسي، ولا سألت الله إياه، بل كنت أسأله أن يجعلني مُعِينًا لمن يقوم به، فلما أراد الله، وحتم الأمر عليَّ من سيد الأكوان، قُمْتُ بأعباء هذه الدعوة، واعتصمت بالله، وتوكلتُ عليه، وأخبرتُ الحكمدارية بأني المهدي المنتظر، وقد كان بها محمد رءوف، وما تركت لأهلها في إيضاح هذا الأمر شيئًا.

وأنا في انتظار الأخبار، وتسليم الأمر لله الواحد القهَّار، فما كان منهم إلا أن ضربوا عما أخبرتهم به صَفْحًا، وطووا عن قبوله كَشْحًا، وبادروني بالمحاربة من غير روية ولا تثبت في هذا الأمر الديني، الذي جئتهم به من خير البرية، فأيدني الله عليهم كما وعدني، وهكذا صارت جيوشك تأتيني ثلة بعد ثلة، وأقدم لهم الإنذارات ولم تنفعهم، والله يؤيدني، وينصرني عليهم كما وعدني، ويقطع دابرهم، إلى أن قَلَّتْ حيلتك، وتلاشى أمرك، فَسَلَّمْتَ أمرَ أمةِ محمد ﷺ لأعداء الله الإنجليز، وأحللت لهم دماءَهم، وأموالهم، وأعراضهم، فجاء الإنجليز بكبرهم وخيلائهم، واعتمادهم على غير الله، فلما سول الشيطان لهم، واستولى على إدراك «غوردونهم» بالخرطوم، وأَيِسْتُ من هداية أهله، وعَلِمْتُ أن تَكْرَار الإنذارات لا ينفعهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وصاروا مثل من قال الله ـ تَعَالَى ـ في شأنهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، عجل الله بفتحه، وإهلاك من فيه، وأحرقت النار أجسادهم عيانًا؛ كالذين من قبلهم؛ إظهارًا للحقيقة، وتعجيلًا للعقوبة، وصدق عليهم قوله ـ تَعَالَى ـ : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤].

ثم أنذرت الإنجليز، فلووا رءوسهم، فوجهت إليهم طائفة من الأنصار، فَقَذَفَ الله في قلوبهم الرعب فولوا هاربين، بعد أن أهلك الله منهم من أهلكه، وشتت شملهم، وهذا كله غير خاف عليك، ولا زال حزب الله مقتفيًا أثر باقيهم، وعن قريب يُحِلُّ الله من الدمار ما يكون عبرة لمن اعتبر. هذا، وإن المؤمن المُصَدِّقَ بوعد الله لا يرى لجميع ما في الحياة الدنيا من الفانيات قيمة، ولا يأسف على ما فاته من ملكها الذي مآله إلى الزوال، وعظيم النكال، وإنما يكون مطمح نظره إلى ما عند الله من النوال، في دار الكرامة والإفضال؛ فإن الدنيا لو بقيت للأول، لم تنتقل للآخر، ومن هنا تعلم أن هذا الملك لم يصل إليك إلا بموتٍ أو عزلٍ من كان قبلك، وهو خارجٌ من يدِكَ بمثل ما صار إليك!

وحيث كان الأمر كذلك، فلا ينبغي لك - إن كنت ترجو من الله نعيم دار الأبد - أن تأسف على ما فاتك من الدنيا، ولو كان الدنيا بحذافيرها؛ فَدَقِّقِ النظر، واجمع عليك فكرك، وتدارك نفسك، وَاسْعَ فيما يُنَجِّيكَ عند ربك، إذا تمثلت بين يديه، وسألك عما جرى منك، وسَلِّمِ الأمْرَ إليه تَسْلَمْ.

وما كان يحسن منك أن تتخذ الكافرين أولياء من دون الله، وتستعين بهم على سفك دماء أمة محمد ﷺ .

ألم تسمع قول الله - تعَالَى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله - تعَالَى -: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقوله - تعَالَى - : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران: ١٠٠].

فإذا كنت ممن ينظر بعين بصيرته، ولا يُؤْثِرُ متاع الدنيا الخسيس على نعيم آخرته،

فاعتبر بذلك، وبادر إلى النجاة والسلامة المُعْتَبَرَةِ، وهي سلامة الإيمان، ونَزِّهْ نفسك من أن تكون في أسر أعداء الله دائمًا، ولا تُهْلِكْ من كان معك من أمةِ محمد ﷺ، واغْسِلْ ما جرى منك بدموع الندم، ولا تَكْتَرِثْ بجاه الدنيا الفاني، ولا بملكها الزائل؛ فإن لله دارًا خيرًا منها، وقد أَعَدَّهَا لعباده المتواضعين، وإياك والركونَ إلى علماء السوء الذين أسكرهم حُبُّ الجاه والمال، حتى اشتروا الحياةَ الدنيا بالآخرة، فَيُهْلِكُوكَ؛ كما أهلكوا مَنْ قبلك، ولا تَغْتَرَّ بقوة حصن بلدك، وكثرة أسلحتك وعُدَدِك الظاهرية، ومظاهرة دول أهل الكفر لك؛ فإنها لن تغني عنك من الله شيئًا، وكم أهلك قبلك من الملوكِ أهْلِ الحصونِ المنيعة، ومن هو أشد منك قوة، وأكثر جمعًا، لَمَّا بَغَوْا وعَتَوْا في الأرض مفسدين.

وليكن في علمك أن أمرنا هذا ديني مبنيٌّ على هدًى من الله، ونورٍ من رسول الله ﷺ، ومؤيد من عند الله بجنود ظاهرة، وباطنية، وما قصدنا منه إلا إحياء الدين، وإظهار آثار الأنبياء والمرسلين، ولا نريد مع ذلك ملكًا، ولا جاهًا، ولا مالًا، فإن نوَّر الله بصيرتك، وخالفت النفس الأمارة بالسوء، وقَبِلْتَ هدينا هذا، وأنبت إلى الله بنية خالصة، فعليك أمان الله، وأمان رسوله، وأماننا، وما بيننا وبينك إلا المحبة الخالصة لوجهه ـ تَعَالَى ـ، ونكون جميعًا يدًا واحدة على إقامة الدين، وإخراج أعداء الله من بلاد المسلمين، وقطع دابرهم، واستئصالهم إلى أن ينيبوا ويسلموا.

وقد حررت لك هذا الكتاب، وأنا بالخرطوم شفقةً عليك، وحرصًا على هدايتك، فأرجو الله أن يشرح صدرك لقبوله، ويدلك على صلاحك، ورشادك في الدارين، وهاأنا قادم إلى جهتك بجنود الله عن قريب ـ إن شاء الله ـ تَعَالَى ـ؛ فإن أمر السودان قد انتهى، فإن بادرتني بالتسليم لأمر المهدية، والإنابة إلى الله رب البرية، فقد حزت السعادة الأبدية، وأمنت على نفسك، ومالك، وعرضك، أنت وكافة من يجيب

دعوتنا معك، وإن أبيت بعد هذا إلا الإعراض عن طريق الفلاح والرشاد، فإنما عليك إثمك، وإثم من معك، ولا بد من وقوعك في قبضتنا، ولو كنت في بروج مشيدة، وهذا إنذار مني إليك، وفيه الكفاية لمن أدركته العناية، والسلام على من اتبع الهدى»(١).

أَصْدَاءُ الدَّعْوَةِ المَهْدِيَّةِ خَارِجَ السُّودَانِ

لا شَكَّ أن انتصاراتِ الثورةِ المهدية على الحكم التركي المصري، وما أفرزته من مقاومة القوى الاستعمارية، قد أحدث دويًّا عظيمًا في كثير من الأقطار الإسلامية، ولعل خير ما يعكس هذا الصدى ما جاء على لسان الخليفة «عبدالله» في رسالة «لحياتو بن سعيد» حفيد «عثمان بن فودي» في «نيجيريا» بتاريخ ١٤ صفر ١٣٠٣هـ، ١٢فبراير ١٨٨٦م: «وقد حضر بطرفنا بعد انتقال المهدي أمة من الناس من الجهات النائية: البعض من الهند .. وبخارى، ومكة المكرمة، ومن بني تميم، ومن الحبشة وتونس»، ويضيف في رسالة أخرى: «ومن إستنبول والجبرتة، وكلهم قد أخذوا البيعة عنا، واندرجوا في سلك الأصحاب، وصاروا من أنصار الدين، والبعض قد كملت تربيته، وتنور قلبه، وحررنا المكاتبات إليه، وإلى أهالي جهته؛ لدعوته إلى الله، ووجهنا إليهم رسلًا من طرفنا».

بدأ تطلع «المهدي» للخروج بالدعوة من إطارها المحلي إلى رحاب العالم بعد فتح الأبيض مباشرة؛ فقد جاء في منشور بتاريخ ١٠ ربيع الأول ١٣٠٠هـ - ١٩يناير١٨٨٣م، أن الرسول ﷺ : قد بشَّر «المهدي» بأنه سيصلي في مسجد «بربر»، ثم المسجد الحرام بمكة، وفي مساجد المدينة المنورة، ومصر، وبيت المقدس، وبغداد، والكوفة، وفي هذه البشرى حَثُّ المهدي على ضرورة نَشْرِ دعوته على نطاق عالمي.

من «الأبيض» بدأ المهدي بمحاولة استقطاب بعض الزعماء للانخراط في الدعوة؛

(١) «منشورات الإمام المهدي»، (٢/٢٧٧).

مثل سلطان ودَّاي، «ومحمد المهدي السنوسي»، «وحياتو بن سعيد»[(١)].

وواصل الخليفة «عبدالله» اهتمام «المهدي» بأواسط بلاد السودان، فخاطب سلاطين تلك المنطقة، وعين بعض من استجابوا عُمَّالًا له، كما استعمل الأنصار من أبناء البلاد الأخرى في نشر الدعوة، وقد وجدت الدعوة استجابة كبيرة في شمال نيجيريا.

ولم تقف اتصالات المهدي على أواسط بلاد السودان، وليبيا، بل شملت بلاد المغرب الأقصى، وجاءت المبادرة من بعض المغاربة القاطنين في مصر، ممن سمعوا بدعوة «المهدي»، وآمنوا بها، ثم أرسل المهدي إلى والي فارس، وخاطب أهل مراكش؛ للانخراط في دعوته، وحثهم على الجهاد في سبيل الله.

أما السنوسي، فلم يُقِرَّ لمحمد أحمد بالمهدية، بل تجاهل الرد عليه، وعدَّ ادِّعاءه المهدية تخريفًا[(٢)]، وأما «حياة بن سعيد» حفيد الشيخ «عثمان دنفديو»؛ فأجابه بالرسالة التالية:

«إلى سيدنا، وقدوتنا، ووسيلتنا إلى ربنا، خليفة رب العالمين، ونجل سيد الأولين والآخرين، ورحمة الله المهداة للمؤمنين، والحجة الواضحة على المنكرين، وسيفه المسلول على الكافرين، ناشر العدل بأقصى البلاد على رغم أنوف الظالمين، الذي ننتظره كانتظار «شوال»[(٣)] من الصائمين، سيدنا محمد المهدي المنتظر بن السيد عبدالله الحسني، وابن ساداتنا إلى سيد الوجود ﷺ وعليهم أبرك تحية، وأطيب سلام بغاية رضا، وأعلى إكرام.

وبعد: فقد وصلنا كتابك الكريم، وتلقيناه بأسرع ترحيب، وأيقن تسليم، وقد رَوِينا به بعد ظمإٍ، وحيينا به بعد موت، واهتدينا به بعد ضلالة، وقمنا على بصيرة قائلين

---

(١) انظر: «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص(٣٩٤ - ٣٩٥).

(٢) انظر: ص (٥١١)، وما بعدها.

(٣) لعله يعني عيد الفطر أول شوال.

بلسان الحال، والمقال: الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لِنَهتديَ لولا أن هدانا الله.

لقد جئت يا سيدي بالحق، وزهقت الباطل، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦].

وقد أتيتنا بما سيجعل الله به كلمةَ الذين كفروا السفلى، وكلمةُ الله هي العليا، فآمنا بك مخلصين، ومنقادين لك ظاهرًا وباطنًا، وبايعناك على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، معتقدين، بل موقنين، أنَّ يَدَكَ الكريمة نائبة عن يَدَي الحق التي فوق أيدينا - إن شاء الله - تَعَالَى -، وتركنا كل ما نحن فيه؛ توفيةً لما عاهدتنا، راغبين القرب منك في الدنيا والآخرة، ولو كنا ظالمين، وإن متنا على بيعتك، فلله الحمد والشكر على هذه النعمة التي لا نعمة فوقها، وقد رأينا الكرامات، وصدقنا، ووقفنا على الآيات، واعتبرنا، وأطعنا الأمر.

وها نحن يا سيدي مهاجرون إلى الله ورسوله، وإليك، وأرجو أن نكون أنصار الله ورسوله، وأنصارك - إلى أن يقول -: وما خرجت من بيتي وأهلي - يا سيدي، وخليفة ربي - إلا لكثرة ذنوبي، وسوء أخلاقي، راجيًا لرحمة ربي، قاصدًا بيته، وقبر نبيه، لعله برحمته الواسعة أن يغيثني بلقائك، وما أقمت في ذي البلاد إلا لانتظارك، وقد بايعتك أنا ووالدي، وجميع من تعلق بي قبل ظهورك الحَسَنِيِّ، وشأننا مع شأنك معلومٌ عندنا، سيما قد أوصانا جَدنا الشيخ عثمان بن فودي رضي الله عنه بالهجرة إليك، ونصرتك، ومعيتك إذا ظهرت، ونحن معك قلبًا وقالَبًا في نصر دين الله، وسنة رسول الله - إن شاء الله -، إلا من سبق عليه القول والعياذ بالله»[1].

أقام المهدي في «أم درمان» يجمع الجموع، ويجند الجنود؛ لأجل التغلب على الديار المصرية، وأرسل مكاتيب من طرفه للخديوي، والسلطان عبدالحميد، وملكة إنكلترة يشعرهم بدولته، ومقر سلطنته، وضَرَبَ النقود[2].

(١) «منشورات المهدية»، ص(٣٣٤).
(٢) «الأعلام»، للزركلي، (٦/ ٢٠).

وأصدر بعض المنشورات يبين فيها كيفية أداء الوضوء، والصلاة، والمناجاة، وتناول فيها بعض القضايا الاجتماعية؛ كالمساواة بين الغني والفقير، فألزم أنصاره لبس الجبة المرقعة، ومنع النساء من لبس الحلي، وأمر البدو بحلق شعر الرأس، ودعا إلى تخفيض نفقات الزواج، وإبطال الغناء والرقص، ومنع البكاء وراء الميت، وأبطل السحر، وكتابة الأحجبة، وحَرَّم زيارة أضرحة الأولياء، وشرب الخمر، وتعاطي التبغ، ونهى عن خروج النساء إلا لحاجة، وحثهن على طاعة أزواجهن، وستر أنفسهن، وقضى بعقوبة من تقف حاسرة الرأس تعزيرًا.

وفي عهد الخليفة عبدالله طبق نظام قضاء المظالم، وعرف نظام الحسبة الذي يعتمد على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحث الناس على أداء الشعائر، وشدَّد على صلاة الجماعة لبث روح الوحدة والإخاء بين أتباعه[١].

وأقام المهدي حكومة أحيا فيها أجهزة خلافة الراشدين؛ من بيتِ مالٍ، ودارٍ للقضاء، وقام بجمع الزكاة، وجبي العشور، وتوزيع الفيء، والغنيمة، على أساس شرعي، ثم إنه قَسَّمَ وحدات الجيش، أو راياته، على نمط إسلامي، وأصبح هو على رأس الدولة؛ باعتباره خليفة رسول الله ﷺ، يليه خلفاؤه الأربعة، وعماله، وأمراء الجيش، وغيرهم من العمال الذين رتبت وظائفهم على نهج إسلامي.

لم يُعَمَّرِ المهدي طويلًا بعد فتح الخرطوم، فقد دخل في خلوة، وداهمه المرض[٢]، وقضى نحبه في «أم درمان» في التاسع من رمضان ١٣٠٢ هـ، الموافق ٢٢ يونيو ١٨٨٥م، وعمره إحدى وأربعون سنة، ودُفِنَ في المكان الذي قُبِضَ فيه[٣]، وكان قد أوصى بالخلافة من بعده لعبدالله التعايشي.

---

(١) «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص(٣٩٣ - ٣٩٤)، بتصرف.

(٢) «السابق» ص(٣٦٥).

(٣) «الموسوعة الميسرة»، «(٣١٥/١)».

خِلَافَةُ التَّعَايشِيِّ وَنِهَايَةُ الحَرَكَةِ المَهْدِيَّةِ

قاد الحركة المهدية بعد مؤسسها عبدُاللَّه التعايشي، وسار على نهجه، فكتب إلى الخليفة السلطان عبدالحميد وأهالي نجد والحجاز[١]، وإلى سلاطين غرب السودان، ونجح في بعض حروبه مع الحبشة، إلا أنه آثر أن يكرس جهده لمواجهة الخطر الوافد من الشمال[٢].

اعتزم التعايشي غزو مصر تحقيقًا لأحلام سلفه، وتوجهت حملة لغزو مصر، يقودها رجل من كبار قواده هو عبدالرحمن النجومي، وهو من الجعليين، وقد انتصر المصريون على النجومي في توشكى[٣].

كونت بريطانيا جيشًا إنكليزيًّا ـ مصريًّا بالاتفاق مع الخديو عباس حلمي الثاني عام ١٨٩٦م، وضعته تحت قيادة الجنرال «كتشنر» البريطاني، وكان الجيش مسلحًا ببنادق سريعة الطلقات، ورصاصات متفجرة، وأحدث ما أنتجته المصانع الحربية البريطانية من مدفعية، وقام سلاح المهندسين الإنكليزي بإنشاء خطوط سكة حديد؛ ليربط جنوب مصر بشمال السودان، وتم إنزال سفن مدرعة في النيل، ومدفعية عائمة؛ لضرب الأهالي والبيوت في السودان[٤].

وفي ٨ أبريل ١٨٩٨م، وبين المتمة وأم درمان التقت قوات كتشنر مع قوات التعايشي يقودها محمد أحمد وعثمان دقنة، وحصدت المدافع الإنكليزية القوات

---

(١) وذلك في شوال ١٣٠٣هـ/يوليو ١٨٨٦م حيث كتب إلى عدد من قبائل الحجاز يحرضها على الجهاد، وسمي الخليفة عبدالله زعيم قبيلة الأحامدة عاملًا له على قبائل الحجاز، كما عين الأمير «عبدالله بن فيصل بن سعود» الذي أبدى حماسه للمهدية عاملًا على نجد، ولكن صمت المصادر عن تلك الاتصالات يوحي بالشك في مصداقيتها، أو أن نتائجها العملية لم تكن كبيرة. انظر: «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص (٣٩٥).

(٢) «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص (٣٩٦).

(٣) «أطلس تاريخ الإسلام»، ص (٣٣٨).

(٤) «العذاب الذي لاقاه المسلمون على أيدي الغرب»، ص (١٤٨).

السودانية في معركة «كرري» التي تعرف ـ أيضًا ـ بمعركة «أم درمان»[(١)]، وفيها قتل أحدعشر ألف سوداني، وجرح ستةعشر ألفًا[(٢)]، وفر التعايشي، ولكنه قتل في معركة «أم دبيبكرات» عام ١٣١٧هـ[(٣)].

● ويذكر العميد كامل الشرقاوي أنه:

في ٢ سبتمبر ١٨٩٨م اقترب جيش «كتشنر» من أم درمان عاصمة المهديين، وهناك وقعت مذابح فريدة من نوعها في تاريخ الحروب في ذلك الوقت، حيث فتحت القوات البريطانية الرشاشات بطريقة وحشية على جنود المهدي، فقتلت عشرين ألف جندي، وقفوا يصدون الرصاص بصدورهم بقصد منع تسليم وطنهم السودان إلى الإنكليز الذين استولوا على أم درمان[(٤)]. ونبش «كتشنر» قبر المهدي، وبعثر هيكله، وبعث بجمجمته إلى المتحف البريطاني[(٥)] انتقامًا لمقتل «جوردون»[(٦)].

وبذلك تم القضاء على الدولة المهدية، ودخل كتشنر وقواته الخرطوم، واستقر فيها حاكمًا، وبدأ عصر جديد في تاريخ السودان[(٧)].

---

(١) وفي معركة «أم درمان» هذه كان «ونستون تشرشل» مراسلًا حربيًّا مع الجيش البريطاني، انظر: «الأصول الفكرية»، ص (٩).

(٢) «أطلس تاريخ الإسلام»، ص (٣٣٧).

(٣) «التاريخ الإسلامي»، للأستاذ محمود شاكر، (٨/٥١٤).

(٤) «العذاب الذي لاقاه المسلمون على أيدي الغرب»، ص (١٤٩).

(٥) تمامًا كما فعل الفرنسيون مع سليمان الحلبي ـ رحمه الله ـ الذي قتل كليبر، ثم حوكم بمقتضى «العدالة» الفرنسية، وصدر الحكم بأن تحرق يده اليمنى، وهو حي، وهي متصلة بجسمه، وبعده يقيد ويوضع فوق الخازوق، ثم توضع يده اليمنى فوق فحم ملتهب؛ لتُشوى، وهو ينظر، ويبقى على الخازوق لحين تأكل رِمَّتَه الطيور، وقد تم تنفيذ هذا الحكم الوحشي الذي يليق «بالحضارة» الغربية المتوحشة فوق «تل العقارب» في ١٧ يونيو ١٨٠٠م، ثم احتفظ الفرنسيون بهيلكه العظمي، وأودعوه مُتْحَفَ حديقة الحيوانات والنباتات في باريس، كما حفظوا جمجمته في غرفة التشريح بمدرسة الطب بباريس. انظر: «ودخلت الخيل الأزهر»، ص (٣٤٩-٣٥٩)؛ و«الأعلام»، للزركلي، (٣/١٣٣).

(٦) «العذاب الذي لاقاه المسلمون على أيدي الغرب»، ص (١٤٨، ١٤٩)؛ وانظر: «الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني»، ص (٢٣٨)، «الموسوعة الميسرة» (١/٣١٥).

(٧) «أطلس تاريخ الإسلام»، ص (٣٣٧). ومن الجدير بالذكر أن المهدي السوداني كان له ولد يُدْعَى: =

مَوْقِفُ الْحَرَكَةِ السَّنُوسِيَّةِ مِنَ الْمَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ

عاصر المهديُّ السوداني الزعيم الثاني للحركة السنوسية: محمدًا المهديَّ بن الإمام محمد بن عليٍّ السنوسي الكبير.

وُلد محمد المهدي في الجبل الأخضر في ليبيا، في ذي القَعدة ١٢٦٠هـ، ولما قدم المبشِّر بولادته على ابن السنوسي حكى لهم حكاية، قال: «كان رجل يخرز طبلًا، فمر به جماعة، وهو يخرز، قالوا له: ماذا تفعل؟ قال: إذا يبس تسمعون صوته». وقال: «أسميناه المهدي؛ ليحوز ـ إن شاء اللَّه ـ أنواع الهداية، ونرجو اللَّه أن يجعله مهديًّا»[1].

وعندما توفي الإمام ابن السَّنُوسي ـ رحمه اللَّه ـ في صفر ١٢٧٦هـ، بويع ابنه محمد المهدي (ت ١٣٢٠هـ)، وهو ابن ست عشرة سنة، وفي عهده نمت الحركة السنوسية نموًّا مدهشًا، ودخلت عدة قبائل أفريقية في الإسلام، وتوطد سلطان الحركة في قلب الصحراء الكبرى، وارتجفت أوربة منها، وشلَّت حركة المنظمات التنصيرية[2].

* * *

= عبدالرحمن بن محمد أحمد المهدي (١٨٨٥ ـ ١٩٥٦م)، ولد في أم درمان، وتلقى تعليمًا دينيًّا، وعندما شبَّ سعى لتنظيم المهدية بعد أن انفرط عِقدها، وصار في عام ١٩١٤م زعيمًا روحيًّا للأنصار، وفي عام ١٩١٩م بعثت به الحكومة؛ لتهنئة ملك بريطانيا بانتصار الحلفاء، حيث قام بتقديم سيف والده هدية للملك، الذي قَبَّله ثم أعاده إلى عبدالرحمن طالبًا منه أن يحتفظ به لديه نيابة عن الملك، وليدافع به عن الإمبراطورية، وقد شكل هذا اعترافًا ضمنيًّا بالطائفة، واعترافًا بزعامته لها، وقد أنشأ عبدالرحمن أيام الاستعمار الإنكليزي على السودان «حزب الأمة»، وهو حزب المهدية السياسي، والذي يرأس الجناح الأقوى من أجنحته الثلاثة اليوم الصادق بن الصديق بن عبدالرحمن بن **محمد أحمد بن عبدالله المهدي** زعيم المهدية المعاصرة. انظر: «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة»، (١/٣١٦).

(١) «الحركة السنوسية في ليبيا»، للدكتور علي محمد الصلابي ـ حفظه الله ـ، (٢/١٥ ـ ١٦).

(٢) انظر: «السابق»، ص (٢٠ ـ ٤٤).

بَيْنَ الْمَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ وَالْمَهْدِيِّ السَّنُوسِيِّ

سمع محمد أحمد بما حققته الحركة السنوسية من نجاح فائق، وانتصار عظيم، وتوسع كبير في الصحراء الكبرى، وفي القبائل الليبية، فرغب بضم هذه الحركة إليه، فأرسل محمد أحمد في عام ١٣٠٠هـ رسالة إلى محمد المهدي السنوسي هاك نصَّها:

«من عبد ربه الفقير إليه محمد المهدي بن السيد عبداللَّه إلى حبيبه في اللَّه الخليفة محمد المهدي بن الولي السنوسي، كان اللَّه في عونه، آمين. فيا أيها الحبيب القريب، الواقف على سنة النبي الأديب، المُرَقِّي العباد إلى مقام التقريب، لا يخفاكم تغير الزمن، وترك السنن، ولا يرضى بذلك ذوو الإيمان والفطن، بل يترك لذلك الأهل والوطن؛ لإقامة الدين والسنن، ولا يتوانى عن ذلك لكون غيرة المؤمن على الإسلام تجبره.

واعلم يا حبيبي: قد كنا ننتظرك، ومن معنا من الأعوان، ننتظرك؛ لإقامة الدين قبل حصول المهدية للعبد الذليل، وقد كاتبناك لما سمعنا باستقامتك ودعايتك إلى اللَّه على السنة النبوية، وتأهبك لإحياء الدين بأن نصير إليك ونجتمع معك، ولم ترد لنا المكاتبة، وأظن ذلك من عدم وصولها إليكم، حتى إني ذاكرت جميع من اجتمعت معه من أهل الدين والشيوخ والأمراء، فأبوا ذلك؛ لهوان الدين عندهم، وتمكن حب الوطن والحياة من قلوبهم، وقلة توحيدهم، حتى بايعني الضعفاء على الفرار بالدين، وإقامته على ما يطلب رب العالمين، وقنعت نفوس من بايعناه من الحياة الدنيا؛ لما يرون للدين من الممات، ولا زال المساكين الذين لم يبالوا في اللَّه بما فاتهم من المحبوب المشتهى يزدادون، وفيما عند اللَّه يرغبون، حتى هجمت المهدية الكبرى من اللَّه ورسوله على العبد الحقير ـ واللَّه هو الفاعل المختار الذي هو على كل شيء قدير ـ فأخبرني سيد الوجود ﷺ بأني المهدي المنتظر، وخلفني ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالجلوس على كرسيه مرارًا بحضرة الخلفاء الأربعة، والأقطاب، والخضر ـ عليه السلام ـ، وقلدني سيفه ﷺ بحضرة الخلفاء، والأولياء، والأقطاب، والملائكة المقربين، والخضر ـ عليه السلام ـ وأُعلِمت أنه لا يُنْصَرُ عَلَيَّ

أحدٌ بعد إتياني سيف النصر من حضرته ﷺ.

ثم أخبرني ﷺ: أن اللَّه جعل لك على المهدية علامة، وهي الخال على خدك الأيمن، وجعل لي علامة أخرى: تخرج راية من نور تكون معي ساعة الحرب يحملها عزرائيل ـ عليه السلام ـ فيثبت اللَّه بها قلوب أصحابي، وينزل الرعب في قلوب أعدائي، فلا يلقاني أحد بعداوة إلا خذله اللَّه ـ تعالى ـ ثم قال ﷺ: إنك مخلوق من نور عنان قلبي، فمن له السعادة صدق بأني المهدي المنتظر، ولكن اللَّه جعل في قلوب الذين يحبون الجاه، والمال النفاق، فلا يصدقون ولا ينقادون للحق؛ حرصًا على جاههم، قال ﷺ: «الْجَاهُ وَالْمَالُ يُنْبِتَانِ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ، كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ».

ولما حصل لي يا حبيبي، من اللَّه ورسوله أمر الخلافة الكبرى أمرني سيد الوجود ﷺ بالهجرة إلى جبل بالغرب يقال له: «قدير»، وأمرني أن أكاتب بها جميع المكلفين أمرًا عامًّا، فكاتبت الأمراء والمشايخ فأنكر الأشقياء، وصدق الصديقون الذين لم يبالوا بما لقوه من المكروه، وما فاتهم من المحبوب المشتهى، بل ناظرون إلى وعده ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣]، مع أن أولئك المنكرين يزعمون أنهم يعلمون أن الأمر للَّه.

وقد أراد اللَّه المهدية المنتظرة، واختارها لعبده الحقير الذليل محمد المهدي بن عبداللَّه، ولازال التأييد يزداد من اللَّه ورسوله، وأنت منا على بال حتى جاءتنا الأخبار فيك من النبي ﷺ أنك من الوزراء لي، ثم لازلنا ننتظرك حتى أعلمنا الخضر ـ عليه السلام ـ بأحوالكم، وما أنتم عليه، ثم حصلت حضرة عظيمة عيَّن النبي ﷺ فيها خلفاء أصحابه من أصحابي، فأجلس أحد أصحابي على كرسي أبي بكر الصديق، وأحدهم على كرسي عمر، وأوقف كرسي عثمان، فقال: هذا الكرسي لابن السنوسي، وأجلس أحد أصحابي على كرسي «علي» ـ رضوان اللَّه عليهم أجمعين ـ

وما زالت روحانياتك تحضر معنا في بعض الحضرات مع أصحابي».

«... وأخبرني سيد الوجود ﷺ، بأن من شك في مهديتي فقد كفر بالله ورسوله، كررها ﷺ ثلاث مرات، وحرضني ﷺ على قتال الترك المخالفين المنكرين مهديتي، ومن اتبعهم على مخالفتي وجهادهم، وسماهم كفارًا، بل هم أشد كفرًا؛ لأنهم ساعون في إطفاء نور الله، وأخبرني ﷺ مبشرًا بأن أصحابي كأصحابه، وأن عوامهم لهم رتبة كرتبة الشيخ عبدالقادر الجيلاني، وهذا الفضل بشرط الاتباع ظاهرًا وباطنًا، والله ذو الفضل العظيم.

هذا وإن جميع ما أخبرتك به من خلافتي بالمهدية وخلافه، فقد أخبرني به سيد الوجود ﷺ يقظة في حال الصحة، لا بنوم، ولا بجذب، ولا سكر، ولا جنون، بل متصف بصفات العقل، أقفو أثر رسول الله ﷺ بالأمر به، والنهي فيما نهى عنه، وليكن معلومك أني من نسل رسول الله ﷺ، فأبي حَسَنِيٌّ من جهة أبيه، وأمه كذلك من جهة أمها، وأبوها عباسي، والعلم لله؛ إن لي نسبة إلى الحسين رضي الله عنه.

وأخبرك أن الله فتح على يدنا كثيرًا من البلاد، وانقاد لنا كثير من العباد، ممن كانوا تحت حكومة الترك، فإذا بلغك جوابي هذا، إما أن تجاهد في جهاتك إلى مصر ونواحيها إن لم يسلموا، وإما أن تهاجر إلينا، ولكن الهجرة أحب إلينا، كما علمت فضل الهجرة من زيادة الثواب والمقابلة إن تيسرت، وعلى كل حال ترد إلينا منك الإفادة بما يصير إليه عزمك من جهاد أو هجرة، ومثلك تكفيه الإشارة، والسلام»[(١)].

رد السنوسي على محمد أحمد

«... إنني لم أبلغ منزلة الغبار الذي ثار في أنف فرس عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في إحدى غزواته مع رسول الله ﷺ ولا جواب عندي على هذا الكتاب»، ثم أمر الرسول

(١) «منشورات المهدية»، ص (٧٠ - ٧٥) باختصار؛ وتاريخ الرسالة ٥ رجب ١٣٠٠هـ، ١٣ مايو ١٨٨٣م.

بالعودة من حيث جاء، وأوصى ملك واداي بأن لا يحرك ساكنًا مع المتمهدي، بل إذا جاءه محاربًا يحاربه[١].

ولم يؤمن المهدي السنوسي، ولا علماء الحركة السنوسية بمهدية محمد أحمد السوداني، وقاوم أتباع الحركة السنوسية في السودان الغربي نفوذ ثورة محمد أحمد السوداني، ويذكر محمد الطيب الأشهب أن سلطان برقو أرسل للمهدي السنوسي يستوضحه: ماذا يكون موقفه من التعايشي الذي طلب مؤازرته، فكان رد المهدي:

«إنه إنما يعني بالدعوة إلى إصلاح الدين سلمًا لا حربًا، بينما تنفر الملة التي يراد إحياؤها نفورًا عظيمًا، بل وتشتد ثورتها ضد الدماء التي يهدرها، والجرائم التي يرتكبها في السودان»[٢].

وقد قامت الممالك في السودان الغربي «تشاد» بمحاربة التعايشي خليفة محمد أحمد السوداني، وحَدَّت من انتشار حركته[٣].

التَّعْلِيقُ عَلَى مَوْقِفِ السَّنُوسِيَّةِ مِنْ مُحَمَّد أَحْمَد

إن رفض علماء الحركة السنوسية ـ وعلى رأسهم المهدي السنوسي نفسه ـ لفكرة مهدية محمد أحمد السوداني، واعتبارهم إياها نوعًا من التخريف هو موقف ليس بغريب عليهم، بل متوقع منهم، كيف لا، وهم المتضلعون من العلم الشرعي الشريف، المستوعبون لكتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ بفهم السلف الصالح أهل السنة والجماعة[٤]، الحكماء في دعوتهم، البريئون من شطحات صوفية[٥] المتمهدي السوداني التي لا

(١) «الحركة السنوسية في ليبيا»، (٢/٤٧).
(٢) «المهدي السنوسي»، لمحمد الطيب الأشهب، ص (٥٨)، نقلًا عن «الحركة السنوسية»، (٢/٤٨).
(٣) «الحركة السنوسية»، (٢/٤٨).
(٤) انظر: بيان تمسك السنوسية بالعقيدة السلفية في: «الحركة السنوسية في ليبيا»، (١/ ١٠٦ - ١١٥).
(٥) انظر بيان نقد السنوسية لأخطاء الصوفية، ومخالفته للصوفية المنحرفة في «السابق»، (١/١٤٧ - ١٧٤).

يقرها الشرع الشريف، بل ينكرها أشد الإنكار ويحكم بكذبها، وهذا هو الفرق بين من يدعو إلى اللَّه «على بصيرة»، وبين من يغرق حتى أذنيه في خرافات الصوفية وخيالاتهم الفاسدة.

إن المهدي السوداني حين حاول في أول اتصال بينه وبين الحركة السنوسية أن يفرض عليها السيطرة والتبعية كان قد طرق الباب خطأً، ولو كان مدخله قول اللَّه ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ الآية، فربما اختلف الموقف، ولكنه لم يدرك أنه يتحدث ـ هذه المرة ـ مع علماء راسخين، وأئمة راشدين، لا ينطلي عليهم هُلاسُ الصوفية وهَذَيانُهم، فرأوا أن يضربوا عنها صفحًا، ولما تكررت المراسلة تلقى المهدي السوداني ذلك الرد الموجع.

دَفْعُ شُبْهَةٍ

قد يعزو قائل نفور المهدي السنوسي من السوداني إلى أنه رآه «منافسًا» له في دعوى المهدية، خاصة وأنه نُسِب إلى أتباعه أنهم كانوا يعتقدون فيه أنه المهدي المنتظر.

والجواب: أن هذه فرية بلا مرية:

- فإطلاق وصف «المهدي» على محمد السنوسي، إنما هو من الإطلاق العام، وليس الاصطلاحي كما قدمنا[1]، وقد أوضح ذلك بجلاء والده الإمام محمد بن علي السنوسي ـ رحمه اللَّه ـ تعالى ـ كما تقدم.
- بل إن المهدي السنوسي نفسه كان ينكر ذلك، وينفي هذا القول بشدة، يقول الدكتور محمد الصَّلَّابي ـ حفظه اللَّه ـ تعالى ـ:

«إن التهمة الموجهة للحركة السنوسية بأن أتباعها يعتقدون في الإمام محمد المهدي السَّنُوسي أنه هو المهدي المنتظر تهمة باطلة، رفضها الإمام محمد المهدي، وعارضها،

---

(١) راجع الصفحات(٢٧، ٢٨، ١٥١، ٣٧٠، ٣٧١).

وأبى الموافقة على القول بها، ولما سئل الملك محمد إدريس[١] بن محمد المهدي السنوسي (ت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) - رحمهما اللَّه - عن رأي أبيه في قول بعض أتباع الطريقة بمهدويته أجاب: «كان كلما سمع هذا القول نفاه بشدة، وأبدًا لم يعتقد به»[٢].

وفي هذا أبلغ رد على ما حكاه السيد محمد رشيد رضا - رحمه اللَّه تعالى - حين كتب: «ويقال: إن السَّنُوسية يعتقدون أن شيخهم المهدي السَّنُوسي هو الإمام المنتظر، ومنهم من يقول: إنه اختفى، وقد بلغنا أنهم كانوا إذا سئلوا عن موته يقولون: «الحي يموت»، ولا يقولون: إنه قد مات»[٣].

فلو صح أن عوامَّ من السنوسيين غَلَوْا - بجهلهم - في إمامهم، فكان ماذا؟! وأيهما يقدم: «تصريح» صاحب الشأن بنفي هذه التهمة، أم «تعريض» أتباع مجهولين مغمورين إن صح عنهم هذا «البلاغ»؟!

* * *

(١) جاء في ترجمته - رحمه الله - في «تتمة الأعلام للزركلي» (٢/٣٢٢): «وكان يرفض أي قانون وضعي أو دولي يخالف الشريعة». اهـ. ولا غرو، فهذا الشبل من ذاك الأسد!
(٢) «حركة السنوسية في ليبيا»، (٢/٥٦).
(٣) «تفسير المنار» (٩/٥٠١).

مَنْ أَصْدَاءِ حَرَكَةِ الْمَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ

● حَرَكَةُ الْمَهْدِيِّ الصُّومَالِيِّ «الْمُلَّا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ حَسَن»(١)

كان لحركة المهدي السوداني صدى عميق في العالم الإسلامي؛ فقد أحدثت في القلوب هزة عنيفة، وكشفت القناع عن بريطانيا؛ فلم تعد في نظر المسلمين قوة مخيفة، بل ظهر للعالم أنها دخان من غير نار، فهب المسلمون في كل مكان ينادون بالجهاد والثورة ضد الاستعمار، حدث هذا في «بخارى»، و«أفغانستان»، و«الهند»(٢)، وأواسط آسيا، والصين، وجزائر الهند الشرقية، وأفريقيا الشمالية، وفي الصومال، حيث كانت مقسمة بين بريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، والحبشة، وحيث كان التناحر والتنافر بين شيوخ قبائلها، اندلعت ثورة قادها المجاهد الفذ «المهدي الصومالي» محمد بن عبداللَّه حسن الذي زلزل الأرض من تحت أقدام الاستعمار لمدة ربع قرن من الزمان، في ظروف دولية صعبة، وأحوال داخلية ممزقة، وبأسلحة قديمة وقليلة.

حفظ محمد بن عبداللَّه القرآن الكريم في سن مبكرة، وتتلمذ على شيوخ الدين والعلم، ولما بلغ سنه خمسًا وعشرين سنة، رحل إلى مكة المكرمة؛ ليستكمل تلقي العلم على أيدي علماء الحرمين الشريفين، وحين عاد إلى الصومال التقى بشيخه محمد صالح السوداني الذي حدثه عن مهدي السودان وجهاده، وكذا أخبار الثورة العرابية، فتأجج في قلبه جذوة الجهاد وكراهية الظلم والقهر.

كان بليغًا مؤثرًا قوي الشخصية، كبير الهمة، استطاع أن يوحد أكثر القبائل الصومالية، ويجمعهم على الجهاد بالرماح، والسيوف، والبنادق القليلة.

---

(١) هذا الفصل مختصر بتصرف من «الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني»، ص (٢٥٨ - ٢٦٥).

(٢) ولقد نشر في «العروة الوثقى»، ص (٢٠٨ - ٢٠٩): «لقد أخذ الاعتقاد بـ «محمد أحمد» سبيلًا في قلوب الهنديين، حتى كتب إلينا أحد أصدقائنا في «لاهور» أن محمد أحمد لو كان دجالًا لأوجبت علينا الضرورة أن نعتقده مهديًّا، وألا نفرط في شيء مما يؤيده». «الأصول الفكرية» ص(٢٦٧).

وحانت له الفرصة حين أرسلت بريطانيا أربع حملات عسكرية مجهزة، فقضى عليها المهدي الصومالي واحدةً إثر واحدة، ثم توحدت ضده بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والحبشة، فحارب في هذه الجبهات جميعًا، غير عابئ بالتضحيات التي يتعرض لها؛ إنه منطق الإيمان، ومنطق الإيمان لا يضع في حسبانه قيمة للخسران والربح؛ ذلك شأن التجار والسماسرة من أدعياء الحرية والفكر، إنها إحدى الحسنيين: الشهادة أو النصر.

وكما فعل غوردون مع المهدي السوداني حين كتب إليه قائلًا: «إني قادم إليك بجنود أقطع بهم أنفاسك»؛ فقد أرسل الجنرال «كوفل» القائد العام للقوات البريطانية هذه الرسالة إلى «الملا»: «سننسفك نسفًا إذا لم ترجع عن غيك، وإذا لم تخمد ثورتك الجنونية، واعلم أن حكومة صاحبة الجلالة عظيمة جدًّا، ولا يستطيع مجنون مثلك أن ينال منها شيئًا، فارجع عما أنت فيه، وعد إلى صوابك قبل أن تقع المصيبة عليك، وتندم على أعمالك السيئة».

وقد رد عليه المهدي الصومالي قائلًا: «من السيد محمد بن عبدالله حسن قائد القوات الإسلامية الصومالية إلى الجنرال كوفل قائد الشيطان:

قد اطلعت على رسالتك، وفهمت منها جميع أغراضك الدنيئة، وأغراض حكومتك الوضيعة، واعلم أن قواتكم التي تفاخرون بها لا تساوي لدي شيئًا، وأعلمك ـ أيضًا ـ أنكم إذا كنتم تحاربونني بقواتكم الهائلة الكثيرة العدد، فإني أقاتلكم بنيتي الصالحة، وبإيماني القوي، وبعزيمتي التي لا تعرف الملل، ومهما تكن الظروف لن أستسلم لك، وأكون للشرك عبدًا»[1].

لقد طار صواب الاستعمار البريطاني بعد هذا الرد الحاسم، وبدأ الجنرال «كوفل» يجمع قواته؛ لخوض معركة فاصلة مع هذا الأبي الثائر.

إن مأساة غوردون تتكرر هذه المرة مع الجنرال كوفل، والغرور الذي أدى إلى

(١) «مهدي الصومال»، للدكتور/ محمد المعتصم سيد، ص (٤٦)، نقلًا عن «الأصول الفكرية»، ص (٤٦).

مصرعه في الخرطوم يقود خَلَفَه على أرض الصومال إلى المصير نفسه.

لقد بدأت المعركة، وسقط الجنرال المغرور تحت سنابك خيول المجاهدين وأقدامهم.

وكان وقع هذه الهزيمة كوقع سابقتها في الخرطوم أليمًا ومريرًا ومفزعًا، ومن ثم حاولت بريطانيا إغراءه بأن تعترف به ملكًا متوجًا على الصومال كله مقابل وقف القتال وإلقاء السلاح.

وأعاد التاريخ نفسه، فقد أمر رجاله برد الهدايا التي بعث بها إليه نائب الملكة في الهند، ثم خاطب رئيس الوفد: «إنني لم أفكر في يوم من الأيام أن أكون ملكًا، ولم يكن ذلك هدفي لا في الحاضر، ولا في المستقبل، لكن هدفي الوحيد هو أن أطرد الاستعمار من بلادي، وأعيد إليها حقوقها المغتصبة، وأطهرها من النفاق والشرك، ولست أبالي بعد ذلك أن أحيا أو أموت»[١].

لقد كان في جهاده بطلًا، وكان تاريخ حياته بالبطولة حافلًا إلى أن قتل في إحدى المعارك شهيدًا ـ إن شاء اللَّه ـ.

* * *

(١) «السابق»، ص (٥٠).

تَقْوِيمٌ عَامٌّ لِحَرَكَةِ المَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ

من خلال السرد السابق لأحداث الحركة المهدية نستطيع أن نُخضع مقولات المهدي السوداني وممارساته «لفحص» شرعي كامل، فنستخلص العبر والدروس، ونزيد رصيدنا من «فقه التاريخ»؛ كي نستفيد منه في المستقبل، فلا نلدغ من جحر واحدٍ مرتين:

اقْـرَءُوا الـتَّـارِيـخَ إِذْ فِيهِ الْـعِـبَـرْ ضَـلَّ قَـوْمٌ لَـيْسَ يَـدْرُونَ الْخَبَـرْ

وفي هذا الفصل نحاول استنباط خصائص دعوة المهدي السوداني، ونتعرف على إيجابياتها وسلبياتها، ولكننا نقرر ـ بادئ ذي بدء ـ أننا لا نستطيع أن نصوغ موقفنا من هذه الحركة بناءً على التسليم بدعاوى المهدي وتهويشاته؛ ليس لأن الواقع كشف كذبها، بل لأن الأصول الشرعية تثبت ـ منذ البداية ـ فساد منهجه الذي قفز فوق الضوابط العلمية، وعبث بالثوابت المصونة، وزاحم المرجعية الشرعية بمصادره المفتراة، كما بينا من قبل، وكل من يحترم هذه المرجعية كان يستطيع الجزم بفساد دعاواه الكاذبة، حتى قبل أن يكذبها الواقع، وهذا هو الفرق بين النظرة الموضوعية الملتزمة بصيانة مصادر التلقي من العبث، وبين النظرة العاطفية التي تستفزها بُداآت الأمور، وتبهرها بعض الإنجازات الإيجابية إلى الحد الذي يُحلُّ لأصحابها أن يغضوا الطرف عن عدوان المبتدع على أصول الشرعية المعصومة، ويتجاوزوا عن تجاوزه حدود الله ـ تعالى[١].

وما أصدق ما قال بعض السلف: «إن الفتنة إذا أقبلت عرفها كل عالم، وإذا أدبرت عرفها كل جاهل!»، فالعقل فوق العاطفة، و:

الرأي قبـل شـجاعـة الـشـجعـانِ هـو أول وهـي المحل الـثـانـي

---

(١) انظر: «الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام» للمؤلف، ص (٣٨٦ ـ ٣٨٩).

الحركة المهدية حلقة من حلقات الصراع بين الإسلام والصليبية

إن التفسير الصحيح الوحيد للتاريخ أنه صراع بين الإيمان والكفر، منذ طرأ الشرك على البشرية؛ إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾، ولقد مثلت حركة المهدي السوداني حلقة من حلقات هذا الصراع بغض النظر عن المؤاخذات على هذه الحركة، يقول الدكتور عبدالودود شلبي ـ حفظه اللَّه:

«وسواء أكان «محمد أحمد» هو «المهدي» أم لم يكن فلن يغض ذلك من قيمة الرجل الذي فجر في السودان أكبر ثورة إسلامية في القرن الثالث عشر الهجري ـ التاسع عشر الميلادي.

لقد بدأ ثورته ببضعة رجال مسلحين بالحراب والعصي، ولكن مقدرته الفائقة في إلهاب الجماهير، وإشعال نيران الجهاد والحماس، مكنته من هزيمة الحكومة في كل معركة خاضتها ضده، واستطاع وهو الصوفي البسيط .. أن يقهر خمسة جنرالات من أقوى دولة أوربية، كان من بينهم أشهر القادة البريطانيين، لقد استثمر المهدي الدينَ استثمارًا مثاليًّا، ومزج بينه وبين الحياة مزجًا رائعًا، فالإسلام هو الذي قاوم، والإسلام هو الذي جاهد، والإسلام هو الذي انتصر في النهاية على التعصب والصليبية.

ومنذ وطئ الاستعمار أرض الإسلام، كان من أهم أهدافه سحق هذه العقيدة، أو عزلها عن الحياة والحركة، أو تشويهها على أيدي المبشرين والمرتزقة؛ لأنه يعلم يقينًا أن الإسلام إباء، يرفض الذل، وقوة تحتقر الضعف، وثورة على كل مظاهر الاستعمار والاستبداد والظلم»[(١)].

«إن الإسلام هو الذي حمى الوطن الإسلامي في الشرق من هجمات التتار، ومن

(١) «الأصول الفكرية»، ص (٢٤٦ ـ ٢٤٧).

هجمات الصليبيين على السواء، ولو انتصر الصليبيون في الشرق كما انتصروا قديمًا في الأندلس، أو كما انتصر اليهود حديثًا في فلسطين، ما بقيت قومية عربية، ولا جنس عربي، ولا وطن عربي، والأندلس قديمًا، وفلسطين حديثًا كلاهما شاهد على أنه حين يطرد الإسلام من أرض، فإنه لا تبقى فيها لغة ولا قومية بعد اقتلاع الجذر الأصيل.

والإسلام هو الذي كافح في الجزائر مئة وثلاثين سنة، وهو الذي استبقى أرومة العروبة، حتى بعد أن تحطمت مقوماتها الممثلة في اللغة والثقافة، هنالك قام الإسلام - وحده - في الضمير يكافح الغزاة، ويستعلي عليهم، ولا يحني رأسه لهم، وبهذا - وحده - بقيت روح المقاومة في الجزائر حتى أذكتها من جديد الحركة الإسلامية بقيادة عبدالحميد بن باديس، فأضاءت شعلتها من جديد، وهذه الحقيقة يعرفها جيدًا الفرنسيون والصليبيون.

والإسلام هو الذي كافح في برقة، وطرابلس ضد الغزو الإيطالي، وفي أربطة السنوسية وزواياها، نمت بذور المقاومة، ومنها انبثق جهاد عمر المختار الباسل النبيل».

والإسلام هو الذي هب في مراكش، حين أرادت فرنسا سن قانون يعود بقبائل البربر إلى عقائدهم التي كانوا عليها قبل الإسلام، وفصلهم عن إخوانهم المسلمين في الشمال، وكانت هذه المحاولة هي الشرارة التي أشعلت في الفرنسيين النار.

والإسلام هو الذي كافح في الهند - قبل التقسيم - وكان المسلمون دون غيرهم هم أبطال الجهاد ضد الاستعمار والبريطانيين.

لقد كافح الإسلام لأن عنصر القوة كامن في طبيعته، كامن في بساطته ووضوحه، وشموله، كامن في الاستعلاء عن العبودية للعباد بالعبودية للَّه رب العباد، وفي رفض التلقي إلا منه، ورفض الخضوع إلا له.

ومن أجل هذه الخصائص في الإسلام يحاربه أعداؤه هذه الحرب المنكرة؛ لأنه يقف لهم في الطريق، يعوقهم عن أهدافهم الاستعمارية الاستغلالية؛ كما يعوقهم عن

الطغيان، والتأله في الأرض.

ومن أجل هذه الخصائص يطلقون عليه حملات القمع والإبادة، ويتربصون به الدوائر في كل ناحية، ويفزعهم ويرعبهم قيام أية حركة تحمل لواءه، أو ترفع شعاره، أو تنادي بالعودة إلى شرائعه وأحكامه»[1].

ولقد كانت حركة مهدي السودان ـ برغم ما يشوبها من تصورات خاصة ـ حركة أرعبت دول الاستعمار، وحركت فيهم كوامن الفزع والخوف، وأرقت ليالي مطامعهم السود، فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى النار والسيف.

● **يقول الدكتور/ عثمان سيد أحمد إسماعيل:**

«ما الحصاد الحقيقي لهذه الحركة التي ما كانت إلا كلمح البصر في عداد التاريخ؟ إن المهدي ولد عام ١٢٦٠، وبدأ دعوته عام ١٢٩٨، وتوفي عام ١٣٠٢هـ. عمره كله حوالي ٤٢ عامًا، وعمر دعوته التي حقق فيها كل تلك الانتصارات، والتي لم تكن تعني أي شيء أقل من هزيمة الإمبراطورية البريطانية ولو إلى حين، لم يزد عن خمس سنوات، وكانت تمثل انتصارًا للمقاومة الفكرية والدينية والعسكرية على الهجمة الصليبية الاستعمارية على بلاد الإسلام، وبلاد العالم الثالث كلها، وكان لأحداثها صداها في تاريخ مقاومة الاستعمار والصليبية على نطاق العالم الإسلامي كله على وجه الخصوص، وإذا كنا قد أشرنا من قبل إلى الصلة بين المهدية وبين حركة «دان فودي» بغرب إفريقيا فإن آثار حركة المهدية شملت نيجريا وتشاد وبرنو وبلاد حوض النيل ومصر والصومال والحبشة وحتى إندونيسيا»[2].

* * *

(١) «المستقبل لهذا الدين»، ص (١٣١ ـ ١٣٥) بتصرف.

(٢) «حركتا الشيخ عثمان بن محمد بن فودي والشيخ محمد أحمد بن عبدالله المهدي وآثارهما» ضمن «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص (٣٦٥).

آثار الحركة المهدية على السودان

● **يقول الدكتور عثمان سيد أحمد إسماعيل:**

بالنسبة للسودان كانت المهدية بلا شك الحركة التي وحدت بلاد السودان توحيدًا إيجابيًّا ـ بعد أن مدت التركية المصرية سلطانها عليها ـ اعتمادًا على ما كان قد بدأ من الداخل سياسيًّا وجغرافيًّا. والمهدية هي التي نجحت في أن تبني على بقايا الممالك والسلطنات والمجموعات القبلية المسلمة وغيرها ـ في سنار، وفي الغرب والشرق وفي جنوب السودان ـ كيانًا سياسيًّا تحت راية المهدي، كيانًا وقف مدافعًا عن عقيدته وأرضه ضد أعتى الإمبراطوريات في القرن التاسع عشر والقرن العشرين. هذا من زاوية المقاومة ضد الصليبية والاستعمار. كما أن حركة المهدية من هذه الزاوية كانت الذكرى الملهمة الحية في ضمير الشعب المسلم وغير المسلم في بلاد سودان وادي النيل، التي جعلته يقاوم الاستعمار بالدم والكلمة والشعار إلى أن أزاله اللَّه.

أما من زاوية الإسلام فإن حركة المهدي كانت حركة توحيد وتجديد في جوهرها ومرماها، والمهدية هي التي نشرت لواء الشريعة على أرض سودان وادي النيل، من شماله وحتى جنوبه، وإن ما تم في السودان الآن من تطبيق للشريعة إنما هو سير على درب بدأه «محمد أحمد بن عبداللَّه المهدي». ولقد كانت حركته في سيرتها وسيرها سريعة موفقة في تحريك قبائل السودان المختلفة للانصهار والتمازج والاختلاط تحت راية الإسلام، وفي روح الجهاد.

ولقد خلَّف المهدي ـ عليه رضوان اللَّه ـ من المنشورات والرسائل والأدعية الدينية وحسن السيرة وعطر الذكرى ما يؤكد عمق علمه وصدق توجهه وصفاء نفسه وحدة عقله. وإن آثار تعاليمه التي لا تزال تنتشر بين أنصاره وغيرهم من المسلمين بالسودان تميزهم بالكثير الخيِّر بين المسلمين. كما أن المهدية كفكر وواقع كانت السبب المباشر في إذكاء روح التأليف شعرًا ونثرًا ورجزًا ورسائل وكتبًا. وإن مجموعة منشورات

المهدي وراتبه تشكل مع كل هذا ثروة ضخمة لا تزال تنتظر الدراسة العميقة الواعية الهادفة. وإن عمل المهدية في تاريخ بلاد سودان وادي النيل، بل في تاريخ وادي النيل كله، وبلاد حوض النيل كلها أكبر من أن تحصره مقالة عابرة، أو بحث متعجل مثل هذا)[١]اهـ.

● ويقول الدكتور يوسف فضل حَسن:

«ولقد أدى انتصار الثورة المهدية على العهد التركي المصري إلى تحول كبير في المجتمع السوداني، فبينما اهتم العهد الأول ـ وهو نظام مدني ـ باستغلال موارد البلاد دون التفات كبير لمصلحة الفرد، ركز الإمام المهدي على تربية الفرد على نمط إسلامي بحسبانه العنصر الأساسي في بناء المجتمع المسلم وإقامة الدولة السلفية»[٢]اهـ.

مقومات نجاح حركة المهدي السوداني «كثورة»

أولًا: شخصية الداعية

فقد توفرت صفات الزعامة للمهدي، إلى جانب نسبه الشريف، وورعه، وزهده، واستعلائه على متاع الدنيا وزخرفها، وثباته على خشن العيش في مطعمه وملبسه حتى بعد أن كثرت لديه الأموال والغنائم، وكان يتحرج من أن يمد يده إلى مال فيه شبهة[٣]، وكان يثور على كل منكر رآه مهما كانت منزلة صاحبه، فقد أنكر ما رآه في بيت شيخٍ له حين شاهد الرقص والغناء والإسراف في إنفاق المال في حفل ختان ولده، وفارق شيخه.

وكان وديع النفس، كريم الخلال، مخلصًا في دعوته، قوي الإيمان بالله، لا يبالي

---

(١) «السابق»، ص (٣٦٥ ـ ٣٦٦)، وانظر التحفظات على حركة المهدي ص (٥٤٠)، وما بعدها.

(٢) «الحركة المهدية السنوسية» ضمن «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص (٣٩٤). وفي وصف دولة المهدي بالسلفية تجاوز، إلا أن توصف بأنها كان فيها ملامح سلفية كما يأتي ـ إن شاء الله ـ.

(٣) راجع ص(٤٥٤).

الموت في سبيل عقيدته، وبهذا الإيمان تمكن ـ على قلة أتباعه ـ أن يهزم الجنود المدربين والمجهزين بالأعتدة الحربية في كثير من المعارك.

وكان يهتم بتزكية نفسه عن طريق الخلوة، والأخذ بحظ من العزلة عن الخلق، ومجاهدة النفس، ومع ذلك كان يخالط الناس ويعلمهم ويربيهم، مما ساهم في إيجاد قاعدة شعبية عريضة مهيأة لقبول دعوته ومناصرتها.

أما في ساحة الحرب فقد برزت شخصيته القيادية المتميزة، التي امتزجت فيها سمات القيادة الروحية والقيادة الحربية، يقول الدكتور عبدالودود شلبي ـ حفظه اللَّه ـ في هذا الصدد:

«إن المهدي لم يكن ـ فقط ـ صوفيًا وفقيهًا، كان فوق ذلك كله قائدًا حربيًّا قديرًا، وقد عرف كيف يمزج بين هذه المواهب جميعًا ـ في ساحة الحرب ـ، ويستخلص منها المثل الذي يجعل الليل ضياءً ونورًا، ويملأ قلوب أنصاره ثقة وأملًا «فقد ذهب إليه جماعة، وقالوا له: يا سيدي، يقول الناس إن الترك قصدوا مدينة الأبيض ليستأصلوا من فيها، ويحوزوا النساء والذرية، حتى شاع الخبر في الناس، وأُرجِفوا بسبب ذلك، فالتفت المهدي، وقال: أيها الناس، أنصتوا، ثم بصق في كفه اليسرى وقال: أي شيء هذا؟ قالوا: بصاق يا سيدي، ثم طرحه على الأرض فشربته في الحال، ثم قال للناس: هل ترون لهذا البصاق أثرًا؟ فقالوا له: لا، فقال: نحن كالأرض والترك كالبصاق! ثم قال: إذا طار طائر فأين ينزل؟ فقالوا له: على الأرض، فقال لهم: إن الترك كالطائر ونحن كالأرض! أيها الناس اثبتوا واطمئنوا، وأنزلوا رواحلكم، واستريحوا، فإن الترك لا قدرة لهم مع قدرة اللَّه .. »

[وإذا كان ولابد ـ في القيادة الصحيحة الناجحة ـ من توفر عنصري الإيمان والقدوة، فقد كان المهدي غنيًّا عن التعريف بهذين العنصرين الأساسيين في القيادة، لم يكن يجامل أحدًا على حساب هذه الحقيقة، وقد أدان ـ وهو على فراش الموت ـ أقاربه

بسبب تصرفاتهم السيئة، وقد حدث بعد وصول الإنجليز إلى دنقلة، أن قبضوا على جماعة من أقارب المهدي، وقالوا لهم: «.. اكتبوا مِن عندكم كتابًا إلى المهدي ليرسل لنا أهالينا المأسورين عنده، ونحن نطلقكم بعد حضور أهالينا»، وقد كتب أقارب المهدي كتابًا أخبروه فيه بما حصل لهم، وبما رغبه الإنجليز منهم، فأرسل المهدي إلى أقاربه يقول لهم:

ليس لنا بكم حاجة، لأنكم ظلمتم أنفسكم، فلا فرق بينكم وبين الإنجليز عندنا! ومعاذ اللَّه أن نرتكب ما لا ينبغي لنا بعد قوله ـ تعالى ـ:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وإن كان نظركم إلى القرابة، فهذه الآية تكفيكم فَاصِلًا عنا، وفيما حكاه اللَّه عن نوح وابنه، وإبراهيم وأبيه، مقنع لأولي الألباب، وحاصل الأمر أننا لا نجيبكم لما طلبتم، ولا نشفق عليكم فيما يجري عليكم من الكفار .. وقد كنا سابقًا كاتبناكم بالهجرة إلينا فما هاجرتم، ورغبتم في مناولة الجِيَفِ، ومن أراد أن يأخذ من الجِيَفِ؛ فليصبر على عض الكلاب!]

إن المهدي هنا قائد ينظر بعين المصلحة العامة، لا القرابة الخاصة فلو أنه وهن أمام أقاربه الذين آثروا العافية على الجهاد معه، لسقطت كل حججه التي يُدين بها المتخلفين عنه، وانفض من حوله أولئك الذين يعانقون الموت بإشارة بسيطة منه، الدعوة هنا فوق كل شيء، والعلاقة الوحيدة بينه وبين الناس هي علاقة الإيمان بهذه الدعوة، وإيثارها على كل صلة، وفي ضربه المثل لأقاربه بقصة نوح وابنه، أبلغ درس وعظة][1].

(١) «الأصول الفكرية»، ص (١٨٩ ـ ١٩١).

ثانيًا: **حركته الدؤوب في أنحاء السودان** داعيًا إلى اللَّه - عز وجل - وثقت صلته بالقبائل المنتشرة فيها، وبالمريدين من أتباعه، بجانب اطلاعه على أحوال الناس ومعاناتهم، ومعاينته ظلم الولاة والحاكم، وانفعاله بذلك.

ثالثًا: **وضوح مفهوم «الدولة الإسلامية» في تصوره،** وأن الإسلام دين ودولة، وإدراكه وظيفة الدولة الإسلامية في حراسة الدين، وسياسة الدنيا بالدين، حتى اقترن ميلاد دولته ببناء مسجد، ومصنع للذخيرة، إلى جانب إنشاء مؤسسات الدولة ودواوينها، والقيام بإصلاحات اجتماعية شاملة.

رابعًا: **وعيه بكيد أعداء الإسلام،** وعدم انخداعه بحيلهم ووعودهم المعسولة؛ كما يعكس ذلك موقفُه من «جوردون».

خامسًا: **وضوح قضية «الولاء والبراء» في عقيدته،** ويبين ذلك رسالتُه إلى الخديوي توفيق محذرًا إياه من موالاة الإنكليز، وفي ضمن بعض رسائله يقول لأتباعه: «ولا تجاوروا من ترك الجهاد، أو فعل منكرًا من المنكرات».

سادسًا: **اهتمامه بتربية أتباعه، وتزكية نفوسهم،** فقد غرس فيهم الزهد في الدنيا، والتضحية بالنفس والمال في سبيل اللَّه، والبعد عن الآثام، فلا خمر تُشرب، ولا غَواية ترتكب، ولا لهو، ولا كذب، ولا حسد، وضرب لهم من نفسه أمثالًا لكل ما دعاهم إليه، وكانت الخلوة والمسجد والاجتماعات العامة هي وسيلته في الدعوة إلى هذه الفضائل.

وكان قوام تربيته إياهم الزهد والتقشف، وخفض الجناح لبعضهم البعض، وأن يساوي كل منهم أخاه في الفراش والأكل حتى الأمراء، كلهم على حد سواء، إلا في الأمر والنهي.

سابعًا: **طبيعة الأوضاع الخارجية والداخلية في السودان**، وشعور الناس بالظلم والقهر كما أسلفنا، كان له دور فعال في تحريك السودانيين للتمرد على هذه الأوضاع والالتفاف حول محمد أحمد المهدي قائدًا ثائرًا، ولو لم يكن هو المهدي المنتظر.

ثامنًا: **الْعَقِيدَةُ الْقِتَالِيَّةُ:**

ولقد كانت «العقيدة القتالية» لدى المهدي وأتباعه على السواء هي السر وراء انتصاراته المدهشة، فهذه العقيدة هي التي أدت دور غرفة الوقود في محرك السيارة، وربطت بين القائد وجنده بأقوى رباط، ودفعتهم دفعًا إلى الأمام لإنجاز الأهداف اللائقة بمنصب «المهدي المنتظر»، الذي يحفه التأييد الإلهي، ويتلقى أوامره - في زعمه - من الرسول ﷺ مباشرة، وتنصره الملائكة، الأمر الذي أشعل جذوة الحماس في قلوبهم، واستنفرهم للجهاد بحماس منقطع النظير، وبروح معنوية عالية.

لقد كان للمهدي القدرة على أن يلهب مستمعه، فلا يزال يروِّح على «الفحم» حتى يلهبه، فإذا جليسه يرى بعد الجلسة راحته في السير لا في الركوب، في الحركة لا في السكون، في الخروج لا في القعود.

لقد دعاهم المهدي أولًا إلى الهجرة، فلبوا نداءه من كل حَدَبٍ وصَوْبٍ، ثم حَرَّضهم على الجهاد فنفروا إليه زُرافاتٍ ووِحدانًا، يقول الدكتور/ عبدالودود شلبي - حفظه اللَّه - تعالى -:

«لقد بدأت الهجرة، وكانت استجابة الناس لها سريعة وواسعة، فقد شرع الناس في تعدية النساء والأطفال إلى جهة الغرب، وتركوا غالب ما معهم من الأمتعة والأموال، وكانت نفوسهم راضية رغبة فيما أعده اللَّه.

لقد صار المهدي في مأمن من الحكومة، وأصبح له جيش يتلهف شوقًا إلى الجنة، وأصبح الموت في الجهاد أملًا وأغنية حلوة، وقد جَرَّ رجلٌ صديقَه إلى المحكمة؛ لأنه

تمنى له الحياة طويلة! فتركُ الجهاد بعد ذلك؛ إما جهل بقدرة اللَّه، أو كفر بآيات اللَّه، أو جهل بعظيم ما عند اللَّه، أو معرفة(١) بخسة الدنيا، مع أن الأجل مؤقت معلوم، وإذا تم الأجل المعلوم، ومات الإنسان عند انقضاء أجله في الجهاد، فله من الخير ما لا يحصى كما هو معلوم، وإذا فر وترك الجهاد لا يزيد عمره، ولا يزول عنه المكتوب، بل من فر وترك الجهاد، وتخلّف عن أمر اللَّه بالجهاد يميته اللَّه أشنع ميتة، حسرتها تدوم، ولو كانت هذه الميتة بإقبال في الجهاد، لنال ما نال مع عدم الإحساس بألم الموت».

«فيا أحبابي ويا أصحابي: إن اللَّه غني عن عباده، ولو شاء أمرًا أبرمه وقضاه من غير واسطة أحد، وقد أهلك القرون السالفة، وأهل الأعصار الماضية الذين عصوا أنبياءهم بغير جهاد أحد، ولكن لعنايته ـ سبحانه ـ بهذه الأمة، وليكسبوا المزايا الدائمة، اختار أن يقهر أعداءه ـ سبحانه ـ على أيديهم، ويصفي قلوبهم بذلك، ويختبر إيمانهم وعدمه هنالك، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

واعلموا أن اللَّه لا يخلف وعده، فمن كان مؤمنًا مصدقًا بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وذلك أن من استُشْهِدَ من المؤمنين أراه اللَّه خزي أعدائه في الآخرة، بعد أن أكرمه اللَّه بما ناله في سبيل اللَّه، وأراه أن المؤمنين إخوانه في الدنيا بَعْدُ منصورون، وإن حصلت للكفار دولة في بعض الأحيان؛ فهي لاستدراجهم، ولكمال الخزي بهم، فإن اللَّه عالم بهم، وبيده تقلباتهم وتصرفاتهم، وهو خاذلهم كما أوعدهم بذلك في أكثر من آية، ووعد المؤمنين بالنصر في أكثر من آية؛ فمنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

(١) كذا، ولعله: أو عدم معرفة.

فمن ذلك يعلم المؤمن يقينًا أنه إذا حصلت للكافرين دولة في بعض الأحيان فإنما هي استدراج، وذلك لا يدوم، وإنما العاقبة للمتقين».

«واعلموا أيها الأحباب: أن في الجهاد تصفية الإيمان، والفوز بحسن رضا الرحمن، واعلموا أنه لابد من اختبار التوحيد والإيمان، وتجرد الصافين والصادقين بالامتحان، فيظهر عند ذلك ما كان منطويًا في سريرة العبد من الخلوص للَّه والخسران، فعند المصائب تتضح الأحوال.

وقد حكى لي بعض الإخوان أنه كان في خلاء يذكر الرحمن فأتى إليه ذيب فحضر في باله أنه لا يخلص إلا بطلوع الفجر، أو إدراك أحد من الإخوان، فتداركه عند ذلك نور الإيمان، فصرف عنه طائف الشيطان، فقال في نفسه: إنه لا ينجيني إلا اللَّه الواحد الديَّان، فرسى على حقيقة ما في قلبه من التوحيد والإيمان، فخلصه اللَّه - تعالى - مما يخاف بتوحيد الرحمن، قال - تعالى -: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

فافهموا يا أهل الإيمان، واعلموا أن المدافع والرصاص اختبار لأهل الإخلاص، وكذلك قعقعة السيوف والسنان، وجميع ما يقع في الحروب وغيرها من المصاعب والشنآن، فمن تحقق بالتوحيد علم أن بواطنها وتحركاتها بيد الرحمن، ومن أبعده اللَّه أضلّه الشيطان؛ فزاغ عن توحيد اللَّه، وخاف من تصرفات العدو في الميدان، وغاب قلبه عن التحقق، بأن ملكوت كل شيء بيد اللَّه من جميع الأكوان، وقد حكى بعض الإخوان أنه زاغ من رصاصة، وتذكر توحيد اللَّه، وقيامه بكل شيء، فاعتدل وهجم على الأعداء بقوة صدق الإيمان حتى فرغت الحرابة فرأى عجبًا من إكرام اللَّه للقائمين بنصرة دين الرحمن، فانظروا هذا مع قوله - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

«وإذا كان الأمر كذلك، فيتعين على كل عاقل أن يتوجه لجهاد أعداء اللَّه؛ حتى

يخرجوا إلى الإسلام من أديانهم، أو تسلب نفوسهم من أبدانهم، فجيوش ذوي العناد مُدْبِرَةٌ مُدَمَّرَةٌ، وإن كانت بعقولهم مُقَدَّمَةً ومُدَبَّرَةً، وعزمات رجال الضلال مؤنثة مصغرة، وإن كانت ذواتهم مذكرة مكبرة! ألا ترى أن اللَّه ـ تعالى ـ جعل كل مسلم يغلب منهم اثنين؟ كما قرر ـ سبحانه ـ أن للذكر مثلَ حظ الأنثيين!».

هذه الكلمات البسيطة في تعبيرها، كانت تشق طريقها إلى قلوب السودانيين، فيندفعون سراعًا إلى الموت، طلبًا للشهادة، وأملًا في الجنة، حتى إن أحدهم كان ينزل عن فرسه، ويقاتل راجلًا، ويتضاربون بالسكاكين للزحمة والالتحام الحاصل بين الفريقين، حتى يسقط المسلم والكافر على الأرض جميعًا، فنجد رِجْلَ المسلم على رأس الكافر! والعمامة حول البرنيطة! والبرنيطة حول العمامة! وكان بعضهم يوصي بعضًا فيقول: إن أُصِبتُ قبل أن أتمكن من الوصول والدخول في وسط العدو، فَجُرُّوا برجلي حتى تُلقوني وسط العدو، لعلي أتشفى في أعداء اللَّه، ولو بضربة في آخر رمق مني، فأستريح من شؤم الدنيا.

ولم تتخلف المرأة السودانية عن القيام بدور في هذا الجهاد الذي شاركت فيه الرجل، وكثيرًا ما قامت النساء بدور مع الرجال في حملات المهدي، فقد كانت النساء السودانيات الجالسات يتسولن في شوارع الخرطوم جاسوسات لحساب المهدي، وهن اللواتي كشفن ضعف دفاع غوردون حول المدينة، وتسللن؛ ليخبرن المهدي بذلك، وساعدنه على احتلالها، ويقول محمد أحمد محجوب ـ الرئيس الأسبق لوزراء السودان ـ: لقد حضرت جدتي لأمي إحدى المعارك مع جدي ـ وكان قائدًا في جيش المهدي ـ وهي تحمل على ذراعيها طفلة في الثانية من عمرها، نعست الطفلة التي قدر لها أن تكون أمي، وإذا برصاصة تكشط كتف الأم، وتقطع نصف أذن الطفلة، ولو أن الرصاصة كانت أعلى نصف بوصة لما كنتم تقرءون هذا الكتاب اليوم»اهـ(١).

---

(١) «الأصول الفكرية»، ص (١٨٥ ـ ١٨٩).

ومن هذا نرى أن المهدي السوداني قائد لم يضيعه أتباعه، فما أحراه وأحراهم بقول القائل:

رِجَالٌ دُعَاةٌ لَا يَفُلُّ عَزِيمَهُمْ ... تَهَكُّمُ جَبَّارٍ وَلَا كَيْدُ مَاكِرِ

إِذَا قَالَ مُرُّوا فِي الشِّتَاءِ تَسَارَعُوا ... وَإِنْ جَاءَ حَرٌّ لَمْ يُخَفْ شَهْرُ نَاجِرِ(١)

* * *

(١) الناجر: كل شهر من شهور الصيف.

هَلْ تَأَثَّرَ الْمَهْدِيُّ السُّودَانِيُّ بِالدَّعْوَةِ الْوَهَّابِيَّةِ؟

لقد كانت الحركة الوهابية ـ كما يقول محمد إقبال ـ: «أول نبضات الحياة في الإسلام الحديث، وقد كانت هذه الحركة مصدر إلهام بصفة مباشرة أو غير مباشرة لمعظم الحركات الإسلامية الكبرى في آسيا وأفريقيا»اهـ[(١)].

ومن ثم لهج بعض الباحثين بالأثر القوي الذي أحدثته الحركة الوهابية في حركة المهدي السوداني، واستندوا في تدعيم رأيهم ببعض ملامح التوافق بين الحركتين[(٢)].

وذهبوا إلى أن «المهدي» إنما انتظم في سلك الصوفية؛ لأنه لم يجد أمامه مصدرًا للتعلم سوى المدرسة الصوفية، لكن حينما واتته الفرصة، ومكَّنه اللَّه في الأرض:

- نهى عن التوسل بالأولياء، والتمسح بالأضرحة.
- واعتبر اللجوء إلى غير اللَّه ـ تعالى ـ والحلف به شركًا في العبودية.
- وألغى المذاهب الفقهية، وأبطل الطرق الصوفية باعتبارها مصدر تفريق وتمزيق للجماعة المسلمة.
- وأعلن أن الكتاب والسنة هما المصدر الوحيد للعقيدة والشريعة.

وهاك نقولًا تبيِّن ذلك كله:

ففي دعوته إلى توحيد اللَّه ـ تعالى ـ بالتوجه والدعاء والعبادة يقول المهدي السوداني: «من كان يوحد اللَّه ويرجو لقاء اللَّه لا يميل إلى شيء دونه، ويكون ممن خسر دنياه وآخرته؛ لأن اللَّه هو المحيي والمميت والرزاق والمقيت، فمن نسب إلى غيره عطاء أو منعًا، أو نفعًا أو ضَرًّا، فقد ظلم بوضع الشيء في غير موضعه، ونسب نعمة

---

(١) «تجديد الفكر الديني في الإسلام»، ص (١٧٧)، ط القاهرة.

(٢) انظر: «الموسوعة الميسرة»، (١/٣١٩ ـ ٣٢٠)؛ و«الموسوعة الحركية»، (١/ ٢٣٤)، «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص (٣٨٩)، (٣٩٤)، (٣٩٧).

لغير من لم ينعم، ونسب ضرًّا لغير من لم يضر»[١]، «وكل من نظر إلى شيء دون اللَّه، واعتقد من قلبه أنه ينفع أو يضر، فقد أشرك في الحقيقة، إذ إن كل ما سوى اللَّه باطل؛ لأنه لا قوام له بنفسه فكيف يقوم به غيره؟»اهـ[٢].

وقال في أحد منشوراته: «لا تستغيثوا بأحدٍ دون اللَّه، ولا تطلبوا أحدًا دون اللَّه ولو نبيًّا رسولًا أو مَلَكًا، فجميع الأنبياء والمرسلين دَعَوْا إلى وحدانية اللَّه، فلا تتوهموا وتنسبوا إلى رجل صالح شيئًا، أو تطلبوا منه شيئًا»اهـ[٣].

وقال - أيضًا -: «اعلموا أن العظمة للَّه، فلا تحلفوا بشيء دون اللَّه، فيجري الحلف في غير موضعه، وفي الحديث: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»اهـ»[٤].

وفي إحدى غزواته التقى المهدي بشخص يُسَمَّى عبدالنبي فغيَّر اسمه إلى عبدالباري[٥]، وسئل المهدي عن حكم الدين في التمائم التي تستعمل للاستعاذة من السقم، والعين ونحوه، فقال: «هذا ليس مذهبنا، وإنما مذهبنا التوكل على اللَّه، حيث إنه النافع والضار، وناصية كل شيء بيده، بل لا يخرج عن قدرته فلتة خاطر ولا لفتة ناظر، فينبغي لمن كان تابعًا لنا أن يسلك طريقنا، ويتوكل على اللَّه وحده، ولا يلتفت إلى غيرٍ لا وجود له»اهـ[٦].

وأمر المهدي بإلغاء لقب «درويش»، وهدد كل من يستعمله بمئة جلدة؛ «لأن من نفذ قلبه إلى ما عند اللَّه من الخير، وترك ما في الدنيا من الضير، لا يسمى درويشًا، وإنما يسمى عاقلًا ومدركًا وبصيرًا وناصرًا لدين اللَّه؛ حيث إنه وافق إرادة اللَّه، وترك ما لا يريده، وذلك لنور البصيرة، فلزم من سمي مثل هذا بالدرويش - الذي هو ذاهب

---

(١) «منشورات المهدية»، ص (٣٠)، ولا يستقيم السياق إلا بحذف «لم» في الموضعين.

(٢) «السابق»، ص (٢٩).

(٣) «السابق»، ص (٤٦).

(٤) «منشورات الإمام المهدي»، (١/٤٦ - ٤٧).

(٥) «سعادة المستهدي»، ص (١٩١)، نقلًا عن «الأصول الفكرية»، ص (٢١٩).

(٦) «الأصول الفكرية»، ص (٢١٩ - ٢٢٠).

العقل - التعزيرُ والجلد»[١].

● وأعلن الخليفة عبداللَّه التعايشي - باسم المهدي - إلغاء المذاهب، والطرق الصوفية؛ حتى لا يبقى إلا الدين الخالص.

يقول التعايشي: «ومعلوم أنه - أي المهدي - على نور من ربه، وتأييد من رسول اللَّه ﷺ، وموعود أن يرفع المذاهب، ويطهر الأرض من الخلاف، ويعمل بالسنة؛ حتى لا يبقى إلا الدين الخالص، بحيث لو كان رسول اللَّه ﷺ موجودًا لأقره على جميع أفعاله»اهـ[٢].

ويقول نعوم شقير في تاريخه: «كان أساس تعاليمه - أي المهدي - أن يعيد الدين إلى ما كان عليه في أول الإسلام، وقد رفع المذاهب الأربعة، وتفرد بمذهب اجتهادي خاص به، ومنع الناس من زيارة قبب (أضرحة) الأولياء التي كانوا يزورونها قبل المهدية»[٣].

أما عن كيفية انتقال هذه التأثيرات السلفية إلى المهدية السودانية، فقد قطع هؤلاء الباحثون شوطًا بعيدًا لمحاولة «استنتاج» هذه الكيفية، بطريقة لا تخلو من التكلف؛ فقد ذهب البعض إلى أنه من المحتمل «أن يكون الحجاج السودانيون تحملوا هذه الأفكار السلفية ونقلوها إلى السودان بعد عودتهم من مكة، أو أن يكون ذلك قد تم بوساطة الحركة السنوسية التي انتشرت زواياها وفروعها في أنحاء السودان بكثرة»[٤].

● يقول الدكتور يوسف فضل حسن:

«تؤكد المصادر أن الإمام المهدي نشأ في كنف الطريقة الصوفية، وعلى نهجها حقق مكانته في المجتمع قبل أن يفصح عن دعوته، ومع أن المصادر لا تشير إلى أن

---

(١) «منشورات المهدية»، ص (٢٩٧).

(٢) «الأصول الفكرية»، ص (٢٢٤).

(٣) انظر: «السابق»، ص (٢٣١).

(٤) «السابق»، ص (٢١٤).

الإمام المهدي قد زار الحرمين الشريفين، أو أنه تأثر مباشرة بفكر الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» عن طريق تلاميذه أو مؤلفاته، إلا أن محصلة دعوة الإمام المهدي ترجح أن الإمام المهدي، وإن لم يتصل بفكر الشيخ محمد عبدالوهاب مباشرة، فإنه ربما قرأ عنه أو سمع، ولا غرابة أن يصل عالم في سعة علم الإمام المهدي، وعمق دراسته للقرآن الكريم والسنة الشريفة، وقوة عارضته في الاستنباط، أن يصل إلى نهج يماثل نهج الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» أو الإمام «الشوكاني» (١١٧٢/ ١٢٥٠هـ - ١٧٥٨/ ١٨٣٤م).

إن النمط الذي اختاره محمد أحمد المهدي لإعلان دعوته القائم على فكرة «المهدي المنتظر» أقرب إلى فكرة المتصوفة منه إلى تعاليم الشيخ «محمد بن عبدالوهاب»، ولكن الدراسة التفصيلية لبرنامجه الإصلاحي تؤكد أن جوهر دعوته أقرب إلى دعوة التوحيد»[1].

التعقيب:

إن القول بأن المهدي السوداني تأثر بالدعوة الوهابية التجديدية قول لا يخلو من مسامحة؛ لأن محاكمة دعوة ما إنما تنبني على أصول منهجها ومرجعيتها، ولا جدال أن «مصادر التلقي» عند المهدي السوداني قد اختلط فيها الحق بالباطل، والهدى بالضلال، ولن تجدي محاولة التمسح بالحركة الوهابية السلفية المشرقة في ستر عيوب المنهج الصوفي المنحرف الذي اختطه المهدي السوداني.

إذن فماذا عن الملامح السلفية التي سبق ذكرها في دعوة المهدي السوداني؟

نقول: إن هذه الملامح ليست بالضرورة راجعة إلى تأثره بالدعوة الوهابية، ولكنها جزء من الجانب المشرق في دعوة المهدي السوداني النابع من الأدلة الشرعية الدالة على

---

(١) «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص (٣٨٩).

حقائق التوحيد، وإن تبني هذه المبادئ التوحيدية ليس حكرًا على الوهابية ولا غيرها؛ لكونها جوهر الإسلام الصافي، ودلالة العقل السليم، والفطرة المستقيمة.

ومَثَلُ حركة المهدي السوداني في ذلك كمثل دعوة الشيخ محمد عبده ومدرسته المسماة بالإصلاحية، فمع كونها اعتزالية النزعة، إلا أنها توافقت مع الدعوة السلفية في بعض الملامح المشرقة[١].

* * *

(١) انظر: «الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين»، (٢/٣٥٧ - ٣٧٩).

المَهْدِيُّ السُّودَانِيُّ فِي المِيزَانِ السَّلَفِيِّ

مما لا شك فيه أن حركة المهدي السوداني توافق حركة شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب في هدفها الشريف الذي هو: التمكين لدين اللَّه في الأرض، وتجديد شباب الإسلام، وإصلاح حال الأمة.

غير أنَّا إذا أردنا محاكمة منصفة وعادلة لأي حركة فلابد أن يتم ذلك بمحاكمة كُلٍّ من الغاية والوسيلة معًا، المقصد والمنهج معًا، أما الاقتصار على نبل الغاية، وصحة القصد وسلامة الشعار، مع غض الطرف عن الانحراف المنهجي، والقفز فوق المعايير العلمية الدقيقة انسياقًا وراء العاطفة الجياشة، والحماس المتدفق، فإنه يجني أول ما يجني على الحقيقة ذاتها، ويُبقي الأمة عرضةً لأن تُلْدَغ من نفس الجحر مرات ومرات ما دامت لا تستوعب دروس التاريخ وعبر الماضي.

والسؤال الآن: هل يكفي في اعتبارِ حركةٍ ما حركةً تجديدية إصلاحيةً أن ترفع شعار «الكتاب والسنة»؟

الجواب: لا، حتى يُقَيَّدَ ذلك بقَيْدٍ لازم، فنقول: «الكتاب والسنة بفهم الصحابة ـ رَضِيَ اللَّه عَنْهُمْ ـ ومن تبعهم بإحسان»؛ وذلك لأن الفرق الضالة من خوارج ومعتزلة وشيعة ومرجئة وقدرية وغيرها لا تزال في كل عصر ومصر ترفع هذا الشعار المطلق دون أن تقيده بهذا القيد المهم، وبالتالي تقع في الانحرافات التي تخرجها من الفرقة الناجية إلى الفرق النارية.

إذن إعلان المهدي السوداني أن «الكتاب والسنة هما المصدر الوحيد للعقيدة والشريعة»، ليس مما يُفرح به، حتى يُضَمَّ إليه هذا **الضابطُ:** «بفهم السلف الصالح» الذي يسد على الأمة أبواب الانحراف.

ولأن المهدي السوداني لم يفعل ذلك؛ تورط في انحرافات منهجية خطيرة لا يشفع

له فيها ـ عند منتقديه ـ حسنُ قصده، وسلامة نيته، ولا إنجازاته العملية التي سبق الإشارة إليها.

فمن هذه الانحرافات:

١ـ ادعاؤه أنه المهدي المنتظر مع عدم انطباق كل صفات المهدي الحقيقي عليه:

- فالمهدي يملك سبع سنين، والسوداني عاش بعد ادعائه المهدية أربع سنوات، من ١٢٩٨هـ إلى ١٣٠٢هـ (١٨٨١م إلى ١٨٨٥م).
- والمهدي ينعم الناس في عهده نعمة لم يعهدوا مثلها، وينتشر الرخاء، ويحثو المال بيديه حثوًا، وهذا لم يحدث في عهد السوداني.
- والمهدي الحقيقي يصلي عيسى ـ عليه السلام ـ أول نزوله ـ خلفه.
- والمهدي يملك الأرض، ويملؤها قسطًا وعدلًا، والسوداني عاش ومات داخل وطنه.

٢ـ دعواه التلقي المباشر عن رسول الله ﷺ في اليقظة:

إن أخطر ما ادَّعاه المهدي السوداني أنه نسب أقواله إلى النبي ﷺ، فهو لا يفعل شيئًا إلا بأمره، ولا يُصْدِر حكمًا إلا بإذنه، وقد كان أساس مهديته قائمًا على هذه الصلة، ولم تكن نبوءاته إلا إخبارًا بما يقول: إنه سمعه من الرسول أو بلغه، فإذا ثبت بالدليل والواقع أن هذه التنبؤات لم تصدق، وأن هذه التوقعات لم تتحقق، أصبح الأساس الذي قامت عليه مهديته منهارًا.

وقد أسلفنا الأدلة على استحالة التلقي عن رسول الله ﷺ مباشرة في حال اليقظة بعد موته استحالة شرعية[1]، وأثبتت الوقائع الحسية أن رسول الله ﷺ لم يخاطب المهدي بما ادَّعاه، وأن عامة ما ادَّعاه المهدي السوداني، ونسبه إلى رسول الله ﷺ لم يتحقق منه شيء، وهاك أمثلةً من تنبؤاته التي لم يتحقق منها شيء:

---

(١) راجع «الفصل الثالث» من «الباب الثالث» ص(٢٥٩) وما بعدها.

- فقد ذكر أن رسول اللَّه ﷺ «أمر - في حضرة من حضرات المهدي المزعومة - عزرائيل قائلًا:

«من هذه الليلة اصحب المهدي لا تفارقه»، وهذه الليلة المذكورة - التي حصلت فيها هذه الحضرة - غرة شعبان ١٢٩٨هـ ليلة الأربعاء، ثم تلا لنا - أي النبي ﷺ جميع الأحوال إلى دخول مكة، ومنازعة أهلها ومبايعة الضعفاء والغرباء أولًا، ثم مبايعة الشريف ملك مكة وجميع أشرافها معه»(١).

- وقال في رسالته إلى الخديو: «وبشرني سيد الوجود ﷺ بالنصر على كل من يعاديني، ولو كان الثقلين، وبأن من يقصدني بعداوة يخذله اللَّه في الدارين، وقلدني سيف النصر، وأخبرني بأني أملك جميع الأرض، وها أنا قادم إلى جهتك بجنود اللَّه عن قريب - إن شاء اللَّه - تعالى - ولابد من وقوعك في قبضتنا، ولو كنت في بروج مشيدة»(٢).
- وادَّعى في رسالته إلى المهدي السنوسي أن النبي ﷺ أخبره أنه من وزرائه، وأنه أوقف كرسيَّ عثمان رضي الله عنه وقال: «هذا الكرسي لابن السنوسي»(٣).
- وبعد فتح «الأُبيِّض» ادعى أن الرسول ﷺ بشره بأنه سيصلي في مسجد «بربر»، ثم المسجد الحرام بمكة، وفي مساجد المدينة المنورة، ومصر، وبيت المقدس، وبغداد، والكوفة(٤).

٣- إلزامه الناس بدعاواه الزائفة، بل تكفيرهم وقتالهم عليها:

وهنا مكمن الخطر الحقيقي في دعوى المهدي السوداني؛ لأن ادعاء المهدية بمجرده، وادعاء التلقي عن رسول اللَّه ﷺ مباشرة يترتب عليهما ضرر لازم لصاحبه، أما أن

---

(١) «منشورات المهدية»، ص(١٨).

(٢) «منشورات الإمام المهدي»، (٢/٢٧٧) باختصار.

(٣) «منشورات المهدية»، ص (٧٣).

(٤) «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص (٣٩٥).

يُلزم الناس بهما إلزامًا، ويعاقبهم على رفض دعواه بالتكفير أولًا، ثم بمقاتلتهم عليها ثانيًا، فهذا هو العبث بشريعة اللَّه، والعدوان على حرمات المسلمين المعصومين في أبشع صورة.

وحين قال رسول اللَّه ﷺ: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ»[١]، فإنما كان يعني تحذير الذين يتقولون عليه ﷺ ما لم يقل؛ لأن في هذا تحريفًا للدين وعبثًا بالمصدر الثاني للتشريع بعد كتاب اللَّه - عز وجل -؛ لأن السنة حجة شرعية مستقلة.

● يقول المهدي ضمن رسالته إلى يوسف حسن الشلالي ومن معه:

«وقولكم: إنا قتلنا جملة من المسلمين المتوطنين بهذا المكان ظلمًا وعدوانًا باطل؛ لأنا ما قتلنا إلا أهل «الجرادة» بعد أن كذبونا وحاربونا، وقد أخبرنا النبي ﷺ وأخبر جميع أهل الكشف بأن من شك في مهديتنا فقد كفر، ودمه هدر، وماله غنيمة، فحاربناهم؛ لأجل ذلك، وقتلناهم.

وقولكم: إن الذين قتلناهم من العسكر مسلمون ومتبعون ما جاء به النبي ﷺ ونُسأل عن دمائهم بين يدي اللَّه - تعالى - باطل؛ لأن القطب الدرديري قد نص في باب المحاربة على أن أمراء مصر وعساكرهم وجميع أتباعهم محاربون لأخذ أموال المسلمين منهم كرهًا؛ فيجوز قتلهم، على أن النبي ﷺ أمرنا صريحًا بقتال الترك، وأخبرنا بأنهم كفار؛ لمخالفتهم لأمر الرسول باتباعنا، وإرادتهم إطفاء نور اللَّه - تعالى - فكيف نُسأل عنهم بعد هذا؟!»[٢].

و«جاء في واحدة من أولى رسائله إلى الحاكم التركي رءوف باشا: وبعد: فعلى مقتضى المكاتبة فالأمر المطلوب كشفه أن دعائي الخلقَ على تقويم السنة، والهجرة بالدين مما عليه الطباع الزمنية، أمر من سيّد الوجود ﷺ فمن تبع صار من المقربين

(١) تقدم تخريجه ص (١١١).

(٢) «منشورات المهدية»، ص (٣١١ - ٣١٢).

الفائزين، ومن خالف خذله اللَّه في الدارين وصده بقدرته، أما المواعظ للمؤمنين فهي مبينة، فمن لم يصدق طهره السيف، وليكن المعلوم أنه أتاني من الحضرتين ـ حضرة النبوة وحضرة الأقطاب ـ سيف، وأعلمت أنه لا يُنصر عَلَي مَن معه أحدٌ، ومن أتانا بالعداوة يأخذْه اللَّه؛ إما بالخسف، أو بالغرق، وذلك إعلام منه ﷺ[(١)].

وقال في بيان إعلان مهديته: «... وقد أخبر ﷺ مرارًا أن من شك في مهديتي كفر باللَّه ورسوله، وأن من عاداني كافر، وأن من حاربني يخذل في الدارين، وأمواله وأولاده غنيمة للمسلمين»[(٢)].

لقد كان من آثار هذه المغالطات فرض الوصاية على «الجن والإنس» فرضًا، يقول المهدي ضمن رسالته إلى الشلالي:

(وقولكم: قم واحضر عندنا، وتوجه بنا إلى محل الهدي: مكة المشرفة، فاعلموا أن توجهنا إنما يكون بأمر رسول اللَّه ﷺ في الوقت الذي يريده اللَّه، ولسنا تحت أمركم، بل أنتم ومن فوقكم تحت أمرنا، وأنا ولي الأمر الآن على سائر الإنس والجان»اهـ[(٣)].

وقال مخاطبًا محمد بك أبو السعود: «... وأنا ولي الأمر الذي تجب طاعته على جميع الأمة المحمدية»اهـ[(٤)].

بل إنه حاول فرض هذه الوصاية ـ بناءً على مزاعمه وادعاءاته ـ حتى على الحركات الإسلامية المعاصرة له، ولعل أوضح دليل على ذلك أسلوبه في مخاطبة محمدٍ المهدي

---

(١) «السابق»، ص (٣٠٨ - ٣٠٩).

(٢) انظر ص(٤٨٢).

(٣) «منشورات المهدية»، ص (٣١٤)، ويلاحظ أن المهدي كان «يحرص على أن يتجنب ذكر الحج، أو الدعوة إليه؛ لأنه كان يؤمن بأن الجهاد أولى وأهم من الحج، وقد تفادى المهدي أن ينص على هذا في رسائله، ونراه هنا يتخلص من طلب الشلالي دون أن يوافق أو يعارض فكرة الحج، أو يوضح موقعها من دعوته». اهـ. من حاشية محقق «منشورات المهدية»، الدكتور/ محمد إبراهيم أبو سليم، هامش ص (٣١٤).

(٤) راجع ص (٤٨٥).

السنوسي، ومحاولة جَرِّه إلى متابعته قسرًا، وقد سبق بيان ذلك، وكيف استخف السنوسي بمزاعمه، وأهمل الرد عليه[١].

لقد كان يهون الأمر لو أن هذه «الهلاوس» و«الضلالات» محصورة في دائرة «الصوفي المجذوب الهائم»، لكن الأمر يختلف تمامًا إذا انسحبت خيالاته إلى عامة الناس، فتصبح تشريعًا يُفرض بقوة السيف، فهذا ما لا يمكن إقراره؛ لأن «ذوق الصوفي المجذوب» في مثل هذه الحالة يحصل له وهو في حالة غير طبيعية بل غير سوية، الأمر الذي يجعله غير صالح؛ لأن يُخاطَب به المقيدون بالنواميس الطبيعية.

٤ـ جاء في «الموسوعة الميسرة»: أن المهدي السوداني «نسب إلى نفسه العصمة، وذكر بأنه معصوم نظرًا لامتداد النور الأعظم فيه من قِبَلِ خالق الكون إلى يوم القيامة»اهـ[٢].

فلو صح هذا عنه؛ فلا يبعد أن يكون المهدي السوداني قد تأثر بالصورة التي رسمها ابن عربي عن المهدي في قوله:

«والمهدي لا يخطئ؛ لأنه يقفو أثر رسول الله ﷺ، والإمام ـ أي المهدي ـ يتعين عليه عِلْمُ ما يكون بطريق التنزيل الإلهي، فما يحكم المهدي إلا بما يلقي إليه الملك من عند الله الذي بعثه إليه ليسدده، فعرفنا بذلك أنه معصوم، ولا يخطئ، ولا معنى للمعصوم في الحكم، إلا أنه لا يخطئ»[٣].

وابن عربي بدوره متأثر في تصوره عن المهدي بمفاهيم الشيعة عن أئمتهم، ومهديهم المزعوم.

وقال التعايشي في سياق كلامٍ له عن المهدي: «ومعلوم أنه على نور من ربه، وتأييد من رسول الله ﷺ، وموعود أن يرفع المذاهب، ويطهر الأرض من الخلاف،

---

(١) راجع ص (٥١١) وما بعدها.

(٢) «الموسوعة الميسرة»، (٣١٨/١).

(٣) انظر ص(٥٥٠).

ويعمل بالسنة، حتى لا يبقى إلا الدين الخالص، بحيث لو كان رسول الله ﷺ موجودًا لأقره على جميع أفعاله»اهـ، ولا أدري ما الذي أحوج التعايشي إلى هذه الشرطية ما دام مهديه يتلقى عن رسول الله ﷺ مباشرة؟!

والأسوأ من هذا كله غلو المهدي في صديقه التعايشي إلى حَدٍّ يفوق الوصف إذ يقول مشيرًا إلى عصمته:

«إن الخليفة عبدالله هو مني، وأنا منه، وقد أشار إليه سيد الوجود ﷺ؛ فتأدبوا معه كتأدبكم معي، وسلموا له ظاهرًا وباطنًا كتسليمكم لي، وصدقوه في قوله، ولا تتهموه في فعله، فجميع ما يفعله بأمر النبي ﷺ، أو بإذن منا، لا بمجرد اجتهاد منه، بل هو نائب عنه في تنفيذ أمره ﷺ، والقضاء بإشارته، فإن فعله بكم، وحكمه فيكم بحسب ذلك.

واعلموا يقينًا أن قضاءه فيكم، هو قضاء رسول الله ﷺ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فمن كان في صدره حرج لأجل حكمه؛ فذلك لعدم إيمانه وخروجه من الدين بسبب غفلته، وذلك بشاهد قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]. ولا شك في شرك من استنكف عن حكم الله، وحكم رسوله، سيما بقوله ﷺ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْخَفِيُّ»، مع أنه خليفة الصديق، وأول المصدقين في المهدية، فانظروا لمكانة الصديق عند الله ورسوله بنص القرآن، وانظروا لمن أورثه الله مكانة الصديق بالباطن ـ بالخضر ـ عليه السلام ـ فهو ـ مسدد مؤيد من الله ورسوله، ويد من أيادي الله لنصرة دينه بإشارة سيد الوجود ﷺ، فحيث فهمتم ذلك، فالتكلم في حقه يورث الوبال والخذلان وسلب الإيمان.

واعلموا أن جميع أفعاله، وأحكامه محمولة على الصواب؛ لأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب... ولو كان حكمه على قتل نفس منكم أو سلب أموالكم، فلا تعترضوا عليه، ومن تكلم في حقه ـ ولو بالكلام النفسي ـ فقد خسر الدنيا والآخرة! ويُخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله؛ لأنه خليفة الصديق الذي قال الله في حقه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وقال ﷺ: «مَا طَلَعَت شَمْسٌ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّينَ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ»، وحيث علمتم ذلك، فهو بمنزلته الآن؛ لأن أصحابنا كأصحاب رسول الله ﷺ.

والمذكور خليفتنا في الدين، وخلافته بأمر من النبي ﷺ، فمن كان منكم مؤمنًا بالله واليوم الآخر، ومصدقًا بمهديتي، فليسلم للخليفة عبدالله ظاهرًا وباطنًا، وإذا رأيتم منه أمرًا مخالفًا في الظاهر؛ فاحملوه على التفويض بعلم الله، والتأويل الحسن.

وإنما أنذرتكم بهذا رحمة بكم، وشفقة عليكم، وليبلغ الشاهد منكم الغائب...

وإن الخليفة هو قائد جيوش المسلمين، وخليفتنا، والنائب عنا في جميع أمور الدين، وإياكم والوسوسة في حقه، وظن السوء به، وعدم الامتثال إليه في قوله، والمشاجرة له أو لأحكامه، ومن عاد فينتقم الله منه، ويسلطه عليه.

وهذا بيان أمر الله ورسوله، ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقد أتانا خبر من الخضر ـ عليه السلام ـ أن الأولياء اجتمعوا في بيت المقدس يقولون: الحمد لله الذي أظهر المهدي، وجعل عبدالله وزيره!

ثم وجد ـ أي الخضر ـ اجتماع الشياطين، وهم يقولون: كان عيشنا بالغش والخداع، والمكر والكذب، فأتى المهدي، وقطع علينا عيشنا، ولولا أن عبدالله وزير له، وكان الخليفة غيره، لكنا نجد في المهدية دخولًا!»[1].

---

(١) «منشورات المهدية»، ص (٦٦ - ٦٩)؛ و«منشورات الإمام المهدي»، (١/ ٣٠)، وما بعدها.

٥- مَلَامِحُ الصُّوفِيَّةِ المُنْحَرِفَةِ فِي مَنْهَجِ المَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ:

لقد نشأ المهدي السوداني وترعرع في كنف المنهج الصوفي الذي تشبع به المجتمع السوداني، وكان سِمَتَهُ الغالبة، وسلك الطريقة السمانية، ولم يكن صوفيًّا معتادًا، بل رأسًا وشيخ طريقة، وقد تغلغل الفكر الصوفي في وجدانه وشكَّل هويته، وهاك بعض مظاهره:

- كانت مصادر التلقي عند المهدي انعكاسًا لصوفيته المخرفة؛ كالكشف والإلهام والرؤى المنامية والحضرات الصوفية التي يحضرها - بزعمه - الأولياء والأقطاب والأبدال، بل الرسول ﷺ والخلفاء الأربعة، ناهيك عما سبق الإشارة إليه من دعواه التلقي المباشر عن رسول اللَّه ﷺ.
- أعلن المهدي حظرًا على تبادل الكتب إلا كتب الأصول؛ كالمصحف الشريف والصحيحين، وغيرها مما أجازه؛ كإحياء علوم الدين للغزالي، الذي يعد دستور الفكر الصوفي[1].
- تبنى المهدي فكرة القطبية التي يزعم الصوفية أن الكون مرتكز عليها، وأنها جوهر الكون، وعليها يدور، وأنها أساس السعادة[2].
- عَكَسَ كلام خليفته التعايشي في عصمته، وكلام المهدي في حق التعايشي الصورة

---

(١) وهذا يعكس «الجفاء» بل «العداء» التقليدي بين الصوفية والعلم، وهو أشهر من أن ندلل عليه.

(٢) ولما تحركت الحكومة؛ لضرب المهدية في جزيرة «أبا»، كتب المهدي خمس رايات رفع عليها شعار «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، وعلى أربعة منها كتب على كل واحدة منها اسم واحد من الأقطاب الأربعة المتصوفة، وهم: الجيلاني، والرفاعي، والدسوقي، والبدوي، وكتب على الخامسة «محمد المهدي خليفة رسول الله». اهـ. من «الموسوعة الميسرة»، (٣١٧/١).

وقال في أحد أوائل بياناته: «... وأخبرني سيد الوجود ﷺ بأني المهدي المنتظر، وخلفني - عليه الصلاة والسلام - بالجلوس على كرسيه مرارًا، بحضرة الخلفاء الأربعة، والأقطاب، والخضر - عليه السلام - ...» إلى أن يقول: «وفي ساحة الحرب يحضر معهم سيد الوجود ﷺ بذاته الكريمة، وكذلك الخلفاء الأربعة، والأقطاب، والخضر - عليه السلام -». اهـ من «منشورات المهدية»، ص (٢٤).

الصوفية النموذجية في علاقة المريد بشيخه، بالتسليم المطلق له، وأن يكون بين يديه كالميت بين يدي من يغسله[(١)].

لقد كان المهدي ابنًا بارًّا بالصوفية، فهي التي فتحت له باب المهدية، ومنحته جواز المرور إليها، وبذلت له الأدلة والأسانيد، وكان لكتب ابن عربي[(٢)] الأثر البليغ في رسم صورة المهدي التي تقمصها، وتوحد معها، واستلهم منها خططه وأفكاره.

* * *

---

(١) انظر: ص (٤٥٥).

(٢) لقد أسهب ابن عربي في الحديث عن المهدي المنتظر، وصبغه بصبغة صوفية، حيث جعله قطبًا صوفيًّا، وراجت مؤلفاته التي حوت الحديث عن المهدي مثل «الفتوحات المكية»، و«عنقاء مُغْرِب» في السودان، إلى جانب كتاب «لواقح الأنوار في طبقات الأخيار» للشعراني، وقد تأثر بهذه الكتب المهدي السوداني، والمهدي الجونبوري في «الهند»، حتى قال بعض الباحثين: إن ابن عربي مَهَّد ـ بهذه الكتب ـ الطريق للقادياني والجونبوري، خاصة في فكرة «ختم الولاية»، و«نبوة الأولياء»، وانظر: «فرق الهند» ص(٣٠٦، ٣١٢ ـ ٣١٣).

تَأَثُّرُ المَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ بِافْتِرَاءَاتِ ابْنِ عَرَبِيٍّ

لقد خلط ابن عربي خصائص وصفات المهدي التي وردت في السنة الصحيحة، بتلك التي وردت في الأحاديث الضعيفة، وأضاف إليهما أكاذيب فاحشة استمدها من «**مصدرٍ ثالث**»، فكان هذا الخليط هو الأساس الذي بنى عليه المهدي السوداني دعواه، وهاك بعض هذه الأوصاف «الدخيلة» على السنة الشريفة من كلام ابن عربي(١):

- فمن ذلك قوله: «إن لهذا الخليفة مَلَكًا يسدده من حيث لا يراه؛ أي ملك الإلهام».
- وقوله: إنه «يرفع المذاهب من الأرض، أعداؤه مقلدة العلماء؛ لما يرونه من الحكم بخلاف ما ذهب إليه أئمتهم».
- وقوله: «يبايعه العارفون بالله من أهل الحقائق عن شهود وكشف بتعريف إلهي، فشهداؤه خير الشهداء، وأمناؤه خير الأمناء».
- وقوله: «يعرف من الله ـ علم الغيب ـ قدر ما تحتاج إليه مرتبته؛ لأنه خليفة مُسَدَّد».
- وقوله: «يفهم منطق الحيوان، ويسري عدله على الإنس والجان، من أسرار علم وزرائه الذين استوزرهم الله له، وهم ـ أي الوزراء أو الخلفاء ـ على أقدام رجال من الصحابة، صدقوا ما عاهدوا الله عليه».
- وقوله: «وهو أعلم الخلق بالله، ولا يكون في زمانه، ولا بعد زمانه أعلم بالله منه، فهو والقرآن أخوان، كما أن السيف والمهدي أخوان، والمهدي حجة الله على أهل زمانه، وهي درجة الأنبياء».
- وقوله: «والمهدي لا يخطئ؛ لأنه يقفو أثر رسول الله ﷺ، والإمام ـ أي المهدي ـ يتعين عليه علم ما يكون بطريق التنزيل الإلهي، فما يحكم المهدي إلا بما يلقي إليه

(١) كما وردت في «الفتوحات المكية»، (٣/٣٢٧ ـ ٣٣٥)، وليكن منك على ذُكْر قول ابن عربي في شأن «فتوحاته» هذه: «إنما الحق يُملي لنا على لسان مَلَك الإلهام جميع ما نسطره». اهـ. (١/٢٨٧).

المَلَك من عند اللَّه الذي بعثه إليه؛ ليسدده، فعرفنا بذلك أنه معصوم، ولا يخطئ، ولا معنى للمعصوم في الحكم إلا أنه لا يخطئ».

إن هذه الافتراءات تفوح منها رائحة مميزة يدركها كل خبير بالمذهب الشيعي الرافضي، فقد استمدها ابن عربي من «أكذب» الفرق الضالة الشيعة الرافضة[1]، وكانت كتب ابن عربي «القنطرة» التي عبرت عليها الأفكار الشيعية إلى العقول الصوفية.

ولقد تكلف المهدي السوداني، وأرهق نفسه، وأرهق معها الآخرين، في محاولة تقمص هذا التصور الغريب لشخصية المهدي التي رسمت ملامحَها كتاباتُ ابنِ عربي، وإنَّ تقبله افتراءات ابن عربي يزعزع ـ بل يزلزل ـ الثقة في المستوى العلمي الذي بلغه المهدي السوداني، ويكشف أنه «متواضع» إلى حدٍّ كبير، ويجعله أدنى من مستوى رجل من عوام أهل السنة؛ لأن هذا العامي لم يتورط في كبيرة القول على اللَّه بغير علم، كما يجسد لنا خطر الفكر الصوفي الدخيل على الإسلام، وكيف أن «احتكار» الصوفية لمنابع التعليم والتربية في البيئة السودانية المنغلقة على نفسها في ذلك الوقت يكمن وراء انحصار المهدي السوداني في دائرة تأثيرها، وحرمانه من تأثير حركات إسلامية معاصرة له مارست دورًا تجديديًّا حقيقيًّا وعميقًا أعني حركة شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه اللَّه ـ، ثم حركة الإمام محمد بن علي السنوسي ـ رحمه اللَّه ـ.

● فإن قال قائل: إذا كان المهدي السوداني صوفيًّا لحمًا ودمًا، فلماذا إذن ألغى الطرق الصوفية؟

فالجواب ـ والعلم عند اللَّه ـ تعالى ـ:

أن هذا لا يعني بالضرورة تخليه عن «الفكر» الصوفي، وانحيازه إلى منهج أهل

---

(١) راجع: ص (١٧٣).

الحديث، أهل الحق، أهل السنة والجماعة، فإن هذه الخطوة كانت «تكتيكية» ولم تكن «استراتيجية»، بمعنى أن مقصوده كان توحيد الطرق المتعددة في طريقته المتفردة، كي تدور الحركة حول قطب واحد، لا أقطاب متعددة، متنافرة، ولا شك أن طريقته المتفردة هي الطريقة الصوفية التي يدين لها بالولاء، وينطلق من مفاهيمها، ويحترم مرجعيتها، وعلى أساسها بنى دعواه المهدية وغيرها من الدعاوى والمجازفات.

لقد ظل الأساس الصوفي الذي قامت عليه دعوته ملازمًا له طول حياته، وبقي كامنًا في عقله ووجدانه إلى آخر عمره[1]، وكان يلجأ إليه أحيانًا في محاججة أعدائه وخصومه كما تفصح عنه مكاتباته ومواقفه.

ولم يثبت بصورة حاسمة أنه تخلى أو تراجع أو تبرأ من ضلالات الصوفية، وهو ـ وإن كان رفع شعار «الكتاب والسنة» فقط لا غير ـ فقد كان لسان حاله يقول: «الكتاب والسنة بفهم الصوفية»، وكيف يتخلى عن هذا المنهج الصوفي وهو أساس دعوته وجوهرها، فإننا لو خلعنا عن دعوته الملامح الصوفية؛ «كالتلقي عن الرسول ﷺ مباشرة يقظةً، وتنصيبه إياه مهديًّا، وحكمه أن من خالف مهديته فقد كفر، واستناده إلى الكشف والإلهام،..» إلى آخر ما ذكرناه سابقًا، لبقيت دعواه المهدية خواءً، ولانهارت مهديته من أساسها، وصار ـ من هذه الحيثية ـ كغيره من مدعي المهدية سواءً بسواء.

٦ـ مَوْقِفُهُ مِنَ الخِلَافِ الفِقْهِيِّ وَالْمَذَاهِبِ الفِقْهِيَّةِ:

بما أن المهدي كان ـ في زعمه ـ يتصل برسول اللَّه ﷺ مباشرة، ويتلقى عنه، ويتحدث باسمه؛ كقوله: «أخبرني سيد الوجود ﷺ»، وقوله: «إن أمرنا ناشئ عن إلهام صائب مع المشورة المسنونة»؛ فإنه كان يرى في نفسه أنه في وضع يُمكِّنُه من استنباط الأحكام، ومن ثم لم يتقيد بمذهب خاص في أحكامه، وادَّعى الاجتهاد، وطرح العمل بالمذاهب الأربعة، وقد سئل مرة: «معلوم أن المذاهب أربعة: الحنفي، والشافعي،

(١) انظر: «الأصول الفكرية»، ص (١٥٨).

والمالكي، والحنبلي، فما مذهب المهدي؟»، فقال: «هؤلاء الأئمة ـ جزاهم اللَّه ـ دَرَّجوا الناس، ووصلوا إلينا، فجزاهم اللَّه خيرًا، فهم رجال ونحن رجال، ولو أدركونا لاتبعونا، وإن مذهبنا هو الكتاب والسنة والتوكل على اللَّه، وقد طرحنا العمل بالمذاهب ورأي المشايخ»[١].

هكذا ـ وبجرة قلم ـ أبطل المهدي العمل بالمذاهب! وأحل محلَّها مذهبه الخاص به، وهذه من أشنع مجازفاته، التي يتجلى فيها مفهومه السطحي لقضية الخلاف الفقهي، ومبلغه من علم الشريعة، وقد تأثر في ذلك بقول ابن عربي في شأن المهدي: «يرفع المذاهب من الأرض... أعداؤه مقلدة العلماء؛ لما يرونه من الحكم بخلاف ما ذهب إليه أئمتهم... وهو أعلم الخلق باللَّه... ولا يكون في زمانه، ولا بعد زمانه أعلم باللَّه منه... والمهدي حجة على أهل زمانه... وهي درجة الأنبياء»اهـ[٢].

وابن عربي نفسه يسد علينا باب الاستفسار عن مستنده في هذه الدعاوى؛ لأنه ادعى أن ما يكتبه ليس عن روية وفكر، وإنما هو نفث روعي على يد «مَلَكِ الإلهام»، من إملاءٍ إلهي، وإلقاء رباني، أو نفث روحاني، يقول ابن عربي: «إن ترتيب الفتوحات المكية لم يكن لي من اختيار، ولا عن نظر فكري، وإنما الحق يملي لنا على لسان ملك الإلهام جميع ما نسطره»اهـ[٣].

ويقول ـ أيضًا ـ: «إني رأيت رسول اللَّه ﷺ في مبشِّرة أريتها في العشر الأواخر من المحرم سنة ٦٢٧هـ بدمشق، وبيده كتاب، فقال: هذا كتاب «فصوص الحكم»، خذه واخرج به إلى الناس»اهـ[٤].

كذلك يوصد المهدي نفسه في وجهنا باب الاستفسار عن مؤهِّلاته العلمية التي

(١) انظر: «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص (٣٩٣).
(٢) «الفتوحات المكية»، (٣/٣٢٨).
(٣) «السابق»، (١/٢٨٧).
(٤) انظر: «الأصول الفكرية»، ص (١٤٥).

رقته إلى منزلة إمام الأئمة المجتهد المطلق الذي يقلده أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، فضلًا عمن عداهم؛ لأن المؤهل الوحيد له هو: دعوى الإلهام، والتلقي المباشر عن المعصوم ﷺ، إذن ليس لنا أن نتساءل عن حظه من علوم الحديث والفقه والتفسير وأصول الفقه... إلى آخر هذه العلوم الضرورية للاجتهاد؛ لأنه هكذا ـ وبضربة حظ ـ نال علمًا وهبيًّا يغنيه عن «قال، وحدثنا»، ويحميه من أن يحاسَبَ: «من أين لك هذا؟». إن هذا فعل «الحواة» المهرة، وليس فعل أئمة الهدى!

ينبغي أن تُقَوَّمَ هذه الحركة على أساس العلم الصحيح، لا على أساس دعاواه ومجازفاته؛ لأننا ـ وببساطة ـ نقطع بأنه ليس المهدي المنتظر طبقًا للأدلة الشرعية والحسية والواقعية، وما ادعاه وهوَّش به وهدَّد من لا يقر بمهديته المزيفة كلا شيء عند العالم المحقق، والناقد البصير، وإنما ينطلي على ضعاف العقول، وخفافيش البصائر.

أما هؤلاء الذين غضوا الطرف عن تجاوزات المهدي ومغالطاته، وسلطوا الضوء على إنجازاته وخاصة في محاربة الإنكليز، وامتدحوا منهجه بأنه «كان سلفيًّا متأثرًا بدعوة شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب»، وادَّعوا أن من أدلة سلفيته المزعومة أنه أبطل العمل بالمذاهب الفقهية، وفتح باب الاجتهاد في الدين؛ فقد أخطأوا من طريقين:

الأول: أنه حين ألغى المذاهب الفقهية الأربعة أبدلها بمذهبه الشخصي المُحْدَثِ تحت ستار القرآن والسنة بفهمه هو، أو تحت ستار دعوى الإلهام، ليس هذا فحسب، بل إنه خلع رتبة الإمام المعصوم على صاحبه التعايشي، الذي لم يكن له حظ يذكر من العلم الشريف، بل قيل: إنه كان يشتغل بالسحر والتنجيم[١]، وغلا فيه حتى قال في حقه:

«... فجميع ما يفعله بأمر النبي ﷺ، أو بإذن منا، لا بمجرد اجتهاد منه، بل هو نائب عنه في تنفيذ أمره ﷺ، والقضاء بإشارته... واعلموا يقينًا أن قضاءه فيكم، هو

(١) كما في «الأصول الفكرية»، ص (١٥٤)، هامش رقم (٨١).

قضاء رسول اللَّه ﷺ... فمن كان في صدره حرج لأجل حكمه، فذلك لعدم إيمانه وخروجه من الدين بسبب غفلته» إلى أن قال: «... فحيث فهمتم ذلك، فالتكلم في حقه يورث الوبال والخِذلان وسلب الإيمان، واعلموا أن جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب؛ لأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب... ولو كان حكمه على قتل نفسٍ منكم، أو سلب أموالكم، فلا تعترضوا عليه، ومن تكلم في حقه، ولو بالكلام النفسي؛ فقد خسر الدنيا والآخرة، ويُخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة والعياذ باللَّه». اهـ مختصرًا.

إذن فدعوته إلى إلغاء العمل بالمذاهب ليست مما يُفرح به، ولَأن يبقى مقلدًا محصورًا في اجتهادات المذاهب المحررة، خير وأسلم و أهون من أن يستبدل بها مذهبه المبني على دعوى الكشف والإلهام، لا يَخْطِمُه خِطام، ولا يَزُمُّه زِمام، ولا يحكمه لجام.

الثاني: أن من الخطإ الربطَ بين رفض المذاهب الفقهية وجحودها وبين السلفية، فالسلفية الحقة تعرف للأئمة قدرهم، وتنهل من علمهم، ولا تتعصب لأحد منهم، ولا ترى بأسًا في التمذهب بأحد المذاهب الفقهية، وإنما البأس في تقديم أقوال الرجال على قول الصادق المصدوق ﷺ، وإن أئمة المذاهب هم أنفسهم من أئمة أهل السنة والجماعة، وحراس منهجهم، تجمعهم راية واحدة في الأصول، وإن اختلفوا في الفروع، وقد تواترت النقول عنهم في وجوب اتباع الدليل من الكتاب والسنة، ونبذ أقوالهم إذا خالفتهما.

وليس أدل على ما ذكرنا من أن شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب وسائر علماء الدعوة الوهابية المباركة كانوا حنابلة على مذهب الإمام أحمد ـ رحمه اللَّه تعالى ـ، والشيخ محمد بن عبدالوهاب لم يدَّعِ الاجتهاد، ولا دعا أحدًا إلى تقليده، قال الشيخ عبداللَّه بن الشيخ محمد في رسالته التي كتبها لما دخلوا مكة سنة ١٢١٨هـ:

«ولا نستحق مرتبة الاجتهاد المطلق، ولا أحد لدينا يدَّعِيها، إلا أننا في بعض المسائل إذا صح لنا نص جلي من كتاب أو سنة غيرُ منسوخ ولا مُخَصَّصٍ ولا معارَضٍ بأقوى منه، وقال به أحد من الأئمة الأربعة؛ أخذنا به، وتركنا المذهب، كإرث الجد والإخوة فإنا نقدم الجد بالإرث، وإن خالف مذهب الحنابلة»، وقال أيضًا ـ رحمه اللَّه ـ: «ولا مانع من الاجتهاد في بعض المسائل دون بعض، فلا مناقضة لعدم دعوى الاجتهاد، وقد سبق جمع من أئمة المذاهب الأربعة إلى اختيارات لهم في بعض المسائل مخالفين للمذهب الملتزمين تقليد صاحبه»[1].

٧ـ اجْتِهَادَاتُهُ الْفِقْهِيَّةُ الْغَرِيبَةُ، وَإِلْزَامُهُ النَّاسَ بِهَا:

إن اجتهاد المهدي ليس الاجتهاد الذي تنصرف إليه الأذهان عند إطلاق هذه الكلمة، إنه اجتهاد من نوع خاص، إنه اجتهاد يخدم ثورته، ويدعم دولته قبل أي شيء آخر، وأسوأ ما في الأمر أنه حَجَرَ على الناس، وألزمهم إلزامًا باختياراته، بل تهدد وتوعد من يخالفه، كما مرت أمثلة ذلك مرارًا.

جاء في منشور «حياة الدين الكبرى» الصادر في ذي الحجة سنة ١٣٠١هـ قوله لأنصاره:

«والذي ينقذكم من الهلاك، ويورثكم عظيم المكانة عند اللَّه، هو أن تتركوا معارفكم السابقة، وتصغوا لدلالتي بأذن واعية حيث وجب عليكم ذلك، ولزمكم الانقياد لي والخروج عما عندكم». اهـ[2].

* * *

(١) «عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية»، د. صالح العبود، ص (٢٢١).

(٢) «منشورات المهدية»، ص (٤٨).

(١٩) مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ الْقَحْطَانِيُّ (ت ١٤٠٠هـ)

الذي قاد المجموعة المسلحة التي استولت على الحرم المكي الشريف في مستهل عام ١٤٠٠هـ، حيث أغلقوا أبواب المسجد أثناء تأدية المصلين صلاة الفجر، وبمجرد انصراف الإمام من الصلاة صاح صائحهم: «اللَّه أكبر... ظهر المهدي»، ثم أخذوا يذيعون بيانات من مكبر الصوت فيها ما ظنوه أدلة على أن زعيمهم هو «المهدي المنتظر»، وادَّعوا انطباق الصفات الواردة في الأحاديث عليه، ثم استندوا إلى زعم تواتر رؤى منامية تؤكد ما قالوه[١]، وقاموا بمبايعته بين الركن والمقام، وإذا بالجميع يفاجَئون بالطلقات النارية تتبادل من داخل المسجد وخارجه، وتتصاعد الفتنة حين تحلق الطائرات فوق الحرم لتقصف المآذن التي تحصن بها هؤلاء المسلحون، وتدور المعارك العنيفة أيامًا متوالية تزلزل فيها البلد الأمين، وتزلزلت معه قلوب المؤمنين في شتى أرجاء المعمورة، غضبًا على كل من انتهك حرمة البلد الحرام، والشهر الحرام، والمسجد الحرام، والدم الحرام، ويستمر القتال والإلحاد في الحرم، حتى ينتهي باستسلام بقايا أولئك المتأولين الذين شُبِّه عليهم، وظنوا أن زعيمهم هو المهدي الذي جاءت فيه الرواية[٢]، بعد أن قُتل مهديهم، ونشرت صورة جثته.

---

(١) راجع: ص (١٩٦)، وقد قال العلامة ابن باز ـ رحمه الله ـ إبان تلك الفتنة: «أما اعتماد المنامات في إثبات كون فلان هو المهدي فهو مخالف للأدلة الشرعية ولإجماع أهل العلم والإيمان؛ لأن المرائي مهما كثرت لا يجوز الاعتماد عليها في خلاف ما ثبت به الشرع المطهر؛ لأن الله ـ سبحانه ـ أكمل لنبينا محمد ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ ولأمته الدين، وأتم عليهم النعمة قبل وفاته ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم إن المهدي قد أخبر النبي ﷺ أنه يحكم بالشرع المطهر، فكيف يجوز له ولأتباعه انتهاك حرمة المسجد الحرام وحرمة المسلمين وحمل السلاح عليهم بغير حق؟». اهـ. «جريدة عكاظ»، ١٨ من المحرم ١٤٠٠هـ.
ونضيف أن الأمور الكونية القدرية ـ ومنها أشراط الساعة ـ واقعة لا محالة، ولم يكلفنا الله ـ عز وجل ـ بإيجادها، وتعوُّذُ رجل بطائفةٍ في البيت، وبيعته بين الركن والمقام من الجائز عقلًا أن يقعا بتدبير من البشر، كما أن المرائي المنامية يمكن أن تصدر عن حديث نفس أو وساوس شيطانية، إن المهدي الحقيقي تصنعه المهدية التي كتب الله له، ولا يصنع هو المهدية.

(٢) قال ابن سعد في «الطبقات»: أخبرنا الواقدي، قال: سمعت مالك بن أنس يقول: «خرج محمد بن=

فإلى اللَّه المشتكى من علم ناقص، وتأويل مُضِل، وعاطفة هوجاء، وإهدارٍ للاعتبار بالأشباه والنظائر في التاريخ القريب والبعيد[(١)]، واستبداد بالرأي بمعزل[(٢)] عن مشورة

= عجلان مع محمد بن عبدالله بن حسن حين خرج بالمدينة، فلما قُتِل محمد بن عبدالله، وولي جعفر ابن سليمان بن علي المدينة بعث إلى محمد بن عجلان، فأُتي به، فبكّته، وكلمه كلامًا شديدًا، وقال: «خرجتَ مع الكذاب»، فلم يتكلم محمد بن عجلان بكلمة إلا أنه يحرك شفتيه بشيء لا يُدْرَى ما هو؟ فيُظَنُّ أنه يدعو، فقام من حضر جعفر بن سليمان من فقهاء أهل المدينة وأشرافهم، فقالوا: «أصلح الله الأمير! محمد بن عجلان فقيه أهل المدينة، وعابِدها، وإنما شُبِّه عليه، وظن أنه المهدي الذي جاءت فيه الرواية»، فلم يزالوا يطلبون إليه حتى تركه». اهـ. وانظر: «الوسيط في أدباء شنقيط»، ص(٣٥ ـ ٣٨)؛ و«المختار المصون من أعلام القرون»، (٣/ ١٨٨٦).

(١) فما من شك أن القوم لو استنطقوا هذا التاريخ لأخبرهم عن كثيرٍ سبقوهم في هذا الطريق، ولكَبَحَ جماحَهم حصادُ فتن مدعي المهدية، وما أكثرهم!

(٢) قال عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه اللَّه ـ تعالى ـ: «إذا رأيت قومًا يتناجون في دينهم بشيء دون العامة، فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة»، رواه اللالكائي في «أصول الاعتقاد»، (١/١٣٥)، (٢٥١)، ففي مثل هذه الفتنة لو نوقشت المسألة في وَضَحِ النهار وفي الهواء الطلق؛ لسارع العلماء بتذكيرهم بالأحاديث الصحيحة الصريحة في النهي عن حمل السلاح في الحرم، أو ربما وعظوهم بما روى حفص بن غياث قال: قلت لسفيان الثوري: يا أبا عبدالله، إن الناس قد أكثروا في المهدي، فما تقول فيه؟ قال: «إن مَرَّ على بابك، فلا تكن منه في شيء حتى يجتمع الناس عليه». رواه أبو نعيم في «الحلية»، (٧/٣١).
أو ربما أشاروا عليهم أن يصعد مهديهم المزعوم فوق سطح الحرم الشريف، فإن قُتل بان أنه ليس المهدي الحقيقي الذي سيملك سبع سنين، وعُصمت الدماء التي أريقت، ولهذا «الاختبار» لحقيقة مدعي المهدية أصل في حديثين شريفين:
الأول: وهو من أعلام نبوته ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما فتحت خيبر أُهديت لرسول الله ﷺ شاةٌ فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: «اجْمَعُوا لِي مَنْ كَانَ مِنَ الْيَهُودِ هَهُنَا»، فسألهم النبي ﷺ عن أشياء، ثم قال لهم: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟» قالوا: نعم، يا أبا القاسم، فقال: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟» فقالوا: نعم. فقال: «فَمَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟» فقالوا: أردنا **إن كنت كاذبًا أن نستريح منك، وإن كنت نبيًّا لم يضرَّك**. رواه الإمام أحمد في «المسند»، (٩٨٢٦)، والبخاري(٤/٦٦)، ومسلم (٢١٩٠)، وانظر «سنن أبي داود» (٤٥١٠).
والثاني: أنه كان بالمدينة رجل يهودي يُدعى ابن صياد، وكان شبيهًا بالدجال في كثير من صفاته، وكان ﷺ متشككًا في أمره حيث لم ينزل عليه وحي بذلك، وكان عمر بن الخطاب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يجزم بأنه المسيح الدجال، وكذلك ابن عمر، ولما لقيه النبي ﷺ، قال عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: «ذرني يا رسول الله، أضرب عنقه»، فقال له رسول الله ﷺ: «**إِنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَا يَكُنْهُ فَلَا خَيْرَ لَكَ فِي قَتْلِهِ**». رواه مسلم في صحيحه (٤/٢٢٤٤)، (٢٩٣٠).

أهل العلم والإيمان؛ افتئاتًا على أخص خصائص الموقعين عن رب العالمين، أعني: الإفتاء في النوازل الكبرى، والتبصير في الفتن التي إذا أقبلت عرفها كل عالم، وإذا أدبرت عرفها كل جاهل.

ويا أسفًا على «سلفية» مزعومة تنساق وراء التقليد الأعمى، وتحذو حذو الصوفية، فتنصاع لمنهجهم السقيم في تغييب بصيرة النقل والعقل باقتياد الناس عبر «المنامات» كأنها وحي منزل، ولو أدى بهم ذلك إلى فتح ذريعة تلك الفتنة العظمى، التي انتُهِكت فيها حرمات بعضها أعظم من بعض:-

أولها: حرمة البلد الأمين، وبيت الله الحرام:

الذي قال فيه - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ * فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]؛ أي: ومن دخله فأمِّنوه.

وأقسم به - سبحانه - فقال - عزَّ مِنْ قائل -: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾ [البلد: ١]، وقال - تعالى -: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: ٣].

ورفع شأنه، واختاره على سائر بلاد الأرض، وحرَّمه بنفسه - جل وعلا -، فقال: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١].

وعن ابن عباس - رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا -: قال رسول اللَّه - صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١) الحديث.

(١) رواه البخاري، (٤/٤٠)، في الحج، باب لا ينفر صيد الحرم، وباب فضل الحرم، وفي الجنائز، والبيوع، والمغازي، ومسلم (١٣٥٣)، في الحج، باب تحريم مكة وصيدها ....، والنسائي (٥/٢٠٣، ٢٠٤)، في الحج، باب حرمة مكة، وباب تحريم القتال فيها، وباب النهي أن ينفر صيد الحرم.

وعن أبي شريح العدوي رضي الله عنه قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ فِيهَا دَمًا، وَلَا يَعْضِدَ فيها شجرةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، فَقُولُوا لَهُ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِرَسُولِهِ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ، لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ»[١].

وعن جابر رضي الله عنه قال رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «لَا يَحِلُّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ السِّلَاحَ بِمَكَّةَ»[٢].

ولقد توعد ـ تبارك وتعالى ـ كلَّ من يُلْحِدُ في حَرَمِهِ بأشد العذاب، فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

عن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: قال رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ؛ لِيُهْرِيقَ دَمَهُ»[٣].

وقال ابن عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ لعبداللَّه بن الزبير ـ رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا ـ: «يا بن الزبير! إياك والإلحاد في حرم اللَّه ـ تعالى ـ، فإني سمعت رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ يقول: «إِنَّهُ سَيُلْحِدُ فِيهِ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، لَوْ تُوزَنُ ذُنُوبُهُ بِذُنُوبِ الثَّقَلَيْنِ لَرَجَحَتْ، فَلْتَنْظُرْ، لَا تَكُنْهُ»»[٤].

وقال ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «الْكَبَائِرُ تِسْعٌ» الحديث، وفي آخره:

---

(١) رواه البخاري، (١/١٧٦ ـ ١٧٧)، في العلم، باب ليبلغ الشاهد الغائب، وفي الحج، وفي المغازي، ومسلم، (١٣٥٤)، في الحج، باب تحريم مكة وصيدها، والترمذي، (٨٠٩)، في الحج، باب ما جاء في حرمة مكة، ورقم (١٤٠٦) في الديات، باب ما جاء في حكم دية القتيل في القصاص والعفو، والنسائي (٥/٢٠٥، ٢٠٦)، في المناسك، باب تحريم القتال في مكة.

(٢) رواه مسلم، (١٣٥٦)، في الحج، باب النهي عن حمل السلاح بمكة بلا حاجة.

(٣) رواه البخاري، (١٢/١٨٥ ـ ١٨٦)، في الديات، باب من طلب دم امرئ بغير حق.

(٤) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح». اهـ. (٣/٢٨٤)؛ وقال=

«وَاسْتِحْلَالُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، قِبْلَتِكُمْ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا»، وفي رواية: «وَإِلْحَادٌ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ قِبْلَتِكُمْ» الحديث (١).

وثانيها: حرمة الشهر الحرام، الذي قال فيه ـ تعالى ـ:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦]؛ هي ذو القَعدة، وذو الحِجة، والمحرم، ورجبُ مُضَر، ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: في هذه الأشهر خاصة لما لها من مزية، وإن كان الظلم غير جائز في غيرها، وقيل: «لا تظلموا فيهن أنفسكم بارتكاب الذنوب؛ لأن اللَّه إذا عَظَّم شيئًا من جهة واحدة، صارت له حرمة واحدة، وإذا عظَّمه من جهتين، صارت حرمته متعددة، فيضاعف فيه العقاب، كما يضاعف الثواب حسب نوع العمل» (٢).

وثالثها: حرمة دماء المسلمين:

عن ابن عمر ـ رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا ـ: قال رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا» (٣).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «لَا يَزَالُ

= الشيخ/ أحمد شاكر في «تحقيق المسند» (٦٢٠٠): «إسناده صحيح».

(١) رواه من حديث عبيدالله بن عمير عن أبيه ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أبو دواد، (٢٨٧٥)، في الوصايا، باب ما جاء في التشديد في أكل مال اليتيم، وفي سنده عبدالحميد بن سنان لم يوثِّقه غير ابن حبان، وقال البخاري: «في حديثه نظر»، وكذا رواه الطحاوي في «المشكل»، (٣٨٣/١)، والحاكم، (٥٩/١)، (٢٥٩/٤)، والبيهقي، (٤٠٨/٣ ـ ٤٠٩)، وأما رواية: «وَإِلْحَادٌ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ قِبْلَتِكُمْ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا»، فأخرجها البيهقي من طريق أيوب عن طيسلة بن علي عن ابن عمر، وأيوب بن عتبة قال فيه الحافظ: «وهو ضعيف، وقد اخْتُلِفَ عليه فيه». اهـ. من «تلخيص الحبير»، (١٠١/٢)، وطيسلة بن علي ذكره ابن حبان في «الثقات»، (٩٩/١)، وبقية رجاله ثقات؛ وانظر: «إرواء الغليل»، (١٥٤/٣ ـ ١٥٦).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن»، للقرطبي، (١٣٤/٨)، وانظر: «حرمة أهل العلم» للمؤلف ص(٩).

(٣) رواه البخاري، (١٦٥/١٢)، في الديات، في فاتحته، وزاد بعده: وقال ابن عمر: «إن من وَرَطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفكَ الدم الحرام بغير حِلّه».

المُؤْمِنُ مُعْنِقًا[١] صَالِحًا، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا، فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَّحَ[٢]»[٣].

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ»[٤].

وفي رواية: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ».

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال رسول اللّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا فَاغْتَبَطَ[٥] بِقَتْلِهِ، لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا[٦]، وَلَا عَدْلًا»[٧].

وعن أبي بكرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال رسول اللّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «إِذَا شَهَرَ الْمُسْلِمُ عَلَى أَخِيهِ سِلَاحًا، فَلَا تَزَالُ مَلَائِكَةُ اللَّهِ تَلْعَنُهُ، حَتَّى يَشِيمَهُ[٨] عَنْهُ[٩]».

---

(١) المُعْنِق: الطويل العنق، الذي له سوابق في الخير، والإعناق: ضرب من السير سريع وسيع؛ والمراد به: خِفَّة الظهر من الآثام؛ يعني: أنه يسير سير المخفِّ.

(٢) بَلَّح: أعيا، وانقطع.

(٣) رواه أبو داود، (٤٢٧٠)، في الفتن، باب في تعظيم قتل المؤمن، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، (٧٥٧٠).

(٤) رواه الترمذي، (١٣٩٥)، في الديات، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن، والنسائي (٧/٨٢ ـ ٨٣)، في تحريم الدم، باب تعظيم الدم، وقال الترمذي: «وقد روي موقوفًا عليه، وهو أصح». اهـ. (٤/١٦)؛ وانظر: «غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام»، ص (٢٥٣).
والرواية الثانية أخرجها ابن ماجه، (٢٦١٩)، من حديث البراء رضي الله عنه، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في «صحيح الجامع»، (٥/١٦)، (٤٩٥٤).

(٥) اغتبط: سُرَّ، وفرح، قال يحيى بن يحيى الغسَّاني عن قوله: «اغتبط بقتله»، قال: «الذين يقاتلون في الفتنة، فَيَقْتُل أحدُهم، فيرى أنه على هدى، لا يستغفر اللَّه»؛ يعني: من ذلك، وذلك بخلاف ما إذا حزن لقتله، وندم عليه. وجاء في «معالم السنن»، للخطابي بلفظ: «فَاعْتَبَطَ»؛ أي: قتله ظلمًا، لا عن قصاص، يقال: عَبَطْتُ الناقة واعتبطتها: إذا نحرتُها من غير داءٍ، أو آفة تكون بها؛؟وانظر: «جامع الأصول»، (١٠/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨)، وقيل: اعتبط: صَبَّ دمه صبًّا.

(٦) الصرف: النفل، وقيل: التوبة. والعدل: الفرض، وقيل: الفدية.

(٧) أخرجه أبو داود، (٤٢٧٠)، في الفتن، باب في تعظيم قتل المؤمن، وانظره في «صحيح أبي داود» (٣/٨٠٤) (٣٥٨٩).

(٨) أي: يخفيه، وذلك بوضعه في غِمْده.

(٩) عزاه في «الجامع الصغير» إلى البزار، وحسنه الألباني؛ انظر: «صحيح الجامع»، (١/٢٣٣)، (٦٤٨).

وعن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «يَجِيءُ الْمَقْتُولُ بِالْقَاتِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَاصِيَتُهُ وَرَأْسُهُ بِيَدِهِ، وَأَوْدَاجُهُ[١] تَشْخُبُ[٢] دَمًا، فَيَقُولُ: «يَا رَبِّ! سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي؟» حَتَّى يُدْنِيَهُ[٣] مِنَ الْعَرْشِ»[٤].

وعن نافع قال: «كان ابن عمر يسلِّم على الخشبية والخوارج وهم يقتتلون، وقال: من قال: حيَّ على الصلاة، أجبته، ومن قال: حيَّ على قتل أخيك المسلم، وأخذ ماله، فلا»[٥].

وعن عاصم «أن مروان قال لابن عمر ـ يعني: بعد موت يزيد: هلم يدك نبايعك، فإنك سيد العرب وابن سيدها، قال: كيف أصنع بأهل المشرق؟ قال: نضربهم حتى يبايعوا، قال: واللَّه ما أحب أنها دانت لي سبعين سنة، وأنه قُتِل في سيفي رجل واحد»[٦].

وقال سلام بن مسكين: سمعت الحسن يقول: «لما كان من أمر الناس ما كان زمن الفتنة، أتوا ابن عمر، فقالوا: أنت سيد الناس وابن سيدهم، والناس بك راضون، اخرج نبايعك، فقال: لا واللَّه لا يُهراق فيَّ محجمة من دم ولا في سببي ما كان فِيَّ روح»[٧].

وقال أبو نضرة: «دخل أبو سعيد يوم الحرة غارًا، فدخل عليه فيه رجل، ثم خرج، فقال لرجل من أهل الشام: أدلك على رجل تقتله؟ فلما انتهى الشاميُّ إلى باب الغار، وفي عنق أبي سعيد السيف؛ قال لأبي سعيد: اخرج، قال: لا أخرج، وإن تدخل

---

(١) عِرقان في العنق، إن قُطعا نزف حتى يموت.

(٢) تنزف بغزارة.

(٣) يُقَرِّبه.

(٤) أخرجه النسائي، في تحريم الدم، (٨٥/٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، (٧٨٨٧).

(٥) «سير أعلام النبلاء»، (٢٢٨/٣).

(٦) «السابق»، (٢١٦/٣).

(٧) «سير أعلام النبلاء»، (٢٢٦/٣).

أقتلك، فدخل الشاميُّ عليه، فوضع أبو سعيد السيف، وقال: بُؤْ بإثمي وإثمك وكنْ من أصحاب النار! قال: أنت أبو سعيد الخدري؟ قال: نعم، قال: فاستغفر لي، غفر اللَّه لك»(١).

وقال نافع: «أتى رجل ابن عمر، فقال: يا أبا عبدالرحمن، ما يحملك على أن تحج عامًا، وتعتمر عامًا، وتترك الجهاد؟ فقال: بُني الإسلام على خمس: إيمان باللَّه ورسوله، وصلاة الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت، فقال: يا أبا عبدالرحمن، ألا تسمع قوله:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، فقال: لأَن أعتبر(٢) بهذه الآية فلا أقاتل أحبُّ إليَّ من أن أعتبر(٣) بالآية التي يقول فيها: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]، فقال: ألا ترى أن اللَّه يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، قال: قد فعلنا على عهد رسول اللَّه ﷺ إذ كان الإسلام قليلًا، وكان الرجل يُفتن في دينه؛ إما أن يقتلوه، وإما أن يسترقُّوه، حتى كثر الإسلام، فلم تكن فتنة، قال: فلما رأى أنه لا يوافقه قال: فما قولك في عثمان وعليٍّ؟ قال: أما عثمان فكان اللَّه عفا عنه، وكرهتم أن يعفو اللَّه عنه، وأما عليٌّ فابنُ عَمِّ رسول اللَّه ﷺ وخَتَنُهُ(٤)، وأشار بيده: هذا بيتُه حيث ترون»(٥)

ورابعها: تحريم ترويع المسلم:

فقد قال ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا»(٦)

---

(١) «السابق»، (٣/١٧٠).

(٢)، (٣) الظاهر أنها «أعَيَّرَ» في الموضعين، والله أعلم.

(٤) الخَتَنُ: الصِّهْر.

(٥) «السابق»، (٣/٢٢٨ ـ ٢٢٩).

(٦) رواه الإمام أحمد، (٥/٣٦٢)، وأبو داود (٥٠٠٤)، في الأدب، باب من يأخذ الشيء على المزاح، عن عبدالرحمن بن أبي ليلى، قال: حدثنا أصحاب محمد ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ «أنهم كانوا يسيرون مع رسول الله ﷺ، فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى حبل معه، ففزع، فقال رسول الله ﷺ ... فذكره»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، (٧٥٣٤).

وخامسها: **تعطيل ذكر اللّه والأذان والصلاة والطواف والسعي، وإحصار المعتمرين، في أشرف بيوت اللّه، وأحب بلاد اللّه إلى اللّه ورسوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ.**(١)

لقد انتهكوا هذه الحرمات، ونسوا أن المهدي حق المهدي لا يستفتح ظهوره بمثل هذه الفتنة العظمى، ثم لم يبخل الشيطان بأن يستثمر الموقف إلى أقصى مدى ممكن، فإذا به ينفث في صدور ضحاياه ـ كعادته ـ أن المهدي قد فَرَّ من خلال سرداب سفلي في الحرم، وأنه سيعود يومًا ما؛ ليملأ الأرض عدلًا وقسطًا بعد أن مُلِئَتْ ظلمًا وجورًا، فانتظروه، تمامًا كما فعل من قبل مع الشيعة وأمثالهم.

لقد انقضت تلك المأساة التي أطلق عليها بحق «جريمة العصر»، ولكن الجرح لا يزال ينزف من قلوب المسلمين، وتتحسر أفئدة كل من عاصروا تلك المحنة، وعاينوا تلك الأحداث الأليمة، ولسان حال كل منهم يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾(٢) [مريم: ٢٣].

وصدق رسول اللّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «وَلَنْ يَسْتَحِلَّ الْبَيْتَ إِلَّا أَهْلُهُ»، وقد كان، فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

* * * * *

---

(١) ويبلغ مجموع أوقات الأذان والإقامة والصلاة التي عُطِّلَتْ منذ بداية تلك الفتنة اثنين وثمانين وقت صلاة بدأت بظهر الثلاثاء الأول من المحرم ١٤٠٠هـ، وانتهت بعصر الخميس السابع عشر من المحرم نفسه.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن»، للقرطبي (٩/٢٦٩)، (١١/٩٢).

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

ضَوَابِطُ الْحُكْمِ عَلَى مُدَّعِي الْمَهْدِيَّةِ

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

ضَوَابِطُ الحُكْمِ عَلَى مُدَّعِي الْمَهْدِيَّةِ

«إِنَّ شِدَّةَ الْفَحْصِ بَرَاءَةٌ مِنَ الخَدِيعَةِ»

العامري في «الإعلام بمناقب الإسلام»

الدنيا دار امتحان، والآخرة دار ظهور النتائج، فكلُّ سالكٍ طريقًا تخفى عليه عاقبته؛ ومن ثَمَّ وجب التحري الشديد عند نقطة تقاطع الطرق؛ للتأكد من أن هذا الطريق بعينه هو الذي يقود إلى الهدف، ومما يؤكد وجوب هذا التحري أننا نعيش في الدنيا مرة واحدة، فهي إذن فرصتنا الوحيدة للمراجعة والاستدراك، قبل أن تحل الآجال، ولات ساعة مندم:

ستعلم حين ينكشف الْغُبَارُ   جوادٌ تحت رِجلِكَ أَمْ حِمَارُ

إن كثيرًا من الناس يتقحمون الفتن، ويهجمون عليها ويقولون:

«ما نريد إلا الخير»، وكم من مريد للخير لا يبلغه! وكم مِن حَسَن النية لا يشفع له حسن نيته! وإن النار مأهولة بكثير ممن حسنتْ نياتهم.

جاء في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾... الآية [الكهف: ١١٠]: العمل الصالح: أخلصُهُ وأصوبُهُ، فإن كان العمل صوابًا لكنه غير خالص، أو خالصًا لكنه غير صائب، فإنه لا يُقْبَلُ.

ونحن هنا لا نناقش الإخلاص؛ لأننا لا نَطَّلِعُ عليه، وإنما نناقش «الصوابَ» بأن نحاكم السلوك الظاهر إلى كتاب اللَّه ـ عز وجل ـ وسنة رسوله ﷺ.

إن «المُخْلِصَ» غير معصوم من أن يخطئَ أو يَضِلَّ، وكم اصطاد الشيطان كثيرًا من الضحايا «بشبكة» الإخلاص! وليس أدلَّ على ذلك من سيرة الخوارج الذين اجتهدوا في العبادة بصورة مبهرة، حتى قال فيهم النبي ﷺ: «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ

الْقُرْآنَ، لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ، وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ، لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ[(١)]، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذِينَ يُصِيبُونَهُمْ مَا قُضِيَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ ﷺ لَاتَّكَلُوا عَنِ الْعَمَلِ»... الحديثَ[(٢)].

وهم الذين قال فيهم ابن عباس - رضى اللَّه عنهما -: «فدخلت على قوم لم أَرَ قَطُّ أشدَّ منهم اجتهادًا؛ جباهُهُم قَرِحَة من السجود، وأياديهم كأنها ثفن الإبل، وعليهم قُمُص مُرَحَّضَة مُشَمِّرين، مُسَهَّمَة وجوههم من السهر»[(٣)]، ومع ذلك كله وصفهم النبي ﷺ بأنهم: «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»، وقال ﷺ: «لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ»[(٤)].

ولقد تورط كثير من الناس في فِتَنٍ أشعل نارَها مُدَّعُو المهدية؛ لأن عاطفتهم رَكِبَت عقولهم، وحماستهم أخضعت فكرهم؛ ومن هنا مسَّت الحاجة إلى محاولة استنباط ضوابط تحكم موقفنا من كل من يدعي المهدية مستقبلًا، أو تُدَّعى له، حتى نضع النقاط على الحروف، مستهدين في ذلك باستقراء تجارب التاريخ البعيد والقريب، متحررين من ضغوط «الاستعجال».

وليس في وضع هذه الضوابط قتل للآمال، ولا وأد للطموحات، ولكنها تجذبنا إلى الواقع لنحسن تقديره، ونعرف كيف ننطلق منه لأخذ الأسباب التي تحقق لنا هذه الطموحات؛ إذ لا يليق بالمسلم أن ينساق وراء الأماني؛ فالسماء لا تمطر ذهبًا ولا

---

(١) التراقي: جمع ترقُوة؛ وهو العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق؛ والمراد عدم انتفاعهم بالعبادة.

(٢) رواه مسلم (١٠٦٦)، وأبو داود (٤٧٦٨).

(٣) «تلبيس إبليس»، ص (١٢٥)، و«ثفن»: جمع ثفنة؛ وهى ركبة الإبل؛ والمراد أن أيديهم قد غلظت من طول السجود، ومرحضة: مغسولة، ومسهمة: ضامرة.

(٤) رواه مسلم، (١٠٦٤).

فضة، وسنن اللَّه لا تحابي أحدًا، ومن نصرة الدين أن تُحْتَرَمَ سنن اللَّه في الكون.

إن «المهدي» شخص واحد لا يتكرر، والتصديق بمدعي المهدية يستلزم التكذيب بالمهدي الحقيقي، ومن ثم وجب الفحص والتحري قبل قبول دعوى المهدي، ومن لوازم هذا الفحص محاولة استقراء أحوال مدعي المهدية، واستنباط ضوابط تضبط تعاملنا مع مدعي المهدية، وكيف نميز الصادقَ من الكاذب، وفيما يلي محاولة لحصر هذه الضوابط:

الضَّابِطُ الْأَوَّلُ:

يجب التفريق في مسألة المهدي بين تصديق خبر الصادق المصدوق ﷺ بشأن المهدي[1] ـ وهذا واجب على كل مسلم ـ، وبين الحكم على فلان بأنه المهدي على سبيل التعيين ـ وهذا غير ملزم لكل مسلم ـ، إلا أن يأتي دليل قاطع على تعيينه.

الضَّابِطُ الثَّانِي:

جميعُ علامات المهدي إنما تُعرف من خلال أخبار الوحي المعصوم إلى النبي ﷺ، ولا حُجَّةَ في أي مصدر آخرَ، سواء أكان الأحاديثَ والآثارَ الضعيفةَ والموضوعةَ[2]، أو

(١) راجع ص (٢٨).

(٢) ومن الصفات الواردة في الأحاديث الضعيفة:

أ- أنه من ولد العباس، وأن لونه لون عربي، وجسمه جسم إسرائيلي، وأن في خده الأيمن خالًا، وأنه يقاتل على السُّنَّة؛ كما قاتل النبي ﷺ على الوحي.

ومنها حديث: «مَنْ أَنْكَرَ خُرُوجَ الْمَهْدِيِّ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»، وهو موضوع؛ كما في «الموسوعة في أحاديث المهدي»، ص (٨٣-٨٦).

ب ـ وَمِنْهَا: ما نُسِبَ إلى ابن سيرين؛ من أن المهدي خيرٌ من أبي بكرٍ وعمر ـ رضي اللَّه عنهما ـ، وذهب السيوطي ـ رحمه اللَّه ـ إلى تأويل هذا الأثر على ما أُوِّلَ عليه حديث «بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ»؛ لشدة الفتن في زمان المهدي، وتمالؤ الروم بأسرها عليه، ومحاصرة الدجال له، وليس المراد بهذا =

الرؤى المنامية، أو الكشف، أو الإلهام، أو ادعاء لقيا النبي ﷺ يقظةً بعد وفاته، أو لقيا الخَضِرِ ـ عليه السلام ـ أو الأولياء ... إلخ.

= التفصيل الراجع إلى زيادة الثواب، والرتبة عند اللَّه؛ فالأحاديث الصحيحة، والإجماع، على أن أبا بكر، وعمر أفضل الخلق بعد النبيين والمرسلين» اهـ. من «الحاوي»، (٢/١٥٣).

وقال ابن حجر الهيثمي ـ رحمه اللَّه ـ: «ما جاء عن ابن سيرين: أن المهدي خيرٌ من أبي بكر وعمر، قد كاد يفضل على بعض الأنبياء، وصح عنه: «لا يفضل عليه أبو بكر، وعمر»، وهو وإن كان أخف من الأول، إلا أنه يجب تأويلهما بصرائح الأحاديث، وقيام الإجماع على أنهما أفضل منه، بل وأفضل بقية الأربعة، بل الصحابة؛ خلافًا لما شَذَّ به «ابن عبدالبر» أن يكون فيمن بعد الصحابة أفضل منهم؛ وكأن ابن سيرين أراد بقوله: «كاد أن يفضل على بعض الأنبياء» أنه يؤم عيسى، وللإمام فَضْلٌ ما على المأموم؛ من حيث التبعية، لكن ـ في الحقيقة ـ ليس هذا الفضل له، بل لنبينا ﷺ؛ لأن ائتمامه به علامةٌ على نزوله بشريعة نبينا، واتباعه له» اهـ. من «القول المختصر في علامات المهدي المنتظر»، ص(٧١، ٧٢).

وقال السفاريني ـ رحمه اللَّه ـ: «جاء عن ابن سيرين أن المهدي خير من أبي بكر وعمر؛ قد كاد يفضل على الأنبياء»، وجاء عنه ـ أيضًا ـ: لا يفضل عليه أبو بكر وعمر، وهو ـ وإن كان أخف من الأول ـ فليس بصحيح؛ فإن الأمة مجتمعةٌ على أفضليتهما عليه، بل وعلى جميع الصحابة؛ خِلَافًا للرافضة ـ خذلهم اللَّه ـ تعالى ـ، بل غيرهما من الصحابة أفضل من المهدي» ا هـ. من «لوامع الأنوار البهية»، «٢/٨٤».

ومما يُبطل هذا الزعم ما صَحَّ عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: «كنت مع رسول اللَّه ﷺ إذ طلع أبو بكر وعمر، فقال رسول اللَّه ﷺ: «هَذَانِ سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، مِنَ الأَوَّلِينَ، وَالآخِرِينَ، إِلَّا النَّبِيِّينَ، وَالْمُرْسَلِينَ، يَا عَلِيُّ: لَا تُخْبِرْهُمَا»، «صحيح سنن الترمذي»، (٢٨٩٧)، (٣/٢٠١).

وقال شيخ الإسلام ـ رحمه اللَّه ـ تعالى ـ:

«... وصار بعض الناس يَدَّعِي أن في المتأخرين مَنْ يكون أفضل في العلم باللَّه من أبي بكر، وعمر، والمهاجرين، والأنصار، إلى أمثال هذه المقالات التي يطول وصفها، مما هو باطلٌ بالكتاب، والسنة، والإجماع» ا هـ. من «مجموع الفتاوى»، «١٣/٢٦٧».

وقال ـ أيضًا ـ رحمه اللَّه ـ تعالى ـ في سياق بيانه أن كل من سوى الأنبياء، دونهم: «فإن اللَّه جَعَلَ الذين أنعم عليهم أربعةً: النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين؛ فغاية من بعد النبي أن يكون صِدِّيقًا؛ كما كان خير هذه الأمة بعد نبيها صِدِّيقًا؛ ولهذا كانت غاية مريم ذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾، [الآية]؛ ... فإن اللَّه ذكر ذلك في بيان غاية فضلها؛ دفعًا لِغُلُوِّ النصارى فيها؛ كما يقال لمن ادَّعَى في رجل أنه ملكٌ من الملوك، أَوْ غَنِيٌّ من الأغنياء، ونحو ذلك، فيقال: ما هو إلا رئيس قرية، أو صاحب بستان، فيذكر غاية ما لَهُ من الرياسة، والمال، فلو كان للمسيح مرتبة فوق الرسالة؛ أَوْلَها مرتبة فوق الصديقية، لَذُكِرَتْ..»

إلى أن قال ـ رحمه اللَّه ـ: «ثم نقول: بل أول الأولياء في هذه الأمة، وسابقهم هو أفضلهم؛ فإن أفضل=

الضَّابِطُ الثَّالِثُ:

لَمَّا كان المهدي مجددًا من المجددين؛ لزم أن يكون مستقيمًا على منهاج النبوة، متمسكًا بالعقيدة السلفية، بريئًا من البدع الردية، وإلا فإن فاقد الشيء لا يعطيه، فإذا كان مدعي المهدية منتسبًا إلى إحدى الفرق الضالة الزائغة عن أهل السنة والجماعة؛ فإنه ينادي على نفسه بالكذب والتدليس، وإذا كان العلماء قد نبذوا من فرَّط في أدب من الآداب، فكيف بمن انحرف في أصول الدين؟

قال أبو يزيد: «قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شَهَرَ نفسه بالولاية» ـ وكان رجلًا مقصودًا مشهورًا بالزهد ـ فمضينا إليه، فلما خرج من بيته ودخل المسجد،

= الأمة خاتم الأنبياء، وأفضل الأولياء سابقهم إلى خاتم الأنبياء؛ وذلك لأن الولي مستفيد من النبي، وتابع له؛ فكلما قرب من النبي كان أفضل، وكلما بعد عنه كان بالعكس، بخلاف خاتم الأنبياء؛ فإن استفادته إنما هي من الله، فليس في تأخره زمانًا ما يُوجِبُ تأخر مرتبته، بل قد يجمع الله له ما فرّقه في غيره من الأنبياء، فهذا الأمر الذي ذكرناه من أن السابقين من الأولياء هم خيرهم، هو الذي دل عليه الكتاب، والسنن المتواترة، وإجماع السلف، ويتصل بهذا ظَنُّ طوائفَ أن من المتأخرين من قد يكون أَفْضَلَ من أفاضل الصحابة، ويوجد هذا في المنتسبين إلى العلم، وإلى العبادة، وإلى الجهاد، والإمارة، والملك» ا هـ. من «مجموع الفتاوى»، «(٣٦٤/١١ ـ ٣٦٦)».

ـ **وَمِنَ الصِّفَاتِ الْمُفْتَرَاةِ مِنَ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ:**

جـ ـ ادِّعَاءُ أنه معصومٌ لا يخطئ.

د ـ ادعاء أن المهدي، والسيف إخوان، وأنه «لا يكون هذا الأمر حتى يذهب تسعة أعشار الناس»، وروى المجلسي عن أبي عبدالله: «لو يعلم الناس ما يصنع القائم إذا خرج، لأحب أكثرهم ألا يروه؛ مما يقتل من الناس، حتى يقول كثير من الناس: ليس هذا من آل محمد، ولو كان من آل محمدٍ، لَرَحِمَ».

هـ ـ ادعاء أن أكثر من يقتلهم هم العرب؛ فسوف «يضع فيهم السيف، والذبح»، ويبدو أن مصدر هذه الفرية هو نفسه مصدر دعوى أن أمير المؤمنين عليًا رضي الله عنه قال: «إن الله خلَّصه ـ أي كسرى ـ من النار؛ وإن النار محرمةٌ عليه»!

و ـ ادعاء أنه سوف يهدمُ المسجد الحرام، والمسجد النبوي، وأن الحجر الأسود سينقل إلى الكوفة.

ز ـ ادعاء أنه يقيم حكم داود، وسليمان، ولا يُسْأَلُ بينة، وأنه يبايع الناس على كتابٍ جديد.

انظر: «لله .. ثم للتاريخ»، ص، (١٠٥ ـ ١١٤)، وراجع ص (٥٥٠).

رمى ببصاقه تجاه القبلة؛ فانصرف أبو يزيد، ولم يسلم عليه، وقال: «هذا غير مأمون على آداب رسول الله ﷺ، فكيف يكون مأمونًا على ما يدعيه؟».

الضَّابِطُ الرَّابِعُ:

ليس في الأحاديث الثابتة ما يدل على أن المهدي سوف يطالب الناس بالإقرار بمهديته، أو يمتحنهم على ذلك ويقهرهم، فضلًا عن تكفيرهم، واستباحة دمائهم .

إن ادِّعاء أن المهدي سوف يُلْزِمُ الناسَ بالإيمان بمهديته، وأن من شك في مَهْدِيَّتِهِ فقد كَفَرَ، فيه إضافة إلى الدين ما ليس منه، ومعلوم أن الدين اكتمل فلا يَقْبَلُ الزيادة، قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، أضف إلى ذلك ما يترتب على هذا الافتراء من انتهاك الحرمات، والفساد في الأرض على يد مُدَّعِي المهدية ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

إن المهدي الحقيقيَّ لا «يتمحور» حول إِثْبَاتِ مهديته للآخرين، واعترافهم بها، ولا يُضِيفُ إِلَى شَهَادَتَيِ الحَقِّ الشهادة بأن «محمد بن عبدالله مهدي الله»، ولا يقول: «فإن شهدوا بمهديتي فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم»، وإلا أراق دماءهم، وسبى نساءهم، وسلب أموالهم، كما فعل ابن تومرت[1] والسوداني، والجونبوري، وغيرهم.

---

(١) الذي قال في حق المهدي: «فالعلم به واجب، والسمع والطاعة له واجب، واتباعه والاقتداء بأفعاله واجب، والإيمان به والتصديق به واجب على الكافة، والتسليم له واجب، والرضا بحكمه واجب، والانقياد لكل ما قضى واجب، والرجوع إلى علمه واجب، واتباع سبيله واجب، والاستمساك بأمره حتم، ورفع الأمور إليه بالكلية لازم»، بل يصرح بأن طاعته، والاستسلام له، إن هي إلا طاعة الله، ورسوله ﷺ، ثم يقول: «هو أعلمهم بالله، وأقربهم إلى الله؛ به قامت السماوات والأرض، وبه كُشِفت الظلمات، وبه تُدْفَعُ الأباطيل، وبه تظهر المعارف، وبموافقته تُنَالُ السعادة، وبطاعته تُنَالُ البركات».
أما أولئك الذين تسوَّل لهم أنفسهم مخالفة المهدي ومعارضته، أو الشك في أمره، فويلٌ لهم؛ لقد توعدهم ابن تومرت بالشر، والنكال، وزعم أن من ناوأ المهدي «فقد تقمع في الردى، وليس له التطرق إلى النجاة»، ثم إن «أمر المهدي حتم، ومن خالفه يُقتل، لا دفع في هذا لدافع، ولا حيلة فيه لزائغ»=

وليس التصديق بعين المهدي أو شخصه من أركان الدين كما هو الحال مع الأنبياء ـ عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ.

قال العلامة حمود التويجري ـ رحمه الله ـ تعالى ـ : (إن المهدي لا يطلب الأمر لنفسه ابتداءً مدعيًا أنه المهدي، كما يفعل ذلك المدعون للمهدية كَذِبًا وزورًا، وإنما يأتيه ناس من أهل مكة، فيخرجونه وهو كارهٌ، فيبايعونه، ثم يُسَمِّيهِ الناس بعد ذلك بالمهدي؛ لما يرون من صلاحه، وعدله، وإزالته للجور والظلم). اهـ[1].

الضَّابِطُ الْخَامِسُ:

إن علامات المهدي المنتظر نوعان:

الْأَوَّلُ: أمارات مُتَشَابِهَةٌ:

وهي الصفات المشتبهة المشتركة القابلة للتَّكْرَارِ في غير المهدي الحقيقي، فيمكن أن يتصف بها بعض الناس فعلًا[2]، أو يتكلّف الاتصاف بها[3]، أو يَدَّعِي ذلك كذبًا

= إلى أن يقول «إن الإيمان بالمهدي واجب، وإن من شك فيه كافر، وإنه معصومٌ فيما دعا إليه من الحق، لا يجوز عليه الخطأ فيه» ا هـ. من «دولة الإسلام في الأندلس»، بتصرف، «٢٠٨/٤ ـ ٢١٠».

(١) «الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر»، ص: (٣٠٢).

(٢) كأن يكون من آل البيت؛ واسمه محمد بن عبدالله؛ وهي التسمية الغالبة على مُدَّعِي المهدية، أو يكون إمامًا عادلًا جوادًا؛ كعمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله تعالى ـ .

(٣) كما فعل محمد بن يوسف الجونبوري الذي غَيَّرَ اسم أبيه إلى عبدالله، واسم أمه إلى آمنة، وأشاعهما في الناس، وإمعانًا في التكلف تَوَجَّهَ إلى «خراسان»، «ولعله ذهب إلى «خراسان»؛ ليرجع منها إلى الهند بالرايات السود، حتى ينطبق عليه الحديث المروي في ذلك، لكن حالت دون ذلك موانع، فمات وهو ينتظر دخولها»، انظر: «فرق الهند»، ص «٢٩٩».

وقال ابن كثير في محمد بن عبدالله المهدي بن المنصور العباسي: «وإنما لقب بِالْمَهْدِيِّ رجاءَ أن يكون الموعود به في الأحاديث، فلم يكن به، وإن اشتركا في الاسم؛ فقد افترقا في الفعل» اهـ. من «البداية والنهاية»، (١٥١/١٠)، وراجع ص (٣٧٤)؛ الفصل الأول من الباب الثالث.

وزورًا[١]، وهذه العلامات - وإن اجتمعت كلها في شخص ما -؛ فإنَّها لا تكفي لإثبات أنه صادق في دعواه المهدية، حتى ينضمَّ إليها **النوع الثاني؛ وهو الأدلة المحكمة القاطعة بأن فلانًا بعينه هو المهدي المنتظر**، وهي العلامات غير القابلة للتَّكرار مع غير المهدي الحقيقي، ولا يستطيع مدعي المهدية أن يفتعلها، أو يتكلف إيجادها، أو يدعي أنها وقعت بالفعل، وهي: نزول عيسى - عليه السلام - في زمانه من السماء، واجتماعه به، وصلاته - عليه السلام - أول نزوله - خلف المهدي، ثم قتله الدجالَ[٢].

قال البرزنجي - رحمه الله -: «ومن العلامات التي يُعْرَفُ بها المهدي أنه يجتمع بعيسى ابن مريم - عليه السلام -، ويصلي عيسى خلفه»[٣]. اهـ.

وقال الشيخ حمود بن عبدالله التويجري - رحمه الله تعالى -:

(من ادَّعى من المفتونين أنه المهديُّ المنتظر، ولم يخرج الدجال في زمانه، فإنه دجَّال كذَّاب، وكذلك من ادَّعى أنه المسيح ابن مريم، ولم يكن الدجَّال قد خَرَجَ قبله، فإنه دَجَّال كاذب، وللمسيح ابن مريم علامتان لا تكونان لغيره من الناس، إِحْدَاهُمَا: أنه يقتل الدجَّال كما تواترت بذلك الأحاديث، والثَّانِيَةُ: أنه لا يحل لكافر يجد ريح نَفَسِه إلا مات، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طرفه[٤]، وفي هاتين العلامتين قَطْعٌ لأطماع كل دَجَّال يدَّعي أنه المسيح ابن مريم)[٥]. اهـ.

---

(١) كما ادعى المهدي الملحد عبيدالله بن ميمون القداح الانتساب إلى أهل البيت بالكذب، والزور، مع أن جده كان يهوديًّا من بيت مَجُوسِيٍّ، وكذلك ادَّعى هذا النسبَ ابنُ تومرت.

(٢) ومن العلامات المُحْكَمَةِ أن يُخْسَف بالجيش بالبيداء إذا صَحَّ أنه يقصد المهدي، راجع ص (٤٥ - ٤٧)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم (١٣٥٥).

(٣) «الإشاعة»، ص (٩١).

(٤) رواه مسلم (٢٩٣٧)، (٤/٢٢٥٣).

(٥) «إقامة البرهان في الرد على من أنكر المهدي والدجال».

الضَّابِطُ السَّادِسُ:

يَجِبُ نبذ الصورة الأسطورية التي خلعها على المهدي بعضُ الفرق الضالَّة، وبعضُ مدعي المهديةِ، ونخصُّ بالذكر الرافضةَ، وغلاة الصوفية، والوضَّاعين الكذَّابين، كما يلزم الاقتصار على الصورة الواقعية لشخصيته كما أخبر بها من لا ينطق عن الهوى ﷺ، والذي وصف المهديَّ بأنه: «رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي»، «رَجُلٌ مِنَّا»، «خَلِيفَةٌ مِنْ خُلَفَائِكُمْ»، «أَمِيرُهُمُ الْمَهْدِيُّ»، «إِمَامُهُمْ رَجُلٌ صَالِحٌ»... إلى آخر صفاته التي تبرئه من غلو الضالِّين، وإفراط الدجَّالِينَ، وتثبت أنه ـ في الحقيقة ـ إمامٌ عادل، وخليفةٌ راشد، ومجدِّد لشباب الدين، والمجدد قد يُعَمَّرُ طويلًا وينجز مهامه التجديدية، ثم يموت دون أن يدور بِخَلَدِهِ أنه مجدد، وكذلك كان يمكن أن يقال في حق المهدي سواء بسواء: «إنه قد يعيش ويموت دون أن يقطع بأنه المهدي»، لولا وجود العلامات القاطعة التي تجزم بصحة مهديته مما تقدم ذكره في «الضابط الخامس».

إن قطب الرحى، ومحط الأنظار في سيرة المهدي، إنجازاته الواقعية العملية في خدمة الدين والأمة، قبل «لقبه»، وهذا ما فهمناه من حال علماء السلف الذين شَكُّوا أن «فلانًا» هو المهدي؛ بناء على كونه إمامًا عادلًا، وبناءً على ما لمسوه وعاينوه من إنجازاته على أرض الواقع[1].

---

(١) مثال ذلك ما قال حكيم بن سعد: لما قام سليمان ـ أي ابن عبدالملك الأموي ـ **فأظهر ما أظهر**، قلت لأبي يحيى: «هذا المهدي الذي يُذكر؟»، قال: «لا».

ومثله قول وهب بن منبه: «إن كان في هذه الأمة مهدي؛ فهو عمر بن عبدالعزيز»، وكذا قال سعيد ابن المسيب، ومحمد بن علي فيه: «هو المهدي»، وقال إبراهيم بن ميسرة لطاووس: «عمر بن عبدالعزيز المهدي؟»، قال: «كان مهديًّا، وليس بذاك المهدي».

وقال خالد بن سُمَيْر في حق موسى بن طلحة بن عبيدالله: «وكان في زمانه يُرَوْنَ أنه المهدي»، راجع ص (٣٧٢)، فتراهم عوَّلوا على الأعمال، دون «التمحور» حول الإقرار بمهديته، وحَمْل الناس عليها، وتحويلها إلى هدف مقصود لذاته؛ فكان الحديث عمن ظنوه مهديًّا عابرًا دون جلبة، ولا ضوضاء.

يقول الشيخ عبدالمحسن العباد ـ حفظه اللَّه تعالى ـ:

«المهدي عند أهل السنة لا يعدو كونه إمامًا من أئمة المسلمين، الذين ينشرون العدل، ويُطَبِّقُونَ شَريعةَ الإسلام، يُولَدُ في آخر الزمان[1]، ويتولى إمرةَ المسلمين، ويكون خروج الدجّال، ونزول عيسى ابن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من السماء في زمانه، وهو غير معصوم»[2]... إلخ.

ويقول الدكتور عبدالودود شلبي ـ حفظه اللَّه تعالى ـ:

«إنه ليس ضروريًّا أن يعلن الرجل المختار لهذه المهمة عن نفسه.. الأنبياء والرسل هم الذين يعلنون عن دعوتهم؛ لأن من طبيعة «النبوة» الإعلان والإنذار، حتى لا تكون للناس على اللَّه حجة، وطبيعة «المهدية» تختلف عن طبيعة النبوة، فالمهدية تجديد، وإحياء، وحركة، وقد لا يعرف المرشح لهذه المهدية أنه المهدي نفسه.

إن العالم سيشاهد رجلًا تمثلت فيه صفات الكمال الخلقي، وزعيمًا تجسدت فيه آمال البعث والإصلاح الديني، وقائدًا تَمَيَّزَ بصفاتٍ نادرةٍ قَلَّمَا تجتمع في شخص عادي، وعلى ضوء ما يقوم به هذا الإمامُ الجليلُ من عملٍ، وبقدر ما يحققه للإسلام من عزة، وبالمقارنة بين عصره وبين ما كان قبله من فساد، وطغيان، وظلم، وما تحقق على يديه وفي عصره من إصلاح، وصلاح، وعدل، يعرف الناس أنه الرجل المنتظر، والمهدي الذي يعم عدله جميع البشر»[3]. اهـ.

---

(١) هذا واللَّه ـ تعالى ـ أعلم ـ؛ احترازٌ من قول الرافضة في شأن مهديهم الخرافي، وإن تعجب فعجبٌ ما نقله الشعراني عن الشيخ حسن العراقي: أنه اجتمع بالمهدي الحق، وسأله عن عمره، فقال له المهدي: «ولدت في أواخر المئتين من الهجرة، وعمري ست مئة سنة، وأنا من ولد الإمام الحسن العسكري»، قال الشعراني: «هكذا أخبرني، واللَّه أعلم بحقيقة الحال»، انظر: «لطائف المنن والأخلاق»، ص(٤٨٩-٤٩٠)، وصرح في موضع آخر بأنه سأل الكمل من مشايخ التصوف، فأجابوا بنفس ما قاله المهدي المزعوم سواء بسواء، واللَّه المستعان على ما يصفون، انظر: «الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية»، (٤/١، ٥)، (١٣٩/٢) مطبوعٌ على هامش «طبقات الصوفية»، للشعراني.

(٢) «الرد على من كذب بالأحاديث الواردة في المهدي»، ص (٨ - ٩).

(٣) «الأصول الفكرية»، ص (٢٣٨).

مُلاحَظَاتٌ وَتَحْذِيرَاتٌ

الأُولَى:

قد يدعي المهدية بعض الصالحين الذين تنطبق عليهم بعض صفات المهدي «المتشابهة»، كما حصل من محمد بن عبدالله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية، قال ابن كثير - رحمه الله -: «تلقب بالمهدي طمعًا أن يكون هو المذكور في الأحاديث، فلم يكن به، ولا تَمَّ له ما رجاه، ولا ما تمناه، فإنه للّه»(١).

الثَّانِيَةُ:

أن اللّه - سبحانه وتعالى - ينصب الأدلة الواضحة على بطلان وزيف دعاوي المدَّعين، لكنها قد لا تظهر إلا لِأُولي العلم الذين اختصهم اللّه - سبحانه - بالبصيرة في الدين، ولا تكاد تجد مُدَّعِيًا المهديةَ إلا ويكون اللّه - سبحانه - قد هيَّأَ له من أهل العلم، من ينقض دعواه، ويكشف زيفه.

وأحيانًا يكون بطلان دعواه ظاهرًا للعيان؛ إذ لا يستند إلى دليل سوى الهذيان، ولا يدعي دعوى إلا ويبطلها البرهان، وقد يبلغ جهله إلى حد الاستدلال بنفس الدعوى، مع أن الدعوى يستدل لها، ولا يستدل بها(٢).

(١) راجع، ص «٣٧٣».

(٢) ومن أمثلة ذلك أن الجونبوري قال في تفسير قوله - تعالى -: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾: «أنا أسمع من اللّه - سبحانه وتعالى - مباشرة بدون واسطة، يقول: إن هذه الآية نزلت في شأنك»، أ هـ، من «فرق الهند»؛ ص «٢٤٦».
ولما سأل علماء «هرات» الجونبوري: على أي أساس تدعي المهدية لنفسك؟
قال: «أنا لا أدعيها من عند نفسي، بل أدعيها بأمر من اللّه - سبحانه وتعالى -» ا هـ. من «فرق الهند»، ص(٢٤٦).
وسئل «الجونبوري»: إن اسم أبي المهدي «عبداللّه»، وأنت ابن «سيدخان» =.

الثَّالِثَةُ:

قد يحاول أعداء الإسلام استغلال فكرة المهدية للتوصل إلى مآربهم الخبيثة، ومقاصدهم الشريرة بأمة الإسلام، كما فعل اليهودي الزنديق المتمسلم عبدالله بن سبإ[1]، والمهدي الملحد عبيدالله بن ميمون القدَّاح[2]، وعلي محمد الشيرازي (ت١٨٥٠م) الذي ادَّعى أنه «باب المهدي المنتظر»، ثم ترقى فادعى أنه «المهدي» نفسه، ثم قرر - موافقة لطائفته - نسخ دين الإسلام، وشيوع المرأة، والمال، وإلغاء التكاليف، وكان يسانده، ويسلحه، الإنكليز، والروس، وبعد إعدامه سنة ١٢٦٦هـ، ادَّعَى حسين علي الملقب ببهاء الله إلغاء الأديان، وأنه هو مظهر الله الحقيقي، وأن جميع الأنبياء إنما جاءوا ليبشروا به[3]، ومن المعلوم أن البهائيةَ كانت عميلة للإنكليز والروس، وربيبة للصهيونية العالمية.

ومن هذا الصنف غلام أحمد القادياني الذي ادَّعى أنه المجدِّد، ثم المهدي، ثم المسيح الموعود، ثم النبي المستقل[4]، وكان للإنكليز دور ضالع في نصرته وتأييد دعوته.

الرَّابِعَةُ:

لُوحِظَ في بعض حالات ادِّعاء المهدية وجود شخصية أخرى إلى جوار المتمهدي

= فأجاب قائلًا: أليس الله بقادر على أن يبعث ابن «سيدخان» مهديًّا؟!
وأجاب مرة ثانية: «اسألوا الله لماذا بعث ابن «سيدخان» مهديًّا؟!
وقال مرة ثالثة: «اذهبوا فقاتلوا الله - تعالى - لماذا بعث ابن «سيدخان» اهـ. من «فرق الهند»، ص (٣٠٢).

(١) راجع ص (٣٦٦).

(٢) راجع ص (٣٨٢).

(٣) انظر: «فرق معاصرة»، (١/٤٠٩)، وما بعدها، و«الموسوعة الميسرة»، (١/٤١٢)، وما بعدها، و«البهائية»، للشيخ محب الدين الخطيب، و «البابية، والبهائية»، للشيخ إحسان إلهي ظهير.

(٤) انظر: «فرق معاصرة»، (٢/ ٤٨٣)، «الموسوعة الميسرة»، (١ /٤١٩)، و«القاديانية»، لإحسان إلهي ظهير، و«طائفة القاديانية»، للشيخ / محمد الخضر حسين.

تدعمه؛ كعبدالمؤمن مع ابن تومرت، والتعايشي مع السوداني، أو تؤثر عليه وتوجهه، وتسيطر عليه[١]، كما حصل من المُلَّا حسين البشروئي مع علي محمد الشيرازي[٢]، وكما فعل جُهَيْمَان العتيبي مع مُحَمَّد بن عبدالله القحطاني.

الخَامِسَةُ:

من خلال استقراء أحوال مدعي المهدية، أمكن رصد بعض حالات يبدو أن أصحابها كانوا مضطربين نفسيًّا[٣].

فهذا «تمرتاش بن النوين»: «خَفَّ عقلُهُ؛ فزعم أنه المهدي»[٤].

(١) وربما تبادل الاثنان هذاءاتهما؛ نتيجة «عدوى» نفسية تنتقل بالإيحاء، فتسمى عندئذ: جنون الاثنين (Folie a Deux)

(٢) علي بن محمد الشيرازي مهدي البهائية؛ الذي زيَّن له الأمر المُلَّا حسين البشروئي، يقول الشيخ عبدالرحمن الوكيل ـ رحمه الله ـ مُعَلِّقًا على طبيعة الشخصيتين ـ: «كلا الأحمقين كان الصيدَ الذي يتمنى أن يُصاد، لا أن ينجو من الشَّرَك، فعثر كلاهما بمن يصطاده؛ عثر البشروئي بالشاب الذي غلبته المراهقة على أمره، وبمن يضع اللقمة في جوفه، والكلمة في فمه، والخنجر في يده، وعثر الشاب بالشيخ الذي كان ينوء تحت ثقل عبوديته لأطماعه، وكلاهما ظن في صاحبه أنه صيده الذي دار في الغاب طويلًا يبحث عنه، وكلاهما خنع ذليلًا لهذا الظن، فَلْتَلْتَهِم النار الهشيم، وليؤجج الهشيمُ النارَ التي تلتهمه»، اهـ، من «البهائية تاريخها وعقيدتها»، ص (٨٩ ـ ٩٠). وفيه أنه لما طُلِبَ من «المهدي» حُجَّةً تؤيد دعواه كانت الحجة: قوله «آية المهدي أنه يكتب تفسيرًا لسورة يوسف»، وأخرجه من ثوبه ـ وقد أعدَّه مقدمًا ـ وهنا: «خرَّ البشروئي ساجدًا معلنًا في صراحة أن هذا المراهق هو المهدي المنتظر، والقائم صاحب الزمان» اهـ. من السابق، ص: (٩١) بتصرف.

(٣) ولا شك أن الانتباه المبكر لمثل هذه الحالات يقي الأمة شرًّا كثيرًا، ولعل أقرب الاضطرابات لمثل هذه الحالات «الاضطراب الضلالي» .DELUSIONAL DISORDER

من النوع المعروف بـ «العظمة الضلالية» .DELUSION OF GRANDEUR

أو «هذاء البارانويا» المسمى «جنون العظمة»؛ حيث يحتفظ المريض بالتفكير المنطقي، وتبقى الشخصية متماسكة، ومنتظمة نسبيًّا، وعلى اتصال ـ لا بأس به ـ بالواقع، ولا يصاحبها اضطرابات عقلية أخرى، ولا يحدث تغير في السلوك العام إلا بقدر ما توحي به الأوهام، والهذيانات؛ فالذي يلفت النظر ـ هنا ـ هو أن المريض قد يبدو سليمًا من ناحية قدرته على الاستدلال والمحاجة، غير أنه يؤسس استدلالاته على اعتقادات زائفة أو فاسدة، ومقدمات باطلة.

(٤) راجع ص (٤٢٦ ـ ٤٢٧).

و«أحمد بن عبدالله الملثم»: «حصل له انحرافُ مزاجٍ، فادَّعى في سنة (٦٨٩) هـ دَعاوَى عريضة»... إلخ، وذُكِرَ أنهم «حبسوه عند المجانين»[(١)].

وربما وُصف بعضهم - اعتذارًا عن دعواه المهدية[(٢)] - أنه كان «في حالة جَذْبٍ[(٣)]» أو «في غلبة الحال، ولكنه تاب عن ذلك القول في حالة الصحو والإفاقة، كغيره من الصوفية»[(٤)].

- وجاء في سيرة «نظام الدين السندي» أنه ادَّعى أنه المهدي الموعود، «وشاع ذلك الأمر وذَاعَ، فَوُضِعَ في البيمارستان القيمري بالصالحية مدة، وسكن عن التخليط، وقلَّل من التخبيط، فأمر القاضي بإخراجه»[(٥)]... إلخ.

السَّادِسَةُ:

لا تشفع الجوانِبُ الإيجابية التي أنجزها بعض مُدَّعِي المهدية[(٦)] في أن يُتجاوز - عند تقويم حركاتهم - عن أخطائهم المنهجية، وتجاوزاتهم للحدود الشرعية، فقد لُوحِظَ أنَّ بعض الباحثين يطلق لسانه في مدحهم، والثناء عليهم، غَاضًّا طرفه عن هذه السلبيات الجسيمة[(٧)]، وهذا خروج عن منهج السلفِ في التحذير من أهل البدع، والتنفير من مناهجهم.

---

(١) راجع ص (٤٢٦ - ٤٢٧).

(٢) راجع ص (٤٨٥).

(٣) انظر: «الكشف عن حقيقة الصوفية»، ص (٦٨٠)، وما بعدها.

(٤) راجع ص (٤٢٨)، ومثله ما جاء في اعتذار أبي الكلام آزاد عن دعاوى «الجونبوري» المتمهدي بأنها قد تكون (صدرت عنه في حال «السُّكْر»، و«الاستغراق»، و«غلبة الأحوال»؛ فهي إذن تُغْتَفَر)، كما نقله عنه في «فرق الهند»، هامش ص (٢٨٩)، مع أن الجونبوري قال إنه تلقى أمر المهدية عن الله - تعالى - مباشرة بدون واسطة!!، وقال: «وفي هذا الوقت أنا صحيح؛ ليس بي مرض، وعاقل؛ ليس بي جنون، ومنتبه؛ ليس بي غفلة، ولا إغماء، ومتأهل؛ لست بأعزب (؟!)، يأتيني رزقي من عند الله - تعالى -، ولا أحتاج إلى أحد، ولا أطلب الملك»؛ كما نقله عنه في «فرق الهند»، ص (٢٣٨ - ٢٣٩).

(٥) «المختار المصون من أعلام القرون»، (١١٧٣/٢).

(٦) كابن تومرت، والسوداني، والجونبوري، وغيرهم.

(٧) إما بأن يضرب صفحًا عن ذكر السلبيات بالكلية؛ كما فعل فتحي يكن مع المهدي السوداني في كتابه «الموسوعة الحركية»، (٢٢٩/١ - ٢٣٥)، أو بأن ينظم بعضهم في سلك المصلحين؛ كما زعم

السَّابِعَةُ:

يُلَاحَظُ أن مكابرة حقائق الواقع على طريقة «عنزة ولو طارت»[(١)]، قاسم مشترك بين كثير من أتباع المُتَمَهْدِيِّينَ؛ الأمر الذي يعكس تلاعبَ الشيطان بهم، فبمجرد أن يُقْتَلَ مهديهم أو يموت ـ دون أن يملك سبع سنين ـ يعز على الشيطان أن تنحسم فتنته بموته ـ كما هو المفترض ـ، فَيُوحِيَ إلى أتباعه أنه لم يمت، ثم هم مُغْرَمُونَ ـ مع ذلك ـ بادعاء حتمية رجعته ليملأ الأرض عدلًا.

ـ فابن سبإ ادَّعى مهديةَ أمير المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه، فلما قِيلَ له: «إن عليًّا قد قُتِلَ»؛

= الدكتور عبدالمجيد النجار في كتابه «تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت»، ومما يؤسف له أن يدرج «المعهد العالمي للفكر الإسلامي» الكتاب المشار إليه ضمن سلسلة «حركات الإصلاح ومناهج التغيير»؛ انظر: «دولة الموحدين»، ص (٧٠، ٣٧٣).

ومنهم من بهرته إنجازات بعض المتمهديين حتى عشا بصره عن رؤية مثالبهم الفظيعة؛ كما حَكَى عنهم الشيخ مسعود عالم الندوي في سياق قوله: «فلا نعرف رجلًا من بين العلماء تصدي لمقاومة تيار الزندقة، والإلحاد، وانبرى لمقارعة فتن البدع، وتتبع الشهوات، والأهواء غير «السيد محمد المهدي الجونبوري» الذي ادعى أنه مهدي آخر الزمان، فالتبس أمره على الناس، وأصبح العلماء، والمؤرخون من معاصريه، والذين جاءوا من بعده في شأنه على قسمين بين مادح، وقادح؛ قسم يتجنب الحكم، والقطع بشيء في شأنه، ويفوض أمره إلى الله ـ تعالى ـ؛ وذلك لما جاء به، وأتباعُه من مساع جليلة، وجهود مثمرة متتابعة لإصلاح ما فسد من تعاليم الدين، ومقاومة ما فشا في المسلمين من التهافت على البدع، والمنكرات...، وقسم لم يَتَحَرَّج في تكفير «السيد محمد» وأتباعه، ولم يدخر وسعًا في استئصال شأفتهم» ا هـ. من «فرق الهند»، ص: (٢٩٠ ـ ٢٩١).

وهذا «أبو الكلام آزاد»، (ت ١٩٥٨م) يكيل المدح لهم، ويطري عليهم، ويصم العلماء الذين قاموا ضدهم بعلماء الدنيا، وعبيدها، وفقهاء السوء، ويهود هذه الأمة، ويفصل الكلام في بيان مناقب الدعاة المهدويين، وأعمالهم الجليلة، ثم يعتذر عن الجونبوري في عقائده، وأقواله بأنها جاءت إما عن غلو معتقديه، وإما صدرت عنه في حال «السُّكْر»، و«الاستغراق»، و«غلبة الأحوال»؛ فهي ـ إذن ـ تغتفر؛ كما نقله عنه في «فرق الهند»، ص (٢٨٩).

(١) يضرب مثلًا في هذا السياق؛ وأصله أن رجلين كانا يمشيان في الصحراء، فأبصرا شيئًا في الأفق، فقال أحدهما: هو عنزة، وقال الآخر: إنه طائر، فلم يلبث حتى طار عاليًا، فقال الثاني: ألم أقل لك إنه طائر؟ فأجابه الأول: «عنزة، ولو طارت».

قال: «إن جئتمونا بدماغه في صرة لم نصدق بموته؛ لا يموت حتى ينزل من السماء، ويملك الأرض بحذافيرها»، وزعم أن الذي قُتِلَ شيطان تصور في صورة علي، وأنه صَعَدَ إلى السماء، وأن الرَّعْدَ صوته، والبرقَ تَبَسُّمُهُ[1].

- وادعت فرقة من الكيسانية أن محمد بن الحنفية حي لم يمت، وأنه في جبل رضوى... إلى آخر تُرَّهَاتِهِمْ[2].

- وادعى بعض الجارودية أن «النفس الزكية» حيٌّ لم يُقْتَلْ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلًا، في حين زعم «المحمدية» أنه في جبل حاجر من ناحية نجد.... إلخ[3].

* * *

---

(١)راجع ص (٣٦٦).

(٢)راجع ص (٣٦٨)

(٣)راجع ص (٣٧٤)، وانظر ص (٥٦٥).

الخَاتِـمَةُ

نَسْأَلُ اللَّهَ حُسْنَهَا إِذَا بَلَغَتِ الرُّوحُ الْمُنْتَهَى

دونك - أخي المسلم - هذا المجموعَ الذي لم آلُ جهدًا في ترتيبه، وتنسيقه، فَأَحْسِنْ بِجَامِعِهِ الظَّنَّ، وإن كان قاصرًا ليس من أهل هذا الفن، وقد عرض عليك بضاعته، فلك غُنْمه، وعليه غُرْمُهُ، ولك صفوه، وعليه عهدته وهفوه؛ فلا يعدم منك أحد الأمرين:

إِمْسَاكًا بِمَعْرُوفٍ، أَوْ تَسْرِيحًا بِإِحْسَانٍ.

ورحم اللَّه عبدًا بلغه الحق فانصاع، ولم يَعْدُهُ إلى التكذيب، والابتداع، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، [هود: ٨٨].

اللهم اجعل عملي صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا.

اللهم اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، واجعل خير أيامي يوم ألقاك .

اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد، يُعزُّ فيه أهلُ طاعتك، ويُذَلُّ فيه أهل معصيتك.

اللهم، ونسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، المنانُ، يابديعَ السماواتِ والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، أن تجنبنا مضلات الفتن، وتعصمنا من المحن، وأن تميتنا على السنن، وتغفر لنا ذنوبنا التي جنيناها في السر والعلن، إنك قريب مجيب.

لَكَ الحَمْدُ كَم مِنْ كُرْبَةٍ قد كَشَفْتَهَا ... بِنُورٍ مِنَ اللُّطْفِ الخَفِيِّ تَجَلَّتِ

لَكَ الحَمْدُ فَاكْشِفْ كُرْبَةَ الحَشْرِ إِنْ دَجَتْ ... بِنُورٍ مِنَ الغُفْرانِ والرَّحْمَةِ الَّتِي

وإلى هنا وقف القلم، وأستغفر اللَّه من الزلل في القول والعمل، لي ولوالدي، وللمسلمين، وصلى اللَّه، وسلم، وبارك على عبده ورسوله الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الفهارس

أولًا: فهرس أطراف الأحاديث

(أ)

ثانيًا: فهرس أطراف الآثار والأقوال

(أ)

* * *

ثالثًا: فهرس المراجع

(أ)

١ـ أبجد العلوم
ـ طبعة عبدالخالق القدوسي ـ ط. أولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ـ صديق بن حسن بن علي البخاري القنوجي.

٢ـ أبو حامد الغزالي والتصوف
ـ دار طيبة ـ الرياض ـ ط. أولى ـ ١٤٠٦هـ ـ عبدالرحمن دمشقية.

٣ـ الأثر السياسي للعلماء في دولة المرابطين
ـ دار الأندلس الخضراء ـ جدة ـ ط. أولى ـ ١٤٢٠هـ ـ محمد محمود عبدالله بن بِيَّه.

٤ـ الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر
ـ مكتبة دار العليان الحديثه ـ بريدة ـ ط. ثانيه ١٤٠٦هـ حمود بن عبدالله التويجري.

٥ـ الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان
ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان ـ ط. أولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ـ علاء الدين علي بن بلبان الفارسي.

٦ـ الإحكام في أصول الأحكام .
مطبعة العاصمة ـ القاهرة ـ ط. الثانية ـ أبو محمد علي بن حزم الأندلسي.

٧ـ أخبار الآحاد في الحديث النبوي
ـ دار طيبة ـ الرياض ـ ط. أولى ـ ١٤٠٨هـ ـ عبدالله بن جبرين.

٨ـ إحياء علوم الدين
ـ طبعة دار الشعب ـ القاهرة ـ أبو حامد الغزالي.

٩ـ الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة .
مطبعة الحسيني ـ ط. أولى ـ نشر علي رحمي ـ محمد صديق حسن خان.

١٠ـ إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول
ـ مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط. أولى ـ ١٣٥٦هـ ـ محمد بن علي الشوكاني.

١١ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل
ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط. أولى ١٣٩٩هـ ـ محمد ناصر الدين الألباني.

١٢ـ الإشاعة لأشراط الساعة
ـ مكتبة المشهد الحسيني ـ القاهرة ـ محمد بن رسول الحسيني البرزنجي.
١٣ـ الإصابة في تمييز الصحابة.
ـ مطبعة نهضة مصر ـ القاهرة ـ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.
١٤ـ إصلاح المساجد من البدع والعوائد
ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ محمد جمال الدين القاسمي.
١٥ـ الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته
ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٩م ـ د. عبدالودود شلبي.
١٦ـ أصول الكافي بشرحه الشافي
ـ مطبعة النعمان ـ النجف ـ ١٣٧٨هـ ١٩٥٨م ـ أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني ـ شرح وتعليق عبدالحسين بن عبدالله المظفر.
١٧ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن.
مطبعة المدني ـ القاهرة ـ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي.
١٨ـ أطلس تايخ الإسلام
ـ الزهراء للإعلام العربي ـ القاهرة ـ ط. أولى ١٤٠٧هـ ـ د. حسين مؤنس.
١٩ـ الاعتصام
ـ دار عمر بن الخطاب ـ الإسكندرية ـ أبو إسحاق الشاطبي.
٢٠ـ أعذب الموارد في تخريج جمع الفوائد
ـ المدينة المنورة ـ عبدالله هاشم اليماني المدني.
٢١ـ الأعلام
ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ لبنان ـ ط. السابعة ١٩٨٦م ـ خير الدين الزركلي.
٢٢ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين
ـ القاهرة ـ تحقيق عبدالرحمن الوكيل ـ الإمام ابن قيم الجوزية.
٢٣ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان
ـ مصطفى البابي الحلبي ـ ١٣٨١هـ ـ ابن قيم الجوزية.

٢٤ـ الأغاني
ـ دار إحياء التراث العربي ـ أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني.

٢٥ـ أفريقيا لماذا؟
ـ دار الصحوة ـ القاهرة ـ ١٤١١هـ ـ د. محمد عبده يماني.

٢٦ـ أفريقيا يراد لها أن تموت جوعًا
ـ دار الوفاء ـ المنصورة ـ ط. ثالثة ـ ١٤١١هـ ـ د. جمال عبدالهادي، د. وفاء جمعة.

٢٧ـ أفعال الرسول ﷺ، ودلالتها على الأحكام الشرعية
ـ مكتبة المنار الإسلامية ـ الكويت ـ الطبعة لأولى ١٣٨٩هـ ـ محمد سليمان الأشقر.

٢٨ـ إقامة البرهان في الرد على من أنكر المهدي والدجال
ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ـ ١٤٠٥هـ ـ حمود بن عبدالله التويجري.

٢٩ـ ألفية الحديث مع شرح السخاوي .
مطبعة العاصمة ـ القاهرة ـ زين الدين العراقي.

٣٠ـ إمارة الإسلام «المهدية» في السودان
ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م ـ د. إبراهيم شحاته حسن.

٣١ـ الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل
ـ الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ـ القاهرة ـ ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م ـ محمد السيد الجليند.

٣٢ـ الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين
ـ دار طيبة ـ مكة المكرمة ـ الطبعة الثانية ـ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م ـ علي بن بخيت الزهراني.

٣٣ـ الإنصاف في حقيقة الأولياء وما لهم من الكرامات والألطاف
ـ أشرف على طباعته حسن بن علي العواجي ـ ط. أولى ـ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م ـ محمد بن إسماعيل الصنعاني.

(ب)

٣٤ـ الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث
ـ محمد علي صبيح وأولاده ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ـ تحقيق أحمد شاكر ـ ابن كثير القرشي.

٣٥ـ الباعث على إنكار البدع والحوادث
ـ مطبعة النهضة الحديثة ـ مكة المكرمة ـ ط. ثانية ـ ١٤٠١هـ ـ أبو شامة محمد بن عبدالرحمن.

٣٦ـ البحر المحيط
ـ طبعة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ـ الكويت ـ ط. ثانية ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م ـ بدر الدين الزركشي.

٣٧ـ بدائع التفسير
ـ دار ابن الجوزي ـ الدمام ـ السعودية ـ ط. أولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م ـ ابن قيم الجوزية.

٣٨ـ بدائع الفوائد
ـ مكتبة القاهرة ـ مصر ـ ط. ثانية ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م ـ ابن قيم الجوزية.

٣٩ـ البداية والنهاية
ـ نشر مكتبة المعارف ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٩٧٩م ـ ابن كثير القرشي.

٤٠ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع
ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان ـ محمد بن علي الشوكاني.

٤١ـ البهائية ـ تاريخها وعقيدتها، وصلتها بالباطنية والصهيونية
ـ دار المدني ـ القاهرة ـ ط. ثانية ـ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م ـ عبدالرحمن الوكيل.

(ت)

٤٢ـ التاج الجامع للأصول
ـ عيسى البابي الحلبي ـ ط. الرابعة ـ ١٩٦٤م ـ منصور علي ناصف.

٤٣ـ التاريخ الإسلامي (العهد العثماني)
ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط. ثانية ـ ١٤٠٧هـ ـ محمود شاكر.

٤٤ـ تاريخ بغداد «أو مدينة السلام»
ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الخطيب البغدادي.

٤٥ـ تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب
ـ دار ومكتبة الهلال ـ بيروت ـ ط. الثالثة ـ ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م ـ حسين خلف الشيخ خزعل.

٤٦ـ تاريخ الخلفاء
ـ القاهرة ـ ١٩٥٩م ـ عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد.

٤٧ـ التبيان في أقسام القرآن
ـ مكتبة القاهرة ـ القاهرة ـ ابن قيم الجوزية.

٤٨ـ تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري
ـ دار الكتاب العربي ـ ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٧م ـ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي.

٤٩ـ تتمة الأعلام للزركلي
ـ دار ابن حزم ـ بيروت ـ لبنان ـ ط. أولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م ـ محمد خير رمضان يوسف.

٥٠ـ التجانية
ـ دار طيبة ـ الرياض ـ علي بن محمد الدخيل الله.

٥١ـ التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير
ـ دار الراية ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ـ بكر بن عبدالله أبو زيد.

٥٢ـ تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي
ـ الفجالة الجديدة ـ ط. الثانية ـ ١٣٨٥هـ ـ أبو العلي محمد بن عبدالرحيم المباركفوري.

٥٣ـ التحفة الندية في الفتنة العرابية
ـ الروضة الثقافية ـ ط. أولى ١٤٢١هـ ـ أحمد سعيد نونو.

٥٤ـ تحقيق مسند الإمام أحمد
ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م ـ أحمد محمد شاكر.

٥٥ـ تحقيق مشكاة المصابيح للتبريزي
ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط. الثانية ـ ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م ـ محمد ناصر الدين الألباني.

٥٦ـ تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق للربعي
ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ محمد ناصر الدين الألباني.

٥٧ـ تدريب الراوي شرح تقريب النواوي
ـ مطبعة السعادة ـ مصر ـ ١٣٨٦هـ ـ جلال الدين السيوطي.

٥٨ـ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة
ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ ١٤٠٠هـ، وطبعة دار الفكر ـ بيروت ـ أبو عبدالله القرطبي.

٥٩ـ تذكرة الحفاظ
ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٣٧٤هـ ـ شمس الدين الذهبي.

٦٠ـ التشيع بين مفهوم الأئمة والمفهوم الفارسي
ـ دار عمار ـ عمان ـ الأردن ـ ط. الأولى ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ـ محمد البنداري.

٦١ـ تعريف الأحياء بفضائل الإحياء ـ ملحق بإحياء علوم الدين
ـ طبعة دار الشعب ـ عبدالقادر العيدروس.

٦٢ـ تفسير القرآن العظيم
ـ دار الشعب ـ القاهرة ـ ابن كثير القرشي.

٦٣ـ التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)
ـ مكتبة الإيمان ـ المنصورة ـ ط. الأولى ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م ـ فخر الدين الرازي.

٦٤ـ التقريب والتيسير (مع شرحه: تدريب النواوي)
ـ مطبعة السعادة بمصر ـ أبو زكريا يحيى بن شرف النووي.

٦٥ـ التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح
ـ مطبعة العاصمة ـ القاهرة ـ ط. الأولى ١٣٨٩هـ ـ زين الدين عبدالرحيم بن الحسين العراقي.

٦٦ـ تلبيس إبليس
ـ مكتبة المدني ـ جدَّة ـ ١٤٠٣هـ ـ أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي.

٦٧ـ تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير
ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م ـ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر الشافعي.

٦٨ـ تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي (مصرع التصوف)
ـ مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة ـ ط. أولى ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م ـ برهان الدين البقاعي ـ تحقيق عبدالرحمن الوكيل.

٦٩ـ التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع
ـ مكتبة المثنى ـ بغداد ـ ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م ـ أبو الحسين محمد بن أحمد الملطي الشافعي
ـ تعليق محمد زاهد الكوثري.

٧٠ـ تهذيب التهذيب
ـ دار صادر ـ بيروت ـ لبنان ـ ابن حجر العسقلاني.

٧١ـ تهذيب سنن أبي داود
ـ المكتبة السلفية ـ المدينة المنورة ـ ط. الثانية ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م ـ ابن قيم الجوزية ـ تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان.

٧٢ـ تهذيب الكمال في أسماء الرجال
ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط. ثانية ١٤٠٣هـ ـ جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبدالرحمن المزي ـ تحقيق بشار عواد معروف.

٧٣ـ توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار
ـ دار إحياء التراث العربي ـ الطبعة الأولى ١٣٦٦هـ ـ محمد بن إسماعيل الصنعاني.

٧٤ـ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد
ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة السادسة ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م ـ سليمان بن عبدالله ابن محمد بن عبدالوهاب.

(ج)

٧٥ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ.
ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط. ثانية ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ـ تحقيق عبدالقادر الأرناؤط ـ ابن الأثير الجزري.

٧٦ـ جامع بيان العلم وفضله
ـ دار ابن الجوزي ـ الدمام ـ السعودية ـ ط. أولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م ـ تحقيق أبي الأشبال الزهيري ـ أبو عمر يوسف بن عبدالبر.

٧٧ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن
ـ طبعة الحلبي ـ محمد بن جرير الطبري.

٧٨ـ جامع كرامات الأولياء
شركة مصطفى البابي الحلبي ـ ط. الثانية ١٣٩٤هـ ـ يوسف النبهاني الشاذلي.

٧٩ـ الجامع لأحكام القرآن
ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة ـ ١٣٨٦هـ ـ أبو عبدالله القرطبي.

٨٠ـ جريمة العصر
ـ دار الأنصار ـ القاهرة ـ ١٤٠٠هـ ـ عبدالعظيم المطعني.
٨١ـ الجواب الباهر في زوار المقابر
ـ ط. المطبعة السلفية ـ مصر ـ تحقيق سليمان الصنيع وعبدالرحمن المعلمي ـ شيخ الإسلام ابن تيمية.
٨٢ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح
ـ دار العاصمة ـ الرياض ـ ط. ثانية ـ ١٤١٩هـ ـ شيخ الإسلام ابن تيمية.
٨٣ـ جولة في رياض العلماء وأحداث الحياة
ـ مكتبة الفلاح ـ ط. ثانية ـ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م ـ د. عمر سليمان الأشقر.
٨٤ـ جنوب السودان وصناعة التآمر ضد ديار المسلمين
ـ مكتبة السنة ـ القاهرة ـ ١٩٩٣م ـ د. عبدالعظيم الديب.

(ح)

٨٥ـ الحاوي للفتاوى
ـ مطبعة الشيخ منير ـ ١٣٥٣هـ ـ جلال الدين السيوطي.
٨٦ـ حجية السنة
ـ دار القرآن الكريم ـ بيروت ـ ط. الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م ـ عبدالغني عبدالخالق.
٨٧ـ الحركة السَّنوسية في ليبيا
ـ دار البيارق ـ عَمَّان ـ الأردن ـ ط. أولى ١٤٢٠هـ ـ د. علي محمد محمد الصلابي.
٨٨ـ حركة النفس الزكية
ـ دار الأرقم ـ الكويت ـ ط. أولى ١٤٠٤هـ ـ محمد سليمان العبدة.
٨٩ـ حزام المواجهة: حرب التنصير في أفريقيا
ـ دار الذخائر ـ الدمام ـ ط. أولى ١٤١٤هـ ـ جبر الله عمر الأمين ـ ومدبولي إسماعيل عثمان.
٩٠ـ حقوق النبي ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ على أمته
ـ دار الفتح ـ الشارقة ـ ط. أولى ١٤١٨هـ ـ د. محمد خليفة التميمي.

٩١ـ حقيقة الخبر عن المهدي المنتظر من الكتاب والسنة
ـ مكتبة تاج بداير ـ طنطا ـ صلاح الدين عبدالحميد الهادي.

٩٢ـ الحكومة الإسلامية
ـ منشورات المكتبة الإسلامية الكبرى ـ روح الله الخميني.

٩٣ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء
ـ مطبعة السعادة ـ مصر ـ ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م ـ أبو نعيم الأصبهاني.

٩٤ـ حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب
ـ ١٣٨٨هـ ـ حسين خلف الشيخ خزعل.

(خ)

٩٥ـ خراب الكعبة
ـ مكتبة ابن تيمية ـ الكويت ـ ط. أولى ١٤٠٨هـ ـ محمد بن إبراهيم الشيباني.

٩٦ـ الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الاثني عشرية
ـ ط ـ ثالثة ١٤٠٩هـ ـ محب الدين الخطيب ـ تعليق محمد مال الله.

٩٧ـ خواطر دينية (الجزء الثاني)
ـ مكتبة القاهرة ـ ط. أولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م ـ عبدالله بن محمد بن الصديق الغماري.

٩٨ـ الخيانة هزمت عرابي
ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨٩م ـ عادل أحمد سركيس.

(د)

٩٩ـ درء تعارض العقل والنقل
ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م ـ شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ـ تحقيق د. محمود رشاد سالم.

١٠٠ـ الدُّرَّة المُضِيَّة في عقد الفرقة المرضية
ـ مطبعة المدني ـ القاهرة ـ محمد بن أحمد السفاريني.

١٠١ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة
ـ مطبعة المدني ـ القاهرة ـ تحقيق محمد سيد جاد الحق ـ شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني.

١٠٢- الدعاة من المتألهين والمتنبئين والمتمهدين
- المطبعة العربية ومكتبتها - مصر - ١٤٢٢هـ - ١٩٢٣م - وجيه فارس الكيلاني.

١٠٣- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب
- ملحق بآخر «أضواء البيان» - مطبعة المدني - القاهرة - ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م - محمد الأمين ابن محمد المختار الشنقيطي.

١٠٤- دولة الإسلام في الأندلس
- الهيئة المصرية العامة للكتاب - مكتبة الأسرة - ٢٠٠١م - محمد عبدالله عنان.

١٠٥- الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط
- دار البيارق - عمان - الأردن - ط. أولى ١٤٢٠هـ - د. علي محمد محمد الصلابي.

١٠٦- دولة الموحدين
- دار البيارق - الأردن - عمان - د. علي محمد محمد الصلابي.

(ر)

١٠٧- الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي
- مطابع الرشيد - المدينة المنورة - ١٤٠٢هـ - عبدالمحسن بن حمد العباد.

١٠٨- الرد القويم على المجرم الأثيم
- دار العليان الحديثة - بريدة - السعودية - ط. ثانية - حمود بن عبدالله التويجري.

١٠٩- الرسالة
- القاهرة - تحقيق أحمد محمد شاكر - الإمام محمد بن إدريس الشافعي.

١١٠- رسالة في حق المهدي
- مخطوط مكتبة البلدية - الإسكندرية - علي بن سلطان القاري.

١١١- رسالة في الرد على الرافضة
- دار المأمون للتراث - ١٤٠٠هـ - السعودية - محمد بن عبدالوهاب.

١١٢- الرسالة القشيرية
- مطبعة حسان - شارع الجيش - القاهرة - أبو القاسم عبدالكريم القشيري - تحقيق د. عبدالحليم محمود، ومحمود بن الشريف.

١١٣ـ الرفاعية
ـ ط. أولى ـ ١٤١٠هـ ـ عبدالرحمن دمشقية.

١١٤ـ الرفع والتكميل في الجرح والتعديل
ـ دار لبنان ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٨٩هـ ـ عبدالحي اللكنوي.

١١٥ـ الروح
ـ دار عمر بن الخطاب ـ الإسكندرية ـ ابن قيم الجوزية.

١١٦ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني
ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م ـ شهاب الدين محمود الألوسي.

١١٧ـ الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام
ـ دار الفكر ـ بيروت ـ أبو القاسم السهيلي.

(ز)

١١٨ـ زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم
ـ طبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ وطبعة دار الفكر ـ بيروت ـ ١٤٠١هـ ـ محمد حبيب الله الشنقيطي.

١١٩ـ زغل الدعاة
ـ دار الأندلس الخضراء ـ جدة ـ الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م ـ سعيد بن ناصر الغامدي.

١٢٠ـ الزهر النضر في نبإ الخضر (ضمن مجموعة الرسائل المنيرية)
ـ المطبعة المنيرية ـ ١٩٧٠م ـ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.

١٢١ـ الزواجر عن اقتراف الكبائر
ـ مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٩٠هـ ـ أحمد بن حجر الهيتمي.

(س)

١٢٢ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، وشيء من فقهها وفوائدها
ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ محمد ناصر الدين الألباني.

١٢٣ـ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة
ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ محمد ناصر الدين الألباني.

١٢٤ـ السلفية وأعلامها في موريتانيا
ـ دار ابن حزم ـ بيروت ـ ط. أولى ١٤١٦هـ ـ الشيخ الطيب عمر بن الحسين.

١٢٥ـ السنة
ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ـ أبو بكر عمرو بن أبي عاصم ـ تحقيق محمد ناصر الدين الألباني.

١٢٦ـ سنن ابن ماجه بحاشية السندي
ـ دار الفكر ـ الطبعة الثانية ـ محمد بن يزيد بن ماجة القزويني.

١٢٧ـ سنن أبي داود
ـ دار إحياء السنة النبوية ـ الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني.

١٢٨ـ سنن الترمذي
ـ المكتبة الإسلامية ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي.

١٢٩ـ سنن الدارقطني
ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ علي بن عمر الدارقطني.

١٣٠ـ سنن الدارمي
ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ بعناية محمد أحمد دهمان ـ عبدالله بن بهرام الدارمي.

١٣١ـ السنن الكبرى
ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م ـ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي.

١٣٢ـ سنن النسائي
ـ دار الفكر بيروت ـ عن الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ ـ أبو عبدالرحمن النسائي.

١٣٣ـ السنن الواردة في الفتن
ـ دار العاصمة ـ الرياض ـ ط. الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م ـ أبو عمرو عثمان بن سعيد المقرئ الداني.

١٣٤ـ السودان بين يدي غوردون وكتشنر
ـ مطبعة جريدة المؤيد ـ القاهرة ـ ١٣٠٩هـ ـ إبراهيم فوزي.

١٣٥ـ سيد البشر يتحدث عن المهدي المنتظر

- مطبعة المدني - القاهرة - حامد محمود محمد ليمود.

١٣٦- سير أعلام النبلاء

- مؤسسة الرسالة - بيروت - تحقيق شعيب الأرناؤوط - الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي.

(ش)

١٣٧- شذرات الذهب في أخبار من ذهب

- دار الكتب العلمية - بيروت - أبو الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي.

١٣٨- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة

- دار طيبة - الرياض - السعودية - ١٤٠٢هـ - أبي القاسم هبة الله بن الحسن اللالكائي - تحقيق د. أحمد سعد حمدان.

١٣٩- شرح السنة

- طبعة المكتب الإسلامي - بيروت - أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء - البغوي.

١٤٠- شرح الشفا في شمائل صاحب الاصطفا للقاضي عياض

- مطبعة المدني - العباسية - القاهرة - تحقيق الشيخ حسنين محمد مخلوف - الإمام نور الدين القاري.

١٤١- شرح العقيدة الطحاوية

- مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م - علي بن أبي العز الدمشقي - تحقيق د. عبدالله التركي وشعيب الأرناؤوط.

١٤٢- شرح الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة النعمان

- مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - ط. ثانية ١٣٧٥هـ - ملا علي بن سلطان محمد القاري الحنفي.

١٤٣- شرح المواهب اللدنية

- المطبعة الأزهرية المصرية - الطبعة الأولى ١٣٢٥هـ - محمد بن عبدالباقي الزرقاني.

١٤٤- شرح النووي على صحيح مسلم

- المطبعة المصرية - القاهرة - الإمام يحيى بن شرف النووي.

١٤٥- شرف أصحاب الحديث

- دار إحياء السنة النبوية - ١٩٧١م - أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي - تحقيق د. محمد سعيد خطيب أوغلي.

١٤٦ـ شروط الأئمة الخمسة
ـ مكتبة عاطف ـ الأزهر ـ القاهرة ـ الحافظ أبو بكر محمد بن موسى الحازمي.

١٤٧ـ الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى ﷺ
ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م ـ أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي.

١٤٨ـ الشيعة وآل البيت
ـ إدارة ترجمان السنة ـ لاهور ـ باكستان ـ الطبعة الثالثة ـ ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ـ إحسان إلهي ظهير.

(ص)

١٤٩ـ الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)
ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ط. ثالثة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م ـ إسماعيل بن حماد الجوهري
ـ تحقيق أحمد عبدالغفور عطا.

١٥٠ـ صحيح سنن ابن ماجه
ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط. الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م ـ محمد ناصر الدين الألباني.

١٥١ـ صحيح سنن أبي داود
ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط. الأولى ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م ـ محمد ناصر الدين الألباني.

١٥٢ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته
ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ محمد ناصر الدين الألباني.

١٥٣ـ صحيح سنن الترمذي
ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط. أولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ـ محمد ناصر الدين الألباني.

١٥٤ـ الصحيح المسند من دلائل النبوة
ـ دار الأرقم ـ الكويت ـ ط. أولى ١٤٠٥هـ ـ مقبل بن هادي الوادعي.

١٥٥ـ صحوة الرجل المريض
ـ مؤسسة صقر الخليج ـ الكويت ـ ١٩٨٤م ـ موفق بني المرجة.

١٥٦ـ صراع بين الحق والباطل
ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ط. ثانية ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م ـ سعد صادق محمد.

١٥٧ـ الصوارم الحداد القاطعة لعلائق أرباب الإلحاد
ـ دار الهجرة ـ صنعاء ـ ط. أولى ١٤١١هـ ـ محمد بن علي الشوكاني.

١٥٨ـ الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة
ـ القاهرة ـ ١٣٠٧هـ ـ أحمد بن حجر الهيتمي.

١٥٩ـ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة
ـ دار العاصمة ـ الرياض ـ السعودية ـ ط. ثانية ١٤١٢هـ ـ ابن قيم الجوزية ـ تحقيق د. علي بن محمد الدخيل الله.

(ض)

١٦٠ـ ضحى الإسلام
ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ الطبعة العاشرة ـ أحمد أمين.

١٦١ـ ضعيف سنن ابن ماجه
ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط. أولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ـ محمد ناصر الدين الألباني.

١٦٢ـ طبقات الحفاظ
ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ جلال الدين السيوطي.

١٦٣ـ طبقات الحنابلة
ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ أبو الحسين محمد بن أبي يعلى.

١٦٤ـ الطبقات الكبرى
ـ دار التحرير ـ القاهرة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م ـ محمد بن سعد.

(ع)

١٦٥ـ العالم والمتعلم
ـ مطبعة البلاغة ـ حلب ـ الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ ـ أبو حنيفة النعمان.

١٦٦ـ العذاب الذي لاقاه المسلمون على أيدي الغرب
ـ العميد كامل الشرقاوي.

١٦٧ـ عقائد الإمامية
ـ دار كتابخانة ـ طهران ـ إيران ـ محمد رضا المظفر.

١٦٨ـ عقد الدرر في أخبار المنتظر
ـ مكتبة عالم الفكر ـ القاهرة ـ ط. الأولى ١٣٩٩هـ ـ يوسف بن يحيى المقدسي.

١٦٩ـ عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسى ـ عليه السلام
ـ مكتبة القاهرة ـ أبو الفضل الغماري.

١٧٠ـ عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر
ـ مطابع الرشيد ـ المدينة المنورة ـ ١٤٠٢هـ ـ عبدالمحسن بن حمد العباد.

١٧١ـ عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية
ـ دار طيبة ـ الرياض ـ ١٤٠٥هـ ـ ط. أولى ـ أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي.

١٧٢ـ عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي
ـ الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ـ ط. أولى ـ ١٤٠٨هـ د. صالح العبود.

١٧٣ـ عكاظ (جريدة سعودية)
ـ عدد ١٨ محرم ١٤٠٠هـ.

١٧٤ـ عمدة القاري شرح صحيح البخاري
ـ طبعة إدارة المطبعة المنيرية ـ القاهرة ـ بدر الدين محمود بن أحمد العيني.

١٧٥ـ عون المعبود شرح سنن أبي داود
ـ مطبعة المجد ـ ط. الثانية ـ ١٣٨٩هـ ـ محمد شمس الحق آبادي.

(غ)

١٧٦ـ غاية الأماني في الرد على النبهاني
ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ـ محمود شكري الألوسي.

١٧٧ـ غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام
ـ محمد ناصر الدين الألباني.

(ف)

١٧٨ـ فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

ـ دار أولي النهى ـ ط. أولى ـ ١٤١١هـ.

١٧٩ـ فتاوى معاصرة

ـ دار القلم ـ الكويت ـ ط. الخامسة ـ ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م ـ د. يوسف القرضاوي.

١٨٠ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري

ـ مصطفى الحلبي سنة ١٣٧٨هـ ـ السلفية سنة ١٣٨٠هـ ـ القاهرة ـ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.

١٨١ـ فتح المغيث شرح ألفية الحديث للعراقي

ـ نشر المكتبة السلفية ـ المدينة المنورة ـ ط. الثانية ١٣٨٨هـ ـ شمس الدين السخاوي.

١٨٢ـ الفتوحات المكية

ـ دار صادر ـ بيروت ـ محيي الدين بن عربي.

١٨٣ـ الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط. رابعة ـ ١٣٩٧هـ ـ شيخ الإسلام أحمد بن تيمية.

١٨٤ـ الفرق بين الفرق

ـ مكتبة دار التراث ـ القاهرة ـ عبدالقاهر بن طاهر البغدادي.

١٨٥ـ فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام

ـ مكتبة لينة ـ ط. أولى ١٤١٤هـ ـ غالب بن علي عواجي.

١٨٦ـ فرق الهند المنتسبة إلى الإسلام في القرن العاشر الهجري

ـ دار ابن الجوزي ـ ط. أولى ١٤٢٢هـ ـ د. محمد كبير أحمد شودري.

١٨٧ـ الفروق

ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ شهاب الدين القرافي.

١٨٨ـ الفِصل في الملل والأهواء والنحل

ـ مكتبة السلام العالمية ـ القاهرة ـ الإمام ابن حزم الأندلسي.

١٨٩ـ فصل المقال في رفع عيسى ـ عليه السلام ـ حيًّا، وفي نزوله، وقتله الدجال

ـ دار الطباعة المحمدية بالأزهر ـ القاهرة ـ الدكتور محمد خليل هراس.

١٩٠- فقه التمكين عند دولة المرابطين
- دار البيارق - الأردن - عَمَّان - ١٩٩٨م - د. علي محمد محمد الصلابي.
١٩١- الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة
- مكتبة ابن تيمية - الكويت - ط. ثالثة - ١٤٠٦هـ - عبدالرحمن عبدالخالق.
١٩٢- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة
- المكتب الإسلامي - بيروت - ط. الثالثة - ١٤٠٢هـ - محمد بن علي الشوكاني - تحقيق عبدالرحمن المعلمي.
١٩٣- فيض الباري على صحيح البخاري
- المجلس العلمي - دابهيل سورت - الهند - ١٣٥٧هـ - محمد أنور الكشميري.
١٩٤- فيض القدير شرح الجامع الصغير للسيوطي
- مصطفى محمد - ١٣٥٦هـ - عبدالرءوف المناوي.

(ق)

١٩٥- القائد إلى تصحيح العقائد
- المكتب الإسلامي - بيروت - ط. ثانية - ١٤٠٢هـ - عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني.
١٩٦- قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة
- المكتب الإسلامي - بيروت - ١٣٩٠هـ - شيخ الإسلام ابن تيمية.
١٩٧- قضايا في المنهج
- دار مكتبة القدس - صنعاء - ط. ثالثة - ١٤٢٠هـ - سلمان بن فهد العودة.
١٩٨- قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث
- عيسى البابي الحلبي - ط. الثانية - ١٣٨٠هـ - محمد جمال الدين القاسمي.
١٩٩- القول المختصر في علامات المهدي المنتظر
- مكتبة القرآن - بولاق - القاهرة - أبو العباس أحمد بن محمد بن حجر المكي الهيتمي.

(ك)

٢٠٠- الكامل في التاريخ
- دار صادر - بيروت - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م - عزالدين ابن الأثير.

٢٠١ـ الكتاب التذكاري لمحيي الدين بن عربي
ـ القاهرة ـ ١٣٨٩هـ.

٢٠٢ـ كتب حذر منها العلماء
ـ دار الصميعي ـ الرياض ـ ط. أولى ١٤١٥هـ ـ مشهور بن حسن آل سلمان.

٢٠٣ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس
ـ مكتبة التراث الإسلامي ـ تعليق أحمد القلاش ـ إسماعيل بن محمد العجلوني.

٢٠٤ـ الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ
ـ دار الصحابة ـ بيروت ـ ط. أولى ١٤٠٨هـ ـ محمود عبدالرءوف القاسم.

(ل)

٢٠٥ـ لله .. ثم للتاريخ
ـ مكتبة الإيمان ـ الإسكندرية ـ ١٤٢٢هـ ـ السيد حسين الموسوي.

٢٠٦ـ لا مهدي ينتظر بعد الرسول خير البشر
ـ السعودية ـ ١٤٠٠هـ ـ محمد علي الصابوني.

٢٠٧ـ لسان العرب
ـ دار صادر ـ بيروت ـ أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور الأفريقي المصري.

٢٠٨ـ لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق
ـ عالم الفكر ـ القاهرة ـ ط. ثانية ـ عبدالوهاب الشعراني.

٢٠٩ـ لمعة الاعتقاد
ـ دار وهدان للطباعة والنشر ـ الفجالة ـ القاهرةـ موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي.

٢١٠ـ لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية
ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت، ومكتبة أسامة ـ الرياض ـ ط. ثانية ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م ـ محمد بن أحمد السفاريني.

(م)

٢١١ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد
ـ طبعة نشر دار الكتاب ١٩٦٧م، طبعة القدسي ـ نور الدين الهيثمي.

٢١٢ـ مجموعة الرسائل والمسائل
ـ دار الباز ـ مكة المكرمة ـ مصورة عن طبعة المنار ـ شيخ الإسلام أحمد بن تيمية.

٢١٣ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية
ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ـ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد ابن قاسم النجدي.

٢١٤ـ محمد بن عبدالوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه
ـ مطبعة زمزم ـ الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م ـ مسعود الندوي.

٢١٥ـ محمد عمارة في ميزان أهل السنة والجماعة
ـ الرياض ـ ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م ـ أبو مصعب سليمان بن صالح الخراشي.

٢١٦ـ المختار المصون من أعلام القرون
ـ دار الأندلس الخضراء ـ جُدَّة ـ السعودية ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م ـ اختيارات محمد بن حسن بن عقيل موسى.

٢١٧ـ مختصر التذكرة للقرطبي
ـ مطبعة محمد علي صبيح بالأزهر ـ القاهرة ـ ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م ـ عبدالوهاب الشعراني.

٢١٨ـ مختصر صحيح مسلم
ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط. الثالثة ـ ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م ـ الإمام عبدالعظيم المنذري
ـ تحقيق محمد ناصر الدين الألباني.

٢١٩ـ مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن قيم الجوزية
ـ مطبعة المدني ـ القاهرة ـ اختصره الشيخ محمد بن الموصلي.

٢٢٠ـ مختصر لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية
ـ مطبعة المدني ـ العباسية ـ القاهرة ـ تحقيق محمد زهري النجار ـ محمد بن علي بن سلوم.

٢٢١ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين
ـ مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة ـ ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م ـ ابن قيم الجوزية ـ تعليق محمد حامد الفقي.

٢٢٢ـ المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل
ـ طبعة المطبعة المنيرية بالقاهرة ـ طبعة مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٤٠١هـ ـ عبدالقادر بن بدران الدمشقي.

٢٢٣ـ المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة
ـ دار طيبة ـ الرياض ـ السعودية ـ ط. الأولى ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م ـ عبدالإله بن سلمان الأحمدي.

٢٢٤ـ مساجد مصر وأولياؤها الصالحون
ـ مطبعة الأهرام التجارية ـ نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ ١٩٧١م ـ الدكتورة سعاد ماهر فهمي.

٢٢٥ـ المستدرك على الصحيحين مع تلخيص الحافظ الذهبي
ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ الحاكم أبو عبدالله النيسابوري.

٢٢٦ـ المستقبل لهذا الدين
ـ الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ـ رقم(٤) ـ سيد قطب.

٢٢٧ـ المسند ـ دار المأمون للتراث
ـ دمشق ط. أولى ـ ١٤٠١هـ ـ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى التميمي ـ تحقيق حسين سليم أسد.

٢٢٨ـ مشكاة الأنوار
ـ مكتبة الجندي ـ مصر ـ أبو حامد الغزالي.

٢٢٩ـ مشكلات الأحاديث والتوفيق بين النصوص المتعارضة
ـ مطبعة الإمام ـ القلعة ـ القاهرة ـ جمع زكريا علي يوسف.

٢٣٠ـ مشكل الآثار
ـ دار صادر ـ بيروت ـ مصورة عن طبعة حيدر آباد ـ ١٣٣٣هـ ـ أبو جعفر الطحاوي.

٢٣١ـ المصنف في الأحاديث والآثار
ـ تحقيق عامر العمري ـ جامعة مدراس ـ الأعظمي ـ الهند ـ الإمام عبدالله بن محمد بن أبي شيبة.

٢٣٢ـ المصنف ـ نشر المجلس العلمي
ـ ط. أولى ـ ١٣٩٠هـ ـ تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ـ أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني.

٢٣٣ـ مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية
ـ مكتبة الرشد ـ الرياض ـ ط. أولى ـ ١٤٢١هـ ـ أبو عبدالعزيز إدريس محمود إدريس.

٢٣٤ـ معالم في طريق طلب العلم
ـ دار شقراء ـ الرياض ـ ط. ثانية ـ ١٤١٨هـ ـ عبدالعزيز محمد السدحان.

٢٣٥ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب
ـ دار الكتاب ـ المغرب ـ ط. السابعة ـ ١٩٧٨م ـ عبدالواحد بن علي المراكشي ـ تحقيق محمد العريان ـ ومحمد العلمي.

٢٣٦ـ معجم البلدان
ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م ـ أبو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي.

٢٣٧ـ المعجم الوسيط
ـ ط. الثالثة ـ مجمع اللغة العربية ـ إشراف عبدالسلام هارون وآخرين.

٢٣٨ـ المعجم الكبير
ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ـ الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ـ تحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي.

٢٣٩ـ معجم المناهي اللفظية
ـ دار ابن الجوزي ـ الدمام ـ السعودية ـ ١٤٠٩هـ ـ بكر بن عبدالله أبو زيد.

٢٤٠ـ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة
ـ مكتبة حميدو ـ الإسكندرية ـ ط. الثالثة ـ ١٣٩٩هـ ـ ابن قيم الجوزية ـ تصحيح وتعليق محمود حسن ربيع.

٢٤١ـ مقاتل الطالبين
ـ القاهرة ـ ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٩م ـ أبو الفرج الأصبهاني ـ تحقيق السيد أحمد صقر.

٢٤٢ـ المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ـ
مكتبة الخانجي بمصر ـ القاهرة ـ ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م ـ شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي ـ تحقيق عبدالله محمد الصديقي.

٢٤٣ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين
ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ط. ثانية ـ ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م ـ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ـ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد.

٢٤٤ـ مقالات الألباني
ـ دار أطلس ـ الرياض ـ ط. أولى ـ ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م ـ جمعها نور الدين طالب.

٢٤٥ـ مقدمة تاريخ ابن خلدون «كتاب: العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر».
ـ مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ ط. ثانية ـ ١٩٦١م ـ عبدالرحمن بن خلدون المغربي.

٢٤٦ـ المقدمة السالمة في خوف الخاتمة
ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط. أولى ـ ١٤٠٩هـ ـ علي سلطان محمد القاري.

٢٤٧ـ الملل والنحل
ـ مؤسسة الحلبي ـ القاهرة ـ تحقيق عبدالعزيز محمد الوكيل ـ أبو الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني.

٢٤٨ـ المنار
ـ مجلة علمية أدبية تهذيبية ـ مصر ـ السيد محمد رشيد رضا.

٢٤٩ـ المنار المنيف في الصحيح والضعيف (أو: نقد المنقول)
مطبعة الحرية ١٣٨٣هـ ـ طبعة الشام بتحقيق محمود مهدي استانبولي، ومطبعة مكتب المطبوعات الإسلامية ـ ط. أولى ـ ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م ـ تحقيق عبدالفتاح أبو غدة ـ الإمام ابن قيم الجوزية.

٢٥٠ـ المنتقى من منهاج الاعتدال
ـ المطبعة السلفية ومكتبتها ـ القاهرة ـ ١٣٧٤هـ تعليق محب الدين الخطيب ـ شمس الدين الذهبي.

٢٥١ـ منشورات المهدية
ـ تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ـ ١٩٦٩م.

٢٥٢ـ المنقذ من الضلال ـ
ـ مؤسسة الرسالة بيروت ـ أبو حامد الغزالي ـ تحقيق د. عبدالحليم محمود.

٢٥٣ـ من مرقاة المفاتيح
ـ المطبعة الميمنية ـ القاهرة ـ ١٣٠٩هـ ـ علي بن سلطان القاري.

٢٥٤- منهاج السنة النبوية
- مكتبة ابن تيمية - القاهرة - ط. ثانية - ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م - شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - تحقيق د. محمد رشاد سالم.

٢٥٥- من هو المهدي المنتظر؟
- محمد نور الدين مربوبنجر المكي - ط. أولى - ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م - دار الحقيقة للإعلام الدولي - القاهرة.

٢٥٦- المهدية في الإسلام
- دار الكتاب العربي - مصر - الطبعة الأولى - ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م - سعد محمد حسن.

٢٥٧- المهدي المنتظر
- طبعة إسماعيل تمام - ١٩٧٨م - أبو الفضل الغماري.

٢٥٨- المهدي المنتظر بين التصور والتصديق
- دار مكتبة الحياة - بيروت - ط. الثانية - ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م - محمد حسن آل ياسين.

٢٥٩- المهدي المنتظر بين الحقيقة والخرافة
- دار العلوم للطباعة - القاهرة - ط. الأولى - ١٤٠٠هـ عبدالقادر أحمد عطا.

٢٦٠- المهدي المنتظر في ضوء الأحاديث والآثار الصحيحة
- المكتبة المكية - مكة المكرمة - ط. أولى - ١٤٢٠هـ - د. عبدالعليم عبدالعظيم البستوي.

٢٦١- المهدي المنتظر في الميزان
- دار نشر الثقافة - الإسكندرية - عبدالمعطي عبدالمقصود.

٢٦٢- المهدي المنتظر ومن ينتظرونه
- دار الفكر العربي - الطبعة الأولى - ١٩٨٠م - عبدالكريم الخطيب.

٢٦٣- موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان
- المطبعة السلفية - الروضة - الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي - تحقيق محمد عبدالرزاق حمزة.

٢٦٤- الموافقات
- دار ابن عفان - الخُبر - السعودية - ط. الأولى - ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م - أبو إسحاق إبراهيم ابن موسى الشاطبي - تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان.

٢٦٥ـ الموسوعة الحركية

ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٤٠٠هـ فتحي يكن.

٢٦٦ـ موسوعة الطب النفسي

ـ مكتبة مدبولي ـ القاهرة ـ ط. أولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ـ د. عبدالمنعم الحفني.

٢٦٧ـ موسوعة علم النفس والتحليل النفسي

ـ دار سعاد الصباح ـ الكويت ـ ط. أولى ـ ١٩٩٣م ـ د. فرج عبدالقادر طه، وآخرون.

٢٦٨ـ الموسوعة الفقهية

وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ـ الكويت ـ ط. الثانية ـ ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م.

٢٦٩ـ الموسوعة في أحاديث المهدي الضعيفة والموضوعة

ـ المكتبة المكية ـ مكة المكرمة ـ ط. أولى ١٤٢٠هـ ـ د. عبدالعليم عبدالعظيم البستوي.

٢٧٠ـ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة

ـ دار الندوة العالمية ـ الرياض ـ ط. ثالثة ١٤١٨هـ ـ إشراف د. مانع بن حماد الجهني.

٢٧١ـ الموطأ

ـ طبعة دار الشعب ـ القاهرة ـ الإمام مالك بن أنس ـ ترقيم وتعليق وتخريج محمد فؤاد عبدالباقي.

٢٧٢ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال

ـ عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ أبو عبدالله محمد بن أحمد ابن عثمان الذهبي.

(ن)

٢٧٣ـ ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر

ـ مكتب التربية العربي لدول الخليج ـ ١٤٠٧هـ.

٢٧٤ـ نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر

ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آبادي الدكن ـ الهند ـ ط. الأولى ـ ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م ـ عبدالحي بن فخر الدين الحسني.

٢٧٥ـ نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء

ـ دار الأندلس الخضراء ـ جدة ـ السعودية ـ ط. الثالثة ـ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م ـ محمد بن حسن بن عقيل موسى.

٢٧٦ـ نزهة النظر شرح نخبة الفكر
ـ محمد علي صبيح ـ القاهرة ـ ط. الثالثة ـ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.
٢٧٧ـ نزول عيسى ابن مريم آخر الزمان
ـ دار إحياء السنة النبوية ـ الإسكندرية ـ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي.
٢٧٨ـ نشر البنود على مراقي السعود
ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤٠٩هـ ـ عبدالله بن إبراهيم العلوي الشنقيطي.
٢٧٩ـ نظم المتناثر من الحديث المتواتر
ـ دار المعارف ـ حلب ـ ١٣٢٨هـ ـ أبو عبدالله الكتاني.
٢٨٠ـ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب
ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٨٦م ـ شهاب الدين أحمد بن محمد المقري ـ تحقيق يوسف البقاعي.
٢٨١ـ نهاية البداية والنهاية
ـ مكتبة النصر الحديثة ـ الرياض ـ ط. الأولى ـ ١٩٦٨م ـ ابن كثير الدمشقي.
٢٨٢ـ النهاية في غريب الحديث والأثر
ـ طبعة دار الفكر ـ تحقيق الزاوي والطناحي ـ الإمام مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير.
٢٨٣ـ نور الأبصار بحاشية إسعاف الراغبين للشيخ محمد الصبان
ـ طبع عبدالسلام محمد شقرون ـ سيد الشبلنجي.

(و)

٢٨٤ـ وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة
ـ طبعة الدار السلفية ـ محمد ناصر الدين الألباني.
٢٨٥ـ ودخلت الخيل الأزهر
ـ الدار العلمية ـ بيروت ـ ط. أولى ١٣٩١هـ ـ ١٩٧٢م ـ محمد جلال كشك.
٢٨٦ـ وفيات الأعيان وأنباء أنباء الزمان
ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان ـ شمس الدين أحمد بن أبي بكر بن خلكان.
٢٨٧ـ ولاية الله والطريق إليها ـ دراسة لرسالة قطر الولي للشوكاني
ـ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ـ ١٩٧٩م ـ د. إبراهيم إبراهيم هلال.

(ي)

٢٨٨ـ اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر
عبدالحميد أحمد حفني ـ ١٣٦٩هـ ـ عبدالوهاب الشعراني.

* * *

رابعًا: فهرس الموضوعات

تنبيهات عامة

البَابُ الأَوَّلُ

الفَصْلُ الأَوَّلُ

بعض الأحاديث الواردة في شأن المهدي

الْفَصْلُ الثَّانِي

اهتمام العلماء بأحاديث المهدي

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

نُصُوصُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي إِثْبَاتِ حَقِيقَةِ الْمَهْدِيِّ

الْبَابُ الثَّانِي

شُبَهٌ وجوابُها

الفصل الأول

شُبَهٌ عِلمية مصطنعة

الفَصْلُ الثَّانِي

شُبَهٌ عقليَّة سقيمة

الْبَابُ الثَّالِثُ

عُدْوَانُ مُدَّعِي الْمَهْدِيَّةِ عَلَى مَصَادِرِ التَّلَقِّي

الفَصْلُ الأوَّلُ

سُلْطَانُ المَنَامَاتِ

الفَصْلُ الثَّانِي

دِلَالَاتُ خَوَارِقِ العَادَاتِ

الفَصْلُ الثَّالِثُ

دَعْوى رُؤْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ يَقَظَةً بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَالتَّلَقِّي عَنْهُ مُبَاشَرَةً

الْفَصْلُ الرَّابِعُ

الْإِلْهَامُ، وَالتَّحْدِيثُ، وَالْكَشْفُ

الفَصْلُ الْخَامِسُ

ادِّعَاءُ لُقْيَا الْخَضِرِ وَالتَّلَقِّي عَنْهُ

الْبَابُ الرَّابِعُ

الْفَصْلُ الأَوَّلُ

فصل
موقف غريب لابن خلدون

الْفَصْلُ الثَّانِي
حَرَكَتَا الْمَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ، وَالْمَهْدِيِّ الْقَحْطَانِيِّ

تَقْوِيمٌ عَامٌّ لِحَرَكَةِ الْمَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ

الْمَهْدِيُّ السُّودَانِيُّ فِي الْمِيزَانِ السَّلَفِيِّ

الفَصْلُ الثَّالِثُ

ضَوَابِطُ الحُكْمِ عَلَى مُدَّعِي المَهْدِيَّةِ



استدراكان

● الأول: يضاف ص (٣٧٣) السطر السابع:

مَرْوان الْحِمَار: آخر ملوك بني أمية بالشام، ويقال له - أيضًا -: «حمار الجزيرة»؛ لجرأته في الحروب، ويقال: «أصبر في الحرب من حمار».

وقيل: بل العرب تسمي كل مئة عام حمارًا، فلما قارب ملكُ آل أمية مئة سنة، لَقَّبُوا مَرْوان بالحمار، وذلك مأخوذ من موت حمار الْعُزَيْرِ - عليه السلام - وهو مئة عام، ثم بعثهما الله - تَعَالَى.

ويعرف بـ«مَرْوان الجعدي»؛ نسبة إلى مُؤَدِّبِهِ الجعد بن درهم.

● الثاني: يضاف إلى هامش ص (٤٧١) السطر الرابع:

وقد أَصَرَّ «ديليسبس» على أن يُطْرَحَ رديم قناة السويس الناتج عن الحفر على الضفة الشرقية منها دون الغربية، تُرَى هل كان - وقتها - يضع الأساس لخط بارليف؟!